قام الطالب بتصحيح رسالته كما أرادت اللجنة

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

٢٦٦٧

أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم
في الكتاب والسنة

[دراسة تطبيقية لقول عائشة رضي الله عنها «كان خلقه القرآن»]

رسالة مقدمة لقسم الكتاب والسنة في مرحلة الدكتوراه

أعدها

الطالب / أحمد عبد العزيز قاسم الحداد

إشراف

الأستاذ الدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد

١٤١٣هـ

الفصل الثّاني

الأخلاق السُّلوكيَّة المتعدِّية إلى الغير

وفيه خمسة مباحث:

١ ـ الأمانة
٢ ـ الوفاء
٣ ـ الحلم والعفو
٤ ـ الرحمة
٥ ـ الكرم

المبحث الأوّل

(خلق الأمانة)

الأمانة مصدر أمنه يأمنه أمانة إذا وثق بهواطمأنّ إليه و لم يخفه.

قال ابن فارس: "الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان: أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق"(١) .

مأخوذة من الأمن الذي هو ضد الخوف؛ لأن الأمانة لا يُخاف عليها لأنها توضع عند أمين، والأمين ثقة لا يخون(٢) .

أما في الاصطلاح فتعرَّف بأنها:ضد الخيانة، ويقال أيضا بأنها: «صيانة الإنسان كل ما ينبغي صيانته من حقوق أو فروض أو واجبات أو حدود أو أشياء مادية أو معنوية سواء كانت لله تعالى أم للناس»(٣) .

منزلة هذا الخلق في الأخلاق السلوكية:

وهي من الأخلاق الإسلامية العظيمة التي ينضوي تحتها جميع أحوال العبد الدينية والدنيوية،كما علمت من التعريف،إذ هي كلها منوطة بالأمانة فشعائر الإسلام عند المسلم أمانة، وأعمال الحلال والحرام أمانة، وحقوق المسلمين عامة الحسية والمعنوية أمانة، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

ولذا كانت محل عناية القرآن الكريم حيث تحدثت آياته الكريمة عنها حديثا مستفيضا أمرا بها، وتنويها بشأنها وشأن أهلها، ونهيا عن ضدها وهي الخيانة في آيات كثيرة فقد بلغت الآيات المتحدثة عنها من مادة (أمن) فقط سبعا وأربعين آية(٤) .

---

(١) معجم مقاييس اللغة مادة "أمن" ١٣٣/١ .

(٢) انظر: القاموس المحيط ١٩٧/٤ مادة "أمن"، والتوقيف على مهمات التعاريف ص٩٤.

(٣) موسوعة أخلاق القرآن للشرباصي ١٥/٢، وتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم للحياة والأحياء له أيضا ص٣٣٦ .

(٤) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص٨١، ٨٨-٨٩ .

تنويه القرآن الكريم بخلق الأمانة :

أما تنويه القرآن الكريم بهذا الخلق فهو تنويه عظيم دل على عظم منزلة الأمانة عند الله تعالى، وبالغ أثرها في استقامة المجتمع، ووضوح دلالتها على تحلي المرء بمكارم الأخلاق من عدمه، وذلك في آيات كثيرة من الذكر الحكيم منها قوله سبحانه وتعالى:

﴿ إنَّا عرضنا الأمانةَ على السَّمٰواتِ والأرضِ والجبالِ فأبينَ أن يَحملنَهَا وأَشْفَقن مِنها وحَملها الإنسانُ إنَّه كان ظلومًا جهولا ﴾[سورة الأحزاب:٧٢] .

فإن في هذه الآية من التنويه بالأمانة ما يجل عن الوصف، حيث أفادت أن السماوات والأرض والجبال، مع عظم أجرامها وبالغ ثقلها، وشدة قوتها؛ أبيْنَ حملها استصغارا لأنفسها عن حملها، وأشفقن : أي خفن من تحمل تبعاتها، وما ذلك إلا لإدراكها أن تحملها عظيم خطره، وكبير تبعته .

ومع ذلك فحملها الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته، لظلمه نفسه،وجهله بحقيقة ما حمل وما يترتب عليه، والأمانة التي تتحدث عنها الآية هي: "كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهي وشأن دين ودنيا، والشرع كله أمانة"(١) كما قال الحسن البصري وغيره من السلف رحمهم الله تعالى.

فإذا كانت هذه الأجرام العظيمة الثقيلة امتنعن من حمل الأمانة لعظمها، فذلك دليل على عظم خطرها وكبير شأنها عند الله تبارك وتعالى وعند الناس .

الأوامر القرآنية بأداء الأمانة :

أما الأوامر القرآنية بأداء الأمانة فمنها ما جاء في قوله تعالى في آية المداينة: ﴿..فإنْ أَمِن بعضُكم بعضًا فليُؤَدِّ الذي اؤْتُمِنَ أمانتَه وليَتَّقِ الله ربَّه ﴾[سورة البقرة:٢٨٣] .

وفي قوله تعالى: ﴿ إنَّ اللهَ يأمرُكم أن تُؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها .. ﴾[سورة النساء:٥٨] .

وفي هذين الأمرين من التنويه بخطر الأمانة ما يدل على عظمة أمر هذا الخلق، وعظم

---

(١) البحر المحيط ٢٥٣/٧، وانظر: شرح مسلم للإمام النووي ١٦٨/٢.

جُرم التخلي عنه، وذلك أن الآية الأولى: اقترن الأمر بأدائها، بالأمر بتقوى ا لله لإدخال الروع في ضمير السامع، وتربية المهابة في نفسه حتى لا يفرط فيها، وذلك لعظم خطر التفريط فيها على ما سيأتي إيضاحه في (التنويه بشأنها) .

وفي الآية الثانية من تربية المهابة في ضمير السامع ما في الآية الأولى، حيث افتتحت بالاسم الجليل: (إن ا لله) إذ يشعر النفس بعظمة الآمر وعظمة المأمور به فلا يتجرأ على التفريط فيه، إلا أن يكون ضعيف الإيمان أو فاقده .

النهي عن ضدها وهي الخيانة:

ومع ما في هذه الأوامر الصريحة من التشديد في الأمر بأداء الأمانة، والإشارة إلى خطر التفريط فيها، إلا أن الأمر لم يقف عند ذلك، بل لقد استفيد الأمر بها أيضا من النهي القاطع عن ضدها وهي الخيانة التي هي من أخس رذائل الأخلاق وأسوء مساوئها كما لا يخفى، وذلك لأنها تعني: "مخالفة الحق بنقض العهد في السر"(١) وتعني أيضا: "التفريط في الأمانة"(٢) . وهذا الخلق، إنما هو من أخلاق الكافرين والمنافقين، أما المؤمنون فلا، لأن المؤمن قد يطبع على شيء من رذائل الأخلاق، إلا الخيانة والكذب فإنهما يزاحمان الإيمان فينفيانه(٣) .

وقد كان التحذير من هذا الخلق في القرآن الكريم شديدا في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ ياأيها الَّذين آمنُوا لا تَخونُوا ا للهَ والرَّسولَ وتَخونوا أماناتِكم وأنتُم تَعلمون ﴾ [سورة الأنفال:٢٧] ، وهذا نهي عن الخيانة الدينية بتعطيل الفرائض والسنن، أو بالإضمار خلاف ما يظهر المرء وهو النفاق، أو بالغلول في المغانم، أو بعدم النصح لله تعالى ورسوله

---

(١) المفردات للراغب ص ١٦٣ .

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٣٢٩ .

(٣) فقد أخرج الإمام أحمد في المسند ٣٤٩/٢ من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله عليه وسلم: لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرىء، ولا يجتمع الصدق والكذب جميعا، ولا تجتمع الأمانة والخيانة جميعا"، وقال الألباني في الصحيحة برقم ١٠٥٠: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات .

صلى الله عليه وسلم، أو غير ذلك مما يندرج في مسمى الدين. وهو أيضا نهي عن الخيانة الدنيوية وهي المتعلقة بحقوق المسلمين المادية والمعنوية(١)، فكلها شملها النهي المقتضي للتحريم .

وبيل أثر الخيانة في الدنيا والآخرة :

وقد بين في آيات أخرى ماذا يترتب على الخيانة من العقاب، فبين أنه يترتب عليها عدم محبة الله تعالى للخائنين فقال سبحانه: ﴿ إنَّ الله لا يُحبُّ الخائِنين ﴾[سورة الأنفال:٥٨] وعدم محبة الله تعالى للخائنين يعني بغضه لهم، والبغض يستدعي الغضب، وهو يستدعي العذاب.

وقد دل على ذلك أن الله تعالى قرن هذه الصفة بالكافرين والمنافقين كثيرا،وذلك كقوله تعالى: ﴿ إن اللهَ لا يُحبُّ كلَّ خوانٍ كفُور ﴾[سورة الحج:٣٨]، وقوله سبحانه: ﴿ إن الله لا يُحبُّ من كان خوَّاناً أثيما ﴾[سورة النساء:١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿ وإن يُريدوا خِيانَتك فقد خانوا اللهَ من قبلُ فأمكنَ مِنهم واللهُ عليم حكيم ﴾[سورة الأنفال:٧١].

فالآية الأولى والثالثة تثبت الخيانة للكافرين، والثانية للمنافقين(٢)، وغضب الله وعذابه لهؤلاء معلوم من الأدلة الأخرى في القرآن والسنة .

ومما يترتب على الخيانة أن الله تعالى يحبط أعمال الخائنين وتدابيرهم كما قال جل ذكره: ﴿ إن اللهَ لا يَهدي كيدَ الخائِنين ﴾[سورة يوسف:٥٢] أي لا ينفذه ولا يسدده،ولا يهدي الخائنين بكيدهم، فأوقع الفعل على الكيد مبالغة في عدم الهداية لأنه إذا لم يهد السبب علم منه عدم هداية مسببه بالطريق الأولى(٣)، وذلك كما فعله سبحانه وتعالى

---

(١) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٢٣٨ .

(٢) فإنها نزلت في بشر بن أُبيرق حيث سرق درعا لأنصاري، وكان منافقا معلوم النفاق، والقصة مشهورة يرجع إليها في كتب التفسير كتفسير ابن جرير ٥/٢٦٥، وتفسير ابن كثير ١/٥٥٠ .

(٣) درر التنزيل ص ٣١٧، وروح المعاني ٤/١٢/٢٦١ .

مع كفار مكة حينما حاربوا رسوله صلى الله عليه وسلم ونقضوا العهد الذي أخذه الله تعالى عليهم، وعلى كل عاقل في الإيمان به سبحانه،وما يلزم منه من الإيمان برسله،وما جاءوا به من أمور الإيمان والإسلام الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذ ربُّك من بني آدمَ من ظُهورهم ذُريَّتَهم وأشهدَهم على أنفسِهم ألستُ بربِّكم قالوا بلَى شهدنا ﴾ [سورة الأعراف:١٧٢] "فإن هذا العهد استقر في الفطرة وما من نفس إلا وهي تشعر به، ولكن تغلبها ضلالات العادات واتباع الكبراء من أهل الشرك"(١) .

فكفار مكة لما نقضوا هذا العهد حاق بهم ما يحيق بالخائنين من عدم هداية كيدهم كما قال الله تعالى: ﴿ وإن يُريدوا خِيانتك فقد خانوا اللهَ من قبلُ فأمكن مِنهم والله عليم حكيم ﴾[سورة الأنفال:٧١]، وذلك يوم بدر على يد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم، فقتل وأسر صناديدهم وعتاتهم جزاء على تفريطهم في الأمانة ونقضهم ما عاهدوا الله عليه، ﴿ فمن نَكثَ فإنَّما ينكثُ على نفسِه ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيُؤتيه أجرا عظيما ﴾[سورة الفتح:١٠] فهم الذين جنوا على أنفسهم ذلك المصير السيء ، والمعنى: أن من نكث عهده فإن وبال نكثه عليه لأن ذلك نقض للعهد، فانظر إلى عظيم الوبال المترتب على الخيانة، لأنها تفريط للأمانة، وهذا يؤكد ما دلت عليه الأوامر القرآنية بأداء الأمانة وعظيم خطر التفريط فيها .

ويدل على ذلك أيضا تنويه القرآن العظيم بهذا الخلق، وأهله المتحلين به الآتي بيانه الآن .

التنويه بأهل الأمانة في القرآن الكريم :

لذلك نال القائمون بها على وجهها عظيم ثناء الله تعالى وجزيل إكرامه وإنعامه .

والذين نالوا ذلك هم الصفوة المختارة من عباد الله تعالى، من الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وصالحي المؤمنين، وقد نوه القرآن الكريم بهم تنويها عظيما؛ أما الملائكة فكلهم قائم بأدائها على وجهها الكامل؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون

---

(١) روح المعاني ٢٦١/١٢/٤، وانظر التحرير والتنوير ٨٢/١٠ .

ما يؤمرون، غير أن الذي أثني عليه منهم بها هو جبريل عليه السلام فقط، وذلك لمقتضى المهمة التي نيطت به، وهي السفارة بين الله تعالى ، وبين رسله عليهم الصلاة والسلام، وقد أثنى الله تعالى عليه بها في موضعين من كتابه: أولاهما في سورة الشعراء حيث قال سبحانه: ﴿ نَزل به الرُّوحُ الأمين * على قلبِك لتكونَ مِن المنذرين ﴾[١٩٣،١٩٤] .

والثاني في سورة التكوير حيث قال سبحانه: ﴿ إنَّه لقولُ رسولٍ كريم * ذِي قُوَّةٍ عند ذِي العرشِ مكين * مُطاعٍ ثم أمين ﴾[١٩-٢١] .

وأما الأنبياء والرسل فهم أمناء الله في أرضه على شرائعه ودينه وكتبه، لذلك كان هذا الوصف واجبا لهم، ويجب على الأمة اعتقاده فيهم، وقد أثنى الله تعالى به عليهم في آيات كثيرة كما قال عن هود عليه السلام: ﴿ .. وأنا لكم ناصحٌ أمين ﴾[سورة الأعراف:٦٨]، وكما قال عن يوسف عليه السلام: ﴿ إنَّك اليومَ لدينا مكينٌ أمين ﴾[سورة يوسف:٥٤] .

وقص عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام مقالة كل منهم لقومه وهو يدعوهم للإيمان: ﴿ إنِّي لكم رسولٌ أمين ﴾[سورة الشعراء:١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨، والدخان:١٨] .

وقص مقالة ابنة شعيب عليها السلام في وصفها لموسى عليه السلام: ﴿ يا أبتِ استَأجِره إنَّ خير من استأجرتَ القويُّ الأمين ﴾[سورة القصص:٢٦] .

إلى غير ذلك من الآيات الواصفة لهم بهذا الخلق، دون سائر أوصافهم الحميدة، وكل أوصافهم حميد، فدل اختيار وصف الأمانة لأنبياء الله عليهم السلام في هذه الآيات مع كثرة صفاتهم وأخلاقهم الكريمة الحميدة على عظمة هذا الخلق وبالغ منزلته .

وأما المؤمنون فقد كان التنويه بهم بسببه عظيما، حيث اقترن ببيان ما نالوه على الأمانة وغيرها من الأخلاق الكريمة المذكورة، من عظيم الأجر وجزيل الثواب، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ قد أفلحَ المؤمنون ﴾ إلى قوله: ﴿ والَّذين هم لأماناتِهم وعهدِهم راعون * والذين هم على صلواتِهم يُحافظون * أولئِك هم الوارثون * الَّذين يَرثون الفردوسَ هم فيها خالدون ﴾[سورة المؤمنون:١-١١] .

فانظر إلى مبلغ ثناء الله تعالى على المؤمنين لاتصافهم بتلك الأخلاق الكريمة العظيمة، والتي منها (أنهم لأماناتهم وعهدهم راعون) أي محافظون فلا يفرطون بشيء منها، فأثبت لهم الفلاح الذي يعني الفوز في الدنيا والآخرة، وأورثهم الفردوس الذي هو أعلى الجنة(١) .

وذلك هو غاية الإكرام الذي أعده الله لأهل الأمانة كما دلت على ذلك آية المعارج المنوهة بأهل هذا الخلق أيضا، وذلك حيث قال الله تعالى: ﴿ والَّذين هم لأمانَاتِهم وعهدِهم راعون ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئِك في جنَّاتٍ مكرمون ﴾[سورة المعارج:٢٢-٣٥] .

وفي هذه الآيات من التنويه بأهل هذا الخلق وبيان عظيم منزلتهم عند الله تعالى، ما في الآية الأولى،وكفى بذلك فخرا وفضلا وشرفا لأهل هذا الخلق الكريم .

---

(١) كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، أراه فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة" أخرجه البخاري في الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ٤/٢٠ .

تمثل خلق الأمانة
في النّبي صلّى ا لله عليه وسلّم

إذا كانت الأمانة خلقا عظيما في سائر الناس لما لها من الأثر العظيم في صلاح الدين والدنيا،ولذا كانت واجبة على كل مسلم، فإنها في أنبياء ا لله ورسله أعظم، وفي حقهم أوجب وألزم، بل هي من الأخلاق الأساسية الأربع التي يجب توفرها فيهم وهي: (الصدق، والأمانة، والتبليغ، والفطانة) وقد فطرهم ا لله تعالى عليها ليرشحهم بها لحمل رسالاته إلى خلقه، وقد كانوا مضرب المثل في التحلي بهذه الأخلاق العظيمة .

ونبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم قد كان في ذروة الذرى من هذه الأخلاق، وكمالُه فيها فاق كل كمال، كما يشهد لذلك الوقائع والدلائل الآتية :

١ ـ فقد نشأ يتيما مطبوعا على الصدق والأمانة لا يعرف لهما بديلا منذ نشأته وترعرعه،وهو لا يكاد يعرف في أوساط قومه إلا بالأمين، فيقولون: جاء الأمين وذهب الأمين(١)، حتى حل محل الرضا من قلوبهم وعقولهم، كما دل على ذلك احتكامهم إليه في قصة رفع الحجر الأسود عند بنائهم الكعبة المشرفة بعد تنازعهم في استحقاق شرف رفعه ووضعه محله، حتى كادوا يقتتلون فيما بينهم لولا اتفاقهم على تحكيم أول داخل يدخل المسجد الحرام، فكان ذلك الداخل هو محمد صلى ا لله عليه وسلم المرضي لديهم أجمعين "فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا هذا محمد، فلما انتهى إليهم، وأخبروه الخبر قال صلى ا لله عليه وسلم هلم إلي ثوبا، فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده الطاهرة، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه، قال ابن هشام: "وكانت قريش تسمي رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين"(٢) .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٠٧/١ مع الروض الأنف .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٢٨/١ مع الروض الأنف، وطبقات ابن سعد ١٤٦/١ وغيرهما، وأصل القصة في مسند الإمام أحمد ٤٢٥/٣ من حديث مجاهد عن مولاه السائب بن عبد ا لله بإسناد حسن، كما حكاه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي ص ٨٥ .

هكذا كان خلق الأمانة سبباً لترشيح هذا الشاب اليتيم لحل فتنة كادت تشتعل بين بطون قريش فتودي بحياة كثير منهم لولا أن الحكمة العظيمة من صاحب الأمانة العظيمة أطفأتها، وما كان لهذه الحكمة أن تبرز لو لم يكن خلق الأمانة قد مهد الطريق أمامها، مما جعلهم يرضون بحكمه دون أن يتسرب إليهم شك في محاباة أو مداهنة فئة على أخرى، لعلمهم بعظيم أمانته وثقتهم به،

٢ - بل لقد جعلتهم ثقتهم الكبيرة بأمانته صلى الله عليه وسلم ينقلون إلى بيته أموالهم ونفائس مدخراتهم لتكون وديعة عنده، فكان ليس بمكة أحد عندهُ شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده،لما يعلم من صدقه وأمانته، ولم يزل ذلك دأبهم حتى بعد معاداته بسبب دعوته لهم إلى الإيمان با لله تعالى وترك عبادة الأوثان، لا يختلجهم شك في أمانته، وهم له صلى الله عليه وسلم معادون، كما دل على ذلك تركه علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مكة بعد هجرته عليه الصلاة والسلام منها، ليرد ودائع الناس التي كانت عنده، "فأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها، حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم(١) .

الشهادة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمانة :

ولقد شهد له صلى الله عليه وسلم بالأمانة الأعداء والأصدقاء على حد سواء، وذلك دليل على شيوع هذا الخلق فيه، وتسليم الكل له به .

١ - فأبو سفيان زعيم مكة لما كان قبل إسلامه أمام هرقل ملك الروم، لم يستطع أن يخفي هذا الخلق العظيم، وهو الحريص على أن يغمطه حقه أو يطعن فيه بدافع العداء له حينذاك، ولكن لما سأله عماذا يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أجابه أبو سفيان **بأنه:** «يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة»(٢) .

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٣٧ مع الروض الأنف .

(٢) متفق عليه وتقدم غير مرة، وهذا اللفظ أخرجه البخاري في الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد ٣/٢٣٦.

٢ - وأما الأصدقاء: فمنه ما قالته خديجة رضي الله عنها له عليه الصلاة والسلام عند ابتداء تنزل الوحي: ".. فوا لله إنك لتُؤدّي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث.."(١).

٣ - وما قاله جعفر بن أبي طالب عنه في قصته مع النجاشي ملك الحبشة رضي الله عنه وذلك حين سأله عن الدين الذي اعتنقوه فقال جعفر رضي الله عنه: «حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه...»(٢).

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم معروفا بالأمانة لدى الناس كافة ممن عرفه أو سمع عنه.

ولا غرو في أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم بتلك المثابة من الأمانة؛ لأن الله تعالى قد أراد منه أن يكون خاتم أنبيائه ورسله إلى الخلق كافة، ولا يقوم بذلك إلا أمين كامل الأمانة، ينال ثقة الناس فيستجيبون له ويؤمنون به.

ولقد تمثل خلق الأمانة فيه صلى الله عليه وسلم بكل معانيها بعد بعثته كتمثله فيه قبل ذلك، بل بأوضح من ذلك وأجل.

فلقد ائتمنه الله تعالى على تبليغ شرعه وسياسة خلقه، فقام بذلك حق قيام حتى رضي عنه وعن بلاغه المبين، وشهد له بأنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة كما وصلت إليه حتى تم الدين، وذلك حين قال سبحانه: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دِينكُم وأتممتُ عليكم نِعمتي ورَضِيتُ لكم الإسلامَ دينا ﴾[سورة المائدة:٣]، ودل عليه أيضا تأييد الله له بالمعجزات الحسية والمعنوية،وإظهاره على أعدائه، وهذه الأدلة منزلة منزلة أن يقول الحق تبارك وتعالى: صدق عبدي فيما يبلغ عني، كما تقدم إيضاحه(٣).

---

(١) متفق عليه وتقدم أيضا، وهذا لفظ يونس عن ابن اسحاق كما في الروض الأنف ٢٧٤/١.

(٢) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف٨٧/٢ من حديث أم سلمة بإسناد حسن كما بين ذلك د/العمري في السيرة النبوية الصحيحة ١٧٤/١.

(٣) في مبحث الصدق ص ٣٩٩

إخباره صلى ا لله عليه وسلم عن أمانته :

وقد كان عليه الصلاة والسلام يستشعر هذا الخلق العظيم من نفسه الشـريفة فيوضـحه للأمة عندما يقتضي الأمر ذلك كما في الأمثلة الآتية :

١ ـ فلما ارتاب بعض جفاة الأعراب(١) في هذا الخلق العظيـم، مـن جنابـه صلـى ا لله عليه وسلم عمدا وعنادا وتكبرا، بدافع الجشع والنفـاق، وراح يشـكك في عدالـة توزيعـه صلى ا لله عليه وسلم للمغانم، ويقول: كنا أحق بهذا المـال ..، لما قـال ذلـك، قـال عليـه الصلاة والسلام: "ألا تأمنوني وأنا أمين في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء ؟"(٢)

فأنكر عليه الصلاة والسلام عليه قوله، وبين ما هو عليه من الأمانة العظمى التي جعلته أهلا لأن يكون أمينا على وحي ا لله وشرعه .

٢ ـ وكذلك قال في حق اليهودي الذي أراد النبي صلـى ا لله عليـه وسـلم أن يشـتري منه ثوبين إلى الميسرة، فانتهزها اليهودي فرصة لينال من جنابه العظيم، علّه أن يشفي ما في نفسه من الحقد الدفين والحسد الكمين، وقال: إنما يريد محمد أن يذهـب بمـالي، فقـال عليه الصلاة والسلام: "كذب، قد علم أني من أتقاهم لله، وأدّاهم للأمانة"(٣) .

---

(١) وهو الرجل الغائر العينين، المشرف الوجْنَتين، الناشز الجبهة، المحلوق الرأس، المشمر الإزار، الذي قام فقال: يا رسول ا للهو اتق ا لله، فقال النبي صلـى ا لله عليـه وسـلم: "ويلـك أولسـت أحـق أهـل الأرض أن يتقـي ا لله.ﷺ ثم قال فيه: "يخرج من ضئضئي هذا قوم يتلون كتاب ا لله رطبـا لا يجـاوز حنـاجرهم، يمرقـون مـن الدين كما يمرق السهم من الرمّية" قال الراوي: وأظنه قال: لئن أدركتهـم لأقتلنهـم قتـل ثمـود" انظـر فتـح الباري ١٦/١٨٧ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليـد رضـي ا لله عنهمـا إلى اليمـن ٥/٢٠٧، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم برقم ١٠٦٤ مـن حديـث أبـي سـعيد الخـدري رضي ا لله عنه .

(٣) أخرجه الترمذي في البيوع، باب ما جاء في الرخصة في الشراء إلى أجل برقم ١٢١٣، والنسائي في البيوع، باب البيع إلى الأجل المعلوم ٤/٢٩٤، من حديـث عائشـة رضـي ا لله عنهـا، وقـال عنـه الـترمذي: حسـن صحيح .

ومن خلال هذين الموقفين تتجلى لك عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم وكمال حكمته وعدله وحلمه..، حيث يتجرأ مثل هؤلاء الأراذل على مقامه العظيم وهو النبي الرسول المعصوم، الإمام العام والحاكم المطلق، فكان بإمكانه أن ينال منهم ما أراد من العقوبة على تجرئهم الوقح على جنابه بمثل ذلك الكلام، غير أنه صلى الله عليه وسلم لم يؤاخذ أحدا منهما، كما تجلت لك عظمة أمانته من هذا الكلام البليغ المعبر عن الحقيقة التي جعله الله تعالى عليها ليكون أمينا على الدين والدنيا .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الأمانة :

تلك هي بعض أخباره صلى الله عليه وسلم عن هذا الخلق في نفسه، ولقد كان يترجم عن ذلك الخلق أيضا بأقواله فيه ليحث أمته عليه، أو يحذرهم من نقيضه، وأقواله في ذلك كثيرة، ككثرة متعلق مدلول الأمانة، وقد علمنا أن الشرع كله أمانة، لذلك فإن أقواله صلى الله عليه وسلم في الأمانة شاملة لكل أبواب الشرع: الإيمانية، والتعبدية، والسلوكية الذاتية والاجتماعية .

ففي الأبواب الإيمانية بين عليه الصلاة والسلام ارتباط الأمانة بالإيمان في غيرما حديث، ونذكر منها:

١ ـ قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه: "إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة" قال حذيفة: ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال: "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرُها

مثل الوكت(١)، ثم ينام فيظل أثرها مثل المجل"(٢)، إلى أن قال: "فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلا أمينا، حتى يقال للرجل: ما أجلده وما أظرفه وما أعقله! وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"(٣) .

فسمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينزل على قلوب الرجل والمرأة من الإيمان وعلم الكتاب والسنة أمانة، وهذه الأمانة هي الأمانة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ إنا عَرَضنا الأمانةَ ...﴾ [الأحزاب: ٧٢] وهي عين الإيمان، فإذا استمكنت الأمانة من قلب العبد قام حينئذ بأداء التكاليف واغتنم ما يرد عليه منها، وجد في إقامتها"(٤) .

٢ ـ وقد كان عليه الصلاة والسلام يهتم بربط الأمانة بالإيمان فكان كما يقول أنس بن مالك رضي الله عنه "قلما خطب إلا قال: "لا لإيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"(٥) .

---

(١) هو الأثر اليسير، وقيل: هو سواد يسير، وقيل: هو لون يحدث مخالف للون الذي كان قبله ا.هـ، شرح مسلم ١٦٨/٢ .

(٢) هو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها، ويصير كالقبة فيه ماء قليل. ا.هـ، المرجع السابق.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب رفع الأمانة ١٢٩/٨، ومسلم في الإيمان باب رفع الأمانة برقم ١٤٣ .

(٤) حكاه الإمام النووي في شرح مسلم ١٦٨/٢، عن محمد بن إسماعيل التميمي الأصبهاني صاحب كتاب "التحرير شرح صحيح مسلم" وأقره عليه، ونقله عنه أيضا الحافظ في فتح الباري ٤٦/٢٧، وأقره كذلك .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٣٥/٣، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠١/١ إلى أبي يعلى والبزار والطبراني في الأوسط، قال: وفيه أبو هلال ـ الراسي ـ وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وفي التقريب برقم ٥٩٢٣: صدوق فيه لين، وله شواهد من حديث أبي أمامة وابن مسعود رضي الله عنهما، ذكرهما الهيثمي في المجمع ١٠١/١ وعزا الأول للطبراني في الكبير، وفي إسنادهما ضعف، ومن حديث ابن عمر عند الطبراني في الأوسط والصغير ٦١/١، وذكره الهيثمي في المجمع ٢٩٧/١، قال: وتفرد به الحسين بن الحكم الحبر . =

فنفَى الإيمان بتاتا عن فاقد الأمانة، لأن الذي يزع على أدائها والمحافظة عليها هو الإيمان، فإذا فقد الإيمان لم يبق عنده وازع لذلك، فالأمانة مظهر هذا الإيمان القلبي، وترجمانه الواقعي، فمن ضيعها فذلك دليل على فقد الأصل الذي تنبع منه الأمانة وهو الإيمان، وهذا ملموس ومشاهد، فكم نرى من خيانة عند فاقدي الإيمان على مستوى الأفراد والجماعات في كل أرجاء المعمورة نسأل الله تعالى السلامة .

٣ - وفي الأبواب السلوكية، ناط عليه الصلاة والسلام سلوك المرء الذاتي والاجتماعي بالأمانة، وبين أن المرء مسئول عن سلوكه في نفسه، وسلوكه في مجتمعه؛ لأن كل ذلك أمانة عنده وهو مسئول عن أمانته، وذلك حيث قال عليه الصلاة والسلام: "كلُّكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه ــ راوي الحديث ــ فسمعت هؤلاء من النبي صلى الله عليه وسلم، وأحسب النبي صلى الله عليه وسلم قال: "والرجل في مال أبيه راع ومسئول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته"(١) .

فقد سمى النبي صلى الله عليه وسلم جميع من ذكر رعاة، والراعي هو "الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما اؤتمن على حفظه وما هو تحت نظره"(٢)، وأتى بذلك بأسلوب "تمثيل ليس في الباب ألطف ولا أجمع ولا أبلغ منه، فإنه أجمل أولا ثم فصل، وأتى بحرف التنبيه مكررا"(٣) ليرعى انتباه السامعين لأهمية ما سيلقي إليهم فيحفظوه ويعقلوه .

= ومن حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عند الطبراني في الكبير كما في المجمع ٨٦/٣، قال: وإسناده منقطع، فهذه الشواهد بكثرتها تقوي حديث أنس المذكور وترفعه إلى درجة الحسن، لاسيما أن علته هو الراسي، وهو ثقة عند ابن معين، إمام أهل هذه الصنعة، والله أعلم .

(١) أخرجه البخاري في الأحكام، باب قول الله تعالى ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ...﴾ ٧٧/٩، ومسلم في الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل برقم ١٨٢٩ .

(٢) شرح مسلم للإمام النووي ٢١٣/١٢ .

(٣) فتح الباري ١٣١/٢٧ .

(وقد دخل في عمومه حتى المنفرد الذي لا زوج له ولا خادم ولا ولد فإنه يصدق عليه أنه راع على جوارحه حتى يعمل المأمورات، ويجتنب المنهيات فعلا ونطقا واعتقادا، فجوارحه وقُواه وحواسه رعيته)(١) .

ومع ذلك فلم يكتف صلى الله عليه وسلم بهذا العموم، بل لقد نص على الأمانة في مواضع أخرى متفرقة تدعو الحاجة إلى التنصيص عليها لعظم أمر الأمانة فيها وذلك كما في الأمور الآتية :

أ ـ الأمانة في تولية أمور المسلمين، وأقواله صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم :

١ ـ "ما من عبد يسترعيه الله رعيَّةً، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة"(٢) .

٢ ـ وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه: "يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها"(٣) .

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: "من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مَخيطا فما فوقه كان غلولا يأتي به يوم القيامة"(٤) .

---

(١) فتح الباري ٢٧/١٣١-١٣٢ بتصرف يسير .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام، باب من استرعى رعية فلم ينصح ٩/٨٠، ومسلم في الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار برقم ١٤٢، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة، باب كراهية الأمارة بغير ضرورة برقم ١٨٢٦، وأبو داود في الوصايا، باب ما جاء في الدخول في الوصايا برقم ٢٨٦٨، والنسائي في الوصايا، باب النهي عن الولاية على مال اليتيم ٦/ ٢٥٥ .

(٤) أخرجه مسلم في الأمارة، باب تحريم هدايا العمّال برقم ١٨٣٣، من حديث عدي بن عميرة الكندي رضي الله عنه، وأبو داود في الأقضية، باب في هدايا العمال برقم ٣٥٨١، وأحمد في المسند ٤/١٩٢ .

إلى غير ذلك من الأحاديث التي عظَّم فيها النبي صلى ا لله عليه وسلم شأن الأمانة في ولايات المسلمين العامة أو الخاصة .

ب ـ الأمانة في الأموال ونحوها، وهوالنوع الذي لا يكاد الناس يعرفون الأمانة إلا فيه، وأقواله صلى ا لله عليه وسلم في ذلك كثيرة أيضا، ومنها قوله عليه الصلاة والسلام :

١ ـ "أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك"(١).

٢ ـ وقوله: عليه الصلاة والسلام: "إن الخازن المسلم الأمين الذي يعطي ما أمر به فيعطيه كاملا موفورا طيبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدِّقَين"(٢) .

جـ ـ الأمانة في الأحوال الشخصية، والحقوق الزوجية، وهي من أهم الأمانات، وأقواله صلى ا لله عليه وسلم تبين ذلك، وهي كثيرة ومن ذلك :

١ ـ قوله صلى ا لله عليه وسلم: "إن من أعظم الأمانة عند ا لله تعالى يوم القيامة الرَّجلُ يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها" وفي رواية: "ثم ينشر أحدهما سر صاحبه"(٣)، فسمى النبي صلى ا لله عليه وسلم هذا النوع من أعظم الأمانات، لما يترتب على إفشاء ذلك من فساد خُلقي .

د ـ الأمانة في المجالس، وهي نوع مهم من أنواع الأمانات لما يترتب عليها من حفظ الحقوق وصيانة الحرمات، وأقواله صلى ا لله عليه وسلم في ذلك كثيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، باب الرجل يأخذ حقه من تحت يده برقم ٣٥٣٥، من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه، والترمذي في البيوع، باب رقم ٣٨ برقم ١٢٦٤، والدارمي في سننه ٢٦٤/٢، والحاكم في المستدرك ٤٦/٢، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

(٢) أخرجه البخاري في الوكالة، باب وكالة الأمين في الخزانة ١٣٥/٣من حديث أبي موسى الأشعري رضي ا لله عنه، ومسلم في الزكاة، باب أجر الخازن الأمين برقم ١٠٢٣ .

(٣) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة برقم ١٤٣٧، من حديث أبي سعيد الخدري رضي ا لله عنه، وأبو داود في الأدب، باب في نقل الحديث برقم٤٨٧٠ .

١ - "إذا حدَّث رجل رجلا بحديث ثم التفت فهو أمانة"(١) .

أي: إن الحديث ذاك أمانة يجب عليه حفظه كما تحفظ الأمانـات الماديـة، لأن صاحبـه يريد ذلك بقرينة حاله .

٢ - ولقد كان للنبي صلى ا لله عليه وسلم موقف عظيم من مواقف الأمانة في هذا البـاب، يدل على عظم أمانته، وعلى عظم أمانة المجلس، وذلك حينما جاء سيدنا عثمان بن عفان رضي ا لله عنه بعبد ا لله بن سرح إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم ليؤمِّنه ويبايعه، وكان عليه الصلاة والسلام قد أهدر دمه مع النفر الذين أهدر دمهم يوم الفتـح(٢)، فلمـا وقـف على رأسه الشريف وقال له عثمان: بايع عبد ا لله، فنظر إليه النبي صلـى ا لله عليـه وسـلم ثلاثا كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: "أما كان فيكم رجـل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟"فقالوا: ما ندري يا رسـول ا لله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينيك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في نقل الحديث برقم ٤٨٦٨ من حديث جابر رضي ا لله عنه، والـترمذي في البر والصلة، باب ما جاء أن المجالس بالأمانة برقم ١٩٥٩، وقال عنه: حديث حسن، وحسـنه الألبـاني في السلسلة الصحيحة برقم ١٠٩٠، وله شاهد من حديث أنس رضي ا لله عنه عند أبي يعلى ١٠٣٠/٣، كما أفاده الألباني في المرجع السابق .

(٢) وهم عبد ا لله بن خَطَل، وقَيْنَتان له كانتـا تغنيان بهجاء النبي صلى ا لله عليه وسلم والمسلمين، ، وكان ابن خطل قد ارتد عن الإسلام وقتل مولى له مسلما، والحويرث بن نقيد، وكان ممن يؤذي النبي صلى ا لله عليه وسلم بمكة، وآذى ابنته فاطمة وأم كلثوم رضي ا لله عنهما عند هجرتهما إلى المدينـة، ومِقْيَس بـن صَبابـة لقتله أنصاريا وارتداده عن الإسلام، وسارة مولى لبعض بني عبد المطلب وكانت تؤذيه بمكة، ، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد ا لله بن أبي سرح الذي كان قد ائتمنه النبي صلى ا لله عليه وسلم على كتابة الوحي فارتد مشركا، وعاد إلى قريش وافترى الأكاذيب في أمر الوحي عند قريش، وكان أخا لعثمان بـن عفـان رضـي ا لله عنه من الرضاعة، وانظر تفصيل أمر هؤلاء في سيرة ابـن هشـام في فتـح مكـة ٩٢/٤-٩٣ مـع الـروض الأنف للسهيلي، ودلائل النبوة للبيهقي ٥٩/٥ - ٦١ .

"لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين"(١) .

فأعظم بهذه الأمانة التي حالت بينه وبين ما كان يشتهي من سفك دم هذا الذي كان قد ارتد وافترى على رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، فكان قتله في ا لله لو أشار به(٢)، ولكن عظمة أمانته أبت عليه أن يخدشها حتى في إيمائه وهو في موطن حق، بأبي هو وأمي صلى ا لله عليه وسلم .

وهذا يؤكد على مبلغ عظمة أمانة المجالس في الإسلام، وعظم خطر إفشاء أحاديثها.

هـ ـ الأمانة في الاستشارة، وهي من أهم أنواع الأمانات لما يترتب عليها من اعتماد المرء على المشير في أمر قد يكون فيه صلاح دينه أو دنياه أو فسادهما، وقد بين النبي صلى ا لله عليه وسلم أمر هذه الأمانة فقال:

١ـ "المستشار مؤتمن"(٣) أي يجب عليه ابداء الإشارة الصحيحة حسب ما يرى، وإلا كان مفرطا في الأمانة ويعد خائنا، وقد علم ما يترتب على الخيانة من عظيم العقاب .

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على الأمانة في كل شرائع الإسلام التي يضيق بها الحصر هنا وهي تدل جميعها بالالتزام على كمال أمانته صلى ا لله عليه وسلم لكونه كان أوفى من يطبق ما يندب إليه.

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب قتل الأسير ولا يعرض عليه السلام برقم ٤٣٥٩، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي ا لله عنه، والنسائي في تحريم الدم، باب حكم المرتد ١٠٦/٧، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٧٢/٧ إلى أبي يعلى والبزار قال: ورجالهما ثقات، والخبر ذكره البيهقي في الدلائل ٦٠/٥، وابن هشام في السيرة ٩٢/٤ بمعناه، وابن سعد في الطبقات ١٤١/٢ بمعناه أيضا .

(٢) ولأمر ما أراد ا لله عدم قتله، فلقد حسن إسلامه بعد ذلك، وكان له أثر طيب في الإسلام حيث كان صاحب الميمنة مع عمروبن العاص رضي ا لله عنه في فتح مصر، وافتتح أفريقية زمن عثمان رضي ا لله عنه وكان فتح أفريقية من أعظم الفتوح وولي مصر بعد ذلك..، وكانت له مواقف محمودة كثيرة في الفتوح، وتوفي سنة ٥٩ هـ، انظر الإصابة ٣١٧/٢ .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في المشورة برقم ٥١٢٨، والترمذي في الأدب، باب إن المستشار مؤتمن برقم ٢٨٢٢ من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه، وقال عنه: حديث حسن، وله شاهد من حديث أم سلمة رضي ا لله عنه، برقم ٢٨٢٣، ومن حديث عبد ا لله بن الزبير عند الطبراني كما أفاده الهيثمي في المجمع ١٠٠/٨ قال: ورجاله رجال الصحيح .

المبحث الثاني

(خلق الوفاء)

الوفاء في اللغة: ضد الغدر، يقال: وفَى بعهده وأوفى بمعنى، مأخوذ من قولهم: وفى الشيءُ وفِيًّا، إذا تم وكثر، ويقال: أوفاه حقه ووفَّاه بمعنى، أي أعطاه وافيا، واستوفى حقه وتوفَّاه إذا أخذ حقه كاملا(١) .

وفي المفردات(٢) ما نصه: "وفَى بعهده يفي وفاء وأوفى إذا تمم العهد و لم ينقض حفظه، قال: واشتقاق ضده وهو الغدر يدل عليه" .

وفي الاصطلاح هو: "ملازمة طريق المواساة ومحافظة عهود الخلطاء"(٣) .

ويقال أيضا: "هو أداء الحق"(٤) .

منزلة خلق الوفاء في الأخلاق السلوكية :

والوفاء من أخلاق السلوك الاجتماعية العظيمة، التي كان للقرآن الكريم بها عناية فائقة لما له من عظيم الدلالة على تزكية النفوس، وصفاء الفطر، وسلامة الإيمان.

قال الراغب: "والوفاء يختص بالإنسان فمن فقد فيه فقد انسلخ من الإنسانية كالصدق، قال: وقدجعل الله تعالى العهد من الإيمان وصيَّره قِواما لأمور الناس، فالناس مضطرون إلى التعاون ولا يتم تعاونهم إلا بمراعاة العهد والوفاء، ولولا ذلك لتنافرت القلوب، وارتفع التعايش، قال: ولذلك عظَّم الله أمره فقال: ﴿ وأوفوا بِعهدي أوفِ بعهدِكم وإيَّاي فارهبُون ﴾[سورة البقرة:٤٠]، وقال ﴿وأوفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتُم ﴾ [سورة النحل:٩١](٥) .

---

(١) الصحاح للجوهري ٢٥٢٦/٦ مادة (وفى)، وتاج العروس للزبيدي ٣٩٤/١٠ مادة (وفى) .

(٢) ص ٥٢٨ مادة (وفى) .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ٢٥٣، ونقله المناوي في التوقيف ص ٧٢٩ .

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٧٣٠ .

(٥) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٩٢ .

وقد تحدث القرآن الكريم عن الوفاء بأساليب متعددة: أمرا به، ووتنويها بشأنه، وثناء على أهله في آيات كثيرة، بلغت عدتها نحو عشرين آية .

الأمر بالوفاء في القرآن الكريم :

أما الأمر به ففي نحو من إحدى عشرة آية في مجالات مختلفة من مجالات الوفاء، وهي العهود، والكيل والوزن، والعقود، والنذور، وهي التي يجري بها التعامل بين الناس غالبا.

الوفاء بالعهود :

أما العهود فهي قسمان: مع الله جل شأنه، ومع الناس .

العهود مع الله تعالى :

للعباد مع الخالق جل في علاه عهود عامة، وعهود خاصة يجب عليهم مراعاتها والوفاء بها .

العهود العامة :

أما العهود العامة فهي ما أخذه الله على البشرية في عالم الذر الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿ وإذ أخذ ربُّك من بني آدمَ من ظُهورِهم ذرِّيَّتهم وأشهدَهم على أنفسِهم ألستُ بربِّكم قالوا بلى شهدنا أن تَقولُوا يومَ القيامةِ إنَّا كنَّا عن هذا غافِلين * أو تَقُولوا إنَّما أشرك آباؤُنا من قبلُ وكنَّا ذرِّيَّةً من بعدِهم أفتُهلِكُنا بما فعلَ المُبطِلون ﴾[سورة الأعراف:١٧٢،١٧٣]، فهذه الآية الكريمة تقصُّ علينا نبأ هذا العهد العام الذي أخذه الله تعالى على عباده من البشر، وتبين أن الله تعالى أخذ على جميع بني آدم العهد على الإيمان به عند إيجادهم في هذه الحياة، فلا عذر لأحد في التفريط فيه إذ لم يترك الله تعالى لأحد عذرا يتشبث به، فمن لم يؤمن بالله تعالى فقد نقض ما عاهد الله عليه واستحق العقاب المترتب على ذلك .

الأوامر القرآنية بالوفاء بالعهود العامة :

ولرحمته بعباده كي لا ينالهم عذابه المترتب على نقض العهود وعدم الوفاء بها، والى سبحانه أوامره لعباده بالوفاء بما عاهدوه عليه من الإيمان والعبودية، لما في الأوامر الإلهية من وازع على الوفاء بما تدخله في الرَّوْع من خطر المخالفة مع الأمر الصريح الذي تقوم به الحجة، ولا تنفع معه المعذرة .

والأوامر في ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وبعهدِ ا لله أوفُوا ذلكم وصَّاكم بـه لعلَّكـم تذكَّرون ﴾[سورة الأنعام:١٥٢]، (والعهد المذكور هنا عام يشمل العهد بالإيمان، ومـا عهـد ا لله به إليهم قبل هذه الآية من الوصايا، ويشمل أيضا عهود الإيمان والنـذور أو أي عهـد كان)(١) مما يشمله اسم العهد، فالآية الكريمة توجب الوفاء بسـائر العهـود مـع ا لله ومـع الناس، والمؤمن ليس بوسعه أن يترك ما أوجـب ا لله عليه ، فـإن إيمانـه يزعـه عـن ذلـك، وبالتالي فإنـه يحفظ نفسه من عـذاب ا لله المترتب على عـدم الوفـاء بـالعهد كمـا سيأتي بيانه .

وقد أكد طلب الوفاء بالعهد في هذه الآية بعدة أمور منها: الأمر الـذي هـو للوجـوب "أوفوا" ، ومنها: إضافة العهـد إلى ا لله عـز وجـل تفخيمـا لشـأنه، ومنهـا: توكيـد الأمـر بالوصية المسندة إلى ا لله تعالى وهي مقتضية للوفاء بنفسها فضلا عن الأمر .

ومن الآيات الآمرة بالوفاء بعهد ا لله قوله سبحانه: ﴿ وأوفُوا بعهدِ ا للهِ إذا عاهدتُم ولا تنقُضُوا الأيمانَ بعد توكِيدها وقد جعلتُـم ا للهَ عليكـم كفِيـلًا إنَّ ا لله يعلـمُ مـا تفعلـون ﴾ [سورة النحل:٩١]، فإن الخطاب في هذه الآية وإن كان موجَّها لأصحاب رسـول ا لله صلـى ا لله عليه وسلم، إلا أنه عام لكل من تتأتى مخاطبته من العقلاء، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم .

إذا الكل مكلَّف بشرع ا لله سواء كان ممـن أجـاب أو ممـن عصـى وكفـر، ومـن جملـة شرائع ا لله الوفاء بالعهود، والعهد هنا عام لكل ما يجب الوفاء به مما أمر ا لله به أو نهى عنه، ويدخل فيه معاهدة الصحابة رضوان ا لله تعالى عليهم للنبي صلى ا لله عليه وسـلم على الإيمان والنصرة وغيرهما، وكذا عهود الإيمان دخولا أوليا(٢) .

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وأوفوا بالعهدِ إنَّ العهد كان مسئُولا ﴾[سورة الإسراء:٣٤]

---

(١) انظر تفسير أبي السعود ٢٢١/٢ .

(٢) ذكر المفسرون أقوالا في المراد بالعهد هنا ومنها: أنه عام وهو الـذي ارتأيتـه، انظـر تفسـير الفخـر الـرازي ١٠٦/٢٠ .

فإنها أيضا عامة لكل عهد بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الناس(١) .

العهود الخاصة :

وأما الأمر بالوفاء بالعهود الخاصة، فمنها ما أخذها الله على أهل الكتاب من المواثيق على الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم ورسالته، والكتاب الذي سينزله عليه وبيان ذلك للناس حتى يؤمنوا به، ولا يكتموا شيئا من ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿ وإذْ أخذ اللهُ ميثاق الذين أوتُوا الكتابَ لتبيِّننّه للنَّاس ولا تكتُمونَه فنبذوهُ وراءَ ظُهورهم واشترَوا به ثمناً قليلاً فبئسَ ما يَشترون ﴾(٢)[سورة آل عمران:١٨٧] .

إلا أنهم نقضوا هذا الميثاق الذي واثقوا الله به كشأنهم في نقض المواثيق الأخرى التي أخذها الله عليهم، وجحدوا نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحرّفوا صفاته التي يعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، وكتموا صدق نبوته على الناس، بل وافتروا عليه وعلى دينه الحنيف، فطالبهم الله تعالى بالوفاء بما عاهدوا الله عليه، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ يابني إسرائيلَ اذكُروا نعمَتيَ التي أنعمتُ عليكم وأوفُوا بعهدِي أوفِ بعهدِكم وإيَّايَ فارهبُون ﴾[سورة البقرة:٤٠] غير أنهم لم يستجيبوا لأوامر الله ونداءاته المتكررة لهم، وإنما أصروا على جحودهم وضلالهم فاستحقوا غضب الله وأليم عقابه الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿ فبما نقضِهم ميثاقَهم لعنَّاهم وجعلنا قلوبَهم قاسيةً يحرِّفونَ الكَلِم عن مواضِعه ونسُوا حظًا ممَّا ذُكِّروا به ولا تزالُ تطَّلعُ على خائِنةٍ منهم إلا قليلاً منهم فاعفُ عنهم واصفح إنَّ الله يحبُّ المحسنين * ومن الذين قالوا إنَّا نصارى أخذنَا ميثاقهم فنسُوا حظاً مما ذكِّروا به فأغْرينَا بينهَم العداوةَ والبغضاءَ إلى يومِ القيامةِ وسوف يُنبئُهُم الله بما كانوا يَصنعون ﴾[سورة المائدة:١٣،١٤]، أي: سوف يرون جزاء صنعهم الشنيع هذا، في الدنيا والآخرة .

وفي هذا الأسلوب الشديد من الوعيد ما فيه، حيث أبهم المنبأ به لتذهب النفس في

---

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٣٤/٥ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤٣٦/١ .

تفسيره أي مذهب، فإنها لن تخطىء؛ لأن الجُرْم كبير إذ هو نقض العهد الذي عاهدوا الله عليه .

وقد بينت آيات أخرى شناعة ذلك وجزاءه الأليم، ففي سورة البقرة يقول الله تبارك وتعالى في سياق حديثه عن بني إسرائيل: ﴿ الَّذين يَنقضُون عهدَ اللهِ من بعدِ مِيثاقه ويقطَعونَ ما أَمَر اللهُ به أن يُوصلَ ويُفسدونَ في الأرضِ أولئِك هم الخاسِرون ﴾[سورة البقرة:٢٧]، فحكم عليهم بالخسران، وهو شامل لخسران الدنيا والآخرة .

وفي آل عمران في سياق حديثه عنهم أيضا يقول سبحانه: ﴿ إنَّ الذين يَشترونَ بعهد اللهِ وأَيمانِهم ثمناً قليلا أولئِك لا خلاقَ لهم في الآخِرةِ ولا يكلِّمُهم اللهُ ولا يَنظُر إليهم يومَ القيامةِ ولا يُزكِّيهم ولَهم عذابٌ أليم ﴾[سورة آل عمران:٧٧] .

وأي عقاب وجزاء أعظم من هذا، حيث نفى الله تعالى أن يكون لهم نصيب من نعيم الآخرة، ولا يكلمهم الله تعالى كما يكلم أهل طاعته في الدنيا، وأهل النعيم في الآخرة، وذلك لكامل الحَنَق عليهم، ولا ينظر إليهم نظر رحمة ولا يزكّيهم أي: لا يطهرهم من ذنوبهم، بل ينزل عليهم عذابه المؤلم، لا جرم إن هذا لهو الخسران المبين، وما نالوا ذلك إلا لأنهم نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ﴿ والَّذين يَنقضُونَ عهدَ اللهِ من بعدِ مِيثاقِه وَيقطعونَ ما أَمر اللهُ به أن يُوصلَ ويُفسِدونَ في الأرضِ أولئِك لهم اللَّعنةُ ولهم سوءُ الدَّار ﴾[سورة الرعد:٢٥] .

ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى أن يفوا بعهودهم حتى لا يكونوا عرضة لهذا العذاب الأليم فقال: ﴿ ولا تشترَوا بعهدِ اللهِ ثمناً قليلا إنّما عندَ اللهِ هو خيرٌ لكم إن كنتُم تعلمون ﴾[سورة النحل:٩٥]، والذي عند الله تعالى هو عظيم أجره وجزيل ثوابه، كما دل على ذلك الآيات المرغبّة بالوفاء .

الترغيب بالوفاء بالعهد :

فقد رغب الله تعالى بالوفاء بالعهود بما أعده الله لهم من الثواب وبما أثنى به عليهم في محكم الكتاب فقال: ﴿ ومن أوفى بما عاهدَ عليهُ اللهَ فسيُؤتيه أجراً عظيما ﴾[سورة الفتح:١٠] وقد فصل في آيات أخرى عظمة ذلك الأجر فقال: ﴿ إنما يَتذكَّر أُولوا الألبابِ الذين

يُوفونَ بعهدِ الله ولا يَنقُضونَ الميثاق ﴾ إلى قوله: ﴿ أولئِك لهم عُقبى الدَّار * جناتُ عدن يَدخلونها ومن صَلح من آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّياتهم والملائكةُ يَدخلون عليهم من كلِّ باب * سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعم عُقبَى الدار ﴾[سورة الرعد:١٩ – ٢٤]، فترى أن ذلك الأجر العظيم لم يقتصر عليهم بل سرى إلى أصولهم وفروعهم وأهليهم وأي نعيم للمرء أكبر من أن يصحبه فيه أصوله وفروعه وأهليه، لا جرم لا يفرط عاقل بهذا الثناء وذلك الجزاء بعد أن يعلمه وهو قادر على أن يناله إلا أن يكون ممن غلبت عليه شقوته، وأولئك لهم سوء الدار .

الأوامر القرآنية بالوفاء بالكيل والوزن :

كل ما تقدم هو من مجالات الوفاء الذي أمر به القرآن الكريم .

أما المجال الثاني: فهو الوفاء بالكيل والوزن، وهو المجال الذي يتعلق كلية بحقوق الآخرين، وما يترتب عليه من قوام حياتهم ومعاشهم، وهو المجال الذي لا سبيل إلى التساهل فيه؛ لأنه مبني على المشاحة والمقاصاة، فالوفاء فيه يصلح للناس أحوالهم، ويحفظ لهم حقوقهم، ولهذا تكرر الأمر به في القرآن الكريم خمس مرات منها قوله تعالى: ﴿ وأوفوا الكيلَ والميزانَ بالقِسط ﴾[سورة الأنعام:١٥٢]، وقوله سبحانه: ﴿ وأوفُوا الكيلَ إذا كلتم وزِنوا بالقِسطاطِ المُستقيم ﴾[سورة الإسراء:٣٥] .

فانظر إلى الأهمية الكبرى التي يوليها القرآن الكريم على الوفاء بالكيل والوزن، إذ لم يكتف بمجرد الأمر بالوفاء، بل أن يكون بالقسط، وبالقسطاس المستقيم، والقسط هو العدل، والقسطاس الميزان، ويعبر به عن العدالة كما يعبر عنها بالميزان"(١) .

مع أن ذلك مفهوم من الأمر بالوفاء، ولكن جيء به لزيادة التأكيد، والحرص على الإبقاء في الكيل والوزن لما لهما من عظيم الأثر في إصلاح أحوال البشر .

ولما كان في مراعاة الحد من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان، مما يجري فيه الحرج، والشرع الحنيف ينأى بأهله عن سلوكه، أو أن يكلفهم به، لذلك أتبع الأمر به في

---

(١) المفردات للراغب ص ٤٠٣ .

الآية الأولى وهي آية الأنعام بقوله تعالى: ﴿ لا نكلِّفُ نفساً إلا وُسعها ﴾ إشارة "إلى أن الواجب هو بلوغ الوسع في التحري،وأن ما وراءه معفو عنه"(١) تطمينا لقوبهم لئلا يشعروا بالحرج .

كما أتبع الأمر بذلك في الآية الثانية وهي آية الإسراء بالإغراء على تحري العدل بالوفاء في الكيل والوزن فقال: ﴿ ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلا ﴾ والمعنى "أن إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم خير في الدنيا؛ لأنه سبب لرغبة الناس في معاملة فاعله وجلب الثناء الجميل عليه، وأحسن تأويلا أي عاقبة، من آل: إذا رجع، لما يترتب عليه من الثواب في الآخرة"(٢) وذلك غاية ما يطلبه تجار الدنيا وطلاب الآخرة .

فالآيتان أمرتا أولا بتحري القسط في الكيل والوزن، وذلك بحسب الجهد والطاقة بحيث لا يكون هناك تفريط في التحري، فإذا لم يكن تفريط من الكائل أو الوازن أو نحوهما، فلا حرج عليه فيما يند عن إرادته بعد بذل الوسع في التحري .

فتأمل مبلغ عناية القرآن الكريم في الوفاء بالكيل أو الوزن ونحوهما كالمساحة والمقدار، لمَّا كان ذلك يتعلق بحقوق العباد، وذلك نظرا لما جُبِلوا عليه من المشاحة في مصالح الحياة، وذلك ليعلِّم الناس عدم التساهل في حقوق العباد المادية مهما صغرت، وذلك لخطر مسئوليتها .

أما الأوامر الأخرى في الوفاء بالكيل والوزن فقد جاءت على لسان نبي الله شعيب عليه السلام وهو يدعو قومه أهل مدين الذين كان قد تفشَّى فيهم وباء تطفيف الكيل والوزن وبخسهما، بحيث أصبح ذلك لديهم عرفا مقررا، وقاعدة شائعة في كل تعاملهم .

فكان من أول ما بدأ في مرحلة دعوته إيَّاهم أن دعاهم إلى اجتناب هذه الظاهرة السيئة، وخوفهم عاقبة أمرها من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وقد قص الله تعالى من حاله معهم في هذا المجال مواقف متكررة يبدأها بعد دعوتهم إلى عبادة الله تعالى، بالدعوة

---

(١) الكشاف للزمخشري ٤٨/٢ .

(٢) روح المعاني ٧٢/١٥/٥ .

إلى إيفاء الكيل والوزن بالقسط، وعدم بخس الناس أشياءهم، وذلك كقوله تعالى: على لسانه﴿ وإلى مدينَ أخاهم شُعيباً قال يا قومِ اعبدُوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُه قد جاءتكم بيّنةٌ من ربّكم فأوفُوا الكيلَ والميزانَ ولا تَبخسوا النَّاسَ أشياءَهم ولا تُفسِدوا في الأرضِ بعد إصلاحها ذلكم خيرٌ لكم إن كنتُم مؤمنين ﴾[سورة الأعراف:٨٥]، وقوله عز شأنه على لسانه عليه السلام أيضا: ﴿ قال يا قومِ اعبدُوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُه ولا تنقُصُوا المكيالَ والميزانَ إنّي أراكم بخيرٍ وإنّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ مُحيط * ويا قومِ أوفُوا المكيالَ والميزانَ بالقِسط ولا تَبخسوا النَّاسَ أشياءَهم ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسدين ﴾ [سورة هود:٨٤،٨٥]، وكذلك قال في سورة الشعراء: ﴿ أوفُوا الكيلَ ولا تَكونوا مِن المخسِرين * وزِنوا بالقِسطاسِ المُستقيم * ولا تَبخسُوا النَّاسَ أشياءَهم ولا تَعثَوا في الأرضِ مُفسدين ﴾ [١٨١-١٨٣] .

فترى أنه عليه السلام أول ما دعاهم إليه بعد عبادة الله تعالى هو إيفاء الكيل والوزن "جريا على عادة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أنهم كانوا إذا رأوا قومهم مقبلين على نوع من أنواع المفاسد إقبالا أكثر من إقبالهم على سائر الأنواع بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع .

وكان قومه عليه السلام مشغولين بالبخس والتطفيف أكثر من غيره"(١)، بل لقد استشرى فيهم وتأصل في أفئدتهم حتى لم تؤثر فيهم تلك المواعظ البليغة من نبيهم شعيب «خطيب الأنبياء عليه السلام»(٢)، وإنما أنكروا عليه وقالوا له: ﴿ يا شُعيبُ أصلوتُك تأمُرك أن نَترك ما يعبُد آباؤُنا أو أن نَفعلَ في أموالِنا ما نشاءُ إنّك لأنتَ الحليمُ الرشيد ﴾ [سورة هود:٨٧] .

---

(١) روح المعاني ١٧٧/٨/٣ .

(٢) عزا ذلك ابن كثير في قصص الأنبياء ٢٤٢/١ إلى بعض السلف، قال: لفصاحته وعلو عبارته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته. ا.هـ .

قالوا ذلك على سبيل التهكم به والسخرية ليكف دعوته لهم إلى الخير والهدى، ويذرهم وماهم عليه من الضلال والردى .

ولا غرو أن يكون اهتمامه عليه السلام بإيفاء الكيل والوزن بهذه المثابة فإن تطفيف الكيل والوزن يدل على أن فاعله متأصل في مساوىء الأخلاق، من مكر وخديعة وخيانة وطمع وغش وجور وظلم وعدم إنصاف، وبالتالي فهو مِعولُ هدم لكرائم أخلاق المجتمع، ولذا كان عاقبة أمره شديدا كما دل عليه قوله سبحانه على سبيل العموم: ﴿ ويلٌ للمطفِّفين * الَّذين إذا اكتالُوا على النَّاسِ يَستَوفون * وإذا كالوهم أو وَزنوهم يُخسِرون * ألا يظنُّ أولئِك أنَّهم مَبعوثون * ليومٍ عظيم * يومَ يقومُ النَّاسُ لربِّ العالمين ﴾[سورة المطففين:١-٦] .

والويل كناية عن شدة العذاب(١) أو هو واد في جهنم لو سيِّرت فيه جبال الدنيا لماعت(٢)، ولذلك لمَّا أصر قوم شعيب على هذه الجريمة وغيرها، أهلكهم الله تعالى وصب عليهم سوط عذاب حيث أخذتهم ﴿ الصَّيحةُ فأصبَحوا في دِيارهم جاثِمين * كأنْ لَم يَغْنَوا فيها ألاَ بُعداً لِمدينَ كَما بَعِدت ثمود ﴾[سورة هود:٩٤،٩٥] .

الأمر بالوفاء بالعقود :

أما المجال الثالث من مجالات الوفاء الذي أمر به القرآن الكريم فهو العقود، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ يا أَيُّها الَّذين آمنوا أوفُوا بالعُقود ﴾[سورة المائدة:١] .

والعقود: جمع عقد وهو العهد الموثَّق، وأصله اللغوي: الجمع بين أطراف الشيء بحيث يعسر الانفصال بينهما، كعقد الحبال وعقد البناء، ثم استعير ذلك للمعاني نحو عقد البيع والعهد وغيرهما(٣) .

---

(١) فقد قال الزجاج: الويل: كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة، حكاه ابن الجوزي في زاد المسير ٧٩/١ .

(٢) كما جاء عن عطاء بن يسار رحمه الله. انظر تفسير القرآن العظيم ١١٧/١، وأورد في تفسيره آثارا أخرى انظرها هناك أو غيره من كتب التفسير بالمأثور عند الآية ٧٩ من سورة البقرة .

(٣) المفردات للراغب ص ٣٤١، وتفسير البيضاوي ص ١٣٩ بتصرف .

والمراد بها هنا: ما يعم العقود التي عقدها الله تعالى مع عباده وألزمهم بها من التكاليف، وما يعقدونه بينهم من عقود الأمانات والمعاملات ونحوها مما يجب الوفاء به(١).

ومعنى الآية: يا أيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود والعهود في إظهار طاعة الله، أوفوا بتلك العقود التي التزمتم بها .

"وإنما سمى الله تعالى هذه التكاليف عقودا؛ لأنه تعالى ربطها بعباده كما يربط الشيء بالشيء بالحبل الموثق"(٢) فالآية الكريمة تنادي الموصوفين بالإيمان أن يفوا بالعقود التي التزموا بها، ووصفهم بالإيمان تهييجاً لهم على الوفاء بالعقود؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به .

الأمر بالوفاء بالنذر :

أما المجال الرابع من مجالات الأمر بالوفاء في القرآن الكريم، فهو الوفاء بالنذر حيث قال الله تعالى: ﴿ ثم لْيَقْضُوا تَفَثَهم(٣) وليُوفوا نُذورَهم ولْيطَّوَّفُوا بالبيتِ العتيق ﴾[سورة الحج:٢٩] والنذور: جمع نذر وهو التزام قربة لم تتعين في الشرع(٤)، ومنه ما وردت فيه الآية مما ينذره الحاج من أعمال البر في حجه من هدي ونحوه .

وهو ما شملته آية المائدة السابقة؛ لأنه عقد يعقده المؤمن مع الله تبارك وتعالى فإفراده بالذكر من بين سائر العقود يدل على أهمية الوفاء به، وحتى لا يفرط فيه المؤمن فيتخلّى عن عدم الإيفاء به لعدم المطالب به في الدنيا، إذا لا يزع على الإيفاء به إلا قوة الإيمان .

ولذلك كان تهديد الله تعالى للمفرطين به مخيفا حيث قال: ﴿ وما أنفقتُم من نَفقةٍ أو نذرتم من نَذر فإنَّ الله يعلَمه وما لِلظَّالمين من أنصار ﴾[سورة البقرة:٢٧٠] فإذا كان النذر

---

(١) كما استظهره البيضاوي في تفسيره، وانظر روح المعاني ٤٨/٦/٢ .

(٢) التفسير الكبير ١٢٣/١١ .

(٣) أي: ليزيلوا أوساخهم وشعثهم كطول الشعر والظفر ونحوهما، تفسير الجلالين ٥٢/٢ .

(٤) الياقوت النفيس للشاطري ص ٢٦٤ .

يعلمه الله تعالى فإن العبد رهن المجازاة به أداء أو تفريطا، فلا يخادع إلا نفسه إن هو لم يف به .

أما إذا وفَّى به فإنه يكون ذا مكانة عالية عند الله تعالى، كما يدل عليه تنويه الله تعالى بأهل هذا الخلق العظيم في كتابه الكريم .

تنويه القرآن الكريم بأهل الوفاء :

لقد كان تنويه القرآن الكريم بأهل هذا الخلق عظيما وبالغا، وذلك لعظم ما تحلَّوا به من خلق الوفاء الذي يعني أداء ما التزموا به للخالق والمخلوقين على النحو الأكمل، وهو الأمر الذي نكثه كثير من الناس فلم يفوا بما عاهدوا الله عليه، ولا بما التزموه لخليقته، فأُخفقوا في عهودهم ومعاملاتهم .

ولما وفَّى هؤلاء بعهودهم ومعاملاتهم كان ذلك دليلا على كمال أخلاقهم وعلُوّ شأنهم فكانوا أهلا لأن يُثنى عليهم وينوَّه بمكانتهم عند الله تعالى، وكان ذلك في آيات كثيرة من الكتاب العظيم منها قوله سبحانه: ﴿ ... إنَّما يتذكَّر أولُوا الألبابِ * الَّذين يُوفونَ بعهد اللهِ ولا يَنقُضونَ الميثاق ﴾[سورة الرعد:١٩، ٢٠]

فنعتهم الله تعالى بأولي الألباب، أي: أصحاب عقول، حيث هدتهم عقولهم إلى وجوب احترام العهود والمواثيق التي التزموا بها لخالقهم في الإيمان والعبادة، والمخلوقين في المعاملات والسلوك، فلا ينقضون عهدا ولا ميثاقا .

ومنها قوله سبحانه في سياق تعداد صفات أهل البر من عباده في سورة البقرة: ﴿...والمُوفونَ بعهدِهم إذا عاهدوا والصَّابرين في البأساءِ والضَّراءِ وحين البأسِ أولئك الذين صَدقوا وأولئِك هم المتَّقونَ ﴾[سورة البقرة:١٧٧] .

فوصف الله تعالى أهل هذه الأخلاق ومنها خلق الوفاء بأنهم أهل صدق وأهل تقوى؛ وذلك لأنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، واتقوا عذابه وعقابه الذي وعد به الناكثين والخائنين، فتأمل مبلغ هذا الثناء من الملك الجليل المتظمن للتنويه العظيم بأهل تلك الأخلاق الكريمة، تجد التعبير قاصرا عن إدراك كنهه، لما ينطوي عليه من الجزاء الكبير المعد لأولئك الموصوفين بهذه الصفات، إذ هو بحسب مقام المثني والمثيب، جعلنا الله تعالى ممن

نال حظا من ثنائه وجزائه الكريم، فإن جزاءه الكريم لهو الجزاء الأوفى .

ولا غرو أن ينال أهل الوفاء ذلك الثناء وذلك الجزاء العظيم، فإنهم قد تحلوا بذلك الخلق العظيم الذي هو من صفات الحق تبارك وتعالى، فإنه سبحانه ذو الوفاء الذي لا يدانيه وفاء، كما أخبر سبحانه عن نفسه وهو أصدق القائلين بقوله: ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾[سورة التوبة:١١١] والاستفهام للتقرير، ومعناه: لا أحد أوفى بالعهد منه سبحانه، فمن تحلى به فقد تحلى بصفة من صفات مولاه جل وعلا، وإن لم يكن كما هو في المولى جل وعلا،إلا أنه يصدق عليه الوصف، وإن بَعُد الفرق بين حقيقته في الخالق والمخلوق .

كما أنه من صفات أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام قد ضرب المثل في الوفاء، إذ وفّى وفاءً لم يُعرف لأحد من البشر أن ابتلي بمثله، وذلك حينما أمره الله تعالى بأن يذبح ابنه فلذة كبده بيده قربانا له على نعمته عليه إذ أهّله لأن يبني وابنه إسماعيل بيته الكريم ـ الكعبة المشرّفة ـ فما كان منه إلا أن امتثل أمر ربه، وطاوعه ابنه على أمر ربه، وتَلّه للجبين ليحقق أمر الله، فلمّا علم الله صدقه ووفاءه فداه بذبح عظيم، وناداه معبرا عن رضاه عنه وعن وفائه بقوله: ﴿ يا إبراهيمُ قد صَدَّقتَ الرُّؤيا إنّا كذلك نَجزي المحسنين ﴾ [سورة الصافات: الآيات من ١٠١-١١٣] .

كما ابتلاه الله أيضا بكلمات من التكاليف الشرعية كالإمامة على الناس، وتطهير البيت ورفع قواعده، والإسلام(١)، فأتمّهن كما قصّ الله عنه بقوله: ﴿ وإذ ابتلَى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَّهن،قال إنّي جاعلُك للناس إمامـًا قال ومن ذُرِّيَّتي قال لا ينال عهدي الظّالمين ... ﴾[سورة البقرة:١٢٤] .

فاستحق بذلك أن ينوه الله تعالى بوفائه هذا فقال: ﴿ وإبراهيمَ الذي وفّى ﴾[سورة النجم:٣٧] أي: وفّى بجميع ما أمره الله به من التكاليف الشرعية .

وكذلك نبي الله يوسف عليه السلام فإن خُلق الوفاء حمله على أن ينسى ما عمله إخوانه معه من مكر وخديعة بحيث كانوا يهدفون إلى أن يلقوه حتفه حينما ألقوه في

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ص ٢٦ .

غيابة الجُبِّ، ناهيك عما أورثوه أباهم نبي ا لله يعقوب عليه السلام من حزن عميق على فقد ابنه يوسف عليه السلام حتى ابيضّت عيناه من الحزن، ومع ذلك فلمّا وفد إليه إخوانه بعد أن مكنه ا لله من خزائن الأرض قال لهم: ﴿ ألا تَرون أنّي أوفِي الكيلَ وأنا خيرُ المنزِلين ﴾[سورة يوسف:٥٩] هذا هو الوفاء بحقوق الناس عامة، والإخوان والأرحام منهم خاصة، وهذا هو الخلق اللائق من نبي كريم، ولا ريب فهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة و أزكى التسليم .

ما أعده ا لله تعالى لأهل الوفاء من الأجر والجزاء :

وقد أعد ا لله تعالى لأهل هذا الخلق العظيم أجرا كبيرا يدل عليه قوله سبحانه: ﴿ إنّ الأبرارَ يشربونَ من كأسٍ كان مزاجُها كافوراً * عيناً يشرب بها عبادُ ا لله يفجّرونها تفجيرا * يُوفونَ بالنَّذر ويخافون يومًا كان شرُّه مستَطيرا ﴾[سورة الدهر:٥-٧] .

فسماهم ا لله تعالى أبرارا، ومعلوم أن الأبرار لهم صفات كثيرة تدل على عظمة إيمانهم وتعبدهم، ولكن لم يذكر ا لله تعالى في هذه الآية الدالة على مبلغ ثوابهم وأجرهم إلا صفة الوفاء والخوف، وذلك لأن هذا الوصف أبلغ في التوفر على أداء الواجبات؛ لأن من وفى بما أوجبه على نفسه لِله، كان أوفى بما أوجبه ا لله عليه بالأولى(١)، وذلك يدل على قوة الإيمان إذ لا يدفع إلى الوفاء بالنذر إلا قوة الإيمان، وتفاوت الناس عند ا لله تعالى إنما يكون بحسب قوة إيمانهم وضعفه،كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ إنّ أكرمَكم عندَ ا للهِ أتقاكم ﴾[سورة الحجرات:١٣]

جعلنا ا لله من أهل الوفاء والتقوى بمنه وكرمه آمين .

---

(١) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ٧٧٤ .

تمثل خلق الوفاء
في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كان خلق الوفاء من أخلاق النبوة، فما من نبي يصطفيه الله تعالى لنبوته ورسالته إلا غرس فيه من صفات الكمال ومعالي الأخلاق ما يكون بها جليلا في نفسه، وموضع ثقة الناس به، ومصدر تأسيهم به، كما علمت مما قصه الله تعالى عن بعض أنبيائه كإبراهيم ويوسف عليهما السلام، وما ثبت لنبي من خصال الكمال يثبت لغيره من الأنبياء، لأنهم جميعا في عناية الله ورعايته واصطفائه،وغرسٌ خصال المكارم فيهم سواء، لذلك بعثوا كلهم بمكارم الأخلاق، وبعث سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارمها .

لذلك تمثل هذا الخلق العظيم فيه كأوفي ما يكون الوفاء وأعظمه في كل أحواله ومع كل من يتأتى له الوفاء:مع الله تعالى ومع أصحابه، ومع أزواجه ، ومع أقاربه، ومع أعدائه، حتى مع الحيوان والجماد !! بحيث كانت حياته صلى الله عليه وسلم كلها وفاءاً وعرفانا، قبل البعثة وبعدها، وشواهد ذلك يطول ذكرها إن أريد استقصاؤها، ويخرجنا عن سَنن الاختصار، فبحسبنا إذاً ذكر شيء منها ففي ذلك كفاية في الاستدلال .

وفاؤه صلى الله عليه وسلم مع الله تعالى :

أما وفاؤه عليه الصلاة مع الله تعالى، فهو وفاء عظيم بعهوده وطاعته،بامتثال أمره واجتناب نهيه .

أما وفاؤه بالعهود، وهي ما أخذها على عباده في عالم الذر من العهد على الإيمان به إذا هو سبحانه أوجدهم إلى هذه الحياة، فقد كان صلى الله عليه وسلم في قمة الوفاء بذلك، حيث نشأ على الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام ولم يسجد لصنم قط، بل نشأ على بُغضها وبغض كل عمل من أعمال الجاهلية المخالفة لدين إبراهيم، ولقد نشأ على عبادة الله تعالى على ضوء ما وصله من بقايا دين إبراهيم فكان يدين لِلّه تعالى بها، وظل يتحنث ويتعبد بذلك مدة حياته قبل أن يوحى إليه، وكان لفرط تعبده على تلك الحنيفية الباقية، يذهب إلى غار حراء ويتزود لذلك، فيظل فيه الأيام ذوات العدد، فإذا فني زاده رجع فتزود لمثلها حتى بعثه الله تعالى كما هو معلوم من قصة بدء الوحي، فلما بعثه

بالنبوة والرسالة والشرع الحنيف الذي أوحى به إليه ليبلغه عباده، كان أوفى الناس تطبيقا لذلك؛ اتباعا للمأمور واجتنابا للمحظور، بحيث كانت تطبيقاته لتلك التشريعات تبيانا لها وإيضاحا، وتفسيرا لها وتكميلا، كما قال الله جل ذكره: ﴿ وأنزلنا إليكَ الذِّكرَ لتُبيِّنَ للناسِ ما نُزِّلَ إليهم ولعلَّهم يَتفكَّرون ﴾[سورة النحل:٤٤] .

فهكذا كان وفاؤه صلى الله عليه وسلم لربه في الإيمان والطاعة حتى تحقق بالعبودية وشهد الله تعالى له بها في غير ما آية، كما علمت مما تقدم في التواضع(١) .

وفاؤه لأصحابه :

وأما وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأصحابه، فهو وفاء لم تسمع بمثله البشر، حيث كان عليه الصلاة والسلام يراعي حقوق هذه الصحبة مهما كانت الأحوال والمقتضيات لعدم مراعاة ذلك .

والأدلة على ذلك كثيرة شهيرة ومنها:

١ - وفاؤه صلى الله عليه وسلم لحاطب بن أبي بلتعة(٢) رضي الله عنه، مع فعلته الكبرى التي فعلها،وهي إفشاء سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشد المواقف خطورة، وهو موقف الغزو، الذي لا تغفر البشرية لمثله؛ لأن ذلك تجسس وخيانة عظمى في سياسة الملوك والأمراء والقادة والدول القديمة والحديثة، فقد كتب حاطب إلى مكة يخبر أهلها بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم بجيشه يريد فتح مكة، وأرسل ذلك خفية مع ضعينة له(٣)، فلما أطلع الله نبيه على ذلك، ومكنه من إحباطه،

---

(١) ص٤٣٩.

(٢) بفتح الباء الموحدة والتاء المثناة الفوقية بينهما لام ساكنة، واسم أبي بلتعة: عمرو بن عمير، شهد بدرا والحديبية، وشهد الله له بالإيمان في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ توفي سنة ٣٠ هـ، في خلافة عثمان رضي الله عنه. انظر طبقات ابن سعد ٣/١١٤، وتهذيب الأسماء ١/١٥١، والإصابة ١/٣٠٠ .

(٣) الظعينة: المرأة ما دامت في الهودج، هذا أصلها ثم جعلت المرأة إذا سافرت ظعينة. انظر جامع الأصول ٨/٣٦١.

وراوده أصحابه منهم عمر رضي الله عنه في ضرب عنقه، قال عليه الصلاة والسلام: "إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطّلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم"(١) .

فانظر إلى مبلغ وفائه لأصحابه، وإن عظمت زلة أحدهم أو كبر خطؤه، ما لم يكن في حد من حدود الله، أو تهاون بشرع الله تعالى، فترى هل يدانيه وفاء أحد قط ؟! فهل تتأسى به قادة الأمة الاسلامية اليوم ؟! اللهم أرجو .

وليس هذا هو الموقف الوحيد في عظمة وفائه لأصحابه، بل مواقفه كانت كلها كذلك،

٢ - فقد كان يطلع على منافق معلوم النفاق، يجهد في العمل لهدم الإسلام وإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فيُراود صلى الله عليه وسلم في قتله فيقول: "دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه"(٢) .

فهو عليه الصلاة والسلام لوفائه لأصحابه لا يحب أن يُشاع عنه أنه يقتل أصحابه، حتى وإن كان القتل في الحقيقة لمن يستحقه من المنافقين، ولكن لما كان الناس لا يعرفون حقيقة المنافق ذاك، ولا يعرفون إلا ظاهر أمره، فهو صلى الله عليه وسلم يترك قتله أو تعزيره وفاء لاسم الصحبة التي يعرفها الناس .

٣ - ولم يكن ذلك الوفاء قاصرا على حال حياتهم، بل لقد كان وفاؤه لأصحابه بعد وفاتهم كذلك، وهو الوقت الذي لا يحفظ فيه الوفاء إلا عظيم الخُلُق .

فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا مات أحد من أصحابه على فراشه أو في الغزو شهيدا خلفه في أهله وأولاده خيرا، كما كان منه عليه الصلاة والسلام في قصة أم حبيبة بنت أبي سفيان، وحفصة بنت عمر، وأم سلمة رضي الله عنهنّ، وأولاد جعفر بن

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الفتح ١٨٤/٥، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر برقم ٢٤٩٤، من حديث علي رضي الله عنه .

(٢) متفق عليه وتقدم في مبحث الصبر ص ٤٣٣

أبي طالب وهلمّ جرا،مما سيأتي بيانه في مواضع متفرقة من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأزواجه :

وأما وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأزواجه فكان عظيما أيضا وشواهده كثيرة :

١ ـ فهذه خديجة رضي الله عنها التي تزوجها وهي ابنة أربعين سنة، وكانت له في حياتها معه ظهيرا ونصيرا ونعم معين، قبل البعثة وبعدها، فكانت تعينه على ما يريد، وتشد من أزره، وتبذل له من مالها، وتفرِّج من كربه، وتسليه في حزنه .. إلى أن توفاها الله تعالى وهي في العقد السابع من عمرها، فحفظ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المواقف في حياتها وبعد وفاتها ؛

أما في حياتها فقد عاش معها وهو في رَيعان شبابه ولم يتزوج عليها قط .

وأما بعد وفاتها فإنه لم يزل يذكر صنائعها وأياديها البيضاء معه مدة حياته، بحيث كان الأمر ما أخبرت عنه عائشة رضي الله عنها بقولها فيما ثبت عنها: "ماغِرت على خديجة وما رأيتها، ولكن كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، قالت: فربما قلت له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: إنها كانت وكانت، وكان لي منها ولد"(١) .

وفي رواية قالت: "ما غِرت على امرأة ما غِرت على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين،لِما كنت أسمعه يذكرها، ولقد أمره ربه عز وجل أن يبشرها ببيت من قصَب في الجنّة، وإن كان ليذبح الشاة ثم يهديها إلى خلائلها"(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في الفضائل، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وفضلها ٤٨/٥ .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة ٤٨/٥، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة رضي الله عنها برقم ٢٤٣٥ .

وفي رواية قالت: "استأذنت هالَةُ بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف استئذان خديجة، فارتاح لذلك فقال: "اللهم هالة بنت خويلد" قالت: فغرت فقلت: وما تذكرمن عجوز من عجائز قريش حمراء الشِّدقين، هلكت في الدهر فأبدلك الله خيرا منها"(١) .

وفي رواية أحمد قال لها: "ما أبدلني الله عز وجل خيرا منها، قد آمنت بي إذ كفر الناس، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء"(٢) .

فهكذا كان وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لزوجه التي قد واراها الثرى منذ زمن، فلم ينسها ولم ينس معروفها قط .

٢ - وكذلك كان وفاؤه لسائر أزواجه على السواء .

فلما أنزل الله تعالى آية التخيير وهي قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها النَّبي قل لأزواجِك إن كنتُنَّ تُردنَ الحياةَ الدُّنيا وزِينتَها فتعالينَ أُمتِّعكُنَّ وأسرِّحكُنَّ سراحاً جميلاً * وإن كنتُنَّ تُـردنَ اللهَ ورسولَه والـدَّار الآخـرةَ فـإنَّ الله أعـدَّ للمحسـناتِ منكُـنَّ أجـراً عظيمـا ﴾[سورة الأحزاب:٢٨،٢٩] .

عندئذ بدأ فخير عائشة وطلب منها أن لا تستعجل حتى تستأمر أبويها، وذلك وفاء عظيم منه لهذه الزوجة التي هي حديثة السن، فقد لا تدرك من هي في سنها مصلحتها الكاملة،وما هو خير لها وأبقى، فتغتر بزينة الحياة الدنيا، فتخسر الدنيا والآخرة، فقال لها: "لا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك، وقد علم أن أبويها لم يكونا يأمرانها بفراقه" لما يعلمانه من صالح أمرها عاجلا وآجلا، ولما اختارت الله ورسوله من غير أن تستأمر أبويها، بل قالت: "ففي أي هذا أستأمر أبوي ؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة" وقالت للنبي صلى الله عليه وسلم: "أسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي

---

(١) أخرجه البخاري في الباب السابق ٤٨/٥، ومسلم كذلك برقم ٢٤٣٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد ١١٨/٦، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٢٧/٩ : وإسناده حسن .

قلت" لم يقبل منها عليه الصلاة والسلام هذا الطلب، بل وفى لهن كلهن وقال: "لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها"(١) .

وإنما كان يخبرهن بهذا الذي اختارته عائشة رضي الله عنها؛ لأنه هو الخير، وهو صلى الله عليه وسلم لا يريد لهن إلا الخير، وفاء لهن على صبرهن على لأواء المعيشة التي كان عليها، وطول الصحبة التي أمضينها معه، وذلك هو ما وصَّى به القرآن الكريم حيث قال: ﴿ ولا تَنسَوُا الفضلَ بينَكم إنَّ الله بما تعملون بصيرٌ ﴾[سورة البقرة:٢٣٧] .

وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأقاربه :

وأما وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأقاربه فقد كان على ذلك النحو من الكمال والعظمة، ومن ذلك :

١ - وفاؤه لعمه أبي طالب الذي ربَّاه منذ أن تُوفِّي جده عبد المطلب وهو في الثامنة من العمر إلى أن بلغ أشده واستقل بكيانه عند تزوجه من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

ولما كلفه الله بالنبوة والرسالة، كان نعم المعين له في إبلاغ رسالة ربه، إذ كان يحمي ظهره ويمنع عنه سفهاء قومه، فلم يكن يخلص إليه سوء في حياته لحمايته له، وعلو منزلته بين بطون قريش، فلما حضرته الوفاة وهو مازال على دين آبائه وأجداده، اهتزت مشاعر الوفاء في النبي صلى الله عليه وسلم فحرص جد الحرص على نفعه وإنقاذه من النار، وعلى أن يكسبه خيري الدنيا والآخرة بكلمة واحدة يقولها، وهي شهادة التوحيد، وذلك وفاء له على مواقفه العظيمة معه في صغره وعند بعثته، فجعل صلى الله عليه وسلم يناشده قائلا: "أي عمِّ، قل لا إلهٰ إلا الله أحاجُّ لك بها عند الله" أي يجادل بها عليه ليدخل بها الجنة من غير عمل يمكنه أن يعمله،حيث كان في الاحتضار، وكاد يستجيب له، لولا أن حال بينه وبين ذلك أدعياء الكفر، وقالوا له: أترغب عن ملّة عبد المطلب؟

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٦/٦، ومسلم في الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا ألبتة برقم ١٤٧٥، ١٤٧٨ .

وما زالوا به حتى قال: هو على ملة عبد المطلب، ومات على ذلك، فوجد النبي صلى ا لله عليه وسلم عليه وجدا شديدا، لما يعلمه من العذاب الذي سيلقاه لموته على الكفر بعد أن بلغته الدعوة .

لكن عظيم وفائه عليه الصلاة والسلام لم يزل يغالبه حتى قال: "لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك" غير أن ا لله تعالى لم يشأ ذلك منه، فنهاه عنه حيث أنزل عليه ﴿ ما كان لِلنَّبي والذين آمنوا أن يَستغفِروا للمشركينَ ولو كانوا أولي قُربى من بعدِ ما تبيَّن لهم أنَّهم أصحابُ الجحيم ﴾[سورة التوبة:١١٣] فعندئذ لم يزد عليه الصلاة والسلام على أن قال: "إنك لا تهدي من أحببتَ ولكن ا لله يهدي من يشاء"(١) .

فتأمل مبلغ وفائه له حيث بذل قصارى جهده في إنقاذه، فلما لم تفلح جهوده تلك، همَّ بأن يطلب من ا لله تعالى أن يغفر له، وما ذلك إلا وفاء منه لحدبه عليه وحمايته له، وقربه منه .

وفاؤه لأقاربه من الرضاعة :

وقد كان وفاؤه لأقاربه من الرضاعة على ذلك النحو كمالا وعظمة، حيث ظل عليه الصلاة والسلام يعترف لهم بالفضل، ويتحيَّن فرص الوفاء كلما سنحت فرصة لذلك، وقد كان يفعل من ذلك وسعه، كما كان منه عليه الصلاة والسلام يوم حنين، حيث سبى المسلمون في ذلك اليوم من هوازن وثقيف النساء والذراري والأموال، وكان منهم من بني سعد بن بكر الذين تنسب إليهم حليمة السعدية مرضعة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، فجاء رجل منهم فقال: إنا لو ملحنا ــ أي أرضعنا ــ للحارث بن أبي شمر(٢)،

---

(١) القصة في البخاري في تفسير سورة التوبة ٨٧/٦، والقصص ص ١٤١ من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه .

(٢) الغساني من أمراء غسان في أطراف الشام،كانت إقامته بغوطة دمشق،وأدرك الإسلام، فأرسل إليه النبي صلى ا لله عليه وسلم كتابا بالدعوة إلى الإسلام، فأبى عليه، فقال النبي صلى ا لله عليه وسلم باد ملكه، مات الحارث سنة ٨ هـ، انظر الأعلام ١٥٥/٢، وإعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين لابن طولون الدمشقي ص ١٠٢، والمصباح المضي في كتّاب النبي الأميّ لابن حديدة ٦٢٣/٢ .

والنعمان بن المنذر(١)، لرجونا عطفه، ثم أنشد :

أُمنن علينا رسول الله في كرم   فإنك المرء نرجوه وندخر

أُمنن على نسوة قد كنت ترضعها   إذ فوك تملؤه من مخضها الدرر   الأبيات

فلم يتأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوفاء الذي طال ترقبه إليه، بل قال: "معي من ترون، وأحب الحديث إلي أصدقه، فاختاروا إحدى الطائفتين، قالوا: إنا نختار سبينا، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسلمين فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال:

"أما بعد، فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وقد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا لا ندري من أذن منكم ممن لم يأذن فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم" فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا"(٢) .

فهكذا كان وفاؤه صلى الله عليه وسلم لمن يمُتُّ إليه بقرابة الرضاعة، لقد ظل مستأنيا بهم، يريد أن يرد إليهم ماغنمه منهم، ولما لم يأتوا، وتملكها الصحابة رضي الله عنهم غنيمة حلالا طيبا، بذل جهده في إعادة السبي الذي هو أكرم لهم من المال وأعز، فانظر أي وفاء أجل وأعظم من هذا ؟!

---

(١) اسم لعدد من ملوك الحيرة، أشهرهم النعمان الثالث بن المنذر الرابع، ملك الحيرة إرثا عن أبيه، وكانت تابعة للفرس، وأقره عليها كسرى إلى أن نقم عليه فسجنه، وتوفي مسجونا سنة ١٥ قبل الهجرة، انظر الأعلام ٤٣/٨ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ...﴾ ١٩٥/٥ من حديث المسور بن مخرمة، وانظر الوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزي ٧٠٥/٢، ودلائل النبوة للبيهقي ١٩٥/٥، وخاتم النبيين لأبي زهرة ٦١/٢ .

وهناك صور أخرى كثيرة من وفائه صلى الله عليه وسلم لمراضعه وإخوانه من الرضاعة تعلم من كتب الحديث والشمائل والسير(١) .

وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأعدائه :

وإذا كان خلق الوفاء عظيما في النفس لم يفقد في سائر الأحوال، بل يظل طبعا لها، يوجد عند المقتضي لوجوده ولو كان ذلك عدوا، وهذا من ثبات أخلاقه عليه الصلاة والسلام التي لا تكاد توجد عند غيره، فأعداؤه الذين جهدوا في إطفاء نور دعوته، وكادوا له ولصحابته مكايد عظيمة تترى، لم يتخلف وفاؤه لهم قط، ولقد شهدوا له بذلك وهم له معادون .

فأبو سفيان بن حرب لما سأله هرقل عن وفائه صلى الله عليه وسلم لم يستطع إخفاء ذلك مع بالغ حرصه على ذكر مطعن يدخله في إجاباته له عن أسئلته الكثيرة التي سأله عنها، وهي من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم كما كان يعلمها هرقل .

فقد سأله هرقل بقوله: هل يغدر ؟ فأجابه أبو سفيان بأن: لا، فقال له هرقل: وكذلك الرسل لا تغدر(٢) .

---

(١) من ذلك وفاؤه لأبيه وأمه من الرضاعة المخرج في سنن أبي داود في الأدب، باب باب بر الوالدين برقم ٤٩٤١، ٤٩٤٢، والبيهقي في الدلائل ٥/٢٠٠، وفي طبقات ابن سعد ١/١٠٨-١٠٩، قصة إكرامه لأخته الشيماء، وكذا في مكارم الأخلاق للطبراني ص ٢٦١ رقم ٤٠٥،، وفي الدلائل للبيهقي ٥/١٩٩ خبر بعثه إلى ثويبة مولاة أبي لهب، إحدى مراضعه عند الولادة بصلة وكسوة من المدينة، ثم إرادته أن يصل من بقي من قرابتها بعد موتها غير أنه قيل له لم يبق أحد منهم، وكذا في الروض الأنف للسهيلي ٣/٦٧ .

(٢) تقدم تخريجه ص٣٩٨ ونحو هذه الشهادة شهادة مكرز بن حفص حينما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن سبب حمله السلاح في عمرة القضاء وهم على عهد منه بعدم القتال، فقال له مكرز: ما عُرِفتَ صغيرا ولا كبيرا بالغدر، تدخل بالسلاح على قومك، وقد شرطت لهم أن لا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف في القرب؟! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إني لا أدخل عليهم بالسلاح، فقال مكرز: هذا الذي تعرف به، البر والوفاء، انظر البداية والنهاية ٤/٢٣١ .

فأي شهادة أكبر من شهادة عدو حريص على إبداء المثالب لو وجدها، وطمس الحقائق لو قدر عليها ؟ وقديما قالوا:

« والفضل ما شهدت به الأعداء »

أو من شهادة ملك عنده من نبأ المرسلين، فيقول الحق لا يمنعه عن ذلك رغبة أو رهبة؟!

ولقد كان وفاؤه صلى الله عليه وسلم لأعدائه عظيما بحيث لا يقدر على مثله أحد غيره؛ لأنه ذو الخلق العظيم، وصور وفائه لأعدائه كثيرة ومنها:

١ - من أجلها وفاؤه لهم بشروط عقد صلح الحديبية في العام السادس من الهجرة، وهي الشروط التي امتعض منها كثير من الصحابة، ومنهم من أكابرهم، كعمر رضي الله عنه، وذلك لبالغ قسوتها على المسلمين، كما يتراءى في بادىء الرأي، فلم تكن عقول الأكثرين تتصور قبول مثل ذلك، مع ما في المسلمين من قوّة يومئذ، لاسيما وأنهم لم يجيئوا لقتال، وقريش تعلم ذلك، ومع ذلك أصرت على إملاء شروط مليئة بالعنجهية والكبر والأشر والبطر، مما يعظم على قلوب الأحرار التي لم يؤيدها الوحي قبول مثل ذلك، وكان من تلك الشروط القاسية «أن من أتى المسلمين من المشركين ردوه إليهم، ومن أتاهم من المسلين لم يردوه» وما كاد عقد الصلح يمضي حتى جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو(١) - مندوب قريش لإجراء المفاوضة - يرسُف(٢) في قيوده مستصرخا،

---

(١) وكان من السابقين إلى الإسلام، وممن عذب بسبب إسلامه، ولما أعاده النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم إلى مكة ظل فيها إلى أن علم بقصة أبي بصير - الآتي ذكرها - ففرّ إليه وكان من أمرهما ما ستعلمه، وأول مشاهده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة الفتح وأسلم أبوه فيها، ثم لم يزالا مجاهدين في الشام إلى أن توفيا في خلافة عمر رضي الله عنهم أجمعين. انظر الاستيعاب مع الإصابة ٣٤/٤، وأسد الغابة ١٦/٥، وتهذيب الأسماء ٢٠٦/٢ .

(٢) الرسف: مشي المقيد إذا جاء يتحامل برجله مع القيد، النهاية ٢٢٢/٢ .

يريد أن ينقذ من أيدي المشركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه(١)، وقال: يا محمد قد لجَّت(٢) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: صدقت، فرده إليه، وأبو جندل رضي الله عنه ينادي: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ إنها لصرخة تهزّ الوجدان، ولكن هيهات أن تؤدي إلى إخلال بالوفاء من صاحب الخلق العظيم !!

فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال له: "يا أبا جَندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم"(٣) .

فأي وفاء أبلغ من هذا الوفاء الذي لم يكد يتقبله بعض كبار الصحابة لولا طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فلقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ وهو الرجل المُلْهم ـ يذهب تارة إلى أبي بكر وتارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول: "ألسنا المسلمين ؟ أليسوا المشركين ؟ ألستَ رسول الله ؟!! فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني، ويقول أبو بكر: أشهد انه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان من آثار ذلك الوفاء الفرج والمخرج الذي رجاه النبي صلى الله عليه وسلم حيث كانت هذه الشروط العاتية سببا للإدالة على قريش وفتح مكة والنصرة للمستضعفين، بما يطول ذكره هنا وسيأتي بيانه في أخلاقه القيادية إن شاء الله تعالى(٤).

وعندئذ فرح المؤمنون بنصر الله، وعلموا مبلغ حِكمة رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) يقال: لبَّبه وأخذ بتلبيبه، إذا جمعتَ ثيابه عند صدره ونحره ثم جررته، النهاية ١/١٩٣ .

(٢) أي: فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا .

(٣) والقصة أخرجها البخاري في الشروط باب الشروط في الجهاد ٣/٢٥٢ ـ ٢٥٨ وفي المغازي، باب غزوة الحديبية ٥/١٦٢، وفي سيرة ابن هشام ٤/٢٨،٢٩ مع الروض الأنف للسهيلي نحوه.

(٤) انظر ص ١٢٧٧

وأدركوا عاقبة الوفاء والطاعة، وما كانوا سيجنون تلك الثمار اليانعة بتلك البساطة والسهولة لو أنهم أخلوا بخلق الوفاء .

٢- ومن وفائه عليه الصلاة والسلام لأعدائه على ذلك النحو، إرجاعه إليهم أبا بَصير(١) رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدَفَعَه إلى الرجلين فخرجا به .

فانظر إلى مبلغ وفائه لهم حيث رد إليهم هذا الرجل المؤمن وقد فرَّ بدينه، ولقد كان عاقبة هذا الوفاء:الفرج والمخرج له ولإخوانه المستضعفين .

فقد خرج مع الرجلين الذين جاءا إليه "حتى بلغ ذا الحُليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم. فقال أبو بصير لأحد الرجلين: وا لله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيِّدا، فاستلَّه الآخر، فقال: أجل، وا لله إنه لجيد،لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه، فضربه حتى برَد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم حين رآه: "لقد رأى هذا ذُعْراً" فلما انتهى إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم قال: قتل وا لله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبي ا لله قد وا لله أوفَى ا لله ذِمتَّك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني ا لله منهم، قال النبي صلى ا لله عليه وسلم: "ويلُ امِّه مِسعرُ حرب(٢)، لو كان له أحد" فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيف البحر وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابه، فوا لله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم تناشده با لله والرحم لما أرسل

---

(١)واسمه عتبة بن أسد الثقفي، مشهور بكنيته، وستأتي قصته في سياق الحديث هذا، وتوفي في ساحل البحر حيث كان يقيم مع من فرَّ إليه من المؤمنين، وذلك قبل فتح مكة، ودفن هناك، انظر أسد الغابة ١٤٩/٥، والاستيعاب بهامش الإصابة ٤٥٢/٢، وتهذيب الأسماء ١٨٠/٢ .

(٢) أي: مولعها .

إليهم فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلى ا لله عليه وسلم إليهم"(١) .

فهكذا كانت عاقبة الوفاء، وهكذا تكون آثار الأخلاق العظيمة دائما وأبدا،

٣ ـ وكان من وفائه لأعدائه أيضا، ما أخبر عنه حذيفة بن اليمان رضي ا لله عنه بقوله: "ما منعني أن أشهد بدرا إلا أني خرجت أنا وأبي حُسَيل، قال: فأَخَذَنا كفار قريش وقالوا: لعلكم تريدون محمدا؟ قال فقلنا: ما نريد إلا المدينة، فأخذوا منا عهد ا لله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه، قال: فأتينا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فأخبرناه الخبر، فقال: "انصرفا نفي لهم بعهدهم، ونستعين ا لله عليهم"(٢) .

فتأمل مبلغ وفائه عليه الصلاة والسلام للكفار الذين يقاتلونه في مثل هذه الصورة، والتي لا يجب فيها الوفاء، لأنه يعني ترك الجهاد مع الإمام االذي تُقَدَّم طاعته على الالتزام بالوفاء للأعداء البغاة،غير أن النبي صلى ا لله عليه وسلم أراد أن لا يشيع عنه ولا عن أصحابه نقض العهد ولا عدم الوفاء، لما هو عليه من المحبة لمعالي الأخلاق وتحليه بعظيمها، لأن المشيع عليهم لا يذكر تأويلا ولا يعرف حكم ا لله تعالى في ذلك تفصيلا.

وكم له من مواقف الوفاء عظيمة،مع أعدائه الذين أجهدوا أنفسهم لإطفاء نور ا لله الذي جاء به، وأجهدوه ـ بأبي هو وأمي ـ في دفعهم عن ذلك، وفي دعوته إياهم إلى الهدى والرشاد، كانت عواقبه محمودة، وثماره عظيمة جليلة .

كذلك كان وفاؤه صلى ا لله عليه وسلم مع أبناء جنسه من البشر!!ولا ريب بأنك قد عجبت من مبلغ وفائه معهم على اختلاف أصنافهم وأحوالهم، وهو صلى ا لله عليه وسلم لا يتغير وفائه على كل حال .

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٥٧/٣، من حديث المسور بن مخرمة ومروان يصدق بعضها بعضا .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب الوفاء بالعهد برقم ١٧٨٧، وانظر شرح مسلم للإمام النووي ١٤٤/١٢ .

وفاؤه صلى الله عليه وسلم للحيوان البهيم :

وإن تعجب فعجب وفاؤه صلى الله عليه وسلم للحيوان البهيم أو الجماد، فإن الوفاء لمثل هؤلاء عزيز جدا، ولكن كان من النبي صلى الله عليه وسلم سجيّة لا تتغير .

ومن صور ذلك: ما ثبت أن ليلى امرأة أبي ذر رضي الله عنهما أقبلت بعد غزوة ذي قَرَد(١) فقالت: يا رسول الله إني نذرت لله أن أنحرها إن نجّاني الله عليها، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "بئس ما جزيتها، أن حملك الله عليها ونجّاك بها ثم تنحرينها ؟!، إنه لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي فارجعي إلى أهلك على بركة الله"(٢) .

فلقد تعجب عليه الصلاة والسلام على هذه المجازاة التي جازت بها الناقة، إشارة منه إلى أنه كان ينبغي أن تفي معها بالإحسان إليها في الإطعام والرعاية، لا أن تنحرها، ثم لم يقرها على ذلك النذر .

وفاؤه صلى الله عليه وسلم للجماد :

وأما وفاؤه صلى الله عليه وسلم للجماد، فمن ذلك ما كان للجذع الذي كان يخطب عليه، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يقوم يوم الجمعة يخطب عليه، فقالت امرأة من

---

(١) وكانت سنة ست من الهجرة، وجزم البخاري أنها كانت قبل خيبر بثلاث ليال، انظر السيرة النبوية لأبي شهبة ٣٦٧/٢ .

و(ذو قرد): ماء على مسافة ليلتين من المدينة، بينها وبين خيبر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج إليها في طلب عيينة بن حصن حين أغار على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم. انظر مراصد الاطلاع ١٠٧٦/٣، وسيرة ابن هشام ٣/٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/٤ وأصل القصة في الصحيحين .

وفي مقابل هذه القصة قصة المراة التي جاءت إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله إني نذرت إن انصرفت من غزوتك سالما غانما، أن اضرب على رأسك الدف، قال: إن كنت نذرت فأوف بنذرك وإلا فلا" أخرجه أبو داود في الأيمان والنذور برقم ٣٣١٤، فأذن لها أن تفي بنذرها لما لم يكن في ذلك معصية .

الأنصار أو رجل: يا رسول الله ألا نجعل لك مِنبرا ؟ قال: "إن شئتم" فجعلوا له منـبرا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاح الجذع صياح الصبي، ثم نـزل صلـى الله عليـه وسلم فضمه إليه فسكن"(١) .

فانظر كيف كان وفاء النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الجذع الجماد حيث نزل وضمّـه إليه ليسكن، فلما التزمه سكت، فقال عليه الصلاة والسلام: "والذي نفس محمد بيده لـو لم ألتزمه لما زال هكذا حتى يوم القيامة، حزنا على رسول الله صلى الله عليـه وسـلم(٢)، فلذلك كان ذلك الوفاء من النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الجماد الذي لا يعقـل،والـذي أنطقه الله تعالى بذلك الصوت،وهو الذي ينطق كل شيء سبحانه،ليكون دليلا من دلائل نبوته، ومعجزة من معجزاته الكبرى، وهكذا يكـون وفـاء صـاحب الوفـاء العظيـم دائمـا وأبدا، فعليه من الله أفضل الصلاة والتسليم، ورزقنا الوفاء الكامل لله ولرسوله وللمؤمنين إنه ولي ذلك والقادر عليه .

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الاسلام ٢٣٧/٤، وفي الجمعة، باب الخطبة على المنـبر ١١/٢ من حديث أنس رضي الله عنه، وانظر شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم لابن كثير ٢٩٨/١ — ٣١١ لتقف على طرقه الكثيرة .

(٢) كما في بعض طرق الحديث، انظر الشمائل لابن كثير ص ٢٢٩ .

المبحث الثالث

(خلق الحلم والعفو والصفح)

الحِلْمُ في اللغة: ترك العجلة، قال ابن فارس: "الحاء واللام والميم أصول ثلاثة: أحدها: ترك العجلة ... وذكر الأصلين الآخرين ثم قال: فالأول خلاف الطَّيش يقال: حلُمت عنه أحلُم، فأنا حليم"(١) .

وفي القاموس المحيط(٢): "الحِلْم بالكسر: الأناة والعقل وجمعه أحلام وحلوم، ومنه قوله تعالى: ﴿ أم تأمُرُهم أحلامُهم بهذا ﴾[سورة الطور:٣٢] ويقال: هو حليم، وجمعه حلماء وأحلام، وقد حُلُم فلان بالضم حلما، وتحلَّم إذا تكلفه" .

وفي الاصطلاح: هو ضبط النفس والطبع عن هَيَجان الغضب مع القدرة على ذلك"(٣)

ويقال هو: (الطمأنينة عند سَورَة الغضب) ويقال أيضا: (هو تأخير مكافأة الظالم)(٤) .

وجميع هذه التعاريف متقاربة من حيث دلالتها؛إذ هي تعني عدم المسارعة بالانتقام عند سورة الغضب، والعلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي ظاهرة، لأن الأناة وترك العجلة تنشأ عن ضبط النفس عن الطيش الذي يحدثه هَيجان الغضب فيحاول إيصال النقمة إلى من أثار فيه ذلك الخلق السيء وهو الغضب .

غير أن المعنى الاصطلاحي الآخر الذي أفاده صاحب التعريفات يفيد معنى زائدا، وهو حصول الطمأنينة، وذلك غير الضبط المفاد أولا، لأن الطمأنينة تعني أن ذلك يكون سجِّية في النفس،وأنها لا تحتاج إلى مغالبة، وهذا معنى راق في الحلم .

ويمكن توجيهه على أن الحلم درجات، فأول درجاته يكون بالمغالبة، وآخرها يصبح سجَّية. وهذا فيمن كان حلمه مكتسبا، لكن هناك من يكون حلمه وهبِيًّا وفطريا فهذا

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٩٣/٢، مادة (حلم) .

(٢) ٩٩/٤ .

(٣) المفردات للراغب ص ١٢٩، وتهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٢٣ .

(٤) التعريفات لجرجاني ص ٩٢ .

لا يكون إلا طمأنينة،وهو ما كان لدى أنبياء ا الله ولدى من شاء ا الله له ذلك من العباد، ولا شك أن هذا الحلم أعلى مكانة، لأنه يكون من نفس كاملة الرضا با لله تعالى وبقضائه وقدره الأزليين .

منزلة هذا الخلق في الأخلاق السلوكية :

والحلم من حيث هو كسبي أو وهبي يعد خلقا من الأخلاق القرآنية الحميدة التي يترتب عليها صلاح الحال وهدوء البال، وهو فرع من فروع الصبر الذي يترتب عليه محبة ا الله تعالى كما علمته في بابه .

وكما دل عليه قول النبي صلى ا الله عليه وسلم لأَشج عبد القيس: "إنَّ فيك لخصلتين يحبهما ا الله ورسوله الحلم والأناة"(١) .

والأناة هي التثبت والوقار(٢) .

عناية القرآن الكريم بالحلم :

ولما كان الحلم بتلك المكانة بحيث كان محبوبا لله جل وعلا، كانت عناية القرآن الكريم به كبيرة، حيث وردت مادة (الحلم) نحوا من ثماني عشرة مرة منسوبا إلى ا الله تعالى، أو ثناء به على بعض أنبيائه عليهم الصلاة والسلام .

وورد الحث عليه في أيات أخرى من معناه لا من لفظه، وثناء به كذلك على بعض عباده .

الحلم في جناب ا الله تعالى :

أما إثباته لله تعالى فقد ورد في إحدى عشرة آية مقترنا ببعض صفاته الأخرى، وهي: المغفرة والعلم والغنى والشكر، بحسب ما تقتضيه الآية من المناسبات البديعة .

وذلك كقوله تعالى: ﴿ وا الله غفورٌ حليم ﴾[سورة البقرة:٢٢٥] في خمس آيات، وقوله

---

(١) أخرجه مسلم وتقدم ذكره وتخريجه ص ٩ .

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٣٦/٤، والفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ١٩٧ .

تعالى: ﴿ وا لله غني حليم ﴾[سورة البقرة:٢٦]، وكقوله تعالى: ﴿ وا لله عليم حليم ﴾[سورة النساء:١٢] في ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿ وا لله شكور حليم ﴾[سورة التغابن:١٧] .

فهذه الآيات تثبت صفة الحلم لله تعالى فنؤمن بها كما جاء عن ا لله على مراد ا لله سبحانه وتعالى.

وقال الراغب: "ومتى أطلق الحلم في حقه تعالى فإنه يراد به العمل بمقتضاه وهو العفو دون انفعال يعرض له"(١) غير أن مقتضى الحلم لا يقتصر على العفو الذي أفاده الراغب، بل أيضا على تأخير العقوبة كما هو مقتضى الدلالة اللغوية للفظ الحلم، وكما هو ظاهر الأثر من حلم ا لله تعالى على بعض عباده، فإنه تعالى قد يعفو مطلقا، وقد يؤاخذ بعد التأني بصاحب الذنب كما هي سنته في أتباع الرسل وغيرهم من العصاة ،

ولذلك قال الزجاج(٢): "وليس قول من قال: إن الحليم هو من لا يعاقب بصواب، أما سمع قول الشاعرالفصيح :

حليما إذا ما نال عاقب مجملا   أشد العقاب أو عفا لم يثرب"(٣)

التنويه بأهل خلق الحلم والثناء عليهم :

وأما الثناء به على بعض أنبيائه ففي مثل قوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾[سورة التوبة:١١٤]، وقوله فيه أيضا:﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ [سورة هود:٧٥] .

وقد برز جانب الحلم فيه حينما أخذ يجادل الملائكة حينما أبلغوه بمهمتهم نحو قوم نبي ا لله تعالى لوط عليه السلام عقابا لهم على جرائمهم الشنيعة التي انتشرت فيما بينهم،

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ٣٤٢ .

وفي النهاية لابن الأثير قال: "في أسماء ا لله تعالى (الحليم) وهو الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد، ولا يستفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيء مقدارا فهو منته إليه" ا.هـ ٤٣٣/١ .

(٢) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج النحوي، إمام مجمع على إمامته في اللغة والنحو، أخذ عن المبرد وغيره، وطار صيته عند الخلفاء العباسيين فأكرموه، وألف مؤلفات كثيرة نافعة منها "معاني القرآن" توفي سنة ٣١١ هـ، انظر بغية الوعاة ص ١٧٩، والأعلام ٤٠/١ وغيرهما .

(٣) تفسير أسماء ا لله الحسنى للزجاج ص ٤٧ .

وذلك رغبة منه في تأخير العذاب عنهم رجاء أن يتوبوا ويؤمنوا، ولم يكن يعلم أنه لامطمَع في توبتهم وإيمانهم بعد ذلك، حيث قد نفدت أسباب الطمع في إيمانهم ، كما قص الله تعالى هذه القصة في القرآن والتي جاء فيها قوله سبحانه: ﴿ فلمَّا ذهب عن إبراهيم الرَّوعُ وجاءته البُشرَى يجادلنا في قوم لوط * إنَّ إبراهيمَ لحليم أوّاهٌ منيب * يا إبراهيمُ أعرِض عن هذا إنَّه قد جاء أمرُ ربِّك وإنهم آتِيهم عذابٌ غيرُ مردود ﴾[سورة هود:٧٤-٧٦] .

وكما وصف إبراهيم بهذا الخلق العظيم فإن ابنه إسماعيل(١) عليهما الصلاة والسلام قد وصف به أيضا حيث قال الله تعالى فيه: ﴿ فبشَّرناه بغلامٍ حليم ﴾[سورة الصافات:١٠١] .

وقد قص الله تعالى صورة عظيمة من حلمه عقب وصفه بالحلم فقال عز شأنه: ﴿ فلمَّا بلغ معه السَّعي قال يا بُنيَّ إنِّي أرى في المنامِ أنِّي أذبَحُك فانظر ماذَا ترى قال يا أبتِ افعل ما تُؤمر ستَجِدُني إنْ شاءَ الله من الصَّابرين ﴾[سورة الصافات:١٠٢] .

فأي حلم أكثر من هذا الحلم أو مثله ؟!إنه لحري أن ينال هذا الوصف وهذا الثناء .

قال البيضاوي(٢): "وقيل: ما نعت الله نبيا بالحلم لعِزَّةِ وجوده،غير إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام"(٣) لكن قد أثنى على بعض عباده لاتصافهم بالحلم، وإن لم يكن من لفظ الحلم فمن معناه، ومن أولئك نبي الله هود عليه السلام فإن أذيَّة قومه له وحلمه عن ذلك تعد صورة رائعة من صور الحلم فاصْغ إلى قول الله تعالى حيث يقول: ﴿ وإلى عاد أخاهم هُوداً قال يا قوم اعبُدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُه أفلا تَتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنَّا لَنراك في سَفاهة وإنَّا لَنظُنُّك من الكاذبين * قال يا قومِ ليس بي سفاهةٌ ولكنِّي رسولٌ من ربِّ العالمين * أُبلِّغُكم رسالاتِ ربِّي وأنا لكم ناصحٌ أمين ﴾[سورة

---

(١) على أصح القولين عند أهل التأويل، انظر محاسن التأويل ١٤/١٢٣-١٢٤ .

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي الملقب بناصر الدين البيضاوي، قاض مفسر علامة، له مؤلفات كثيرة في التفسير والفقه والأصول وغيرها توفي سنة ٦٨٥ هـ، انظر البداية والنهاية ١٣/٣٠٩، والأعلام ٤/١١٠ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٥٩٤ .

[الأعراف:٦٥-٦٨] فترى أن خلق الحلم منعه أن يطيش لشتائم هؤلاء الجهال، بل لم يزد على أن نفى عن نفسه ما اتهموه به وأثبت لنفسه الصدق والأمانة التي تليق بجناب النبوة .

ومثل هذا الحلم حلم نبي الله نوح عليه السلام حيث نسب إليه قومه نحوا مما جرى لهود مع قومه فقد قالوا له: ﴿ إنَّا لنرَاك في ضـلالٍ مُبين * قال يا قوم لَيس بي ضلالةٌ ولكنِّي رسولٌ من رَبِّ العالمين * أُبلِّغكم رسالاتِ ربّي وأنصحُ لكم وأعلَمُ من اللهِ ما لا تَعلمون ﴾[سورة الأعراف:٦٠-٦٢]

فانظر كيف حلم عنهم ولم يخاطبهم بمثل خطابهم القاسي، أو أن ينتقم منهم بالدعاء عليهم إلا لما يَئس منهم بعد أن مكث يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عاما، فحينئذ قال: ﴿ ربِّ لا تَذر على الأرضِ من الكافرينَ ديَّارا ﴾[سورة نوح:٢٦] .

وتستطيع أن تلتمس هذا الخلق العظيم عند كل رُسُل الله تعالى من خلال دعواتهم لأقوامهم، وتحمُّل أذاهم وصبرهم على جهالاتهم، حيث ما كانوا يبادرونهم بالمغاضبة وطلب النقمة إلا إذا يأسوا من صلاحهم وإيمانهم .

فهو إذاً خلق الأنبياء عامة، وهو فوق ذلك صفة من صفات الحق تبارك وتعالى .

وحيث إن الحلم بهذه المثابة، فإنه لحري بالمؤمن أن يتحلَّى به، ويصبح خُلُقا ثابتا له في حياته، لأنه يسعى إلى معالي الأمور وشرائف الخلال، ولا أشرف من خلق وصف الله به نفسه، ووصف به أنبياءه، ووصف به بعض عباده الصالحين .

وبذلك يكون ذكر الحلم بهذا الأسلوب ضرب من ضروب الحث على التحلي به من جانب المؤمنين .

الثناء به على غير الأنبياء من المؤمنين :

أما وصف الكرام من عباد الله الصالحين به، فذلك في آيات كثيرة تنوِّه بأخلاقهم الكريمة ومنها خلق الحلم، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وعبادُ الرَّحمٰن الَّذين يَمشونَ على الأرضِ هَوْناً وإذا خاطبهم الجاهلونَ قالوا سلاما ...﴾[سورة الفرقان:٦٣-٧٥] .

فإن الله تعالى عدد في هذه الآية أوصاف المؤمنين وأخلاقهم، وكان التواضع والحلم في محل الصدارة من هذه الأخلاق، اللذين دل عليهما المشي في الأرض هونا، وعدم مجاراة

الجهلاء في تخاطبهم، وإنما يقولون كلاما فيه سلام من الإيذاء والإثم، والعفو والصفح(١)، وقد ورد عن الحسن تفسير هذه الآية فقال: "حلماء لا يجهلون على أحد، وإن جهل عليهم حلموا"(٢):.

وفي تصدُّر هذين الخُلُقين بالذكر على غيرهما دلالةٌ على مكانتهما،وتنويه عظيم بهما وبأهلهما، ولذلك كان جزاؤهما عظيما حيث كان ما أخبر الله عنه بقوله: ﴿ أولئك يُجزَونَ الغُرفةَ بما صبروا ويُلقَّونَ فيها تحيَّةً وسلاما * خالِدين فيها حَسُنت مُستَقراً ومُقاما ﴾[سورة الفرقان:٧٥،٧٦] .

ومن التنويه بالحلم وأهله أيضا قوله أيضا: ﴿ وسارِعوا إلى مغفِرةٍ من ربِّكم وجَنَّةٍ عرضُها السَّمٰوَاتُ والأرضُ أُعِدَّت للمتقين * الذين يُنفِقون في السَّراءِ والضَّراء والكاظِمين الغيظَ والعافينَ عن النَّاس والله يُحِبُّ المحسنين ﴾[سورة آل عمران:١٣٣،١٣٤] .

لأن كظم الغيظ هو الكف عن إمضائه مع القدرة على تنفيذه، وذلك هو الحلم .

وقد جعله الله تعالى من المسارعة إلى الخيرات التي يترتب عليها أمور: منها مغفرة الله تعالى والوعد بجنته، وحيازة صفة التقوى، وجعله في عداد المحسنين الذين نالوا محبة الله تعالى، وفي هذا من الحث على التَّحلُّم ما فيه، إذ رتب الله عليه أربع جزاءات كل واحد كفيل لأن يكونُ مغرِيا على التخلق به، والصبر على مكابدته .

وقد جاء أن جارية لعلي بن الحسين(٣) رحمه الله جعلت تسكب عليه الماءَ ليتوضَّأ للصلاة، فسقط الإبريقُ من يد الجارية على وجهه فشجَّه، فرفع علي بن الحسين رأسه

---

(١) انظر محاسن التأويل للقاسمي ٢٧٢/١٢ .

(٢) شعب الإيمان للبيهقي ٣٤٥/٦ برقم ٨٤٥٢ .

(٣) ابن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كان يلقب بـ "زين العابدين" كان يضرب به المثل في الحلم والورع، توفي - رحمه الله - سنة ٩٤ هـ، انظر ترجمته الواسعة في طبقات ابن سعد ٢١١/٥-٢٢٢، وشذرات الذهب لابن العماد ١٠٥/١ ، والأعلام ٢٧٧/٤، ونحوها .

إليها، فقالت الجارية: إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ والكاظِمينَ الغيظَ ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت الجارية: ﴿ والعافينَ عنِ الناس ﴾ فقال لها: عفا الله عنك، قالت: ﴿ والله يُحبُّ المحسنين ﴾ قال: اذهبي فأنت حرة"(١) .

فانظر كيف كانت هذه الآية الكريمة دافعة على تحمل الأذى، والإحسان على فاعله ، وهذا حلم وزيادة من هذا الإمام التقيّ العابد،سلالة النبوة الطاهرة، فرحمه الله تعالى رحمة الأبرار على تخلُّقه بخلق جده المصطفى صلى الله عليه وسلم في الحلم وكظم الغيظ والعفو عن الناس .

(١) شعب الإيمان للبيهقي ٣١٧/٦، برقم ٨٣١٧ .

العفو والصَّفح

ذلك هو حديث القرآن الكريم عن الحلم، أما حديثه عن العفو والصفح اللَّذين هما من مظاهر الحلم وصوره الحقيقية، لأنه لايعفو ويصفح حتى يحلم، فهما حلم وزيادة، ولذلك جمعت بينهما في هذا المبحث،

فالعفو في اللغو: الترك والطلب، قال ابن فارس: "العين والفاء والحرف المعتل أصلان يدل أحدهما على ترك الشيء، والآخر على طلبه، قال: ومن الأول: عفو الله تعالى عن خلقه،وذلك تركه إياهم فلا يعاقبهم فضلا منه ..."(١) .

وفي القاموس وشرحه ما نصه(٢): "عفا عنه، وعفا له ذنبه: تركه ولم يعاقبه ... والعفو: المحو والامِّحاء" .

وفي الاصطلاح:هو (ترك المؤاخذة بالذنب)(٣) ومحوه من صفحة المؤاخذة مع القدرة على الانتقام .

أما الصفح فهو لغة: عُرض الشيء وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجَر(٤)، قال في معجم مقاييس اللغة(٥):(الصاد والفاء والحاء أصل صحيح مطَّرد، يدل على عَرض وعِرَض، قال: ومن ذلك صفح الشيء عُرضه، قال: والصفح: الجنب، وصفحا كل شيء: جانباه، ومنه قولهم: صفح عنه إذا أعرض عن ذنبه؛ لأنه إذا أعرض عنه فكأنه قد ولَّاه صفحته وصُفحه أي: عرضه وجانبه)

أما في الاصطلاح:فهو ترك التَّثريب(٦)، أخذا من توليت صفحة الوجه إعراضا عن

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٥٦/٤ مادة (عفا) .

(٢) القاموس المحيط ٣٦٤/٤، وتاج العروس ٢٤٦/١٠ .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ٣٤٢ .

(٤) المفردات للراغب ص ٣٨٢ .

(٥) ٢٩٣/٣ .

(٦) المفردات للراغب ص ٢٨٢، والتثريب: هو الاستقصاء في اللَّوم، وثرب عليه تثريبا: قبح عليه فعله. مختار الصحاح ص ٨٣ .

الذنب؛ لأن الإنسان إذا أعرض عن الشيء ولاّه صفحة وجهه، وصفح وجهه عنه أي: أعرضه(١) .

والفرق بينه وبين العفو: أن الصفح أبلغ من العفو؛ لأنه يعني ترك التأنيب، فهو عفو وزيادة، إذ قد يعفو المرء ولا يصفح(٢)، ولذلك جمع الله تعالى بين العفو والصفح في غيرما آية كقوله تعالى: ﴿ فاعفُوا واصفَحوا حتَّى يأتيَ الله بأمره ﴾[سورة البقرة:١٠٩]، لأن الأمر بالعفو لا يستلزم الصفح، فأمر الله تعالى بهما لأجل أن يستلَّ من الأنفس الحقد إلى جانب ترك المؤاخذة،

وكلاهما يعتبران من مظاهر الحلم الذي هو سيد الأخلاق(٣)، لأنه لا يعفو ويصفح حتى يكون قد حلم عمن يقتضيه حاله ذلك، وبذلك يظهر أثر الحلم من ترك المعاقبة، وترك اللوم عن الذنب، فالحلم خُلُق ذاتي في النفس يبرهن عليه العفو والصفح .

منزلة خلق العفو والصفح في الأخلاق الاجتماعية :

ولهذا عني القرآن الكريم بهما عناية كبيرة أمرا بهما وحضاً عليهما، وتنويها بشأنهما، وشأن أصحابهما .

حيث وردت مادة العفو الدالة على ترك المؤاخذة نحوا من ثلاثين مرة في القرآن الكريم، وورد الصفح ثماني مرات، وذلك دليل على كمال العناية بهذين الخلقين الكريمين .

ذكر العفو منسوبا إلى الله تعالى :

ولا عجب فإن العفو من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته العُلا، وقد وصف الله نفسه به ونسبه إليه في نحو عشرين آية من كلامه القديم، وذلك كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إن تُبدوا خيراً أو تُخفوه أو تعفُوا عن سُوءٍ فإنَّ الله كان عفوّاً قديرا ﴾[سورة النساء:١٤٩]، وقوله: ﴿ إن الله لعفُوٌّ غفور ﴾[سورة الحج:٦٠، والمجادلة:٢]، وقوله سبحانه:

---

(١) التحرير والتنوير ١٠/٦٧١ .

(٢) تاج العروس ١٠/٢٤٧ .

(٣) الذريعة ص ٣٤٢ .

﴿ إنّ الله كان عفُوّاً غفورا ﴾[سورة النساء:٤٣]، ﴿ وكان الله عفُوّاً غفورا ﴾[سورة النساء:٩٩] .

والملاحظ أن وصف الله تعالى نفسه بالعفو كان بصيغة التكثير (عفُوّ) على وزن فعول، للدلالة على كثرة عفو الله تعالى عن عباده الذين يذنبون فيستحقون المجازاة بالعقاب، لكنه سبحانه يترك مؤاخذتهم على كثرة ذنوبهم وجرائمهم لأنه عفو،

وقد ذكر القرآن الكريم بعض ذنوب العباد التي تداركها الله تعالى بعفوه .

ومن ذلك قوله سبحانه في شأن نسخ تحريم الأكل والشرب والجماع في ليل رمضان بعد نوم المرء إذا ما نام، وقد كان في ذلك من المشقة ما فيها، حتى وقع لبعض الصحابة ما يناقض ذلك الحظر، فخفف الله تعالى عنهم وقال: ﴿ علم اللهُ أنّكم كُنتُم تَختَانُون أنفسَكم فتابَ عليكم وعفا عنكم ﴾[سورة البقرة:١٨٧] .

ومن ذلك عفوه تعالى عمن خالف أمر رسوله صلى الله عليه وسلم من الرُّماة يوم أحد استعجالا لطلب الغنيمة فقال تعالى: ﴿ ولقد صدَقكم اللهُ وعدَه إذ تَحُسُّونهَم(١) بإذنه حتى إذا فَشِلتُم وتنازعتم في الأمر وعَصَيتُم من بعد ما أراكم ما تُحبّون منكم من يُريدُ الدنيا ومنكم من يريدُ الآخرة ثم صرفكم عنهم لِيبتليَكم ولقد عفا عنكم واللهُ ذو فضل على المؤمنين ﴾[سورة آل عمران:١٥٢] .

ومن ذلك عفوه تعالى عن المؤمنين الصادقين الذين تولّوا يوم أحد عن جيش المسلمين تحت وطأة الهزيمة فقال سبحانه: ﴿ إنّ الذين تولّوا منكم يوم التقَى الجمعانِ إنّما استزلّهم الشّيطانُ ببعضِ ما كسبوا ولقد عفَا اللهُ عنهم إنّ الله غفورٌ حليم ﴾[سورة آل عمران:١٥٥].

إلى غير ذلك من مواقف المؤمنين التي منّ الله تعالى عليهم بعفوه معها، مما يدل على سعة عفو الله وعظيم رحمته بعباده .

---

(١) أي: تقتلونهم .

العفو بين المؤمنين :

وإذا كان العفو صفة من صفات الخالق جل وعلا فإنه من الجدير بالمؤمن أن يتحلى به؛ لأنه مما يزكي نفسه ويعلي قدره عند الله تعالى وعند الناس،كما جاء في الحديث "ما نقصت صدقةٌ من مال، وما زاد اللهُ عبدًا بعفو إلا عِزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"(١) .

ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى التخلق بهذا الخلق العظيم في غيرما آية بأساليب مختلفة أمرا وحضا وتنويها في آيات كثيرة .

الأمر بالعفو :

أما أسلوب الأمر فكما في قوله تعالى: ﴿ وَدَّ كثيرٌ من أهلِ الكتابِ لو يَرُدُّونكم من بعدِ إيمانكم كُفَّاراً حسَداً من عند أنفسِهم من بعد ما تَبيَّن لهم الحقُّ فاعفوا واصفَحوا حتى يأتيَ اللهُ بأمرِه إنَّ الله على كل شيءٍ قدير ﴾[سورة البقرة:١٠٩] .

وكما في قوله تعالى﴿ولا يَأْتَلِ أولُوا الفضلِ منكم والسَّعةِ أن يُؤتوا أولِي القُربى والمساكينَ والمهاجرينَ في سبيلِ الله وليعفُوا وليصفَحوا ألا تُحِبُّونَ أن يَغفرَ الله لكم والله غفورٌ رحيم ﴾[سورة النور:٢٢] .

وفي هذا الأسلوب من الحث على التحلي بهذا الخلق ما فيه الكفاية؛ لأن الله عز وجل قد بين لعباده ما يترتب على عفوهم الذي أمرهم به حيث أشار سبحانه في الآية الأولى إلى ما سيئول إليه أمرهم مع أعدائهم من اليهود والنصارى لأنه غيَّا طلب العفو بإتيان أمر الله، "وقد كان ذلك إما بالإذن في قتالهم وضرب الجزية عليهم"(٢) الذي دل عليه قوله سبحانه: ﴿ قاتلوا الَّذين لا يُؤمنون بالله ولا باليومِ الآخِر ولا يُحرِّمونَ ما حرَّم الله

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب استحباب العفو والتواضع، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه برقم ٢٥٨٨،والترمذي في الصلة، باب ما جاء في التواضع برقم ٢٠٢٩، والإمام أحمد في المسند ٢/٢٨٦، والدارمي في الزكاة ١/٣٩٦ .

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٢٣ .

ورسوله ولا يَدِينُونَ دِينَ الحقِّ من الذين أُوتوا الكتابَ حتّـى يُعطُوا الجزيـةَ عـن يـدٍ وهـم صَاغرون ﴾[سورة التوبة:٢٩] .

أو الأمر: بإجلاء بني النضير وقتل بني قريظة الثابت بعموم الكتاب وصريح السنة كقوله تعالى: ﴿ وأَنزلَ الذين ظَاهروهم من أهلِ الكِتاب من صَياصِيهم وَقذف في قُلوبهم الرُّعـبَ فريقًا تقتلون وتأسِرون فريقا * وأورثَكم أرضَهم ودِيارَهم وأموالَهم وأرضًا لم تَطؤُها وكان الله على كلِّ شيءٍ قديرا ﴾[سورة الأحزاب:٢٦،٢٧] .

وكقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ رضي الله عنـه: "حكمـت فيهـم بحكـم الملِك"(١) وذلك لمَّا حكم بقتل المقاتِلة وسبي الذرية .

أما الآية الثانية فقد رتَّب الله تعـالى فيهـا علـى العفـو عـن زلات الأقربـين والمسـاكين ونحوهم، رتب على ذلك مغفرة الله تعالى ورحمته للعافين جزاء لهـم مـن جنـس عملهـم، لأنه أولى بالعفو منهم .

وثمار هذا العفو كافٍ في إغراء المؤمنين عليه، غير أن الإغراء لم يقتصر على ذلك، بـل قد كان بأساليب أخرى منها الحض والتنويه .

الحض والعفو :

أما الحض ففي آيات كثيرة منها قوله تعالى في حث الأزواج على التنازل عما لهـم مـن الحق في تشطير المهر إن هم طلَّقوا قبل المِساس؛ لأن ذلـك مـن حسـن الخلـق والفضـل في المعاملة: ﴿ وإن طلَّقتُموهُنَّ من قبلِ أن تمسُّوهنَّ وقد فَرَضتُم لهُنَّ فريضةً فنصفُ ما فرضتـم إلا أن يَعفونَ أو يَعفوَ الَّذي بيده عُقدةُ النكاح وأن تَعفُوا أقربُ لِلتقْوى ولا تَنْسَوُا الفضـلَ بَينكم إنَّ الله بما تعملون بصير ﴾[سورة البقرة:٢٣٧] .

حيث دلت الآية على أن العفــو عنـوان التقـوى ودليلـه، ومـن خـير مـا يتمنَّـاه المؤمـن في

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب إذا نزل العدو على حكم رجل ٨١/٤، ومسلم في الجهـاد، بـاب جـواز قتل من نقض العهد برقم ١٧٦٨ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وتقدمت الإشارة إلى هذا الحديث في مبحث (الصبر) ص ٥٩٤

هذه الحياة هو أن يكون من المتقين، لينال بذلك محبة الله تعالى للمتقين وما أعده لهم من الثواب العظيم، وعفوه هنا شهادة إلهية بقربه من التقوى لا يفرط فيها من قدر عليها.

ومن الحض على العفو أيضا قوله تعالى: ﴿ إن تُبدُوا خيراً أو تُخفوه أو تَعفو عن سوءٍ فإنَّ الله كان عفُوًّا قديراً ﴾[سورة النساء:١٤٩] حيث أشارت الآية إلى أن الله تعالى من شأنه العفو عن العاصين مع قدرته على مؤاخذتهم، ليكون ذلك حافزا للناس على العفو عند المقدرة، وإن كان على وجه الانتصار لدلالة الآية السابقة ﴿ لا يُحِبُّ الله الجهرَ بالسُّوءِ إلا من ظُلِم ...﴾ لأن ذلك من مكارم الأخلاق، فضلا عن أن الله تعالى قد آذن العافين من الناس بعفوه عنهم، كما أفاده جواب الشرط إذ تقديره: "يعفُ عنكم عند القدرة عليكم كما أنكم فعلتم الخير جهرا وخفية، وعفوتم عند المقدرة على الأخذ بحقكم".

وقوله تعالى: ﴿ فإنَّ الله كان عفُوًّا قديرا ﴾ دليل لذلك الجواب وعلة له، فجواب الشرط إذاً وعده بالمغفرة لهم في بعض ما يقترفونه جزاء عن فعل الخير وعن العفو عمن اقترف ذنبا(١).

ومثل هذه الآية: حضُّ الله تعالى المؤمنين على احتمال أذى الأهل من الأزواج والأولاد والعفو والصفح عنهم بقوله سبحانه: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إنَّ من أزواجِكم وأولادِكم عدوًّا لكم فاحذرُوهم وإن تَعفُوا وتَصفحوا وتغفِروا فإنَّ الله غفورٌ رحيم ﴾[سورة التغابن:١٤]، فقوله تعالى: ﴿ فإنَّ الله غفور رحيم ﴾ "دليل جواب الشرط المحذوف المؤذِن بالترغيب في العفو والصفح والغفر، والتقدير: وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا يحب الله ذلك منكم؛ لأن الله غفور رحيم، أي: للذين يغفرون ويرحمون"(٢).

وترى أن الله تعالى لم يكتف بالحض على العفو فقط في هذا المقام، بل حث أيضا على الصفح الذي يعني ترك التوبيخ، والتثريب على الذنب، وعلى المغفرة التي تعني ستر الذنب

---

(١) انظر التحرير والتوير ٦/٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/٢٨٥، وانظر روح المعاني ١٠/٢٨/١٢٦.

وعدم إشاعته، لأن المقام هنا مقام عداوة أقرب الأقربين من زوجة وولد، وذلك أشد مضاضة على المرء، وأدعى له للانتقام، وغالبا ما يكون قادرا على ذلك، فالصبر على هؤلاء، والحلم عنهم مرير، فلذلك كان الحض على الثلاثة الأمور لا للكف عن المعاقبة فقط، بل ليقتلع من أفئدة المؤمنين جذور الكراهية والبغض الداعية إلى القطيعة التي نهى الله عنها .

ومن الحض على العفو أيضا قول الله تعالى: ﴿ وسارِعوا إلى مغفِرةٍ من ربِّكم وجَنَّة عرضُها السَّماواتُ والأرضُ أُعِدَّت للمتَّقين * الذين يُنفِقون في السَّراءِ والضَّراءِ والكاظِمينَ الغيظَ والعافينَ عن النَّاسِ والله يُحب المحسنين ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أولئِك جزاؤُهم مغفرةٌ من ربِّهم وجنَّاتٌ تجري مِن تحتها الأنهارُ خالدين فيها ونِعم أجرُ العاملين ﴾[سورة آل عمران:١٣٣-١٣٦] .

فإن الآية تدعو إلى المسارعة إلى نيل مغفرة الله تعالى المترتب عليها دخول الجنة المعدَّة للمتقين، وقد بينت الآية بعضا من صفات المتقين التي نالوا بها مغفرة الله تعالى والدخول في جنته، فذكرت ست صفات كان من أوائلها بعد الإنفاق في سبيله في السراء والضراء: كظمُ الغيظ، وذلك هو الصبر والحلم، والعفو عن الناس، وذلك هو أثر الحلم عمَّن ظلم، وقد رُتِّب على ذلك: الجزاء العظيم الذي أفاده أول المقطع من هذه الآية، ثم أكده في آخره ليقرِّرَه في نفوس المتَّصفين بها فيزدادوا عليها حرصا،وبها تعلقا فقال: ﴿ أولئِك جزاؤُهم مغفرة ...﴾ وهو جزاء عظيم يستوجب الغِبطة والحرص عليه، ولذلك نوَّه الله تعالى به بقوله: ﴿ ونِعم أجرُ العاملين ﴾ .

التنويه بأهل هذا الخلق :

أما تنويه القرآن الكريم بأهل هذا الخلق ، فهو تنويه عظيم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى في سياق تعداده لبعض صفات المؤمنين: ﴿ فما أُوتيتُم من شيءٍ فمتاعُ الحياةِ الدنيا وما عندَ الله خيرٌ وأبقى لِلذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون * والَّذين يَجتَنبون كبائرَ الإثم والفواحِش وإذا ما غَضِبوا هم يَغفرون ...﴾[سورة الشورى:٣٦،٣٧] .

حيث عدد الله تعالى بعضا من صفات الذين آمنوا، وذكر في ثالث صفاتهم أنهم

﴿ إذا ما غضِبوا هم يَغفرون ﴾ أي: يتجاوزون ويصفحون عمن أساء إليهم من إخوانهم المؤمنين لما هم عليه من التآخي والتحاب فيما بينهم، أما مع غيرهم فقد وصفهم بأنهم ﴿ إذا أصابَهم البغيُ هم يَنتصرون ﴾ لأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين .

قال الفخر الرازي رحمه الله: "وإنما خص الغضب بلفظ الغفران؛ لأن الغضب على طبع النار، واستيلاؤه شديد،ومقاومته صعبة، فلهذا السبب خصه بهذا اللفظ"(١) .

وقد عدد الله تعالى صفاتهم هذه على سبيل التمدح والامتنان، حيث ذكرهم في معرض المقابلة مع الذين يجادلون في آيات الله الكونية أو التنزيلية، وينازعون فيها على وجه التكذيب، وهم المشركون اغترارا بما عندهم من متاع الحياة الدنيا وهو متاع حقير وخسيس .

فنبَّه الله تعالى إلى أن الفريق المقابل لهم وهم المؤمنون خير منهم حالا ومآلا، وقد أبان عن فضلهم والإشادة بهم بما أعده لهم من الأجر حيث قال: ﴿ وما عِندَ الله خيرٌ وأبقى للذين آمنوا ...﴾ .

ومن ذلك/ أيضاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وجزاءُ سيِّئةٍ سيِّئةٌ مثلُها فمن عفا وأصلَح فأجره على الله إنه لا يحبُّ الظَّالمين * ولَمَن انتصر بعد ظُلمه فأولئك ما عليهم من سَبيل * إنَّما السبيلُ على الذين يَظلمون الناسَ ويَبغونَ في الأرضِ بغيرِ الحقِّ أُولئك لهم عذابٌ أليم * ولَمن صَبر وغَفر إنَّ ذلك لَمِن عَزمِ الأمور ﴾[سورة الشورى: ٤٠-٤٣] .

فإن الله تعالى يَعدُ العافين في هذه الآية بأجره العظيم الذي أفاده إطلاق الأجر الموعود، للدلالة على أنه لا يُقاس أمره في العظمة(٢)، ويصف عفوهم وصبرهم بأنه من عزم الأمور، أي: إن فاعل ذلك من ذوي عزم الأمور(٣)،(ووصف الأمور بالعزم من الوصف

---

(١) التفسير الكبير ١٧٦/٢٧ .

(٢) المرجع السابق ١٨١/٢٧ .

(٣) البحر المحيط ٥٢٤/٧ .

بالمصدر للمبالغة في تحقق المعنى فيها، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، أي: الأمور العازمة، وهذا الوصف مشعر بمدح الموصوفين به؛ لأن شأن الفضائل أن يكون عملها عسيرا على النفوس؛ لأنها تعاكس الشهوات ومن ثم وصف أفضل الرسل بأولي العزم(١) .

وقد أكد هذا الخبر بمؤكدات كثيرة(٢) للتنويه بهذا الوصف العظيم، والدلالة على علو منزلة صاحبه، وبالغ أهميته، حيث إنه يقدر على مغالبة نفسه، فكان من أهل العزم والعزائم، جعلنا الله تعالى ووالدينا ومشايخنا وأولادنا ومحبينا منهم بمنه وكرمه .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥/١٢٢ بتصرف .

(٢) هي: اللام، وإن، واسم الإشارة، ولام الابتداء، والوصف بالمصدر في قوله: (عزم الأمور) .

تمثل خلق

الحلم والعفو والصفح في النبي صلى ا الله عليه وسلم

لئن كان القرآن الكريم قد أثنى ثناء بالغا على بعض الأنبياء وبعض عباد الله الصالحين، بخلق الحلم من هذه المادة أو من معناها في آيات كثيرة ،

فإنه قد أثنى به على رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم في آيات كثيرات كذلك، وإن لم يكن من مادة الحلم" فإنه من معناه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ فبما رحمةٍ من ا اللهِ لِنتَ لهم ولو كُنتَ فظًّا غليظَ القلبِ لانفَضُّوا من حولِك ﴾[سورة آل عمران:١٥٩] .

فإن في هذه الآية من الامتنان العظيم على رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم بغرس مكارم الأخلاق فيه، ما يدل على عظمة أخلاقه، حتى قال الحسن البصري رحمه ا الله مفسرا لهذه الآية: "هذا خُلُق محمد صلى ا الله عليه وسلم بعثه ا الله تعالى به"(١) .

وكان من ذلك: الحلم الذي يدل عليه اللِّينُ، وعدم الفظاظة والغلظة؛

لأن كونه عليه الصلاة والسلام لا يستعمل الغِلظَةَ والفَظاظة مع الناس، بل الرحمة والعطف، ذلك هو عين الحلم الذي تدل عليه مادته، وهو ما دلت عليه الشواهد الكثيرة من أحواله صلى ا الله عليه وسلم الاجتماعية .

ومع ما كان عليه صلى ا الله عليه وسلم من هذا الخلق العظيم الذي دلت عليه الآية السابقة مقررة له فيه، وممتنة به عليه، فإنه سبحانه وتعالى لم يزل يحثه على التحلي بكماله، والاستمرار على منواله، في كل أحواله وأقواله ،

وذلك بمثل قوله جل في علاه: ﴿ خذِ العفوَ وأْمُـر بالعُرف وأَعرض عن الجَاهلين ﴾ [سورة الأعراف:١٩٩] .

فإن هذه الآية الجامعة لمكارم الأخلاق تخاطب رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم بالتحلي بها، وذلك بالاستمرار والثبات عليها كقوله سبحانه: ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا آمِنوا با الله ورسولِه ﴾[سورة النساء:١٣٦] .

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٤٢٠ .

وإلا فقد شهد الله تعالى له بعظمة الخلق بقوله: ﴿ وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عظيم ﴾ وامتنَّ عليه به في الآية السابقة،

وكان مما حثت الآية عليه من مكارم الأخلاق وعظيمها (الحلم) الذي يدل عليه قوله جل شأنه: ﴿ وأَعرِض عن الجاهلين ﴾ .

وتأمل كيف يكون امتثال النبي صلى الله عليه وسلم لذلك مع ما هو عليه بالفعل، إن في ذلك لدلالة على كمال عظمة تحليه به؛ لأنه أكمل الخلق امتثالا لأوامر ربه، وأعظمهم زكاء في خُلقه معه سبحانه ومع أمته، فيترقى في ذلك كمالا فوق كمال وعظمة فوق عظمة .

وهو ما دلت عليه شواهد أحواله صلى الله عليه وسلم في كل أطوار حياته التكليفية والاجتماعية، حيث حلِم عن أعدائه، وحلم عن أصحابه، وحلم عن أهليه وذويه، في صور يفُقَد عندها حلم كل حليم، "لأن كل حليم قد عُرفت منه زلة، وحُفظت عنه هفوة، وهو صلى الله عليه وسلم لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبرا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلما"(١)، ولذلك يقول الماوردي رحمه الله تعالى في وصف حلمه صلى الله عليه وسلم "فكان أحلم في النِّفار من كل حليم، وأسلم في الخصام من كل سليم، وقد مُني بجفوة الأعراب، فلم توجد منه نادرة، و لم يحفظوا عليه بادِرة، ولا حليم غيره إلا ذو عثرة، ولا وقور سواه إلا ذو هفوة، فإن الله تعالى عصمه من نزعات الهوَى، وطيش القدرة بِهَفوة أو عثرة، ليكون بأمته رؤوفا، وعلى الخلق عطوفا، قد تناولته قريش بكل كبيرة، وقصدته بكل جريرة، وهو صبور عليهم، ومعرض عنهم، وما تفرد بذلك سفهاؤهم دون حلمائهم، ولا أراذلهم دون عظمائهم، بل تمالأ عليه الجِلَّةُ والدُّون، فكلما كانوا عليه من الأمر أشد وألح أعرض وأصفح ، حتى قَهر فعفَا، وقدر فَغفر"(٢) .

وقد كان حلمه عليه الصلاة والسلام قائما على منهج اتخذه لنفسه، وهو إسقاط حق

---

(١) الشفاء للقاضي عياض ١/١٠٤ .

(٢) أعلام النبوة ص ٢٨٨ .

نفسه عن المؤاخذة مهما كانت الإساءة، ولا يقوم إلا لحق ا لله تعالى، فإذا انتُهِك حقّ ا لله تعالى لم يقم لغضبه شيء حتى يقيم حكم ا لله وينفذ شرعه، ويعيد للدِّين اعتباره وهيبته .

١ ـ كما دل على ذلك قول عائشة رضي ا لله عنها: "ما خُيِّر رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسولُ ا لله صلى ا لله عليه وسلم لنفسه إلا أن تُنتهك حرمةُ ا لله فينتقم لله بها"(١) .

٢ ـ وفي رواية قالت: "ما ضرب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم شيئا قطُّ بيده، ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد في سبيل ا لله، وما قيل فيه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن يُنتهك شيءٌ من محارم ا لله فينتقم لله عز وجل"(٢) .

فإن هذا الحديث يدل على أنه صلى ا لله عليه وسلم كان قد أسقط حق نفسه عمن يؤذيه في جسده في حياته ، ولم يصبح مهتمًّا إلا بدين ا لله وحرماته ، فإنه لا يتهاون فيه إذا انتهك أو أهمل .

وهذا المنهج الخبري هو الذي دلت عليه الوقائع العملية في حياته صلى ا لله علي وسلم الدعوية والاجتماعية، حيث برز حلمه على ذلك النحو مع أعدائه، ومع أصحابه ومع أهل بيته، كما تدل عليه الوقائع والأحوال الآتية :

١ ـ حلم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وعفوه وصفحه عن أعدائه :

الحلم عند محن الأعداء هو معيار مُدَّعِي هذا الخلق العظيم، وقلَّما يثبت عندها أحد؛ لأن الحلم لا يكون إلا عند المقدرة، كما أن خلق العفو لا يتحقق إلا بوجود ثلاثة شروط وهي :

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب صفة النبي صلى ا لله عليه وسلم ٢٣/٤، ومسلم في الفضائل، باب مباعدته صلى ا لله عليه وسلم للآثام واختياره من المباح أسهله اونتقامه لله عز وجل عند انتهاك حرماته برقم ٢٣٢٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب صفة النبي صلى ا لله عليه وسلم ٢٣٠/٤، ومسلم في الفضائل الباب السابق برقم ٢٣٢٨ .

١ - أن يلقى أشد الإساءة من أعدائه .

٢ - أن تدور الدائرة على هؤلاء الأعداء فيقعون في قبضته ويصبحون تحت رحمته .

٣ - أن يملك هو القدرة على القصاص منهم(١) .

فإذا ابتلي المرء بعدوٍّ له في دينه أو دنياه، يَطغَى عليه ويتكبَّر، ثم يسطو عليه فيؤذيه في ذاته أو دينه، ثم بعد ذلك يظفر به فيحلم عنه، ويعفو عن جُرمه، يكون متحليا بهذا الخلق بجدارة، ولكن أين يتمثل هذا الخلق على هذا النحو ؟ إنه عزيز الوجود في تاريخ البشرية، إلا عند أنبياء الله ورسله، فإن حياتهم كلها كانت حلما وأناة، وعلى رأسهم سيدنا محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فإنه قد نقل عنه في ذلك الكثير مما يشهد على عظمة حلمه وكمال خلقه، من ذلك :

١ - حلمه عن قريش وأهل الطائف الذين بلغ إيذاؤهم له - بنفسي هو وأبي وأمي - مبلغا لا يطيقه غيره على ماتقدم بيانه في مبحث الصبر، ومع ذلك يرسل الله تعالى إليه جبريل عليه السلام فيقول له :

"إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلم عليه، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا"(٢) .

فتأمل مبلغ حلمه على أعدائه الذين آذوه وأغروا به سفهاءهم فرجموه بالحجارة حتى أدمَوا عقبه، وردوا عليه ردا منكرا، وقد كان يعبر عن ذلك بانه أشد ما لقيه من قومه، ومع ذلك يحلم عنهم، و لم يكافئهم و لم يطلب من الله عقابهم، وهم قد فعلوا ذلك الفعل الشنيع، بل مع ذلك رجا الله تعالى أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك

---

(١) انظر المثل الأعلى في الأنبياء ص ٢٢٧ .

(٢) متفق عليه، وتقدم ذكره وتخريجه في الصبر ص ٨٣ .

به شيئا، فترى أن هذا حلم ليس وراءه حلم حليم !!

٢ ـ ومن ذلك حلمه عن أهل مكة الذين آذوه أبلغ الإيذاء وهو يدعوهم إلى الله تعالى صباح مساء، ويحلم عن إيذائهم له، وكأنه لم ينل شيئا كما هو معلوم من سيرة دعوته إياهم منذ فجر الرسالة.

ولما بالغوا في تحديهم له ، وتأبيهم عن قبول دعوته، تحدّوه "أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحّي عنهم الجبال فيزدرعون" فجاء الوحي مجيبا عن ذلك قائلا: "إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نعطيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكتُهم كما أهلكت من قبلهم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: "بل أستأني بهم"(١) .

فلم يشأ صلى الله عليه وسلم تعجيل إنزال العذاب عليهم، لعلمه بأنه واقع بهم لا محالة، لأنه يعلم أنهم متعنّتون لا غير كما قال الله عنهم: ﴿ وقالوا لَن نُؤمِنَ لك حتّى تَفجُرَ لنا من الأرضِ يَنبوعا * أو تكونَ لك جنّة من نخيلٍ وعِنب فتُفجّر الأنهارَ خِلالها تفجيرا * أو تُسقِط السماءَ كما زَعمتَ علينا كِسَفا أو تأتيَ بالله والملائكةِ قَبيلا * أو يكون لَك بيتٌ من زُخرف أو تَرقى في السّماءِ ولَن نُؤمِن لِرُقيِّك حتّى تُنَزِّل علينا كتاباً نَقرؤُه قل سبحان ربّي هل كُنتُ إلا بشراً رسولا ﴾[سورة الإسراء:٩٠-٩٣] .

فهو صلى الله عليه وسلم يعلم هذه الحقيقة فيهم، ومع ذلك لم يشأ معاجلتهم بالعقوبة، مع ما يبدو من ظاهر حالهم من استحالة هدايتهم كما تدل عليه هذه الآيات، ومع ذلك كله يقول صلى الله عليه وسلم: "بل أستأني بهم" فأي حلم أكبر من هذا ؟! إنه حلم عظيم بلا ريب، ولا بدع فهو حلم نبوة ! .

٣ ـ ولئن كان حلمه عليه الصلاة والسلام كذلك قبل أن يؤمر بالجهاد، وهو الحال الذي قد يقول المرء إنه كان لسبب بقاء رجاءٍ في إيمانهم، وطمع في هداية الله تعالى لهم،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٥٨/١، من حديث ابن عباس موصولا، وابن جرير في التفسير ١٠٨/١٥ موقوفا على سعيد بن جبير وقتادة، وذكره ابن كثير في التفسير ٢٧/٣ موصولا وموقوفا، وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند رقم ٣٥٨٣: إسناده صحيح .

إلا أنا نقول: إن هذا هو حلمه دائما وأبدا، ولئن كان حلمه على ذلك النحو قبل أن يؤذن له بالجهاد، فقد كان بعد أن أذن له بهكذلك أو أعظم اتضاحا، كما تدل عليه الوقائع والشواهد التالية :

١ ـ فقد أصيب يوم أحد إصاباتٍ كبيرة من أعدائه اللئام، حيث شجُّوا وجهَه الشريف، وكسروا رباعيته في ذلك اليوم، بنفسي هو وأبي وأمي صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك راوده أصحابُه أن يدعو الله تعالى عليهم فقال: "إنِّي لم أُبعث لعَّانا، ولكني بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون"(١) .

هكذا يقول وهو في ذلك الحال الذي ينفطر له قلب المسلم، ويود أحد منا أن لو دعا الله عليهم فأهلكهم عن بَكرة أبيهم، لبالغ أذيتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يريد أن يُخرجهم من الظلمات إلى النور، وهو ما كان يطالب به الصحابة رضي الله عنهم كما علمت، وكما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله ادع الله على المشركين،فقال: "إني لم أبعث لعَّانا، وإنما بعثتُ رحمة"(٢) .

فهو صلى الله عليه وسلم يأبىَ أن يدعو الله تعالى عليهم، ولم يقف عند ذلك حتى دعا لهم بالهداية والتمس لهم العذر بأنهم لا يعلمون، فأي حلم حليم يكون كهذا الحلم ؟ لا جرم لم نسمع بمثله .

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢١٤/٣ من حديث سهل بن سعد، وفي الشعب ١٦٤/٢ برقم ١٤٤٨، وأصله في الصحيحين: البخاري في باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢١٤/٤، ومسلم في الجهاد، باب غزوة أحد برقم ١٧٩٢، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه، فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والأدب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها برقم ٢٥٩٩، والبخاري في الأدب المفرد، باب لعن الكافر برقم ٣٢١، والبغوي في الأنوار برقم ٢٥١ .

٢ ـ ولما ظفر عليه الصلاة والسلام بالثمانين رجلا في غزوة الحديبية من أهل مكة الذين هبطوا من جبل التنعيم متسلِّحين يريدون غِرَّةَ النبي صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه، فأخذهم النبي صلى ا لله عليه وسلم واستحياهم(١) مع ما كان يقتضيه حالهم من القتل جزاء وفاقا، غير أن النبي صلى ا لله عليه وسلم حلم عنهم، ولم يعاقبهم على ذلك .

٣ ـ ولما فتح مكة ودخلها ظافرا منتصرا منكِّسا لرؤوس الوثنيَّة وطواغيتها وصناديدها، لم يفعل كما يفعل الملوك في مثل ذلك الموقف من إفساد الحرث والنسل ﴿ إنَّ الملوكَ إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجَعلوا أعِزَّة أهلِها أذِلَّةً وكذلك يَفعلون ﴾[سورة النمل:٣٤] .

وإنما دخلها وهو مليءٌ حلما وعفوا وصفحا، وهو يقول: "هذا يوم يعظِّم ا لله فيه الكعبة"(٢) .

٤ ـ ولما تمكن من الفتح العظيم، وقبض على ناصية الجبابرة الطِّغام وهم لا يدرون ما يخبأ لهم غير أنهم يطمعون في حلمه وكرمه كما عهدوه فيه .

يوم ذاك قال لهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "يا أهل مكة! ما تظنُّون أني فاعل بكم ؟ قالوا: خيرا، أخٌ كريم وابن أخ كريم، عندئذ قال مقولته المشهورة الجارية مجرى الأمثال شهرة واستفاضة: "إذهبوا فأنتم الطلقاء"(٣) .

وفي رواية أنه صلى ا لله عليه وسلم قال لهم: "مثَلي ومثُلكم كما قال يوسف لإخوته:

---

(١) كما دل عليه حديث مسلم في الجهاد، باب قوله: ﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم ﴾ برقم ١٨٠٨، وأبي داود في الجهاد، باب في المن على الأسير برقم ٣٢٦٠، والترمذي في التفسير، باب من سورة الفتح برقم ٣٢٦٠ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب أين ركز النبي صلى ا لله عليه وسلم الراية يوم الفتح ١٨٧/٥ من حديث .

(٣) عزاه السيوطي في مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفاء ص٦٢ رقم ١٧٩ إلى حميد بن زنجويه في كتاب الأموال، وإلى النسائي من حديث أبي هريرة بزيادة عما هنا، وذكره ابن هشام في سيرته ٩٤/٤ وتاريخ الخلفاء ص ٣٢٩، وذكره عامة أهل المغازي والسير، وفي إسناده ضعف، انظر هامش فقه السيرة للغزالي ص٣٩٥ .

﴿ قال لا تثريبَ عليكم اليومَ يغفِرُ ا الله لكم وهو أرحمُ الراحمين ﴾[سورة يوسف:٩٢]، قال عمر بن الخطاب رضي ا الله عنه-وكان قد توعَّد صناديد مكة- : "فانفضحتُ حياءً من رسول ا الله:صلى ا الله عليه وسلم"(١) .

هكذا حلم وعفى وصفح عن هؤلاء الذين أذاقوه أنواع الإيذاء، وائتمروا على قتله، وأخرجوه من أحب البلاد إليه، وحاربوه كأشد ما كانت تعرفه الحروب، وفعلوا معه ما لا يطاق وصفه، ومع ذلك كله فهو يحلم ويعفو ويصفح، بل ويكرم ويعطي ويجزل العطاء .

وكان بإمكانه وله الحق الكامل أن يُعمل فيهم السيف قتلا وتنكيلا، فقد أُحلَّت له مكة ساعة من نهار، ليذيق طغاتها جزاء عنادهم وإيذائهم وعداوتهم جزاء وفاقا .

ولكن حلم النبوة أبى عليه ذلك فقال لهم: "إذهبوا فأنتم الطلقاء" .

"إنك لا تجد قائدا في العالَم مهما بلغ من جلال الإنسانية،ورفعة العلم،وذِروة الخلق يخاطب أعداءه الذين استباحوا قتله بعد ما استباحت قريش من دماء المسلمين، يخاطبهم حين ظنوا أنهم ألقي عليهم قيود السلطة والجبروت، وأنهم أصبحوا أسرى في يديه، يفعل بهم من جنس صنيعهم أو أشد يخاطبهم منكرا أنهم أسرى أو مقيدين فيقول: "اذهبوا ..."(٢) .

إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة من حلمه صلى ا الله عليه وسلم عمَّن آذاه في جسده الشريف-بنفسي هو وأبي وأمي-الأمثلة التي يضيق بها الحصر في مثل هذا المقام(٣) .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في الأخلاق رقم ٨٢ ص ٤٥، بإسناد رجاله ثقات إلا راويه عن عمر رضي ا الله عنه فإنه مجهول .

(٢) الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب لأحمد بن حجر آل بوطامي ص ١٧٢ من مقال نقله للكاتب الفرنسي (جان يرا) .

(٣) وذلك كحلمه عن شيبة بن عثمان بن طلحة الذي أراد الفتك به صلى ا الله عليه وسلم يوم حنين، وعن فضالة بن عمير الذي أراد ذلك أثناء طوافه صلى ا الله عليه وسلم بالبيت ... وستأتي ذكر أمثلة لذلك قريبا .

"ولو لم يكن من كرم عفوه ورجاحة حلمه إلا ما كان منه هذا اليوم لكان ذلك من أكمل الكمال وأوضح البرهان على مبلغ حلمه وعظيم عفوه وصفحه"(١) .

وبذلك تعلم أن حلمه عليه الصلاة والسلام وعفوه وصفحه كان فوق ما تتصوره العقول البشرية في أجناس البشر الذين من شأنهم الغضب والانتقام لاسيما عند المقدرة، وإن لم يكن دائما ففي الغالب أو الأحيان، لأنه ما من حليم إلا وقد حفظ عنه ذلك، وفي الحديث "لا حليم إلا ذو عثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة"(٢)، أما أن يكون حليما دائما وأبدا، فذلك ما لم يعرف إلا في رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أدركت من هذه الشواهد العظيمة، المقتضية للانتقام بكل جدارة واستحقاق، ومع ذلك فهو لم يفعل، فهذا هو الحلم الذي يضرب به المثل بلا ريب، إذ "لم يظهر العفو قط بصورته الكاملة في تاريخ أي من الأديان حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم، ولولاه لظلت هذه الفضيلة معطّلة إلى الأبد" كما قاله بعضهم(٣) .

٢ - حلمه صلى الله عليه وسلم وعفوه وصفحه عمن يريد قتله :

وكم كان يحلم ويعفو عمن يريد الفتك به صلى الله عليه وسلم وذلك في كل محاولة اغتيال تجري له - بأبي هو وأمي - فيقابلها بالحلم والإغضاء والعفو والصفح، لابل بالحرص على هدايته ودعوته إلى الإسلام الذي فيه الهدي والرشاد،

١ - فعمير بن وهب أحد شياطين قريش وأشرارها المعروفين بشدة الأذى لرسول الله

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ٢٩/٢ .

(٢) أخرجه الترمذي في البر، باب ما جاء في التجارب برقم ٢٠٣٣، وأحمد في المسند ٦٩/٣، والحاكم في المستدرك ٢٩٣/٤، وابن حبان في صحيحه ٢٠٨/١ من الإحسان كلهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسنه الترمذي وقال عنه الحاكم: صحيح الإسناد وأقره الذهبي، وأقره كذلك الحافظ ابن حجر في إجابته عن الأحاديث التي سئل عنها في المصابيح كما هي في آخر كتاب المصابيح للبغوي ١٧٨٦/٣ .

(٣) هو الأستاذ خوجه كما الدين في كتابه المثل الأعلى في الأنبياء ص ٢٢٧ .

صلى الله عليه وسلم وأصحابه حيث كانوا يلقون منه العناء الشديد في مكة، اجتمع مع صفوان بن أمية في حجر الكعبة المشرفة واتفقا على أن يقوم عمير بالسفر إلى المدينة، ويفتك عمير بالنبي صلى الله عليه وسلم، على أن يكفيه صفوان أمر دَينه وأولاده، فلما ضمن له صفوان ذلك، خرج من حينه إلى المدينة بسيفه الصقيل المسموم، فلما وصل إليها وأبصره عمر رضي الله عنه لبَّبه وقال: يا رسول الله، هذا عمير بن وهب شيطان من شياطين قريش ما جاء إلا لِيفتِك بك، فقال عليه الصلاة والسلام: "أرسله يا عمر" فأرسله فضمَّه النبي صلى الله عليه وسلم إليه، وكلَّمه وأخبره بما جرى بينه وبين صفوان، فأسلم وشهد شهادة الحق، ثم انصرف إلى مكة مسلما"(١) .

٢ ـ ولما كان عليه الصلاة والسلام في غزوة قِبَل نجد تُسمَّى غزوة (ذات الرقاع)(٢)، وأدركته القائلة(٣) في واد كثير العِضاه(٤)، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرَّق الناس في العِضاه يستظِلُّون بالشجر، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سَمُرة، فعلَّق بها سيفه، يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: فنمنا نومة ثم إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا، قال: فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده "صلتا" فقال لي: من يمنعك مني ؟ قلت: "الله" فها هو ذا جالس، قال جابر: ثم لم يعاقبه النبي صلى الله عليه وسلم"(٥) .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٧٠/٣، ٧١، والاستيعاب بهامش الإصابة ٤٨٥/٢، والإصابة ٣٦/٣، وسيأتي الكلام عليها في الآثار ص١٤٤٠

(٢) وكانت في السنة الرابعة من الهجرة، وسميت بذلك لأنهم كانوا يعصبون الخِرق على أرجلهم لما نقبت أقدامهم وسقطت أظفارهم، وقيل: غير ذلك، انظر الروض الأنف ٢٥٣/٣ .

(٣) أي: وقت القيلولة، وهو وقت نصف النهار عند اشتداد الحر .

(٤) العضاه: شجر عظيم له شوك، والواحدة عضة، انظر النهاية ٢٥٥/٣ .

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد، باب غزوة ذات الرقاع ١٤٦/٥، ومسلم في صلاة المسافرين، باب صلاة =

٣ ـ وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "من يمنعك مني" ؟ فقال: كن خير آخذ، قال: "أتشهد أن لا إلـه إلا الله وأني رسول الله ؟" قال: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون معك ولا مع قوم يقاتلونك، فخلّى سبيله، فجاء أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس"(١) .

٤ ـ وأرسلت إليه يهودية في غزوة خيبر بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك، فقالت: أردت قتلك، فقال عليه الصلاة والسلام: "ما كان الله ليسلطك على ذلك: أو قال: على مسلم، قال الصحابة: أفلا نقتلها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: لا، قال أنس: فما زلت أعرفها(٢) في لَهواتِ(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم(٤) .

٥ ـ وسحره رجل من اليهود، فاشتكى ذلك أياما فأتاه جبريل فقال: "إن رجلا من اليهود سحرك فعقد لذلك عقدا، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علِياً فاستخرجها فجاء بها، فجعل كلما حل عُقدة وجد لذلك خِفة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نَشِط من عِقال، فما ذكر ذلك لليهودي، ولا أراه في وجهه قط"(٥).

= الخوف برقم ٨٤٣، وفي الفضائل، باب توكله صلى الله عليه وسلم على الله وعصمة الله له من الناس بالرقم نفسه ورقم الكتاب ١٣ .

(١) أخرجها أحمد في المسند ٣٦٥/٣، ٣٩٠، والحاكم في المستدرك ٢٩/٣، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ٧٥ وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٢) أي الأكلة .

(٣) جمع لهوة وهي اللحماة في سقف أقصى الفم، النهاية ٢٨٤/٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الطب، باب قبول هدية المشركين ٢١٣/٣، ومسلم في كتاب السلام، باب السم برقم ٢١٩ .

(٥) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم، باب سحرة أهل الكتاب ١١٣/٧، والإمام أحمد في المسند =

شهادة أعدائه صلى الله عليه وسلم له بالحلم :

ولقد حملهم ذلك الحلم العظيم والعفو الكريم على أن يشهدوا له به في مواقف متعددة من غير رغبة ولا رهبة، ولكن نطقا بالحق وشهادة العدل .

١ ـ فأبو سفيان الذي كان قائد الجيوش لمحاربته في مواطن عديدة،وحامل لواء الحرب عليه صلى الله عليه وسلم لم يستطع إخفاء هذا الخلق العظيم في رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل قال له يوم الفتح وقد وقف بين يديه صاغرا ذليلا: "بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك"(١) .

٢ ـ وعمير بن وهب يقول مخاطبا صفوان بن أمية واصفا النبي صلى الله عليه وسلم بما هو فيه من الخلق العظيم ليثنيه عما هو عازم عليه من الفرار وذلك يوم فتح مكة يقول: "جئتك من عند أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزُّه عزك، وشرفُه شرفك، ومُلكه ملكك" فقال له صفوان: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم"(٢) .

وهذه شهادة عن تجربة وخبرة، فقد مضى لك عما قريب ما كان من نبأ عمير هذا ، وما دبره للنبي صلى الله عليه وسلم،وبما قابله النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، فهي شهادة من خبير ﴿ ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خبير ﴾[سورة فاطر:١٤] .

حلمه صلى الله عليه وسلم وعفوه وصفحه عن أصحابه :

ولئن كان الحلم عن الأعداء دليلا عظيما على ذلك الخلق العظيم في نفس المرء، فإن الحلم عن الأصحاب والإغضاء عن هناتهم وزلاتهم أولى أن يكون دليلا آخر، بل هو أوضح على كمال خلق المرء في حلمه وعفوه؛ لأنه قد يحلم عن العدو لسبب عداوته استعطافا له وروما لتألفه وتقريبه .

= ٣٦٧/٤، وأبو الشيخ في الأخلاق برقم ٨١ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه وأصله في البخاري مطولا في كتاب الطب ١٧٦/٧-١٧٨ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(١) السيرة النبوية وتاريخ الخلفاء لابن حبان البستي ص ٣٢٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١٠٥/٤ مع الروض الأنف .

والصديق لا يحتاج معه إلى ذلك، وحقه أن يكون محافظا على الآداب،وعارفا بمواطن الرضا والسخط، وإذا فعل ما يخل بذلك كان جديرا بالتأديب والتعزير والتأنيب، أما أن يترك بلا تثزيب، وكان المقتضي لذلك قائما، فذلك دليل عظيم على حلم السيد،

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان مع الصحابة على ذلك الحال، يحلم عن إساءتهم، ويعفو عن زلاتهم، ويصفح فلا يؤنِّب ولا يثرب، ولكن غالبا ما يكون ذلك عن الأعراب الجفاة، أو المنافقين، فإن هؤلاء الذين تصدر منهم أفعال تنافي الأدب مع جناب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شخصه العظيم،أو سياسته الحكيمة للأمة والدولة الإسلامية .

أما سائر الصحابة ممن لم يطعنوا بنفاق، ولم يجفوا بالبادية، فإنهم كانوا على جناب عظيم من الأدب واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل إشارة أو عبارة، وإن حصلت من أحدهم هفوة فذلك نادر، والنادر لا حكم له .

ومن صور حلمه صلى الله عليه وسلم وعفوه عن بعض جفاة الأعراب ممن يشملهم اسم الصحبة :

١ ـ ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه بُرْدٌ نجَراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجَبَذه بردائه جَبذة شديدة حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته، ثم قال: يامحمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء"(١) .

٢ ـ وفي رواية أخرى قال: "يا محمد احمل لي على بعيريَّ هذين، من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) أخرجه البخاري في اللباس، باب البرد والحبرة والشملة ١٨٨/٧، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة برقم ١٠٥٧، والبرد نوع من الثياب يكون من كساء ورداء، ونسبته إلى نجران لأنه موضع صنعه، وقد تقدم تعريفه .

"لا، وأستغفر الله - ثلاثا - لا أحمل لك حتى تقيدني من جبذتك التي جبذتني" فكل ذلك يقول له الأعرابي: والله لا أقيدكها، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فلما سمعنا قول الأعرابي، أقبلنا إليه سِراعا، فالتفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: عزمتُ على من سمع كلامي أن لا يبرح مقامه حتى آذنَ له، ثم دعا رجلا فقال له: احمل له على بعيريه هذين، على بعير شعيرا، وعلى الآخر تمرا، قال: ثم التفت إلينا فقال: انصرفوا على بركة الله"(١) .

فانظر كيف تجرأ هذا الأعرابي الجِلف على مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وجبذه تلك الجبذة المنكرة، وذلك لعلمه بحلم النبي صلى الله عليه وسلم وسعة عفوه، وأنه لا ينتقم لنفسه، كما جاء في بعض الروايات أنه قال له: إنك لا تكافيء السيئة بالسيئة، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم لم يلبث أن أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم ما أراده منه وعفا عنه، ومنع عنه ما كان يمكن أن يفعله الصحابة رضوان الله عليهم مما يجدر به، لولا كمال حلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالغ عفوه وصفحه .

ولقد حلم النبي صلى النبي صلى الله عليه وسلم وعفا عن خطأين كبيرين ارتكبهما كان عليه من جرائهما القود والتعزير :

أما الأول: فهو جبذته الشديدة التي أثرت في عاتق رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي تدل على طبع الأعرابي، وجفاء خلقه، وقلّة أدبه .

والثاني: رفضه القصاص وهو حكم شرعي يجب عليه أن يسلم به، ويستسلم له، ولولا عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجب القود ولا بد .

وفي هذه القصة تقرير لأصل شرعي عظيم، وهو أن المال مال الله تعالى، جعله الله تعالى في يد الحاكم، ليتصرف فيه في مصالح المسلمين بالحكمة والغِبطة، لا يملك منه إلا

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الحلم، وأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٤٧٧٥، والنسائي في القسامة، باب القود من الجبذة ٣٣/٨، وأحمد في المسند ٢٨٨/٢ من حديث أنس رضي الله عنه بأسانيد حسان .

ما يخصه بقدر عمله واستحقاقه، والباقي أمانة لديه .

ولعل هذا من دوافع ضحكه صلى الله عليه وسلم على ما جرى له من الأعرابي، وكأن فيه إشارة إلى أن الأعرابي فقه هذه الحقيقة الشرعية العظمى مع غلظه وجفائه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم كالمقر له أمام الصحابة ليفقهوا منه ذلك، ويكون تشريعا وتعليما للأمة حكّاما ورعايا .

ولو كان حكم الشرع بخلاف ذلك لأنكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوضح له الحكم الشرعي، من أنه لا يستحق، وأنه لا دخل له في هذا الشأن، وأنه يتصرف فيه كما يشاء عطاء ومنعا، ولكن لما سكت على ما جرى كان ذلك تقريرا .

وكم كان له صلى الله عليه وسلم من مواقف حلم وعفو وصفح مع هؤلاء الأعراب الجُفاة :

٣ ـ فقد جاء ذات مرة رجل من تميم يدعى"ذو الخويصرة التميمي"وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: إعدل يا رسول الله، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "ويلك من يعدل إذا لم أعدل" ؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني أضرب عنقه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "دعه فإن له أصحابا يحقِر أحدكم صلاته مع صلاته، وصيامه مع صيامه، يَمرُقون من الدين كما يَمرُق السهم من الرَّمِيَّة .."(١) .

وفي لفظ قال: "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرُق السَّهم من الرَّمِيَّة"(٢) .

٤ ـ وليس هذا هو العجب من حلمه صلى الله عليه وسلم ، وإن كان محل العجب بلا شك؛ لأن هؤلاء قد يشفع لهم طبع البادية الذي كان معهودا، ولا سبيل إلى تقويمهم سريعا مع ما ألفوه من الغلظ والجفاء .

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين، باب من ترك قتال الخوارج للتألف وأن لا ينفر الناس عنه ٢١/٩، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم برقم ١٠٦٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه واللفظ للبخاري .

(٢) هذا لفظ مسلم .

ولكن الذي لا ينقضي منه العجب، هو حلمه وعفوه عن المنافقين الذين يساكنونه عليه الصلاة والسلام في المدينة، وللمدنية تأثير في سلوك الأدب والاحتشام، لاسيما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم مع ذلك يتركون كل آداب المدنيَّة، ويسلكون سلوك المراوغ الخائن لله ورسوله والمؤمنين، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم ذلك منهم بإعلام الله تعالى له، ومع ذلك يحلم عنهم ويعفو يصفح، مع ما كان يؤذَن له على سبيل التخيير في تأديبهم والتشديد عليهم، وما يكشفه الله تعالى من مؤامراتهم وخياناتهم في آيات كثيرة وسور خاصة .

وهنا تتجلى غاية حلمه وكمال عفوه صلى الله عليه وسلم على أولئك الأوغاد، إذ كلّما أُذِن له في تأديبهم والتشديد عليهم، فتح لهم بابا من الرحمة، فكان يستغفر لهم ويدعو لهم، كما فعل مع رئيس المنافقين عبد الله بن أبي حتى أنزل عليه: ﴿ استَغفِر لهم أو لا تَستغفر لهم ﴾[سورة التوبة:٨٠] فقال: "خيَّرني ربي فاخترت أن أستغفر لهم" ولما قال تعالى: ﴿ إن تَستَغفر لهم سبعينَ مرَّة فلن يَغفرَ اللهُ لهم ﴾[سورة التوبة:٨٠] فقال صلى الله عليه وسلم: سأزيده على السبعين، وقام يريد الصلاة عليه، فعندئذ لم يتمالك سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جادل النبي صلى الله عليه وسلم، وحاول أن يمنعه من الصلاة عليه وقال له: "أتصلي على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا:كذا وكذا ؟ يعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "أخِّر عني يا عمر" قال عمر: فلما أكثرت عليه قال: "إنّي خُيِّرت فاخترت، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها" قال: "فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة: ﴿ ولا تُصلِّ على أحدٍ منهم ماتَ أبدا ﴾ إلى قوله: ﴿ وهُم فاسقون ﴾[سورة التوبة:٨٤] قال عمر: فعجبت بعدُ من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، والله ورسوله أعلم"(١) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين والاستغفار للمشركين ١٢١/٢ وفي تفسير سورة التوبة ٨٥/٦ .

٥ - وكان عليه الصلاة والسلام قد أعطاه قميصه ليكفّن فيه، بعد أن سأله منه ابنه عبد الله(١)، لاجرم أن هذا حلم نبوة لم يسمع بمثله في سائر البشر .

دلالة حلمه صلى الله عليه وسلم على نبوته :

ولقد كان هذا الحلم علَما من أعلام نبوته صلى الله وعليه وسلم التي كانت معلومة لأهل الكتاب من كتبهم المنزّلة :

١ - فقد روى عبد الله بن سلاَم رضي الله عنه أن الله تعالى لمّا أراد هداية زيد بن سَعْنة(٢) قال زيد: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه، إلا اثنتان لم أخبُرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ... ثم أقرض النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين دينارا قال: فلما كان قبل المحِل بيوم أو يومين أو بثلاثة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة بالبقيع ومعه أبوبكر وعمر في نَفَر من الصحابة، فلما صلّى على الجنازة، ودنا من الجدار جذبتُ بردَه جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقه، ثم أقبلت بوجهٍ جَهم غليظٍ، فقلت: ألا تقضيني يامحمد، فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لَمُطُلٌ(٣)، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، قال زيد: فارتعدت فرائصُ(٤) عمر بن الخطاب رضي الله عنه كالفلَك المستدير، ثم رمى ببصره، ثم قال: أيْ عدوَّ الله تقول هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وتصنع به ما أرى ؟ وتقول ما أسمع ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقني رأسك! ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليَّ في تُؤدة وسكون، ثم تبسّم ثم قال:"لأنا وهو أحوج

---

(١) كما في رواية البخاري في الجنائز ٩٦/٢ من حديث ابن عمر رضي الله عنه .

(٢) الحبر أحد أحبار يهود ومن أكثرهم مالا، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم مشاهد كثيرة، وتوفي في غزوة تبوك أثناء رجوعه إلى المدينة، انظر أُسد الغابة ٢٣١/٢، والإصابة ٥٦٦/١ .

(٣) أي: مماطلين، من مطله بدينه مطلا: إذا سوفه بوعد الوفاء مرة بعد أخرى، المصباح المنير ٢٤١/٢ .

(٤) الفريصة: لحمة بين الجنب والكتف، لا تزال ترعد من الدابة، وجمعها: فرايص وفرائص، والمراد هنا: عصب الرقبة وعروقها؛ لأنها هي التي تثور عند الغضب، انظر النهاية ٤٣١/٣، ومختار الصحاح ص ٤٩٨ .

إلى غير هذا؛ أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن اتباعه" .

ثم قال لعمر رضي الله عنه: "اذهب به يا عمر، فاقضه حقه، وزده عشرين صاعا من تمر مكان ما رُعته(١) قال: فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعا من تمر...، فلما تبين له ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم آمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة"(٢)، ومات في غزوة تبوك رضي الله عنه .

وما كان زيد بن سَعْنَة رضي الله عنه سيفرِّط بيهوديته وهو حَبر لولا إدراكه ما يعلمه من علامة نبوته من كتبهم ، فلما أدركها حقيقة لم يلبث أن آمن، وقد قال لعمر رضي الله عنه بعد أن عرفه بنفسه، فسأله عمر رضي الله عنه عمَّا حمله على فعل ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله له ذلك القول الغليظ، فقال له زيد: يا عمر إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا قد عرفتها في وجه رسول الله تعالى صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه،إلا اثنتان لم أخبُرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد اختبرته، فأشهدُك يا عمر أني قد رضيت بالله ربا، وبمحمد نبيا، وأشهدك أن شطر مالي(٣) - فإني أكثرها مالا - صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقال له عمر أو على بعضهم فإنك لا تسعهم كلهم، قال: أو على بعضهم(٤) .

---

(١) بضم الراء أي: ما روعته، بمعنى: خوفته .

(٢) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه كما في موارد الظمآن ص ٥١٦ برقم ٢١٠٥، وأبو الشيخ في الأخلاق ص ٨١-٨٣، والحاكم في المستدرك ٦٠٤/٣، والبغوي في الأنوار برقم ٢٢٦، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٤٣/٨ إلى الطبراني .

قال الهيثمي: ورجاله ثقات، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووثق رجاله أيضا الحافظ ابن حجر في الإصابة ٥٦٦/١ عند ترجمته، وذكر له شاهدا من وجه آخر .

ولفظ الحديث هنا مختصر عما هو عليه في مواطنه السابقة .

(٣) أي: نصفه .

(٤) هو تتمة الحديث السابق .

ودلالة خلق الحلم والعفو والصفح على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت معلومة لأهل الكتاب، ويعرفونه بها كما يعرفون أبناءهم، قد جاءت مبيَّنة في روايات كثيرة، رواها أولئك الأحبار الذين هداهم الله تعالى للإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم والدخول في الإسلام .

٢ ـ فقد سأل ابنُ عباس رضي الله عنهما كعبَ الأحبار(١) عن نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة فقال: "نجده محمد بن عبد الله، مولده بمكة، ومُهاجره إلى طابة، ويكون ملكه بالشام، ليس بفحّاش ولا بصخاب في الأسواق، ولا يكافىء بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر"(٢) .

٣ ـ وكان عبد الله بن سلّام رضي الله عنه يقول: "إن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة: "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشّرا ونذيرا، وحِرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سمّيتُك المتوكّل، ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينا عُمْيًا ، وآذانا صُمًّا، وقلوبا غُلفا" وبلغ ذلك كعبا فقال: صدق عبد الله بن سلام"(٣) .

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما يقول: "والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في

---

(١) التابعي المشهور، المتفق على كثرة علمه وتوثيقه، أدرك زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره، وأسلم في خلافة أبي بكر وقيل: في خلافة عمر رضي الله عنهما، وكان من أحبار يهود في اليمن، وصحب عمر وأكثر من الرواية عنه، وتوفي سنة ٣٢ هـ، في خلافة عثمان رضي الله عنه بحمص، انظر طبقات ابن سعد ٤٤٥/٧، وتهذيب الأسماء ٦٨/٢ .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٦٠/١، والبيهقي في الدلائل ٣٧٧/١ .

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣٦٠/١، والبيهقي في الدلائل ٣٧٤/١ .

الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يَقبضه ا لله حتى يقيم به المِلّة العوجاء بأن يقولوا: لا إلٰه إلا ا لله، ويفتح به أعينا عُميا، وآذانا صُمًّا، وقُلوبا غُلفا"(١) .

إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة عنهم في كل كمال خُلُقي منبىء عن نبوته ورسالته.

حلمه صلى ا لله عليه وسلم وعفوه وصفحه عن أهل بيته :

ولئن حلم المرء أو تحلَّم عن أعدائه أو أصدقائه لأغراض نبيلة وأهداف عالية، فإنه لا يقدر على فعل ذلك مع أهل بيته الذين يعاشرهم صباحا ومساء، ولا بد أن تنِدَّ منهم زلة يستاء منها المرء، وتستوجب الزجر والتأديب، حتى لا تتكرر مثل تلك الإساءة، وحلم الحليم يطيش عند ذلك ولا بد، إما عن غير قصد، أو بقصد لأجل التأديب .

و لم يعرف خلاف ذلك إلا في رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم الذي كان حلمه وعفوه عن أهل بيته كما كان عن أعدائه وعن أصحابه،لا يتغير أبدا وإن اختلفت الصور، فتمثل ذلك الخلق فيه صلى ا لله عليه وسلم لم يتغير .

و لمّا كان هذا النوع من الحلم شديد اللزوم للأخلاق الأسرية الآتي بيانها، فإني أرجىء الحديث عنه هنا، ليكون هناك مع مناسبة ذكره، وذلك خشية الاضطرار إلى التكرار، وا لله الموفق(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب كراهية الصخب في الأسواق ٨٧/٣ .

(٢) انظر ص٧١١ .

المبحث الرَّابع

(خلق الرحمة)

الرحمة في اللغة: الرقة والمغفرة والتعطف، يقال: رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه(١).

وحقيقتها : رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم .

وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة .

وإذا وصف بها الباري سبحانه فليس يراد بها الإحسان المجرد دون الرقة(٢)؛ لأن الرقة تعني انفعالا في النفس يقتضي التأثر لحال المرحوم فيرحم، وا لله تعالى منزه عن التأثر والانفعال(٣) .

قال الراغب: "الرحمة منطوية على معنيين الرقة والإحسان، فركز تعالى في طبائع الناس الرقة وتفرد بالإحسان"(٤)، كذا يقول الراغب وغيره، والصواب في أسمائه تعالى وصفاته سبحانه التي وردت في كتابه أو صحت على لسان نبيه أننا نمرها كما جاءت من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تأويل .

منزلة خلق الرحمة في الأخلاق السلوكية :

وهي من الأخلاق القرآنية العظيمة التي كانت لها العناية الكبرى في القرآن الكريم من حيث ذكرها والتنويه بشأنها، لما لها من عظيم الأثر في الحياة الدينية والدنيوية .

الرحمة صفة من صفات ا لله تعالى :

وهي صفة من صفات الحق تبارك وتعالى التي وصف بها نفسه كثيرا في القرآن العظيم في نحو من مائتي، فضلا عن تصدر كل سورة بصفتي الرحمن الرحيم، وذلك في البسملة التي هي آية من كل سورة عدا سورة براءة(٥) .

---

(١) القاموس المحيط ١١٧/٤، والصحاح للجوهري ١٩٢٩/٥، ومجمل اللغة لابن فارس ٤٢٤/٢ .

(٢) المفردات للراغب ص ١٩١ .

(٣) انظر تفسير القرطبي ١٠٦/١، وتفسير الطاهر بن عاشور ١٧٠/١ .

(٤) المفردات ص ١٩١ .

(٥) وللعلماء كلام طويل في الفرق بين صفتي الرحمن والرحيم، وحاصله: أن الرحمن: رحمن الدنيا والآخرة =

وذلك للدلالة على مبلغ رحمته العظيمة وشمولها العام بعباده ومخلوقاته كما نطقت بذلك بعض آياته كقوله تعالى: ﴿ ورحمتي وَسِعت كلَّ شيءٍ فسأكتُبها لِلذين يَتَّقُونَ ويُؤتونَ الزَّكاة والَّذين هم بآياتِنا يُؤمنون * الَّذين يَتَّبِعون الرَّسولَ النَّبيَّ الأمي ...﴾[سورة الأعراف:١٥٦،١٥٧] .

وقوله على لسان ملائكته الكرام وهم أعلم الخلق بربهم: ﴿ ربَّنا وسِعتَ كلَّ شيءٍ رحمةً وعِلما فاغفِر لِلَّذين تابوا واتَّبعوا سبيلَك وقِهم عذابَ الجحيم ﴾[سورة غافر:٧] .

وعلَّم نبيه ومصطفاه محمدا صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين إن هم كذبوه ﴿ ربُّكم ذُو رحمةٍ واسِعة ولا يُرَدُّ بأسُه عن القوم المجرمين ﴾[سورة الأنعام:١٤٧] ليجمع لهم بين الرغبة والرهبة، فلعل الرغبة في المغفرة تحملهم على الإيمان، فإن لم تحملهم الرغبة فالرهبة كافية لزجرهم عن التمادي في الكفر .

ولقد قرر الله تعالى في كتابه الكريم أن الرحمة صفته الثابتة التي لا تزول عنه أبدا كما قال سبحانه: ﴿ كتَبَ ربُّكم على نفسِه الرَّحمة ﴾[سورة الأنعام:٥٤] .

"وقد ظهرت آثار رحمته في الخليقة كلها، فما من أحد مسلم أو كافر إلا وعليه من آثار رحمته في هذه الدنيا، فبها يتعايشون ويؤاخُون ويوادُّون، وفيها يتقلَّبون لكنها للمؤمنين خاصة في الآخرة لا حظ للكافر فيها"(١) .

مظاهر رحمته سبحانه بخلقه :

وقد كانت أجل مظاهر رحمة الله تعالى أن بعث لهم رسله تَترَى، ثم بعث خاتم أنبيائه وسيد رسله وصفوته من خلقه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه الذي امتنَّ به على الأمة،وكشف به الظلمة،وأزاح به الغمة،وجعله رحمة للعالمين أجمعين،كما قال الله تعالى: ﴿ وما أَرسلناكَ إلَّا رحمة للعالمين ﴾[سورة الأنبياء:١٠٧] .

وكما قال: ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨] .

---

(١) محاسن التأويل ١٥٧/٧ .

وذلك لما في بعثته من الهداية إلى دين الله،والدلالة على معالم دينه،وطريقه المستقيم الذي من سلكه هُدي إلى النعيم المقيم، كما سيأتي مزيد بيان ذلك في الجانب التطبيقي لهذا الخلق العظيم .

ومن مظاهر رحمته سبحانه وتعالى أن خلق لعباده ما يسكنون إليه من الأزواج راحة لأنفسهم،وإحياء لأصلهم،وتكاثرا لنسلهم،كما امتنَّ عليهم بذلك حيث قال: ﴿ ومن آياتِه أن خلقَ لكم من أنفُسِكم أزواجا لِتَسكنوا إليها وجعلَ بينَكم مودَّةً ورَحمة إنَّ في ذلك لأياتٍ لقوم يتفكَّرون ﴾[سورة الروم٢١] .

ومظاهر رحمته بخليقته لا تُحصى، ويكفي أن نعلم أنه : (أرحم الراحمين) وأنه (كتب على نفسه الرحمة) كما أخبر عن نفسه بذلك في محكم أياته الكريمة .

وقد حدث النبي صلى الله عليه وسلم عن رحمة الله تعالى ومبلغ سعتها وكنهها، وذلك فيما أخرجه الشيخان من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: " إن الله لمَّا قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إنَّ رحمتي سبقت غضبي"(١).

وما أخرجاه أيضا من حديثه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "جعل اللهُ الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعةً وتسعين وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تَتَراحم الخلائق حتى ترفع الدَّابةُ حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه"(٢) .

وما أخرجاه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله

---

(١) البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ٥٣/٩، وباب ﴿ ولقد سبقت كلمتُنا لعبادنا المرسلين ﴾ ص ١٦٥، ومسلم في التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه برقم ٢٧٥١ .

(٢) البخاري في الأدب، باب جعل الله الرحمة في مائة جزء ٩/٨، وفي الرقاق، باب الرجاء مع الخوف ١٢٣/٨، ومسلم في التوبة، باب سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه برقم ٢٧٥٤ .

صلى ا لله عليه وسلم بسبي فإذا امرأة من السبي تَسعى قد تحلّب(١) ثديُها، إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ قلنا: لا وا لله ، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "َلله أرحم بعباده من هذه بولدها"(٢) .

وفي هذه الأحاديث ما يوضح سعة رحمة ا لله تعالى ويقرِّب إدراكها إلى العقول البشرية.

الرحمة من صفات المؤمنين وأخلاقهم :

وكما أن الرحمة صفة من صفات ا لله تعالى فإنه سبحانه قد أثبتها لعباده المؤمنين وندبهم إلى التحلي بها .

فقد قال ا لله جل ذكره في شأن أصحاب محمد صلى ا لله عليه وسلم: ﴿ محمدٌ رسولُ ا لله والّذين معه أشِدّاءُ على الكُفّارِ رحماءُ بينهم ...﴾[سورة محمد:٢٩] .

كما أثبتها بلازمها لهم ولمن اتصف بصفاتهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ياأيُّها الذين آمنوا من يَرتدَّ منكم عن دِينه فسوفَ يَأتي ا للهُ بقومٍ يحبُّهم ويُحبّونه أذلّةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين ...﴾[سورة المائدة:٥٤] إذ الذلة التي يتحلون بها فيما بينهم مسببة عن التراحم السائد بينهم، وهذا دليل على أن الرحمة من أجلِّ صفات المؤمنين حيث كان حديث القرآن عن الرحمة لديهم في معرض الامتنان والثناء والمدح البليغ .

مما يدل على عظيم مكانة المتراحمين من المسلمين عند ا لله تعالى، وقد دلَّ على ذلك ما أعده ا لله تعالى لهم من الأجر والثواب الذي أفصحت عنه أيات سورة البلد حيث قال ا لله تعالى: ﴿ ثُمّ كان من الذين آمنوا وتَواصوا بالصَّبر وتواصوا بالمَرحمة * أولئِك أصحابُ الميَمنَة ﴾[سورة البلد:١٧،١٨] ، أي أصحاب اليمين الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم،والذين

---

(١) أي: اجتمع حليب ثديها فيه .

(٢) البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٩/٨، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة ا لله وأنها سبقت غضبه برقم ٢٧٥٤ .

قال الله تعالى فيهم: ﴿ وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين * في سِدر مَخضود * وطَلْح منضود * وظِلٍ ممدود * وماءٍ مسكوب * وفاكهةٍ كثيرةٍ* لا مَقطُوعة ولا ممنوعة * وفُرُش مَرفوعة ﴾[سورة الواقعة:٢٧-٣٤] .

حض المؤمنين على التحلي بها :

ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى التحلي بالرحمة،وحثهم عليها في بعض مواطنها لكبير أهميتها في تلك المواطن، لينالوا أجرها وعظيم ثوابها ،

وذلك كالرحمة بالوالدين اللَّذَين لهما الفضل الأكبر بعد الله تعالى في الإيجاد والإمداد والتربية، واللَّذَين عظَّم الله شأنهما وقرن شكرهما بشكره،وطاعتهما بطاعته، فكانت الرحمة بهما لا سيما عند الكبر محتَّمة حيث قال الله تعالى: ﴿ واخفِض لهما جَناحَ الذُّل من الرحمة وقُل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صَغيرًا ﴾[سورة الإسراء:٢٤] .

ونلاحظ أن الله تعالى لم يحث على مجرد الرحمة التي تعني الرِّقة والانكسار فحسب، بل أراد أكثر من ذلك وهو الذُّل والتواضع لهما،والخضوع بين يديهما بأبلغ تعبير وأعظم أسلوب، وهو أسلوب الاستعارة المكنِيَّة، حيث« صيغ التَّعبير عن التَّواضع بتصويره في هيئة تذلُّل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشد منه،إذ يخفض جناحه له متذلِّلا، وذِكرُ الجَناح تَخييلٌ،بمنزلة تخييل الأظفار للمنية في قول الشاعر:

وإذا المَنِيَّةُ أَنشبت أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمة لا تنفع

وبمجموع هذه الاستعارة تصبح الاستعارة تمثيلية»(١) .

وقد بينت السنة المشرفة المواطن الأخرى الكثيرة للرحمة كما سيأتي ذكر طرف منها في التطبيق النبوي لهذا الخلق الكريم قريبا إن شاء الله تعالى .

مواطن الرحمة :

والرحمة وإن كانت مطلوبة في كل حال من أحوالها إلا أن مفهومها يختلف في بعض مواطنها، تبعا لاختلاف النظر في آثارها ،

---

(١) التحرير والتنوير ١٥/٧٠ .

إذ الرحمة ليست رقة في القلب على المرحوم فحسب، بل كذلك على من يستدعي حالُه الرحمة من أفراد المجتمع، فالذي نُهب ماله حقُّه أن يُرحم، والذي انتُهك عرضُه حقه أن يُرحم، والذي أُزهق روحه حقه أن يُرحم ...، ورحمةُ أولئك تكون بكف يد الفساد التي فعلت بهم ذلك، والقصاص منهم، حتى يستتِبَّ الأمن والاستقرار والنزاهة في المجتمع، ورحمة الجاني في هذه المواطن ليست حميدة، لذلك نهى الله تعالى المؤمنين أن تأخذهم به رحمة حيث قال الله عز وجل: ﴿ الزَّانيةُ والزَّاني فاجلِدوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلدة ولا تأخذْكم بهما رأفةٌ في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله وباليوم الآخِر وليشهد عذابَهما طائفةٌ من المؤمنين ﴾[سورة النور: ٢] .

وإنما نهى الله تعالى عن الرأفة بهم لما في عقابهم من ردعهم وردع أمثالهم عن الاستطالة إلى حقوق المؤمنين وأعراضهم وأرواحهم،فيطهر المجتمع من الفساد، ويصبح نقيًّا راشدا في ازدياد،كما قال الله تعالى في سر ذلك: ﴿ ولكم في القِصاص حياةٌ يا أولي الألبَابِ لعلَّكم تتَّقون ﴾[سورة البقرة:١٧٩] .

تمثل خلق الرحمة

في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد سبقت الإشارة إلى أن من أجل مظاهر رحمة الله بعباده هو بعثة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي كانت بعثته رحمة للعالمين كما أخبر الله تعالى بذلك ممتنا عليهم بهذه النعمة الكبرى،والغِبطة العظمى حيث قال سبحانه: ﴿ وما أَرسلناك إلَّا رحمةً للعالمين ﴾ [سورة الأنبياء:١٠٧] ، وقال جل شأنه: ﴿ ومِنهم الَّذين يُؤْذُونَ النَّبي ويَقولُون هو أُذُنٌ(١) قل أُذُنُ خيرٍ لكم(٢) يؤمنُ با للهِ ويؤمنُ لِلمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا منكم والَّذين يُؤْذُون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾[سورة التوبة:٦١] .

وقال عز وجل واصفا له ولأخلاقه أيضا: ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤُوفٌ رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨] .

فترى أن الله تعالى وتقدَّس سمى نبيَّه المصطفى سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة، في الآيتين السابقتين، وهي مصدر يفيد المبالغة، ويدل على أن هذا الوصف فيه متمكن لا يتغير .

وقد دل على هذا مظاهر رحمته الكثيرة على العالمين في أخلاقه وتشريعاته كما سيأتي بيانه، وفي الآية الثالثة وصفه الله تعالى باسمين من أسمائه الحسنى، وهما رؤوف رحيم "ولم يسمِّ أحدا من أنبيائه بذلك، وذلك للدلالة على أنه أرحم الخلق وأعطفهم وأشفقهم وأرقهم قلبا .

فدلت الآيتان على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كله رحمة في شمائله وصفاته،في حياته ومماته، فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم هو ذاته رحمة فكيف يتصور تمثل خلق الرحمة فيه ؟!

---

(١) أي: أنه يسمع كل قول يقال له ويقبله، فإذا حلفنا له أنا لم نقل صدقنا .

(٢) أي: كونه يسمع الخير، ويقبل الاعتذار خير لكم، فهو تصديق لهم بما وصفوه من مكارم الأخلاق وهم لا يشعرون، ولكن لا على الوجه الذي أرادوه، بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله، وقد فسر ذلك بقوله: يؤمن با لله الآيه. انظر تفسير البيضاوي ص ٢٥٨ والجلالين ١/٢٢٢ .

إن مظاهر رحمة من كان كذلك ينوء بها الحصر؛ لأنها تكون في كل شئونه في حياته، حتى بعد وفاته، كما قال عليه الصلاة والسلام: "إذا أراد الله رحمة بأمّة قبض نبيها فجعله لها فَرَطا وسلفا، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي فأهلكها وهو ينظر فأقرّ عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره"(١) .

وكما قال عليه الصلاة والسلام: "حياتي خيرٌ لكم ومماتي خير لكم"(٢) .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يفصح عن حقيقته التي جعله الله تعالى فيها فيقول: "يا أيُّها الناس إنما أنا رحمة مهداة"(٣)، ويقول: "إنيِّ لم أبعث لعّانا إنما بعثت رحمة"(٤) .

ورحمته صلى الله عليه وسلم عالمية كما أخبر الله تعالى؛ فما من أحد من الجن والإنس إلا وقد نال حظا من رحمته صلى الله عليه وسلم، المؤمن بالهداية، والمنافق بالأمن من القتل، والكافر بتأخير العذاب(٥)، بل إن جميع العوالم داخلة في هذه الرحمة لمقتضي

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل، باب إذا أراد الله رحمة أمة قبض نبيها قبلها برقم ٢٢٨٨ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(٢) عزاه الهيثمي في المجمع ٢٧/٩ إلى البزار من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: ورجاله رجال الصحيح، وعزاه السيوطي في مناهل الصفا برقم ٨ إلى الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث بكر بن عبد الله المزني .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣٥/١، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٦٠/٨ إلى البزار، وإلى الطبراني في الأوسط والصغير، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال الهيثمي: ورجال البزار رجال الصحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، وأقره الذهبي، وقال العراقي في تخريج الإحياء ١٤٨/٤: ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد المجيد بن عبد العزيز وإن أخرج له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي، فقد ضعفه كثيرون، قلت: ولذلك ضعفه الألباني في الضعيفة برقم ٩٧٥، ولكن تصحيح من صححه واعتماد مسلم للراوي المتكلم فيه وتوثيق ابن معين له، أقوى من تضعيف من ضعفه، والله أعلم .

(٤) صحيح تقدم ذكره في مبحث الوفاء ص٥٨٢

(٥) الشفاء للقاضي عياض ١٧/١ .

الدلالة اللفظية (للعالمين) فإنه جمع عالَم، والألف واللام فيه لاستغراق كل ما يصدق عليه اسم العالَم، والعوالِم كثيرة، هذا هو ظاهر اللفظ، ولا ينبغي أن يصرف اللفظ عن ظاهره إلا إذا استحال حمله عليه وأيدته الدلائل على صرفه عنه .

فكيف به إذا كانت الدلائل تشهد بصحة حمله على ظاهره كما سيأتي قريبا في مظاهر رحمته، ولذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: "وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿ وما أرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالمين ﴾[سورة الأنبياء:١٠٧] أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان :

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه، فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عجل لهم قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر .

وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرا بذلك العهد من المحاربين له .

وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامهم، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها .

وأما الأمم النائية عنه، فإن الله سبحانه وتعالى رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته .

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكنَّ المؤمنين قبلوا هذه الرحمة وانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون لهم رحمة، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض"(١).

---

(١) جلاء الأفهام في الصلاة والصيام على خير الأنام ص ٩٠، وانظر التحرير والتنوير ١٦٧/١٧ .

مظاهر رحمته صلى ا لله عليه وسلم :

إذا علمت هذا فاعلم أن رحمته صلى ا لله عليه وسلم أضحت ماثلة لذي عينين، في صور كثيرة، نجتزىء منها على ما يلي :

أولا رحمته بالمؤمنين :

أما رحمته صلى ا لله عليه وسلم بالمؤمنين فقد دل عليها صريح الكتاب حيث قال ا لله تعالى: ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنفُسِكم عزيزٌ عليه ما عنِتّم حريصٌ عليكم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم ﴾[سورة التوبة:١٢٨] .

وقال: ﴿ ... ورحمةٌ للذين آمنوا مِنكم ﴾[سورة التوبة:٦١] .

وقد كانت رحمته صلى ا لله عليه وسلم بالمؤمنين عظيمة حيث كان أرأف بهم من أنفسهم كما قص ا لله تعالى عنه ذلك بقوله تعالى : ﴿ النَّبيُّ أولى بالمؤمنين من أنفسِهم... ﴾[سورة الأحزاب:٦] يعني أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم من أنفسهم، كما كان يقول ذلك عن نفسه فيما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه أنه صلى ا لله عليه وسلم قال: "ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنينَ من أنفُسِهم ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا فلترثه عصبته ما كانوا، وإن ترك دنيا أو ضَياعا(١) أو عيالا فليأتني فأنا مولاه"(٢) .

وشواهد رحمته صلى ا لله عليه وسلم بالمؤمنين يضيق بها الحصر هنا، ولكن لا بد من ذكر طرف منهافيما يأتي :

١- رحمته بهم في العبادة:

حيث لم يكلفهم من ذلك ما يجهدهم أو يشق عليهم بل كان يقول :

١ - "يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن ا لله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب

---

(١) الضياع: العيال، وذكر العيال بعدها كما في رواية البخاري شك من الراوي أيهما سمعه .

(٢) البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٥/٦، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته برقم ١٦١٩ .

الأعمال إلى الله ما دام وإن قل"(١) .

٢ - ويقول: "إنَّ هذا الدين يُسر ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا وأبشروا واستَعينوا بالغُدوة والرَّوْحة وشيء من الدُّلْجة"(٢) .

٣ - ودخل مرة المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال: "ما هذا الحبل ؟ فقالوا: حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا، حلوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد"(٣) .

٤ - وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "نهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الوِصال رحمة لهم فقالوا: إنك تواصل فقال: "إنِّي لست كهيئتكم إني يطعمني ربي ويسقيني"(٤) .

٥- وكثيرا ما كان يقول: لولا أن أشقَّ على أمتيِّ لأمرتهم بكذا؛

كقوله صلى الله عليه وسلم: "لولا أن أشقَّ على أمتي،أو على الناس لأمرتهم

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه ١٨/١، وفي الرقاق، باب القصد والمداومة في العمل ١٢٢/٨، من حديث عائشة رضي الله عنها، ومسلم في الصلاة، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل برقم ٧٨٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب الدين يسر ... ١٧/١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم في صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله برقم ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان، باب الدين اليسر ١٢١/٨ .

والدُّلجة: سير الليل، والمراد به العمل في الليل، وقوله: "وشيئا من الدلجة": إشارة إلى تقليله، والمشادة: مفاعلة من الشد أي: لن يغلب، ولن يقاوي أحد الدين إلا غلبه اهـ جامع الأصول لابن الأثير ٣٠٩/٨

(٣) أخرجه البخاري في أبواب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة ٦٧/٢ من حديث أنس رضي الله عنه، وأبو داود في الصلاة، باب النعاس في الصلاة برقم ١٣١٢، والنسائي في قيام الليل، باب الاختلاف على عائشة في إحياء الليل ٢١٨/٣-٢١٩ .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم برقم ١١٠٥ .

بالسّواك عند كل صلاة"(١) .

وقوله: "لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم أن يُؤخِّروا العشاء إلى ثُلث الليل ، أو قال: نصفه"(٢) .

٦- وكثيرا ما كان يترك العمل وهو يودُّ أن يعمله خشية أن تقتدي به أمته فيفرض عليها ثم لا تستطيعه كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيدع العملَ وهو يحبُّ أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم"(٣) .

وكما دل على ذلك قصّةُ امتناعه صلى الله عليه وسلم عن الخروج في الليلة الثالثة لصلاة القيام لما رأى الصحابة قد تجمَّعوا يريدون أن يأتمُّوا به، فلما أصبح قال لهم: "قد رأيت الذي صنعتم و لم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيتُ أن تفرض عليكم"(٤) .

٧- وقد كان من رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته أنه كان يدخل في الصلاة التي هي قرَّة عينه، وهو يريد إطالتها، فيسمع بكاء الصبي فيتجوَّز فيها مراعاة لأمه لما يعلمه من شدة وُجدها عليه لبكائه، كما قال عليه الصلاة والسلام: "إني لأقوم في الصلاة أريدُ أن أطوِّل فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه"(٥) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة، باب السواك يوم الجمعة ٥/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة، باب ما جاء في تأخير صلاة العشاء الآخرة برقم ١٦٧، والنسائي في المواقيت، باب ما يستحب من تأخير العشاء ٢٦٦/١، وابن ماجة في الصلاة برقم ٦٩١، والحاكم في المستدرك ١٤٦/١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأحمد في المسند ٤١٠/٥، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد، باب تحريض النبي صلى الله عليه وسلم على قيام الليل ٦٢/٢ .

(٤) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ص ٦٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة، باب من أخف الصلاة عند بكاء الصبي ١٧١/١، ومسلم في الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة برقم ٤٧٠، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه، واللفظ للبخاري .

٨- وقد حدَّث مالك بن الحويرث(١) رضي الله عنه عمَّا لمسه من رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لمَّا أتاه ومن معه من قومه يريدون الهجرة والبقاء لطلب العلم ونصرته صلى الله عليه وسلم، فرحم غربتهم وأذن لهم بالرجوع إلى أهليهم، كما قال مالك رضي الله عنه : "أتينا النبي صلى الله عليه وسلم ونحن شَبَبَةٌ(٢) متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة فظن أنا اشتقنا أهلنا، وسألَنا عمَّن تركنا في أهلنا، فأخبرناه - وكان رفيقا رحيما - فقال: "ارجعوا إلى أهليكم فعلِّموهم ومُروهم وصلُّوا كما رأيتموني أصلي، وإذا حضرت الصلاة فليؤذِّن أحدكم ثم ليؤمُّكم أكبركم"(٣) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على عظيم رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته، والمذكورة في أبواب متفرقة من كتب الحديث والشمائل .

تنبيه:

والذي تنبغي الإشارة إليه هنا هو أن ما تقدم من رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته في العبادة، وكراهية أن يشق عليه فيها، كان القصد من ذلك هو كراهيته الغلوُّ في التعبد والإفراط فيه حتى يضر المرء بجسمه وواجباته الأخرى، فيفرِّط في حقوق أخرى كثيرة، كما قال لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: "ألم أُخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل، صم وأفطر، ونَم وقم، فإنَّ لجسدك عليك حقا، وإن لعينيك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لِزَورِك(٤) عليك حقا ..." .

---

(١) الليثي سكن البصرة وتوفي بها سنة ٩٤ هـ، انظر الاستيعاب ٣٧٤/٣ مع الإصابة ص ٣٤٢، وتهذيب الأسماء ٨٠/٢ .

(٢) جمع شاب، مثل بار وبررة، الفتح ٢٢١/٢٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان، باب من قال: ليؤذن في السفر مؤذن واحد ١٥٣/١، وفي الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ومسلم في المساجد، باب من أحق بالإمامة برقم ٦٧٤ .

(٤) أي: لضيفك .

وفي رواية قال له: "إنك إذا فعلت ذلك هجَمت(١) له العين، ونفَهت(٢) له النَّفس، لا صام من صام الدهر"(٣) .

وكما علمت من الحديث السابق "خذوا من الأعمال ما تُطيقون" .

أما الاجتهاد في العبادة في حدود الطاقة والمداومة عليها فذلك ما كان يرغب فيه صلى الله عليه وسلم ترغيبا حثيثا، ويطلبه منهم طلبا أكيدا، كما علمت من المباحث التعبدية المارة في بابه .

٢ـ رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته في الآخرة :

ولم تقتصر رحمته صلى الله عليه وسلم على المؤمنين من أمته في الدنيا فقط، بل وفي الآخرة أيضا؛

١ ـ حيث إنه صلى الله عليه وسلم اختبأ دعوته التي وعده الله تعالى أن يستجيب له فيها قطعا إلى يوم القيامة، ليدعو بها لأمته،كما دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الشيخين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لكل نبيٍّ دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئا"(٤) .

قال الإمام النووي: "معناه: أن كل نبي له دعوة متيقَّنة الإجابة،وهو على يقين من إجابتها، وأما باقي دعواتهم فهم على طمع في إجابتها، وبعضها يجاب، وبعضها لا

---

(١) أي: غارت ودخلت في موضعها .

(٢) أي: أعيت وكلت .

(٣) أخرجه البخاري في الصيام في عدة أبواب ٣/٥١-٥٣، وأبواب أخرى من كتب متفرقة وبألفاظ مختلفة، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوَّت به حقا.. برقم ١١٥٩ من عدة طرق .

(٤) البخاري في الدعوات ٨/٨٢، وفي التوحيد، باب المشيئة والإرادة ٩/١٧٠، ومسلم في الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته برقم ١٩٨ .

يجاب، قال: وفي هذا الحديث بيان كمال شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على أمته رأفة بهم، واعتنائه بالنظر في مصالحهم المهمّة فأخّر دعوته لأمته إلى أهم أوقات حاجاتهم"(١).

٢ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿ ربِّ إنَّهنَّ أَضلَلْنَ كثيراً من النَّاس فمن تَبعني فإنَّه منِّي ﴾الآية[سورة إبراهيم:٣٦]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿ إن تُعذّبهم فإنّهم عبادُك وإن تغفرْ لهم فإنَّك أنت العزيزُ الحكيم ﴾[سورة المائدة:١١٨] فرفع يديه وقال: "اللهم أمَّتي أمَّتي وبكى" فقال الله عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال ـ وهو أعلم ـ فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك"(٢) .

فانظرإلى كمال شفقته صلى الله عليه وسلم بأمته ورأفته بهم ورحمته إياهم، فإن رحمته بهم لم تنفك حتى ﴿ يوم يَفِرُّ المرءُ من أخيه * وأمِّه وأبيه * وصاحِبَتِه وبنيه * لكلِّ امرىءٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه ﴾[سورة عبس:٣٤-٣٧]، ويوم يقول كل نبي: نفسي نفسي، وهو صلى الله عليه وسلم مهتم بأمته ولا يقر عينًا حتى تدخل أمته الجنَّة، جعلنا الله من أهلها ووالدينا ومشايخنا ومحبينا، وحشرنا في زمرته وتحت لوائه بمنه وكرمه آمين.

٣ـ رحمته صلى الله عليه بالأهل والعيال :

فإنه صلى الله عليه وسلم كان أرأف خلق الله تعالى وأرحمهم بأهله وعياله، بل وغير عياله ،

١ ـ كما قال أنس رضي الله عنه: "ما رأيت أحدا كان أرحمَ بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان إبراهيم ـ يعني ولده صلى الله عليه وسلم من ماربة القبطية رضي الله عنها ـ مسترضعا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل

(١) شرح مسلم ٣/٧٥، وانظر فتح الباري ٢٣/١١٣ .

(٢) أخرجه مسلم في الشفاعة، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لأمته وبكائه وشفقته عليهم برقم ٣٤٦ .

البيت وإنه ليدخّن، وكان ظئره - أي: زوج مرضعته قينا(١) - فيأخذه فيقبله ثم يرجع، قال: فلما توفي إبراهيم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ إبراهيم ابني وإنّه مات في الثُدي وإن له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة"(٢) .

٢ - وفي حديث آخر عنه رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سيف القَين(٣)، وكان ظئراً لإبراهيم، قال: فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبَّله وشمَّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه فجعلتْ عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان،فقال عبد الرحمن بن عوف(٤) رضي الله عنه: وأنت يارسول الله(٥) ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "يا ابن عوف إنها رحمة، ثم أتبعها بأخرى(٦) فقال: "إن العين لَتدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يُرضي ربَّنا،

---

(١) الظئر: بكسر الظاء هي المرضعة ولد غيرها، وزوجها ظئر لذلك الرضيع، فيقع على الذكر والأنثى ، شرح مسلم ٧٦/١٥ .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل، باب رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال وتواضعه برقم ٢٣١٦ .

(٣) أبو سيف هو زوج مرضعة إبراهيم، واسمه البراء بن أوس، وكان حدادا، والقين: الحداد، الإصابة ٩٨/٤ .

(٤) الزهري، من السابقين إلى الإسلام، أسلم على يد أبي بكر رضي الله عنهما، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد أهل الشورى الذين عينهم عمر رضي الله عنه عند موته، مناقبه كثيرة توفي سنة ٣٢ هـ، انظر طبقات ابن سعد ١٢٤/٣، وتهذيب الأسماء ٣٠٠/١ وغيرهما .

(٥) أي: وأنت تبكي، وقد نهيتنا عن البكاء، لظنه أن ذلك مما شمله نهيه صلى الله عليه وسلم كما وقع في حديث عبد الرحمن نفسه، وقال الطيبي: فيه معنى التعجب، والواو تستدعي معطوفا عليه، أي: الناس لا يصبرون على المصيبة، وأنت تفعل كفعلهم، كأنه تعجب لذلك منه، مع عهده أنه يحث على الصبر وينهى عن الجزع، فأجابه بقوله: إنها رحمة، أي: الحالة التي شاهدتها مني هي رقة القلب على المولود لا ما توهمت من الجزع. ا.هـ فتح الباري ٢١١/٦-٢١٢ .

(٦) أي: أتبع الدمعة الأولى بدمعة أخرى، وقيل: أتبع الكلمة الأولى المجملة وهي قوله" (إنها رحمة) بكلمة أخرى مفصلة وهي قوله: (وإن العين تدمع) فتح الباري ٢١٢/٦ .

وإنا لفراقك يا إبرهيم لمحزونون"(١) .

٣ ـ ولقد كانت رحمته صلى ا لله عليه وسلم بالعيال والأطفال مثار تعجب ودهشة في مجتمعه الذي لم يكن يعهد مثل رحمته صلى ا لله عليه وسلم، فعن عائشة رضي ا لله عنها قالت: "قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى ا لله عليه وسلم فقالوا: أتقبّلون صبيانكم ؟ فقلنا: نعم، فقالوا: لكنّا وا لله ما نقبّل، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "أو أملك إن كان ا لله نزع منكم الرّحمة"(٢) .

٤ ـ وعن أبي هريرة رضي ا لله عنهأن الأقرع بن حابس(٣) أبصر النبي صلى ا لله عليه وسلم يقبّل الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "إنه من لا يرحم لا يُرحم"(٤) .

٥ ـ ولقد كانت رحمته بالعيال تحمله على أن يصلّي وهو حامل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، بنت ابنته زينب رضي ا لله عنها(٥)، إذ كانت جارية، فكان إذا سجد

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب قوله صلى ا لله عليه وسلم "وإنا بك لمحزونون" ١٠٥/٢ ومسلم في الفضائل، باب رحمته صلى ا لله عليه وسلم بالصبيان والعيال برقم ٢٣١٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٩/٨، ومسلم في الفضائل، باب رحمته صلى ا لله عليه وسلم بالصبيان ... برقم ٢٣١٨ واللفظ له .

(٣) ابن عقال التميمي، شهد مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فتح مكة، وحنينا وحصار الطائف، وشهد مع خالد بن الوليد فتح العراق والأنبار، وكان شريفا في الجاهلية والإسلام لمّا حسن إسلامه بعد أن تألفه النبي صلى ا لله عليه وسلم بالعطاء الوفير، توفي شهيدا بجوزجان هو والجيش الذي كان معه، وذلك في زمن عثمان رضي ا لله عنه. انظر تهذيب الأسماء ١٢٤/١، والإصابة ٥٨/١ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٩/٨، ومسلم في الفضائل، باب رحمته صلى ا لله عليه وسلم بالصبيان ... برقم ٢٣١٩ .

(٥) كان النبي صلى ا لله عليه وسلم يحبها كثيرا، تزوجها علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه بعد وفاة فاطمة رضي ا لله عنها بوصية منها، ثم تزوّجها بعد علي المغيرة بن نوفل وماتت عنده، انظر أسد الغابة ٢٤٤/٤، والإصابة ٢٣٦/٤، وتهذيب الأسماء ٣٣١/٢ .

وضعها، وإذا قام رفعها كما ثبت ذلك في الصحيحين(١) .

٦ ـ وكذا فعلَه مع الحسن بن علي رضي الله عنه كما جاء من حديث عبد الله بن شداد عن أبيه رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في إحدى صلاتَي العشيِّ وهو حامل حسنا أو حسينا، فتقدَّم النبي صلى الله عليه وسلم فوضعه ثم كبَّر للصلاة فصلَّى فسجد بين ظهراني صلاةٍ سجدةً أطالها، قال: قال أبي: فرفعت رأسي فإذا صبيٌّ على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد ، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال الناس: يارسول الله إنَّك سجدت بين ظهراني صلاة سجدةً أطلتها، حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك، قال: "كلُّ لم يكن، ولكن ابني هذا ارْتَحلني فكرهتُ أن أعجِّله حتى يقضي حاجته»(٢) .

فتأمَّل مبلغ رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال حيث تجعله أن يمكّنهم من امتطاء ظهره وهو في الصلاة، فلا يحب أن ينازعهم في ذلك حتى يكونوا هم التاركين له، فمن يتأسى به صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الرحمة اليوم ؟! .

ولذلك لمَّا علم منه الصحابة رضي الله عنهم ذلك المبلغ من رحمته بالصبيان، كانوا يأتونه بالصبيان فيبرّك عليهم، ويحنّكُهم، من غير أن يتحرَّجوا من ذلك لِعلمهم بحاله صلى الله عليه وسلم في رحمته الصبيان .

٧ ـ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة ١/١٣٠ ، وفي الأدب ، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٨/٨، ومسلم في الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة برقم ٥٤٣ من حديث أبي قتادة .

(٢) أخرجه النسائي في افتتاح الصلاة ٢/٢٢٩ باب هل يجوز أن تكون سجدة أطول من سجدة، وأحمد في المسند ٣/٤٩٤، والحاكم في المستدرك ٣/١٦٦، وصححه ووافقه الذهبي .

يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم، فأتي بصبي فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه بوله و لم يغسله"(١) .

٨ ـ وأتت أم قيس بنت محصن(٢) بابن لها صغير لم يأكل الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجلسه في حجره فبال على ثوبه، فدعا بماء فنضحه و لم يغسله(٣)، و لم يتبرم عليه الصلاة والسلام من بوله ولا ثرَّب ولا عنف من أتى به .

٩ ـ وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول: "اللهم ارحمهما فإني أرحمهما"(٤) .

على هذا النحو كانت رحمته صلى الله عليه وسلم بالعيال،والشواهد على ذلك غير ما ذكر كثيرة مشهورة .

وأما رحمته صلى الله عليه وسلم بالأهل فلعلها قد علمت من مبحث تواضعه من خلال ما كان يقوم به صلى الله عليه وسلم في بيته من أعمال خدمة لأهله ومعونة معهم، حيث كان صلى الله عليه وسلم يخيط ثوبه ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب وضع الصبي في الحجر ١٠/٨، وفي العقيقة، باب تسمية المولود ... وتحنيكه ١٠٨/٧، ومسلم في الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله برقم ٢٨٦ .

(٢) أخت عكاشة بن محصن، كانت ممن أسلم قديما بمكة، وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في نص رواية مسلم السابقة، دعا لها النبي صلى الله عليه وسلم بطول العمر، قال الراوي: فلا نعلم امرأة عمرت ماعمرت، انظر: الإصابة ٤٨٥/٤، والاستيعاب بهامشها كذلك .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء، باب بول الصبيان ٦٣/١، ومسلم في الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع برقم ٢٨٧ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب وضع الصبي على الفخذ ١٠/٨، والإمام أحمد في المسند ٢١٠/٥ واللفظ للبخاري، ولفظ أحمد "اللهم إني أحبهما فأحبهما" .

الرجال في بيوتهم كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي ا لله عنها(١)، وعندما سئلت عما كان يصنع في أهله ؟ قالت يكون في خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة"(٢) .

وقد تقدم بيان كل ذلك في مبحث تواضعه لعلاقتها هناك فلا حاجة لإعادتها فتنظر هناك .

٤- رحمته صلى ا لله عليه وسلم بضعفاء المسلمين :

ومن مظاهر رحمته صلى ا لله عليه وسلم بالمؤمنين رحمته بضعفاء المسلمين من المساكين واليتامى والأرامل ونحوهم من المنكسرة قلوبهم في هذه الحياة .

فلقد كان لهذا الفريق من المسلمين عناية خاصة ونظرة حانية من قلبه الرؤوف الرحيم، إضافة إلى أن ا لله تعالى قد وصّاه بهم خيرا وأرشده في آيات كثيرة إلى ما ينبغي أن تكون عليه معاملتهم لتستن به أمته من بعده، حيث قال ا لله تعالى له صلى ا لله عليه وسلم: ﴿ واصبِر نفسَك مع الّذين يَدعون رّبهم بالغَداةِ والعشيّ يُريدون وجْهَهُ ولا تعدُ عيناكَ عنهم تُريدُ زينةَ الحياةِ الدُّنيا ولا تُطِع مَن أَغفلنا قلبَه عن ذِكرنا واتّبَع هواه وكان أمرُه فُرُطا ﴾[سورة الكهف:٢٨]، وذلك حينما طلب منه أشراف قريش أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخبّاب وابن مسعود لاستئنافهم عن مجالستهم(٣)، فطمع النبي صلى ا لله عليه وسلم في إيمانهم، وأراد أن يجيبهم اتكالا على إيمان أصحابه، فنهاه ا لله عن ذلك بهذه الآية(٤) .

---

(١) حديث صحيح تقدم تخريجه في مبحث التواضع ص ٤٥٧

(٢) حديث صحيح تقدم تخريجه في مبحث التواضع ص٤٥٧.

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم ٣/٨٠ .

(٤) أخرج مسلم رحمه ا لله في فضائل الصحابة رقم ٢٤١٣ عن سعد بن أبي وقاص رضي ا لله عنه قال: كنا مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى ا لله عليه وسلم: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا قال:وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما،فوقع في =

وأرشده في آية أخرى إلى ما ينبغي أن تكون عليه معاملة اليتيم فقال جل شأنه في خطابه له: ﴿ فأمّا اليتيمَ فلا تَقهر * وأما السائِلَ فلا تنهر ﴾[سورة الضحى:٩،١٠] .

فلذلك أولاهم النبي صلى الله عليه وسلم كامل رحمته وعظيم تحنُّنه ورأفته ؛

١ ـ "فكان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضِي له حاجته" كما جاء في حديث النسائي وغيره(١) .

٢ ـ وعن سهل بن حُنيْف(٢) رضي الله عنه« أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم»(٣) .

٣ ـ وقال أنس بن مالك رضي الله عنه :« إنْ كانت الأمة من إماءِ أهل المدينة لَتأخذُ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت»(٤) .

= نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدث نفسه، فأنزل الله تعالى: ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يردون وجهه ﴾[سورة الأنعام:٥٢] .

(١) وهو حسن أو صحيح تقدم في الذكر ص ٣٦٤ .

(٢) ابن وهب الأنصاري، شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفي سنة ٣٨ هـ، بالكوفة وصلى عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر طبقات ابن سعد ٤٧١/٣، وتهذيب الأسماء ٢٣٧/١، والإصابة ٨٧/٢ .

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٤٦٦/٢، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٨٧٧ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب الكبر ٢٤/٨ .

وهذا من كمال رأفته ورحمته بالضعفة هؤلاء، وإلا فقد كان عليه الصلاة والسلام كامل العز في نفسه بحيث إذا جد الجد فهو الإمام المقدام، ولا يقوم لعزمه أحد ،

٤ - ولقد كان من كمال رحمته بهؤلاء الضعفة أنه كان« إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يُؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، قال: فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها»(١) وذلك للتبرك به صلى الله عليه وسلم .

وما كان صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك إلا لكمال رأفته بهم، ليطيِّبَ نفوسهم وإن كان في ذلك عناء له من شدة البرد في الشتاء، كما يعلمه من يعرف برد المدينة، وفي هذا ما يوجب التأسي به صلى الله عليه وسلم في أحوال الضَّعفة من المسلمين؛ لأن الأمة معنِيَّة باقتفاء آثار نبيها في كل شيء سوى ما خُصَّ به عليه الصلاة والسلام .

تبيينه صلى الله عليه وسلم لأمته مكانة هؤلاء الضعفاء عند الله تعالى :

وقد كان صلى الله عليه وسلم يبين مكانة هؤلاء الضعفاء عند الله تعالى، وعظيم فضلهم ومنزلتهم لديه سبحانه ليرغب أمته على مزيد رحمتهم وإكرامهم، وأحاديثه صلى الله عليه وسلم في ذلك كثيرة :

١ - منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه« أن امرأة سوداء كانت تقُمُّ المسجد، أو قال: شابا، قال: ففقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنها، أو عنه، فقالوا: مات، قال: "أفلا كنتم آذنتموني فكأنهم صغَّروا أمرها أو أمره، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دُلُّوني على قبره، فدلوه فصلى عليها، ثم قال: « إن القبورَ مملوءةٌ ظُلمة على أهلها، وإن الله تعالى ينورها لهم بصلاتي عليهم»(٢) .

٢ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له:

---

(١) أخرجه مسلم وتقدم في مبحث التواضع ص ٤٥٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الصلاة على القبر بعد ما يدفن ٢/١١٣، وفي الصلاة ١/١١٧، ومسلم في الجنائز، باب الصلاة على القبر برقم ٩٥٦، واللفظ لمسلم .

"هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم"(١) .

٣ ـ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "إبغوني(٢) ضعفاءَكم فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم"(٣) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي تدل على فضلهم، وترغب الناس في الإحسان إليهم والرحمة بهم .

ثانيا: رحمته صلى الله عليه وسلم بالكافرين :

أما مظهر رحمته صلى الله عليه وسلم بالكافرين، فذلك برفع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا، كما كان يجري للأمم السابقة التي تكذب أنبياءها ورسلها، كما قص الله تعالى من أخبار قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم .

أما كفار هذه الأمة فإن الله قد أنالهم نصيبا من الرحمة المهداة، حيث أمَّنهم من عذاب الاستئصال كما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وما كان اللهُ ليُعذِّبهم وأنتَ فيهم وما كان اللهُ مُعذِّبهم وهم يَستَغفِرون ﴾[سورة الأنفال:٣٣] وما ذلك إلا تكرمة لهذا الرسول الكريم الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلاَّ رحمةً للعالمين ﴾[الأنبياء:١٠٧] قال: "من آمن بالله واليوم الآخر كتب له الرَّحمة في الدنيا والآخِرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفي مما أصاب الأمم من الخَسْف والقذف"(٤) .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب ٤/٤٤، والنسائي في الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف ٦/٤٠ .

(٢) أي: اطلبوا .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في الانتصار برقم ٢٥٩٤، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين برقم ١٧٠٢، والنسائي في الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف ٦/٤٥،٤٦، وقال الترمذي عنه: حسن صحيح .

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره بسنده إليه ١٧/١٠٦،وذكره ابن كثير في تفسيره ٣/٢٠٢وعزاه لابن أبي حاتم من طريق آخر، وذكر أيضا ما عزاه إلى الطبراني مسندا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله: من تبعه كان له رحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والمسخ والقذف" .

وقد كان من رحمته صلى الله عليه وسلم بهم أنهم آذوه وقاتلوه وشجوا وجهه الشريف وكسروا رَباعيته، فعرض عليه إهلاكهم فقال: "بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا"(١) وطلب منه أن يدعو عليهم فقال: "إني لم أبعث لعانًا وإنما بعثت رحمة"(٢) .

ولم تقف رحمته عند الإعراض عن أذيتهم،والعفو والصفح عنهم،والحلم عن جهالاتهم، بل إنها تعدت ذلك إلى حد الحرص العظيم على هدايتهم،وإبعادهم عما يوجب لهم عذاب الله وأليم عقابه، إذلم يفتأ يدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته وحده لا شريك له، ليجنبهم بذلك ما لاطاقة لهم به من العذاب .

ولم يزل ذلك دأبه صلى الله عليه وسلم، ودأبهم معه حتى أجهد بدنه، وأتعب نفسه حتى عاتبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿ لعلَّك باخِعٌ(٣) نفسَك أن لا يكونُوا مُؤمنين ﴾[سورة الشعراء:٣] ، والمعنى: أشفق على نفسك أن تقتلها، فإن الهداية ليست بيدك، ولكنها بيد الله، كما قال في آية أخرى: ﴿ فإنَّ اللهَ يُضِلُّ من يَشاءُ ويَهدي من يشاءُ فلا تَذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ إنَّ الله عليمٌ بما يصنعون ﴾[سورة فاطر:٨] .

ثالثاً: رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان :

ومن مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم رحمته بالحيوان .

لقد سبقت الإشارة إلى أن عموم رحمته صلى الله عليه وسلم تقتضي أن تكون للحيوانات حظ منها،لمقتضى الدلالة اللفظية، ولأن الدلائل النقلية تؤيد ذلك :

فلقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم تحنُّن على الحيوانات، ورحمة ورأفة لم تعرفها البشرية لأحد غيره، حيث كان يرأف بها بنفسه، ويوصي بذلك أمته حتى رقت لها أفئدتهم ورأف بها عُتاتهم، وكم في ذلك من شواهد ودلائل، وإليك طرفا منها :

---

(١) تقدم تخريجه ٨٣.

(٢) تقدم أيضا ٦٢.

(٣) أي: قاتل نفسك .

١ ـ فعن سهل بن الحنظلِيّة(١) رضي الله عنه قال: مر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لحق ظهره ببطنه ـ يعني من الجوع ـ فقال: "اتَّقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة"(٢) .

٢ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حُمَّرَة(٣) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحُمَّرة فجعلت تفرِّش(٤)، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها إليها" قال ورأى قرية أحرقناها فقال: "من أحرق هذه ؟ فقلنا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يُعذب بالنَّار إلا ربُّ النار"(٥) .

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم أن تتخذوا دوابَّكم منابر، فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضُوا حاجتكم"(٦) .

٤ ـ ودخل يوما حائطا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبي صلى الله عليه

---

(١) الحنظلية أمه، وقيل: هي أم جده، وهو سهل بن الربيع بن عمرو الأنصاري الحارثي الأوسي، كان ممن بايع تحت الشجرة، وكان فاضلا عالما معتزلا عن الناس، كثير الصلاة والذكر، لا يجالس أحدا، سكن الشام، مات بدمشق في أول خلافة معاوية، ولا عقب له ا.هـ، انظر الاستيعاب ٩٥/٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم برقم ٢٥٤٨ بإسناد صحيح كما قال الإمام النووي في رياض الصالحين ص ٣٥٣ باب أدب السير والنزول والمبيت .

(٣) هي نوع من العصافير، أحمر اللون .

(٤) أي: تفرش جناحيها وتقرب من الأرض وترفرف .

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب كراهية حرق العدو بالنار برقم ٢٦٧٥، وفي الأدب، باب في قتال الذر برقم ٥٢٦٨، وأحمد في المسند ٤٠٤/١، والحاكم في المستدرك ٢٣٩/٤، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد برقم ٢٥٦٧، وإسناده صحيح كما قال الألباني في الصحيحة برقم ٢٢ .

وسلم حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم فمسح ذِفراه(١) فسكت، فقال: "من ربُّ هذا الجمل ؟ لمن هذا الجمل ؟ فجاء فتىً من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال له: "أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتُدئِبُه"(٢) أي: تتعبه في العمل .

فهذه التوجيهات النبوية مُفعمة بالرحمة والرأفة بالحيوانات التي ما كانت لِتعلم لولا بيانه صلى الله عليه وسلم، وما كنت البهائم ستنال حظها من الرحمة لولا ذلك .

ولقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم أساليب أخرى في الإبانة عن رحمته بالبهائم لأمته للتأسي به في ذلك، وذلك بإخباره صلى الله عليه وسلم ما يترتب على الرحمة بالحيوانات من الثواب والأجر والمغفرة، وما يترتب على عدم ذلك من العقاب .

١ ـ ومن أخباره صلى الله عليه وسلم عما يترتب على الرحمة من الثواب وذلك في أحاديث كثيرة ومنها :

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بينما رجلٌ يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث(٣) يأكل الثَّرى(٤) من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، إن لنا في البهائم أجرا ؟ فقال: في كلِّ كبدٍ

---

(١) أي: أصل أذنيه .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم برقم ٢٥٤٩، والحاكم ٢/٩٩، وأحمد في المسند ١/٢٠٤ من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما وقال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وأصله في مسلم دون قصة الجمل .

(٣) أي: يخرج لسانه من شدة العطش والحر .

(٤) أي: التراب الندي .

رَطْبة أجر"(١) .

٢ ـ ومن أخباره صلى الله عليه وسلم عما يترتب على عدم الرحمة بالحيوانات من العذاب ما أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "دخلت امرأة النار في هِرَّة ربطتها فلم تطعمها و لم تدعها تأكل من خشاش الأرض"(٢) .

وضع الرحمة في مكانها المناسب :

ومع ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم من الرحمة والرأفة في كل شئونه ومع الخلق كافة إلا أن من يتعدى حدود الله وينتهك محارمه فيبلُغُه أمرُه لم يكن له حظا من رحمته صلى الله عليه وسلم عملا بقول الله تعالى: ﴿ الزَّانيةُ والزاني فاجلِدوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جَلْدةٍ ولا تأخذْكم بهما رأفةٌ في دينِ الله ...﴾[سورة النور:٢] فكان يقيم الحد عليهم قصاصا أو رجما أو قطعا أو جلدا أو صلبا، لا تأخذه بهم رأفة في دين الله تعالى، وهذا ما يرشد إليه العقل السليم كما قال الشاعر :

فقسى ليزدجِروا ومن يكُ حازما فليقسُ أحيانا على من يَرحم

ذلك لأن المجتمع الذي يهدف إلى إصلاحه هو أحق بالرحمة من الواحد الذي هو نفسه بحاجة إلى التطهير .

على أن تطهيره بإقامة الحد عليه هو في حد ذاته رحمة به،لما ينال به من التطهير من دنس المعصية، ودرأ عذاب الله تعالى الذي لولا إقامة الحد عليه لأصابه، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الأخرة بل لا مقارنة بينهما .

---

(١) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه منها في الأدب، باب رحمة الناس والبهائم ١١/٨، ومسلم في السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامهابرقم ٢٢٤٤ .

(٢) أخرجه البخاري في مواضع منها في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢١٥/٤، ومسلم في البر، باب تحريم تعذيب الهرة برقم ٢٢٤٢ .

وخشاش الأرض: هي هوامها وحشراتها .

ألا ترى إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام في حق ماعز الذي أقام عليه حد الزنى: "لقد تاب توبة لو قُسمت بين أُمَّة لوسعتهم"(١) وما قاله في حق الجُهنيَّة التي أقام عليها حد الزنى: "لقد تابت توبةً لو قُسِمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم"(٢) ومعلوم أن التوبة تغسل الحوبة،فرفعُ وبال معصيتهم عنهم،وتطهيرهم من وحَل المعصية،وما يترتب عليها من العذاب الأليم في حقيقته رحمة؛لأن ذلك هو أخف الضررين .

مع أن عاطفة الرحمة قد كانت تغالبه صلى الله عليه وسلم عند إقامة الحدود فيهم، فكان يفسح لهم المجال،وذلك بالأساليب التي كان يتخذها مع من كانوا يبادرون بطلب تطهيرهم بإقامة الحد الشرعي عليهم، حيث كان صلى الله عليه وسلم لا يبادر بإقامته بمجرد الاعتراف، بل لقد كان يتفحَّص أحوالهم النفسية، ويحاول أن يجد لهم مخرجا من صارم العقوبة التي ستحلُّ بهم، وينكر على أصحابه إذا لم يمكِّنوا المحدود من تكذيب نفسه، كما هو ثابت معلوم .

١ـ فقد ردَّ صلى الله عليه وسلم ماعزا مِرارا قبل أن يستفصله عن حقيقة ما يقول،فلما أصر على طلب إقامة الحد سأل قومه عنه: "أبه جنون؟" فقالوا ما نعلم به بأسا إلا أنه أصاب شيئا يرى أنه لا يُجزئه منه إلا أن يقام فيه الحد.

٢ـ ورد الغامدية كذلك ثم قالت له: "لِمَ تردني؟ لعلك تردني كما رددت ماعزا؟فوالله إني لحبلى، فقال لها:"إمَّا لا فاذهبي حتى تلدي" فلما ولدت قال لها:"اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه" فلما فطمته أتته بالصبي في يده كِسرة خبز، فقالت:هذا يانبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها، ولما سبَّها خالد قال له صلى الله عليه وسلم: "مهلا يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبةً لو تابها صاحب مُكس لغفر له" ثم أمر بها فصلي

---

(١) أخرجه مسلم وتقدم في مبحث التوبة ص ٢٢٢

(٢) أخرجه مسلم وتقدم أيضا في مبحث التوبة ص٢٢٢

عليها ودفنت(١) .

٣- وفعل صلى ا لله عليه وسلم نحو ذلك مع الرجل الأسلمي فلما شهد على نفسه أربع شهادات قال له: «أنِكتها ؟» بصريح العبارة لا يكني، قال: نعم، قال: "حتى غاب ذلك منك في ذلك منها ؟" قال: نعم، قال: "كما يغيب الميل في المكحلة، والرشاء في البئر ؟" قال: نعم، قال: "هل تدري ما الزنا ؟" قال: نعم، أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من أهله حلالا، قال: "فما تريد بهذا القول ؟" قال: إني أريد أن تطهرني، فأمر به فرجم ...الحديث(٢) .

٤ - وجاء في بعض روايات قصة ماعز أنه لما ذَلَقته(٣) الحجارة، وفي رواية: فلما وجد مسَّ الحجارة فرَّ يشتد، فلما علم النبي صلى ا لله عليه وسلم بذلك قال: "هلاَّ تركتموه لعلَّه أن يتوب فيتوب ا لله عليه"(٤) .

٥ - وفي بعض روايات قصته أيضا قال له النبي صلى ا لله عليه وسلم: «لعلَّك قبَّلت، أو غمزت، أو نظرت ؟» قال: لا يا رسول ا لله، قال: "أنِكتها ؟" لا يكني، فعند ذلك أمر برجمه(٥) .

إلى غير ذلك من وقائع الأحوال التي كان النبي صلى ا لله عليه وسلم يحاول فيها رحمة

---

(١) ساق مسلم قصتها مع سياق قصة ماعز، وقد تقدمت الإشارة إليه، وأخرجها أبو داود منفصلة في باب المرأة التي أمر النبي صلى ا لله عليه وسلم برجمها من جهينة برقم ٤٤٤٠ .

(٢) أخرجه البخاري في المحاربين، باب سؤال الإمام المقر ٢٠٧/٨، ومسلم في الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا برقم ١٦٩١، وأبو داود في الحدود، باب ما جاء في رجم ماعز برقم ٤٤٢٨، واللفظ له، وهو من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه .

(٣) أي: أجهدته وأتعبته، يقال: أذلقه الأمر إذا بلغ منه الجهد والمشقة حتى قلق .

(٤) هي إحدى روايات أبي داود والترمذي .

(٥) هذه رواية البخاري في المحاربين، باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت ٢٠٧/٨، ومسلم في إحدى رواياته .

أولئك المعترفين بارتكاب الحدود كي لا تطبق عليهم الأحكام إلا بعد التيقن التام، ليعلِّم أمته درأ الحدود بالشبهات، ويبين لهم رغبة الشارع في حفظ المُهج والأطراف والستر على الأعراض، وذلك لكمال رحمته صلى الله عليه وسلم بهم .

فترى أن إقامته صلى الله عليه وسلم للحدود كانت مليئة بالرحمة والعطف، من غير إهدار لها؛لأنه إذا ثبتت الجرائم ورُفعت إلى الحاكم فلا بد لرحمة المجتمع كله من تطبيق العقوبات .

كما كان عليه الصلاة والسلام يقول: "تعافُوا الحدود(١) فيما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب"(٢) .

وكما قال لمن رفع إليه حد سرقة، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقطع يده، فقال: "إني لم أُرِد هذا يا رسول الله وهو عليه صدقة،فقال صلى الله عليه وسلم: "فهلَّا قبل أن تأتيني به"(٣) .

فكانت الحدود إذا بلغته أقامها مع الرأفة والرحمة في تنفيذها، والتماس المخارج لأصحابها خشية أن يخطىء في العقوبة، لأن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة.

وهذه هي الرحمة الغامرة من الرؤوف الرحيم صلى الله عليه وسلم .

---

(١) أمر بالعفو وهو التجاوز عن الذنب، أي: أسقطوا الحدود فيما بينكم ولا ترفعوها إلي .

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، باب العفو عن الحدود ما لم تبلغ السلطان برقم ٤٣٧٦، والنسائي في السارق، باب ما يكون حرزا وما لا يكون ٧٠/٨ من حديث عبد الله بن عمرو بإسناد حسن .

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود، باب من سرق من حرز برقم ٤٣٩٤، والنسائي في السارق، باب الرجل يتجاوز للسارق عن سرقته بعد أن يأتي به الإمام ٧٠/٨ من حديث صفوان بن أمية وصححه الألباني في إرواء الغليل ٣٤٥/٧.

المبحث الخامس

(خلق الكرم)

الكرم في اللغة: ضد اللؤم(١) .

وهو في الاصطلاح: "إعطاء الشيء عن طيب نفس قليلا كان أو كثيرا"(٢) .

وقال الراغب: "الكرم إذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، قال: ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه"(٣) .

فهو بهذا المعنى أعم مما ذكره غيره من تخصيصه بالعطاء، إذ جعله شاملا للنوال وسائر كرائم الأفعال والأقوال، فهو "جامع لمكارم الأخلاق، فكل خصلة من خصال الخير، أو خَلة من خلال البر، أو سجية تضاف إلى محاسن الطباع والأعراق، يصدق عليها اسم الكرم"(٤) .

ولا بدع فإن صاحب الخلق الكريم يكون كريما في أخلاقه الذاتية والاجتماعية، إذ كرم نفسه يأبى عليه خلاف هذه الحقيقة، وما كرم النوال إلا صورة لكرم النفس، ومن هنا سُمِّيت الأخلاق الحسنة بمكارم الأخلاق، وقد أشار إلى ذلك كله قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكرَمَكم عندَ اللهِ أتقاكم ﴾[سورة الحجرات:١٣] .

فجعل الله تعالى أكرم المؤمنين هم المتقين، والتَّقوى : اسم جامع لكل معاني البر والخير.

غير أن الذي يعنينا ذكره هنا هو كرم النوال والعطاء، إذ هو المشهور عند الإطلاق العام لهذا الخلق، وهو الخلق الذي كان له عناية كبرى في القرآن الكريم أمرا به وحضا عليه وتنويها بأهله، ونهيا عن ضده وهو البخل واللؤم، وذما لهم في آيات كثيرة من

---

(١) الصحاح للجوهري ٢٠١٩/٥، والقاموس المحيط ١٧٠/٤ .

(٢) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ١٦٨ .

(٣) المفردات ص ٤٢٨ .

(٤) الخلق الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ٢٦٠/٤ .

القرآن الكريم ، وذلك وإن لم يكن من مادة الكرم، فإنه مما يدل عليه من الألفاظ الأخرى المؤدية لمعناه كالإنفاق والأحسان والإيتاء ونحوها كما ستعلمه فيما يأتي:

الأمر به:

أما الأمر به ففي مثل قول الله تعالى: ﴿ يأيُّها الذين آمنوا أنفِقوا ممَّا رزقناكم من قبلِ أن يأتيَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ والكافرون هم الظَّالمون ﴾[سورة البقرة:٢٥٤] .

ففي هذه الآية يأمر الله تعالى عباده الذين بأيديهم ما ينفقون منه أن يبذلوه للمحتاجين إليه ولا يمسكونه بأيديهم، وأخبرهم بأن ما ينفقونه اليوم هو زاد لهم لذلك اليوم الذي تنقطع فيه الوسائل التي يمكن للمرء أن ينفع بها نفسه من مال أو صدقة أو شفاعة،

وفي هذا الأسلوب من الحث على الكرم ما يحمل عليه بلا تردد، فضلا عن الأمر الصريح الذي صدرت به الآية، ومقتضى الأمر للوجوب، وهو شامل لما يجب إنفاقه كالزكاة وما يندب كالصدقة.

فهو أمر يحمل على الكرم والتحلي بهذا الخلق الكريم ما دام المرء قادرا على أن يتحلى به، بامتلاكه ما يقدر على إنفاقه .

والآيات الآمرة بالإنفاق غير هذه كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ ياأيُّها الذين آمنوا أنفِقوا من طيباتِ ما كسبتم وممَّا أخرجنا لكم من الأرضِ ولا تَيَمَّموا الخبيثَ منه تُنفِقون ...﴾ [سورة البقرة:٢٦٧] .

وهذه الآية تشترط أن يكون الإنفاق لله، والله طيب لا يقبل إلا طيبا،

كما أنها وسَّعت دائرة ما ينفق منه،حيث نَصّت على وجوب الإنفاق مما يخرج من الأرض من أصناف الزراعة، لأن الحاجة إلى ذلك داعية كالحاجة إلى النقد ونحوه.

ومنها قوله تعالى: ﴿ قُل لعباديَ الذين آمنوا يُقيموا الصَّلاةَ ويُنفقوا ممَّا رزقناهم سِراً وعَلانية من قبلِ أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خِلال ﴾[سورة ابراهيم:٣١] .

ومنها قوله تقدس شأنه: ﴿ وأنفِقُوا ممَّا رزقناكم من قبلِ أن يأتيَ أحدَكم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخَّرتني إلى أجلٍ قريبٍ فأصَّدَّقَ وأكُن من الصَّالحين ﴾[سورة المنافقون:١٠] .

فإن هذه الآيات تحث على الإنفاق وبالغ الكرم بهذا الأمر المتضمن التزهيد في الدنيا

والترغيب في الآخرة، مما يحمل على المبادرة إلى مضمونه من غير تردد عند من يلقى السمع وهو شهيد .

إلى غير ذلك من الآيات الآمرة بالإنفاق،والإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى هو الكرم بعينه، لأنه يكون بسماحة نفس وسخاء، ولا يصحبه منٌّ ولا أذى .

الحض على الكرم :

أما الحض على الكرم في القرآن الكريم ففي آيات كثيرة، وهي الآيات التي ترغّب في الإنفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله سبحانه، وذلك كالآيات التي تدل على عظيم أجر الإنفاق في سبيل الله تعالى كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ مثلُ الَّذين يُنفقون أموالَهم في سبيلِ الله كمثلِ حَبَّةٍ أنْبتَتْ سبعَ سنابلَ في كلِّ سُنبُلةٍ مائةُ حبَّة والله يُضاعفُ لِمَن يشاءُ والله واسعٌ عليم ﴾[سورة البقرة:٢٦١] وفي هذه الآية الكريمة من الحض على الإنفاق ما لا يتوانى عند سماعه موقن بوعد الله موفق للخير، حيث إن الله تعالى وعد المنفق في سبيله - وسبيله هي طاعته في أنواع البر والقُرُبات - وعدهم ذلك الجزاء العظيم الذي يضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لا يعلم عددها إلا الله تعالى .

لا جرم أن المؤمن بالله تعالى واليوم الآخر عندما يعلم هذا ينفق الجزل ويعطي الكثير، طلبا لأجر ذلك اليوم الذي يضاعف فيه الأجر إلى تلك الأضعاف البالغة حدا لا يوصف ولا يعد، ولا يبقى في نفسه تردد، ولا يدخّر وُسعا في البذل إن كان له حظ من التوفيق .

والآيات الواعدة بمثل هذا الأجر العظيم كثيرة كقوله تعالى: ﴿ وما تُنفِقوا من شيءٍ في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتُم لا تُظلَمون ﴾[سورة الأنفال:٦٠] وقوله سبحانه: ﴿ وما أنفقتُم من شيءٍ فهو يُخلفه ﴾[سورة سبأ:٣٩] .

ولذلك نرى أن آيات أخرى تجعل المؤمن هو المسئول عن نفسه في المسابقة إلى هذا الأجر في ذلك اليوم إن هو أكرمها أو ضيّعها وذلك كقوله جل شأنه: ﴿ وما تُنفِقوا من خيرٍ فلأنفُسِكم وما تنفقونَ إلا ابتغاءَ وجهِ الله وما تُنفقوا من خيرٍ يُوفَّ إليكم وأنتُم لا تُظلَمون ﴾[سورة البقرة:٢٧٢] .

أي: إن إنفاقكم هو لنفع أنفسكم لأن ا لله تعالى يوفي لكم الأجر إن أنتم أنفقتم ابتغاء وجهه، ثم لا تظلمون شيئا مما قدمتموه عن أجره الوفير الكثير .

ومن الآيات الحاضة على الكرم تلك الآيات التي تجعل بذل المرء ابتغاء رضوان ا لله تعالى قرضا لله جل وعلا يوفيه إليه وهو أحوج ما يكون إليه، وذلك كقوله تعالى:

﴿ من ذا الذي يقرض ا لله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة وا لله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾[سورة البقرة:٢٤٥] .

وفوله سبحانه: ﴿ من ذا الذي يقرض ا لله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ [سورة الحديد:١١] ، وقوله سبحانه: ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا ا لله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾[سورة الحديد:١٨]. إلى غير ذلك من الآيات .

فترى أن ا لله تعالى جعل الإنفاق في سبيله قرضاً حسناً، والقرض الحسن يستلزم القضاء فإذا أقرض المرء كريما، كان قضاؤه موفورا أحسن من القرض، فكيف به إذا أقرض أكرم الأكرمين؟ ولقد نص سبحانه على أنه سيكون مضاعفا إلى أضعاف كثيرة، وأن مقرضه سيكون له أجر كريم، فلم يحدد قدر القضاء، ولا كمية الأجر؛ لأنه فوق ما يتصوره المرء، لكونه قضاء وأجرا من أكرم الأكرمين سبحانه وتعالى، فيكون بقدر كرمه لا بقدر من يعطيه من المؤمنين .

وهذا الأسلوب يحمل على بالغ الكرم وقصاراه، إن صادف مؤمنا با لله واليوم الآخر ووعده ووعيده؛ لأن ا لله تعالى قد ضمن للباذل ماله القضاء المضاعف والأجر الكريم .

التنويه بأهل الكرم :

لقد كان تنويه القرآن بأهل الكرم عظيما بحيث لم ينله فيما أعلم صاحب أي خلق كريم آخر على انفراده، وذلك لأن هذا الخلق يجمع مكارم الأخلاق كما علمت قبل .

لذلك كان تنويه القرآن الكريم بالمتحلين به بالغا مبلغا عظيما،

وقد كان هذا التنويه من أول القرآن الكريم حيث يقول سبحانه في مستهل ثاني سورة بعد البسملة: ﴿ ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[سورة البقرة:١-٥]، فوصف المتقين بالإيمان بالغيب،

والمقيمين الصلاة، والمنفقين مما رزقهم ا لله، والمؤمنين برسل ا لله وباليوم الآخر،وصفهم بثلاث صفات هي التقوى والهداية والفلاح، وذلك على سبيل التنويه والإشادة، حيث كان على سبيل القصر الدال على تمكن تلك الصفات فيهم .

وإنفاق العبد مما رزقه ا لله تعالى وعدم تحجره عليه سواء كان واجبا أو مندوبا هو عين كرمه إذ لو كان بخيلا لئيما لما طوعت له نفسه وهي قد جبلت على الشح أن ينفق من ماله قليلا أو كثيرا، ولكن لما كان يغلب نفسه على الإنفاق، فذلك دليل على أن خلق الكرم مهيمنا عليها، فكان جديرا بالثناء .

وكم في القرآن الكريم من ثناء عليهم من غير هذه الآية كمثل قوله تعالى: ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل ا لله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[سورة البقرة:٢٦٢] .

وقوله سبحانه: ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وا لله يحب المحسنين ﴾[سورة آل عمران: ١٣٣-١٣٤] .

وقوله: ﴿ ... والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[سورة الرعد:٢١-٢٤] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في مختلف سور القرآن الكريم مكيه ومدنيه .

ذم البخيل :

وكما كان حديث القرآن العظيم عن الكرم كثيرا ومستفيضا، فكذلك كان حديثه عن نقيضه وهو البخل كثيرا، وذلك على سبيل النهي عنه، والذم له ولأهله لما يعنيه من رذالة في الأخلاق متمثلة في الشح على المال والجشع على المادة، وعدم الوثوق بوعد ا لله ووعيده المترتب على الإنفاق والبخل .

وذلك كقوله تعالى: ﴿ ولا يَحسبَنَّ الذين يَبخلونَ بما آتاهم الله ُمن فَضله هو خيرًا لهم بل هو شرٌ لهم سيُطَوَّقون ما بخلوا به يومَ القيامة و لِله ميراثُ السموات والأرضِ والله ُبما تعملون خبير ﴾[سورة آل عمران:١٨٠] .

ففي هذه الآية ينعى الله تعالى على أهل البخل بخلهم، ويبين لهم ما يؤول إليه أمر المال الذي بخلوا به من أنه ينقلب عليهم بالشر والسوء من حيث لا يشعرون، في الوقت الذي كانوا يظنون أن الخير فيه، وفيها من الوعيد الشديد على البخل ما لا يطاق وصفه، حيث إن أموالهم تلك تُطوَّق بها أعناقهم يوم القيامة فيعذَّبون بحملها مع ما يضخم الله تعالى جرم تلك الأموال ووزنها كما جاء في الحديث: "من ظلم قِيدَ شبر من الأرض ُطوِّقه من سبع أرَضين"(١) .

وهذه الآية يوضحها أيضا قول الله تعالى في سورة التوبة: ﴿ والَّذين يَكنِزون الذَّهبَ والفِضَّةَ ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشِّرهم بعذابٍ أليم * يوم يُحمَى عليها في نار جهنم فُتكوَى بها جِباهُهم وجنوبُهم وظُهورهم هذا ما كنَزتُم لأنفُسِكم فذوقُوا ما كنتم تكنِزون ﴾[٣٤،٣٥] .

فانظرما في هذه الآية من هول الوعيد والعقاب الشديد المترتب على البخل، وإن كان هذا فيمن لا يؤدي الزكاة، إلا أن الذي يحمل على ذلك هو البخل، فهو السبب في إكساب صاحبه ذلك المصير المؤلم، إذ لو كان جوادا كريما لما بخل بما أوجبه الله تعالى.

فتبين أنه أدوء الداء وعضل البلاء الذي يكسب صاحبه سوء الجزاء، ولذلك كان الإنسان مسئولا عن نفسه إن هو أوبقها بهذا الخلق الدنيء الذي يُورده تلك الموارد الموبقة، وقد حمَّله القرآن الكريم مسئولية ذلك كما في قوله جل شأنه: ﴿ ها أنتم هَؤُلاء تُدْعَون لتُنفِقوا في سبيلِ اللهِ فمنكم من يَبخلُ ومن يَبخلْ فإنّما يبخلُ عن نَفسه والله ُالغنيُّ وأنتم الفقراءُ وإنْ تَتولوا يَستبدل قومًا غيرَكم ثُمَّ لا يكونوا أمثالَكم ﴾[سورة محمد:٣٨] .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، باب ماجاء في سبع أرضين ٤/١٣٠، ومسلم في المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها برقم ١٦١٢ من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها .

والمعنى: أن وبال بخله عائد عليه فلا يلومنَّ إلا نفسه عندما يلاقي الجزاء السيء والمصير المؤلم، إذ كان بوسعه أن يزكِّي نفسه ويطهرها من دنس البخل وسيُكرم غاية الإكرام كما قال الله تعالى: ﴿ فأمَّا من أعطى واتَّقى * وصدَّق بالحسنى * فسنُيسِّرُه لليُسرى * وأمَّا من بَخِل واستغنى * وكذَّب بالحُسنى * فسنُيسِّره للعُسرى * وما يُغني عنه مالُه إذا تردَّى ﴾ إلى أن قال: ﴿ وسيُجنَّبُها الأتقى * الَّذي يُؤتي مالَه يتزكَّى ﴾[سورة الليل:٥-١٨] .

ولكنه لما رضي بالبخل والشح نَحِيزَةً، واللؤم غريزةً، فعليه أن يوطِّن نفسه لآثار ذلك ﴿ يوم لا يَنفَع مالٌ ولا بنون*إلاَّ من أتى الله بقلبٍ سليم ﴾[سورة الشعراء:٨٨،٨٩] .

نسأله تعالى أن يهدينا لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي لأحسنها إلا هو، وأن يصرف عنَّا سيئَها فلا يصرف عنَّا سيئها إلا هو، وأن يزكِّي أخلاقنا ويُطهِّرها من البخل والشح وسائر مساوىء الأخلاق بمنِّه وكرمه .

تمثل خلق الكرم

في النبي صلى الله عليه وسلم

ولئن كان الكرم جامعا لمكارم الأخلاق، فإن الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون تمثُّلُ هذا الخلق فيه بالغا مبلغ الكمال والعظمة؛ لأن كلَّ مكارم الأخلاق فيه قد كانت كذلك، وكرم النَّوال أولى أن يكون أوفَى وأكمل في جنابه العظيم، وذلك ما يدل عليه شهادة الله تعالى له بعظمة الخلق عموما، وبالكرم خصوصا، فقد قال الله جل ذكره: ﴿ وإنَّك لعلى خُلُق عظيم ﴾[سورة القلم:٤]، وقال: ﴿ فلا أُقسِمُ بما تُبصِرون * وما لا تُبصِرون * إنَّه لقولُ رسولٍ كريمٍ * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تُؤمِنون ...﴾[سورة الحاقة:٣٨-٤١] .

فوصف الله تعالى نبيه الكريم محمدا صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات التي أقسم فيها بالمشاهدات والمغيَّبات على صدق ما جاء به من عند الله تعالى، وصفه بالكرم دون غيره من أخلاقه العظيمة كالصدق والأمانة ونحوها، وذلك لتكون كل تلك الأخلاق مندرجة فيه، فأخلاقه كلها عظيمة كريمة، ومن ذلك كرمه في البذل والعطاء والإنفاق والجود والسخاء، وهو ما كان معروفا به من قبل أن يأتيه وحي السماء .

١ - فقد وصفته خديجة رضي الله عنها بقولها: "إنك لَتصِلُ الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسِب(١) المعدومَ، وتُقري الضَّيف، وتعينُ على نوائب الحق"(٢) .

وهذه الأخلاق كلها ناشئة عن بالغ الكرم وعظيم الجود، إذ هي كلها تعني البذل والعطاء في هذه الخلال الحميدة .

فصلة الرحم، وحمل الكَّل "وهو الثقل من كل ما يتكلف من عيال ونحوهم"(٣) للغير

---

(١) بضم أوله وكسر ثانيه كما هي إحدى روايات الحديث، وهو الأوجه في ضبطها كما رجحه النووي في شرح مسلم، ومعناها: تعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك .

(٢) متفق عليه وتقدم ص ٦١

(٣) النهاية ٤/١٩٨ .

أو للنفس، وإكساب الناس ما لا يوجد عند غيره من نوادر الأموال والمتاع وعزيزه ونفيسه، وقِرى الضيف بكريم الطعام، وإعانة الناس على مصائب الدهر ونوازل الأيام، كل ذلك ناشيء عن عظيم الكرم، وبالغ الجود والعطاء .

فهي تصفه بهذه الصفات البالغة عظمة وخطورة التي كان عليها قبل بعثته ورسالته، ولم يكن قد تحمَّل أعباء أمته، ولا قد أضفت عليه النبوة زيادة كمال وعظمة، فكيف به بعد ذلك كله؟!لا جرم أن كرمه صلى الله عليه وسلم بعد ذلك سيكون بالغا ذِروة الذُّرى في كرم الأنبياء وسائر البشر، وهو ما دلَّت عليه الدَّلائلُ النَّقلية الكثيرة .

وصف الصحابة رضي الله عنهم جود رسول الله صلى الله عليه وسلم:

١- فقد قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس وكان أجودَ ما يكون في رمضان حينَ يلقاه جبريلُ، وكان يَلقَى جبريل في كلِّ ليلة من رمضان فيُدارسه القرآن، فلَرسول الله صلى الله عليه وسلم أجودُ بالخير من الرِّيح المرسلة"(١) .

والمعنى: أن جود رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يُضاهَى، ولم يكن أي جواد يباري رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما بلغ جوده واشتهر، لا سيما إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان حينما يدارسه جبريل القرآن، الذي جاء به من عند ربه، والذي كان يتمثل أخلاقَه ويُسارع إلى تطبيقه،فكان كأنه قرآن يمشي على الأرض، وهو يحث على الإحسان والكرم والمسارعة إلى البذل والعطاء، وسائر مكارم الأخلاق، فيتجدد عندئذ العهد بمزيد غِنى النفس، لاسيما في ذلك الموسم العظيم موسم الخيرات الذي تزداد فيه نعم الله على عباده،فيزداد الشاكرون لها شكرا، فكان جود رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ أسرع من الريح(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٦/١، ومسلم في الصلاة، باب الاستماع للقراءة برقم ٤٤٨ .

(٢) انظر فتح الباري ٦٨/١، ولطائف المعارف لابن رجب ص ١٩٥ .

٢ ـ وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس، وكان أجودَ الناس وكان أشجعَ الناس .."(١) .

٣ ـ وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "ما رأيت أحدا أجودَ ولا أنجدَ ولا أشجعَ ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٢) .

٤ ـ وقال جابر رضي الله عنه: "ما سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال: لا"(٣) يعني: لا يرد سائله ويقول له:لا أعطيك، بل يُرحب به، ويعطيه سؤله،أو ما يقدر عليه،أو يعِدُه،أيا كان حاله موسرا أو معسرا .

٥ ـ وقال أنس رضي الله عنه: "ما سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام شيئا إلا أعطاه"(٤) .

هكذا يقول الصحابة رضي الله عنهم عن كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأقوالهم في ذلك كثيرة إذ ماترك منها أكثر مما ذكر، ومنها تعلم أن جود رسول الله صلى الله عليه وسلم وبالغ كرمه كان مستفيضا عند أصحابه، يشاهد كل منهم ذلك الكرم الفيَّاض في سائر أحواله فنقلوه إلينا حتى بلغ مبلغ التواتر، وهذه الشهادات الخبرية تبين مدلولها، ويوضح معناها،الوقائعُ والأحوال التي كانت تجري منه صلى الله عليه وسلم في الجود والعطاء في مختلف الأحوال، وقد نقل إلينا من ذلك في دواوين السنة وكتب الشمائل الكثير الطيب، سنأتي على ذكر بعض منها الآن :

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب الحمائل وتعليق السيف ٤٧/٤، وفي الأدب ١٦/٨، ومسلم في الفضائل، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة برقم ٢٣٠٨ واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه أبو الشيخ في الإخلاق برقم ٨٨، والدارمي في سننه ٥٩/١، ورجال إسناده ثقات، ويشهد له أيضا الأحاديث المذكورة قبله .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب حسن الخلق والسخاء ومايكره من البخل ١٦/٨، ومسلم في الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال: لا، برقم ٢٣١١ .

(٤) أخرجه مسلم في الباب السابق برقم ٢٣١٢ .

شواهد ووقائع أحواله صلى ا لله عليه وسلم في الكرم :

تلك هي الدلائل الخبرية المبنية على الاستقراء والتتبع لأحواله صلى ا لله عليه وسلم، والخبرة الكاملة بها، وهي كافية لمعرفة مبلغ كرمه صلى ا لله عليه وسلم وكمال جوده وعظيم سخائه من غير امتراء .

غير أننا بحاجة إلى أن نعرف وقائع عملية لندرك من خلالها معاني أكثر دلالة على تمثل هذا الخلق العظيم فيه صلى ا لله عليه وسلم، وليكون لها أعظم الأثر في التأسي بأخلاقه صلى ا لله عليه وسلم، ولنقدم من ذلك وقائع أحواله في الكرم عندما لا يكون موسرا؛ لأنه أبلغ في الدلالة على الكرم،فمن ذلك :

١ ـ ما رواه سَهل بن سعد(١) رضي ا لله عنه، قال: جاءت امرأة إلى النبي صلى ا لله عليه وسلم ببردة فقالت: يارسول ا لله أكسُوكَ هذِه، فأخذها النبي صلى ا لله عليه وسلم محتاجا إليها فلبِسها، فرآها عليه رجل من الصحابة فقال: يارسول ا لله، ما أحسن هذه، فاكسُنيها ؟ فقال: نعم، فلما قام النبي صلى ا لله عليه وسلم لامَه أصحابه، قالوا: ما أحسنتَ حين رأيتَ النبي صلى ا لله عليه وسلم أخذها محتاجاإليها ثم سألته إياها، وقد عرفتَ أنه لا يُسأل شيئا فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي صلى ا لله عليه وسلم،لعَلِّي أكفَّن فيها" وفي رواية قال سهل: "فكانت كفنه"(٢) .

ومن خلال هذه الصورة تدرك معنى حديث جابر رضي ا لله عنه: ما سئل عن شيء قط فقال: لا، إذ هي برهان عملي جلي على عدم ردِّ رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم للسائلين، وإن كان به حاجة شديدة إلى ما يطلب منه، فهو يعني كمال الإيثار الذي نال

---

(١) الساعدي الخزرجي الأنصاري، كان اسمه حزنا فسماه النبي صلى ا لله عليه وسلم سهلا، وهو من مشاهير الصحابة، وهو آخر من مات بالمدينة من الصحابة سنة ٨٨ هـ، وقيل: سنة ٩١ هـ، انظر تهذيب الأسماء ٣٢٨/٦، والإصابة ٨٨/٢، والاستيعاب ٩٥/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل ١٦/٨، وأحمد في المسند ٣٣٣/٥، والبغوي في الأنوار برقم ٣٧٢ .

به الأنصار الكرام رضوان الله عليهم بالغ الثناء من الله تعالى وذلك في قوله جل شأنه: ﴿ والذين تَبَوَّؤُا الدَّارَ والإيمانَ من قبلِهم يُحبُّون من هاجر إليهِم ولا يَجِدونَ في صُدورِهم حاجةً مما أُوتوا ويُؤثرونَ على أنفُسِهم ولو كان بهم خصاصةٌ ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئِك هم المُفلِحون ﴾[سورة الحشر:٩] .

٢ ـ وتدرك معنى ذلك الحديث أيضا من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي جاء فيه: أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يُعطيه فقال: "ما عندي ما أعطيك، ولكن ابتع عليَّ شيئًا(١)، فإذا جاءني شيء قضيتُه" فقال عمر: يارسول الله قد أعطيتَه(٢) فما كلَّفك الله ما لا تقدر عليه ؟ فكره النبي صلى الله عليه وسلم قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يارسول الله أنفِق ولا تخفْ من ذي العرش إقلالا، فتبسَّم رسول الله وعُرِف التبسم في وجهه لقول الأنصاري وقال: "بهذا أُمِرتُ"(٣) .

فانظر كيف سُرَّ بقول الأنصاري لما كان يوافق ما هو عليه من خُلُق الكرم البالغ، الذي حمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يشفق عليه منه، فما أجدره حينئذ بقول القائل :

---

(١) أي: اشترِ شيئا دينا علي .

(٢) أي: فيما مضى له من مطالب، أو الميسور من القول الحسن، وهو اعتذارك له بعدم وجود شيء تعطيه .

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ٣٣٨، والبغوي في الأنوار برقم ٣٦٧، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٤٤/١٠ إلى البزار، وقال: فيه إسحاق بن إبراهيم الحسيني، وقد ضعَّفه الجمهور، ووثقه ابن حبان وقال: يخطيء، وضعفه الألباني في مختصر الشمائل برقم ٣٠٥ قال: وسكت عليه ابن كثير، يعني: لأن ضعفه في هذا الباب، إذ هو في السير التي يتجاوز فيها عن اشتراط الصحة، ويقبل فيها الصحيح وغيره مما لم يصل إلى مرتبة الضعف الشديد، ثم إن معناه صحيح يشهد له كرم النبي صلى الله عليه وسلم ووقائع أخرى من كرمه .

تعوَّد بسط الكفِّ حتى لو انَّه ثناها لقبضٍ لم تُجبه أناملُه
تـراه إذا ما جئتَه متهلِّلاً كأنَّك تُعطيه الذي أنتَ نائِلُه
هو البحر من أيِّ النواحي أتيتَه فلُجَّتُه المعروفُ والجود ساحلُه
ولو لم يكن في كفِّه غيرُ روحه لجاد بها فليتَّق الله سائِلُه(١)

فإذا كان هذا هو عطاؤه صلى الله عليه وسلم في حال عسره فكيف يكون عطاؤه عند اليسار ؟! إن عطاءه عند ذلك سيكون بالغ السخاء، وبالغا في الكثرة حدا لا يضاهى .

صور من وقائع أحواله صلى الله عليه وسلم في الكرم عند اليسار:

وصور كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة لا يأتي عليها الحصر في مثل هذه العُجالة، فنذكر ما اشتهر منها،فمن ذلك :

١ ـ ما جاء عن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذ بن عَفراء(٢) رضي الله عنها قالت: أتيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بقِنَاعٍ(٣) من رُطَب، وأَجرٍ من قثَّاء زُغْبٍ(٤)، فأعطاني ملءَ كفِّه حُلياً أو قالت ذَهبًا، وقال: "تحلَّي بهذا"(٥) .

وهذا يدل على مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم حيث يقبَل هذه الهدية المتواضعة، ويكافيءُ عليها تلك المكافأة العظيمة، وقد كان من هديه صلى الله عليه وسلم أنه: "كان

---

(١) عزاها ابن رجب في لطائف المعارف ص ١٩٥ لبعض الشعراء يمدح فيها بعض الأجواد، قال: وما تصلح إلا أن تكون للرسول صلى الله عليه وسلم .

(٢) الأنصارية النجارية، كانت من المبايعات بيعة الشجرة، وربما غزت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، انظر الإصابة ٣٠٠/٤ .

(٣) القناع: الطبق الذي يؤكل عليه .

(٤) الأجرجمع جرو الصغير من القثاء، والزغب جمع أزغب وهو صغار الريش أول ما يطلع، شبه به ما على القثاء من زغب، النهاية ٣٠٤/٢ .

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ١٩٣،١٩٤، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١١٦/٩ إلى الطبراني، وأحمد في المسند ٣٥٩/٦، وابن حجر في المطالب العالية ٢٧/٤، إلى أبي يعلى، وأخرجه البغوي في الأنوار برقم ٣٦٨، وقال الهيثمي: إسناده حسن .

يقبل الهدية ويُثيب عليها"(١) .

وكانت إثابته على هذا النحو من الكرم، إذ جعل مقابل الطَّبق من الرطب والقثاء ملء كفه حُليًّا من أحجار كريمة أو ذهب، إن هذا لهو الكرم العظيم .

٢ ـ ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما جاءه مالُ البحرين وكان أكثر ما أُتي به رسول الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام: "أنثُروه في المسجد، فجاء العباس رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أعطِني إنِّي فاديت نفسي، وفاديتُ عقِيلا(٢)، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «خُذ» فحثا في ثوبه ثم ذهب يُقِلُّه فلم يَرفعه، فقال: أمر بعضَهم يرفعه إليَّ، قال: «لا» قال: فارفعه أنت علي، قال: «لا»(٣) فنثر، ثم احتمله على كاهله ثم انطلق، قال أنس: فما زال يُتبعه بَصرَه حتى خفي علينا عجبا من حرصه، قال: فما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثَمَّ منها درهم"(٤) .

وفي هذه القصة شاهدان عظيمان على مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم:

أولهما: حيث لم يَعترض على العباس رضي الله عنه مع بالغ نَهَمِه وحرصه، بل تركه يأخذ ما يقدر عليه، ولو قدر على أخذ المال كله لفعل، ولم يعترض عليه النبي صلى الله عليه وسلم بشيء، وذلك لكمال طِيب نفسه، وبالغ سماحته وجوده .

وثانيهما: أنه لم يَقم من مجلسه حتى أنفق ذلك المال العظيم الذي كان قدره سبعين

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة، باب المكافأة على الهدية ٢٠٦/٣ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) يعني: من الأسر الذي حصل لهما في غزوة بدر، وكان مجموع ما دفعه العباس عشرين ومائة أوقية من الذهب .

(٣) لم يُرد النبي صلى الله عليه وسلم أن يرفعه عليه؛ لأن العباس رضي الله عنه شره وطمع أكثر من اللازم، ولكمال كرم النبي صلى الله عليه وسلم لم يعترض عليه، وتركه يغترف ما شاء حتى عجز، ولم يمنعه من ذلك .

(٤) أخرجه البخاري في الجزية، باب ما أقطع النبي صلى الله عليه وسلم من البحرين ..، ١٢٠/٤، أخرجه تعليقا بصيغة الجزم من حديث أنس رضي الله عنه .

ألفا، و لم يدخر النبي صلى ا لله عليه وسلم لنفسه من ذلك المال شيئا مع احتياجه الشديد لشيء من ذلك وإن قل، وهذا هو الكرم البالغ والسخاء العظيم، الذي لم يكن مثله لجواد مشهور من العامة أو الملوك .

وهذا الحديث يدل على حقيقة ما كان يقوله عليه الصلاة والسلام:

٣ - "ما يسُرني أنَّ عندي مثلَ أُحد ذهبا تمضي علي ثالِثةٌ،وعندي منه دينار إلا شيئًا أرصُده لِدين، إلا أن أقول به في عباد ا لله: هكذا،وهكذا،وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ..." .

٤ - وفي رواية:« لو كان عندي مثلَ أُحد ذهبا لَسرَّني أن لا يمر علي ثلاثُ ليال وعندي منه شيءٌ إلا شيئًا أرصُدُه لدين"(١) .

والأدلة على الواقع العملي لما تدل عليه هذه الأحاديث، غير ما ذكر من قصة العباس رضي ا لله عنه كثيرة، ومن ذلك:

١ - ما كان منه صلى ا لله عليه وسلم من العطاء والجود يومَ حُنين، حيث كان يُعطي عطاء من لا يخشى الفقر. فعن أنس رضي ا لله عنه قال: "ما سئل رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم على الاسلام شيئا إلا أعطاه قال: فجاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين(٢)، فرجع إلى قومه فقال: ياقوم أسلِموا فإن محمدًا يُعطي عطاءً لا يخشى الفاقة"(٣) .

٢ - وعن جُبَير بن مُطعم(٤) رضي ا لله عنه أنه بينا هو مع رسول ا لله صلى ا لله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب قول النبي صلى ا لله عليه وسلم: "ما أحب أن لي مثل أحد ذهبا ١١٧/٨، ومسلم في الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة برقم ٩٩١ من حديث أبي ذر رضي ا لله عنه .

(٢) أي: بالغة في حد الكثرة بحيث لو كانت بين جبلين لملأته .

(٣) تقدم تخريجه قريبا من حديث مسلم ٦٣٦.

(٤) ابن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي، أسلم قبل عام خيبر، وقيل: أسلم يوم فتح مكة، وكان من علماء قريش وساداتهم، وتوفي سنة ٥٤ هـ، انظر تهذيب الأسماء ١٤٦/١، والإصابة ٢٢٥/١، والاستيعاب ٢٣٠/١ .

وسلم ومعه الناس مقبلا من حنين علَقت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الأعرابُ يسألونه حتى اضطروه إلى سَمُرة، فخطفت رداءه، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أعطوني ردائي فلو كان عدد هذه العِضَاه(١) نَعَماً لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذوبا ولا جَبَانا"(٢) .

٣ـ وقد كان يعطي مثل هذا العطاء الجزل، وهو يستشعر ما هو عليه من هذا الخلق العظيم خلق الكرم ، كمال قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسْمًا، فقلت: يارسول الله لَغير هؤلاء كانوا أحقّ بها منهم، قال: "إنهم خيَّروني أن يَسألوني بالفُحش أو يُبخِّلوني ولَستُ بباخل"(٣) .

على أن كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ينتظر حتى يأتي سائل فيسأله، بل كان يبتدىء بالنوال قبل السؤال كلّما وجد عنده المال كما علمت من قصة مال البحرين وغيره .

٤ـ وكما يدل عليه حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أتصدّق بذهب كان عندي في مرضه، قالت: فأفاق فقال: ما فعلتي؟ قالت: شغلني ما رأيتُ منك، قال: فهلُمَّ بها قالت: فجئت بها إليه سبعة أو تسعة دنانير، فقال حين جئت بها: "ما ظنّ محمد لو لَقي الله وهذه عنده"(٤) .

٥ـ وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: "دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سَاهم(٥) الوجه، قالت: فحسبت ذلك من الوجع، فقالت له: يارسول الله، مالك

---

(١) أي: شجر العضاه، وقد تقدم التعريف به .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم ١١٥/٤.

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظ برقم ١٠٥٦ .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٨٦/٦، ورجاله ثقات، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ١٠١٤ .

(٥) أي: متغير الوجه .

ساهم الوجه؟ فقال: من أجل الدَّنانير السَّبعة التي أُتينا بها أمسِ، أمسينا وهي في خَصم(١) الفراش" وفي رواية: "أتتنا ولم ننفقها"(٢) .

ومن هذا تعلم أن حرص النبي صلى الله عليه وسلم كان على الإنفاق والبذل،لا على الادخار والجمع،ولذلك كان يتضايق من بقاء المال عنده إذا لم يتهيأ له إنفاقه .

٦- وهذا يؤكد الحقيقة التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم عن نفسه بقوله: ".. وإنما أنا قاسم والله يُعطي"(٣) .

٧ - وفي رواية: "إنما أنا خازن فمن أَعطيتُه عن طيبِ نفس فيُبارك له فيه، ومن أَعطيتُه عن مسألة وشرَه كان كالَّذي يأكلُ ولا يَشبع"(٤) .

فكان صلى الله عليه وسلم ينزِّل نفسه من المال الذي يأتي إليه منزلة الأمين في القسمة أو الحفظ،ومنزلة الوالي من مال اليتيم،لا يدَّخر لنفسه منه شيئا،إنما هو أمانة بين يديه يتصرف فيه بموجبها كما يأمره الله تعالى،

وهذا من كمال زهده وكرمه وجوده وسخائه، حيث ينفق كل ما أَتى إليه ولا يخص نفسه بشيء حتى ما خصَّه الله تعالى به وهو الخُمُس،فإنه يَرُدُّه على المؤمنين كما قال عليه الصلاة والسلام :

٨ - "والذي نفسي بيده مالي ممَّا أفاءَ اللهُ عليكم ولا مثلَ هذهِ، إلا الخُمُس، والخُمُس مردودٌ عليكم"(٥) .

---

(١) خصم كل شيء: طرفه وجانبه، وجمعه: خصوم وأخصام. النهاية ٣٨/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٩٣/٦، ٣١٤، وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٤١/١٠ أيضا إلى أبي يعلى قال: ورجالهما رجال الصحيح .

(٣) أخرجه البخاري في العلم، باب من يرد به الله خيرا يفقهه في الدين ٢٨/١، ومسلم في الزكاة، باب النهي عن المسألة برقم ١٠٣٧ من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه .

(٤) هذه إحدى روايات مسلم للحديث السابق .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ كتاب الجهاد،باب ما جاء في الغلول٣٠٤/١من حديث عمرو بن شعيب مرسلا =

فترى أن صلى ا لله عليه وسلم لم يكن يقتني حتى الخمس الذي أعطاه ا لله تعالى إياه بقوله سبحانه: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ... ﴾[سورة الأنفال:٤١].

حيث كان يرده على المؤمنين فيعطي سائلهم ويقضي ديون موتاهم ويرفد بها وفودهم...

فأين هذا مما كان عليه رؤساء العرب وزعماؤها الذين كانوا يستأثرون في المغانم بجل الأموال ويمنعون سائرهم خيارها، ولا يعطونهم إلا النزر اليسير .

وكانوا يفتخرون بذلك حتى إنه يقول أحد شعرائهم في ذلك مخاطبا بعض أولئك الزعماء على سبيل المدح والثناء:

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول(١)

فأين هذا من قوله صلى ا لله عليه وسلم: "مالي مما أفاء ا لله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم" .

إن هذا لهو الكرم البالغ الذي لم تعرف البشرية كرما مثله .

ولهذا يقول الماوردي رحمه ا لله في سياق مكارم أخلاقه الدالة على نبوته:

"الخصلة الثانية ما منح من السخاء والجود حتى جاد بكل موجود، وآثر بكل مطلوب ومحبوب، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي على آصع من شعير لطعام أهله، وقد ملك

= ووصله النسائي في قسم الفيء من حديثه عن أبيه عن جده ١٣١/٧، وإسناده حسن كما بينه الألباني في الإرواء ٧٤/٥، وقد جاء عن جماعة من الصحابة، انظر المرجع السابق .

(١) البيت لعبد ا لله بن عنمة الضبي يخاطب فيها بسطام بن قيس كما في هامش تفسير القرطبي ١٣/٨ .

والمرباع: ربع الغنيمة، والصفايا: جمع صفية، وهي ما يختاره الرئيس لنفسه من الغنيمة مما يطيب له أخذه، والنشيطة: ما أصاب الرئيس قبل أن يصل إلى مجتمع الحي، والفضول: ما فضل من القسمة مما لا تصح القسمة على عدد الغزاة، وانظر لسان العرب لابن منظور ١٠١/٨ .

جزيرة العرب، وكان فيها ملوك وأقيال(١)، لهم خزائن وأموال يقتنونها ذُخرا، ويتباهون بها فخرا، ويستمتعون بها أشَرًا وبطرا، وقد حاز مُلك جميعهم، فما اقتنى دينارا ولا درهما، لا يأكل إلا الخشن، ولا يلبس إلاّ الخشن، ويعطي الجزلَ الخطير، ويصل الجم الغفير، ويتجرع مرارة الإقلال، ويصبر على سغَب الاختلال، وقد حاز غنائم هوازن وهي من السبي ستة آلاف رأس، ومن الإبل أربعة وعشرون ألف بعير، ومن الغنم أربعون ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقيَّة، فجاد بجميع حقه وعاد خِلْوًا، فهل لمثل هذا الكرم والجود كرما وجودا ؟ هيهات"(٢) .

فصلى الله وسلم عليه، ورزقنا التخلق بأخلاقه والتأسي به في أقواله وأفعاله، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

---

(١) جمع قيل، وهم ملوك اليمن دون الملك الأعظم، واحدهم قيل، يكون ملكا على قومه ومخلافه، اللسان ٥٧٦/١١ .

(٢) أعلام النبوة للماوردي ص ٣٠٢ .

البَابُ الرَّابع

الأخــلاق الـقـرآنـيـة الاجـتـمـاعـيـة
والتطبيقات النبوية لها

وفيه ثلاثة فصول:

١ ـ في الأخلاق الاجتماعية الأُسَرية .

٢ ـ في الأخلاق الاجتماعية العامَّــة .

٣ ـ في الأخلاق الاجتماعية المادِّيَّــة .

الفصلُ الأوَّل

الأخــلاق الاجــتــمــاعيــة الأُســـريـة

وفيه تمهيد وسبعة مباحث:

١ ـ تحري ذات الدين .

٢ ـ الخِطبة .

٣ ـ النكاح .

٤ ـ الصداق .

٥ ـ العشرة بالمعروف .

٦ ـ الإنصاف والإحسان عند الاختلاف .

٧ ـ معاملة ذوي القربى والأرحام .

تمهيـــــد :

لقد كانت عناية القرآن الكريم بإصلاح المجتمـع مضاهيـةً لعنايته بـإصلاح الفـرد، دل على ذلك عنايته الكبرى بـالأخلاق الاجتماعيـة: تشـريعا وحثـا وترغيبـا وترهيبـا وعظـة وتمثيلا ... ابتداء من بداية تكوين الأسرة إلى نهاية الحياة .

وذلك لأنه بصلاح المجتمع يتم للأمة الاستقامة على دينهـا، والتقيـد بشـرع ا لله الـذي ارتضاه لعباده، ولذلك كانت التشريعات القرآنيـة عامـة إلا مـا خـص منهـا وهـو القليـل النادر، وامتنان ا لله على عباده بهذا الدين عام كذلك، فإنا نسـمع كـلام ا لله عـز وجـل يقول: ﴿ شرعَ لكم من الدِّين ما وصَّـى بـه نُوحـا والَّـذي أوحينـا إليـكَ ومـا وصَّينـا بـه إبراهيمَ وموسى وعيسى أَن أقيموا الدِّينَ ولا تَتفرَّقوا فيه ... ﴾[سورة الشورى:١٣] .

ويقول: ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممـتُ عليكـم نِعمـتي ورضِيـتُ لكـم الأسـلامَ دِينا... ﴾[سورة المائدة:٣] .

فتجد أن ا لله تعالى إنما يخـاطب المجتمعـات الإيمانيـة لأن معـالم دينـه وإقامـة شـريعته لا تظهر على وجهها الصحيح إلا فيهما .

كما أن وسطِيَّة هذه الأمة تكمن في قيـام مجتمعـات صالحـة تـأمر بالخير وتحـث عليـه، وتنهى عن الشر وتحذر منه، كما قال ا لله تعالى: ﴿ وكذلكَ جَعلناكم أُمَّةً وَسَطًا لتكونـوا شهداءَ على النَّاس ويكونَ الرَّسولُ عليكم شهيدا ﴾[سورة البقرة:١٤٣] .

ومعنى كونها أمة وسطا: أي خيارا عدولا مزكين بالعلم والعمل(١) .

وكما قال جل شأنه: ﴿ ولتكن منكم أُمَّةٌ يَدعون إلى الخيرِ ويأمرونَ بالمعروفِ ويَنهـون عن المُنكر وأولئك همُ المفلحون ﴾[سورة آل عمران:١٠٤] .

وكما قال سبحانه: ﴿ كنتُم خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجت للنَّاس تـأمُرونَ بـالمعروفِ وتَنهـونَ عـن المنكَر وتُؤمنونَ با لله ﴾[سورة آل عمران:١١٠] .

---

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص ٢٩ .

فترى خصائص خيرَّية هذه الأمة محددة بالإيمان با لله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك لأجل قيام مجتمعات صالحـة تقيـم شـعائر ا لله ومعـالم دينـه وتوطِّـد الهدايـة والسعادة الدينية والدنيوية للأمة الواسعة التي بعث لها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم .

وإنَّ بدء صلاح المجتمعات وتهذيب قِيمها تكمُن في بناء أسرة صالحة مهذَّبة متخلِّيةٍ عن الرذائل، متحلِّية بالفضائل، لأن الأسرة هي نواة المجتمع الكبير،

ولذلك كانت عناية القرآن الكريم بالأخلاق الأسرية كبيرة متعددة الأنحاء سنأتي على أهمها في المباحثه الآتية :

المبحث الأول

(تحـــري ذات الــــديـــن)

لما كان الهدف الأسمى من الزواج في نظر الإسلام هو أن يكوِّن المرء منه أسرة راقيـة في صلاحها وأخلاقها، لكي تكون جزءا فعَّالا في مجتمع صالح كريم الأخلاق والعادات،

كان لا بد أن يُرشد باني هذه الأسـرة وهـو الـزوج إلى كيفيَّة بنـاء هـذه الأسـرة مـن الأساس، وذلك بأن يُحسن اختيار حجر الزاوية وهو المرأة، بناء على مواصفات عالية وهو الدين والخلق؛ لأن البناء لا يطلع صحيحا قويما مؤدِّيا واجبه لخالقـه ومجتمعه إلا إذا كـان كذلك، وإلا كان بناء الأسرة على شفا جُرف هار،يوشك أن يتداعى، وتبقى أثاره سلبية في المجتمع من نسل فاسد وأخلاق سافلة في الذات والمجتمع .

لذلك،كان إرشادُ الله تعالى عباده إلى ما ينبغي لهم فعله من حسن الاختيار،القائم على أساس متين وهو الدين والأخلاق،

فقد قال الله جل ذكره: ﴿ ولا تَنكحوا المشركاتِ حتَّى يُؤمنَّ ولأمةٌ مُؤمِنـةٌ خـيرٌ مـن مشرِكةٍ ولو أَعجبتكم، ولا تُنكِحوا المشركينَ حتَّى يُؤمنوا ولَعبدٌ مُؤمن خيرٌ من مشرك ولو أَعجبَكم أُولئِك يَدعون إلى النَّار والله يُدعوا إلى الجنَّة والمغفـرة بإذنِـه ويُبـيِّن آياتـه للنَّـاس لعلَّهم يتذكرون ﴾[سورة البقرة:٢٢١] .

فنهى الله عن تزوج المشركات، كما نهى عن تزويج المشـركين بنسـاء المسلمات للعلَّة التي ذكرها وهي قوله: ﴿ أولئِك يَدعون إلى النـار ﴾ ومعنـى كونهـم يدعـون إلى النـار، أنهم يدعون إلى الإشراك بـالله تعـالى والكفـر بـه، ويؤثِّـرون بدعوتهـم تلـك علـى وجـه الخصوص على المسلم أو المسلمة، وعلى الأطفال الذيـن يولـدون علـى الفطـرة فيجعلهـم أولئك المشركون مثلَهم، حيث ينشِّئونهم على الإشـراك بـالله تعـالى، فيكـون كـل ذلـك موجِبا لعذاب النار بينما الله عز وجل يدعو عباده إلى أن يدخلوا الجنة وذلك بأن يجتنبـوا الإشراك به، ويقوموا بواجب العبادة(١)، ولما كان الإيمان به سـبحانه سـببا لذلـك، جعلـه

---

(١) ذكر الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى في تفسيره التحرير٢/٣٦٣ علة عدم جواز تزويج المسلمة يهوديا =

معيار الخيرَّية في الأزواج والـزوجات حيث قال: ﴿ وَلأمةٌ مؤمنة خـيرٌ مـن مشرِكة ولـو أعجبتكم ﴾ ... ﴿ ولَعبدٌ مؤمنٌ خير من مشرك ولو أَعجبـَكم ﴾ .

والمعنى:."أن الأمة المؤمنة مع مابها من خساسة الرق وقلة الخطر، خير من مشركة مع ما لها من شرف الحرِّية ورفعة الشأن، فإن نقصان الرِّقيَّة فيها مجبور بالإيمان الذي هو أجل كمالات الإنسان.

وكذلك العبد المؤمن مع ما به من ذُلّ الرقية،هو خير من مشرك ولـو أعجبكـم بداعـي الرغبة فيه الدنيوية، فإن ذهاب الكفاءة بالكفر غير مجبور بشيء منها"(١) .

وهذا إغراء منه سبحانه وتعالى لعباده في جعل الإيمان معيار الاختيار في التزاوج المراد.، وذلك بعد النهي الصريح عـن تزويـج المشـركات أوتزويـج المشـركين لمـا ذكـر مـن عِلّـة الدعوة إلى النار .

ونحو هذه الآية قول الحق تبارك وتعـالى: ﴿ وأَنكِحـوا الأيـَامَى منكـم والصَّـالحين مـن عبادِكم وإمائِكم إن يكونُوا فقراءَ يُغنِهم ا للهُ مِن فضله وا للهُ واسعٌ عليم ﴾[سورة النور:٣٢]. حيث أرشد ا لله تعالى عباده إلى أن يكون صلاح الدين وتقوى ا لله تعالى حاملا لهم علـى تزويج عبيدهم وإمائهم، وأنفسهم من باب أولى، من غير نظر إلى مراعاة الأحـوال الماديـة ونحوها لأن المال غاد ورائح، ولا عبرة له بقيمة المرء عند ا لله تعالى، إنمـا القيمـة عنـد ا لله هي التقوى والصَّلاح، ووعدهم أنهم إذا ما راعوا في تزاوجهـم جـانبَ الديـن والصـلاح والتقـوى فـإن ا لله تعـالى سيُغنيهم مـن فضلـــه، ولم يقيـد ذلـك بمشيئته للإشـارة إلى

= أو نصرانيا مع تجويزه العكس فقال: "أباح ا لله تعالى للمسلم أن يتزوج الكتابية، ولم يبح تزويج المسلمة من الكتابي لاعتداده بقوة تأثير الرجل على امرأته، فالمسلم يؤمن بأنبياء الكتابيـة وبصحـة دينهـا قبـل النسـخ، فيوشك أن يكون ذلك جالبا إيَّاها إلى الإسلام؛ لأنها أضعف منه جانبا، أما الكـافر فهـو لا يؤمـن بديـن المسلمة ولا برسولها، فيوشك أن يجرها إلى دينه" .

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٢١٨/٣ .

أن هذا الوعد ينجز لهم لا محالة، وذلك ليقطعوا عن أنفسهم النَّظر السَّطحي إلى المادة ومتاع الدنيا، ليراعوا الذي هو خير من الصلاح والتقوى، وهكذا يرغِّبُ الله عباده ويحثهم على تحري الدين في بناء الأسر لتتكوَّن من ذلك أجيالٌ تعرف الله تعالى وتعبده، وتكون مستقيمة على شرعه الحنيف القائم على كمال السلوك الأخلاقي الفردي والاجتماعي، لأن الدين هو جماع مكارم الأخلاق، فطالما كان المرء ديِّنا، تحلَّى في نفسه وحلَّى أسرته بما ندب إليه دينه الاسلامي من أخلاق فاضلة وعادات جميلة، بكل سهولة وأريحية؛ لأنه يفعل ذلك تديُّنا فيرجو ثوابه عند الله ويدخِّره لنفسه إلى يوم يلقاه، ونعم الذخر للمؤمن يوم القيامة هو الخلق الحسن؛ لأنه يكون أثقل موازين أعماله كما علمت من قبل .

تـطـبـيـق الـنـبيِّ
صلى ا لله عليه وسلم لتحري الدِّين في تزوُّجه وتَزويجه

ذلك هو هدي القرآن الكريم للمؤمنين، وندبه لهم ما ينبغي لهم مراعاته عند إرادة الزواج أو التزويج، وهو هدي واضح الدلالة، ومفهوم المراد .

وقد كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أكمل الخلق امتثالا له، كيف لا وهو المبين عن ا لله مراده من عباده، فبيَّن ذلك بفعله وقوله في أحوال وأقوال كثيرة .

بيانه صلى ا لله عليه وسلم لذلك بفعله :

أما فعله صلى ا لله عليه وسلم، فقد كان زواجه لأمهات المؤمنين، وتزويجه بناته قائما على أساس الدين،

١ ـ فقد تزوج عددا من أمهات المؤمنين لا لغرض، إلا غرض مراعاة ديانتهن وسبقهن للإسلام، وفقدهن من كان يعولُهن من أزواج، فحفظ لهن مكانتهن ورحم ضعفَهُنَّ واحتياجهن إلى من يعولهن، وأحب أن يجبرَ كسرهن بفقدهن أزواجهن فتزوَّجهن، وذلك كأم سلمة وأم حبيبة وحفصة بنت عمر رضي ا لله عنهن .

٢ ـ وقد تزوج أيضا غيرهن لأغراض نبيلة كما سيأتي بيانه في مقاصد نكاحه صلى ا لله عليه وسلم، ولكن ما يلبثن أن يقتبسن من نور النبوة ما يتمكن به الإيمان حتى يصبحن من أكمل النساء إيمانا وتقوى، وذلك كما كان من تزوجه جُويرِيَة ، وصفيَّة رضي ا لله عنهما .

أما تزويجه صلى ا لله عليه وسلم بناته على ذلك الأساس من الديانة والإيمان والتُّقى، فقد كان على ذلك الوصف بكماله، حيث زوَّج بناته فاطمة وأم كلثوم ورقية رضي ا لله عنهن من أفاضل الصحابة وأكملهم دينا وتقى وأخلاقا .

١ـ ففاطمة رضي ا لله عنها زوجها ممن ربَّاه في حِجره، وأدَّبه وأحسن تأديبه، ونشأ على الإيمان والإسلام بحيث لم يسجد لصنم قط، ولا عرف غير ا لله ربا منذ نعومة أظفاره، إنه ابن عمها عليُّ بن أبي طالب رضي ا لله عنه، وزوَّجها عليه لا لابتغاء مال ولا غيره، غير

الدين والخُلُق، فقد زوجه عليها وهو لايملك غير درعه الحِطْمِّية(١) فقدَّمها صداقا لهـا، ثـم بقي لا يجد ما يقوم بأعباء الوليمة حتى كانت وقعة بدر فنال من المَغنم شارِفا(٢) وشـارفا آخر من الخمس، فأراد أن يحمل عليها إذخِرًا ليبيعه من الصَّوَّاغين فيستعين به على وليمـة العرس، غير أنه لم يتهيأ له ذلك، لما فعله حمـزة بالشـارفين مـن العقـر بسـبب نشـوته مـن الخمر قبل أن تحرم،كما هو مبين في الصحيحين(٣) .

٢- وزوج رُقَيَّة رضي ا لله عنها من عثمان بن عفان رضي ا لله عنه وذلـك قبـل البعثـة، وقد كان عثمان رضي ا لله عنه من أكمل الرجال أخلاقا وعقلا، كما يدل عليـه أسـبقيَّتُه إلى الإسلام وصلابته في دينه حيث لم يقدِر عمُّه الحكم بن العـاص أن يثنيـه عـن الإسـلام مع شدة غلظته عليه وقوَّة وَثاقه له، وقال له: ترغب عن ملة أبائك إلى دين محـدَث؟ وا لله لا أدعك أبدا حتى تدع ما أنت عليه، فقال له عثمان رضي ا لله عنه: "وا لله لا أدَعُه أبـدا ولا أفارقه" فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه(٤) .

ثم كانت له اليد الطُّولى في نصرة الإسلام والمسلمين بنفسه وماله حتى أنه جهَّز جيـش العسرة، وهي غزوة تبوك وضمن له النبي صلى ا لله عليه وسلم بذلـك الجنـة حيـث قـال: "من جَّهز جيش العسرة فله الجَّنة"(٥) فجهزه عثمان رضي ا لله عنه .

ولقد كان من كمال محبَّةِ النبي صلى ا لله عليه وسلم له أن زوجه ابنتَه الأخرى هي أم كـلـثـوم،وذلك بعد وفـاة رقية رضي ا لله عنهما، ولم يجمع أحـد ابنتي نبي غيره، فلذلك

---

(١) منسوبة إلى بطن من عبد القيس يقال لهم: حطمة بن محارب، كانوا يعملـون الـدروع، وقيـل غير ذلـك. انظر النهاية ٤٠٣/١ .

(٢) أي: ناقة مسنة .

(٣) انظر البخاري كتاب المغازي، بـاب رقـم ١٢، ١٠٥/٥، ومسـلم في الأشربة، بـاب تحريـم الخمر برقـم ١٩٧٩ من حديث الحسين بن علي رضي ا لله عنه عن أبيه .

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٨/١، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٥٠ .

(٥) أخرجه البخاري في المناقب، باب مناقب عثمان رضي ا لله عنه ١٧/٥ من حديثه تعليقا بصيغة الجزم .

لقب بذي النورين، وما ذلك إلا لكمال دينه وخُلقه، وقد كان صلى ا لله عليه وسلم يخبر عن فضله وكريم خلقه فيقول: "ألا أستحي من رجل تَستحي منه الملائكة"(١) . والحياء من أعظم شعب الإيمان ودليل كماله كما علمته في مبحثه"(٢) .

٣ـ وأما زينب رضي ا لله عنها فقد زوَّجها من أبي العاص بن الرَّبيع قبل البعثة،وقد كان من رجال مكة المعدودين مالا وتجارة وأمانة،حتى كان يقال له:الأمين، وكان مواخِيا لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم ومصافيا، وكان ابن خالة زينب، وضغط عليه كفار قريش أن يطلقها بعد دعوة النبي صلى ا لله عليه وسلم إياهم إلى الإسلام فأبى،لنبل أخلاقه ووفائه مع شركه(٣)

ولقد كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يثني عليه بعد البعثة لوفائه وأخلاقه فكان يقول: "حدَّثني فصدقني،ووعدني فوفى لى"(٤) يشير بذلك إلى ما وعده به بعد أن أُسر في بدر أن يرسل له بزينب فوفى له بذلك .

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يتزوج ويزوج قبل البعثة وبعدها .

فكان قبل البعثة يعتبر الأخلاق والأصالة، وبعد البعثة يعتبر الديانة، وظهر لك من اعتباره صلى ا لله عليه وسلم للأخلاق قبل البعثة ما دل على أن الأخلاق الكريمة تهدي صاحبها إلى الدين الحق،واتباع الشرع القويم .

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة رضي ا لله عنهم، باب من فضائل عثمان برقم ٢٤٠١ .

(٢) انظر ص ٤٧٩

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٧ـ٥٩، والاستيعاب ٤/١٢٥، والإصابة ٤/١٢١ .

(٤) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في المهر عند عقدة النكاح ٣/٢٤٩، وفي مناقب الصحابة، باب ذكر أصهار النبي صلى ا لله عليه وسلم منهم أبو العاص بن الربيع ٥/٢٨ من حديث المسور بن مخرمة .

وهذا النهج هو الذي كان يحث أمته عليه بأقواله كما حثهم على التأسي به في أفعالـه، وأقواله في ذلك كثيرة نأتي منها بطائفة صالحة إن شاء الله تعالى .

أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على تحري الدين في التزوج :

أما أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على تحـري الديـن دون غـيره، فمنهـا مـا هـو حث لمريدي الزواج من الرجال،ومنها ما هو حث لأولياء أمور النسـاء، فقـد كـان عليـه الصلاة والسلام يحث الفريقين على اعتبار الدين والخلق معيارا أساسيا في اختيار الزوجات أو الأزواج،لما لاعتبار ذلك من مصالح تعود على بناء الأسرة المسلمة بالخير والصلاح .

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم في حث مريدي النكاح من الرجال على اعتبار الديـن أساسا لاختيار الزوجات :

١ـ ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تُنكـح المـرأة لأربع لمالها ولحسبها(١) وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك"(٢) .

٢ـ وفي رواية: "تُنكح المرأة على مالها، وتُنكح المـرأة علـى جمالهـا، وتنكـح المرأة على دينها، خذ ذات الدِّين والخُلق ترِبت يمُينك"(٣) .

فبين عليه الصلاة والســلام رغبـات النـاس ومطامحهم في النكـاح بأنهـا لا تعـدو هـذه الخصال الأربع.

ثم أرشد الراغب في النكاح إلى ما ينبغي أن يقــع عليـه اختيـار المـرأة وهـو الديـن، لمـا للدين من صلاح الحـال والمـآل، وبنـاء الأسـرة علـى مـايرضي الملـك المتعـال،مـن مكـارم الأخلاق وجميل الفعال.

---

(١) حسب الإنسان: ما يعده من مفاخر آبائه، وقيل: هو شرف النفس وفضلها. النهاية ٣٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب الأكفاء في الدين ٩/٧، ومسلم في الرضاع، باب استحباب نكـاح ذات الدين برقم ١٤٦٦ .

(٣) أخرجه ابن حبان ١٣٧/٦ الإحسان، والحاكم في المستدرك ٦١/٢، من حديث أبي سعيد الخدري، وقـال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي .

ولقد كان من كمال تحريضه عليه الصلاة والسلام على تحري الدين أن: قال:" تربت يداك» لأن هذه الكلمة تقال للمبالغة في التحريض على الشيء والتعجب منه، من غير نظر إلى معناه الأصلي،وهو الدعاء بالتصاق اليدين بالتراب (١) .

وكما وجه النبي صلى الله عليه وسلم الخُطَّاب إلى مراعاة الدين والخُلُق فيمن يرغب في النكاح من الرجال، فإنه قد وجَّه كذلك أولياء المخطوبات إلى أن يتحرَّوا ذوي الأخلاق والدين فيمن يرغب نكاح موليّاتهن،من بنات وأخوات ونحوهن، لما في أهل الدين والأخلاق من إكرام لهن ومحافظة على دينهن ودنياهن، ناهيك عما يحرصون عليه من تربية الأولاد تربية دينية صالحة قائمة على صحة الإيمان ومكارم الأخلاق،وذلك لاستشعارهم المسئولية الملقاة على أعتاقهم نحو أسرهم وأبنائهم ومجتمعاتهم، وكان مما قاله صلى الله عليه وسلم في ذلك :

١- مارواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا خطب إليكم من تَرضون دينه وخُلقه فزوِّجوه إلا تفعلوه تكنْ فتنةٌ في الأرض وفساد عريض"(٢) .

٢- وفي حديث آخر يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا جاءكم من تَرضون دينه وخلقه فأنكِحوه، إلاَّ تفعلوا تكنْ فتنة في الأرض وفساد" .

قالوا يارسول الله وإن كان فيه(٣) ؟

قال: "إذا جاءكم من تَرضون دينه وخُلُقه فأنكِحوه، ثلاث مرات"(٤) .

---

(١) انظر النهاية ١٨٤/١ .

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء "إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه برقم ١٠٨٤، وابن ماجه برقم ١٩٦٧، وهو حديث حسن بشاهده الآتي كما في إرواء الغليل ٢٦٦/٦.

(٣) يعني: قلة في المال، أو عدم الكفاءة في الحسب ونحوه .

(٤) أخرجه الترمذي أيضا في الباب السابق برقم ١٠٨٥، وقال عنه: حسن غريب، وهو شاهد للذي قبله فيقوي بعضهما بعضا، وهو من حديث ابي حاتم المزني رضي الله عنه .

فترى أنه صلى الله عليه وسلم لم يجعل معيار الاختيار إلّا الدين والخلق، وأغفل كل معيار ماديٍّ آخر، مع تكرر تنبيه المخاطبين إليه، وهذا يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يحرص كلَّ الحرص على مراعاة الدين والخلق عند التزويج أو التزوج في نفسه، ويحث أمته عليه، وذلك لبالغ أهمية الدين والخلق في تكوين الأسر .

المبحث الثاني

(الخِطبة وما يلحق بها)

تعريف الخطبة :

الخِطبة بكسر الخاء: فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أوقول، يقال: خطبها يخطُبها خطْبا وخِطبة، ورجل خطّاب: كثير التَّصرف في الخِطبة، ومنه قول الشاعر :

برح بالعينين خطّاب الكثب　　　يقول إني خاطب وقد كذب

وإنما يخطب عُسًّا مِن حلب(١)

والخطيب: الخاطب .

والخِطب: الرجل الذي يخطب المرأة، ويقال أيضا: هي خِطبه وخِطْبته التي يخطُبها"(٢).

وهي مأخوذة من الخَطب أو المخاطبة أو التخاطب التي تعني المراجعة في الكلام، وأصلها الحالة التي يكون عليها الإنسان إذا خطب، نحو الجِلسة والقِعدة، فهي مصدر يدل على الهيئة .

وفي الاصطلاح : هي طلب نكاح المرأة(٣)، ويقال: التماس النكاح ممن يعتبر منه(٤).

العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي :

وسمِّي ذلك الطلب بالخطبة، لما يتم فيه من المراجعة في الكلام عند التَّخاطب .

والخِطبة هي طريق الوصول إلى بناء الأُسرة، أو هي الخطوة الأولى لبناء مجتمع صغير يكون نواةً لبناء مجتمع كبير .

---

(١) الكثب: جمع كثيبة، وهي: كل قليل جمعته من طعام أو لبن أو غير ذلك، والعس: بضم العين: القدح الضخم، يريد: أن الرجل يجيء بعلة الخطبة وهو يريد القِرى .

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٨٩/٢، ولسان العرب لابن منظور مادة (خطب) ٦٣٠/١ .

(٣) المفردات للراغب ص ١٥٠، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي ٩٣/٣ .

(٤) حاشية القليوبي على المحلى شرح المنهاج ٢١٣/٣ .

فيجب إذاً أن تبدأ هذه الخطوة بما يرجى أن تكون عليه الأسرة من الفضل والكمال الأخلاقي وذلك بمراعاة أخلاق الإسلام فيها التي تهدف إلى ذلك الزكاء الأخلاقي والصفاء الزوجي للمجتمع الإسلامي .

وقد بين القرآن الكريم بعض هذه الآداب والأخلاق، وتولت السنة بيان البعض الآخر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أوتي القرآن ومثله معه .

بيان القرآن الكريم لبعض أخلاق الخِطبة وآدابها :

أما ما بينه القرآن الكريم من أمر الخِطبة فهي مسألة خِطبة المعتدّة، حيث أرشد من يرغب في خطبة المعتدة ويخشى أن يسبقه غيره في الخِطبة، أرشده إلى الكيفية التي ينبغي له أن يسلكها، الجامعة له بين تحقيق مأربه والوقوف عند حدود الله، حيث حظر عليه الخِطبة في حال العِدّة لما يترتب على ذلك من مفاسد، وذلك بقوله تعالى: ﴿ ولا جناحَ عليكم فيما عرَّضتم به من خِطبةِ النّساء أو أكننتُم في أنفسِكم علِم الله أنّكم ستذكرونَهنّ ولكن لا تُواعِدوهُنّ سِرًّا إلا أن تقولوا قولًا معروفا ولا تَعزِموا عُقدةَ النّكاحِ حتى يَبلغَ الكتابُ أجلَه واعلموا أنّ الله يعلمُ ما في أنفسِكم فاحذرُوه واعْلموا أنّ الله غفورٌ حليم ﴾[سورة البقرة: ٢٣٥] .

فإن هذه الآية الكريمة تدل على ثلاث مسائل في مجال خطبة ذوات العدة من النساء :

إحداها: تشريع أصل الخطبة .

وثانيها: الإرشاد إلى كيفيتها .

وثالثها: تحريم التصريح بها لمن لم تنته عدتها بعد .

أما تشريعها: فهو مفهوم من رفع الجناح عنها عند عدم المانع المذكور في الآية وهو أن لا تكون المخطوبة في أثناء العدة، وذلك دليل على مشروعيتها .

وأما الإرشاد إلى كيفيتها، فقد كان بالنسبة لمن هي معتدة، حيث بينت الآية ما يمكن للمرء أن يحجز به المرأة لتكون زوجا له قبل أن يُسبَق إليها، وذلك بالتعريض(١) في

---

(١) وهو القول المفهم لمقصود الشيء، وليس بنص فيه، مأخوذ من عرض الشء وهو ناحيته، كأنه يحوم على النكاح ولا يصرح. أحكام القرآن لابن العربي ٢١٢/١ .

رغبته فيها إذا ما انتهت عدتها كأن يقول: إنك لَصالحة، أو إن ا لله لسائق إليك الخير إن شاء ا لله، أو من يرغب عنك ؟ أوإن حاجتي في النساء، أو نحو ذلك، مما لا يجعلها تستيقن مزاده من ذلك حتى لا تستعجل أمرها وتدعي انقضاء العدة قبل انقضائها بالفعل(١) .

وأما تحريم التصريح بخطبة المعتدة فقد بينته الآية بنهيين جازمين وهما قوله تعالى: ﴿ ولكن لا تُواعدوهنّ سِرًّا ﴾ وقوله: ﴿ ولا تَعزموا عُقدةَ النكاح حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه ﴾، ومطلق النهي يقتضي التحريم، ولذلك "أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزويجها وتنبيه لا يجوز، وكذلك أجمعت الأمة على أن الكلام معها بما هو رَفث وذكر جماع أو تحريض عليه لا يجوز، وكذلك ما أشبهه، وجُوِّز ما عدا ذلك"(٢) .

ثم لم تكتف الآية بذينك النهيين حتى حذرت منه أبلغ تحذير، حيث قال ا لله تعالى: ﴿ واعلموا أنَّ ا لله يعلمُ ما في أنفسِكم فاحذرُوه ﴾ وهذا نهاية التحذير من الوقوع فيما نهى عنه سبحانه .

وفي الآية دليل على أن المنهي عنه جِدُّ خطير، وحري به ذلك،فإن الأمر يتعلق بحفظ الأنساب، وصيانة النسل من الاختلاط ولا يتم ذلك إلا بالحَيْطة الكبرى له، وذلك بالعدَّة التي فرضها ا لله تعالى لبيان استبراء الرحم من الزوج الأول .

ولهذا تعاقب نهيان على ذلك، الأول: النهي عن المواعدة الصريحة بالسر للتأكيد على ما أباحه من التعريض في الخِطبة، فأفاد عباده بأنهم لا يتجاوزون الرخصة بالتعريض التي كانت رأفة بهم لما يعلمه تعالى من عدم مقدرتهم على كتمان ما يختلج في صدورهم من الرغبة في نكاحهن، إلى الوعد الجازم عن طريق السر بالنكاح أو الجماع، ثم عاد فأكد ذلك بقوله سبحانه: ﴿ إلا أن تَقولُوا قولًا معروفا ﴾ والقول المعروف هو: ما أبيح من التعريض السابق بيانه .

---

(١) انظر المجموع شرح المهذب ٢٥٨/١٧-٢٥٩، وأحكام القرآن لابن العربي ٣١٢/١-٣١٣ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي ٣٠٤/٢، وانظر الجامع أحكام القرآن للقرطبي ١٨٨/٣ .

والنهي الثاني: عن العزم بعقدة النكاح، أي: عقده، فقال تعالى: ﴿ ولا تعزِموا عُقدةَ النكاح حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه ﴾ وذكر العزم مبالغة في النهي عن العقد، أي: ولا تعزموا عَقد عُقدة النكاح ﴿ حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه ﴾ وذلك هو انتهاء العِدَّة بالأشهر إن كانت من ذوات الأشهر، أو الأقراء إن كانت من ذوات الأقراء(١)، أو وضع الحمل إن كانت حاملا، كما هو مبين في مواضعه من كتاب العِدد في الكتب الفقهية المختلفة .

الجوانب الأخلاقية في الآية الكريمة :

وفي هذه الآية الكريمة جوانب أخلاقية عظيمة أرشدت المؤمنين إليها، وهي تدل بمجموعها على بالغ نظر الإسلام إلى الأخلاق حيث يصبغ تشريعاته بها، ويوليها عنايته، وهذه الجوانب هي :

١ ـ مراعاة الجانب النفسي والإنساني عند الخطبة، فالمعتدة بالوفاة أو بالطلاق تكون غالبا في ظروف نفسِيَّة صعبة، فهي بحاجة في هذا المجال إلى الملاطفة في القول وعدم تهييج نفسها إلى الحزن السابق، وذلك يكون بالتعريض النزيه، والعبارة الجميلة .

وفي ذلك أيضا مراعاة لأهل الزوج الأول إذا كان متوفًّى، حيث لا يجرح شعورهم ولا يجدد الأسى في نفوسهم، والمؤمنون متراحمون فيما بينهم، فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

٢ ـ في الآية إشارة إلى ضبط النفس وعدم إطلاق العنان لها فتسرح فيما تهوى، وهذا معنى أخلاقي عميق يستفاد من قوله تعالى: ﴿ واعلَموا أنَّ الله يعلمُ ما في أنفسِكم فاحذرُوه ﴾ .

٣ ـ الحث على الالتزام بالأدب الأخلاقي في الحديث، فلا ينحدر المسلم إلى مواعدة المرأة بالجماع ونحوه، بل ينبغي أن يختار قول المعروف المصبوغ بالأدب والحشمة والعفَّة، فيكسو ألفاظه أجملها .

---

(١) أي: المعتدة بالأطهار، أو الحيض .

٤ ـ في الآية إشارة إلى أن على المؤمن أن لا يسبق الأحداث، والأشياء قبل أوقاتها، بل عليه أن يضبط نفسه، فلا يطلب الأشـياء إلا في أوقاتها ومواعيدها المعتبرة، ويرشد إلى ذلك قول الله جل في علاه: ﴿ ولا تَعزِموا عُقدةَ النكاح حتى يبلغَ الكتابُ أجلَه ﴾ .

إلى غير ذلك من أسرار الكتاب العزيز الذي لا تفنى عجائبه، ولا تُدرك فرائده، ولا تنتهي أسـرار ولطائفه، وفقنا الله لتدبره وفهمه، وتلاوته على النحو الذي يرضيه سبحانه .

تمثل آداب الخِطبة وأخلاقها في النـبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين القرآن لأمته بأقواله وأفعاله وسلوكه، فيوضح أحكامه، ويبين تشريعاته في الأحكام والآداب بما يناسب طبيعة الحال من قول أو فعل أو هما معا .

وفي هذا المقام بين النبي صلى الله عليه وسلم ما شرعه الله تعالى لأمته من أمر الخِطبة، وفصَّل لهم أحكامها وآدابها في الأحوال ، وزاد على ذلك:ما أوكل الله تعالى إليه بيانه وتفصيله مما لم يأت به كتابه الكريم .

وكان من بيانه صلى الله عليه وسلم لأحكام الخِطبة وآدابها التي تضمَّنتها الآية السابقة المتضمِّنة لإباحة التعريض بالخِطبة لذوات العدة:الوقائعُ التالية :

١ ـ عندما أراد عليه الصلاة والسلام أن يزوِّج أسامةَ بن زيد رضي الله عنهما من فاطمةَ بنت قيس(١) رضي الله عنها، وذلك حينما تأيَّمت من زوجها الذي بتَّ طلاقها وهو أبو عمر بن حفص؛ فإنها جاءت تستفتيه في أمر نفقتها في العِدَّة فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس لكِ عليه نفقة"(٢) .

وأمرها أن تعتدَّ في بيت ابنِ أمِّ مكتوم(٣) رضي الله عنه، وقال لها: "فإذا حللتِ

---

(١) الفهرية القرشية، كانت ذات جمال وعقل وكمال، وكانت من المهاجرات الأول، وفي بيتها اجتمع أصحاب الشورى عند مقتل عمر رضي الله عنه، انظر الاستيعاب ٣٨٣/٤، والإصابة ٣٩٤/٤، وتهذيب الأسماء ٣٥٣/٢ .

(٢) لأنها مطلقة طلاقا بائنا كما جاء في بعض الروايات أنه طلقها البتة،الطلاق كله،وهو الثلاث التطليقات، وانظر شرح مسلم للإمام النووي ٩٥/١٠ .

(٣) هو عمرو بن قيس بن زائدة العامري القرشي، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة، وأنزل الله تعالى فيه صدر سورة (عبس) ، ومناقبه شهيرة، وتوفي شهيدا في القادسية حيث كان يحمل اللواء، وقيل عاد إلى المدينة وتوفي بها. انظر تهذيب الأسماء =

فآذِنيني" وفي رواية أرسل إليها يقول: "لا تسبقيني بنفسك" .

قالت أم شَرِيك رضي الله عنها: فلما حللتُ ذكرت له أنَّ معاوية بن أبي سفيان، وأبا جهم خطباني، فقال صلى الله عليه وسلم: "أما أبو جَهم فلا يضع عصاه عن عاتقه(١)، وأما معاوية فصُعلوك لا مال له، إنكحي أسامةَ بن زيد" قالت: فكرهتُه ثم قال: "إنكحي أسامة" قالت: فنكحته فجعل الله فيه خيرا واغتُبطتُ"(٢) .

فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم مع ما كان يضمره في نفسه من خطبتها لأسامة بن زيد رضي الله عنه إلا أنه لم يصرِّح لها بذلك، وإنما عرَّض لها تعريضا بقوله: "لا تسبقيني بنفسك" وكان هذا أصرح تعريض له صلى الله عليه وسلم في الخطبة، لما فيه من الإشارة إلى أنه سيكون له معها شأن في اختيار الزوج الذي يودُّه لها، وقد كان كذلك حيث أرشدها النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما هو أصلح لها في مستقبل أمرها، وهو نكاح أسامة الذي كرهته في بادىء الأمر لعدم كفاءته لها في الجمال والحسب، لكن سرعان ما صارت به مغتبطة لكمال الدين والخلق الذي أسعد مستقبل حياتها، وجعلها تعيش معه عيشة كريمة وتغتبط معه، وهذا هو سر اختيار النبي صلى الله عليه وسلم أسامة رضي الله عنه، لأنه لا يدلُّها إلا على الذي هو خير، والخيرية في الدين والخلُق لا في غيرهما .

٢ ـ أما ما كان من خطبته صلى الله عليه وسلم لنفسه، فإنه كان إذا أراد خِطبة امرأة وأراد أن يعرض لها بذلك لم يكد يُفصح عن مراده في تعريضه، كما كان منه لما خطب حفصة بنت عمر رضي الله عنها، فإنه صلى الله عليه وسلم لمَّا رغب في تزوجها بعد أن

= ٢٩٥/٢، والاستيعاب ٥٠١/٢، والإصابة ٥٢٣/٢ .

وإنما أمرها بالاعتداد في بيته؛ لأنه لا يبصرها ولا يتردد إلى بيته كثير من الناس، وهي مع ذلك مأمورة بأن تغض بصرها عنه. انظر شرح مسلم ٩٦/١٠ .

(١) كناية عن أنه كثير الضرب للنساء، وقيل: إنه كثير الأسفار .

(٢) أخرجه مسلم في الطلاق برقم ١٤٨٠ من طرق كثيرة، وأبو داود في نفقة المبتوتة برقم ٢٢٨٤، وبقية أصحاب السنن .

تأيَّمت، لم يزد على أن ذكرها لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وكان الأمر في غاية السِّرية، بحيث إنه لم يفش ذلك لعمر رضي الله عنه عندما عرض عليه عمر رضي الله عنه تزويجه بها، بل سكت مما حمل عمر رضي الله عنه على أن يغضب عليه، فلما انقضت عدتها خطبها النبي صلى الله عليه وسلم من عمر فأنكحه إياها، وعندئذ اعتذر له أبو بكر رضي الله عنه عمّا جرى منه من السكوت عن إجابته أو عدم إبداء الرغبة في ذلك، وقال له: "إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو تركها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلتها"(١) .

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يفعل إذا أراد أن يخطب معتدة، تارة يتبع الرخصة فيعرِّض، وتارة يأخذ بالعزم فلا يعرِّض، بل يكتم في نفسه ما يريد أو يسر لأحد أصحابه بذلك ، فلا يفشيه، ومن هنا تعلم مدى اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم لآداب الله تعالى التي أدب بها عباده،واتباع رخصه من غير إفراط ولا تفريط، مع أنه من أهل العزم، وذلك ليعلِّم أمته ما كان يندبهم إليه من اتباع رخص الشرع التي جاء بها هذا الدين الحنيف؛ لأن الله تعالى يودُّ ذلك من عباده، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "إن الله يحب أن تؤتَى رخصُه كما يحب أن تؤتى عزائمُه"(٢) وفي رواية: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معاصيه"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب عرض الإنسان ابنته وأخته على أهل الخير ١٧/٧ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٦٥/٣ إلى الطبراني في الكبير والبزار من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ورجال البزار ثقات، وكذلك رجال الطبراني .

(٣) أخرجه أحمد في المسند ١٠٨/٢، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال الهيثمي في المجمع ١٦٥/٣: ورجاله رجال الصحيح، وعزاه أيضا إلى البزار والطبراني في الأوسط قال: وإسناده حسن، وذكر له شواهد كثيرة فلتنظر .

فكان صلى الله عليه وسلم يفعل مثل ذلك لتستن به أمته في اتباع ما رخص الله فيه، وإلا فقد كان في غالب أحواله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالعزائم؛ لأنه من أهل العزم، وغالبا ما كان زواجه صلى الله عليه وسلم يأتي عفويًّا من غير سابق تقدير، وذلك كلما يَرى مصلحة كبرى تكمن في زواجه بإحدى سيِّدات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

هكذا كان عليه الصلاة والسلام يبين أخلاق القرآن الكريم، وقد علمت أنه صلى الله عليه وسلم أوتِي القرآن ومثله معه(١)، وأن سنته هي ثاني مصدري التشريع،لذلك فقد بيَّن لأمته آدابا أخرى للخطبة ليتحقق للأسرة ما ينبغي أن تكون عليه من الكمال الأخلاقي والصفاء الروحي الذي يريده لها الإسلام الحنيف وذلك كالنظر إلى المخطوبة قبل الخطبة، وخُطبة الخِطبة، والنهي عن الخِطبة على الخِطبة، وسأبين هذه الخلال بإيجاز تتميما للفائدة .

أ - النظر إلى المخطوبة:

لما كان الخاطب يهدف إلى أن يقيم علاقة زوجيَّة، وحياة طويلة، وبناء أُسَريًّا متماسكا، بينه وبين مخطوبته، كان لا بد أن يعرفها معرفة جيِّدة حتى يقدِم على ما أراده وهو على بصيرة من أمره، لا أن يعقد صفقة غرر، لا يدري عنها شيئا فتكون عاقبة أمرها خسرا .

والنبي صلى الله عليه وسلم وإن كان يعلِّم أمته على أن الخلق القرآني يقوم على غض البصر من الرجل والمرأة،كما سيأتي بيان ذلك في حينه، إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلِّم أمته أن هذا ليس على إطلاقه، فبين لهم أن هذا الخُلق العظيم هو في غير الخِطبة التي يترتب عليها بناء أسرة وتكوين كيان صالح؛لذلك فقد ندب صلى الله عليه وسلم الخاطب إلى أن ينظر إلى مخطوبته، ويتعرَّف عليها بما أمكنه في حدود ما رخص الله تعالى فيه حتى

---

(١) كما جاء من حديث المقدام بن معديكرب الكندي عند أحمد في المسند ١٣١/٤، وأبي داود في الأطعمة برقم ٤٦٠٤، والدارمي في السنة ١٤٤/١ ، وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة رقم ١٦٣، وغيره .

يقدم عليه وهو على بينة من أمره، وذلك تأكيدا لمعنى المودّة التي دعا إليها القرآن الكريم وأسس عليها الحياة الزوجية كما قال سبحانه: ﴿ وجعلَ بينكم مودّةً ورحمة ﴾[سورة الروم: ٢١].

١ ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فأتاه رجل فأخبره أنه تزوّج امرأة من الأنصار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنظرتَ إليها ؟ قال: لا، فقال له: "أُنظر إليها فإنّ في أعيُنِ الأنصار شيئا"(١) ـ يعني الصِّغر ـ .

وهذا المعنى الأخلاقي الذي قصده رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضحه الحديث الآتي:

٢ ـ عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه خطب امرأة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أُنظر إليها فإنّه أحرى أن يُؤدَم بينكما"(٢) أي: أحرى أن تدوم المودة بينكما إذا تزوجتها عن رضا واقتناع سابقين، حيث لا يشعر بغبن ولا خديعة .

٣ ـ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظرَ منها إلى ما يدعُوه إلى نكاحها فليفعل" قال جابر: فخطبت امرأةً فكنت أتخبّأُ لها حتى رأيت منها ما دعاني إلى نكاحها فتزوجتها"(٣) .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يحث في هذه الأحاديث الراغبين في النكاح إلى ما يؤمّن

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح، باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزويجها برقم ١٤٢٤، والنسائي في النكاح، باب إذا استشار رجل رجلا في المرأة هل يخبره بما يعلم ٧٧/٦ .

(٢) أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء في النظر إلى المخطوبة برقم ١٠٨٧ وحسنه، والنسائي في النكاح، باب إباحة النظر قبل التزويج ٦٩/٦، وابن حبان في صحيحه ١٢٣٦ كما في موارد الظمآن .

(٣) أخرجه أبو داود في النكاح، باب الرجل ينظر إلى المرأة وهو يريد تزويجها برقم ٢٠٨٢، وقال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام برقم ١٠٠٠: رجاله ثقات، وأخرجه الحاكم ١٦٥/٢ وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد في المسند ٣٣٤/٣ .

حياتهم الزوجية غالبا، وذلك بالتعرُّف على المراد نكاحهن عن طريق النظر إليهن فيما يدعو إلى نكاحهن، من الوجه الذي يدل على الجمال ومبلغ العمر، واليدين الّذين يدلاّن على نعومة الجسد وضده، ولا يتعداه إلى غيره، فإن النّظر إلى المخطوبة في أصله محرم؛ لأنه نظر إلى أجنبية، وإنما أبيح للضرورة، والضَّرورةُ تقدَّر بمقدارها(١) .

أما الخُلوة بالمخطوبة أو السفر بها للتّعرُّف عليها ونحوه مما جرت به العادة في هذه الأزمان في كثير من البلدان، مما لا يخفى أمره على كثير من الناس، فذلك غلوٌّ في الإفراط فيما أباحه الشرع، وهو النظر فقط، وتكون عواقبه وخيمة كما هو معلوم، وتكون تلك العواقب جزاء للأولياء الّذين فرّطوا في آداب الشرع، يبقى عارها وشنارها عليهم ما عاشوا، ولا يلام فيها الشرع الحكيم الذي جعل كلَّ شيء بمقدار معلوم، فمن تعدّاه فقد أساء وظلم ولا يلوم إلا نفسه .

٤ ـ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعنى بالنظر في من يريد نكاحها كما جاء في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه "أن امرأة جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي، قال: فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعَّد النظر إليها وصوَّبه ثم طأطأ رأسه ..."الحديث(٢) .

٥ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله عليه وسلم: «رأيتُك في المنام يجيء بك الملَك في سَرَقَةٍ(٣) من حرير، فقال لي: هذه امرأتُك، قال: فكشفتُ عن وجهِك الثوب فإذا أنتِ هي، فقلت: إن يكُ هذا من عند الله يُمضه»(٤) .

وهذه وإن كانت رؤيا منامية إلا أن رؤيا الأنبياء حق كاليقظة، ولذلك أوردها

---

(١) هذا ما ذهب إليه الجمهور، وقال الأوزاعي: يجتهد وينظر إلى ما يريد منها إلا العورة، وقال ابن حزم: ينظر إلى ما أقبل منها وما أدبر ... انظر الفتح ٢١٨/١٩، ومعالم السنن للخطابي ٢٥/٣ .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب النظر إلى المرأة قبل التزويج ١٩/٧ .

(٣) أي: في قطعة من جيد الحرير .

(٤) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين ١٩/٧ .

البخاري للاستدلال بها على جواز النّظر إلى المخطوبة، بل صدّر بها أدلة ذلك، وذلك من كمال فقهه رحمه الله تعالى .

وفي فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا وأقواله السابقة، قُدوة لمن يريد أن يقدم على الزواج حتى لا يقع فيما لا تحمد عقباه، كما أن في ذلك تأسيا للأولياء فلا تمنعهم العادات من تمكين الراغب في نكاح مولاتهن من النظر إذا علموا صدق الراغب وأمانته .

ب ـ خُطبة الخِطبة:

ومن الآداب التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المقام خُطبة الحاجة عامة، وخُطبة النكاح خاصة .

١ ـ فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خُطبة الحاجة:

إنَّ الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا اللهَ حقَّ تُقاتِه ولا تموتُنَّ إلا وأنتُم مسلمون ﴾[سورة آل عمران:١٠٢]، ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اتّقوا ربَّكم الذي خَلقكم من نَفْسٍ واحدةٍ وخلقَ منها زوجَها وبَثَّ مِنهما رجالاً كثيراً ونساءً واتّقوا اللهَ الَّذي تساءلونَ بهِ والأرحامَ إنَّ الله كان عليكُم رقيباً ﴾[سورة النساء:١]، ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اتّقوا اللهَ وقُولوا قولاً سدِيدا * يُصلِح لكم أعمالَكم ويغفِرْ لكم ذُنوبَكم ومن يُطعِ اللهَ ورسولَه فقد فاز فوزاً عظِيما ﴾»(١)[سورة الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

لما في هذه الخطبة من الوصيَّة بالتقوى، ومراقبة الله في أول خطوة من خطوات الحياة

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في خطبة النكاح برقم ٢١١٨، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح برقم١١٠٥ وحسنه، والنسائي في كتاب الجمعة، باب كيف الخطبة ٣/١٠٥، واللفظ للنسائي، وهو حديث صحيح بطرقه الكثيرة، وقد بين ذلك الشيخ الألباني في رسالة خاصة أسماها: خطبة الحاجة، وللفقهاء صيغ أنيقة أخرى في خُطبة الخِطبة انظر حاشية إعانة الطالبين ٣/٢٦٥ .

الزوجية، لتكون الحياة بعد ذلك سائرة من منطلق التقوى والمراقبة الإلهية، وذلك من أكبر العوامل على جعل الحياة الزوجية سعيدة راقية في أخلاقها وتعاملها فيما بينها .

وقد كانت الخُطبة عند خِطبة النكاح معلومة ومتبعة حتى قبل البعثة، كما جاء في قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بخديجة رضي الله عنها، فإن أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم نهض معه وخطب خطبة عصماء جاء فيها:« أما بعد: فإن محمدا ممن لا يُوازن به فتىً من قريش إلا رجح به شرفا ونُبلا وفضلا وعقلا، وإن كان في المال قِلٌّ فإن المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك».

فقال عمرو بن أسد عم خديجة رضي الله عنها مجيبا له:« هو الفحل الذي لا يُقدَع(١) أنفه »فأنكحها منه(٢) .

جـ ـ الخِطبةُ على الخِطبة:

ومما أرشد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أدب اجتماعي مهم يدل عدم مراعاته على استخفاف بحقوق الآخرين، وإضاعة للحقوق الإيمانية الاجتماعية، ويترتب على ذلك مفاسد كبيرة من خصومات وهتك أعراض وإحن ونحوها .

ذلك هو الخِطبة على خِطبة أخ له قد سبق إلى المخطوبة وأجيب بالقبول .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الإخلال بهذا الحق وحذر من التفريط فيه لعظم خطر ما يترتب عليه وذلك في أحاديث كثيرة نذكر منها ما يلي :

١ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيع بعضكم على بيع بعض،ولا يخُطب على خِطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبلَه أو يأذن له الخاطب"(٣) .

---

(١) فسر ابن الأثير في النهاية ٢٤/٤ هذا اللفظ بقوله: يقال: قدعت الفحل وهو أن يكون غير كريم، فإذا أراد ركوب الناقة الكريمة ضرب أنفه بالرمح أو غيره حتى يرتدع أو ينكف. ا.هـ .

(٢) الروض الأنف للسهيلي ٢١٣/١ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب لا يخطب على خطبة أخيه حتى ينكح أو يدع ٢٤/٧ وفي غيره، ومسلم في النكاح، باب تحريم خطبة الرجل على خطبة أخيه برقم ١٤١٢ .

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يخطُب الرجل على خِطبة أخيه"(١) .

٣- وعن عُقبةَ بن عامر رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن أخو المؤمن، فلا يحلُّ للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه،ولا يخطب على خِطبة أخيه حتى يذر"(٢) .

فهذه الأحاديث تنهى نهي تحريم(٣) عن انتهاك حق الآخرين في السبق إلى المخطوبة لما في ذلك من بذر بذور الفساد الاجتماعي الذي ينشأ من ذلك، فهو يولّد الضَّغينة بين الخاطبين، والحقد الدَّفين ومحاولة الانتقام،والغيبة بينهما،والشعور من أحدهما بالتعالي ومن الآخر بالإهانة، إلى غير ذلك، وكل ذلك مما حرمه الإسلام وحذر منه ولذلك كان نهي النبي صلى الله عليه وسلم مقرونا بالتنبيه إلى الأخُوَّة الإيمانية(٤) لأجل أن تراعى من كلا الجانبين .

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط، باب ما لا يجوز من الشروط في النكاح ٢٤٩/٣، ومسلم في البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه برقم ١٥١٥، وأبو داود في النكاح باب كراهية أن يخطب الرجل على خطبة أخيه برقم ٢٠٨٠ .

(٢) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه حتى يأذن أو يترك برقم ١٤١٤ .

(٣) على الصحيح من مذاهب أهل العلم في ذلك، فقد قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم ١٩٧/٩ معقبا على النهي بقوله: هذه الأحاديث ظاهرة في تحريم الخِطبة على خطبة أخيه، قال: وأجمعوا على تحريمها إذا كان قد صرح للخاطب بالإجابة ولم يأذن ولم يترك ...

وذهب الخطابي إلى أن النهي للتأديب، وليس بنهي تحريم يبطل العقد عند أكثر الفقهاء، وتعقبه الحافظ في الفتح ٢٣٩/١٩ بأنه لا ملازمة بين كونه للتحريم، وبين البطلان عند الجمهور، بل هو عندهم للتحريم، ولا يبطل العقد، ثم فصل الخلاف في ذلك كالنووي بما يطول ذكره، فينظر هناك، وينظر معالم السنن للخطابي ٢٤/٣ .

(٤) وهي هنا مخرجة مخرج الغالب، وإلا فإن غير المؤمن تحرم الخطبة على خطبته أيضا للعلة التي ذكرت من فساد ذات البين في المجتمع، وهذا ما ذهب إليه الجمهور وإن خالف في ذلك الخطّابي رحمه الله وغيره. انظر شرح مسلم للإمام النووي ١٩٨/٩، وفتح الباري ٢٣٩/١٩ .

المبحث الثالث

(النكاح)

النكاح في اللغة: الضم والجمع، يقال: تناكحت الأشجار إذا تمايلت وانضم بعضها إلى بعض(١) .

وفي الاصطلاح: هو عقد يتضمن إباحة وطء بلفظ نكاح أو تزويج أو ترجمته(٢) .

وسمي هذا المعنى الشرعي نكاحا لما فيه من ضم أحد الزوجين إلى الآخر(٣) .

والعرب تستعمل لفظ النكاح بمعنى العقد والوطء جميعا لكنهم إذا قالوا: نكح زوجته أو امرأته لم يريدوا إلا المجامعة(٤) .

وهو من سنن المرسلين،ومن الشرائع القديمة،شرعه الله تعالى لبقاء الجنس البشري وتكاثر نسله،ليستخلفه في الأرض لعبادته تعالى وعمارة الأرض .

وجعل الله تعالى فيه الراحة النفسية،وإشباع الغريزة الجنسية،وحصول السعادة والأنس من المودة والاجتماع، ولذلك كان من نعم الله تعالى الكبرى التي تقتضي بالغ الامتنان من مُسديها وهو الله تعالى على عباده،ولطالما ذكّر سبحانه وتعالى عباده بهذه النعمة على سبيل الامتنان والتعظيم، وذلك كقوله جل شأنه: ﴿ هو الَّذي خلقَكم من نَفسٍ واحدةٍ وجعلَ منها زَوجها ليَسكُن إليها فلمَّا تغشَّاها حملَت حَمْلاً خفيفا فمرَّت به فلمَّا أثقلت دَعوا اللهَ ربَّهما لئن آتيتَنا صالِحاً لنكونَنَّ من الشَّاكرين ﴾[سورة الأعراف:١٨٩] .

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿ واللهُ جعل لكم من أنفُسِكم أزواجًا وجعل لكم من أزواجكم بَنينَ وحَفَدَةً ورزَقكم من الطَّيباتِ أفبالباطلِ يُؤمنونَ وبنعمةِ اللهِ هم يَكفُرون ﴾ [سورة النحل:٧٢] .

---

(١) القاموس المحيط ١٦٣/١، وشرحه تاج العروس ٢٤٢/٢، والصحاح ٤١٣/١ .

(٢) مغني المحتاج للخطيب الشربيني ١٢٣/٣، والياقوت النفيس للشاطري ص ١٤١ .

(٣) حاشية إعانة الطالبين للمليباري ٢٥٥/٣ .

(٤) مغني المحتاج للخطيب ١٢٣/٣ .

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ ومن آياتِه أن خلَق لكم من أنفسِكم أزواجًا لتَسكنُوا إليها وجعلَ بينكم مودَّةً ورحمةً إنَّ في ذلك لآياتٍ لِقومٍ يَتفكرون ﴾[سورة الروم:٢١] .

إلى غير ذلك من آيات الامتنان بهذه النعمة العظمى وهي نعمة خلق الزوج من جنس بني آدم ليكون سكنا للرجل، به يأنس وعنده يطمأن ويرتاح ويُشبع به غريزته،ويكون له من النسل والذّرية التي يظل ذكره بها،وتكون عونا له عندما يكون أحوج إلى المساعدة والمظاهرة .

وأجل من ذلك الراحة النفسية والطمأنينة القلبية التي يجدها عندما يأوي إليها فتكون لباسا له، ومثلجة لصدره، وقائمة بحقوقه وواجباته وشئون بيته وأولاده .

وتلك نعمة لا يعدلها نعمة بعد نعمة الإسلام والإيمان ونعمة الصحة .

وذلك ما لا يختلف فيه ذووا العقول السليمة، فكل واحد من بني آدم لا يجد راحة نفسه، ومستقر حياته، إلا إذا كان ذا زوج يأوي إليه، يجد فيه السكن النَّفسي والطمأنينة القلبية .

ولا يرى لنفسه سعادة غامرة وحياة مطمئنة إلا إذا قضى شهوته، ونال وَطره، فعندئذ يرى نفسه أنه أسعد الناس حظا وأكثرهم نعمة .

ولهذا كان قول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حبُّ الشَّهواتِ من النِّساء والبَنينَ ... ﴾ [سورة آل عمران:١٤] ، إخبارا بحقيقة بني آدم في هذه النعمة، من أنهم يرونها أجمل متاع الحياة الدنيا .

وقد أقرهم القرآن الكريم على ذلك، إلا أنه دلهم على ما هو خير وأفضل مما يرونه من هذه النعمة،وهو نعيم الآخرة، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ قل أَؤُنبِّئُكم بخيرٍ من ذلكم لِلّذين اتّقوا عندَ ربّهم جنّاتٌ تَجري من تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها وأزواجٌ مطهَّرة ورِضوانٌ من اللهِ والله بصيرٌ بالعباد ﴾[سورة آل عمران:١٥] .

وذلك ليدلهم على أن ما نالوه مما رأوه نعيما في الدنيا، ما هو إلا نزر يسير ورمز حقير لنعيم الآخرة، فإن كانوا قد تنعَّموا بهذا فليحرصوا على ما هو أفضل منه في الآخرة، وسينالونه إن كانوا من أهله، بأن كانوا في الدنيا ممن يتَّقون الله تعالى فلا يشركون به ولا يستحلّون معاصيه .

ولما كان أمر النكاح لدى بني آدم بتلك المثابة، غريزة، كان لا بـد من تشريع ينظمه كي لا يكون أمره فوضى فتختلط الأنساب وتضيع الأحساب، ولا يحصل الغرض من فطر الناس عليه في بناء الأُسَر وغرس مكارم الأخلاق في النشء، وإقامة المجتمعات على الطهر والعفاف والفضيلة كما هو الحال في المجتمعات الإباحية التي لا تحكم بما أنزل الله، ولا تقيم شرعه في الدول الشرقية والغربية .

لذلك أولاه القرآن الكريم عنايته الكبيرة في تشريع أحكامه، حيث أربت آياتُه على عشرين آية، وذلك ليكون على وفق مرضاة الله تعالى من وضعه في حله مع الطهر والعفاف والمحافظة على حدوده، من غير ميل ولا إجحاف، فأمر به أمر إباحة، وجعل له حدا يقف عنده فلا يتجاوز عنه، ونظَّم ما يترتَّب عليه من علاقة أُسَرِيَّة، وما قد يحوج إلى التخلِّي عنه من خُلع أو طلاق، إلى غير ذلك مما هو معروف في فقه الأحوال الشخصية، والعلاقة الأسرية .

كل ذلك بما يتفق مع مكارم أخلاق الإسلام، وسموِّه ووسطيَّته .

وسأبحث جوانب من هذا الباب مما تمس الحاجة إليه في مكارم أخلاق القرآن الكريم، وذلك مع الايجاز غير المخل إن شاء الله تعالى .

تشريع النكاح

أما تشريع أصل النكاح فقد كان في آيات من كتاب الله الكريم منها قوله تعالى: ﴿... فانكِحُوا ما طاب لكُم من النِّساء مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ فإن خِفتُم ألاَّ تعدِلوا فواحدةً أو ما مَلكت أيمانُكم ذلك أَدنى ألاَّ تَعولُوا * وآتوُا النِّساء صَدُقاتِهنَّ نِحلةً فإنْ طِبنَ لكم عن شيءٍ منه نَفسا فكُلوه هنِيئًا مريئا ﴾[سورة النساء:٣،٤]

فهذه الآية تدل على إباحة النكاح عند الاستطاعة على مُؤنه إلى حدود أربع نسوة مجتمعات، وهو أمر إباحة لمن قدر عليه، فليتزوج إن شاء واحدة، وإن شاء اثنتين، وإن شاء ثلاثا، وإن شاء أربعا، ولا يجوز له الزيادة على ذلك، لأن ذلك هو حد الطاقة التي يمكن لبني آدم أن يحتاجوا لها أويقدروا عليها، ويقيموا العدل بينهن، وإن ظنوا عدم القدرة

على إقامة العدل بينهن فالواجب عليهم حينئذ الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت أيمانهم من الإماء، وذلك للمحافظة على ذلك الخلق الاجتماعي العظيم وهو العدل(١) .

وهذا تشبريع إلهي عظيم لأمر النكاح قائم على مكارم الأخلاق ووسطية التشريع، حيث لم يقتصر به على حده الأدنى، ولم يجز فيه العدد الكثير، وإنما أجاز عددا معقولا، مقيَّدا بالعدل في القسمة بين الزوجات فيما يقدر على قسمته من بيت ونفقة ..

ونحو هذه الآية في الدلالة على تشريع النكاح قوله تعالى: ﴿ ومن لم يَستطِعْ مِنكم طَوْلًا أن يَنكِحَ المحصناتِ المؤمناتِ فِمن مَّا ملكت أيمانُكم من فَتياتِكم المؤمِنات ... ﴾ [سورة النساء:٢٥] .

حيث أباحت نكاح الإماء المؤمنات عند العجز من الفقر عن نكاح الحرائر المؤمنات .

والآيات الدالة على مشروعية النكاح غير ما ذكر كثيرة كآيات الامتنان به، السابق ذكر بعض منها .

والآيات التي عنيت ببيان أحكامه من صداق وعشرة وخلع وطلاق وإرث وغير ذلك كثيرة لا يخفى أمرها .

(١) انظر بحث هذه الآية ودلالتها في تفسير الفخر الرازي ١٧٢/٩-١٧٩ .

تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم لتشريع النكاح

وكما كان تشريع النكاح بكتاب الله تعالى في آيات كثيرة منه، فقد كان كذلك أيضا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والفعلية، التي ورد منها ما يتجاوز العد في مثل هذا البحث، ولنأت على ذكر طائفة منها :

طائفة من أقواله صلى الله عليه وسلم في تشريع النكاح:

فمن ذلك:

١- ما أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنّه أغضُّ للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء"(١) .

والباءة بالمد والهمز هي: "مُؤن النكاح، بأن يتوق، إليه ويجد مهر المثل،وكسوة فصل ونفقة يوم وليلة، وقيل: هي القُدرة على الجماع، لكن ينافيه قوله بعد ذلك: ومن لم يستطع...الخ، إذ العاجز عن الجماع لا يحتاج لصوم"(٢) .

ونلاحظ أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم به كان مقرونا ببيان فائدته الأخلاقية العظيمة،وهي أنه يحمل على غض الطَّرف عن النظر إلى المحرمات،ويحفظ الفرج عن الوقوع في موبقات الآثام.

٢- ومنها ما أخرجه أبو داود والنسائي من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "تزوَّجوا الودودَ الولود فإنّي مكاثر بكم الأمم"(٣) .

---

(١) البخاري في الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ٣/٣٤، وفي مواضع أخرى من صحيحه، ومسلم في النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ...، برقم ١٤٠٠ .

(٢) الإفصاح عن أحاديث النكاح لابن حجر ص ١٢ .

(٣) أبو داود في النكاح، باب النهي عن تزويج من لم تلد من النساء برقم ٢٠٥٠، والنسائي في النكاح، باب كراهية تزويج العقيم ٦/٦٥، وإسنادهاحسن، وله شاهد عند أحمد من حديث أنس، وصححه ابن حبان كما في موارد الظمآن للهيثمي برقم ٢٢٨ .

٣ـ ومنها ما أخرجه الشيخان من حديث أنس رضي ا لله عنه في قصة النفر الذين تقالوا عبادتهم، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا، فجاء إليهم النبي صلى ا لله عليه وسلم فقال: " أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما وا لله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"(١) ، "أي ليس من أهل طريقتي المقتدين بي، وهذا فيما إذا كان الحامل للرغبة في الإعراض عنه، هو الإعراض عن العمل بالسنة فحسب، أما إذا انضم إلى ذلك الإعراض احتقار السنة فإن المعنى حينئذ يكون: إنه ليس من أهل ملتي وهي الإسلام ؛ لأن ذلك حينئذ كفر"(٢) والعياذ با لله تعالى .

وقد جاء هذا المعنى في أحاديث أخرى :

٤ ـ منها ما رواه أبو هريرة رضي ا لله عنه، عنه صلى ا لله عليه وسلم قال: "من أحب فطرتي فليستن بسنتي، وإن من سنتي النكاح"(٣) .

سنته صلى ا لله عليه وسلم الفعلية في تشريع النكاح :

وقد كانت سنته صلى ا لله عليه وسلم أن تزوج وأكثر من الزواج في آخر عمره، وجاء عنه صلى ا لله عليه وسلم أنه قال:

---

(١) متفق عليه وتقدم ص ٣٣٦ .

(٢) الإفصاح عن أحاديث النكاح لابن حجر الهيتمي ص ١٥ .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى في كتاب النكاح ٧٨/٧، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٥٥/٤ إلى أبي يعلى قال: ورجاله ثقات غير أنهما أخرجاه من حديث عبيد بن سعد، ولذلك علق الهيثمي صحته بصحة صحبة عبيد بن سعد قال: وإلا فهو مرسل، غير أن البيهقي بعد أن أورده من مسند عبيد ، قال: وروى ذلك عن أبي حرة عن الحسن عن أبي هريرة، وعليه فيكون الحديث جاء من طريقين، وقد صحت طريق عبيد بن سعد إليه، ويبقى النظر في طريق أبي هريرة فإن كان أبو حرة هو حنيفة الرقاشي فهو ثقة كما في التقريب رقم ١٥٨٨ وإن كان واصل بن عبدالرحمن فهو صدوق، وقد كان يدلس عن الحسن كما أفاده الحافظ في التقريب عند ترجمته برقم ٧٣٨٥ وهذا هو الأظهر وا لله أعلم .

١ - «حُبِّبَ إلي النِّساء والطِّيب، وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة»(١) .

٢ - وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: «إن خير هذه الأمة أكثرُها نساء»(٢) يعني النبي صلى الله عليه وسلم حيث توفي عن تسع نسوة، وكان قد فارق غيرهن بموت أو طلاق .

مقاصد النبي صلى الله عليه وسلم من تزوجه عددا من النساء :

ولم يكن ذلك لمجرد إشباع الغريزة، أو بدافع الشهوة البشرية كما يزعم أعداء الدين من الكفرة والمستشرقين ومن شايعهم من الملحدين، بل كان ذلك لأغراض نبيلة، ومقاصد عظيمة، تتفق مع جنابه العظيم، وعظيم رسالته، وهي مقاصد في غاية الأهمية لبعثته المباركة ورسالته العامة الخالدة، وهي تعود إلى أربعة مقاصد :

١ - مقاصد تعليمية . ٢ - مقاصد تشريعية .

٣ - مقاصد اجتماعية . ٤ - مقاصد إصلاحية .

وقد حقق النبي صلى الله عليه وسلم نتائج هذه المقاصد كلها على أحسن وجه وأكمل صورة، بحيث إنها لم تكن لتتحقق إلا عن طريق زواجه المبارك بأمهات المؤمنين المباركات رضي الله عنهن، كما شاء الله تعالى ذلك، وكما سيأتي بيانه في الآتي :

١ - المقاصد التعليمية :

أما المقاصد التعليمية فهي أهم المقاصد لتعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم حيث إنه عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الرجال والنساء، واختُصت النساء بأحكام خاصة لا يقدر ذو الخلق العظيم الذي كان أشد حياء من العذراء في خدرها أن يعبر عنها، كما أن شريعته الغراء عنيت بالأحكام الأسرية الخاصة التي لا يُطَّلَع عليها عادة في الظاهر، كعنايتها بالأحكام الاجتماعية والفردية الظاهرة .

ولا يمكن أن تنقل الأحكام النسوية الخاصة تلك، أو الأسرية هذه إلا عن طريق

---

(١) حديث صحيح تقدم تخريجه في الصلاة ص ٢٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب كثرة النساء ٤/٧ .

الأزواج، ولا يمكن أن تفي واحدة منهن بالقيام بهذه المهمة نظرا لكثرة تشريعها، فكان لا بد من أن يتزوج صلى ا لله عليه وسلم عددا من النساء للقيام بهذه المهمة .

وقد قمن بذلك خير قيام والشواهد على ذلك كثيرة معلومة؛

الشواهد على قيام أمهات المؤمنين رضي ا لله عنهن بنقل تشريعات الأحكام الأسرية :

ومن النوع الأول ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي ا لله عنها أن امرأة من الأنصار سألت النبي صلى ا لله عليه وسلم عن غسلها من المحيض ؟ فأمرها كيف تغتسل ثم قال:«خذي فِرصةً من مسك ـ قطعة من مسك ـ فتطهَّري بها، قالت: كيف أتطهر بها ؟ قال: تطهري بها، قالت: كيف أتطهر بها ؟ قال: سبحان ا لله ! تطهري بها، قالت عائشة رضي ا لله عنها: فاجتذبتها إليّ فقلت: تَتَبَّعي بها أثر الدم"(١) .

وفي رواية قال لها:« خذي فِرصة ممسَّكة وتوضئي ثلاثا »ثم إن النبي صلى ا لله عليه وسلم استحيا فأعرض وجهه، قالت عائشة رضي ا لله عنها: فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبي صلى ا لله عليه وسلم .

فانظر إلى الدور الذي قامت به عائشة رضي ا لله عنها، إذ لولاها لأدى الحال إلى أحد شيئين: إما إلى أن يُحرَج النبي صلى ا لله عليه وسلم في التعبير الذي لا يساعده حياؤه العظيم عليه، أو إلى أن ترجع المرأة من غير أن تدرك الحكم الشرعي الذي استفتت عنه.

وكم كان النبي صلى ا لله عليه وسلم يستقبل مثل هذه الحالات حتى قالت عائشة رضي ا لله عنها: "نِعْم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقّهن في الدين" كما في بعض طرق هذا الحديث عند مسلم .

وأما النوع الثاني: وهي الأحكام الأسرية أو الذاتية الفردية التي تجري غالبا في البيت، ولا يطلع عليها إلا الزوجة والولد ونحوهما، كالتهجد والقيام والمناجاة وقراءة القرآن والصيام، حيث كان يصبح فيقول: هل عندكم شيء ؟ فإن قالوا: لا، قال: إني إذاً

---

(١) البخاري في الحيض، باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت في الحيض ٨٢/١، وأبوابا أخرى، ومسلم في الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك في موضع الدم برقم ٣٣٢ .

صائم، ونحو ذلك، وغشيان الأهل وآدابه، وأحكام الجنابة والغسل، وما كـان عليـه النبي صلى الله عليه وسلم في بيته وغالب شمائله وأحواله ...

إلى غير ذلك من الأمور الكثيرة فإنها ما نقلت إلا عـن طريـق أزواج النبي صلـى الله عليه وسلم وخدامه ومواليه، ثم أصبحت شرعا لأمتـه ، ولـولا تعـدد زوجاتـه صلـى الله عليه وسلم لما استطاعت الواحدة والاثنتان غير العدد الذي كن عليه القيام بذلك الـدور، إذ إن هذه الأمور تُمثّل شطر الدين؛ لأن الشريعة الإسـلامية ذات شـطرين: شـطر أعمـال ظاهرة، وشطرها الآخر أعمال خفيّة سِرّية، فإذا كانت الأعمال الظاهرة نقلها ذلك الجـم الغفير من الصحابة رضوان الله عليهم ، فإن الأعمال الخفية تحتاج إلى عدد كثير يحملهـا، وقد كان العبء الأكبر على أمهات المؤمنين،وإن شـاركهن غـيرهن في ذلـك مـن رجـال ونساء، فيما اطلعوا عليه،فهو قليل .

ومن صور ذلك مثلا: حكم من أصبح جنبا في نهار رمضان، فقد كان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي هريرة رضي الله عنه يقولون بعدم صحة صوم من أصبح جنبا، حتى علموا حكم ذلك من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن .

كما أخرج ذلك مسلم رحمه الله تعالى من حديث أبي بكر بن عبد الرحمن قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقصُّ يقول في قَصَصِه: من أدركه الفجر جنبا فـلا يصـم، قال: فذكرت ذلك لعبد الرحمن بن الحارث فأنكر ذلك، فانطلق عبـد الرحمـن وانطلقـت معه حتى دخلنا على عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، فسألهما عبد الرحمـن عـن ذلـك قال: فكلتاهما قالت:«كـان النبي صلى الله عليـه وسـلم يُصبح جنبـا مـن غـير حلـم ثـم يصوم ...» الحديث، إلى أن قال: فقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت ذلك من الفضـل ولم أسمعه من النبي صلى الله عليـه وسـلم، قـال: فرجـع أبـو هريـرة عمـا كـان يقـول في ذلك)(١) .

(١) أخرجه مسلم في الصيام باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب برقم ١١٠٩ .

فانظر مبلغ الفائدة والرأفة والرحمة التي حصلت للمسلمين في هـذا الحكـم الـذي كـان يخفى على صحـابي جليـل كـأبي هريـرة؛ لأنـه ممـا لا يطلـع أمثالـه عليـه، وإنمـا هـو مـن خصوصيات ربات المنزل .

ولهذا كان صلى ا الله عليه وسلم يرشح أمهات المؤمنين للقيام بهذه المهمة المناطة بهـن، فقد جاءه رجل يسأله: أيقبل الصائم ؟ فقال له رسول ا الله صلى ا الله عليـه وسـلم: «اسـل هذه» لأم سلمة ، فأخبرته أن رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم يصنع ذلك ...)(١) .

٢ ـ المقصد التشريعي:

وأما المقصد الثاني وهو المقصد التشريعي فهو ما حصل من زواج النبي صلى ا الله عليـه وسلم بزينب بنت جحش رضي ا الله عنها التي كانت زوجا لمتَبَنَّاه زيـد بـن حارثـة رضـي ا الله عنه، وقد كان من عادتهم،وما يرونه دينا متوارثا، أن يتبنَّى الرجلُ الرجلَ فيُدعى ابنه وينسب إليه، ويرث كل منهما الآخر، ويحرم على كل منهما ما يحرم بالبنوة الحقيقية مـن زوجة المتبنَّى ـ بالفتح ـ والمتبنِّي ـ بالكسر ـ إلى غير ذلك من عاداتهم في هـذا المجـال، ومـا كانت هذه العادة الراسخة في نفوسهم ستقتلع إلا بتشريع فعلي يقوم بـه النبي صلـى ا الله عليه وسلم، وهو ما حصل بالفعل(٢) .

على أن الحقيقة في أمر زواج النبي صلى ا الله عليه وسـلم بزينـب رضـي ا الله عنهـا، مـا كان للنبي صلى ا الله عليه وسلم فيه خِيَرَة، إنما كان بأمر ا الله تعالى وقضائه المبرم الـذي مـا كان للنبي صلى ا الله عليه وسلم وسع في مخالفته، حيث زوَّجه بها من فوق سبع سمـاوات، كما كانت تفتخر به زينب رضي ا الله عنهـا علـى ضراتهـا(٣) ، وقـد شـاء ا الله تعـالى أن يكون تشريعه لهذه المسألة بتلك الصورة التي جرت عليها، وأنزل فيها قرآنا يتلـى إلى يـوم القيامة ـ ويتضمن عتابا شديدا للنبي صلى ا الله عليه وسلم على تردده في ذلـك، لما خشـي

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام، باب أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته برقم ١١٠٨ .

(٢) وقد تقدم تخريج القصة في مبحث الحياء ص ٤٧٣

(٣) كما سيأتي تخريجه قريبا ص ٦٨٣

على عرضه من قَالةِ السُّوء التي سيرددها أهل الباطل من منافقين ويهود بقصد النيل منه صلى ا لله عليه وسلم وهو العفيف الكريم، اقرأ إن شئت قول ا لله تعالى: ﴿ وإذ تَقولُ للذي أَنعم ا للهُ عليه(١) وأنعمتَ عليه(٢) أمسِك عليك زَوجَك واتَّقِ ا لله وتُخفي في نفسِك(٣) ما ا للهُ مبديهِ وتَخشى النَّاسَ(٤) وا للهُ أحقُّ أن تخشاهُ فلمَّا قضى زيدٌ منها وَطَراً زَوَّجناكَها لِكي لا يكونَ على المؤمنينَ حرجٌ في أزواجِ أَدعيائِهم إذا قَضوا مِنهُنَّ وَطَراً وكان أمرُ ا للهِ مفعولا ﴾[سورة الأحزاب:٣٧] .

وقد كانت زينب رضي ا لله عنها تفتخر على ضراتها من نسائه صلى ا لله عليه وسلم وتقول: «زَوَّجكُن أهاليكُن وزوَّجني ا لله من فوق سبع سماوات»(٥) .

٣ ـ المقاصد الاجتماعية :

أما المقاصد الاجتماعية: فهي كثيرة ومهمة وتعود لأغراض نبيلة فاضلة منها :

أ ـ ترسيخ المحبة بينه صلى ا لله عليه وسلم وبين من تزوج منهم، بله عن إعطائهم مزية خاصة بين أصحابه ليكون ذلك بمثابة ترشيحهم لأمر عظيم سيتحمَّلونه،وذلك كتزوجه صلى ا لله عليه وسلم من أبي بكر رضي ا لله عنه ابنته عائشة رضي ا لله عنها، ومن عمر ابنته حفصة رضي ا لله عنهما، حيث كانا له صلى ا لله عليه وسلم بمثابة وزيري صدق، وكان لهما من السبق إلى الإسلام والتضحية في سبيله وعظيم المحبة له صلى ا لله عليه وسلم ما يوجب لهما المزية على غيرهما، وليس هناك سبيل لأن يعطيهما النبي صلى ا لله عليه وسلم تلك المزية أفضل من أن يكون عن طريق التزوج منهما، لما في التزوج من

---

(١) أي: بالإسلام .

(٢) أي: بالعتق .

(٣) أي: مما قد اطلعك ا لله عليه من أنها ستكون زوجتك .

(٤) أي: أن يقولوا تزوج زوجة ابنه .

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ١٥٢/٩، وانظر مرشد المحتار لابن طولون ص ٢٨٧ ـ ٢٩٣ لتقف على الرد المحكم الرصين عما أثير حول هذا الزوج المبارك .

امتزاج الصلات، واختلاط الوشائج، بحيث يصبح المتزوِّج والمتزوَّج منهم كأنهم لُحمة واحدة .

وتأمل امتنان الله تعالى على عباده بقوله: ﴿ وهو الَّذي خلق من الماءِ بَشراً فجعلَه نَسَباً وصِهرا وكان ربُّك قديراً ﴾[سورة الفرقان:٥٤] .

تجد من أسراره ما تولِّده المصاهرة من أواصر المودة والنصرة والمؤازرة التي هي أصل نظام الاجتماع البشري لتكوين القبائل والشعوب، وتعاونهم على الحق أو الباطل مما جاء بهذه الحضارة المرتقية مع العصور والأقطار، كما قال الله تعالى: ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خلقناكم مِن ذَكرٍ وأُنثى وجَعلناكم شُعوبًا وقبائِلَ لِتعارفوا ...﴾(١)[سورة الحجرات:١٣] .

وقد اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الأسلوب مع كبار أصحابه بالتزوج منهم تارة كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أو تزويجهم تارة أخرى كعثمان وعلي رضي الله عنهما، وهم الأربعة الذين ولوا الخلافة بعده صلى الله عليه وسلم، وكان فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بمثابة دليل على كمال رضاه عنهم، وتزكيته لهم، ومنقبة يمتازون بها على من سواهم .

ب ـ القيام بما ينبغي أن يقوم به شخص كالنبي صلى الله عليه وسلم نحو من ضحَّوا بأنفسهم في الدفاع عن رسالته، أو كان له سابق فضل في الاستجابة لها والنصرة، وتحمل الأذية والعناء، ثم تركوا أزواجهم وأولادهم لا عائل لهم غير الله تعالى .

حيث كان صلى الله عليه وسلم يقوم بما يقدر عليه نحو أولئك الأرامل والأيتام، فإن رأى التزوج هو الأنسب فعل، كما في قصة تزوجه صلى الله عليه وسلم من سودة بنت زمعة رضي الله عنها، التي كانت قد تأيمت من السَّكران بن عمرو، وكان لها فضل السبق إلى الإسلام والهجرة إلى الحبشة(٢) .

وكما في قصة تزوجه صلى الله عليه وسلم بأم سلمة رضي الله عنها لمَّا تأيَّمت من

---

(١) التحرير والتنوير ٥٦/٩، ومحاسن التأويل ٢٦٨/٢ .

(٢) السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لابن حجر الهيثمي ص ١٣٧ .

أبي سلمة رضي ا لله عنه، الذي كان قد توفي شهيدا إثر أحد؛ لأصابة حلت به في المعركة، وكان من السابقين إلى الإسلام وهاجر الهجرتين، وكانت قد تعللت بعلل، منها أنها ذات عيال، فأخبرها النبي صلى ا لله عليه وسلم بأن عيالها هم عياله .

وكما في قصة زواجه صلى ا لله عليه وسلم من حفصة بنت عمر رضي ا لله عنهما لما تأيمت من خُنيس بن حذافة السهمي الذي توفي شهيدا من جراحات أصابته ببدر .

وكما في قصة زواجه صلى ا لله عليه وسلم من زينب بنت خزيمة بن الحارث الملقبة بـ"أم المساكين" لكثرة برها بهم، التي تأيَّمت من عُبيدة بن الحارث الذي قتل ببدر شهيدا، وقيل: من عبد ا لله بن جحش الذي استشهد بأحد، ثم ماتت في حياته صلى ا لله عليه وسلم في ربيع الأول سنة أربع، بعد مُضيِّ ثمانية أشهر من زواجها به صلى ا لله عليه وسلم(١) .

فهؤلاء النسوة الأرامل رضي ا لله عنهن ما كان للنبي صلى ا لله عليه وسلم كبير حاجة بهن لولا وفاؤه العظيم لأصحابه الذين سقطوا شهداء في سبيل نصرة دين ا لله تعالى، وتبليغ رسالة رسوله صلى ا لله عليه وسلم، ولو كان الدافع لذلك رغبة جنسية لاختار العُرُب الأبكار ونحوهن من المحببات إلى الرجال، كما كان يحث أصحابه بقوله: «هلَّا بكرا تلاعبها وتلاعبك»(٢) .

غير أنه صلى ا لله عليه وسلم لم يكن له غرض ولا قصد بذلك، وإنما كان غرضه وقصده هو إعفاف تلك الأرامل، وإعالة أولادهن إن كان لهن أولاد، وفاء لهن ولأزواجهن على السبق للإسلام، وعلى التضحية والجهاد في سبيل نصرته صلى ا لله عليه وسلم ونصرة دينه .

فكان صلى ا لله عليه وسلم الوفي الحميد الذي يخلفُهم في أهليهم وأولادهم وما وُلُّوا .

---

(١) مرشد المحتار إلى خصائص المختار لابن طولون ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٢) أخرجه البخاري بهذا اللفظ في الجهاد، باب استئذان الرجل الإمام ٤/٦٣ ، وورد بلفظ: (هلا جارية) في النكاح، باب الثيبات ٧/٦، وفي النفقات، باب عون المرأة زوجها في ولده ٧/٨٥، وفي المغازي ٥/١٢٣، ومسلم في الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين برقم ٧١٥ من حديث جابر .

٤- المقصد السياسي :

أما المقصد السياسي فقد كان مهمًّا وذا أثر إيجابي عظيم، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم قد يهدف من زواجه بإحدى النسوة اللاتي أصبحن أمهات للمؤمنين لأمر بعيد شأوه، جليل خطره، من تأليف القلوب عليه، وجمع القبائل حوله، التي تولده المصاهرة كما مر غير بعيد، أو الرغبة في المن والترغيب في الإسلام، فكان يتحقق ذلك على خير وجه وأكمله .

فقد تزوج عليه الصلاة والسلام بأم حبيبة - رَمْلة بنت أبي سفيان - صخر بن حرب، وهي بعيدة عنه حيث كانت بأرض الحبشة مهاجرة إلى الله فررا بدينها من أبيها الذي كان من أشد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم وزعمائهم، وذلك بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش، الذي كان قد هاجر معها أيضا للغرض نفسه ثم لم يلبث أن ارتد إلى النصرانية ثم مات، وعياذا بالله من خاتمة السوء .

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى النَّجاشي ملِك الحبشة رضي الله عنه(١) يطلب منه أن يزوجه بها ففعل بعد أن وكلت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وأمهرها النجاشي عنه صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، وكان ذلك سنة سبع من الهجرة، وقيل سنة ست ولها من العمر بضع وثلاثون سنة، فلما بلغ أبا سفيان ذلك قال: "هو الفحل لا يقدع أنفه"(٢) ، كناية عن افتخاره بهذه المصاهرة. فكان هذا الزواج سببا لتخفيف الأذى عنه صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه المسلمين، لما حصل له من

---

(١) واسمه أَصحمة بن أبجر النجاشي، والنجاشي لقبه، وكان قد أسلم وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم عندما هاجر إليه المسلمون في هجرتهم الأولى، وذلك لمَّا عرض عليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الإسلام وصفات النبي صلى الله عليه وسلم، ولما مات النجاشي أعلم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فصلَّى عليه صلاة الغائب كما هو ثابت في الصحيحن، وانظر الإصابة ١٠٩/١ .

(٢) مضى تفسير هذا اللفظ ص٦٧١ ، ويروى: (لا يقرع) ومعناه واضح .

تأليف قلبه وقلب قومه وعشيرته(١) .

ناهيك عن الغرض الآخر الذي هدف إليه النبي صلى ا لله عليه وسلم من تزوجه بها رضي ا لله عنها،وهو جبر قلبها لما نالها من شدة العناء في الهجرة إلى أرض الحبشة، ثم رِدَّة زوجها ووفاته، وأصبحت وحيدة فريدة غريبة وهي بنت سيد قومها، فما كان أجدرها بأن يجبر كسرها بمثل هذا الجبران الذي نسيت به كل شدة نالتها، كما دل على ذلك فرحها العظيم،الذي عبَّرت عنه بعطائها الكريم،لأَبرَهة التي زفَّت إليها البشرى تلك، البالغ قدره خمسين دينارا، غير أنها أبت قبوله، بأمر من النجاشي نفسه رضي ا لله عنه.

فتأمل المقصِد السامي الذي حققه رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بزواجه الميمون من أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي ا لله عنها، تدرك بُعد نظر النبي صلى ا لله عليه وسلم وكمال حكمته، وتعلم أنه لم يقصد الشهوة قطُّ، فقد تزوجها وهي بعيدة عنه في أرض الحبشة فلم يكن لو كان قصده قضاء الوطر ليدع القريبات منه ويتزوج تلك المرأة البعيدة،والتي يعلم أن مجيئها محفوف بخطر الموت في الأسفار والبحار، ولكنه الوفاء لمثل هذه المهاجرة الغريبة، وبعد النظر في مصالح الدعوة ومصالح الأمة لا غير .

وكما حقق النبي صلى ا لله عليه وسلم من هذا الزواج غرضا سياسيا مهما،ووفاء عظيما لأتباعه، فقد حقق من زواجه بجويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق، وصفية بنت حيي بن أخطب سيد بني قريظة مقاصد سياسية مهمة أيضا .

أما جويرية بنت الحارث رضي ا لله عنها فقد تحقق للنبي صلى ا لله عليه وسلم من

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٨/٩٦ - ١٠٠، ومرشد المحتار لابن طولون ص ٢٦٨، والسيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لابي شهبة ٢/٣١٥، وشبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول صلى ا لله عليه وسلم للصابوني ص ٣١-٣٢، وانظر إصلاح المجتمع للبيحاني ص ٢٩٦-٢٩٧، ومحمد صلى ا لله عليه وسلم لمحمد أحمد جاد المولى ص ٢٥٢ - ٢٦٠، وحياة محمد صلى ا لله عليه وسلم لمحمد حسين هيكل ص ٣١٥ - ٣٢٦ .

زواجه بها غرض سامي طالما تشوَّف الشارع إليه، ألا وهو العتق حيث إنها بعد أن سبيت في غزوة بني المصطلق سنة خمس أو ست، ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، الملقب بخطيب الأنصار رضي الله عنه(١) فكاتبها على تسع أواق فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها فلما دخلت عليه قالت: يارسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، وقد كاتبت على نفسي، فأعني على كتابتي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أو خير لك من ذلك؟ أؤدي عنك كتابتك وأتزوجك" قالت: نعم.ففعل ذلك، فبلغ الناس أنه قد تزوجها، فقالوا: أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم!فأرسلوا ما كان في أيديهم من الأسارى والسبايا. قالت عائشة رضي الله عنها: "فلقد أعتق الله بها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم منها على قومها بركة"(٢) .

فترى الهدف الأسمى الذي تحقق من زواجه صلى الله عليه وسلم بجويرية الذي ما كان يستحقق لولا تزوجه صلى الله عليه وسلم بها، وهذا يدل على سياسة حكيمة بالغة الحكمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم،وعلى مبلغ منزلته صلى الله عليه وسلم في قلوب أصحابه،حيث لم يطيقوا استبقاء الأرقاء والسبايا ممن أصبحوا أصهارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إكراما له وإجلالا .

---

(١) وكان ممن شهد أحدا وما بعدها، وشهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة، واستشهد يوم اليمامة، وكان له قصة بعد موته مع من أخذ درعه النفيسة عليه بعد استشهاده، انظرها في تهذيب الأسماء ١/١٤٠، والإصابة ١/١٩٥، ونحوهما .

(٢) طبقات ابن سعد ٨/١١٦، وسيرة ابن هشام ٤/٨، والاستيعاب بهامش الإصابة ٤/٢٥٨، والإصابة ٤/٢٦٥، ومرشد المحتار ص ٢٦٥، والقصة أخرجها أبو داود في العتق، باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة برقم ٣٩٣١، والإمام أحمد في المسند ٦/٢٧٧، والحاكم في المستدرك ٤/٢٦، وصحح الألباني إسناد ابن هشام في تعليقه على فقه السنة ص ٢٩٦ .

(٣) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

أما صفية بنت حيي رضي الله عنها فإن المقصد السياسي من زواجها كان عظيما ومهما، إذ لولا مبادرة النبي صلى الله عليه وسلم بزواجها لحصلت مفاسد كثيرة في مجتمع أصحابه رضي الله عنهم. فقد كانت نسيج وحدها من سبايا خيبر جمالا وشرفا، وكان دِحْية الكلْبي(١) رضي الله عنه قد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: أعطني جارية من السبي فقال له: "اذهب فخذ جارية" فأخذ صفية بنت حيي،فجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يانبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيد قريظة والنضير ؟ ما تصلح إلا لك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ادْعوه بها، فجاء بها فلما نظر إليها النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "خذ جارية من السبي غيرها"(٢) .

فترى كيف غار الصحابة على دحية ونفسوه أن يتميز عليهم بسيدة بني قريظة والنضير، ولم يكونوا يرونه أهلا من بينهم لأن يتميز بذلك دونهم، وكاد يستفحل الخلاف بينهم وبينه لولا تدارك النبي صلى الله عليه وسلم الموقف، ونزع فتيل الخلاف الذي كاد يشتعل .

وقد بين أهل العلم وجه استرجاع النبي صلى الله عليه وسلم صفية من دحية رضي الله عنها .

فقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: "يحتمل ما جرى مع دحية وجهين:

أحدهما: أن يكون ردَّ الجارية برضاه، وأذن له في غيرها .

والثاني: أنه إنما أذن له في جارية من حشو السبي، لا أفضلهن فلما رأى النبي صلى الله

---

(١) هو ابن خليفة بن فضالة بن فروة الكلبي، أسلم قديما وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها بعد بدر، وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى هرقل، وكان من أجمل الناس وكان جبريل يأتي على النبي صلى الله عليه وسلم في صورته، وتوفي في خلافة معاوية رضي الله عنه. انظر الاستيعاب ٤٧٢/١ مع الإصابة، وتهذيب الأسماء ١٨٥/١ .

(٢) انظر مرشد المحتار ص ٢٧٢، والحديث أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة خيبر ١٦٨/٥، ومسلم في النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها برقم ١٣٦٥، من حديث أنس رضي الله عنه .

عليه وسلم أنه أخذ أنفسهن وأجودهن نسبا وشرفا في قومها وجمالا استرجعها لأنه لم يأذن له فيها، ورأى في إبقائها لدحية مفسدة ؛

لتميزه بمثلها على باقي الجيش ،

ولما فيه من انتهاكها مع مرتبتها وكونها بنت سيدهم ،

ولما يخاف من استعلائها على دحية بسبب مرتبتها، وربما ترتّب على ذلك شقاق أوغيره، فكان أخذ النبي صلى الله عليه وسلم إياها لنفسه قاطعا لكل هذه المفاسد المتخوفة، ومع هذا فعوض دحية عنها"(١) .

وجاء في بعض روايات الحديث أنه صلى الله عليه وسلم اشتراها منه بسبعة أرؤس، يعني أعطاه بدلها سبعة أنفس تطيبا لقلبه، لا أنه جرى عقد بيع كما تدل عليه الروايات الأخرى للقصة(٢) .

فانظر إلى عظيم حكمته صلى الله عليه وسلم وبديع سياسته وبُعد نظره، إذ قطع دابر الفتنة بما لا يبقى لأحد في نفسه أدنى تردد في حسن صنعه وكمال حكمته والتسليم له بذلك .

ناهيك عما كان في تزوجه صلى الله عليه وسلم صفية من مقصد آخر كان صلى الله عليه وسلم يحرص على مثله، ألا وهو تأليف قلوب من بقي من اليهود الذين كانوا بالأمس قوة كبيرة في شبه الجزيرة العربية، لها ثقلها العظيم، ووزنها الكبير، الذي يحسب له حساب، ثم ما لبثوا أن انهزموا هزيمة منكرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم. غير أن لهم جذورا وفروعا متفرقة في بقاع كثيرة من بقية الجزيرة وأطراف الشام، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤلف قلوبهم علَّ الله أن يهديهم للإسلام، أو يكفُّوا عنه أذاهم ويُعطوا الجزية، وأقرب سبيل لذلك وأحسنه هي المصاهرة التي تدل على القرب، وتؤدي إلى الود والنصرة، لا سيما من ابنة زعيمهم،إضافة إلى أن في تزوجه صلى

---

(١) شرح النووي على مسلم ٩/٢٢٠ نقلا عن المازري رحمهما الله تعالى .

(٢) شرح النووي على مسلم ٩/٢٢٠ نقلا عن المازري رحمهما الله تعالى .

ا لله عليه وسلم من ابنت سيدهم تكريما بليغا لها، وصونا لها عن أن ينقص بهامنزلتها فإنها من سلالة نبوة كريمة، وبذلك كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يسلّيها ويبين فضلها فيقول لها: "إنَّك لابْنةُ نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي .. "(١) .

فما كان مصابها بأبيها وزوجها وأخيها سيجبرها وهي الكريمة إلا بمثل ذلك التكريم العظيم،الذي نسيت به كل مصاب، وهكذا كانت أخلاقه صلى ا لله عليه وسلم مع كرماء الناس وساداتهم .

وقد ذكر العلامة ابن طولون(٢) وجوها في حكمة تعدد زوجاته صلى ا لله عليه وسلم قد أتينا على معظمها وأهمها، ولكن نذكر عبارته في ذلك لمزيد الفائدة، ومعرفة وجوه أخرى من ذلك، فقال:

"أحدها: أنه كان صلى ا لله عليه وسلم مأمورا بنشر الشريعة وتبليغ الأحكام فأمر بكثرتهن،لينقلن عنه الأخبار قولا وفعلا،قال تعالى: ﴿ واذكُرن ما يُتلى في بُيوتِكنَّ من آياتِ ا لله والحِكمةِ ﴾[سورة الأحزاب:٣٤] .

وقد نقلت عائشة رضي ا لله عنها من ذلك الكثير الطيب،وقد أوضح بعضهم هذا فقال: السر في إباحة أكثر من أربع أن ا لله تعالى أراد نقل بواطن الشريعة وظواهرها وما يستحى من ذكره وما لا يستحى، وكان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، فجعل ا لله تعالى له نسوة ينقلن من الشرع ما يَرينه من أفعاله، ويسمعنه من أقواله التي قد يستحي من الافصاح بها بحضرة الرجال ليكمل نقل الشريعة، فكثْرةُ عدد النساءِ لنقلهن عنه من الأفعال ما يَستحي هو من التلفظ به .

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل أزواج النبي صلى ا لله عليه وسلم برقم ٣٨٩٤ من حديث أنس، وقال عنه: حسن صحيح غريب .

(٢) هو محمد بن علي بن أحمد بن طولون الدمشقي الصالحي الملقب بشمس الدين، كان عالما متفننا وعابدا صالحا، له مؤلفات كثيرة في السيرة والتاريخ والفقه وغير ذلك، منها: مرشد المختار، وإعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين توفي سنة ٩٥٣ هـ، انظر الأعلام ٢٩١/٦ .

وأيضا: فقد نقلن ما لم يعقله غيرهن مما رأينه في منامه، وحال خلوته،من الآيات البينات الدالة على نبوته، ومن جده واجتهاده في العبادة، ومن أمور يشهد كل ذي لُـب بأنها لا تكون إلا لنبي، وما كان شاهدها غيرهن فحصل بذلك خير عظيم .

وأيضا: فإن الله سبحانه وتعالى أراد نقل محاسنه الباطنة كما اطّلع الرجال على محاسنه الظاهرة ليكون مكمل الظاهر والباطن ، وقد تزوج بأم حبيبة وأبوها ذلك الوقت عدوه، وصفية، وقد قتل أباها، وغيرهما فلو لم يطّلعن من باطن أحواله على أنه أكمل الخلق لكانت الطباع البشرية تقتضي ميلهن إلى أبائهن وقرابتهن وأن يذكرن ما يرينه، فلما كان مكمل الباطن وشاهدنه، زاد إيمانهن بمحبته صلى الله عليه وسلم .

ثانيها: أنه صلى الله عليه وسلم كان يدّعي فيه الكفار أنه ساحر، فنفاه الله عنه بكثرة النساء؛ لأن من عادتهن نقل ما يرينه مما لا يمكن خفاؤه، وانظر قصة عائشة وحفصة في قوله تعالى: ﴿ وإذ أسَرَّ النَّبِيُّ إلى بعضِ أزواجِه حَديثا ...﴾[سورة التحريم:٣] نجد لذلك الإفشاء حكمة لطيفة ...، ثم نقل عن أهل العلم ما يؤيد ذلك(١) .

ثالثها: أنه صلى الله عليه وسلم كان كثير الحلم، وواسع الصدر، حسن الخلق، يصبر على تحمل أذى النسوة، بخلاف آحاد الأمة، فلذلك مُنعوا من الزيادة"(٢) .

فهذه الوجوه التي ذكرها ابن طولون وجيهة جدا، وهي تؤيد ما سبق استنتاجه من مقاصد نكاحه صلى الله عليه وسلم .

وقال الشيخ تقي الدين السبكي(٣) رحمه الله تعالى:

---

(١) قال: "وإلى هذا أشار ابن يونس في كتابه "نهاية النفاسة" فقال: وإنما حبب إليه النساء ليطلعن على ما لديه، فينفين ما نسب إليه مما لا يجوز عليه، قال في شرح التعجيز: فيظهر كذب من رماه بأنه كاهن أو شاعر أو مجنون .." .

(٢) مرشد المحتار إلى خصائص النبي المختار ص ٢٥٢-٢٥٣ .

(٣) هو الإمام الفقيه المحدث الحافظ المفسر الأصولي النحوي اللغوي المجتهد تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي،صاحب التصانيف الكثيرة منها:شرح المنهاج الفقهي،ومنها:فتاواه المشهورة =

« السرُّ في إباحة أكثر من أربع لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أراد نقل بواطن الشريعة وظواهرها، وما يستحيا من ذكره وما لا يستحيا منه، وكان رسول الله عليه وسلم أشد الناس حياء، فجعل الله تعالى له نسوة ينقلن من الشرع ما يرينه من أفعاله، ويسمعنه من أقواله التي قد يستحي من الإفصاح بها بحضرة الرجال، ليكتمل نقل الشريعة، وكثرة عدد النساء ليكثر الناقلون لهذا النوع، ومنهن عرف مسائل الغسل والحيض والعدة ونحوها، قال: ولم يكن ذلك لشهوة منه في النكاح، ولا كان يحب الوطء للذة البشرية معاذ الله، وإنما حبب إليه النساء لنقلهن عنه ما يستحي هو من الإمعان في التلفظ به، فأحبهن لما فيه من الإعانة على نقل الشريعة في هذه الأبواب .

وأيضا فقد نقلن ما لم ينقله غيرهن مما رأينه في منامه، وحالة خلوته من الآيات البينات على نبوته، ومن جده واجتهاده في العبادة، ومن أمور يشهد كل ذي لب أنها لا تكون إلا لنبي، وما كان يشهدها غيرهن، فحصل بذلك خير عظيم"(١) .

ولست أقصد مما قدمت: دحض شبهات الأعداء الألداء من ملحدين ومستشرقين، الموجهة لصاحب العصمة الإلهية، والهداية الربانية، والتصرفات السديدة صلى الله عليه وسلم، فإنها شبهات مغرِضة لا تنطلي على من له أدنى إلمام بالشريعة الغراء، التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما على من في قلبه عمًى، وفي أذنه وقْرٌ عن سماع الهدى، فإني قد كُفيت عن ذلك بما كتبه جهابذة أفذاذ، حازوا قصب السبق إلى ذلك، ولهم القِدح المعلى في العلم، وجودة الكتابة وإحكام نقض الشبهات، ودحض المفتريات(٢)، وإنما قصدت أن ألمح إلماحة سريعة إلى هذه القضية، حتى لا يظل القارىء

= توفي سنة ٧٥٦هـ، انظر البداية والنهاية ٢٥٢/١٤، وطبقات الشافعية لابنه تاج الدين ١٤١/٦ ط الحسينية، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٥٢٥، وغيرها .

(١) نقله السيوطي في حاشيته على سنن النسائي ٦٤/٧ .

(٢) وذلك كفضيلة الشيخ محمد أبي زهرة في كتابه "خاتم النبيين" ١٤٩٥/٢ - ١٥١٢، والشيخ سعيد حوى في كتابه "الرسول" صلى الله عليه وسلم ص ١٥٩ - ١٧٢، والدكتور محمد حسين هيكل في كتابه =

متلهفا إلى الإجابة، إن كـان قـد وسـوس إليـه الشيطان بعـض الشكوك، أو سمع بعـض الإفك، ذلك لأنه مـن المعلوم بداهـة أن مـن يهـدف إلى إشباع نزواتـه وشـهواته، أن لا يرضيه إشباعها إلا بأحسن الوجوه، وأكمل الأحوال، لا سيما إن كان ذلك متيسـرا لـه، ولا يخفى على دارس تأريخه صلى ا لله عليه وسلم أنه لم يتزوج إلابعدأن بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة، وذلك هو عنفوان شبابه، وأوج قـوة غريزتـه، وقـد اختـار لنفسـه في هـذا الحال امرأة ثيبة ذات عيال، في الأربعين من عمرها، وهي خديجة بنت خويلـد رضـي ا لله عنها، ومكث معها لا يبغي بها بديلا حتى وافاها الأجل المحتوم بعد مضي خمس وعشرين سنة وهي في عامها الخامس والستين، وهو صلى ا لله عليه وسلم في الخمسـين مـن عمـره المبارك، فعلام يدل هذا ؟!

فلما لحقت بباريها في العام العاشـر مـن النبـوة تـزوج امـرأة أخـرى نحـو الأولى في الكـبر والثيوبة والعيال، وهي سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس القرشية العامرية رضي ا لله عنها، وذلك لمَّا تأيَّمت من السَّكران بن عمرو رضي ا لله عنه، الذي مات في مكة في العام العاشر من البعثة، بعد أن عاد من هجرته من الحبشة، وخلَّف أرملته المسـكينة بـين أهلهـا الكفار، ثم عقد على عائشة رضي ا لله عنها، ولكنه لم يدخـل بهـا إلا بعـد الهجـرة علـى رأس ثمانية أشهر من مهاجره، وهي الوحيدة من نسائه صلى ا لله عليه وسلم التي تزوجهـا وهي جارية بكر، وذلك بعد أن جاوز سن الشباب، ودخل في سـن الكهولـة(١)، ثـم لمـا بدأت مرحلة الكفاح العملي المستمر بعد هجرته والإذن له صلى ا لله عليه وسلم بالجهاد، بدأ صلى ا لله عليه وسلم يوالي بين زوجاته للأغراض السامية التي مر الحديث عنها.

= "حياة محمد" ص ٣١٥ - ٣٢٦، وفضيلة الشيخ الدكتور محمد بن محمد أبي شهبة في كتابه "السيرة النبويـة في ضوء القرآن والسنة ٢/٢٩٤ - ٣٠٦، وعباس محمود العقاد في كتابه عبقرية محمد ص ١٠٤ - ١٠٧. ولفضيلة الشيخ محمد بن علي الصابوني رسالة خاصـة في ذلـك إسمهـا: "شـبهات وأبـاطيل حـول تعـدد زوجات النبي صلى ا لله عليه وسلم". وانظـر أيضـا فقـه السيرة للشيخ محمـد الغـزالي ص٩٥؟ ، وعظمـة الرسول صلى ا لله عليه وسلم لمحمد عطية الإبراشي ص ٣٤٢ - ٤٧٠ وغيرهم كثير .

(١) وقد اختلف العلماء في أيهما التي تزوجها النبي صلى ا لله عليه وسلم قبلُ، سودة أم عائشة رضي ا لله =

فهل هذا يدل على أغراض شخصية من تعدد الزوجات ؟!

فأين مكان اللهو والفراغ في حياة رجل توزع ليله ونهاره بين الجهاد المستمر، وبين العبادة وقيام الليل إلى أن تورمت قدماه، وبين تلقي الوحي والسهر على مصالح الدولة الناشئة، وبين تربية الأمة، وتلقي الوفود، والفصل بين قضايا المسلمين ... إلى غير ذلك من مسئوليات الرسالة التي لا تدع لصاحبها فرصة في راحة أو منفذا لهدوء .

فأين مكان الشهوة وحظ الجسد ممن هذه ظروفه وتلك مهامه ؟! ﴿ كَبُرَت كلمةً تخرُجُ من أفواههم إنْ يَقولونَ إلّا كَذبا ﴾[سورة الكهف:٥] .

= عنهما، وقد لخص ابن طولون في مرشد المختار الخلاف وحقق المسألة بقوله:

"فرجح النووي وابن سيد الناس وجمع من الحفاظ أن سودة هي التي تزوجها بعد خديجة، وهو قول قتادة وابن قتيبة وطائفة.

وقيل: بل عائشة ورجحه آخرون. انظر مرشد المختار ص ٢٥٦←٢٥٧ .

المبحث الرَّابع

(الصَّداق)

قال الراغب في المفردات: "صَداق المرأة، وصِداقها، وصُدُقتُها: ما تُعطى من مهرها"(١) .

وفي الصحاح قال: "الصَّداق والصِّداق: مهر المرأة، وكذلك الصدقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ وآتُوا النّساء صَدُقاتِهنَّ نِحلة ﴾[سورة النساء:٤]، قال: والصدقة: مثله بالضم وتسكين الدال، وقد أصدقتُ المرأة: إذا سميت لها صداقا"(٢) .

فالصداق: هو المهر، "وهو في اللغة - أي المهر - ماوجب بنكاح" .

وفي الشرع: ما وجب بنكاح، أو وطء(٣)، أو تفويت بضع قهرا،(٤) .

ويحصل الصداق بكل ما صح كونه مبيعا، عوضا أو مُعوَّضا"(٥) .

ومنه تعلم أن الصداق عوض يدفع للمرأة مقابل الانتفاع بِبُضعها .

وقد أوجبه الشارع الحكيم بقوله جل ذكره: ﴿ وآتُوا النِّساء صَدُقاتِهنَّ نِحلة ﴾[سورة النساء:٤](٦)، وقوله جل شأنه: ﴿ فما استَمتعتُم به مِنهُنَّ فآتُوهُنَّ أجُورهُنَّ فريضةً ولا جناحَ عليكم فيما تَراضيتُم به من بعدِ الفريضة إنَّ الله كان عليماً حكيما ﴾[سورة النساء:٢٤] .

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٧٨ .

(٢) الصحاح للجوهري ١٥٠٦/٤ .

(٣) أي: وطء شبهة، أو كان العقد فاسدا .

(٤) كأن كان له زوجة كبرى، وعقد على بنت رضيعة، فأرضعتها زوجته الكبرى خمس رضعات متفرقات، فإنه ينفسخ نكاح الاثنتين، ويجب على الكبرى نصف مهر الصغيرة للزوج .

(٥) الياقوت النفيس للشاطري ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٦) أي: عطية عن طيب نفس ا.هـ، تفسير الجلالين ٩٤/١ .

وقـوله تعالى في الآية التالية لهذه: ﴿ ... فانكحوهُنَّ بإذن أهلِهن وآتوهُنَّ أجورَهن بالمعروف ﴾[سورة النساء:٢٥] .

وفي هاتين الآيتين سماه أجرا؛ لأنه في مقابل المنفعة، كما سماه فريضة أيضا .

فهذه الآيات الثلاث توجب للمرأة على الزوج مهرا بما استحل من بُضعها، ليكون فارقا بين الزواج الشرعي والمخادَنة المحرَّمة، وأيضا ليكون له اليد في القِوامة عليها مقابل ما بذل من ماله وجهده كما قال سبحانه: ﴿ الرِّجالُ قَوَّامون على النِّساء بما فضَّل اللهُ بعضَهم على بعض وبما أَنفقوا من أموالهم ﴾[سورة النساء:٣٤] .

ولما في ذلك أيضا من جبر لخاطر المرأة، وتسلية لها عما تقدمه بعد ذلك من بذل نفسها له، وبذل جهدها في خدمته، وترتيب بيته، وتربية أولاده .

إلى غير ذلك من المصالح الكُبرى التي يحققها بذل المهر .

وجعله فرضا خاصا بالنساء وحقا لهن ليس لأحد سلطان عليه من قريب لها أو بعيد، وذلك ليحقق الغرض الذي بذل من أجله، إذ أنها هي التي تصبح فراشا للزوج، ومنها تنشأ آثار النكاح، ولذلك جعل لها كامل التصرف فيه، فإذا أعطت منه لزوجها عن طيب نفس ورضى، فهو حلال يأكله هنيئا مريئا؛ لأنه تصرف من تام الملك، ومختار التصرف، وكامل الإرادة .

والقرآن الكريم يقرر في الآيات السابقة، ويؤكد على أحقِّية المرأة للمهر، لينهي بذلك ما كانت عليه الجاهلية القديمة، والجاهلية الحديثة من سطو أولياء المرأة من أب أو أخ أو نحوهما على مهرها فيأخذه ويأكله،ولا يرى للمرأة الزوجة حقا في ذلك، فجعله القرآن الكريم حقا لها وحدها دون مشاركة أحد لها فيه، وبذلك يكون قد منع الأولياء من سطوة التعدي عليها في حقها .

وكما منع الأولياء من ذلك، فقد منع أيضا الأزواج من محاولة استرداده عند عدم الوئام، واضطرارهم إلى المفارقة وفك عُرى الزوجية، فقال في ذلك: ﴿ وإن أردتُم استبدالَ زوجٍ مكانَ زوج وآتيتُم إحداهُنَّ قنطارا فلا تَأخذوا مِنه شيئًا أتأخذُونه بُهتاناً وإثماً مبينا * وكيف تأخذُونه وقد أَفضى بعضُكم إلى بعضٍ وأخذنَ منكم ميثاقًا غليظا ﴾[سورة النساء:٢٠،٢١] .

وفي هاتين الآيتين بالغ الزجر للأزواج عن الرجوع فيما يعطون لزوجاتهم من مهر، ولو كان قنطارا وهو كناية عن الكثرة الكثيرة .

فإنه سبحانه صدر ذلك بالنهي الصريح المقتضي للتحريم، ثم التأكيد عليه بـ"شيئا" وهو نكرة في سياق النهي يقتضي عموم النهي عن الرجوع في الحقير والجليل .

ثم أكد على ذلك النهي بالإنكار الشديد عن الرجوع فيه، حيث سماه بهتانا وإثما مبينا، وساق ذلك مساق الاستفهام الإنكاري التوبيخي، ثم أكد هذا الإنكار باستفهام إنكاري تعجبي آخر هو أشد منه وقعا وأمضى أثرا في النفس فقال: ﴿ وكيف تأخذونه ...﴾، والمعنى: "ليس من المروءة أن تطمعوا في أخذ عوض عن الفراق بعد معاشرة امتزاج،وعهد متين"(١) .

وذلك كله لتأكيد أحقِّية المرأة بمهرها، وعدم إقرار أحد أن ينازعها فيه،سواء كان وليا أو زوجا، ولو كان بعد مرحلة الوفاق وإرادة الفراق، فإنها بتمكينها نفسها ولو مرة واحدة، استوجبت كل ما بُذل لها من مهر مهما كثر، لا يحل انتزاعه منها إلا عن طيب نفس وقناعة بإهداء أو مخالعة .

وهذه الآيات دعوة إلى مكارم الأخلاق في معاملة النساء من بنات وأخوات وزوجات، إذ فيها حث على عفة النفس عن حقوقهن، وإلهابٌ لمشاعر الحنان عليهن، لما هن عليه من الضعف،وتذكير بالمودَّة التي تكون بين الزوجين قبل تنافر القلوب، وحث على الوفاء لهن على ذلك،إلى غير ذلك مما تدل عليه هذه الآيات الكريمات من حقوق زوجيَّة وأسرية .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٠/٥ .

إصداق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه

تلك هي نظرة القرآن الكريم لصداق المرأة، وقد علمت ما فيه من بالغ الدلالة على تعظيمه لشأنه، وذلك من خلال أوامره المتكررة بإيجابه،والتحذير من التعدي على المرأة فيه، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل الناس وأولهم امتثالا لتلك الأوامر القرآنية كلها، حيث كان إذا تزوج امرأة أصدقها بما يقدر عليه كما تدل عليه الأدلة الآتية :

١ - سئلت عائشة رضي الله عنها: كم كان صداق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالت: "كان صداقه لأزواجه ثنتي عشْرَةَ أُوقِيَّة ونِشًّا، قالت: أتدري ما النِّش ؟ قال: لا، قالت: نصف أوقية، فذلك خمسمائة درهم"(١) .

٢ - وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ".. ما أصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة من نسائه، ولا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشْرةَ أوقيَّة"(٢) .

كان ذلك صداقه صلى الله عليه وسلم لنسائه كما علمت، وهو مبلغ وسط غير كبير مفرط، ولا قليل مجحف، وقد رضي بقدر هذا المبلغ لابنته فاطمة رضي الله عنها حينما زوجها من علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما تقدم أنه أعطاها درعه الحطمية، وكان قيمتها أربعمائة درهم(٣)، وكما علمت من أثر عمر الآنف الذكر، وهو يدل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يدفع للمرأة مهرها، أيا كان الحال، من غنىً وفقر، فهو صلى الله عليه وسلم ما كان يتوانى عن دفع المهر، مع كمال رغبة من يتقدّم

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن برقم ١٤٢٦، وأبو داود في النكاح، باب الصداق برقم ٢١٠٥، والنسائي في النكاح، باب القسط في الأصدقة ١١٦/٦ .

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب الصداق برقم ٢١٠٦، والترمذي في النكاح، باب رقم ٢٣ برقم ١١١٤، والنسائي في النكاح، باب القسط في الأصدقة ١١٧/٦، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح .

(٣) انظر ص٦٥٤.

لخطبتهن بزواجه من غير مطالبة منهن بصداق لو أنه أراد ذلك، إذ كمال سعادة المرأة وبالغ حظها أن تحظى بزواجه صلى الله عليه وسلم، كما يدل على ذلك ما كان يجري من أمهات المؤمنين اللاتي يخطبهن من كمال الفرح والغِبطة عند علمهن بذلك،

١ - فخديجة بنت خويلد رضي الله عنه كان بالغ سعادتها أن يرضاها النبي صلى الله عليه وسلم زوجا له، كما يدل على ذلك عرض نفسها عليه(١) .

٢ - وسودة بنت زمعة رضي الله عنها ما تمالكت أن قالت حينما علمت برغبة النبي صلى الله عليه وسلم في خطبتها: "وددت ذلك"(٢) .

٣ - وعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، ما لبث أبوها حينما جاءته خولة بنت حكيم لتبلغه رغبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في عائشة، ما لبث أن قال لها: "قولي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فليأت"(٣) .

إلى غير ذلك من قصص تزوجه صلى الله عليه وسلم بنسائه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن واحدة واحدة، ومع ذلك كان يبذل لهن المهر اللائق بهن من غير وكس ولا شطط، إلا صفية بنت حيي، فإنه اصطفاها من سبي خيبر، ثم أعتقها، وجعل عتقها صداقها، وذلك أفضل من أي مال يمكن أن يدفع ،إذ أمهرها حرية نفسها، وكذلك فعل بجويرية بنت الحارث المصطلقية كما مضى تقريره وبيانه قريبا .

وكما كان يحرص على دفع المهر لنسائه،فإنه كذلك ما كان يتوانى عن طلبه لبناته عند تزويجهن، ولو كان الزوج معسرا، كما كان من حال علي رضي الله عنه، وذلك ليقرر لأمته هذا الحق اللازم للزوجة على زوجها فتتأسى به فيه، فيبذل الأزواج مهور نسائهم عن قناعة ورضى وطيب نفس، تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢١٣/١ .

(٢) انظر السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لابن حجر الهيتمي ص ١٦٢ .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٥٥ .

تقريره لذلك بقوله :

وكما كان صلى الله عليه وسلم يقرر ذلك بفعله، فقد كان يقرره أيضا بقوله، حيث كان يأمر مريدي الزواج من أصحابه ببذل الصداق مهما كان حالهم من الفقر، ولكن على قدر ميسورهم، فما كان يكلف أحدا فوق طاقته، وإنما يكلفه بذل ما يقدر عليه،

١ ـ فقد جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله جئت لأهب لك نفسي، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصعَّد النظر فيها وصوَّبه ثم طأطأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا، جلست فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوِّجنيها، فقال له صلى الله عليه وسلم: هل عندك من شيء ؟ قال: لا والله يا رسول الله، فقال: "اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا"، فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انظر ولو خاتما من حديد"، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد، ولكن هذا إزاري، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما تصنع بإزارك، إن لبستَه لم يكن عليها منه شيء، وإن لبِسَتْه لم يكن عليك منه شيء" فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه النبي صلى الله عليه وسلم مولّيا فأمر به فدُعي، فلما جاء قال: "ماذا معك من القرآن ؟" قال: معي سورة كذا وسورة كذا، عددها، فقال: "تقرؤهن عن ظهر قلبك ؟" قال: نعم، قال: "اذهب فقد ملَّكتُكها بما معك من القرآن"(١) .

فترى أنه صلى الله عليه وسلم لم يملكه إياها، بمعنى أنه لم يزوجه بها حتى بذل مهرا، وكان المهر لمَاَّ أعوزه العين، منفعة عظيمة، هي تعليمه إياها القرآن الذي في صدره، ويحفظه عن ظهر قلب، وذلك دليل على أنه لا بد من بذل المهر وإن قل، وهو ما أجمع

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب تزويج المعسر ٨/٧، ومسلم في النكاح بالصداق وجواز كونه تعليم القرآن برقم ١٤٢٥ من حديث سهل بن سعد .

عليه أهل العلم(١) .

ولقد كان صلى ا لله عليه وسلم مع ذلك يكره المغالات في المهور، ويحبّذ بقاءها في مستوى متوسط، فقد جاء إليه رجل وقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار فأعنّي على مهرها، فقال له رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "هل نظرتَ إليها فإن في أعيُنِ الأنصار شيئًا؟"(٢)، قال: قد نظرت إليها، قال: "على كم تزوَّجتها ؟" قال: على أربع أواق، قال" على أربع أواق ؟! كأنكم تنحتون الفضة من عُرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك، ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه، فبعث عينا إلى بني عَبْس فبعثه معهم"(٣) .

هكذا كان صلى ا لله عليه وسلم يكره المغالاة في المهور؛ لأن في ذلك إجهادا للزوج، وعاملا على عدم القدرة على الزواج الذي كان يحث عليه، ويندب إلى الإكثار منه .

وذلك ما فهمه سيدنا عمر رضي ا لله عنه من هديه صلى ا لله عليه وسلم في الصداق، حتى خطب الناس في إمارته وقال: " ألا لا تَغالوا في صدقات النساء، فإن ذلك لو كان مكرُمة في الدنيا، وتقوى عند ا لله، كان أولاكم بها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، ما أصدق رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم امرأة من نسائه، ولا أصدقت امرأة من بناته أكثر من اثنتي عشرة أوقيَّة" (٤)

وما بذله الرجل قد كان أقل مما بذله النبي صلى ا لله عليه وسلم حيث كان بقدر الثُّلث فقط، ومع ذلك فقد عده صلى ا لله عليه وسلم كثيرا؛ لأن ذلك فوق طاقته، حتى احتاج إلى أن يستعين بالنبي صلى ا لله عليه وسلم في دفع المهر الذي تحمله، وذلك

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٤/٥ .

(٢) يعني بذلك صغر العين .

(٣) أخرجه مسلم في النكاح، باب ندب النظر إلى وجه المرأة وكفيها لمن يريد تزوجها برقم ١٤٢٤ من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه .

(٤) تقدم تخريجه قريبا ص٦٩٩، وهو حديث صحيح .

إرشاد منه صلى الله عليه وسلم على أن يبذل كل واحد بقدر طاقته فقط.

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصدق نساءه، ويوجبه على أمته لما في الصداق من مكارم أخلاقية عظيمة، كالإشارة إلى قِوامة الرجل، والصِّدق في المعاملة، والإحساس بشعور المرأة، والتكريم لها، وغير ذلك مما سبقت الإشارة إليه .

المبحث الخامس

(العشرة بالمعروف)

بعد أن عرفنا تلك المباحث المهمة في النكاح ومقدماته من تحرٍّ، وخطبة، وصَداق، وغير ذلك مما تقدم ذكره من أبحاث، تعيّن أن يعلم المرء الحال الذي ينبغي أن يكون عليه في حياته الزوجية، ويتمثل ذلك بأهم الأخلاق الأسرية وهي العشرة بالمعروف التي تتم بها السعادة الزوجية، والحياة الاجتماعية المرضية .

ولنبدأ بتعريف العشرة بالمعروف لنعلم ما تعنيه هذه الكلمة من مدلولات سامية .

فالعشرة لغة: المخالطة، يقال: عاشره معاشرةً وتعاشروا واعتَشرُوا: إذا تخالطوا، والمعاشرة مفاعلة منها(١) .

أما المعروف: فهو اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشرع حسنُه، وضده المنكر(٢) .

ومعناها بعد تركيبها: « الإنصافُ في القَسم والنفقة والإجمالُ في القول والفعل(٣)» وهو المعنى الذي ندب إليه القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿ وعاشروهُنَّ بالمعروفِ فإن كرهتُموهُنَّ فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيرا ﴾[سورة النساء:١٩] .

قال الحافظ ابن كثير: "أي: أطيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله كما قال تعالى: ﴿ ولهُنَّ مِثلُ الذي عليهِنَّ بالمعروف ﴾"[سورة البقرة:٢٢٨](٤) .

وقال القرطبي: "وذلك ـ أي العشرة بالمعروف ـ توفية حقِّها من المهر والنفقة، وألاَّ يعبِس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلِقا في القول،لا فظا ولا غليظا،ولا مظهِرا ميلا إلى غيرها" إلى أن قال: "فأمر الله سبحانه بحسن صحبة النساء إذا عقدوا عليهن لتكون

---

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي ٩٠/٢، والصحاح للجوهري ٧٤٧/٢ .

(٢) المفردات للراغب ص ٣٣٠ .

(٣) روح المعاني ٢٤٣/٤/٢ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٦٦/١ .

أُدمة ما بينهم وصحبتهم على الكمال، فإنه أهدأ للنفس وأهنأ للعيش، قال: وهذا واجب على الزوج ولا يلزمه في القضاء"(١) .

فهذا ما تعنيه هذه الكلمة في عرف الشرع كما جاء على لسان أهله .

وهي بهذا المعنى تعني التحلِّي بمكارم الأخلاق في معاملة الزوجة، من صبر على ما قد يبدر منهن أو تقصير في أداء واجباتهن، ومن حلم عن إيذائهن في القول أو الفعل، وعفو وصفح عن ذلك، ومن كرم في القول والبذل، ولين في الجانب، ورحمة في المعاملة إلى غير ذلك مما تعنيه مكارم الأخلاق التعاملية الأسرية .

حث القرآن الكريم على معاملة الزوجات بالمعروف :

وكم في القرآن من حث الأزواج على معاملة الزوجات بالمعروف في جميع مراحل الحياة الزوجية من وِفاق وفراق، حيث ابتدأ توجيه القرآن الكريم إليه من أول مراحل بناء الأسرة وهو بذل المهر، حيث أمر ببذله بالمعروف كما قال سبحانه: ﴿ فانكِحوهُنَّ بإذن أهلِهن وآتُوهُنَّ أجورَهن بالمعروف ﴾[سورة النساء:٢٥]، أي: بغير مطل أو اضرار أو نقصان"(٢) .

- وعند تعذر الحياة الزوجية، واختيار أبغض الحلال إلى الله وهو الطلاق ، يقول سبحانه: ﴿ الطلاقُ مرَّتان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان ﴾[سورة البقرة:٢٢٩] ويقول: ﴿ وإذا طلَّقتُم النِّساء فبلَغن أجلَهن فأمسِكوهُنَّ بمعروفٍ أو سَرِّحوهن بمعروف... ﴾[سورة البقرة:٢٣١]، والإمساك بالمعروف هو "بالمراجعة وحسن العشرة، والتسريح بالإحسان أو بالمعروف يكون بالطلقة الثالثة، وبأن لا يراجعها حتى تبين"(٣) .

- وعند اختيار الطلاق يرشد المولى عباده ألا يكون الطلاق هو سيف القطيعة الصارم، فأرشدهم إلى المتعة التي تخفف من صولة الوحشة بين الزوجين فقال: ﴿ ومتِّعوهن

---

(١) جامع أحكام القرآن ٩٧/٥ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ١٠٩ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص ٥١ .

على المُوسِع قدَرُه وعلى المُقتِر قدَرُه متاعًا بالمعروفِ حقًا على المحسنين ﴾[سورة البقرة:٢٣٦]، وقال: ﴿ ولا تَنسَوُا الفضلَ بينَكم إنَّ الله بما تعملون بصير ﴾[سورة البقرة:٢٣٧]، وقال: ﴿ ولِلمطلَّقات متاعٌ بالمعروفِ حقًّا على المتقين ﴾[سورة البقرة::٢٤١] .

- وعند اختيار الزوجين العودة إلى حياتهما الزوجية بعد أن تفرقا بالطلاق، أرشد المولى جل وعلا الأولياء إلى أن لا يكونوا حجر عثرة عن العودة إلى الألفة والاجتماع الأسري فيقول: ﴿ وإذا طلَّقتُم النِّساءَ فبلَغن أجلَهُنَّ فلا تعضُلُوهنَّ أن ينكِحن أزواجَهن إذا تَراضَوا بَينهم بالمعروف ...﴾[سورة البقرة:٢٣٢] .

- إلى غير ذلك من الآيات الحاثة على انتهاج المعروف في الحياة الزوجية لتكمل لهذه الحياة السعادة الروحية، مما يدل على أن مبنى الحياة الزوجية على العشرة بالمعروف في كل أطوارها وأحوالها، وهو ما نصت عليه الآية السابقة ﴿ وعاشِروهُنَّ بالمعروف ﴾ .

ثم إن هذه العشرة هي الأصل في الحياة الزوجية التي جعلها الله تعالى على المودة والرحمة كما قال: ﴿ ومن آياتِه أن خلَق لكم من أنفُسِكم أزواجاً لتَسْكُنوا إليها وجعلَ بينَكم مودَّةً ورَحمة ﴾[سورة الروم:٢١]، فمن اتصف بها فقد حقق معنى الحياة الزوجية الصحيحة التي جعلها الله بين الزوجين .

على أن حسن العشرة لا تعني كف الأذى عنهن فقط، بل احتمال الأذى منهن، والحلم عند طيشهن وغضبهن، اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كانت أزواجه يراجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن إلى الليل كما سيأي بيانه في التطبيق إن شاء الله .

ثم أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزاح والملاعبة، فهي التي تطيب قلوب النساء، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يمزح معهن وينزل إلى درجة عقولهن في الأعمال، كما جاء أنه كان يسابق عائشة رضي الله عنها في العدو(١) .

غير أنه لا ينبغي أن يتبسط في الدعابة واللين إلى حد يفسد خلقها، ويسقط بالكلية

---

(١) سيأتي تخريجه قريبا ص٧٠٨ .

هيبته عندها، بل يراعي الاعتدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكرا، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات ألبتة، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تغير وامتعض، لأن ذلك هو معنى القوامة التي جعلها الله تعالى في يده، فإذا لم يكن سهلا في مواضع السهولة، حازما في مواضع الحزم، فقد أفلتت القِوامة من يده، وبدَّل نعمة الله كفرا، وله في رسول الله أسوة حسنة، فقد كان خير الناس لأهله، ولكنه لم يترك الشدة معهن إذا ما اقتضى الأمر ذلك كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

تمثل خلق العشرة بالمعروف
عـــنـد الـنـبيِّ صـــلَّى ا لله عـلَيـه وسـلَّم

لم تعرف المرأة عشرة زوجية بالمعروف، كما تعنيه هذه العشرة، من كمال لأحد من البشر كما عرفته لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم المبين للقرآن بحاله وقاله وأفعاله .

حيث "كان من أخلاقه صلى ا لله عليه وسلم معهن أنه جميل العشرة دائم البشر يداعب أهله ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه حتى أنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين رضي ا لله عنها في البرية في بعض سفراته يتودد إليها بذلك، قالت: "سابقني رسول ا لله فسبقته وذلك قبل أن أحمل اللحم، ثم سابقته بعد ما حملت اللحم فسبقني فقال: "هذه بتلك"(١) وكان يجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها(٢)، وكان ينام مع المرأة من نسائه في شعار واحد يضع عن كتفيه الرداء وينام بالإزار(٣)، وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلا قبل أن ينام يؤنسهم بذلك صلى ا لله عليه وسلم" قاله الحافظ ابن كثير(٤) رحمه ا لله تعالى .

ولقد جعل النبي صلى ا لله عليه وسلم معيار خيرية الرجال في حسن عشرة الزوجات

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب في السبق على الرجل برقم ٢٥٧٨، وأحمد في المسند ٢٦٤/٦، والنسائي في عشرة النساء ص ٢٨، وابن ماجة في النكاح، باب حسن معاشرة النساء برقم ١٩٧٩ من حديث عائشة رضي ا لله عنها، وقال العراقي في تخريج الإحياء ٤٤/٢: إسناده صحيح، وصححه الألباني في سلسلته الصحيحة برقم ١٣١ .

(٢) يدل لذلك حديث أنس رضي ا لله عنه عند مسلم في الرضاع، باب القسم بين الزوجات ..، برقم ١١٦٢.

(٣) ثبت ذلك في حاله صلى ا لله عليه وسلم مع عائشة وأم سلمة رضي ا لله عنهما، انظر السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لابن حجر الهيتمي ص ٩٠ - ١٤٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ٤٦٦/١ .

فقال: "خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي"(١) .

وذلك لأن التَّصنُّع والتظاهر بمكارم الأخلاق تضعف حين يشعر الإنسان بأن له سلطة ونفوذا، ثم تشتد ضعفا حينما تطول معاشرته لمن له عليه السلطة، فإذا ظل الإنسان محافظا على كماله الخُلقي في مجتمع له عليه سلطة، وله معه معاشرة دائمة ومعاملة مادية وأدبية،فذلك من خيار الناس أخلاقا(٢) .

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم خير الناس لأهله، فإن معاشرته لهم لا بد أن تكون مثالية حقا،في كل ما تعنيه الخيرية من كمال خُلُقي في السُّلوك،والتَّعامل الأدبي، والتعاملي؛ من محبة وملاعبة، وعدل، ورحمة، ووفاء، وغير ذلك مما تقتضيه الحياة الزوجية في جميع أحوالها وأيامها، كما أوضحت ذلك كتب السنة والشمائل والسيرة، وذلك هو ما دلت عليه السنة المشرفة بأحاديثها الكثيرة من سلوكه صلى الله عليه وسلم معهن ومعاملته لهن.

أ ـ فعن محبته لهن يحدِّث أنس بن مالك رضي الله عنه فيقول:

١ـ "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حُبِّبَ إليَّ من الدنيا: النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة"(٣) .

٢ ـ وسأله عمرو بن العاص رضي الله عنه قائلا: "يارسول الله من أحبُّ الناس إليك؟ قال: "عائشة" قال: من الرجال؟ قال "أبوها"(٤) .

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم برقم ٣٨٩٥ من حديث عائشة رضي الله عنها وقال: حسن غريب صحيح من حديث الثوري، وقال: ما أقل من رواه عن الثوري، وأخرجه ابن ماجة في النكاح، باب حسن عشرة النساء برقم ١٩٧٧، وابن حبان في صحيحه ٣٣٠/١، ١٨٩/٦ الإحسان .

(٢) انظر الأخلاق الإسلامية للميداني ٤٤/١-٤٥ .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ٢٥٣ .

(٤) أخرجه الترمذي في المناقب، باب فضل عائشة رضي الله عنها برقم ٣٨٨٥ وقال: حديث حسن صحيح .

ب ـ وأما ملاعبته أهله فتحدثنا عنه عائشة رضي الله عنها فتقول:

١ـ كنت ألعب بالبنات عند النبي صلى الله عليه وسلم وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل يتقمّعن ـ أي يتغيّبن ـ منه فيُسرِّبهن إلي فيلعبن معي"(١) .

٢ـ وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ياعائشة أتعرفين هذه ؟ قالت: لا يانبي الله، فقال: "هذه قَينة ـ أي مُغنّية ـ بني فلان، تُحبِّين أن تُغنّيك ؟ قالت: نعم، قال: فأعطاها طبقا فغنّتها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "قد نفخ الشيطان في مَنخريها"(٢) يعني لمّا اشتدت نشوة غنائها.

٣ـ وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تدفّفان وتضربان، والنبي صلى الله عليه وسلم متغشٍّ بثوبه، فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن وجهه فقال: "دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد" وتلك الأيام أيام منى(٣)،

٤ـ وقالت عائشة رضي الله عنها رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يسترني وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد، فزجرهم عمر رضي الله عنه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "دعهم، أمناً بني أرفِدة" يعني من الأمن(٤) .

وفي لفظ قالت: " لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم على حِجري، والحبشة يلعبون بِحرابهم، في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسترني بردائه،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب الانبساط إلى الناس ٣٧/٨ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٩/٣، والنسائي في عشرة النساء برقم ٧٤ من الكبرى، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٣٣/٨ إلى الطبراني وأحمد وقال: ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب، باب قصة الحبش وقول النبي صلى الله عليه وسلم يا بني أرفدة ٢٢٥/٤ .

(٤) أخرجه البخاري في العيدين، باب إذا فاته العيد يصلّي ركعتين ٢٩/٢، ومسلم في صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد برقم ٨٩٢، وهو المراد باللهو هنا .

لكي أنظر إلى لعبهم، ثم يقوم من أجلي حتى أكونَ أنا الذي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو" .

٥- وقد مر معك(١) حديث مسابقته صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها الدال على لعبه صلى الله عليه وسلم مع نسائه بنفسه الشريفة تلطُّفًا بهن، وتأنيسا لهن، لكريم عشرته وعظيم رأفته ورحمته .

٦- ومن حسن عشرته وكريم خُلقه صلى الله عليه وسلم ما أفادته السيدة عائشة رضي الله عنها بقولها: "كنتُ أشرب من الإناء، وأنا حائض ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فيَّ فيشرب، وأتعرَّق العَرْق(٢) وأنا حائض، ثم أناوله النبي صلى الله عليه وسلم فيضع فاه على موضع فِيَّ"(٣) .

وفي رواية: "كنت أتعرَّق العَرْق وأنا حائض فأعطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وكنت أشرب من القدح فأناوله إياه فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب(٤) .

جـ - وأما حلمه صلى الله عليه وسلم عن إساءتهن وصبره على أذيتهن فهو في ذلك المثل البشري الأعلى، بحيث لم يُسمع بأحد كان أحلم عن نسائه كما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك مع عظيم جنابه، ورفيع قدره، وسُمُوِّ منزلته عند الله تعالى وعند الناس، ولقد مرَّ بك من الدلائل على ذلك في مبحثي الصبر والحلم ما فيه

---

(١) ص ٧٠٨ .

(٢) بفتح العين وإسكان الراء: هو العظم الذي عليه بقية من لحم،يقال: تعرقته واعترقته: إذا أخذت منه اللحم بأسنانك. شرح مسلم ٢١١/٣ .

(٣) أخرجه مسلم في الحيض، باب جواز غسل الحائض رأس زوجها برقم ٣٠٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في الطهارة، باب في مؤاكلة الحائض ومجامعتها برقم ٢٥٩، والنسائي في الطهارة، باب مؤاكلة الحائض والشرب من سؤرها ١٤٨/١ وإسناد أبي داود صحيح .

الكفاية للاستدلال على ما قلت عموما(١)، لكني أزيد هنا ما هو أمس في الدلالة على الموضوع فمن ذلك ما يلي :

١ ـ فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:«كنا معشر قريش نغلِبُ النساء، فلمَّا قدمنا على الأنصار، إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، قال: فصَخَبتُ على امرأتي فراجعتني؛ فأنكرت أن تراجعني، قالت: ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم إلى الليل، قال: فأفزعني ذلك وقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن، قال: ثم جمعت عليَّ ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة فقلت لها: أي حفصة، أتغاضب إحداكُنَّ النبي صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل ؟ قالت: نعم، قال: فقلت: قد خبتِ وخسرت، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فتهلكي؟...(٢)"الحديث .

فانظر كيف انزعج عمر رضي الله عنه من مراجعة بسيطة راجعته بها زوجته، والنبي صلى الله عليه وسلم يقبل مراجعة نسائه، بل ويتحمل غضبهن عليه، حتى يَهجرنه من الكلام، وهو النبي الكريم والإمام العظيم، وما ذلك إلا لعظيم حلمه وبالغ صبره صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ والأعجب من ذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان مع ذلك الحال يلاطفهن في القول، وكأنه لم يصدر منهن شيء ذو بال، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله عليه وسلم: "إني لأعلم إذا كنتِ عنِّي راضية،وإذا كنت علي غضبى" قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك ؟ فقال: "أما إذا كنتِ عنِّي راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم" قالت: أجل والله يا رسول الله ما

---

(١) انظر ص٥٩٦مثلا .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها ٣٦/٧ .

أهجر إلا اسمك"(١) .

٣ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة، فانفلقت فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فِلق الصحفة،ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: "غارت أمكم" ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت(٢) .

فانظر إلى مبلغ حلمه صلى الله عليه وسلم على أزواجه،حيث تظلُّ إحداهن هاجرة له اليوم كله حتى تهجر اسمه الشريف، وتستطيل إحداهن بيدها بين يديه على ما يخالف الواجب في حقه عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فهو يُغضي عن ذلك ويحلم ويصبر ويصفح، وهو القادر على أن يفارقهن،فيبدله ربه خيرا منهن مسلمات مؤمنات قانتات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا، كما وعده ربه سبحانه إن هو طلّقهن، ولكنه كان رؤوفا رحيما، يعفو ويصفح ولا يزيده كثرة الجهل عليه إلا حلما .

حـ ـ وأما الوفاء لهن فلعله قد علم مما تقدم عن خلق الوفاء، وتطبيق النبي صلى الله عليه وسلم له في بابه، لاسيما مع زوجه خديجة رضي الله عنها،حتى بلغ من وفائه أن غارت منها عائشة رضي الله عنها وهي لم تدركها و لم تضارها حتى قالت :

١ ـ "ما غِرت على امرأة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما غرت على خديجة لكثرة ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم إياها وثنائه عليها"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح، باب غيرة النساء ووَجْدِهن ٤٧/٧، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها برقم ٢٤٣٩، والإمام أحمد في المسند ٦١/٦، ٢١٣ .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب الغيرة ٤٦/٧، وأبو داود في البيوع والإجارات، باب فيمن أخذ شيئا يغرم مثله برقم ٣٥٦٧ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب غيرة النساء ووَجدِهن ٤٧/٧، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها برقم ٢٤٣٢ .

٢ - ومن صور وفائه معهن أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت آية التخيير ﴿ يا أَيُّها النَّبي قُل لأزواجِك إن كنتُنَّ تُرِدنَ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها فتعالينَ أُمتِّعكن وأُسرِّحكُنَّ سراحا جميلا ...﴾[سورة الأحزاب:٢١] بدأ بعائشة وقال لها: «إني ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك ...»(١) خشية منه أن تختار زينة الحياة الدنيا لصغر سنها، فتخسر الخير الكثير في الدنيا والآخرة، لكنها كانت أحرص على خير نفسها من أبويها،فقالت للنبي صلى الله عليه وسلم: "أفي هذا أستأمر أبويَّ ؟! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة" .

ثم استقرأ الحُجَر(٢) يخبر نساءه ويقول لهن:« إن عائشة رضي الله عنها قالت: كذا وكذا فقلن: ونحن نقول مثل ما قالت عائشة،رضي الله عنهن كلهن .

وكانت عائشة رضي الله عنها قد قالت له بعد ما اختارت الله ورسوله: وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترتُ، فقال صلى الله عليه وسلم: "إن الله لم يبعثني مُعَنِّتاً ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا، لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها"(٣) .

فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة، وذلك يدل على أنهن رضي الله عنهن كنَّ قد تخلقن بأخلاق النبوة، فأصبحن يخترن ما اختاره صلى الله عليه وسلم لنفسه من الزهادة في الدنيا، والرغبة في الآخرة، وذلك لبالغ تأثرهن بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت محل العظمة والكمال .

د - أما عدله صلى الله عليه وسلم بين أزواجه،فهو على نحو ما قلت من حبه وملاعبته وحلمه ووفائه، عدل ناشيء عن الشعور بالمسئولية، ومن فِطرة الله تعالى له على الحق والعدل وبعثه بهما .

١ - فقد كان صلى الله عليه وسلم كما قالت عائشة رضي الله عنها:« لا يفضِّل

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأحزاب ١٤٦/٦ .

(٢) جمع حجرة، وهن البيوت .

(٣) متفق عليه تقدم تخريجه في مبحث الوفاء ص٥٥٦ .

بعضنا على بعض في القسم من مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم يـأتي إلا وهـو يطـوف علينـا جميعا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى التي هو يومُها فيبيت عندها»(١) .

٢ ـ ولم يكـن يتغير حالـه صلى الله عليه وسلم في العدل تبعا لتغير أحوالـه سفرا وحضرا، بل لقد كان يعدل في سفره كما يعدل في حضَره، كما قالت عائشة رضـي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسـائه فـأيتُهن خـرج سـهمُها خرج بها معه، قالت: وكان يقسم لكل امرأة منهن يومهـا وليلتهـا، غـير أن سـودة بنـت زمعة وهبت يومها وليلتها لعائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسـلم تبتغـي بذلك رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم"(٢) .

تعني بذلك لمَّا كبرت، وأضحت لا إربة لها في الرجال .

٣ ـ وكان من عدله صلى الله عليه وسلم بينهن أنه كان إذا تزوج ثيِّبا أقام عندها ثلاثا لإيناسها، ثم يقسم لها كسائر نسائه، كما روت أم سلمة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام عندها ثلاثا، وقال لها: "إنـه ليس بـك علـى أهلـك هـوان، إن شئتِ سبَّعت لك ـ أي: أقمت عندك سبعا ــ وإن سبَّعت لـك سبَّعت لنسـائي" قـالت: ثلِّث"(٣) .

٤ ـ ولقد بلغ به الحال في عدله صلى الله عليه وسلم أنه لم يفرِّط فيـه حتـى في مـرض موته،حيث كان يُطاف بـه عليهـن في بيوتهـن كـل واحـدة في نوبتهـا، قـالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "لمَّا ثقُل النبي صلـى الله عليـه وسـلم، واشـتد بـه وجعـه استأذن

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في القسمة بين النساء برقم ٢١٣٥،وإسناده صحيح .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة، باب هبة المرأة لغير زوجها... ٢٠٧/٣، وأبو داود في النكاح، باب القسمة بين النساء برقم ٢١٣٨ .

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع، باب قدر ما تستحقه البكر والثيب من إقامة الزوج عندها عقب الزفاف برقم ١٤٦٠، ومالك في الموطأ، كتاب النكاح، باب المقام عند البكر والأيم٥/٢وأبو داود في النكاح، بـاب في المقام عند البكر برقم ٢١٢٢ .

أزواجه في أن يمرَّض في بيتي فأذنَّ له ..."الحديث(١) .

٥ ـ وفي رواية قالت: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: أين أنا غدا ؟ يريد يوم عائشة، قالت: فأذنَّ له أزواجه يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها، قالت: فمات في اليوم الذي كان يدور عليَّ فيه في بيتي، فقبضه الله وإن رأسه لبين نَحْري وسحَري(٢) وخالط ريقُه ريقي"(٣) .

٦ ـ ومع ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال العدل بين نسائه في كل ما يقدر عليه مما هو في يده، فإنه مع ذلك كان يعتذر إلى الله تعالى فيما لا يقدر عليه مما هو خارج عن نطاق التكليف، كما قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فيعدل ويقول: "اللَّهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"(٤) وهو يعني بذلك القلب كما فسرَّه به أبو داود، وقيل: يعني الحب والمودة، كما فسره الترمذي، والمعنى: أن القسمة الحسِّية قد كان صلى الله عليه وسلم يوفِّي بها على الوجه الأكمل لأنها بيده، لكن القلب بيد الله، وقد جعل فيه حب عائشة أكثر من غيرها، وذلك خارج عن قدرته وإرادته .

ومع ذلك فهو يضرع إلى الله أن لا يلومه على ما ليس بيده، مع أن الأمر القلبي لا يجب العدل فيه، وإنما العدل في المبيت والنفقة، ولكن هذا من باب قول الله تعالى: ﴿والذين يُؤتون ما آتَوا وقلوبُهم وجِلةٌ أنَّهم إلى ربِّهم راجعون﴾[سورة المؤمنون:٦٠] .

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء، باب الغسل والوضوء في المخضب والقدح...، ٥٩/١ .

(٢) السَّحر: الرئة، أي: أنه مات وهو مستند إلى صدرها وما يحاذي سحرها منه، وقيل: السحر ما لصق بالحلقوم من أعلى البطن، ا.هـ، النهاية ٣٤٦/٢ .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح، باب إذا استأذن الرجل نساءه في أن يمرض في بيت بعضهن فأذن له ٤٤/٧ .

(٤) أخرجه أبو داود في النكاح، باب في القسم بين النساء برقم ٢١٣٤، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر برقم ١١٤٠، والنسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ٦٤/٧، والحاكم في المستدرك ١٨٧/٢، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في الإرواء ٨٢/٧ برقم ٢٠٨١ .

مما يدل على أن أمر العدل بين الزوجات خطير كما بينه صلى الله عليه وسلم في حديث آخر حيث قال: "من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشِقه ساقط" وفي رواية: (مائل)(١) .

وفي عشرة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه أسوة للمؤمنين، وعليهم معرفتها والتأسي بها لقول الله تعالى: ﴿ لَقد كان لكم في رسولِ الله أُسوةٌ حسنة لمن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخِر وذكر اللهَ كثيرا ﴾[سورة الأحزاب:٢١]، لأن فعله صلى الله عليه وسلم كقوله وتقريره،تشريع لأمته،وهدى لهم،يجب عليهم الاقتداء به ما لم يكن الفعل خاصا به.

حثه صلى الله عليه وسلم الرجال على حسن معاشرة أزواجهم :

ومع ذلك فقد دل النبي صلى الله عليه وسلم أمته إلى ما تنبغي أن تكون عليه العشرة الزوجية بقوله، كما دلهم على ذلك بفعله، والثابت عنه صلى الله عليه وسلم في هذا الباب أحاديث كثيرة أقتطف منها ما يأتي، من ذلك:

١ـ ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "استوصوا بالنساء خيرا فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإن أعوج ما في الضِّلَع أعلاه، فإذا ذهبت تُقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرا" .

وفي رواية عند مسلم: "وإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها"(٢) .

---

(١) أخرجه أبو دود في النكاح، باب القسمة بين النساء برقم ٢١٣٣، والترمذي في النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر برقم ١١٤١، والنسائي في عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ٧/٦٣ من المجتبى، وابن حبان في صحيحه ٦/٢٠٤ الإحسان، والحاكم في المستدرك ٢/١٨٦، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٧/٨٠ برقم ٢٠١٧ .

(٢) البخاري في النكاح، باب الوصاة بالنساء ٧/٣٤، وفي غيره، ومسلم في الرضاع، باب الوصية بالنساء برقم ١٤٦٨، والترمذي في الطلاق، باب ما جاء في مداراة النساء برقم ١١٨٨ .

فانظر كيف جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الوصية بينهن وبيان حقيقتهن، ليكون ذلك أدعى إلى قبول وصيته، لأنه إذا كان طبعها العوج، فإن من الواجب على الرجل أن يصبر عليها ولا يؤمل أن تكون مستقيمة على الصراط، فإنها تصير إلى ما جُبلت عليه ولا بد، ولذلك كان طلب استقامتهن على النحو الأعدل مثار تعجب الشعراء حتى قال بعضهم :

هي الضِّلَعُ العوجاء لست تُقيمها ... ألا إنَّ تقويم الضُّلوع انكسارُها

وقال آخر فيما هو أعم منه :

ومكلِّف الأشياء غير طباعها ... متَطَلِّبٌ في الماء جَذوة نار

٢ ـ وما زال النبي صلى الله عليه وسلم يكرر هذه الوصية كلما حانت الفرصة، ففي خطبة حجة الوداع أفرز لها جانبا كبيرا من خُطبته العظيمة حيث قال صلى الله عليه وسلم: "ألا واستوصوا بالنساء خيرا، فإنهن عَوَانٌ ـ أي: أسيرات ـ عندكم، ليس تملكون شيئا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن ذلك فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربا غير مبرِّح(١)، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا، ألا وإن لكم على نسائكم حقا، ولنسائكم عليكم حقا، فأما حقُّكم على نسائكم فلا يوطئنَ فُرُشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وإن حقَّهن عليكم أن تحسِنُوا إليهن في كسوتهن وطعامهن"(٢) .

وإنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكرر وصيته بالنساء، لما يعلمه من حالهن الذي بينه في الحديث السابق، وهو الحال الذي قد لا يقدر على تحمُّله بعض الرجال الذين لا يملكون أنفسهم عند الغضب فيحمله عوج المرأة إلى أن يفارقها فيتفرَّق شمله، وتشتت أسرته وأهله .

---

(١) أي: غير مؤثر .

(٢) أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم برقم ١٢١٨، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه، والترمذي في تفسير التوبة برقم ٣٠٨٧، واللفظ له .

ولذا أرشدالنبي صلى ا لله عليه وسلم الأزواج في حديث آخر إلى ما فيه صلاح حاله مع أسرته بقوله:

٣ ـ "لا يَفْرك ـ أي: لا يُبغض ـ مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلُقا رضي منها آخر"(١).

٤ ـ وقال لهم أيضا: "إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خُلقا وألطفهم بأهله"(٢) .

٥ ـ وقال: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"(٣) .

٦ ـ وقال: "كل شيء ليس من ذكر ا لله عز وجل فهو لهو،أو سهو،إلا أربع خصال: مشي الرجل بين الغَرَضين(٤) ، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله، وتعليم السباحة"(٥) .

إلى غيرذلك من الأحاديث الكثيرة المعلومة الحاثة على انتهاج الأخلاق الحميدة مع الأهل والعشيرة .

تأديبه صلى ا لله عليه وسلم نساءه إذا اقتضى الأمر ذلك :

ومع تلك المعاشرة التي كان النبي صلىا لله عليه وسلم ينتهجها مع أهله أمهات المؤمنين رضي ا لله عنهن،رحمة ورأفة وعطفا وتلطفا، إلا أنها لم تكن على ذلك الحال في جميع

---

(١) أخرجه مسلم في الرضاع، باب الوصية بالنساء برقم ١٤٦٩ من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه .

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان برقم ٢٦١٢، وأحمد في المسند ٤٧/٦، ٩٩، من حديث عائشة رضي ا لله عنها، وهو مرسل من حديث أبي قلابة عن عائشة، وهو لم يسمع من عائشة، ولكن للحديث شواهد بمعناه، منها الحديث الذي بعده، وهو حديث صحيح، فدل على أن للحديث أصلا، ولذلك صححه الترمذي مع تصريحه بعدم سماع أبي قلابة من عائشة، وقال: وفي الباب عن أبي هريرة وأنس رضي ا لله عنهما .

(٣) حديث صحيح تقدم تخريجه قريبا ص ٧٠٩.

(٤) أي: بين الهدفين في تعلم الرماية، أو عند التحام القتال .

(٥) أخرجه النسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء برقم ٥٢، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢٧٢/٥ إلى الطبراني في الأوسط والكبير، وإلى البزار قال: ورجال الطبراني رجال الصحيح خلا عبد الوهاب بن بخت وهو ثقة، وذكر شواهد أخرى للحديث .

الأحوال؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان حكيما يضع كل تصرف في مكانه اللائق به، فحيث كانت تلك العشرة أجدى وأولى انتهجها، وإذا كان التأديب والزجر والهجر هو الأجدر اتخذه لأنه كما قيل :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له   بوادر تحمي صفوه أن يُكدَّرا(١)

فالنساء بما فطرن عليه من الاعوجاج، وحدة العاطفة، يحتجن حتما إلى تقويم وتربية وتأديب، ولأجل هذا خوَّل الله تعالى الرجال هذه المسئولية حيث قال: ﴿ الرِّجالُ قوَّامونَ على النساء بما فضَّل اللهُ بعضَهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالِهم فالصَّالحاتُ قانِتاتٌ(٢) حافظاتٌ للغيب(٣) بما حفِظَ اللهُ واللَّاتي تخافونَ نُشوزهن فعِظُوهنَّ واهجُروهن في المضاجِع واضربوهُنَّ فإن أَطعنكم فلا تَبغُوا عليهنَّ سبيلا إنَّ الله كان علياً كبيرا ﴾[سورة النساء:٣٤] .

والنبي صلى الله عليه وسلم في عشرته مع أهله لم يستغن عن اتخاذ هذا الأسلوب ليكون أسوة لأمته في التربية والتأديب .

فإنه عليه الصلاة والسلام لما سأله نساؤه النفقة الخارجة عن حده، وأردن التوسع في الدنيا ولذَّاتها، خلاف ما اختاره لنفسه منها، هجرهُنَّ وآلى من الدخول عليهن شهرا، حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿ يا أَيُّها النَّبيُّ قل لأزواجك إن كُنتُنَّ تُردنَ الحياةَ الدنيا وزِينتها فتعالينَ أُمتِّعكُنَّ وأسرِّحكن سَراحًا جميلا * وإن كنتُنَّ تُردن اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإنَّ الله أعدَّ للمحسِنات منكُنَّ أجراً عظيما ﴾[سورة الأحزاب:٢٨،٢٩]، فخيَّرهن النبي صلى الله عليه وسلم في البقاء معه على الكفاف، أو المفارقة فاخترن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كما تقدمت الإشارة إلى ذلك من حديث أنس وأم سلمة وابن عباس في الصحيحين وغيرهما .

---

(١) البيت للنابغة الذبياني في أبيات أنشدها النبي صلى الله عليه وسلم، انظر مجمع الزوائد ١٢٩/٨ .

(٢) أي: مطيعات لأزواجهن .

(٣) أي: لفروجهن وغيرها في حال غيبة أزواجهن .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام إذا جد الجد في معاملته لهن ، بأن أخطأت خطأ لا يمكن التغاضي عنه، وذلك بأن كان دينيا، فإنه لا تأخذه في الإنكار عليهن وزجرهن في الله لومة لائم،فكان يعظ، ويوجّه، ويخوف، ويغضب، .. بحسب مقام كل قضية مما هو معلوم ولا يخفى أمره .

وهذا مما يدل على تكافؤ أخلاقه صلى الله عليه وسلم وتوازنها، حيث يضع كل أمر في نصابه ومحله اللائق الذي لا ينبغي غيره، كما تقدم لك بيانه وإيضاحه في المدخل فتذكّره .

المبحث السادس

(الإنصاف والإحسان عند الاختلاف)

قد علمنا أن الحياة الزوجيَّة ينبغي أن تكون مبنيَّة على المودَّة والرحمة وحسن العشرة؛ لأنها حياة اجتماعية طويلة بين أطراف مختلفة لا يراعى فيها قرابة قريبة،ولا رحم موصولة غالبا،وحيث كانت كذلك في الغالب، فإنه لا يمكن أن تثمر وتؤتي أُكُلَها من الهدف الذي بنيت من أجله،إلا أن تكون على ذلك الحال من المودَّة وحسن العشرة .

ولكن الشرع الحنيف بما يحويه من شموليَّة لا يُنكر أن بناء الزوجية على ذلك قد يتعذر في بعض أفراد المجتمع أو قد يحدث له أن ينهار، وفي هذه الحالة كان لا بد من أن يضع له تشريعا لائقا يتلاءم مع سماحته وأهدافه، ومع الحالة التي وصل إليها هذا الزواج أو البيت الأسري الذي تصدعت أركانه(١) .

حديث القرآن الكريم عن الإنصاف والإحسان عند الاختلاف:

وقد شرع القرآن الكريم لهذه الحالة تشريعات مفعمة بالرحمة والإصلاح،حيث كانت بمثابة إرشادات جليلة لإبقاء الحياة الزوجية متماسكة، وإعادة شملها بعد ظهور التصدع، إذ أنه لم يحبذ الإسراع في فَصم عُرى الزوجية على الفور، بمجرد اندلاع الشقاق بين الزوجين، وإنما شرع تشريعات أولية لمحاولة رأب الصدع، وإعادة الشمل: من الوعظ، فالهجر، فالضرب التأديبي اليسير، فالتحكيم، فالطلاق أو الخلع في نهاية المطاف، وعند الوصول إلى هذه المرحلة التي تعتبر بغيضة لدى الشرع المطهر؛ لما لها من آثار وخيمة، لم يكتف بمحاولاته السابقة في الإبقاء على الحياة الزوجية، والتسليم بالأمر الواقع عند نفاذها، وإنما كانت له هنا محاولات قد تثمر إيجابيا في إعادة الأمر إلى وضعه الطبيعي، وذلك أن جعل الطلاق على كيفية خاصة وعلى مراحل متعددة.

---

(١) انظر الطلاق في الشريعة الإسلامية والقانون للدكتور أحمد الغندور، ط الأولى، دار المعارف بمصر سنة ١٣٨٧ هـ، وتفسير الطاهر بن عاشور:التحرير والتنوير ٢/٤٦٠ .

أما الكيفية: فأن يكون في طهر لم يجامعها فيه، وأما المراحل: فأن يكون بطلقة واحدة رجعية، وهي في هذه الحال في حكم الزوجة من حيث السكنى والنفقة والميراث عدا المعاشرة الزوجية،فيحق له أن يراجعها في أي وقت ما دامت في العدة بغير عقد ولا مهر وإنما بقوله: أرجعت زوجتي فلانة إلى عصمتي، والإشهاد عليه عند الشافعية ومن وافقهم، فإن انقضت العدة و لم يراجع بانت منه، وحصل الغرض من الفرقة، ولا ترجع إليه بعدها إلا بمهر وعقد جديدين وترجع على ما بقي معها من عدد الطلقات.

أما إذا راجع فيها فإنها تعود إلى العصمة وتبقى معه بطلقتين،وترجع لها كل حقوقها الزوجية، وما يترتب عليها من تشريعات عند فساد العشرة ثانية على النحو الذي أشرت إليه آنفا، إلى أن تتم عدة الطلقات الثلاث فحينئذ لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره.

هذا مجمل ما أتت به الشريعة الغراء من أحكام تشريعية لمعالجة ما يطرأ على الحياة الزوجية من شقاق، وعند استقراء كتاب الله تعالى نجد هذه التشريعات مبينة فيه أكمل بيان.

حيث تحدث عن ذلك في نحو ثلاث عشرة آية،بين فيها جميع مسائل الحياة الزوجية عند الاختلاف على النحو الذي تقدم عرضه.

وذلك يدل على حرص الشريعة الإسلامية على إبقاء أواصر الزوجية متماسكة، والحفاظ عليها من الانهيار، الذي يترتب عليه أضرار ومفاسد عظيمة للزوجين أنفسهما، ولأولادهما ومجتمعهما .

وسأذكر بيان هذه التشريعات في الكتاب الكريم على سبيل الإيجاز.

ويمكن أن أعيد هذه التشريعات إلى مرحلتين: مرحلة محاولة الوفاق، ومرحلة الفراق.

مرحلة الوفاق :

أما المرحلة الأولى وهي مرحلة محاولة الوفاق، فقد جاءت في قول الله تعالى: ﴿ واللَّاتي تَخافونَ نُشوزَهنَّ فعِظوهُنَّ واهجروهن في المضاجع واضربُوهنَّ فإن أطعنَكم فلا تبغوا عليهنَّ سبيلا إنَّ الله كان علياً كبيرا * وإن خِفتمْ شِقاقَ بينِهما فابعثُوا حَكمًا من أهلِه وحَكَماً من أهلها إنْ يُريدَا إصلاحًا يُوفِّقِ اللهُ بينهُما إنَّ الله كان عليماً خبيرا ﴾[سورة النساء:٣٤، ٣٥] .

فهذه الآية تضمنت ما ينبغي القيام به عند خوف فساد العشرة لظهور بوادر الشقاق بنشوز المرأة عن زوجها، وهو عصيانها وتعاليها عما أوجبه الله عليها من الطاعة لزوجها، حيث أرشد الله تعالى الأزواج إلى محاولة إصلاح شأنهما بأحسن الوسائل، وهي: الوعظ فالهجر فالضرب على الترتيب، لا يرتقي إلى مرتبة مهما حصل الغرض بالمرتبة الأخف، بل يجب الاكتفاء بها، ولم يجز الإقدام على المرتبة الأشق.

أما الوعظ: فبالتَّخويف بالله تعالى وأليم عقابه إن هي أصرَّت على نشوزها، وببيان عِظَم حقِّه عليها، وذلك كأن يقول لها: اتَّقي الله فإن لي عليك حقا،وارجعي عمَّا أنت عليه،واعلمي أن طاعتي فرض عليك، ويذكِّرها بقوله صلى الله عليه وسلم: "لو كنتُ آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها"(١)، وقوله عليه الصلاة والسلام: "إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح"(٢).

فإن كان نشوزها جهلا بحقه، أو كان ينفعها الذكرى، كان هذا الوعظ كافيا لها، فلا يتعداه إلى المرحلة الثانية التي هي الهجر.

فإن أصرت على ذلك النشوز فعند ذلك يهجرها في المضجَع، أي: في فراش النوم، كأن يضاجعها على فراشها ويولِّيها ظهره، فإن الزَّوج إذا أعرض عن فراشها إن كانت محبة للزوج فذلك يشق عليها، فترجع للصلاح، وتترك النشوز، وإن كانت تبغضه وافقها ذلك الهجران، فكان ذلك دليلا على كمال نشوزها.

وعندئذ يكون قد عاملها بالتي هي أحسن فلم ينجع معها ذلك، فحقُّه أن ينتقل إلى الطور الأخير في هذه المرحلة وهو الضرب الذي هو آخر العلاج في هذه المرحلة.

---

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة برقم ١١٥٩ من حديث أبي هريرة، وقال الترمذي: حسن صحيح، وله شاهد عند أبي داود بنحوه في النكاح، باب حق الزوج على المرأة برقم ٢١٤٠ من حديث قيس بن سعد.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ٣٩/٧، ومسلم في النكاح برقم ١٤٣٦ من حديث أبي هريرة.

فإنه هو الذي يصلحها له، ويحملها على توفية حقه، والضرب المراد هنا هو ضرب الأدب غير المبرِّح وهو الذي لا يكسر عظما، ولا يُشين جارحة، ويجتنب الوجه؛ لأنه مجمع المحاسن، ويكون مفرَّقا على بدنها، ولا يوالي به في موضع واحد لئلا يعظم ضرره؛ لأن المقصود منه هو الصلاح لا غير، فإذا حصل بذلك العود إلى الطاعة فقد حصل المقصود(١)، وإن لم يحصل بذلك، وكان النشوز منهما معا فعليهما أن يلتمسا إصلاح أمرهما من آخرَين غيرهما، بأن يحكِّم كل واحد منهما حكَمًا، يجتمعان فيبحثان قضيتهما ويحكمان بما يريانه من اجتماع بالتي هي أحسن، أو فراق كذلك كما قال الله تعالى: ﴿ وإن خِفتُم شِقاقَ بينِهما فابعثوا حَكَماً من أهلِه وحَكَماً من أهلِها إن يُريدا إصلاحًا يُوفِّقِ اللهُ بينَهما .. ﴾[سورة النساء:٣٥] .

فإن اجتمعا على أمر وجب المصير إليه اجتماعا أو افتراقا، أما إذا اختلفا لم يلزم أحدهما شيئا، وهذا التحكيم هو آخر محاولة جادة لإعادة اللُّحمة الأُسرِيَّة إلى وضعها اللائق، فإن فشل فليس وراءه إلا التفريق إن لم يفرق الحكمان أنفسهما .

وهنا ينبغي أن يُعلم أن هذه المحاولة الجادة بُذلت لمَّا كان إفساد العشرة ناشئا من قبل الزوجة بالأخص، وأيضا لما استفحل الشقاق فصار منهما معا .

أما إذا كان فساد العشرة ناشئا من قبل الزوج،فإن القرآن الكريم قد أعطى المرأة الحق في الخلاص من زوجها بالمخالعة منه، وهو ما يكون في المرحلة الثانية من التقسيم السابق، التي هي مرحلة الفراق، والتي جاء درو الحديث عنها الآن .

المرحلة الثانية: مرحلة الفراق :

وهذه المرحلة تكون في ثلاث حالات :

١ ـ يأس الرجل من صلاح زوجته .

٢ ـ يأس الحكمين من إصلاح حالهما .

٣ ـ كراهة المرأة لعشرة زوجها .

---

(١) انظر تفسير هذه الآية في تفسير القرطبي ١٧١/٥-١٧٣، والتفسير الكبير للفخر الرازي١٠/٩٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٩٢/١، ومحاسن التأويل للقاسمي ١٣٣/٥-١٣٤، ونحوها .

أما الحالتان الأوليان فقد علمنا كيف شرع الإسلام محاولة جادة لبقاء العصمة الزوجية، وأنه لم يُبق وسيلة للإصلاح إلا طرَقها، فإذا نفدت تلك الوسائل فإنه لا جُناح على الزوج أن يفصم العروة الزوجية، إذ أنه لا خير في بقاء زوجية متناحرة بل عليهما أن يتفرقا، فلعلَّ كل واحد منهما أن يتهيأ له بناء حياة زوجية أخرى يعيش في ظلها آمنا هادئا كما قال الله تعالى: ﴿ وإن يَتَفرَّقا يُغنِ الله كلاً من سَعتِه وكان الله واسعاً حكِيما ﴾[سورة النساء:١٣٠] .

ولكن يجب أن يكون التفرق على النحو الذي شرعه الله تعالى من العدل والإنصاف بغير ضرر ولا إضرار وذلك بأن يكون على النحو الآتي :

١ ـ أن يوقع الطلاق في طُهر لم يجامعها فيه لقول الله تعالى: ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ إذا طلَّقتُمُ النِّساء فطلِّقوهُنَّ لِعدَّتهن ﴾[سورة الطلاق:١] أي: مستقبلات العدة بأن تكون المرأة قد طهرت من الحيض أو النفاس وقبل أن يمسها الزوج فيه، لأن في ذلك تبرئة لرحمها من الحمل، وتقصيراً لزمن عدتها؛ لأن زمن الحيض أو النفاس لايُحسب من العدة، فلو طلَّقها وهي حائض أو نفساء كان قد ضارَّها بتطويل العدة عليها، وليس ذلك من الإحسان أو المعروف الذي أمر الله تعالى به بقوله: ﴿ فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان ﴾[البقرة ٢٢٩] ولذلك قال هنا: ﴿ وأَحصُوا العِدَّة واتَّقوا الله رَّبكم ﴾ إشارة إلى وجوب مراقبة الله تعالى في عدم مضارَّة الزوجة،والإشارة إلى أنه سبحانه وتعالى يعلم ذلك إن أراده الزوج، وفي هذا من ترتيب المهابة بالتذكير بالله ما لا يخفى .

وأما إذا كان قد جامعها في الطُّهر فإنه لا يطلقها فيه أيضا؛ لأنه قد يندم على فعل ذلك، إذ لعلها قد تحمل من ذلك الجماع فيؤدي ذلك إلى ضياع المولود، ولو علم ذلك لعلَّه يُشفق عليه، فيمتنع عن الطلاق، أو لعله إنما أراد الطلاق لعدم حمل المرأة، فإذا ما طلَّق والحالةُ هذه فلعلها تكون قد علقت منه في جماعه ذاك، فإذا علم حملها وقد فارقها فإنه سيندم ندما شديدا على ما أقدم عليه، ناهيك عن أنه يجعل المرأة في حِيرة، إذا لا تدري سريعا بحالها وشأن عدتها، أهي حاملة فتعتد بوضع الحمل، أم هي حائل فتعتد بالأطهار .

على أن هناك حكمة أخرى خفيَّة لمنع الطلاق في الحيض أو الطهر الذي مُست فيه المرأة، وهي رغبة الشارع في تحاشي الطلاق والإبقاء على الحياة الزوجية ما أمكن؛ لأن الزوج إذا أراد الطلاق ومنعه الشارع من إيقاعه في هذه الفترة فلربَّما تروَّى في هذه الفترة، وأحجم عما أراده فيعود حالهما إلى سالف عهدهما وئاما ومحبة(١)، ولذلك يقول المولى جل ذكره: ﴿ يا أيُّها النبيُّ إذا طلَّقتُم النِّساءَ فطلِّقوهُنَّ لِعدَّتِهن وأَحصُوا العِدَّةَ واتَّقُوا اللهَ رَبكم لا تُخرِجُوهُنَّ من بيوتِهنَّ ولا يَخرُجْنَ إلاَّ أن يَأتينَ بفاحشةٍ مُبيِّنَةٍ وتلكَ حدودُ اللهِ ومن يتعدَّ حدودَ اللهِ فقد ظلَم نفسَه لا تَدري لعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ ذلكَ أمرا ﴾[سورة الطلاق:١] .

والعدة التي أمر المولى أن تطلق النساء فيها هي الطهر الذي لم تُمسَّ المرأةُ فيه(٢) .

وقد علَّل الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ لا تَدري لعلَّ الله يُحدِثُ بعدَ ذلك أمرا ﴾ أي:"لا تدري أيها المتعدي عاقبة الأمر، لعل الله يحدث في قلبك بعد ذلك الذي فعلت من التعدي أمرا يقتضي خلاف ما فعلته، فيبدِّل ببغضها محبة، وبالإعراض عنها إقبالا إليها"(٣).

٢ـ إذا ما تحرَّى الحالات السابقة ثم عزم على الطلاق فعليه أن يطلق طلقة واحدة فقط، ليكون الطلاق رجعيا يمكنه أن يرجع فيه إذا مسَّا ألم الفراق، ومرارة الوحشة، فيعودان إلى الصَّفاء الروحي، والهدوء العائلي، والمودَّة المتبادلة .

وهذا ما أذن الله تعالى به بقوله: ﴿ الطَّلاقُ مرَّتان فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ

---

(١) انظر الزواج والطلاق في الإسلام لزكي الدين شعبان ص ٩٣،٩٤ ط القاهرة ١٣٨٤ هـ ، وأبغض الحلال إلى الله تعالى لنور الدين عتر ص ٦٩،٧٠، ومحاسن التأويل للقاسمي ١٦/١٩٢ .

(٢) كما يدل لذلك قصة تطليق عبد الله بن عمر زوجته وهي حائض، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بمراجعتها، ثم تطليقها في الطهر إن شاء، وقال له: "فإنها العدة التي أمر الله عز وجل أن يطلق لها النساء" أخرجه الشيخان؛ البخاري في أول كتاب الطلاق ٧/٥٢، ومسلم في الطلاق برقم ١٤٧١.

(٣) محاسن التأويل ١٦/١٩١ .

بإحسان ...﴾[سورة البقرة:٢٢٩] أي: أن التطليق الشرعي يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة(١) ، وهو الطلاق الرجعي الذي يتمكن به المطلِّق من إعادة مطلَّقته إلى عصمته .

وفي هذا «توسعة على الناس ليرتأوا بعد الطلاق ما يليق بحالهم وحال نسائهم، فلعلهم تعرض لهم ندامة بعد ذوق الفراق، ويَحُسُّون ما قد يغفلون عن عواقبه حين إنشاء الطلاق عن غضب أو عن ملالة كما قال تعالى: ﴿ لا تدري لعلَّ الله يُحدث بعد ذلك أمرا ﴾ [سورة الطلاق:١]»(٢) .

قال الفخر الرازي: «الحكمة في إثبات حق الرجعة أن الإنسان مادام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشقُّ عليه مفارقته أو لا، فإذا فارقه فعند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لعظمت المشَقَّةُ على الإنسان بتقدير أن تظهر المحبة بعد المفارقة، قال: ثم لما كان كمال التجربة لايحصل بالمرة الواحدة فلا جرم أثبت تعالى حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وعند ذلك قد جرَّب الإنسان نفسه في تلك المفارقة، وعرف حال قلبه في ذلك الباب، فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وأمسكها بالمعروف، وإن كان الأصلح له تسريحها سرَّحها على أحسن الوجوه، قال: وهذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته ورأفته بعبده»(٣) .

فإذا تحرى الزوج هذا النحو في طلاقه –أعني زمن الطلاق وعدده، كان طلاقه سُنِّياً، وكان قد راعى التيسير الذي شرعه الله تعالى له رحمة به ورأفة، وكان أملك لأمره، ولم يقدم على هذا الشأن الخطير إلا عن دراية بأبعاده ومصالحه ومفاسده، فيقلُّ بذلك ضرره وخطره، وأما إذا لم يراع ذلك فطلق طلاقا بِدعيا، كان قد ضيَّق على نفسه، وفرَّط في أمره، ولعله يندم ندامة الكُسْعيِّ، ولكن لا ينفعه ذلك الندم، فالطلاق ينفذ وإن كان

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ص ٥٠، والتفسير الكبير للفخر الرازي ٩٦/٦ .

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٤٠٦/٢ .

(٣) التفسير الكبير ٩٨/٦ .

بدعيا، وهذا عند الجمهور خلافا لأهل الظاهر ومن وافقهم(١)، وعليه إثمه لأنه تعدى حدود الله التي حددها لعباده، وعظَّم شأنها حيث قال بعد تشريعه: ﴿ وتلك حدودُ اللهِ ومن يَتعدَّ حدودَ اللهِ فقد ظلَم نفسَه لا تدري لعلَّ الله يُحدِثُ بعد ذلك أمرا ﴾[سورة الطلاق:١] .

الجوانب الأخلاقية التي يجب مراعاتها بعد الطلاق:

وإذا ما وقع الطلاق سواء كان سُنِّياً أو بِدعيا فإنه يترتب عليه حقوق كبيرة،وجوانب أخلاقية عظيمة تمثِّل كمال العدل والإنصاف والفضل والإحسان في الحياة الأسرية وهذه الحقوق والواجبات هي:

١ ـ على الزوج أن لا يضارَّ زوجته بعد الطلاق، بأن لا يراجعها إلا إذا كان راغبا في إعادة الحياة الزوجية إلى سابق عهدها من الإنصاف والإحسان بصدق، لا أن يراجعها عند قرب انقضاء عدتها لا لرغبة فيها بل لقصد مضارَّتها كأن يمنعها من التزوج بغيره أو نحو ذلك، كما كان يفعله أهل الجاهلية، وقد نهى الله تعالى عن ذلك وزجر وحذَّر من ارتكابه فقال سبحانه: ﴿ ولا تُمسكوهُنَّ ضِررا لتَعتدوا ومن يَفعل ذلك فقد ظلَم نفسه ولا تتَّخذوا آياتِ الله هُزُوا .. ﴾[سورة البقرة:٢٣١]

فسمَّى الله تعالى ذلك الفعل ظلما للنفس، واستهزاء بآيات الله تعالى، وهذا يدل على كمال الخسة في الأخلاق، ولذلك كان جزاؤه عظيما كما قال سبحانه: ﴿ وإذا عِلمَ من آياتنا شيئًا اتخذها هُزُواً أولئك لهم عذابٌ مُهين ﴾[سورة الجاثية:٩]

٢ ـ أن يمتِّعها متاعا حسنا من ماله، جبرا لوحشتها التي أصابتها من جرَّاء الفِراق لقوله تعالى: ﴿ وللمطلقاتِ متاعٌ بالمعروف حقًا على المتقين ﴾[سورة البقرة:٢٤١]

وقوله سبحانه: ﴿ .. وَمتِّعوهن على الموسِع قدَرُه وعلى المقتِر قدَرُه متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾[سورة البقرة:٢٣٦]

وهذه دعوة إلى التحلِّي بمكارم الأخلاق، لأن في المتعة هذه دليل على الوفاء وعدم

(١) وانظر بحث هذه المسألة في أبغض الحلال إلى الله ص ٩٨-١١٨ ونحوه .

نسيان المعروف، كما قال سبحانه: ﴿ ولا تنسوُا الفضلَ بينكم ﴾[سورة البقرة:٢٣٧] والكرام من الناس لا ينسون ولا يتجاهلون مثل تلك العشرة التي كانت حميمة وامتزجت بالروح .

٣ ـ أن لا يستردَّ شيئا مما كان قد بذله لها من مهر ونحوه إذا كان/ قد دخل بها؛ لأن ذلك في مقابل ما استمتع بها، ولأن في ذلك دليلا على التدني في مكارم الأخلاق، بل على فقدانها فيه؛ لأنه لا يقدم على طلب ذلك إلا لدنو همته، وعدم شعوره ومبالاته في رفعة ا لله تعالى له درجة عن المرأة، ولذلك أضحى يتنكَّر للجميل السابق، وينسى العشرة التي مرت في يوم ما معها على أحسن الوجوه وحقُّه أن يظل وفياً لذلك، ولا يتنكَّر بمجرد تغير حال المرأة؛ لأن ذلك هو كماله ورفعته، ولهذا حظر ا لله تعالى على الأزواج الرجوع في شيء مما قدَّموه، وذلك لما يدعو إليه من مكارم الأخلاق وما يريده من المؤمنين من التحلي بكمالاتها، فقال سبحانه: ﴿ ولا يحِلُّ لكم أن تأخُذُوا ممَّا آتيتُموهُنَّ شيئًا إلا أن يخافا ألاَّ يُقيما حدودَ ا لله ﴾[سورة البقرة:٢٢٩]، وقال سبحانه:﴿ وإن أردتُم استبدالَ زوج مكان زَوج وآتيتُم إحداهُنَّ قِنطاراً فلا تأخذوا مِنه شيئًا أتأخذونَه بُهتاناً وإثماً مبينا * وكيف تأخذونَه وقد أَفضى بعضُكم إلى بعضٍ وأخذْنَ منكم ميثاقًا غليظا ﴾[سورة النساء:٢٠،٢١] .

نعم إذا كان الطلاق واقعا قبل المَسَنٍ وكان قد سمَّى لها مهرا فإن له أن يرجع بنصف المسمى فقط؛ لأنه لم تحدث عُلقة اتصال ووئام كاملين، فلم يكن هناك معروف يذكر ولا جميل يكفر، عدا أمر يسيرربما كان عند الخطبة، وربما لم يكن شيء من ذلك .

ولذلك أباح له ا لله تعالى الرجوع في نصف المهر فقال: ﴿ وإن طلَّقتُموهُنَّ من قبلِ أن تَمسُّوهن وقد فرضتُم لهنَّ فريضةً فنصفُ ما فرضتُم إلا أن يَعفونَ أو يَعفُو الذي بيدِه عُقدةُ النِّكاح وأن تَعفُوا أقربُ للتَّقوى ولا تنسوُا الفضلَ بينَكم إنَّ ا لله بما تعملون بصير ﴾[سورة البقرة:٢٣٧]، وذلك مراعاة لحاله ورحمة به لكونه لم يحقق مأربا،ولا قضى وطرا من نكاحه ذاك، ولكي لا يكون إضرار به وإجهاد، ولربما لم يكن معه ما يمهر به امرأة أخرى غيره .

وقد كان الواجب عليه أن يوفِّي المهر كاملا لكونه قد التزم به وقد قال ا لله تعالى:﴿ياأيها الَّذين آمنوا أوفُوا بالعقود ﴾[سورة المائدة:١](١) .

---

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٤١/٦ .

قال في التحرير والتنوير(١): "وتسمية هذا الإسقاط عفوا ظاهرة، لأن نصف المهر حق واجب على المطَلّق للمطلّقة قبل البناء بما استخف بها، أو بما أوحشها فهو حق وجب لِغُرم ضُرٍ فإسقاطه عفو لا محالة" .

ومع ذلك فالأولى أن لا يرجع في شيء لندب الله تعالى ذلك له حيث قال: ﴿ وأَنْ تَعفُوا أقربُ للتقوى ﴾ وحضه عليه بقوله: ﴿ ولا تنسَوُا الفضلَ بينكم ﴾ .

وإن كان هذا الخطاب عاما للرجال والنساء وحثا لهما معا على العفو، وبيان أن من عفا منهما فإن له الفضل على الآخر ،

إلا أن من حق الزوج الذي له فضل الرجولة أن يكون هو العافي،فإن من أقبح ما يكون فيه، أن يحمل المرأة على استرجاع ما آتاها لعموم قوله تعالى: ﴿ وءاتيتُم إِحدَاهُنَّ قِنطاراً فلا تأخذوا مِنهُ شيئا ﴾(٢) .

وهذا ما فهمه السلف الصالح رحمهم الله تعالى، فقد حكى الزمخشري رحمه الله تعالى عن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنه تزوج امرأة وطلقها قبل أن يدخل بها فأكمل لها الصداق وقال: أنا أحق بالعفو .

ودخل جبير رضي الله عنه على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فعرض عليه بنتاً له فتزوجها، فلما خرج طلقها وبعث إليها بالصداق كاملا، فقيل له: لَمَ تزوَّجتها ؟ فقال: عرضها عليَّ فكرهت ردَّه، قيل: فلمَ بعثت بالصداق . فقال: فأين الفضل(٤) .

---

(١) ج ٤٦٣/٢ .

(٢)محاسن التأويل للقاسمي ٢٨١/٣ .

(٤) انظر الكشاف ١٤٧/١، وأصل القصة في السنن الكبرى للبيهقي ٢٥١/٧، وفي تفسير الطبري ٥٤٦/٢، وذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء ٩٨/٣ .

٤ - يجب على المطلق لمطلقته : السكنى والنفقة مدة العدة إذا كانت مطلقة بعد الدخول، وكان الطلاق رجعيا، للمعنى الذي تقدم في المتعة، من جبر الكسر والعرفان بالجميل، وأيضا لمحاولة العودة بالحياة الزوجية إلى سابق عهدها إذا أحس كل من الزوجين بألم الفرقة، وقررا العودة إلى عصمة النكاح، وهذا إذا كان الطلاق رجعيا .

أما إذا كان بائنا وكانت غير حامل فإن الواجب حينئذ هو النفقة فقط دون السكنى لذهاب رجاء العودة إلى عصمة النكاح عنده، ولم يبق إلا جبر الخاطر وحسن العهد، ويحصل ذلك بالمتعة والنفقة وذلك ما بينه القرآن الكريم في محكم آياته .

أما السكنى فهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾[سورة الطلاق:١] والفاحشة المبينة: هي الزنا، فتخرج في هذه الحالة ليقام عليها الحد، وقوله تعالى: ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ...﴾[سورةالطلاق:٦].

وأما النفقة فإن كانت حاملا فلدلالة الآية الكريمة: ﴿ فإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ...﴾[سورة الطلاق:٦] .

وإن كانت حائلا فلدلالة السنة المشرفة عليه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما النفق والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة، فإذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى"(٢) .

وهكذا عني القرآن الكريم بما ينبغي بل بما يجب أن تكون حالة الأسرة الزوجية عند الاختلاف، من العدل والإنصاف والإحسان والفضل .

أما الحالة الثالثة من المرحلة الثالثة وهي مرحلة الفراق، وهي حالة كراهية المرأة العشرة مع زوجها لأغراض دينية أو خلقية أو خلقية، فإن الإسلام في هذه الحالة قد جعل لها

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦٨/١٨ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٧٣/٦، ٤١٥، ٤١٦، من حديث فاطمة بنت قيس وهذا لفظه، والبخاري في الطلاق ٧٤/٧، وإسناد أحمد صحيح كما بين ذلك الألباني في الصحيحة ٢٨٨/٤ .

وقد اختلف السلف في نفقة المطلقة البائن وسكناها؛ فقال الجمهور: لا نفقة لها ولا سكنى، وذهب أحمد وإسحاق وأبو ثور إلى أنه لا نفقة لها ولا سكنى على ظاهر حديث فاطمة بنت قيس ... انظر تفصيل المسألة وأدلة الفرقين في فتح الباري ١٦٤/٢٠ .

الحق في تخليص نفسها مما لا طاقة لها بالعشرة معه، انطلاقا من مبدئه العام في عدم التكليف فيما لا طاقة للمرء به، وقد دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا مما ءاتيتُموهنَّ شيئًا إلا أن يخافا أن لا يُقيما حدودَ الله فإن خفتُم أن لا يُقيما حدودَ الله فلا جناحَ عليهما فيما افتدت به تلك حدودُ الله فلا تَعتدوها ومن يتعد حدودَ الله فأولئك همُ الظَّالمون ﴾[سورة البقرة:٢٢٩] .

وإقامة حدود الله هي ما يجب على الزوجين القيام به من حسن الصحبة وجميل العشرة، وترك إقامة هذه الحدود يكون باستخفاف المرأة بحق زوجها وسوء طاعته إياها(١) .

فإذا ما فعلت المرأة ذلك كانت قد ضارَّت زوجها الذي جهد في الحصول عليها، إذا كان سوء العشرة آتيا من قبلها، وإذا كان من قبله فلم تصبر عليه ولم تطق تحمله، فإن عليها في الحالين أن تخلص رقبتها منه بالمخالعة التي دلت عليها الآية السابقة؛ بأن تفدي نفسها وتبذل له ما يرضيه من المال، سواء كان ما بذله لها وغيره قليلا أو كثيرا، مما يرضيه حتى يطلِّقها، وإذا ما فعلت ذلك وفعل هو الطلاق، ملكت نفسها به، وكانت بائنة منه بينونة كبرى، لا يملك عليها الرجوع إلا بعد أن تنكح زوجا غيره، ورغبت في ذلك(٢) .

هكذا بين القرآن الكريم أحوال الأسرة الزوجية عند اختلافها بيانا شافيا كافيا، مصبوغا بمكارم الأخلاق، في كل مراحله من الوفاق والفراق .

ومنه تعلم بالغ عنايته بمكارم الأخلاق حيث لم يعف أحدا منها في كل شئونه وأحواله، مما يؤكد على ما تقدم تقريره من أن الأخلاق الإسلامية، أصل من الأصول المهمة، أولاها القرآن الكريم عنايته كعنايته بالعقائد والعبادات والمعاملات، بل وأكثر من ذلك حيث صبغ كل تلك الأصول بالصبغة الأخلاقية الكريمة كما علمت من قبل .

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٣٨/٣ .

(٢) انظر منهاج الطالبين للإمام النووي بشرحه مغني المحتاج ٢٦٢/٣ - ٢٦٧ ونحوه من كتب الفقه .

تمثل خلق الإنصاف والإحسان

عند الاختلاف في النبي صلى الله عليه وسلم

لقد ناط الله تعالى برسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بيان القرآن الكريم كما قال جل ذكره: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتُبيِّنَ للنَّاس ما نُزِّل إليهم ﴾[سورة النحل:٤٤] فقام عليه الصلاة والسلام بهذا الواجب خير قيام .

حيث بين القرآن الكريم مدة حياته بأقواله وأفعاله وتقريراته وسلوكه،فأصبحت سنته صلى الله عليه وسلم مفسرة للقرآن وشارحة له، وكان من بيانه للقرآن الكريم بيانه للأحكام الأسرية التي تضمنها القرآن الكريم في كل مراحلها كما تقدمت الإشارة إلى بعضها، وستأتي الإشارة إلى البعض الآخر .

ومن هذه الأحكام،الأحكام الأسرية ذات الصلة بحال الاختلاف بين الزوجين التي يدور الحديث عنها في هذا المبحث .

فقد بينها النبي صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله بما يطول ذكره،لكثرة ما احتوته كتب السنة من أدلة على ذلك، وسأذكر منها ما يتعلق بالجانب الأخلاقي في معاملة الزوجين عند الاختلاف، على ضوء عرض نقاط العرض المتقدم لهذا الموضوع في القرآن الكريم الذي قسمناه إلى مرحلتين:وفاق وفراق .

بيانه صلى الله عليه وسلم لذلك في مرحلة محاولة الوفاق :

أما مرحلة محاولة الوفاق التي تنشأ عن مخافة نشوز المرأة أو حدوثه بالفعل، فإن سيرته الشريفة لم تشتمل على ما يدل على حدوث شيء من ذلك من أمهات المؤمنين رضي الله عنهن،اللاتي اختارهن الله تعالى ليكنَّ نَقَلَةً لأحواله صلى الله عليه وسلم الباطنة،التي لا يطلع عليها غيرهن، فلقد كن أحرص الناس على طاعته والتسابق إلى مرضاته ومسرَّاته، فلم تنشز واحدة منهن عليه صلى الله عليه وسلم، ولم تتعال عليه على النحو الذي يمكن أن يحدث من النسوة كما مضى شرحه، لذلك لم أجد في سيرته صلى الله عليه وسلم وشمائله الشريفة ما يدل على وعظه إياهن أو هجره لهن أو ضربهن رضي الله عنهن؛ لأجل النشوز عليه، وذلك يدل على كمال أخلاقهن في معاملتهن لصاحب الخلق

العظيم صلى ا لله عليه وسلم، فإنهنّ مع طبيعتهن البشرية والنسوية،الشديدةَ التأثير لاسيما مع وجود الضرات وقلة ذات اليد الذي اختاره النبي صلى ا لله عليه وسلم لنفسه،وهما العاملان المهمان في سبب النشوز والشقاق الذي يجري بين الزوجين، إلا أنهن تجاوزن ذلك بكل هدوء وأريحية، لما تعلمنه من النبي صلى ا لله عليه وسلم من كرم الأخلاق في السلوك والمعاملة ولا ريب فإن كل قرين بالمقارن يقتدي .

نعم قد ثبت عنه صلى ا لله عليه وسلم أنه وعظهن وهجرهن، ولكن كان ذلك لغير نشوز منهن، ولا قلة احتشام معه، أو سوء عشرة، وإنما لأمور أخرى سأبينها في الآتي:

وعظه صلى ا لله عليه وسلم نساءه ونساء المسلمين :

أما وعظه عليه الصلاة والسلام فقد كان عاما لكل النساء، يحثهن فيه على طاعة الأزواج في كل الأحوال والظروف ما لم تكن هناك معصية ا لله، وحذرهن تحذيرا شديدا من التفريط في ذلك، وبيّن لهن ما يترتب على ذلك من غضب ا لله تعالى وأليم عقابه، وذلك في أحاديث كثيرة منها:

١ ـ ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح"(١) .

٢ ـ وفي رواية أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال: "والّذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يُرضى عنها"(٢) .

وجاء في حديث آخر عنه صلى ا لله عليه وسلم أنه قال :

٣ ـ "إذا الرجل دعا زوجته لحاجته فلتأتِه وإن كانت على التّنور"(٣) .

---

(١) متفق عليه تقدم تخريجه في هذا المبحث ص٧٢٤.نحوه .

(٢) أخرجه مسلم في النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها برقم ١٤٣٦ .

(٣) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب في حق الزوج على المرأة برقم ١١٦٠ من حديث طلق بن علي رضي =

٤ ـ وجاء من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تُؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو دخيل عندك يوشك أن يُفارقك إلينا"(١) .

٥ ـ ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المُصَلّى فمر على النساء فقال: يا معشر النساء تصدَّقن، فإني أُريتكن أكثر أهل النار، فقلن: لمَ يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، وما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبّ الرجل الحازم من إحداكن، قلن: وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال: أليس شهادة المرأة منكن مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، قال: أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ قلن: بلى، قال: وذلك من نقصان دينها"(٢) .

وفي هذه الأحاديث من الوعظ والإرشاد إلى سلوك سبيل الاستقامة في أداء الحقوق الزوجية، ما يحمل على ذلك من غير توان، وذلك فرارا من الوعيد المترتب على أذية الزوج بأي نوع من أنواع الأذية .

ترغيبه صلى الله عليه وسلم في إطاعة الزوجة زوجها :

وكما وعظهُنَّ بذلك الأسلوب الترهيبي، فقد وعظهن على ذلك أيضا بأسلوب الترغيب الذي يحمل على الإقدام على الطاعة برغبة كبيرة ابتغاء أجرها عند الله تعالى.

ووعظه صلى الله عليه وسلم للنساء بهذا الأسلوب وارد في أحاديث كثيرة نذكر منها ما يأتي:

= الله عنه، وابن حبان ١٨٥/٦ من الإحسان، وأحمد في المسند ٢٢/٤، والبيهقي في السنن ٢٩٢/٧، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٩٩/٣ .

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب رقم١٩، برقم ١١٧٤، وابن ماجه في النكاح، باب في المرأة تؤذي زوجها برقم ٢٠١٤، وأحمد في المسند ٢٤٢/٥، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وصححه الألباني في الصحيحة ٢٨٥،١ برقم ١٧٣ .

(٢) البخاري في الحيض، باب ترك الحائض الصوم ٨٠/١، ومسلم في العيدين في فاتحته برقم ٨٨٩ .

١ـ فمن ذلك ما جاء عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة"(١) .

٢ـ ومنه ما أخرجه النسائي وغيره عن حصين بن محصن(٢) أن عمة له دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض الحاجة فقضى حاجتها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أذات زوج أنت ؟ قالت: نعم، قال: كيف أنت له ؟ قالت: ما آلو إلا ما عجزت عنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انظري أين أنت منه، فإنه جنتك ونارك"(٣) .

٣ـ ومنه ما جاء عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي من أي أبواب الجنة شئت"(٤) .

وفي هذا من الترغيب على القيام بطاعة الزوج ومحاولة إرضائه، وعدم النشوز عنه، ما يحمل عليه بكل رغبة وقناعة، وذلك طمعا في رضوان الله تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع، باب ما جاء في حق الزوج على المرأة برقم ١١٦١، والحاكم في المستدرك ١٧٣/٤، وابن ماجة في النكاح، باب حق الزوج على المرأة برقم ١٨٥٤، وقال عنه الترمذي: حسن غريب، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي، وتعقبه الألباني في الضعيفة ٦١٦/٣ برقم ١٤٢٦، وقال: انه منكر .

(٢) الأنصاري الخطمي، اختلف في صحبته، واتفقوا على أنه ليس له رواية عن النبي صلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما روايته عن عمته، انظر الإصابة ٣٣٨/١، وتقريب التهذيب ص ١٧٠ برقم ١٣٨٤، .

(٣) أخرجه النسائي في عشرة النساء من السنن الكبرى برقم ٧٦ـ٨٣، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣٠٩/٤ إلى الطبراني في الكبير والأوسط قال: ورجاله رجال الصحيح خلا حصين، وهو ثقة، وأخرجه أحمد في المسند ٣٤١/٤ من مسند حصين بن محصن، وفي ٤١٩/٦ من مسند عمته و لم يسمها .

(٤) أخرجه أحمد في المسند ١٩١/١، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣٠٩/٤ إلى الطبراني في الأوسط قال: وفيه ابن الهيعة وحديثه حسن، وبقية رجاله رجال الصحيح، كذا قال، والصواب في ابن لهيعة أن حديثه ضعيف لاختلاطه بعد احتراق كتبه. والله أعلم .

على هذا النحو كان وعظه صلى الله عليه وسلم لنسائه ونساء المؤمنين، وعظ عام، وإن لم يخص به نساءه لما لم يكن هناك مقتضى، غير أنه يشملهن وتدخل فيه نساؤه من أمهات المؤمنين دخولا أوليا، فما تعلم به واحدة منهن إلا بادرت لمقتضاه رغبة ورهبة، غير أن الله حماهن عن التفريط في حقه صلى الله عليه وسلم فلم يبق بعد ذلك إلا الذكرى التي تنفع المؤمنين.

وأما الهجر: فقد حدث منه صلى الله عليه وسلم أن هجر نساءه شهرا ولكن لم يكن ذلك عن نشوز منهن، وإنما كان تأديبا لهن لمّاً أردن أن يؤثرن الحياة الدنيا وزينتها، ويخرجن رسول الله صلى الله عليه وسلم عما أراده لنفسه من التقلل في الدنيا والزهادة فيها، وذلك حين نصره الله تعالى ورد عنه الأحزاب، وفتح عليه "قريظة" و "النضير" فقعدن حوله وقلن له: "يارسول الله: بنات كِسرى وقيصر في الحُلِيِّ والحُلَلِ والإماء والخول - أي الخدم والحشم - ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق" فآلمن قلبه الشريف الطاهر بمطالبتهن له بتوسعة الحال، كما دل على ذلك حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: "دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأذن له، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم جالسا حوله نساؤه واجما(١) ساكتا، فقال: لأقولن شيئا أُضحك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله لو رأيت بنت خارجة - يعني زوجته - سألتني النفقة فقمت إليها فوجأتُ عنقها، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "هن حولي كما ترى يسألنني النفقة، فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها يجأ - أي يطعن - عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها كلاهما يقول: تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ليس عنده ؟! فقلن: والله لا نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا أبدا ليس عنده، قال: ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿ يأيُّها النَّبيُّ قل لأزواجِك ﴾ حتى بلغ ﴿ للمحسناتِ منكُنَّ أجراً عظيما ﴾[سورة الأحزاب:٢٨،٢٩] .

---

(١) الواجم: هو الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام. شرح النووي على مسلم ١٠/٨١ .

قال: فبدأ بعائشة رضي الله عنها، فقال: "ياعائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لا تعجلي فيه حتى تستشيري أبويك، قالت: وما هو يارسول الله؟ فتلا عليها الآية فقالت: أفيك يارسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: " لاتسألني امرأة منهن إلا أخبرتها إن الله لم يبعثني معنِّتا ولا مُتَعنِّتا ولكن بعثني معلِّما ميسرا"(١) .

فهذه الحادثة المشهورة من هجره صلى الله عليه وسلم لنسائه، وهناك حادثة أخرى غير مشهورة أخرجها أبو داود من حديث عائشة رضي الله عنها"أنه اعتلَّ بعير لصفية بنت حيي رضي الله عنها وعند زينب فضْلُ ظهرٍ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزينب:أعطيها بعيرا، فقالت: أنا أعطي تلك اليهودية ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم عليها فهجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر"(٢) .

ومن هذه الروايات يتبين لنا معان سامية في أخلاقه صلى الله عليه وسلم العظيمة،وهي أنه لم يكن يغضب ولا يهجر لمصلحة نفسه، كما هو شأنه ونهجه في عدم الغضب لنفسه الذي دل عليه قول عائشة رضي الله عنها: "وما انتقم رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم ١٩٥/٦، ومسلم في الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن برقم ١٤٧٩، وانظر الوفاء لابن الجوزي ٦٥٢/٢-٦٥٥ .

(٢) أبو داود في السنة، باب ترك السلام على أهل الأهواء برقم ٤٦٠٢، وأخرجها النسائي في عشرة النساء من الكبرى برقم ٢٨٠، من حديث أنس رضي الله عنه، والإمام أحمد في المسند ٣٣٧/٦ من مسند صفية رضي الله عنها، كلاهما في قصة مفصلة، وقال الهيثمي في المجمع ٣٢٤/٤ بعد عزوه لأحمد: وفيه سمية، روى لها أبو داود وغيره و لم يضعفها أحد قال: وبقية رجاله ثقات.

قلت: وسمية هذه ذكرها الذهبي في الميزان ٦٠٧/٤ برقم ١٠٩٦٧ في فصل النسوة المجهولات التي قال عنهن: (وما علمت في النساء من اتهمت ولا من تركوها) وقال عنها الحافظ ابن حجر في التقريب برقم ٨٦١٠: بصرية مقبولة .

وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله تعالى"(١) وتدل عليه هاتان الواقعتان دلالة واضحة، حيث إنه صلى الله عليه وسلم هجر في الحالتين تأديبا وتعليما، لمعنى من معاني الإسلام وأخلاقه العظيمة.

ذلك أن طلب زيادة النفقة من الزوج خاصة إذا كان حاكما على الأمة، مؤتمنا على مالها، يدفع الزوج إلى الاستدانة المرهقة، أو الخيانة المهلكة، وكلاهما أمر ينافي الأخلاق العالية في الإسلام من الصبر والأمانة، ولا ريب بأن الحامل على ذلك وهم الزوجات يجدر بهن التَّأديب والزَّجر والتَّأنيب، وهو ما فعله صلى الله عليه وسلم علاجا شافيا لهذه الظاهرة الخطيرة، وفي هجره عليه الصلاة والسلام لزينب عليها السلام معنى أخلاقي عظيم طالما حث الإسلام عليه وندب أهله إلى التحلي به، ألا وهو عدم التفاخر في الأنساب والأحساب الذي أبطلها الإسلام، وجعل الأصل الذي يوزن به المسلمون هو: (التقوى) ﴿ يأيُّها النَّاس إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكُم شُعوباً وقبائلَ لِتعارفوا إنَّ أكرمكَم عند اللهِ أتقاكم إنَّ الله عليمٌ خبير ﴾[سورة الحجرات:١٣] .

ونادى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلَّغ به القاصي والداني فقال: "يا أيها الناس ألا إنَّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلَّغت ؟ قالوا: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ..."(٢) .

فزينب رضي الله عنها حينما غفلت عن هذه الحقيقة، ونسيت هذا الخلق العظيم، كان لا بد أن تزجر عن ذلك حتى لا تعود لمثلها، ولا يعود لمثل ذلك أحد .

وفي هذا دليل على أن مكارم الأخلاق من الدين التي كان يقوم صلى الله عليه وسلم لها فيغضب عند انتهاكها، وينتقم لها بكل وسيلة ممكنة، لا يمنعه من ذلك قرابة زوجية، ولا مودة روحية .

---

(١) متفق عليه وتقدم في الحلم ص ٥٧٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٤١١/٥ وإسناده صحيح، وهو من حديث أبي نضرة عمن سمع النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في عرفه، وصححه الألباني في غاية المرام ص ١٩٠ رقم ٣١٣ .

فهذا ماجاء عن هجره صلى الله عليه وسلم نساءه، ومنه علمت أنه لم يكن عن نشوز، وإنما كان زجرا وتأديبا لهن لتصرفهن غير اللائق في بعض الأحيان بمقام النبوة العظيم ومقامهن كذلك، فإنهن لسن كسائر النساء فضلا ومكانة وديانة ورزانة .

وهذا دليل على أن الهجر سلاح ماض في إصلاح الزوجات، وتقويم اعوجاجهن، كما حصل منه صلى الله عليه وسلم مع زوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهن في مثل هذين الموقفين .

وأما الضرب: فهو علاج العاتية من النساء التي لم تنفع معها وسائل الإصلاح بالمعروف، ومعلوم أنه لم يكن في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من تستأهل مثل هذا من حيث هن أمهات المؤمنين، اختارهن الله تعالى ليكن كذلك، ليقمن بدورهن في تبليغ الشريعة التي يدركنها، كما تقدم بيانه، ولذلك لم تنشز واحدة منهن وتخرج عن طاعته قط، بل كن يتبارين في المسابقة إلى مسرّاته ومرضاته والإحسان إليه بقدر طاقتهن كما لا يخفى أمره .

أما النبي صلى الله عليه وسلم فهو أجل من أن يَضرب نساءه وهو خير الناس لأهله، وأكرم الناس عِشرة، وأعظمهم رأفة ورحمة، وهذا ما حدثت به عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه مسلم وغيره قالت: "ماضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ومانِيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم لله عز وجل "(١)

فهذا خبر عائشة رضي الله عنها عن معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لها ولضرّاتها، وهي صاحبة الشأن في هذه المعاملة، ولا يُنبِّئك مثل خبير، ولا غرو في أن لا يضرب صلى الله عليه وسلم نساءه فإنه قد قال عن الضاربين نساءهم: "ليس أولئك بخياركم"(٢) يعني

متفق عليه
(١) وتقدم في مبحث الحلم ص٥٧٩.

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح، باب ضرب النساء برقم ٢١٤٦ من حديث إياس بن عبد الله أبي ذُباب، والنسائي في عشرة النساء من الكبرى برقم ٢٨٥، وابن حبان ١٩٦/٦ من الإحسان، والحاكم في المستدرك ١٩١،١٨٨/٢ وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي .

أن خير الأزواج هو الذي لا يضرب زوجاته، وهذا تفسير لحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم: "خيرُكم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"(١) فخيريّته صلى الله عليه وسلم لا تستدعي ضربا، بل ولا شتما ولا تجريحا، كما هي شمائله العليا مع جميع أمته ولا سيما مع أهله وقرابته وأهل بره .

وفي سلوكه صلى الله عليه وسلم هذا هدي لأمته في عدم ضربهم زوجاتهم لما في ذلك من سوء العشرة وتولُّد الضغائن، والزواج إنما هو مبني على الرحمة والأُلفة، ولا يستقيم ويؤدي ثماره إلا على ذلك، أما إذا خرج عن هذا القانون فإنه سرعان ما ينفك وتَنحلّ عراه .

ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم الأمة عن ضرب الزوجات نهيا بليغا، لما في ذلك من مخالفة للعشرة بالمعروف التي تبنى عليها العلاقات الزوجية، والحياة الاجتماعية الأسرية، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا يَجلِد أحدُكم امرأته جلد العبد، ثم لعلّه يجامعها، أو قال: يضاجعها من آخِر اليوم"(٢) فإن في هذا الحديث تنفير من ضرب النساء، وإن كان يدل على جواز اليسير منه وذلك لأن (المجامعة أو المضاجعة إنما تُستحسن مع ميل النفس، والرغبة في العشرة، والمجلودُ غالبا ينفر ممن جلده،فوقعت الإشارة إلى ذم ذلك، وأنه إن كان لا بد فليكن التأديب بالضرب اليسير بحيث لا يحصل منه النفور التام، فلا يفرط في الضرب، ولا يفرط في التأديب)(٣) وذلك ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم في خُطبة حِجّة الوداع التي تضمنت الوصية بالنساء، والتي جاء فيها: "... فإن فعلن ذلك فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرِّح"(٤) .

---

(١) حديث صحيح، تقدم ذكره وتخريجه ص ٧٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح، باب ما يكره من ضرب النساء ٤٢/٧، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها برقم ٢٨٥٥، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء من حديث عبد الله بن زمعة رضي الله عنه .

(٣) انظر فتح الباري ٣٦٢/١٩ .

(٤) حديث صحيح تقدم تخريجه ص ٧١٨.

قال الحافظ ابن حجر في شرحه للحديث السابق ذكره: "فيه دلالة على أن ضربهن مباح في الجملة، ومحل ذلك أن يضربها تأديبا إذا رأى منها ما يكره فيما يجب عليها فيه طاعته، فإن اكتفى بالتهديد ونحوه كان أفضل، ومهما أمكن الوصول إلى الغرض بالإيهام،لا يعدل إلى الفعل لما في وقوع ذلك من النُّفرة المضادَّة لحسن العشرة المطلوبة في الزوجية، إلا إذا كان في أمر يتعلق بمعصية الله تعالى"(١) يعني فإنه ينبغي أن لا يتساهل ولا يلين بل يستعمل كامل الشدة لقول الله تعالى: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا قُوا أنفسَكم وأهلِيكم نارا ﴾ [سورة التحريم:٦] وكما فعله النبي صلى الله عليه وسلم مع عائشة حين اتخذت ستارة فيها تصاوير، وكان في غزوة، قالت عائشة رضي الله عنها: فلما قدم فرأى النَّمَط عرفت الكراهية في وجهه، فجذبه حتى هتكه، أو قالت: قطعه، وقال: "إنَّ الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين" .

وفي رواية: "فنظر إلى البيت فرأى النَّمط فلم يرد عليَّ شيئا قالت: ورأيت الكراهية في وجهه، فأتى النَّمط حتى هتكه ثم قال: "إن الله لم يأمرنا فيما رزقنا أن نكسو الحجارة واللِّبْن"، قالت: فقطعته فجعلته وسادتين، وحشوتهما ليفاً فلم ينكر ذلك علي»(٢) .

هذا عن مرحلة محاولة الوفاق .

أما معاملته صلى الله عليه لنسائه في مرحلة الفراق: فإن النبي صلى الله عليه وسلم وإن كرهه وعابه كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «ما أحلَّ الله شيئا أبغض إليه من الطلاق» وفي رواية: "أبغض الحلال إلى الله الطلاق"(٣)، إلا أنه لا يكون

---

(١) فتح الباري ٣٦٣/١٩ .

(٢) متفق عليه وتقدم في مبحث الزهد ٥٠٦

(٣) أخرجه أبو داود في الطلاق، باب في كراهية الطلاق برقم٢١٧٧، و ٢١٧٨ من حديث محارب بن دثار عن ابن عمر موصولا ومرسلا، والحاكم في المستدرك ١٩٦/٢ وصححه، قال الذهبي: على شرط مسلم، وابن ماجه في الطلاق برقم ٢٠١٨، وقال الحافظ ابن حجر في التلخيص ٢٠٥/٣:وراه أبو داود وابن ماجه والحاكم من حديث محارب بن دثار عن ابن عمر، ورواه أبو داود والبيهقي مرسلا ليس فيه ابن عمر قال: ورجح أبو حاتم والدار قطني في العلل والبيهقي المرسل .

منه بد أحيانا، إذا لم يبق للحياة الزوجية الهادئة حظ باستفحال الشقاق، وحلول الخصام محل الوئام كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

وهو ما حدث للنبي صلى الله عليه وسلم بالفعل مع ابنة أبي الجَون (الشّقيّة كما كانت تعبر عن نفسها)(١)، فإنها لما أدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ودنا منها قالت: أعوذ بالله منك، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد عذت بعظيم، إلحقي بأهلك"(٢) .

فابنة الجون هذه ـ وهي أميمة بنت النعمان بن شراحيل ـ كان أبوها عظيما في قومه، وقد تزوّجها النبي صلى الله عليه وسلم بناء على رغبة أبيها، وطلبه من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال له:« ألا أزَوّجك أجمل أيّم في العرب، كانت تحت ابن عم لها فتوفي وقد رغبت فيك ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: نعم، قال: فابعث من يحملها إليك..." الحديث(٣)، لكنه لما دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأت تواضعه وبساطة عيشته،أنفت وتكبَّرت، لما كان فيها من عنجهية الجاهلية، فكأنها استبعدت أن تتزوج مَن ليس في عظمة الملك وأبّهته، كما دل على ذلك رواية البخاري الثانية التي جاء فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل عليها قال لها: "هيئي نفسك لي" قالت: وهل تهب الملكة نفسها للسُّوقة(٤)، فأهوى بيده الشريفة يضعها عليها

(١) انظر السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ص ٢١٧ .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ٥٣/٧ .

(٣) انظر طبقات ابن سعد ١٤٣/٨ .

(٤) قال ابن المنيِّر:«وهذا من بقية ما كان فيها من الجاهلية، والسوقة عندهم : من ليس بملك كائنا من كان، فكأنها استبعدت أن يتزوج الملكة من ليس بملك، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد خُيِّر أن يكون ملكا نبيا، فاختار أن يكون عبدا نبيا تواضعا منه صلى الله عليه وسلم لربه، ولم يؤاخذها النبي صلى الله عليه وسلم بكلامها معذرة لها لقرب عهدها بجاهليتها»ا.هـ، فتح الباري ١٧/٢٠ .

لتسكن، فقالت: أعوذ با لله منك، فقال: "قد عذت بمعاذ" قال راوي الحديث: أبو أسيد رضي ا لله عنه: ثم خرج علينا فقال: "يا أبا أسيد اكسها رازِقِيَّيْن(١) وألحقها بأهلها"(٢) .

فترى هل ترى من خير في بقاء مثل هـذه المـرأة الـتي بلغـت مـن الفظاظـة والقِحَـة أن تخاطب النبي صلى ا لله عليه وسلم بمثل هذا الخطاب الفظ الغليظ، إن علاج مثل هذه هـو المفارقة الفورية لتريح وتستريح، فلا خير يُرجى ممن كان حالها كذلـك، فتسـريحُها خـير من إمساكها .

ولكن ينبغي أن يكون التَّسريح على النحو الذي فعله النبي صلى ا لله عليه وسلم،من الإحسان والإجمال حيث إنه فارقها قبل الدخول، وهو الحال الـذي لا يجب فيه سكنى ولا نفقة، بل إن سمَّى لها مهرا فنصفه فقط كما مضى تقريره، ثم متَّعها متاعا حسنا كما أمر ا لله تعالى بذلك حيث قال: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا نَكحتُم المؤمناتِ ثم طلَّقتموهـن مـن قبـل أن تمسُّوهن فما لكم عليهن من عِـدةٍ تَعتَدُّونهـا فمتِّعوهـن وسرِّحوهن سَراحاً جميلا ﴾[سورة الأحزاب:٤٩] .

فـهـذه صـورة من صور إنصـاف النـبي صلـى ا لله عليـه وسـلم وعدلـه وإحسانـه عنـد الفراق .

وهناك صورة أخرى توضح فعل النبي صلى ا لله عليه وسلم في الطـلاق علـى وفـق مـا ندب أمته إليه من عـدم التسـرع في الطـلاق، والـتَّروي فيـه بـأن يكـون طلقـة واحـدة لا طلقات ثلاث،ليكون الطلاق رجعيا،ليتدارك المرء نفسه في مراجعة زوجته إن أحب ذلـك بعد أن يجد ألم الفرقة .

وذلك كما في قصة زواجه صلى ا لله عليه وسلم من رَيحانة بنت زيد بن عمرو من بني النَّضير، وقـد كانت مما أفاء ا لله عليه من بني النضير، حيث وقعت في السَّبي، فخيرها

---

(١) براء ثم زاي ثم قاف بالتثنية صفة موصوف محذوف للعلم به، أي: ثيابا رازقية، وهي ثياب من كتان بيض طوال، قاله أبو عبيدة، ونقله الحافظ في الفتح ٢٠/١٧

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق ٥٣/٧ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الإسلام وبين دينها، فاختارت الإسلام فأعتقها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجها وضرب عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة، فطلقها تطليقة وهي في موضعها لم تبرح، فشق عليها وأكثرت البكاء، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على تلك الحال فراجعها، فكانت عنده حتى ماتت عنده قبل أن يتوفى صلى الله عليه وسلم(١) .

فانظر كيف استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يرحم تلك المسكينة لما ندمت على مابدر منها، وكاد البكاء يقطع قلبها وذلك بفضل الطلاق الرجعي، ولو كان بائنا لحالت بينونته عن رحمتها وتدارك الخطأ الذي نشأ منها، وفي هذا درس لأمته لتحفظه فتطيعه في ساعة اختيار الفراق حتى لا يضيقوا على أنفسهم فيما وسعه الله لهم، ويعذبوا أنفسهم بينما هو قد رحمهم، وحقا إنه لا يهلك على الله إلا هالك .

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يأمر أمته أن تحرص على طلاق السنة، وهو أن يطلق طلقة واحد في طهر لم يجامعها فيه، وذلك إذا ما قرر امرؤ اللجوء إلى هذا الاختيار في حياته الزوجية وذلك ليتسنى له الرجوع إلى إعادة العلاقة الزوجية عندما يجد الصلاح في ذلك ،

١ ـ فقد قال لثابت بن قيس لما أرادت امرأته أن تختلع منه بالحديقة التي كان قد أمهرها بها فقال له صلى الله عليه وسلم: "اقبل الحديقة وطلقها تطليقة"(٣) .

---

(١) انظر الطبقات لابن سعد ١٣٠/٨، وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده لأبي عبيدة معمر بن المثنى ص ٨٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٤٦٠/٥ .

وقالت طائفة من أهل العلم: لم تكن زوجة بل كانت أمة وكان يطؤها بملك اليمين حتى توفي عنها، والقول الأول اختيار الواقدي ووافقه شرف الدين الدمياطي ورجحه، وتعقبه ابن القيم في الهدى ١١٣/١ فقال: وفيما قاله نظر، فإن المعروف أنها من سراريه وإمائه ا.هـ .

(٢) أخرجه البخاري في الخلع، باب الخلع وكيف الطلاق فيه ٦٠/٧ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

٢ ـ ولما ذكر له أن رجلا طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا، قام غضبان ثم قال: "أيُلعبُ بكتاب الله عز وجل وأنا بين أظهُرِكم" حتى قام رجل فقال: يارسول الله ألا أقتله ؟(١) ؛

٣ ـ ولما ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه له صلى الله عليه وسلم أن عبد الله بن عمر طلَّق امرأته وهي حائضٍ قال له صلى الله عليه وسلم: "مُره فليراجعها، ثم ليتركها حتى تطهر، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بعدُ، وإن شاء طلق قبل أن يمس، فتلك العدة التي أمر الله عز وجل أن يطلَّق لها النساء"(٢) .

وذلك كله حرصا منه صلى الله عليه وسلم على التَّرويِّ في الطلاق وعدم التَّهور فيه ليكون لهما مندوحة إذا ما رأيا الخير في العودة إلى عصمة النكاح .

وهو يدل على حرص الشارع الحكيم على إبقاء الحياة الزوجية وعدم تفككها، لما في ذلك من عمارة البيوت، وتحصين بناء الأسرة، وحماية النشأ من التَّمزُّق والشَّتات، وكل هذه فضائل أخلاقية عظيمة لها كمال العناية والرِّعاية في الشريعة الإسلامية .

وقد طبَّقها النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، وأراد ذلك من أمته كما علمت مما تقدم بيانه .

---

(١) أخرجه النسائي في الطلاق، باب الثلاث مجموعة وما فيه من التغليظ ١٤٢/٦ من حديث ابن وهب عن مخرمة عن أبيه عن محمود بن لبيد ورجال إسناده ثقات، غير أن مخرمة لم يسمع من ابيه كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في ترجمته من التهذيب ٧٠/١٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق، باب إذا طلقت الحائض تعتد بذلك طلاقا ٥٢/٧ وفي غيره، ومسلم في الطلاق من عدة روايات برقم ١٤٧١ .

المبحث السابع

(معاملة ذوي القربى والأرحام)

ذوو القُربى: هم الأقارب الذين تجمعهم رحم واحدة سواء كانوا من جهة الأب أو من جهة الأم، ويسمَّون بالأرحام؛ لأن "الرَّحم اسم لمكانة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره" قال الراغب عند تفسيره للرحم: "ومنه استعير للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة"(١)، فعُلِم أن الأقارب والأرحام بمعنى واحد .

عناية القرآن الكريم بالإحسان إلى الأقارب والأرحام:

وحسن معاملة الأقارب والأرحام عني بها القرآن الكريم كثيرا، لعظم شأنها بين المؤمنين "لأن القرابة مظِنَّة الاتحاد والألفة والرعاية والنصرة، فلو لم يحصل شيء من ذلك لكان أشق على القلب وأبلغ في الإيلام والإيحاش والضرورة"(٢) .

ولايتم كل ذلك إلا بالإحسان إليهم، والصبر عما يجري منهم،والحلم عن إساءتهم، وإظهار الود لهم.. فلذلك حث الله تعالى على الإحسان إلى الأقارب والأرحام، ونوَّه بالقائمين بذلك، وحذَّر من ترك ذلك أو التهاون به، في نحو اثنتي عشرة آية من كتاب الله الكريم .

حث القرآن على الإحسان إلى الأقارب والأرحام:

أما الحث عليه ففي مثل قوله تعالى: ﴿ وإذ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تعبدونَ إلاَّ اللهَ وبالوالدين إحسانا وذِي القُربَى واليَتامى والمساكينِ وقولوا للناس حُسْنا ...﴾[سورة البقرة:٨٣] .

والآية وإن كانت تتحدث عن بني إسرائيل، فإنها تشمل المؤمنين بالأولى ؛ لأن العبرة بعموم اللفظ ، وقد خاطب الله تعالى المؤمنين بآيات عدة بأسلوب الأمر الصريح أو الترهيب الشديد، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ يا أيُّها الناسُ اتَّقوا ربَّكم الذي

(١) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٧/٥، وانظر روح المعاني ٧٠/٢٦/٩، والمفردات ص ١٩١ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٦٦/٣ .

خلقكم من نفسٍ واحدة وخَلق منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيرًا ونِساءً واتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحامَ إنَّ الله كان عليكم رقيبا ﴾[سورة النساء:١] .

وقوله سبحانه: ﴿ واعبُدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا وبالوالدين إِحساناً وبِذي القُربى واليتامى والمساكينِ والجارِ ذِي القربى والجارِ الجُنُب والصَّاحب بالجَنْب وابنِ السَّبيل وما ملكت أيمانُكم إنَّ الله لا يُحبُّ من كان مُختالاً فخُورا ﴾[سورة النساء:٣٦] .

وقوله سبحانه: ﴿ وآتِ ذا القربى حقَّه والمسكين وابنَ السبيل ولا تُبذِّر تبذيرا ﴾ [سورة الإسراء:٢٦] .

فهذه الأوامر الإلهٰية تلزم المؤمنين بالإحسان إلى أقاربهم، والإحسان اسم عام يشمل كل ما يكون فيه رضا لهم وبِرًا بهم وعطفا على أحوالهم وشئونهم، ولذلك أبهمه ليشمل كل مسمى الإحسان، جليله وحقيره، ولتذهب النفس في تفسيره أي مذهب، فإنها ستبر بذلك .

وقد نص الله تعالى على بعض صور الإحسان إليهم في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ وإذا حضَر القِسمةَ أولُوا القُربى واليتامى والمساكينُ فارزقُوهم منه وقولُوا لهم قولًا معروفا ﴾[سورة النساء:٨] .

فإن هذه الآية تأمر المؤمنين عند قسمة مواريثهم أن يصلوا أرحامهم ويتاماهم ومساكينهم من الوصية، فإن لم تكن وصية، وصل لهم من الميراث)(١) شيئا يرضون به، ويكسب في قلوبهم الود والمحبة .

وقد حث الله تعالى على مثل هذا العطاء في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿ إنَّ الله يأمُر بالعدلِ والإِحسان وإيتاءِ ذي القربى ...﴾[سورة النحل:٩٠] وأمرُ الله تعالى هذا يعني إعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه مهما كان، طالما أن هناك مقدرة لعموم الإيتاء المأمور به، الشامل لكل ما يمكن الإيتاء منه، والتنصيص عليه بعد الأمر بالإحسان، هو من ذكر العام بعد الخاص؛ لأن الإيتاء هو المراد من الإحسان، وإنما خص بالذكر لمزيد الاهتمام به(٢) .

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٤٩/٥ .

(٢) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٦٤ .

وقد سمى الله تعالى ما أمر به في هذه الآية "حقا" بمعنى أنهم يعطونه على سبيل الاستحقاق، لا على سبيل التفضل والامتنان الذي يثقل كواهل الآخذين، فقال سبحانه: ﴿ وءَاتِ ذَا القُربى حقَّه والمِسكينَ وابنَ السبيل ﴾[سورة الإسراء:٢٦] .

وقال جل شأنه: ﴿ فآتِ ذاَ القُربى حقَّه والمسكينَ وابنَ السَّبيل ذلك خيرٌ للذين يُريدون وجهَ اللهِ وأولئِك هم المفلحون ﴾[سورة الروم:٣٨] .

والحق الذي أثبته الله تعالى في هاتين الآيتين مجمل يفسَّر بكل ما يجب لهم من الصلة وحسن العشرة والبر، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه(١)، وهو الذي يعنيه الإحسان بكل معانيه وأبعاده .

قال القرطبي عند الآية الثانية: "واختلف في هذه الآية فقيل: إنها منسوخة بآية المواريث، وقيل: لا نسخ بل للقريب حق لازم في البِرِّ على كل حال، قال: وهو الصحيح، ثم نقل عن مجاهد وقتادة قولهما: صلة الرحم فرض من الله عز وجل، ونقل عن مجاهد رحمه الله قوله: "لا تقبل الصدقة من أحد ورحمه محتاجه"(٢) ثم قال: وقيل: المراد بالقربى أقرباء النبي صلى الله عليه وسلم، قال: والأول أصح، فإن حقهم مبين في كتاب الله عز وجل في قوله: ﴿ فأنَّ لله خُمُسَه ﴾الآية[سورة الأنفال:٤١] (٣).

تنويه القرآن الكريم بالواصلين لأرحامهم وأقاربهم:

ومع كون صلة الرحم والإحسان إلى الأقارب قدجعله الله تعالى حقا ثابتا لبعضهم على بعض،فإن الله تعالى قد بالغ في الثناء على الواصلين أرحامهم وأقاربهم، وبالتنويه بهم، ورتب على ذلك مثوبات جسيمة،يُنيلها الواصلين أرحامَهم في دار كرامته، وذلك كما في قوله جل شأنه: ﴿ والَّذين يَصلِون ما أَمر اللهُ به أن يُوصَل ويَخشَونَ ربَّهم

---

(١) انظر أنوار التنزيل للبيضاوي ص ٣٧٤- وجامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٤٧/١٠ .

(٢) لعله يقصد بذلك الإشارة إلى إثم المقصر في حق أرحامه، وليس المراد نفي القبول على الإطلاق؛ لأن هذا لا يعرف إلا بالوحي.

(٣) جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٣٥/١٤ .

ويخافون سوءَ الحساب ...﴾ إلى قوله: ﴿ أولئِك لهم عُقبى الدَّار * جنَّاتُ عدن يَدخلونها ومَن صلح من آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم والملائكةُ يَدخلون عليهم من كلِّ باب * سلامٌ عليكم بما صَبرتُم فنِعم عُقبَى الدَّار ﴾[سورة الرعد:٢١-٢٣]

وفي هذه الآيات من بالغ الثناء وكريم الوعد ما لا يفرِّط فيه إلا محروم .

ذم القاطعين أرحامهم وأقاربهم:

وذلك أن من فرط في اكتسابه بأن أضاع حقوق أقاربه، وضن عليهم بما يحتاجونه من متاع الحياة الدنيا، فإنه يكون قاطعا لرحمه، معرِّضا نفسه لغضب الله وسخطه، كما دل على ذلك الوعيد الشديد الوارد في القرآن المجيد، كقوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿ والذين يَنقضُون عَهدَ اللهِ من بعد مِيثقِه ويَقطعونَ ما أَمر اللهُ به أن يُوصلَ ويُفسدِونَ في الأرضِ أولئِك لهم الَّلعنةُ ولهم سوءُ الدَّار ﴾[سورة الرعد:٢٥] ففي هذه الآية وعيد شديد لمن يفرِّط في وصل أرحامه وأقاربه، إذ توعده الله تعالى بالطرد من رحمته حيث لعنه، وبسوء المصير عند القدوم إليه حيث هيأه له، وقد تكرَّر هذا الوعيد بأسلوب أقسى ففي سورة محمد يقول الله عز وجل: ﴿ فهل عَسَيتُم إن توليتم أن تُفسدوا في الآرضِ وتُقطِّعوا أرحامَكم * أولئِك الَّذين لَعنهم اللهُ فأصَمَّهم وأعمى أبصارَهم ﴾[آية:٢٢،٢٣] .

فإن في "هذه الآية إشعارا بأن الفساد في الأرض وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر، فهما جُرمان كبيران يجب على المؤمنين اجتنابهما"(١) حذرا من أن يحل بهم ما أوعد الله به القاطعين من العذاب الذي يحيق بمن يُطرد من رحمة الله المعبَّر عنه باللَّعن، ومن الصمم عن سماع الحق، وعمى البصيرة عن رؤيته واتباعه .

قال الحافظ ابن كثير(٢) عقب هذه الآية: «وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموما وعن قطع الأرحام خصوصا، قال: بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال» ثم دعَّم ذلك بالثابت من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مما سيأتي ذكر ما تيسر منه إن شاء الله تعالى .

---

(١) التحرير والتنوير ١١٣/٢٦ .

(٢) في تفسير القرآن العظيم ١٧٨/٤ .

تمثل خلق الإحسان

إلى الأقارب في النبي صلى الله عليه وسلم

أما إحسانه صلى الله عليه وسلم إلى أقاربه فهو إحسان عظيم، وبر كريم، وصلة متواصلة تفسر ما ينبغي أن تكون عليه الصلة والإحسان للأرحام والأقارب الذي أمر به القرآن الكريم وحث عليه، ويستوجب التأسي به والسير على نهجه فيه كما هو الحال في جميع ما شرعه الله تعالى في كتابه، أو شرعه صلى الله عليه وسلم لأمته، مما أوحى به الله تعالى إليه .

وقد كان الإحسان إلى الأقارب والأرحام خُلُقا عاما فيه صلى الله عليه وسلم، نشأ عليه وعُرِف به قبل البعثة، كما قالت له خديجة رضي الله عنها في قصة بدء الوحي: "إنَّك لتصل الرحم ..." ثم مازاده الشرع المطهر إلا توطيدا لهذه الصلة، ومسارعة إلى الإحسان والبر بأهلها، لكثرة ما حث الوحي الكريم به .

والشواهد والأدلة على ذلك كثيرة، وبسطها يولد الإطالة، وبحسب امرىء أن يعلم نماذج من ذلك لتكون دليلا على ما سواها فمن ذلك :

١ - إحسانه العظيم وبره الكريم وصلته الجليلة في هدايتهم إلى دين الله تعالى، وبذل جهده على إيصال ذلك إليهم، لما يورثُهم ذلك من سعادة سرمدية في الدنيا والآخرة .

وإن محاولته الجادَّة مع من ناصره وعضَّده في مكة المكرمة عمُّه أبو طالب الذي تقدم ذكره في الوفاء(١) دليل صدق على ذلك .

٢ - وكذلك ما جاء من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿ وأَنذِر عشيرَتك الأَقربين ﴾[سورة الشعراء:٢١٤] دعا رسول الله صلى الله

---

(١) تقدم ذكر ذلك ص٥٥١.

عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعم وخص، وقال: يابني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يابني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يابني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله غير أن لكم رحما سأصلها ببلالها(١) .

ومعنى ذلك أن كفركم وعدم قبولكم لدعوتي في الإيمان برسالتي لا يمنعني من صلة رحمكم في الدنيا، ولا أغني عنكم في الآخرة من الله شيئا(٢) .

وقد كان لإحسانه العظيم هذا، وحرصه الشديد ذاك أثر في هداية من كتب الله تعالى الهداية له، حيث أسلم جل أقربائه وأرحامه، وخذل آخرون كأبي جهل وأبي لهب وأبي طالب لحكمة أرادها الله تعالى وقضاها لا تخفى على ذوي الألباب .

٣ - ومع خذلانهم وصدهم عن سبيل الله ومعاداتهم له، فإنهم لم يحرموا من بره وإحسانه كما علمت من مبحث رحمته صلى الله عليه وسلم حيث أنظروا فلم يعجل لهم العذاب، ودعا الله تعالى أن يرفع عنهم ما أنزله الله تعالى بهم من القحط والجدب "لما استعصوا عليه صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى: ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾[سورة الدخان: ١٠، ١١] فأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد هلكت، قال لمضر ؟ إنك لجريء، فاستسقوا فسقوا ..."(٣) الحديث .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الشعراء ٦/١٤٠، ومسلم في الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ برقم ٢٠٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والبلال: هو الماء، والمعنى: سأصلها، شبه قطيعتها بالحرارة تطفأ بالماء وهذه تبرد بالصلة ا.هـ، رياض الصالحين ص ١٨١ .

(٢) انظر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحمد الصادق عرجون ٦/٣١٣ - ٣١٧ .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الدخان ٦/١٦٤ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

٤ - ولما فتح مكة لم يفعل كما يفعل الملوك حيث إنهم ﴿ إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ وإنما دخل وهو يقول: "اليوم يوم الرحمة» ثم دخل وقال: «إذهبوا فأنتم الطلقاء»(١) إلى غير ذلك من الإحسان الذي لا يفعله أحد يؤذى في داره، ويضطهد على دينه، ويخرج من بلده، إلا أن يكون صاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم .

إحسانه صلى الله عليه وسلم لمن تابعه وآمن به من أقربائه:

فإذا كان ألد أعدائه من أقاربه صلى الله عليه وسلم لم يحرموا من إحسانه وبره، فما الظن بمن تابعه وجاهد معه وكثّر سواده ؟

إن من كان كذلك لجدير بعظيم الإكرام والإحسان، وهو ما حدث منه صلى الله عليه وسلم بالفعل لأقاربه، والأدلة على ذلك كثيرة معلومة نذكر منها ما يلي:

١- منها ما جاء في برّه بعمه العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه في مواقف كثيرة ؛ ففي يوم بدر قال لأصحابه رضي الله عنهم: "من لقي منكم العبّاس فليكفّ عنه فإنه مكرَه"(٢) فأسرَه رجل من الأنصار(٣)، وكان العباس رضي الله عنه ينكر أن يكون هو الذي أسره ويقول: لقد أسرني رجل أجْلَح(٤) من أحسن الناس وجهه على فرس أبلق، ما أراه في القوم، فلما ادّعى الأنصاري ذلك قال له النبي صلى الله عليه وسلم: "اسْكت فقد أيّدك الله بملك كريم"(٥).

---

(١) كما تقدم، انظر ص٥٨٣ من الرسالة .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١٠/٤، والإمام أحمد في فضائل الصحابة برقم ١٧٨٢، وفي إسناده ضعف ولكن الخبر من باب السير الذي يقبل فيها مثله .

(٣) هو أبو اليَسر كعب بن عمرو بن غنم الأنصاري السُّلَمي، شهد العقبة وبدرا وغيرهما توفي سنة ٥٥ هـ، الإصابة ٢٢١/٤ .

(٤) الأجلح من الناس: هو الذي انحسر الشعر من جانبي رأسه. ا.هـ النهاية مادة (جلح) .

(٥) عزاه الهيثمي في المجمع ٧٩/٦ إلى أحمد في المسند ١١٧/١ والبزار، قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، غير =

فلما كان من الليل سهر النبي صلى الله عليه وسلم ليلته،فقال له بعض أصحابه: مايُسهرك يا نبي الله؟ قال: أنينُ العباس، فقام رجل من القوم فأرخى مِن وَثاقه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لي لا أسمع أنين العباس ؟ فقال رجل من القوم: إني أرخيت من وثاقه شيئا،فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "فافعل ذلك بالأسارى كلهم"(١).

٢- وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرم العباس بعد إسلامه ويعظِّمُه، فقد حدث ذات يوم أن أوذي العباس رضي الله عنه في أبيه،فصعد النبي صلى الله عليه وسلم على المِنبر ثم قال: "والذي نفسي بيده لا يدخل قلب رجل الإيمانُ حتى يحبَّكم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم" ثم قال: "أيها الناس من آذى العباس فقد أذاني،إنما عم الرجل صنو أبيه"(٢) . فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتأذَّى مما يتأذَّى منه العباس، وما ذلك إلا لعظم محبته له، وعظيم صلته له، حيث يشاركه السرور والحزن، مما يدل على كمال الصلة المعنوية منه صلى الله عليه وسلم لأقربائه، أما الحسية فقد تقدم ما يدل عليها في مبحث كرمه صلى الله عليه وسلم(٣) .

٣- ومن بِرِّه صلى الله عليه وسلم بأقاربه وإحسانه لهم، ما كان لحمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم،فإن أول لواء عقَده حين قدِم المدينة أعطاه لحمزة ليتجه إلى سِيف البحر — أي ساحله — في ثلاثين راكبا من المهاجرين،ليس فيهم من الأنصار أحد، فلقي أبا جهل بذلك الساحل في ثلثمائة راكب من أهل مكة، فحجز

= حارثة بن مضرب وهو ثقة، وانظر السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري ٢/٣٦٥، وزاد المعاد ١٨٣/٣. وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند ٢/١٩٤ أفاده العمري.

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ١/٥١٠، وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ص ١٩١ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٠٧، والترمذي في المناقب، باب مناقب العباس برقم ٣٧٥٨ وقال حسن صحيح، والحاكم في المستدرك ٣/٣٣٣ من حديث عبد المطلب بن ربيعة بن عبد المطلب .

(٣) انظر ص٦٢٧.

بينهما مجد بن عمرو الجهني، وكان موادِعا للفريقين، و لم يكن بينهم قتال(١) .

٤- ولماَّ وقف عليه حيث استشهد في أحد، فنظر إلى شيء لم يُنظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه فقال: "رحمة الله عليك فإنك كنتَ - ما علمتُ — فعولا للخيرات، وصولا للرحم، ولولا حزن من بعدك عليك لسرَّني أن أدعك حتى تحشر من أفواه شتى، أما والله مع ذلك لأمثِّلن بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعدُ بخواتيم النحل: ﴿ وإن عاقبتُم فعاقِبوا بمثلِ ما عُوقبتُم به ولئِن صَبرتُم لهو خيرٌ للصَّابرين ﴾[سورة النحل:١٣٦] .

فكفَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمسك عن ذلك"(٢) .

إحسانه صلى الله عليه وسلم وبِرُّه ببني عُمُومته:

أما إحسانه وبرُّه ببني عمومته على ذلك النحو الذي ندب الله تعالى إليه وأمر عباده به فهو كثير من فعله صلى الله عليه وسلم وقوله، ومن ذلك ما نذكره في الآتي:

١- ما كان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث احتضنه فربَّاه وأحسن تربيته، فلما شبَّ زوجه من ابنته أحبِّ الخلق إليه: فاطمة الزهراء رضي الله عنها، وفي ذلك من الدَّلالة على عِظم المكانة التي يتبوأُها علي رضي الله عنه في فؤاد النبي صلى الله عليه

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٠/٣ مع الروض الأنف، وصفة الصفوة ٣٧١/١، وذخائر العقبى ص ١٧٥-١٧٦، وقد اختلفوا في أول راية عقدها رسول الله عليه وسلم، فمن قائل إنها كانت لعبيدة بن الحارث وهم الأكثرون، وقائل إنها كانت لحمزة، قال ابن هشام: وذلك أن بعثته وبعثة عبيدة كانتا معا فشبه ذلك على الناس. انظر سيرته ٢٠/٣ .

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٩٢/٢، وصفة الصفوة ٣٧٥/١، وذخائر العقبى ص ١٨٠، وسيرة ابن هشام ١٧١/٣، وضعَّف الحافظ ابن كثير إسناده قال: لأن فيه صالح بن بشير المرِّي وهو ضعيف عند الأئمة قال: وقال البخاري: منكر الحديث، لكن الخبر أجمعت على ذكره كتب المغازي والسير، وانظر سيرة ابن هشام ١٧١/٣، وطبقات ابن سعد ١٣/٣-١٤، والاستيعاب بهامش الإصابة ٢٧٤/١، والإصابة ٣٥٤/١، وسبل الهدى والرشاد ٣٢٧/٤-٣٢٩ .

وسلم ما فيه، بحيث استوجبت تلك المكانة أن يُؤْثره بها على أبي بكر وعمر الّذيـن كانـا قد خطباها قبلُ.(١) ويعدُّ هذا الأمر أعظم صلة وأكرم برٍّ من النبي صلى ا لله عليه وسلم لابن عمه علي بن أبي طالب رضي ا لله عنه.

٢ـ غير أنه لم يقف عند هذا الحد؛ بل لقد وطَّد هذه الصِّلة بما أبانه لأمته من منزلته منه بطريق الإخبار، وذلك كقوله عليه الصلاة والسلام: "من كنت وليّه فعلي مولاه،اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه"(٢) .

٣ـ وقوله له: "أما ترضى أن تكون بمنزلة هارون من موسى ؟! غير أنه لا نبي بعدي"(٣).

---

(١) كما أخرج ذلك ابن سعد في الطبقات ١٩/٨ .

(٢) هذا الحديث عُد من الأحاديث المتواترة، حيث جاء عن اثنين وعشرين صحابيا منهم زيد بن أرقم، وعلي، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو هريرة، وعمار، وابن عباس، وبريدة، وابن عمر، وغيرهم، وأخرج رواياتهم أحمد في المسند ٨٤/١، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٢٨١/٤، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧٢، ٣٥٨/٥، والترمذي برقم ٣٧١٣ وصححه، والنسائي في الخصائص ص ٥١، وابن حبان ٤٢/٩ من الإحسان وغيره.

وأخرجه في كتب المتواترات السيوطي في قطف الأزهار المتناثرة ص ٢٧٧، ومحمد مرتضى الزبيدي ص ٢٠٥، والكتاني في نظم المتناثر ص ١٢٤، وأفرد له ابن عُقدة كتابا خاصا جمع فيه طرقه وألفاظه، وذكر الهيثمي في المجمع ١١٢/٩-١١٤، غالب طرقه .

(٣) قال ذلك لما خلّفه النبي صلى ا لله عليه وسلم وسلم على المدينة وخرج إلى غزوة تبوك، فقال علي رضي ا لله عنه: تخلّفني في النساء والصبيان ؟ فقال له النبي صلى ا لله عليه وسلم ...." الحديث الخ.

والحديث يعد أيضا من الأحاديث المتواترة حيث جاء عن نيِّفٍ وعشرين صحابيا، قال الكتاني في النظم ص ١٢٥: استوعبها ابن عساكر في نحو عشرين ورقة، وذكر السيوطي في قطف الأزهار تسعة،منهم: أبوسعيد، وأسماء بنت عميس، وأم سلمة، وابن عمر، وعلي، وجابر بن سمرة، وزيد بن أرقم، وسعد بن أبي وقاص، رضي ا لله عنهم، وأخرج رواية سعد البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن =

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة المنوهة بفضله رضي الله عنه وأرضاه.

٤- ومن ذلك إحسانه العظيم عليه بإبقاء بابه مفتوحا إلى المسجد مع أمره صلى الله عليه وسلم بسد سائر الأبواب غير بابه، حيث قال صلى الله عليه وسلم: "سدُّوا هذه الأبواب إلا باب علي ..."(١) .

٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نقول في زمن النبي صلى الله عليه وسلم: رسولُ الله خير الناس، ثم أبو بكر، ثم عمر، قال: ولقد أُوتي ابنُ أبي طالب ثلاث خصال لئن تكون لي واحدة منها أحب إلي من حُمُر النَّعَم؛ زوَّجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وولدت له، وسُدَّت الأبواب إلا بابه في المسجد، وأعطاه الراية يوم خيبر"(٢) .

= أبي طالب رضي الله عنه ٢٤/٥، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل علي بن أبي طالب برقم ٢٤٠٤، وأخرج بقية الروايات أحمد في المسند ١٨٢/١، وفي فضائل الصحابة برقم ٩٥٤، ٩٥٦، ٩٥٧، ٩٨٩، والنسائي في الخصائص ص ٣٨،٣٩، وذكر الهيثمي في المجمع ١١٤/٩،١١٥، كثيرا من طرقه عازيا ذلك إلى الطبراني في معاجمه الثلاثة، وإلى أحمد وأبي يعلى بطرق صحيحة وضعيفة .

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣٣١/١ بإسناد صحيح، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه من طرق أخرى فيها ضعف ١٧٥/١، ٣٦٩/٤، وفي الفضائل برقم ٩٨٥، وأخرجه النسائي في خصائص علي رضي الله عنه ص ٣٥ كما في التهذيب من حديث زيد بن أرقم، ولكنها تشهد للطريق الأولى عند أحمد وتزيدها قوة.

وله شاهد آخر من حديث سعد بن مالك موقوفا عند الطبراني في الأوسط وأبي يعلى والبزار وأحمد، وإسناد أحمد حسن كما قال الهيثمي ١١٧/٩ .

وأخرجه من الطريق الأولى عند أحمد أبو نعيم في الحلية ١٥٣/٤ مختصرا .

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة برقم ٩٥٥ وفي إسناده هشام بن سعد المدني وهو صدوق له أوهام، رمي بالتشيع كما قال في التقريب برقم ٧٢٩٤، وأخرجه في المسند ٢٦/٢ من طريقه أيضا، فالحديث ضعيف، لكن له شاهد عند الحاكم في المستدرك ١٢٥/٣ من حديث عمر رضي الله عنه وصحح إسناده .

وتعقبه الذهبي بعبد الله بن جعفر المديني وقال: إنه ضعيف . =

٦ـ وكان قد قال فيه ذلك اليوم: "لأعطينّ هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ويفتح الله على يديه"(١) .

وهكذا كان برُّه صلى الله عليه وسلم بجميع أقاربه، كان على هذا النحو إحسانا وإفضالا كما يدل لذلك قول عمته صفية بنت عبدالمطلب رضي الله عنها، في مرثاة لها فيه صلى الله عليه وسلم:

= وقضية سد أبواب الصحابة المشرعة إلى المسجد ثابتة من أحاديث كثيرة وهي وإن كان في بعضها ضعف، لكن يقوي بعضها بعضا، قال الحافظ في القول المسدد ص ٢١ بعد سياق الروايات المتعاضدة في هذا المعنى ما نصه: «فهذه الطرق المتظاهرة من روايات الثقات، تدل على أن الحديث صحيح دلالة قوية، قال: وهذه غاية نظر المحدث» ثم تعرّض لمخالفته للحديث الآخر المثبت هذه الخصوصية لأبي بكر المثبت في البخاري ١١٩/١، بلفظ: «سدُّوا عنّي كل خُوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر» فقال الحافظ: «وأما كون المتن معارضا للمتن الثابت في الصحيحين من حديث أبي سعيد، فليس كذلك ولا معارضة بينهما، بل حديث سد الأبواب غير حديث سد الخُوخ، لأن بيت علي بن أبي طالب كان داخل المسجد مجاورا لبيوت النبي صلى الله عليه وسلم، وأما سد الخوخ فالمراد به طاقات كانت في المسجد يستقربون الدخول بها، فأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم في مرض موته بسدها إلا خوخة أبي بكر وذلك إشارة إلى استخلافه قال: وظهر بهذا الجمع أن لاتعارض ...»

وقد دفع هذا التعارض أيضا الحافظ ابن كثير حيث قال في البداية والنهاية ٣٤٣/٧: وهذا لا ينافي ما ثبت في صحيح البخاري من أمره عليه الصلاة والسلام في مرض الموت بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب أبي بكر؛ لأن نفي هذا في حق علي كان في حال حياته لاحتياج فاطمة إلى المرور من بيتها إلى بيت أبيها فجعل هذا رفقا بها، وأما بعد وفاته فزالت هذه العلة، فاحتيج إلى فتح باب الصديق لأجل خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس إذ كان الخليفة عليهم بعد موته عليه الصلاة والسلام، وفيه إشارة إلى خلافته. ا.هـ .

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب علي رضي الله عنه ٢٣/٥، ومسلم في فضائله أيضا برقم ٢٤٠٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهذه رواية مسلم .

ألا يارسول الله كنتَ رجاءَنا   وكنتَ بنا بَرّاً ولم تك جافيا

إلى أن قالت:

صبرتَ وبلّغت الرسالة صادقا   ودُمت صليب الدين أبلجَ صافيا

فلو أن رب العرش أبقاك بيننا   سعدنا ولكن أمرُه كان ماضيا[1]

ويدل لذلك أيضا قول أبي طالب في لاميته المشهورة:

يلوذ به الهُلّاك من آل هاشم   فهم عنده في رحمة وفواضل

فهذه نماذج لبره صلى الله عليه وسلم وإحسانه لأقاربه رضي الله عنهم، في حياته وبنفسه الكريمة.

وهنا ينبغي أن يفهم أن هذا الإحسان والحب والبر بالأرحام والأقارب،لم يكن على حساب الحق أو على حساب أحد من المسلمين، وإنما كان لاستحقاقهم ذلك وأهليتهم له، فإنهم كانوا أكثر الناس التزاما بشرع الله، وأسرعهم استجابة وتسابقا إلى مرضاة الله تعالى، وأعظمهم نصرة لشرع الله تعالى.

فهذا حمزة بن عبدالمطلب يصرع شهيدا ويمثّل به أيّما تمثيل وذلك في ذات الله تعالى.

وجعفر بن أبي طالب نال نحو ذلك شهادة وتمثيلا في غزوة مؤتة.

وعلي رضي الله عنه كان الأسد الضرغام،والبطل المغوار،في كل المشاهد وميادين القتال إلا تبوك .

والعباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن الحارث كانا في مقدمة صفوف القتال في حنين،ولقد ثبت النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الوقعة العظيمة وما ثبت معه إلا قليل منهم العباس وأبو سفيان بن الحارث،وكانوا جميعا عرضة للخطر المحدق لقربهم من النبي صلى الله عليه وسلم المقصود بالذات من الأعداء.

وهذه فاطمة رضي الله عنها يرفض النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيها خادما مع شدة احتياجها لذلك كما مضى ذكره.

---

(١) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/٤٠ إلى الطبراني قال: وإسناده حسن .

إلى غير ذلك من الشواهد والأدلة على أنهم كانوا جديرين بكل عطاء وفضل وتنويه، ومع ذلك فلم يؤاثرهم النبي صلى الله عليه وسلم بحقوق المسلمين، بل أحرمهم حتى من وراثته، ومن الصدقة ـ الزكاة ـ لأنهم كانوا أهل بيت لا يريدون إلا وجه الله والدار الآخرة.

وهذا بعكس حال رؤساء الأمة الإسلامية اليوم وقبله،من إيثارهم أقرباءهم بنصيب الأسد من حقوق المسلمين الذين ائتُمِنوا عليها ليصل إلى كل ذي حق حقه عن طريقهم.

وهذه النماذج المتقدمة من بره صلى الله عليه وسلم وإحسانه بأقاربه وأرحامه،تقتضي التأسي به صلى الله عليه وسلم في الإحسان وصلة قرابته صلى الله عليه وسلم محبة للنبي صلى الله عليه وسلم ومتابعة له، وكان ذلك كافيا لأمته في صلة أقارب نبيهم والبر بهم والإحسان إليهم،لمقتضى وجوب التأسي به صلى الله عليه وسلم .

غير أنه عليه والصلاة والسلام لم يُعفِ الأمة من أن يوجّه لها حثا مباشرا، وحضاً بالغا على الإحسان إلى قرابته عليه والصلاة والسلام،ليبالغوا في ذلك فتقرَّ عينه بقرابته وأمته، لأن إكرام القرابة إكرام له صلى الله عليه وسلم، وذلك يَبعث على رضاه عليه والصلاة والسلام على المحسنين إليهم البارّين بهم، كما دل على ذلك ما تقدم ذكره غير بعيد من تأذّيه صلى الله عليه وسلم ممن يؤذي العباس رضي الله عنه الدالّ بمفهومه على رضاه عليه والصلاة والسلام عمن يَبَرُّه ويحسن إليه،ومن ذلك الحث:

١ـ قوله عليه الصلاة والسلام: "أما بعد، ألا أيُّها الناس فإنما أنا بشر يوشِك أن يأتي رسول ربي فأجيب،وأنا تارك فيكم ثقلين:أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به" فحثَّ على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: "وأهل بيتي،أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي" قال حُصَين بن سَبْرة أحد راويي الحديث عن زيد بن أرقم رضي الله عنه:

ومن أهل بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده، قال: ومن هم ؟ قال: هم آل علي،وآل عقيل،وآل جعفر

وآل عباس، قال: كل هؤلاء حُرِم الصَّدقة؟ قال: نعم،(١) .

٢ـ وفي رواية قال: "ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عز وجل، هوحبلُ الله من اتبعه كان على الهدى،ومن تركه كان على ضلالة ..."(٢) .

ونقل الإمام النووي عن العلماء قولهم: "سُمِّيا ثقلين لعِظَمهما وكبير شأنِهما، وقيل: لِثقل العمل بهما"(٣) .

وقال ابن الأثير: "سمَّى النبي صلى الله عليه وسلم القرآن العزيز وأهل بيته ثقلين، لأن الأخذ بهما والعمل بما يجب لهما ثقيل، وقيل: العرب تقول لكل نفيس ثَقَل، فجعلهما ثقلين إعظاما لقدرهما وتفخيما لشأنهما"(٤) .

٣ـ وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنِّي تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلُّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، وهو كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعِتْرتي (٥) أهل بيتي،لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلُفوني فيهما"(٦) .

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه برقم ٢٤٠٨، والدارمي في فضائل القرآن ٢/٤٣٢ .

(٢) هي إحدى روايات مسلم بالرقم المتقدم .

(٣) شرح مسلم ١٥/١٨٠ .

(٤) جامع الأصول ٩/١٥٩ .

(٥) عترة الرجل: أخص أقاربه، وهم هنا بنو عبد المطلب، وقيل: أهل بيته الأقربون وهم أولاده وعلي وأولاده. النهاية ٣/١٧٧ .

(٦) أخرجه الترمذي في المناقب، باب مناقب أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم ٣٧٨٨، وقال: حسن غريب .

وأخرجه أحمد في المسند ٤/٣٦٧، ٣٧٢ من حديثه وله شاهد عنده من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أخرجه في ٣/١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩، فهذه الروايات تشهد لرواية زيد وتقويها .

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحبّوا الله لما يغذوكم به،وأحبّوني لحبّ الله وأحبّوا أهل بيتي بحبّي"(١) .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة خاصة وعامة، وكلها تدل على عظيم حقوق قرابة النبي صلى الله عليه وسلم على أمة الإسلام،توجب لهم الرعاية والحسنى وزيادة .

وقد حمل بعض أهل التأويل قوله تعالى: ﴿ قُل لا أسألُكم عليه أجرًا إلا المودّة في القُربى ﴾[سورة الشورى:٢٣] على قرابته عليه الصلاة والسلام وقالوا إن المعنى: (لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودّوا قرابتي وأهل بيتي)(٢) .

ولا عجب أن تنال قرابته صلى الله عليه وسلم عنايته الكبيرة تنويها بمكانتهم وحثا على الإحسان إليهم، فإن ذلك إنما كان تبيانا للقرآن الكريم وإيضاحا لهداه، حيث أشاد بمكانتهم عند الله وأوجب العناية بهم.

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب الباب السابق برقم ٣٧٨٩، وقال: حسن غريب، وأبو نعيم في الحلية ٣/٢١١، والحاكم في المستدرك ٣/١٥٠، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في شعب الإيمان ١/٢٨٨، وفي مناقب الشافعي ١/٤٥، والإمام أحمد في فضائل الصحابة برقم ١٩٥٢، وفي إسناده عبد الله بن سليمان النوفلي وهو مقبول كما قال الحافظ في التقريب برقم ٣٣٧٢، وقال الذهبي عنه في الميزان برقم ٤٣٦٧: فيه جهالة وأخرج حديثه هذا .

(٢) وهذا تأويل مرجوح في تفسير الآية؛ لأن نظم الآيات يقتضي أن يكون المعنى: لا أسألكم على القرآن جزاء إلا أن تودّوني، أي تعاملوني معاملة الوِدّ، أي: غير معاملة العداوة لأجل القرابة التي بيننا في النسب القرشي .

وهذا ما ذهب إليه جمهور أهل التأويل كمجاهد وقتادة وجماعة،ومن قبلهم ابن عباس رضي الله عنهم.

وأما القول الأول فقد ذهب إليه علي بن حسين وعمرو بن شعيب والسدي، إلا أن ما ذهبوا إليه لا تصح فيه رواية عمن يعتد بفهمه كما قال الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير ٢٥/٨٣. وانظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٦/٢١-٢٤، وروح المعني ٩/٢٥/٣٠-٣٣ وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/١١١-١١٤ .

أما الاشادة ففي قوله جل ذكره: ﴿ إنّما يُريدُ الله ليذهبَ عنكم الرّجسَ أهلَ البيتِ ويُطهّركم تطهيرا ﴾[سورة الأحزاب:٣٣] .

وآل بيته صلى الله عليه وسلم هن أزواجه وأولاده وأسباطه.

إذ الآية تدل على أن لآل البيت هؤلاء مكانة عظيمة عند الله تعالى حيث خصّهم بهذه الإرادة الشرعية، وهي إرادة إذهاب الرجس وهو الذنب الذي يلوث الجسم بأقذار الخطايا الموجبة للإثم وتطهيرهم من ذلك تطهيرا بليغا.

والله تعالى يريد للمؤمنين كلهم ذلك، ولكنه يريد ذلك لأهل البيت على وجه الخصوص؛ لأنهم بيت النبوة الذين هم شامة الناس شرفا وفضلا واستمساكا بشرع الله المطهر.

ولذلك نص عليهم في هذه الآية للتنويه بهم وإظهار شرفهم على غيرهم.

وأما إيجابه العناية بهم فهو ما دل عليه فرض الله تعالى لهم ما يُغنيهم،وهو خمس الخمس من المغنم الوارد في قوله جل شأنه: ﴿ واعلموا أنّما غنِمتُم من شيءٍ فأَنّ لله خُمُسَه وللرّسولِ ولذِي القُربى ... ﴾[سورة الأنفال:٤١] .

فانتزع الله تعالى الخمس من المغنم، وأوجب لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم خمسه، وجعل ذلك مناطا بمن يلي قسمة الغنائم من إمام المسلمين أو نائبه.

وذلك لكي يسدوا حاجتهم، ويُغْنَوا عن التّطلع إلى أموال غيرهم، ولما كان ذلك كافيا لهم حرمتعليهم الزكاة التي هي أوساخ المال، وهم أناس أطهار، فلم تكن لا تليق بهم، غير أن هذا الحق قد ضاع بترك أئمة المسلمين جهاد الكافرين، فلم تَعُد هناك غنائم تقسم وتخَمّس، فتعرّضتالقرابة الشريفة اليوم كما تعرض غيرهم إلى الحاجة الماسة مع عفّتهم لأنهم لا يسألون الناس إلحافا، فيحسبهم الجاهلون أغنياء من التعفف، والله المستعان.

وقد كان السلف الصالح أحرص الناس على الإحسان إلى قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم على قرابتهم الخاصة كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: "أُرقُبوا

محمدا صلى الله عليه وسلم في أهل بيته"(١) .

وجاء أنه قال لعلي رضي الله عنه: "والله لَقرابةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي"(٢) .

وقال عمر بن الخطاب للعباس رضي الله عنهما: "والله لإسلامُك يوم أسلمتَ كان أحبَّ إلي من إسلام الخطَّاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله من إسلام الخطاب"(٣) .

قال الحافظ ابن كثير:

"فحال الشيخين رضي الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، قال: ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين رضي الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين"(٤) .

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢٦/٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين .

(٣) ذكره الحافظ بن كثير في تفسيره ١١٣/٤ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ١١٣/٤ .

الفصل الثاني

الأخــــلاق الاجتـماعيـة الـعـامــة

وفيه مباحث:

١ـ التَّحية بدءا وردا .

٢ـ الاستئذان وغض البصر .

٣ـ الضيافة .

٤ـ الإحسان .

تمهيد:

من أجلِّ المظاهر الأخلاقية، ما يظهر به المرء في مجتمعه من أدب في مخاطبته عند لقائه واجتماعه، وقدومه، وفراقه، وما يُرى به من رحمة للصَّغير، وتوقير للكبير، وعطف على الأرامل والأيتام وضعفاء الرجال، وما يُعرف عنه من طيب المجاورة، وكرم الضيافة، ورعاية الصداقة، إلى غير ذلك مما تعارفت الأمم على حسنه، ومدحت المتحلين به، وما يعرف به مدى تخلق المجتمع وتحضره ومكانته.

وتحلي المرء بكريم السجايا، وجميل الخصال، وزكاء الخلق في مجتمعه، يؤثر عليه إيجابيا في اقتباس تلك الأخلاق منه والاقتداء به، لما جُبلت عليه النفوس من حب الفضيلة وكراهية الرذيلة، ومحبة أهل الفضل ومقت أهل السوء والفحشاء، وما فطرت عليه من التأثر بما أعجبت به من خير أو شر.

وإذا كان هذا الأمر تحبِّذه العقول، فهو أيضا مما وردت به النقول عن كل نبي ورسول، وشريعتنا الإسلامية المحمدية، قد احتوت على الحظ الأوفر والنصيب الأكبر من العناية بهذه الأخلاق الاجتماعية كعنايتها في كل الأخلاق الإسلامية.

فورد في كتاب الله تعالى وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الفعلية والقولية ما يجلُّ عن الحصر في مثل هذا الفصل الضِّمني.

وسأذكر جملة صالحة من الأخلاق الاجتماعية الواردة في كتاب الله تعالى وتمثلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم في مباحث هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

المبحث الأوَّل

(الـتَّـحـيَّـة بدءاً ورداً)

التحية؛ على وزن تفعلة، مشتقة من حيي، والأصل تَحيية، مثل تَرضية وتَسمية، فأدغموا الياء في الياء لتوالي الأمثال، ومعناها؛ المُلك أو البقاء(١) فهي تعني الدعاء بالحياة.

قال الراغب: "التَّحية أن يقال: حيَّاك الله، أي جعل لك حياةً، وذلك إخبار ثم يجعل دعاء، ويقال: حيَّا فلان فلانا تحية،إذا قال له ذلك، قال: وأصل التحية من الحياة، ثم جعل ذلك دعاء تحية، لكون جميعه غير خارج عن حصول الحياة، أو سبب حياة إما في الدنيا وإما في الآخرة"(٢) .

منزلة هذا الخلق في الإسلام:

والتحية خلق إسلامي رفيع يبعث على التَّحابِّ والتراحم بين أفراد المجتمع المسلم، وهي تؤنس الداخل بتأمينه إن كان لا يعرفه، وباللُّطف له إن كان معروفا، ولذلك ندب الله تعالى عباده إلى تبادلها، ونوه بفضلها، في غير ما آية .

حث القرآن الكريم على التحية:

أما حثه وندبه سبحانه وتعالى عليها فهو ما جاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ياأيُّها الذين آمنُوا لا تَدخلوا بيوتًا غيرَ بيوتِكم حتَّى تَستَأنِسوا وتُسَلِّموا على أهلِها ذلكم خيرٌ لكم لعلَّكم تذكَّرون ﴾[سورة النور:٢٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ ... فإذا دخلتُم بُيوتاً فسلِّموا على أنفسِكم تَحِيَّةً من عندِ الله مباركةً طيِّبة كذلك يُبَيِّنُ اللهُ لكم الآياتِ لعلَّكم تعقلون ﴾[سورة النور:٦١] .

فيأمر الله تعالى عباده في هاتين الآيتين بأن يسلِّموا على من يدخلون عليهم من أقارب أو أباعد، بل حتى على الإنسان نفسه إذا لم يكن في البيت أحد، فيقول: السلام علينا

---

(١) تاج العروس ١٠/١٠٦ مادة (حيي)، وجامع أحكام القرآن للقرطبي ٥/٢٩٧ .

(٢) المفردات ص ١٤٠ مادة (حيي) .

وعلى عباد الله الصالحين، كما دلت عليه الآية وقال به أهل العلم(١) .

لأن التحية شأنها عظيم عند الله تعالى كما دل عليه وصفه تعالى لها بقوله: ﴿ مباركةً طيبة ﴾ .

قال في التحرير والتنوير(٢): "وإنما كانت هذه التحية مباركة لما فيها من نية المسالمة وحسن اللقاء والمخالطة، وذلك يوفِّر خير الأخوة الإسلامية ... قال: ووجهُ طِيبِ التَّحية أنها دعاء بالسلامة وإيذان بالمسالمة والمصافاه" .

وهذه التحية المباركة الطيبة هي السلام الذي نصت عليه الآية الأولى والتي بينها النبي صلى الله عليه وسلم بما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لما خلق الله آدم وطولُه ستون ذراعا، قال: اذهب فسلِّم على أولئك؛ لنفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يُحَيُّونك فإنها تحيَّتُك وتحيَّةُ ذُرِّيتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، قال: فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلقَ ينقُص بعده حتى الآن"(٣) .

فلفظ: السلام ..إلخ هي التحية التي أرادها الله تعالى واختارها لبني آدم، وهو مشتق من السلامة، فهو دعاء بالسلامة وتأمين بالسلام، لأنه إذا دعا له بالسلامة فهو مسالم له، فكان الخبر، كناية عن التأمين، فهو دعاء تُرجَى إجابته وعهد بالأَمن يجب الوفاء به(٤).

ولما كان السلام دعاءا وتأمينا، كان على المسلَّم عليه أن يكافِئَه على دعائه، ويبادله الأمن الذي أشعره به، ليعمَّ الإخاء والتَّحاب بين المؤمنين وتسود الأخلاق الحميدة في

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣١٩/١٢ .

(٢) ٣٠٥/١٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام ٦٢/٨، ومسلم في السلام، باب تسليم الراكب على الماشي برقم ٢١٦٠ .

(٤) انظر التحرير والتنوير ٣٠٤/١٨ .

صفوف المجتمع. وذلك بالرد عليه بأحسن من تحيته أو مثلها على الأقل .

ولئن كان ابتداء السلام في الأصل مندوبا، فإن الرد واجب حتمي، كما أفاده قول الله تعالى: ﴿ وإذا حُيّيتم بتحيَّةٍ فحيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها إنَّ الله كان على كل شيءٍ حسيبا ﴾[سورة النساء:٨٦] .

وهنا يتجلى حرص الإسلام على سمو الخلق وإشاعة التَّواد والتراحم، حيث لم يكتف الشارع بالرد بالمثل، وإنما ندبهم إلى أن يكون الرد أحسن من الابتداء، لما في ذلك من إظهار الفرحة والأنس والصفاء، وذلك ما يريده الإسلام من متَّبعيه، فيقول في جواب السلام عليكم: وعليكم السلام ورحمة الله، فإذا زاد المسلم: (ورحمة الله) زاد الراد:(وبركاته) .

فإن انتهى المسلم بالسلام إلى غايته، كانت الزيادة الحسنة بالواو في قوله: وعليكم إلخ فإن لم تطب نفسه بالزيادة،لشيء في نفسه عليه أو نحوه، فلا أقلَّ من أن يرد التَّحيَّة بالمثل وذلك حتم عليه، لأنه مكافأة وإثابة على الإحسان، فلا يحل تركه أو النقص عن المثل لما في ذلك من الإهانة والإزدراء بالمسلم، وذلك حرام .

"ولذا ندب للجمع المسَّلم عليهم أن يجيبوا كلهم إظهارا للإكرام ومبالغة فيه وإن كان الفرض يسقط ببعضهم"(١) .

كما أن في تركه إعراضا عن هذه التَّحية المباركة الطَّيبة التي فضَّلها الله تعالى واختارها لعباده دون صنوف التَّحيات التي كانوا يتبادلونها في محاوراتاهم ولقاءاتهم كقولهم: عِم صباحا، وحَّياك الله، ونحو ذلك،فالإعراض عن ذلك يكون إعراضا عن الفضيلة .

الأدلة على فضيلة التحية بالسلام:

ومما يدل على فضيلة السلام:القرآن والأخبار والمعقول؛

أما القرآن فلأن الله تعالى سمَّى نفسه به، فإنه سبحانه (الملك القدُّوس السلام ..) وسلَّم به على عباده في عدة مواطن،كما في قوله سبحانه: ﴿ يا نوحُ اهبط بسلام منَّا

---

(١) محاسن التأويل ٣٤٥/٥ .

وبـركاتٍ عليكَ وعلى أُمَمٍ ممَّن مَعك ﴾[سورة هود:٤٨] قال الفخر الرازي: (والمراد منـه — أي الأمم المذكورة ـ أمة محمد صلى الله عليه وسـلم)(١)،ومنـه قولـه سـبحانه:﴿والسَّـلام على مَن اتَّبع الهدى﴾[سورة طه:٤٧] .

وقوله سبحانه: ﴿ قُل الحمدُ لله وسلامٌ على عبادِه الَّذين اصْطَفى ﴾[سورة النمل:٥٩].

ومما دل على فضله أيضا أن الله تعالى يُحيِّي به أهل الجنة في الجنـة كمـا قـال سـبحانه: ﴿تحيَّتُهم يوم يَلقونه سلامٌ وأعدَّ لهم أجـرًا كريمـا﴾[سورة الأحزاب:٤٤]، وقـال جـل شـأنه: ﴿سلامٌ قولا من رب رحيم﴾[سورة يس:٥٨] .

وتحيي الملائكة أهل الجنة به فتقول لهم ما قاله الله تعـالى: ﴿ سـلامٌ عليكـم بمـا صَـبرتُم فنِعم عُقبى الدَّار ﴾[سورة الرعد:٢٤] .

وهو أيضا تحية أهل الجنة في الجنة فيما بينهم كمـا قـال سـبحانه: ﴿ لا يَسـمعون فيهـا لغواً ولا تأثِيما * إلَّا قيلاً سلامًا سلاما ﴾[سورة الواقعة:٢٥،٢٦] .

ومما دل على فضله أيضا أن الله تعالى حَيَّا بـه أنبيـاءه ورُسلَه كقولـه لنـوح: ﴿ سـلامٌ على نوحٍ في العالمين ﴾[سورة الصافات:٧٩]، وقوله لإبراهيم: ﴿ سلامٌ على إبراهيم ﴾[سـورة الصافات:١٠٩]، وقوله ليحيى: ﴿ وسلامٌ عليه يومَ وُلِد ويَوم يَموتُ ويَومَ يُبعثُ حيًّا ﴾ [سـورة مريم:١٥]، وقوله في عيسى: ﴿ والسَّلامُ عليَّ يوم وُلِدتُّ ويوم أموتُ ويـوم أُبْعَـثُ حيـا ﴾ [سورة مريم:٣٣]، وقوله لموسى وهارون: ﴿ سلامٌ على موسـى وهـارون ﴾[سـورة الصافـات ١٢٠] وقوله لجميع أنبيائه ورسـله: ﴿ وسـلامٌ علـى المرْسَلين*والحمـدُ لله ربِّ العـالمين ﴾[سـورة الصافات:١٨١،١٨٢]

ومن الدلائل على فضل السلام أيضا أن الله تعالى لما ذكـر تعظيـم محمـد عليـه الصـلاة والسلام قال: ﴿ إنَّ الله وملائكتَه يُصلُّون على النَّبي ياأيُّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تَسليما ﴾[سورة الأحزاب:٥٦] . فقرن التسليم بالصلاة عليه، وأوجبها على المؤمنين كما هـو مقتضى الأمر بها، وفي ذلك من الدلالة على فضله ما لا يخفى إذ لو كانت هناك تحية

---

(١) التفسير الكبير ٢١٠/١٠ .

أعظم شأنا منه لذكرها لأن المقام مقام تعظيم وتشريف .

فهذه الدلائل القرآنية الكثيرة واضحة في فضل السلام وعلو شأنه عند الله تعالى.

أما ما يدل على فضله من الأخبار فمنها ما جاء من حديث عبد الله بن سلَام رضي الله عنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه(١)، وقيل: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبتُّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذَّاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «أيُّها الناس أفشُوا السلام، وأطعِموا الطَّعام، وصلُّوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام» (٢) .

فأفاد قول النبي صلى الله عليه وسلم هذا أن من أسباب دخول الجنة بسلام إفشاء السلام، وقرنه بإطعام الطعام والتهجد المعلوم فضلهما مما تقدم وغيره .

وأما ما يدل على فضيلته من جهة المعقول فهو ما بينه الفخر الرازي(٣) بقوله:

الأول: " قالوا: إن تحية النصارى وضع اليد على الفم، وتحية اليهود بعضهم لبعض الإشارة بالأصابع، وتحية المجوس الإنحناء، وتحية العرب لبعضهم أن يقولوا: حياك الله وللملوك: أنعم صباحا، وتحية المسلمين بعضهم لبعض أن يقولوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ولا شك أن هذه التحية أشرف التحيات وأكرمها – يعني لما تعنيه من الإشعار بالأمن والدعاء بالسلام والرحمة والبركة - .

الثاني: أن السلام مشعر بالسلامة من الآفات والبِليَّات، ولا شك أن السعي في تحصيل الصون عن الضرر أولى من تحصيل النفع .

الثالث: أن الوعد بالنفع قد يقدر الإنسان على الوفاء به، وقد لا يقدر، أما الوعد بترك

---

(١) أي: ذهبوا إليه مسرعين .

(٢) حديث صحيح تقدم ص ٣٢٦.

(٣) في تفسيره الكبير ٢١١/١٠ .

الضرر فإنه يكون قادرا على الوفاء به لا محالة والسلام يدل عليه، فثبت أن السلام أفضل أنواع التحية" .

فثبت بهذا أفضلية تحية الإسلام على غيرها من التحيات التي يجري تبادلها قديما وحديثا، فمن أعرض عنها فإنما يعرض عن فضيلة سهلة المنال،كثيرة النوال كما دل على ذلك أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الآتي بيانها قريبا .

تطبيق النبي
صلى الله عليه وسلم لخلق التحية

وحيث كانت تحية الإسلام بتلك المثابة من الفضل، فلا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون أولى الناس بالمبادرة إلى التحلي بها، وبذلها في كل حال يدعو إلى أن تبذل فيه وتتبادل، وذلك ما حفظته لنا كتب شمائله عليه الصلاة والسلام ودواوين سنته الكثيرة مما ثبت عنه بالنقل الصحيح.

فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يسلِّم على الصغير والكبير والذكر والأنثى والمسلم والكافر والبر والفاجر:

١ـ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه "مر على صِبيان فسلَّم عليهم، وقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله"(١) .

٢ـ وعنه رضي الله عنه قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح برؤسهم"(٢) .

٣ـ وعنه رضي الله عنه قال: "مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم وأنا مع الصِّبيان فسلَّم علينا ثم أخذ بيدي فأرسلني برسالة"(٣) .

٤ـ وعن أسماء بنت يزيد(٤) رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بنسوة

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب التسليم على الصبيان ٦٨/٨، ومسلم في السلام، باب استحباب السلام على الصبيان برقم ٢١٦٨ .

(٢) أخرجه ابن حبان برقم ٢١٤٥ كما في موارد الظمآن ، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠٤، وفي شرح السنة برقم ٣٣٠٦، وعزاه الهيثمي في المجمع ٣٧/٨ إلى أحمد والبزار قال: ورجالهما رجال الصحيح .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه برقم ٢٤٨٢، وأبو داود في الأدب، باب في السلام على الصبيان برقم ٥٢٠٣، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠٥ .

(٤) ابن السكن الأوسية الأنصارية رضي الله عنها، كانت تلقب بخطيبة النساء، شهدت وقعة اليرموك، وقتلت يومئذ تسعة من الروم بعمود فسطاطها وعاشت بعد ذلك دهرا، انظر الإصابة ٢٣٤/٤ وبهامشها الاستيعاب ٢٣٧/٤ .

فسلم عليهن"(١) .

٥- وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين وعبَدة الأوثان واليهود، وفيهم عبدالله بن أبيّ بن سلول... فسلم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقف فنزل فدعاهم إلى الله(٢) ...الحديث.

٦- وكان يكاتب ملوك الأرض الكفرة من الأكاسرة والقياصرة وغيرهم فيسلم عليهم في رسائله،كما قال في رسالته لهرقل ملك الروم: "السلام على من اتبع الهدى"(٣) .

إلى غير ذلك من الكتب والأمثلة الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم كان يسلِّم على كل من لقيه أو كتب إليه أو وفد عليه، ولو كان في الأحوال التي قد لا يرجو فيها إجابة من أحد .

٧- كما دل على ذلك حديث المقداد رضي الله عنه في قصة شُربه اللَّبنَ إذ فيه: "كنَّا نرفع للنبي صلى الله عليه وسلم نصيبه من اللَّبن فيجيء من الليل فيسلّم تسليماً لا يُوقِظُ نائما ويُسمِعُ اليقظانَ، قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فسلَّم كما كان يسلم..."(٤) .

٨- وإذا سلم لم يكتف بسلام واحد وإنما يسلِّم ثلاثا كما دل عليه حديث أنس الآتي ذكره في الاستئذان(٥) ، وفيه : "... وإذا أتى على قوم فسلَّم، سلَّم عليهم ثلاثا" .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في السلام على النساء برقم ٥٢٠٤، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في التسليم على النساء برقم ٢٦٩٨، وابن ماجه في الأدب برقم ٣٧٠١، والبغوي في الأنوار برقم ٤٠٦ وقال عنه الترمذي: حديث حسن .

(٢) متفق عليه تقدم في مبحث صبره صلى الله عليه وسلم ص٤٩٤.

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب كيف يكتب الكتاب إلى أهل الكتاب ٧٢/٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

(٤) أخرجه مسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف برقم ٢٠٥٥ .

(٥) ص٧٩٦.

يعني عند الاستئذان وعند الدخول وعند إرادة الخروج، أو ذلك عندما يريد إسماع المستأذن كما في قصة تسليمه على سعد بن عبادة رضي الله عنه الآتي ذكرها في الاستئذان أيضا .

٩- وكان عليه الصلاة والسلام إذا صافح الرجل لم ينزع يده من يده حتى يكون هو الذي ينزع يده، ولا يصرف وجهه عن وجهه حتى يكون هو الذي يصرف وجهه عن وجهه، ولم يُر مقدِّما ركبتيه بين يدي جليس له".

كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه(١) .

على هذا النحو كان النبي صلى الله عليه وسلم يسلِّم ويُحَيِّي أصحابه وأمته ومن لقي من المسلمين وغيرهم، وذلك لما كان عليه من عظمة الأخلاق وكمال التودد إلى الناس.

والدلائل على تسليمه صلى الله عليه وسلم لكل من لقيه أو دخل عليه من قريب أو بعيد صغير أو كبير، ذكر أو أنثى، مسلم أو كافر، بار أو فاجر، لا تحصى إذ لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يترك ذلك في كل حال يندب فيه التسليم، فجمعُ ذلك من كل الوقائع والأحوال يطول .

والأجدر بالعناية هنا هو ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من الحث عليه وبيان فضله، وأحكامه وآدابه فإن في ذلك غُنية عن تتبع وقائع الأحوال الكثيرة؛ لأن: القول بالفعل يعدل، كما قال الشاعر.

وأيضا فإن في أقواله صلى الله عليه وسلم دلالة كاملة على تطبيقه لما يدعو أمته إليه، فإنه قد كان أول من يبادر فيتمثل ما يدعو إليه من شرائع الدين كما هو معلوم. ثم إن الحاجة ماسة إلى ذكر أقواله في ذلك؛ لما لها من كبير الفائدة في نفوس القارئين والسامعين، إذ الحث فيها والدعوة إلى تطبيقها واضح وجلي فلا يسع المسلم مخالفتها ولا التهاون بها.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة، باب رقم ٤٦، برقم ٢٤٩٠، وابن ماجه في الأدب، باب إكرام الرجل جليسه برقم ٣٧١٦، والبيهقي في الدلائل ٣٢٠/١، وابن سعد في الطبقات ٣٧٨/١، والبغوي في الأنوار برقم ٣٧٩ .

ومداره على زيد القُمِّي وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٢١٣١، وكما قال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢٤٩/٢ برقم ١٢٩٨، ولكن للحديث شواهد تجبر ضعفه وترقيه إلى مرتبة الحسن، انظر السلسلة الصحيحة للألباني برقم ٢٤٨٥ .

حثه صلى الله عليه وسلم على السَّلام وإفشائه:

فمما ورد من الحث عليه، الحث على إفشائه بين الناس ومن ذلك:

١- ما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الإسلام خير؟ قال: "تُطعم الطَّعام، وتقرِئُ السلام على من عرفت ومن لم تعرف"(١) .

٢- وما رواه البراء بن عازب(٢) رضي الله عنه قال: "أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبع: بعيادة المريض، واتِّباع الجنائز، وتشميتِ العاطس، ونصر الضَّعيف، وعونِ المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسِم"(٣) .

٣- وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "حقُّ المسلم على المسلم ست» قيل ما هن يا رسول الله؟ قال:«إذا لَقيتَه فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمِد الله فشمِّته، وإذا مرِض فعُده، وإذا مات فاتَّبعه"(٤) .

٤- وما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلون الجنة حتى تُؤمنوا، ولا تُؤمنوا(٥) حتى تحابُّوا، أولا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب السلام للمعرفة وغير المعرفة ٦٥/٨، ومسلم في الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام برقم ٣٩ .

(٢) ابن الحارث بن عدي الأنصاري الأوسي، صحابي ابن صحابي، غزا مع النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة غزوة، واستُصغِر يوم بدر، فرده النبي صلى الله عليه وسلم كما رد ابن عمر توفي سنة ٧٢ هـ، في إمارة مصعب بن الزبير، انظر طبقات ابن سعد ٣٦٤/٤ وتهذيب الأسماء ١٣٢/١، والإصابة ١٤٢/١ .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب إفشاء السلام ٦٥/٨، وفي مواضع أخرى، ومسلم في اللباس ٢٠٦٦ .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز ٩٠/٢ ومسلم في السلام، باب من حق المسلم على المسلم رد السلام برقم ٢١٦٢ .

(٥) قال في شرح مسلم: هكذا هو في جميع الأصول والروايات (ولا تؤمنوا) بحذف النون من آخره، وهي لغة معروفة صحيحة، ا.هـ، ٣٦/٢ .

تحابيتم؟ أفشوا السلام بينكم"(١) .

فدل الحديث الأول على أن إفشاء السلام على من يعرف المرء ومن لا يعرفه هو إحدى الخصلتين اللتين أجاب فيهما النبي صلى الله عليه وسلم عن خيرية الإسلام، وذلك لما في إفشائه من التأنيس وزوال الاستيحاش بين المسلمين، فيؤدي ذلك إلى أن يكون المؤمنون كلُّهم أخوةً متحابين، وذلك ما يريده الله تعالى من عباده المؤمنين حيث جعلهم كلهم أخوة ﴿ إنَّما المؤمنون أُخوة ﴾[سورة الحجرات:١٠]، وجعل الصلة بينهم أقوى من صلة النسب بل قطع صلة النسب عندما تنقطع صلة الإيمان ﴿ لا تَجِد قَوماً يُؤمنونَ بالله واليوم الآخِرِ يُوادُّون من حادَّ الله ورسولَه ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إِخوانَهم أو عشيرَتَهم ...﴾[سورة المجادلة:٢٢] .

ولما كان إفشاء السلام يثمر التَّحاب بين المسلمين، جعله النبي صلى الله عليه وسلم من الحقوق الاجتماعية فيما بينهم، كما في حديث أبي هريرة: "حق المسلم على المسلم ست ..." ومعنى هذا:

أن عدم إفشائه يؤدِّي إلى ضياع هذا الحق الاجتماعي العظيم، وذلك دليل على تفشِّي البغضاء بينهم، وعدم تراحم أبنائه، فلا سبيل لهم إلى استرجاع المودة والتراحم إلا بإفشاء السلام بينهم على الكبير والصغير، والمعروف وغيره، فيشاطر كل امرىء أخاه التحيَّة، فتدخل المحبة ويسود الوئام، ولهذا ندب النبي صلى الله عليه وسلم إلىالإكثار منه عند كل تلاق وإن لم يطل الفراق. فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

٥ ـ "إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه، فإن حالت بينهما شجرةٌ أو جِدار أو حجر ثم لقيه فليسلم عليه أيضا"(٢) .

٦ـ ورغب في ذلك ببيان أجر السلام وثوابه العظيم فقد جاء رجل إلى النبي صلى الله

---

(١) أخرجه مسلم وتقدم تخريجه ص ٢٠١ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب الرجل يلقى الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه ؟ برقم ٥٢٠٠، والبخاري في الأدب المفرد برقم ١٠١٤ وإسناده صحيح كما بينه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٨٦ .

عليه وسلم فسلم عليه وقال: "السلام عليكم" فرد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وقال: عشر، ثم جاء آخر فقال: "السلام عليكم ورحمة ا لله" فرد عليه رسول ا لله وقال: عشرون، ثم جاء آخر فقال: "السلام عليكم ورحمة ا لله وبركاته" فرد عليه رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وقال: ثلاثون(١) .

فبين صلى ا لله عليه وسلم أن في كل جملة من جمل السلام الثلاث:عشرُ حسنات، وتلك ثلاثون حسنة ينالها المرء في كلمة يسيرة فهي غنيمة**عظيمة**لمن كان من أهل التوفيق، وهذا الأجر الوافر دليل على عِظم مكانة هذه الكلمة عند ا لله تعالى. ولذا كان البادىء بالسلام أولى الرجلين با لله تعالى.

٧ـ فقد روى أبو أمامة رضي ا لله عنه قال: قيل يا رسول ا لله: الرجلان يلتقيان أيهما يبدأ بالسلام؟ قال: أولاهما با لله"(٢) أي أقربهما إلى رحمة ا لله تعالى"(٣) .

تبينه صلى ا لله عليه وسلم لأحكام السلام بدءًا وإجابة:

ذلك طرف من حث النبي صلى ا لله عليه وسلم على السلام بأسلوبي الحض والترغيب.

أما تبيينه لأحكامه وآدابه فوارد من أحاديث كثيرة بدءا وإجابة:

أ ـ آداب البدء بالسلام :

وهي آداب كثيرة وأحاديثه كثيرة كذلك، نذكر من ذلك:

١ـ ما رواه أبو هريرة رضي ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال: "يسلِّم

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كيف السلام برقم ٥١٩٥، والترمذي في الاستئذان، باب ما ذكر في فضل السلام برقم ٢٦٨٩، وقال: حسن صحيح غريب وهو من حديث عمران بن حصين رضي ا لله عنه،

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب فضل من بدأ بالسلام برقم ٥١٩٧، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في فضل الذي يبدأ بالسلام برقم ٢٦٩٤، وقال: حديث حسن .

(٣) عون المعبود ١٠٣/١٤ .

الرَّاكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير"(١) .

ففي هذا أدب عظيم يهدف إلى التواضع فضلا عن التحاب والتآلف بين المسلمين.

٢- ومن ذلك ما رواه هو رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلِّم فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلِّم، فليست الأولى بأحق من الثانية"(٢) .

وفي هذا الحديث أدب آخر وهو التسليم عند الانصراف لأنه "إن كانت التسليمة الأولى إخبارا عن سلامتهم من شره عند الحضور، فكذلك الثانية إخبار عن سلامته من شره عند الغيبة، وليست السلامة عند الحضور أولى من السلامة عند الغيبة بل الثانية أولى منها"(٣) لأنه قد يكون سمع منهم ما لا يودون إشاعته من أحوالهم وأسرارهم، فإذا سلم عليهم اقتضى سلامه الإشعار بالأمن مما لا يودون إشاعته من أحوالهم وأسرارهم، فإذا سلم عليهم اقتضى سلامه الإشعار بالأمن مما لا يودون إشاعته، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: فليست الأولى بأحق من الثانية، يعني أنهما في الحق سواء .

٣- ومنه ما رواه جابر بن سليم الهُجيمي(٤) قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: عليك السلام يارسول الله، قال: "لا تقل عليك السلام فإنَّ عليك السلام

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب بدء السلام ٦٢/٨، ومسلم في السلام، باب تسليم الراكب على الماشي برقم ٢١٦ .

(٢) أخرجه ابو داود في الأدب، باب في السلام إذا قام من المجلس برقم ٥٢٠٨، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في التسليم عند القيام وعند القعود برقم ٢٧٠٦ وقال: حديث حسن، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٣٠/٢، ٤٣٩، وابن حبان ٣٥٨/١ الإحسان، .

(٣) تحفة الأحوذي ٤٨٥/٧ .

(٤)نسبة إلى أثمار بن الهجيم بن عمرو بن تميم، يكنى أبا جرى، له صحبة، روى عنه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود والترمذي والنسائي، ولم أجد تاريخ وفاته، انظر طبقات ابن سعد ٤٣/٧، والإصابة ٢١١/١، ٣٢/٤، والاستيعاب بهامشها ٣٧/٤، وتهذيب اتهذيب ٥٤/١٢ .

تحية الموتى، إذا سلمت قل: سلام عليك، فيقول الراد: عليك السلام"(١) .

وفي هذا أدب عظيم إلى حسن الخطاب بالسلام والخروج به عن العادة التي كان أهل الجاهلية جارين عليها حيث كانوا يفرقون في تحياتهم بين الأموات والأحياء، فيقدمون اسم الميت على الدعاء كما قال شاعرهم:

عليك سلامُ الله قيسَ بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما

فما كان قيس هُلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدّما

وقول الآخر:

عليك سلام من أمير وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

فكره النبي صلى الله عليه وسلم أن يحيِّي بتحية الموتى جريا على العادة التي كانوا عليها من التفرقة، ومن كراهته لذلك لم يرد عليه السلام(٢)، وذلك لأن السلام من شأنه أن يظهر الود والصفاء، وإذا سمع المسلم عليه هذا الأسلوب نفر منه فكان سببا للشحناء والبغضاء .

وليس في ذلك تشريع لصيغة خاصة بتحية الموتى، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يسلم على الموتى فيقول: "السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية"(٣) فكان يقدم السلام على ذكر المدعو له مثل تحية الأحياء، فدل على أنه إنما قال ذلك إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى ما جرت به العادة منهم في تحية الأموات(٤)، لئلا يؤدي ذلك إلى التنافر بدل الوئام.

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كراهية أن يقول: عليك السلام برقم ٥٢٠٩، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في كراهية أن يقول: عليك السلام مبتدئا برقم ٢٧٢١، ٢٧٢٢، وقال: حسن صحيح .

(٢) انظر زاد المعاد ٤٢١/٣ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز، باب ما يقول عند دخول القبور والدعاء لأهلها برقم ٩٧٥، والنسائي في الجنائز، باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين ٩٤/٤، من حديث سليمان بن بريدة عن أبيه .

(٤) انظر جامع الأصول لابن لأثير ٦٠٦/٦ .

فهذه طائفة من آداب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم في ابتداء السلام التي كان يؤدب به أمته بقوله وفعله، ولا ريب بأنه صلى ا لله عليه وسلم قد كان أول من يتأدب بها فإنها من تأديب ا لله تعالى .

ب ـ أحكام الإجابة وآدابها:

أما إجابة السلام، فهي إما أن تكون للمسلمين، أو للكافرين، لأن المسلِّم، إما أن يكون مسلما أو كافرا.

فإن كانت الإجابة للمسَلِّم المُسلِم، فقد جعلها النبي صلى ا لله عليه وسلم من حقوق الإسلام التي يجب الوفاء بها.

وقد بين النبي صلى ا لله عليه وسلم ذلك بما رواه أبو هريرة رضي ا لله عنه قال: قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتِّباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس"

وفي رواية لمسلم: "خمس تجب للمسلم على أخيه: رد السلام، وتشْمِيتُ العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز"(١) .

فهذا الحديث يبن ما تقدم من الأمر برد التحية بأحسن منها أو مثلها، وأنه أمر للوجوب، حيث أخبر النبي صلى ا لله عليه وسلم أنه حق له على المسلم عليه، وفسر ذلك الحق باللفظ الآخر، بالوجوب، وهو ما تقدمت الإشارة إليه(٢) من وجوب الرد .

غير أن هذا الوجوب ليس على إطلاقه، بل هناك صور لم يوجب الشارع فيها الرد، وهي ما إذا كان السلام في مواطن لا يندب فيها ابتداؤه وهي:

١ـ إذا كان المسلَّم عليه يصلِّي، فإن السلام لا يشرع له في هذا الحال،فإذا سلم لا يجب عليه الرد فعن عبدا لله بن مسعود رضي ا لله عنه قال: كنا نسلم على النبي صلى ا لله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز ٢/ ٩٠ واللفظ له، ومسلم في السلام، باب من حق المسلم على المسلم رد السلام برقم ٢١٦٢ .

(٢) ص٧٧٠

وسلم وهو في الصلاة فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا وقال: "إن في الصلاة شغلا"(١) .

٢ـ إذا كان المسلم عليه يبول،فإن الكلام له حينئذ مكروه،فلا يندب إحراجه وإحواجه إلى الكلام وهو في حال لا يجب أن يتكلم فيه، فلم يوجب الشارع عليه الرد والحالة هذه، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: "أن رجلا مر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبول فسلم عليه فلم يرد عليه "(٢) .

لكن لما كان النبي أحرص الناس على تبادل التحية لما فيها من المعاني السامية التي جاء بها في شرعه الحنيف، فقد كان يتكلف أن يتيمَّم حتى يرد على من يسلم عليه وهو في مثل هذه الحالة،كما أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي جهيم بن الحارث بن الصِّمَّة(٣) الأنصاري رضي الله عنه قال: أقبل النبي صلى الله عليه وسلم من نحو بئر جمل(٤) فلقيه رجل فسلم عليه فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أقبل على

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، باب ما ينهى من الكلام في الصلاة ٨٧/٢، ومسلم في المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة برقم ٥٣٨ .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض، باب التيمم برقم ٣٧٠، وأبو داود في الطهارة، باب أيرد السلام وهو يبول برقم ٣٣٠، ٣٣١ .

قال الإمام النووي في شرح مسلم ٦٥/٤: (فيه أن المسلِّم في هذه الحال لا يستحق جوابا، وهذا متفق عليه، قال أصحابنا ـ يعني الشافعية ـ : ويكره أن يسلم على المشتغل بقضاء حاجة البول والغائط، فإن سلم كره له رد السلام ...)

(٣) الأنصاري واسمه عبد الله، وقيل: الحارث بن الصمة، وقيل: غير ذلك، صحب النبي صلى الله عليه وسلم، وخرج له جماعة. انظر طبقات ابن سعد ٥٠٨/٣/ والإصابة ٣٦/٤، وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر ٦١/١٢، وغيرها .

(٤) أي: من جهة الموضع الذي يعرف بذاك .

الجدار فمسح بوجهه ويديه ثم رد عليه السلام(١) ، وعند أبي داود أنه اعتذر إليه وقال: "إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر أو قال على طهارة"(٢) .

وفي هذا من الدلالة على حرصه صلى الله عليه وسلم على رد التحية ما يشهد لعظمة خلقه، حيث لم يترك الرجل يهيم في تخيلاته من عدم رد النبي صلى الله عليه وسلم عليه، فيحزن لذلك،ويشعر بالهوان في نفسه إذ لم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم التحية .

أما إذا كان الجواب لأهل الكتاب من يهود ونصارى،ونحوهم فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد أدب أمته بما يتفق مع خلقه العظيم وسماحة الإسلام الحنيف في معاملة أوغاد أهل الشرك وأبناء القردة والخنازير، الذين يلوون ألسنتهم في التحية، ويحرفون الكلِم عن مواضعه، بما يتلاءم مع خبث طباعهم وسوء طوياتهم لنبي الإسلام والمسلمين، فقد دخل رهط من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم ـ أي الموت ـ قالت عائشة رضي الله عنها: ففهمتها، فقلت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مهلا يا عائشة، فإن الله يحب الرِّفق في الأمر كله" قالت: فقلت يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فقد قلت وعليكم"(٣) .

أي: أن الموت مكتوب على الجميع فالكل سيموت، غير أنه فرق بين موت يوصل إلى جنات النعيم، وموت يوصل إلى دركات الجحيم.

---

(١) البخاري في التيمم، باب التيمم في الحضر إذا لم يجد الماء وخوف فوت الصلاة ٨٨/١، ومسلم في الحيض، باب في التيمم برقم ٣٦٩ .

(٢) أبو داود في الطهارة، باب أيرد السلام وهو يبول برقم ١٧، وأخرجه النسائي في الطهارة، باب رد السلام بعد الوضوء ٣٧/١، وأحمد في المسند ٣٤٥/٤، ٨٠/٥، وابن ماجه برقم ٣٥٠، والحاكم ١٦٧/١، وصححه ووافقه الذهبي .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة ٧٠/٨ من حديث عائشة الله عنها، ومسلم في السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم ٢١٦٥ .

فمن أجل ذلك علَّم أمته كيف يردون السلام على مثل هؤلاء الذين قد بدت البغضاء من أفواههم، وما تخفي صدورهم أكبر، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "إذا سلم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم: السَّام عليك، فقل: وعليك"(١) .

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»(٢) .

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعامل مع من يسيء إليه في ذاته العظيمة الموقرة، يحلم عنهم ويصفح، ويأمر أصحابه بذلك، حيث لم يزد رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أخبرهم بأن ما تمنوه له من الموت هو مشترك بين الجميع، فالكل يموت فقال: وعليكم، وهم لا يجهلون هذه الحقيقة، غير أن لؤم طباعهم ودناءة أخلاقهم تحملهم على البواح بما في ضمائرهم من الحقد الدفين لهذا النبي العظيم، وهذه الرسالة الخالدة، التي بشرت بها كتبهم، ودعتهم إلى الإيمان به والدخول في شريعته، فبدلوا نعمة الله كفرا، وأحلوا قومهم دار البوار.

لذلك ندب النبي صلى الله عيه وسلم أمته إلىعدم ابتدائهم بالسلام عند ملاقاتهم أو غشيانهم في المجالس جزاء لهم على خبث الطوايا التي يكِنُّونها له صلى الله عليه وسلم ولأمته المفضلة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: :لا تبدؤا اليهود ولا النصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطَرُّوه إلى أضيقه"(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب كيف يرد على أهل الذمة ٧١/٨ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، ومسلم في السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم ٢١٦٤ .

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في الأبواب الآنفة الذكر .

(٣) أخرجه مسلم في السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم ٢١٦٧، وأبو داود في الأدب، باب السلام على أهل الذمة برقم ٥٢٠٥، والترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في =

المبحث الثّاني

(الاستئذان وغض البصر)

يقال في اللغة : أذن له في كذا، يأذن إذنا، إذا أطلق له فعله وأباحه له، ويقال في طلب الإذن : استأذن، ومنه قوله تعالى: ﴿ إنما يَستأذِنُك الَّذين لا يُؤمِنون با للهِ واليومِ الآخر ﴾ [سورة التوبة:٤٥](١) أي: يطلب الأذن منك يا محمد صلى ا لله عليه وسلم.

فالاستئذان إذاً: طلب الإذن في الدخول لمحل لا يملكه المستأذن(٢) .

ويعرّف الإذن بأنه: "فك الحجر وإطلاق التصرف لمن كان ممنوعا شرعا"(٣).

ذكر الاستئذان في القرآن الكريم :

وقد ورد ذكر الاستئذان في القرآن الكريم في نحو عشر آيات وذلك في مقامين :

الأول في مقام الناس عامة، والآخر في مقام النبي صلى ا لله عليه وسلم خاصة .

أما حديثه عنه في مقام الناس عامة فكان لبيان أحكامه وآدابه .

وأما في مقام النبي صلى ا لله عليه وسلم فلإرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم نحوه في

= التسليم على أهل الذمة برقم ٢٧٠٠ .

قال في شرح مسلم١٤/١٤٥: "واختلف العلماء في رد السلام على الكفار وابتدائهم بـه، فمذهبنا ــ أي الشافعي ـ تحريم ابتدائهم به، ووجـوب رده عليهـم بـأن يقـول: وعليكـم، أو: عليكـم فقـط، ودليلنـا في الابتداء قوله صلى ا لله عليه وسلم: لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام، وفي الرد قوله صلـى ا لله عليه وسلم:فقولوا:وعليكم، وبهذا الذي ذكرناه من مذهبنا قال أكثر العلماء وعامة السلف، وذهبت طائفة إلى جواز ابتدائنا لهم بالسلام، واحتج هؤلاء بعموم الأحاديث بإفشاء السلام. قال: وهي حجـة باطلـة؛ لأنـه عام مخصوص بحديث: لا تبدأوا اليهـود ولا النصـارى بالسـلام، وقـال بعـض أصحابنـا: يكـره ابتداؤهـم بالسلام ولا يحرم، وهذا ضعيف أيضا؛ لأن النهي للتحريم، فالصواب تحريم ابتدائهم ...) .

(١) المصباح المنير ١/١٢، والمفردات ص١٥ .

(٢) فتح الباري ٣/٢٣ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٦ .

هذا المقام، ولبيان أصناف المستأذنين منه صلى الله عليه وسلم من مؤمنين ومنافقين، وصادقين وكاذبين، ولنبدأ بالحديث عنه في المقام الأول؛ لأن الحاجة إلى بيانه في المجتمع المسلم تقتضي ذلك، فأقول :

المقام الأول : الاستئذان مع عموم الناس :

(لما خصَّص الله تعالى الناسَ بالمنازل، وسترهم فيها عن الأبصار، وملَّكهم الاستمتاع بها على الانفراد، كانت الحكمة داعية إلى أن يحجر على الخلق أن يطَّلعوا على ما فيها من خارج، أو يلجوها بغير إذن أربابها، لئلا يهتكوا أستارهم، ويكتشفوا أخبارهم(١)) .

لذلك أدَّب الله تعالى عباده بما يوجب الستر عليهم لئلا يطلع أحد منهم على عورة أحد، وأنزل في ذلك قرآنا يتلى ليُتَّبَع إلى يوم القيامة،فكان مما أنزل في ذلك آيات الاستئذان وغض البصر، تشريعا لعباده لحماية حُرُماتهم وعوراتهم في ظِلِّ المجتمع الإسلامي الصالح.

وكان مما أنزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تَدخلُوا بيوتًا غيرَ بيوتِكم حتى تَستَأنِسوا وتُسلِّموا على أهلِها ذلكم خيرٌ لكم لعلَّكم تذكَّرون * فإن لم تجِدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يُؤذَن لكم وإن قيل لكم ارجِعوا فارجِعوا هو أزكى لكم والله بما تعلمون عليم * ليس عليكم جناحٌ أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونةٍ فيها متاعٌ لكم والله يعلم ما تُبدون وما تكتُمون ﴾[سورة النور:٢٧-٢٩].

وقد بين الله تعالى في هذه الآيات أحكام الدخول في بيوت الآخرين،حيث نهى الداخلين،عن أن يبادروا إلى دخول منازل غيرهم حتى يقدِّموا الاستئذان أي: طلب الإذن بالدخول، المعبَّر عنه بقوله سبحانه:﴿ تَستأنِسوا ﴾أي: تطلبوا أن يأذن لكم صاحب البيت ، وهو كناية لطيفة عن الاستئذان،أوهو الاستئذان نفسه كما فسَّره به بعض أهل العلم (٢) وهذا اللفظ من لطائف الآية الكريمة حيث عبَّر بالاستئناس بدل الاستئذان ،

---

(١) انظر أحكام القرآن لابن العربي ١٣٥٩/٣، وتفسير القرطبي ٢١٢/١٢ .

(٢) انظر أحكام القرآن لابن العربي ١٣٥٩/٣ .

ليغرس فى المسلمين خُلُقا اجتماعيا راقيا، وهو استشعار المستأذن أُنسا من صاحب البيت، وليس مجرد الاستئذان فقط، وهذا الأنس يقتضى أن يأتى فى وقت يؤنس فيه، لا أن يأتي فى أوقات العورات التى لا تحصل فيها إلا الإزعاج، وهى قبل صلاة الفجر، وعند الظهر، وبعد صلاة العشاء، وكذا كل وقت اعتاد الناس فيه أن يرتاحوا فيه بأنفسهم، ودلت الآية على أنه لا يكتفى بالاستئذان ، بل أن يقرن معه السلام الذى يعنى تأمين صاحب البيت مما قد يستوحشن منه، ثم حظر الدخول على بيوت الآخرين إن لم يكن فيها أحد ، أو لم يؤذن لهم بالدخول ، لئلا تُقتَحم حرمة البيوت التى صانها الله تعالى بمثل هذا التشريع العظيم ، الذى أورده بصيغ النهي المفيد للتحريم، والأمر الدال على الإيجاب، ليدل بذلك على عظيم حقوق الساكنين المطمئنين فى منازلهم، الآمنين على عوراتهم، ومع الأثر العظيم الذى يحدث فى نفوس السامعين من تكرر النهى عن ذلك والأمر بالرجوع عند عدم الرغبة بالدخول .

فإن الله تعالى قد شابه بالترغيب وحسن التَّلطُّف بالسامعين ليعظم بذلك أثره ، حيث قال فى الآية الأولى:﴿ذلكم خيرٌ لكم لعلَّكم تذكَّرون﴾ وفى الآية الثانية قال:﴿هو أزكى لكم﴾ لزيادة الترغيب فى هذا الأدب العظيم الذى يصون الحرمات ويحفظ المودات لحفظه للعورات، ويؤسس التَّعامل فى المجتمع المسلم على أنبل الأخلاق وأفضل القيم .

ولذلك لما فقدت مثل هذه العورات فى البيوت غير المسكونة، ولم يبق لهذا الاستئذان معنى؛ أباح الله تعالى الدخول إليها من غير إذن فقال سبحانه :﴿ليس عليكم جناحٌ أن تدخلوا بيوتًا غيرَ مَسكُونة فيها متاعٌ لكم...﴾ لأن العورات التى حرص الشارع على حفظها لا توجد فى البيوت غير المسكونة ، ولكن ذلك ليس على إطلاقه وإنما هو مقيد بما إذا كانت الحاجة داعية إلى الدخول إليها ، من استحقاق الداخل إليها لمتاع له، ونحوه من المنافع التى تدعو الحاجة إليها ، أما من لا حاجة له فى ذلك فلا (١)، لتبقى حرمة

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٠٢/١٨ .

البيوت عامرة. قال السيوطي(١) رحمه الله: "في هذه الآية وجوب الاستئذان عند دخول بيت الغير ووجوب الرجوع إذا لم يؤذن له، وتحريم الدخول إذا لم يكن فيها أحد، قال: ويستفاد من هذا ، تحريم دخول ملك الغير(٢) والسكنى فيه وشغله بغير إذن صاحبه، فيدخل تحته من المسائل والفروع مالا يحصى" (٣).

إستئذان أهل البيت من موالى وخدم وأطفال :

هذا كله فيما إذا كان الإستئذان من الأجانب، وهم الذين يُتحَرّج من دخولهم وتُحفظ العورات عنهم عامة ، ومع ذلك فإن عورات البيوت حقها أن تصان حتى من الساكنين فيها كالخدم والموالى والأطفال ، الذين لايبرحون من البيوت، وذلك لفرط كراهية الشارع لكشف العورات حتى من ساكني البيوت ، لذلك فقد أمرهم بالاستئذان فى الأوقات التى هي مِظَنّة كشف العورات، والتى سماها الله عورات تسمية لها باسم الغالب من حالها فقال سبحانه :﴿يأيها الذين أمنوا ليَستأذْنكم الذين ملكت أيمانُكم والّذين لم يبلُغوا الحُلُم منكم ثلاثَ مرّاتٍ من قبلِ صلاةِ الفجر وحينَ تَضعون ثِيابَكم من الظّهيرة ومن بعدِ صلاةِ العِشاءِ ثلاثُ عوراتٍ لكم ليس عليكم ولا عليهم جُناحٌ بعدهن طوّافون عليكم بعضُكم على بعض كذلك يُبيّن اللهُ لكم الآياتِ والله عليم حكيم * وإذا بلغ الأطفالُ منكم الحُلُمَ فلْيستئذِنوا كما استأذنَ الّذين من قبلهم كذلك يُبيِّن الله لكم آياته والله عليم حكيم﴾[سورة النور:٥٨،٥٩] فهذه آيات تبين أحكام غير الأجانب فى الاستئذان، وهم المماليك والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم فحظرت عليهم الدخول فى الثلاث العورات إلا بأذن وهى الأوقات التى تنكشف فيها العورات عادة؛ قبل صلاة الفجر حيث يكون الناس فى

---

(١) هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإمام الفقيه المفسر المحدث المؤرخ اللغوي ... له مؤلفات كثيرة نافعة مشهورة وغير مشهورة، توفي سنة ٩١١ هـ، انظر البدر الطالع للشوكاني ١/٣٢٤، والنور السافر في أخبار القرن العاشر لعبد القادر العيدروس ص ٥٤ .

(٢) كذا فيه بتعريف (غير) في الموضعين .

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل ص ١٦١ .

ثياب النوم عادة، ووقت الظهيرة عند القيلولة، حيث يخلعون ملابسهم في العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة، وبعد صلاة العشاء،حيث يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل .

(ففى هذه الأوقات الثلاثه لابد أن يستأذن الخدم والصغار المميزون الذين لم يبلغوا الحلم، والذين قد بلغوا الحلم كذلك من باب أولى، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم، وهو أدب يغفله الكثيرون فى حياتهم المنزليه مستهينين بآثاره النفسيه والعصبيه والخلقيه، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة! وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر، بينما يقرر النفسيون اليوم - بعد تقدم العلوم النفسية - بأن بعض المشاهد، التى تقع عليها أنظار الأطفال فى صغرهم هي التى تؤثر فى حياتهم كلها)(١) .

فتأمل مبلغ العناية الإلهية بهذا الخلق العظيم حيث لم يعف أحداً من التحلي به، لما له من أعظم الأثر فى الحفظ والصيانه للأعراض والحرمات، ورعاية الودّ بين الجماعات.هذا عن الاستئذان فى مقام المؤمنين .

المقام الثاني الاستئذان على النبي صلى الله عليه وسلم :

أما فى مقام النبي صلى الله عليه وسلم، فإن عوراته أعظم العورات،وحرماته آكد الحرمات، لذلك خصه القرآن الكريم بالذكر زيادة فى صيانة عوراته وحفظ حرماته بآيات خاصه، على ما فى الآيات الأولى من شمولية لحقوقه صلى الله عليه وسلم على أمته فى الآداب الاجتماعية العامة، وذلك لمزيد الاهتمام وكمال العناية به،وإيضاحا لعظيم الحرمة الواجبة له عليه الصلاة والسلام على أمته،فقال سبحانه وتعالى فى ذلك : ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تَدخُلوا بيوتَ النَّبي إلا أن يُؤذَن لكم إلى طعامٍ غيرَ ناظرينَ إناه ولكن إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طَعمتُم فانتَشروا ولا مُستأنسينَ لِحديث إنَّ ذلكم كان يُؤذى النبي فيستَحيي مِنكم واللهُ لا يَستحيِي من الحق﴾[سورة الأحزاب:٥٣] .

فتأمل عظمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه، حيث أدب عباده بما

(١) انظر الظلال ٤/٢٥٣٢ .

يجب لنبيه من التعظيم، حين قصَّر بعضهم فى ذلك كما يدل عليه سبب نزول الآية المتقدم ذكره فى مبحث حيائه صلى ا لله عليه وسلم(١)، وقد كان النبي صلى ا لله عليه وسلم حيِيًّا كريما، لا يحب مواجهة أصحابه فيما يجب له، طالما أن ذلك فيه حظ لنفسه الشريفة، فتولَّى ا لله تعالى بيان ذلك لعباده ليلتزموا الأدب الجم، والتعظيم الكامل معه صلى ا لله عليه وسلم فيرضى ا لله تعالى بذلك عنهم.

ألا ترى أن ا لله تعالى أثنى على من التزم الأدب معه صلى ا لله عليه وسلم فى الاستئذان بقوله سبحانه: ﴿إنَّما المؤمنون الَّذين آمنُوا با لله ورسولِه وإذا كانوا معه على أمرٍ جامع لم يَذهبوا حتَّى يَستأذِنوه إنَّ الذين يَستَأذِنونَك أولئك الَّذين يُؤمنون با لله ورسوله فإذا استَأذنوك لِبعضِ شأنِهم فأذِن لمن شِئتَ منهم واستغفِر لهم ا للهَ إنَّ ا لله غفورٌ رحيم﴾[سورة النور:٦٢] .

حيث أثبت لهم الإيمان بأسلوب القصر لإخراج غيرهم من المنافقين الذين لم يكونوا بهذه المثابة من الأدب مع خير خلقه وأفضل رسله صلى ا لله عليه وسلم، كما قص ا لله تعالى علينا بعضا من صورهم لمَّا أرادوا أن يستغِلُّوا هذا الخلق الكريم للستر على نفاقهم المكشوف، فلم ينفعهم ذلك لأن ا لله تعالى مطلع على سرائرهم فكان استئذانهم عارا وشنارا سُجِّل عليهم إلى يوم الدين، بدلا من أن يكون خُلُقا كريما يثنى عليهم به، فتغير بتغير القصد واختلاف النية، وقد قص ا لله تعالى صورا تبين أحوالهم المصطنعه فى هذا الخلق الكريم كما فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وإذ قالت طائفةٌ منهم يا أهلَ يَثرب لا مُقام لكم فارجِعوا ويَستأذِنُ فريقٌ منهم النَّبي يَقولون إنَّ بيوتَنا عورةٌ وما هى بعورة إن يُريدونَ إلاَّ فرارا﴾[سورة الأحزاب:١٣] .

فانظر هؤلاء الذين انتهزوا فرصة تأديب ا لله للمؤمنين بوجوب الاستئذان من نبيه صلى ا لله عليه وسلم عند دخولهم عليه أو تفرقهم عنه، فأرادوا أن يطوِّعوه لأغراضهم الخادعة، الناشئة من النفاق المطبِق، ظانين أن ذلك التَّملُّق والظهور بمظهر المتأدب نافع لهم

---

(١) انظر ص٤٧٣-٤٧٤

وساتر لنفاقهم، جاهلين أو متجاهلين أن ا لله تعالى مطلع على سرائرهم، وأنه سبحانه قد أطلع نبيه صلى ا لله عليه وسلم على حقائقهم، غير أنه كان يحلم عنهم لعظيم حكمته فى سياسة دعوته إلى ا لله تعالى، كيلا ينفر الناس عن الإيمان،إذ يخشى أن يتحدث الناس أنه صلى ا لله عليه وسلم يقتل أصحابه، كما تحسبهم العامة كذلك.

وهنا تلاحظ أن الاستئذان الذى هو خلق حميد من حيث هو، قد انقلب وصار مذموما فى مثل هذه الصور، نظرا لتغير غايته واختلاف غرضه. وإنما الأعمال بالنيات، لذا كان عقابهم أن لم يقم لهم ا لله عز وجل وزنا فى مجتمع الأسلام، وأرشد نبيه الكريم إلى كيفية معاملتهم عند اتخاذهم أخلاق الاسلام وسيلة لأغراضهم الخبيثه،فقال سبحانه : ﴿فإنْ رجعَك ا للهُ إلى طائفةٍ منهم فاستأذنُوك لِلخروج فقُلْ لَن تَخرجُوا معيَ أبدًا ولَن تُقاتلوا معيَ عدوًا إنَّكم رَضيتُم بالقُعود أوَّل مرة فاقعدُوا مع الخَالفين﴾[سورة التوبة:٨٣] وسجل عليهم صنيعهم الرخيص ذاك بما يبقى عليهم عاره وشناره وخزيه ما دامت السماوات والأرض فقال : ﴿وإذا أُنزلَت سورةٌ أن آمِنوا با للهِ وجاهدوا مع رسولِه استئذَنَك أولُوا الطَّول منهم وقالوا ذَرنا نكُن معَ القاعدين * رَضوا بأن يكونُوا مع الخوالِف وطُبِعَ على قلوبهِم فهم لايفَقهون﴾[سورة التوبة:٨٦-٨٧].

لذلك كان جزاء مراوغتهم وخداعهم وخيانتهم ا لله ورسوله والمؤمنين،أن طبع على قلوبهم فلا يدخلها خير أبدا، فلا تعرف معروفا ولا تنكر منكرا ولا تفقه عن ا لله ورسوله شيئا. وكذلك جزاء الظالمين.

حفظ البصر على التطلع على العورات :

وما الإستئذان إلا وسيلة فعَّالة لحفظ البصر عن أن تمتد إلى عورات البيوت،كما جاء فى الحديث "إنما جُعِل الإذنُ من أجل البصر"(١)، حيث يقوم صاحب البيت بستر عوراته

(١) أخرجه البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقؤا عينه فلا دية له ١٣/٩، وفي الاستئذان، باب الاستئذان من أجل البصر ٦٦/٨، ومسلم في الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره برقم ٢١٥٦ من حديث سهل بن سعد .

إن أحب دخول المستأذن،أو عدم الإذن له بذلك إن لم يمكن، أو لم يحب دخوله، وقد حث القرآن الكريم على ذلك بقوله سبحانه:﴿قل لِلمؤمنين يَغضُّوا من أبصارِهم ويَحفظُوا فروجَهم ذلك أزكى لهم إنَّ الله خبيرٌ بما يَصنعون * وقل لِلمؤمناتِ يَغضُضْنَ من أبصارِهن ويَحفظْنَ فُروجَهنَّ . . .﴾[سورة النور:٣٠،٣١] .

فإن هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم عمَّا حُرِّم عليهم سواء البيوت أو المحرمات الأخرى،فإن النهي عام لكل ما يجب صون الأنظار عنها، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحرمات، لأن ذلك أزكى لهم "أي: أطهر لقلوبهم وأتقى لدينهم كما قيل: من حفظ بصره أورثه الله نورا فى بصيرته"(١) وقد جاء من حديث أبى أمامه رضى الله عنه :"ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها"(٢) وهذا لعمرو الله مغنم للمؤمن فى زيادة إيمانه وصلاح قلبه، فإن غض البصر عن المحارم من أجلِّ الأدوية لعلاج القلوب، لأن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافة الله أبدله الله إيمانا يجد له حلاوة فى قلبه كما جاء فى الحديث (٣)، ومن أطلق لحظاته أدام حسراته، ولقد أجاد من قال:

كلُّ الحوادث مبدؤها من النظر ... ومعظمُ النار من مُستصغر الشرر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها ... فى أعين الغيد موقوفٌ على خطر(٤)

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٢٨١/٣ .

(٢) رواه أحمد في المسند ٢٦٤/٥، عزاه الهيثمي في المجمع ٦٦/٨ إلى الطبراني قال: وفيه علي بن يزيد الألهاني، وهو متروك، وفي التقريب برقم ٤٨١٧ ضعيف، وقال ابن كثير في التفسير ٢٨٢/٣ بعد أن أورد هذا الحديث ؛وروى هذا مرفوعا عن ابن عمر وحذيفة وعائشة رضي الله عنهم، قال: لكن في أسانيدها ضعف إلا أنها في الترغيب، ومثله يتسامح فيه ا.هـ .

(٣) المروي عن ابن مسعود، عزاه الهيثمي في المجمع ٦٦/٨، إلى الطبراني، قال: وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف، وفي التقريب برقم ٣٢٠٩: صدوق، وهو يشهد للذي قبله .

(٤) ذكر ابن القيم في الجواب الشافي فوائد كثيرة لغض البصر، وذكر بعضا منها القاسمي في محاسن التأويل ١٩٠/١٢ .

فإن ا لله تعالى قد هدد من لم يمتثل أمره بغض البصر عن المحارم بقوله سبحانه: ﴿يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفى الصُّدور﴾[سورة غافر:١٩] .

فإذا كان ا لله تعالى يعلم ما أسماه بخائنة الأعين، فإن علمه ذلك يورث الخائن عقابا أليما إن لم يتداركه برحمته، إذ المعنى: إن ا لله يعلم من لم يخفظ بصره عما حرم عليه، فلينظر بعد ذلك إن شاء أو يكف،فإن ا لله مجازيه، كما قال سبحانه: ﴿إعمَلوا ماشِئتُم إنه بما تَعملون بصير﴾[سورة فصلت:٤٠] .

التطبيق النبوي لخلق الإستئذان

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ولي المؤمنين،والأحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وأنفسهم،كان لا يتجاوز هذا الخلق القرآني العظيم، اتكالا على مكانته منهم كما يجري لبعض الناس إذا حصل له شيء من حظ عند أخيه فيتّكل على ذلك ليفرط في هذا الأدب الاجتماعي العظيم الذي عني ببيانه القرآن الكريم.

بل كان صلى الله عليه وسلم أحرص الناس عليه لما هو عليه من الكمال الخُلُقي والأدب الرباني، والحرص على تعليم أمته آداب الإسلام وأخلاقه العليا،فقد زار سعد بن عُبَادة رضي الله عنه في منزله فقال :"السلام عليكم ورحمة الله، فرد سعد رضي الله عنه ردا خفيا فقال له ابنه قيس: ألا تأذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال: دعه حتى يكثر علينا من السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"السلام عليكم ورحمة الله" فرد سعد ردا خفيًّا ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"السلام عليكم ورحمة الله" ثم رجع رسول الله و تبعه سعد، فقال:يارسول الله إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام، قال :فانصرف معه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر له سعد بغسل فاغتسل، ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزعفران أو وَرْسٍ فاشتمل بها،ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وهو يقول:"اللهم اجعل صلواتِك ورحمتَك على آل سعدِ بن عبادة" قال: ثم أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطعام،فلمّا أراد الانصراف قرَّب له سعد حمارا قد وطّأ عليه بقطيفة، فركِب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال سعد : ياقيس إصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قيس: فصحبته فقال لي:"إركب معي" قال :فأبيت، ثم قال: إما أن تركب وإما أن تنصرف" قال:فانصرفت(١).

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان برقم ٥١٨٥ من حديث محمد بن عبد الرحمن بن سعد ين زرارة عن قيس بن سعد بن عبادة، وإسناده منقطع، فإن محمد بن عبد الرحمن لم يرو عنه، وإنما بينهما رجل كما قال الحافظ في التهذيب في ترجمة قيس بن سعد. =

فهكذا كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يستأذن على أصحابه فى بيوتهم، فلا يقتحمها بغير إذن، ولو فعل للقي كامل الترحيب وبالغ السرور، غير أنه يأبى ذلك فيرى شأنه كشأن غيره، فيطلب الإذن،فإن أُذِن له دخل وإلا رجع.

فهذا تطبيق عملي من النبي صلى ا لله عليه وسلم للاستئذان الوارد مجملا فى القرأن الكريم فبينه بعمله لتعلمه أمته فتعمل به على وجهه الذى أراده ا لله تعالى وأراده نبيه صلى ا لله عليه وسلم، قال ابن القيم: "وكان من هديه صلى ا لله عليه وسلم إذا استأذن ثلاثا و لم يؤذن له انصرف" (١).

وفي البخاري(٢) من حديث أنس رضى ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كان إذا سلَّم سلم ثلاثا، وإذا تكلَّم بكلمة أعادها ثلاثا" وهذا يدل على أن هذا السلوك كان منهجا عاما له صلى ا لله عليه وسلم فى السلام والاستئذان، فهو تبيان للاستئذان الذى يريده الشرع فى مجتمعات الإسلام، وعلى الأمة أن تقتدى به فيه، وقد عضَّد ذلك المنهج أقواله صلى ا لله عليه وسلم الدالة عليه،والمبينة لأحكامه وهى أقوال كثير نذكر منها مايلي:

بيانه صلى ا لله عليه وسلم للاستئذان وآدابه وأحكامه بأقواله الشريفة:

فعن أنس رضى ا لله عنه قال: قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يُؤذن له فليرجع. . ."(٣) .

= وقال أبو داود: رواه عمر بن عبد الواحد، وابن سماعة عن الأوزاعي مرسلا و لم يذكر قيس بن سعد، لكن قد أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ص ٢٨٤،٢٨٣ مرسلا ومسندا كما قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ٦١/٨ برقم ٥٠٢٣، وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٩٩/١، ورجال إسناد أبي داود رجال الصحيح، وانظر تحفة الأشراف ٨/ في الأرقام التالية: ١١٠٩٤، ١١٠٩٥، ١١٠٩٦ .

(١) زاد المعاد ٤٣٠/٣ .

(٢) في الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا ٦٧/٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثا ٦٧/٨، ومواضع أخرى، ومسلم في الآداب، باب الاستئذان برقم ٢١٥٣، وفي الحديث قصة تنظر في محله .

فهذا الحديث النظري يعضّد الحديث العمليّ السابق فى دِلالته على عدد مرات الاستئذان، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يعلّم أمّته الأخلاق بسلوكه فى نفسه وأقواله التوجيهيه لذلك، وبقيت أمور أخرى مجملة فى الاستئذان بينها النبي صلى الله عليه وسلم عمليا ونظريا فى مواقف وأقوال مختلفه كثيرة من ذلك :

أ ـ موقف المستأذن من الباب :

١ ـ فعن عبدالله بن بُسر(١) رضي الله عنهما قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول : "السلام عليكم، السلام عليكم" قال : ذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور(٢).

٢ ـ عن هُزيل بن شرحبيل رحمه الله تعالى(٣) قال : "جاء رجل(٤) فوقف على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن فقام على الباب وفى رواية: مستقبل الباب، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: هكذا عنك، أو قال : هكذا، فإنما الاستئذان من النظر"(٥) .

---

(١) المازني الحمصي، بشره النبي صلى الله عليه وسلم بأن يعيش قرنا، فعاش مائة سنة وتوفي سنة ٩٦ هـ، وهو آخر من مات بالشام من الصحابة، انظر الإصابة ٢/٢٨١ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب، باب كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان برقم ٥١٨٦، وفي سنده بقية بن الوليد وهو صدوق كثير التدليس عن الضعفاء كما قال في التقريب برقم ٧٣٤، لكنه في هذه الرواية قد صرح بالتحديث عن محمد بن عبد الرحمن اليحصبي الحمصي، وهو صدوق كما في التقريب فالحديث حسن إن شاء الله تعالى، وأخرجه البيهقي في الشعب ٦/٤٤٣، من غير طريقه عن شيخه محمد بن محمد بن عبد الرحمن، وثالثها من طريقه عنه به .

(٣) ثقة مخضرم كما في التقريب برقم ٧٢٨٣، وانظر تهذيب التهذيب ١١/٣١ .

(٤) هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كما جاء مبينا في إحدى الروايتين .

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في الاستئذان برقم ٥١٧٤، ٥١٧٥، بإسناد صحيح، وسكت عنه المنذري في مختصره . انظر ٨/٥٥ .

ب ـ تعليمه صلى الله عليه وسلم أمته كيفية الاستئذان :

١ ـ فقد روى أبو داود أن رجلا من بنى عامر استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى بيت فقال: أألج ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه: "اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له : قل السلام عليكم أأدخل ؟" فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم فدخل"(١) .

٢ ـ وروى من حديث كلدة بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلبن وجداية(٢) وضغابيس(٣) والنبي صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة، قال: فدخلت ولم أسلم، فقال: "ارجع فقل : "السلام عليكم"(٤) .

فالنبي صلى الله يعلم أمته من خلال هاتين الواقعتين تحتم الاستئذان عند الدخول، ويرشدهم إلى كيفيته الأدبيه من تقديم السلام وحسن التعبير فى طلب الإذن، ليحمل ذلك أنسا لصاحب الدار وارتياحا لتقبل طلبه وترحيبا بمقدمه،فيقوى الوئام والمودة بينهما .

---

(١) أبو داود في الأدب، باب كيفية الاستئذان برقم ٥١٧٧، والنسائي في عمل اليوم والليلة ص ٢٨٠ برقم ٣١٦، ورواه أحمد في المسند ٣٦٩/٥، من حديث ربعي بن حراش عن رجل من بني عامر، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم٨١٩ .

(٢) بفتح الجيم وكسرها: جمع جدي على خلاف الأصل، والقياس: أجد أو أجداء . انظر مختار الصحاح ص ٩٦ ، وهي أولاد الظباء ذكرا كان أو أنثى مما بلغ ستة أشهر أو سبعة أشهر، وهي بمنزلة الجدي من المعز، النهاية ٢٤٨/١ .

(٣) جمع ضغبوس بفتح الضاد وسكون الغين المعجمتين وهو صغير القثاء، انظر النهاية ٨٩/٣ .

(٤) أخرجه أبو داود في الكتاب والباب السابقين برقم ٥١٧٦، والترمذي في الاستئذان برقم ٢٧١٠، وقال: حسن غريب، وأخرجه النسائي أيضا في عمل اليوم والليلة ص ٢٧٩ برقم ٢٧١٠، وأحمد في المسند ٤١٤/٣، قال الألباني: وإسناده صحيح، السلسلة الصحيحة برقم ٨١٨ .

جـ ـ إفصاح المستئذن عن اسمه ليعرف :

فعن جابر رضي ا لله عنه قال : "أتيت النبي صلى ا لله عليه وسلم فى دين كان على أبي(١)، قال : فدققت الباب فقال : "من ذا ؟" قال: فقلت: أنا، فقال النبي صلى ا لله عليه وسلم : "أنا أنا" كأنه كرهها .

وفى رواية لمسلم فخرج وهو يقول : "أنا أنا". وفى أخرى كأنه كره ذلك،(٢) .

فانظر إلى مبلغ إنكاره صلى ا لله عليه وسلم على جابر رضى ا لله عنه لما لم يفصح باسمه الذى به يعرف، لأنه لم يحصل بقوله: أنا، فائدة ولا تعريفٌ، بل الابهام باق والتعريف غير حاصل،فأراد منه رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أن يفصح عن اسمه كاملا ليعرف به،فيجاب على ضوء ذلك بالإذن أو عدمه.

دراية الصحابة بهذا الأدب :

ولقد كان كبار الصحابة وجمهورهم رضي ا لله عنهم يعلمون هذا الأدب،فيعرِّفون بأنفسهم عند الاستئذان فلما اعتزل رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم نساءه وجلس فى البستان، وجاءه أبو بكر رضي ا لله عنه فاستأذن فقال "من؟" قال : أبو بكر فأذن له، ثم جاء عمر فاستأذن فقال: "من؟" قال : عمر، فأذن له، ثم عثمان مثل ذلك(٣) .

وكذا لما استأذنت أم هانيء رضى ا لله عنها فإن النبي صلى ا لله عليه وسلم قال لها : "من هذه؟، قالت أنا أم هانيء(٤) .

---

(١) يعني: أكلمه في شأنه ومطالبة الغرماء به، وسيأتي بيانه في الفصل الرابع من هذا الباب ص٩٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان، باب إذا قال: من ذا؟ فقال: أنا ٦٨/٨، ومسلم في الأدب باب كراهية قول المستأذن: أنا برقم ٢١٥٥ .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي صلى ا لله عليه وسلم، باب مناقب عثمان رضي ا لله عنه ٢١٧/٥، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل عثمان رضي ا لله عنه برقم ٢٤٠٣، وفيه التصريح بالاستئذان، من حديث أبي موسى .

(٤) أخرجه البخاري في الغسل، باب التيسير عند الغسل ٧٥/١، ومسلم في الحيض، باب يستر المغتسل بثوب ونحوه برقم ٣٣٦ من حديث أبي مرة مولى أم هانيء .

فهذا هو الذى ينبغى أن يكون فى الاستئذان،وهو الذى عمله الصحابة رضى الله عنهم فى استئذانهم النبي صلى الله عليه وسلم، اقتداء به صلى الله عليه وسلم وتبيينه للأخلاق القرآنية فى واقع حياته وحياتهم على السواء فعلا وقولا.

غير أن فى حديث جابر رضى الله عنه دلالة على كيفية أخرى فى الاستئذان وهى دق الباب، وكذا فى بعض روايات حديث أبى موسى المشار إليه فى قصة أبى بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم(١) المتقدمة أنفا.

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يفعلون ذلك مبالغة فى الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم وتوقيرا وإجلالا له .

فقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد(٢) من حديث أنس رضى الله عنه أن أبواب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تقرع بالأظافير.

وهذا من كمال أدبهم رضي الله عنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،حيث لا يزعجونه بالدق أو الصياح كما كان يفعل جفاة الأعراب الذى ذم الله صنيعهم ذلك فى آيات سجلها عليهم القرآن الكريم فى صفحاته إلى يوم القيامه،حيث قال الله جل ذكره: ﴿إِنَّ الَّذينَ يُنادونَك من وراءِ الحُجراتِ أكثرُهم لا يَعقلُون * ولو أنَّهم صَبَروا حتَّى تخرجَ إليهم لكان خيراً لهم والله غفورٌ رحيم﴾[سورة الحجرات ٤، ٥].

---

(١) كما في رواية أبي داود في الأدب، باب الرجل يستأذن بالدق برقم ٥١٨٨ .

(٢) ص ٣٥٩ برقم ١٠٨٣، وذكره الحافظ في الفتح ٤٢/٢٣، قال: وأخرجه الحاكم في علوم الحديث ص ١٩ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، وعزاه الهيثمي في المجمع إلى البزار، قال: وفيه ضرار بن صرد وهو ضعيف ا.هـ مجمع الزوائد ٤٦/٨، وأخرجه كذلك البيهقي في شعب الإيمان ٤٤٢/٦، وذكره الألباني في سلسلته الصحيحة برقم ٢٠٩٢، وذكر له طرقا عن أنس أعلها كلها، وذلك يناقض تضمينه إياه في السلسلة الصحيحة إلا أن يكون أراد أن كثرة الطرق قوته فأصبحت شاهدة بأن له أصلا، ولكن ذلك لا يرقى إلى درجة الحسن فضلا عن الصحة والله أعلم، وأما ذكري له هنا فهو من باب ذكر أمثاله في الفضائل والسير الذي يتسامح في أحاديثها قليلا ما لم تكن موضوعة أو شديدة الضعف كما هو مذهب جمهور أهل الحديث .

ما يحصل به الأذن بالدخول :

ثم إن الإذن بالدخول يكون بصريح العبارة كقوله: أدخل، أو نعم، أو صور أخرى يعلم بها إذن رب المنزل بالدخول تكون معروفة للطارق ورب البيت، فإذا كان كذلك جاز الدخول لحصول الأذن، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يجعل إذنا خاصا لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه عرَّفه إياه وبيَّنه علي رضي الله عنه بقوله : "كان لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة آتيه فيها، فإذا أتيته استأذنته، فإن وجدته يصلى تنحنح فدخلت، وإن وجدته فارغا أذن لي"(١) .

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذنك علي أن يرفع الحجاب، وأن تسمع سوادي(٢) حتى أنهاك"(٣) فاستدل من ذلك على جواز الدخول إلى بيت المستأذن عند وجود مثل هذه العلامات الدالة على رضاه .

قال الإمام النووى فى شرحه لهذا الحديث :«وفيه دليل لجواز اعتماد العلامة فى الأذن فى الدخول،فإذا جعل الأمير أو القاضى ونحوهما رفع الستر الذى على بابه علامة فى الإذن فى الدخول عليه للناس عامة،أو لطائفة خاصة أو لشخص، أو جعل علامة غير

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى، في السهو باب التنحنح في الصلاة ١٢/٣ من عدة طرق، وفي خصائص علي رضي الله عنه ص ٦٦ من عدة طرق كذلك، قال الحافظ في التلخيص الحبير ٢٨٣/١: وصححه ابن السكن ونقل إعلال البيهقي له بالاختلاف في إسناده ومتنه، وبأن مداره على عبد الله بن نجي.
قلت: وهذه ليست علة فيه فإنه صدوق كما بينه الحافظ في التقريب برقم ٣٦٦٤، ونقل الحافظ عن ابن معين قوله: لم يسمعه عبد الله من علي بينه وبين علي أبوه. قلت: وقد أسنده عن أبيه كما في رواية النسائي في المجتبى والخصائص، فالحديث من حيث السند حسن، وتبقى علة المخالفة والله أعلم .

(٢) سِوادي بكسر السين: السِّرا، يقال: ساودت الرجل مساودة: إذا ساررته، قيل: هو من إدناء سوادك من سواده، أي: شخصك من شخصه. النهاية ٤١٩/٢ .

(٣) أخرجه مسلم في السلام، باب جواز جعل الإذن رفع الحجاب ونحوه برقم ٢١٦٩ .

ذلك جاز اعتمادها والدخول إذا وجدت بغير استئذان(١)، وكذا إذا جعل الرجل ذلك علامة بينه وبين خدمه ومماليكه وكبار أولاده وأهله، فمتى أرخى حجابه فلا دخول عليه إلا باستئذان فإذا رفعه جاز بلا استئذان، والله أعلم»(٢) اهـ .

هذا وقد كان علي رضى الله عنه ممن تربى فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو زوج ابنته فاطمة رضى الله عنها، واصطفاه النبي صلى الله عليه وسلم لمؤاخاته ومخاللته، وأخبر أنه منه بمنزلة هارون من موسى..، وابن مسعود رضى الله عنه كان خادمه وصاحب سواكه ونعله وطهوره، وكان يأتي الغريب فلا يظن إلا أنه من بيت النبوة لكثرة دخوله على النبي صلى الله عليه وسلم ..، ومع ذلك فلم يكونا يدخلان على النبي صلى الله عليه وسلم إلا بإذن، مما يدل على أنه لا استثناء لأحد فى أمر الاستئذان وإن كان أقرب الأقربين كما نصت الآية الكريمه : ﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا لِيستَأْذِنَكم الَّذين مَلكت أيمانُكم...﴾ الآية [النور ٥٨]

ولما استغرب بعض الصحابة مثل هذا الاستئذان على القرابة القريبة، فراح يحاور النبي صلى الله عليه وسلم فى الإذن له بالدخول على أقربائه من غير استئذان،رجع بغير طائل راضيا بحكم الله، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أستأذن على أمي؟ فقال: "نعم" فقال الرجل إني معها فى البيت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "استأذن عليها" فقال الرجل : إنى خادمها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "استأذن عليها،أتحب أن تراها عريانة"؟ قال : لا، قال : "فاستأذن عليها"(٣).

---

(١) بل نقول: إن هذه العلامة وقعت موقع الاستئذان، فهو حاصل بذاته أو بما يدل عليه .

(٢) شرح مسلم ١٤/١٥٠ .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في الاستئذان، باب الاستئذان ٢/٢٣٩، وإسناده منقطع، فإن عطاء بن يسار لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو تابعي، وقال عنه ابن عبد البر: مرسل صحيح ولا أعلمه يستند من وجه صحيح ولا صالح، وانظر الأدب المفرد للبخاري ٣٥٣-٣٥٤، ففيه آثار موقوفة تشهد لذلك، وصححها الحافظ في الفتح ٢٣/٢٩ .

فانظر إلى الأسلوب الإقناعى الحكيم الذى اجتث به النبي صلى الله عليه وسلم وجه الاستغراب من السائل فى استئذانه على أمه أو نحوها، الناشىء من وجه القرابة دون إدراك مخاطر المفاجأة التى قد تؤدي إلى الاطلاع على عورات محارمه، وإفزاعهن فى ذلك، فلما أفهمه هذه الحقيقة قنع بالحكم الشرعي وعلم أن تدبير الله تعالى لعباده وحكمته فى شرعه لا يوازيها تدبير العقلاء بل قد لا تدركها عقولهم.

ومن هذا الدليل تدرك سر الشارع فى تعظيم حرمات المسلمين وصيانتها عن أن تنتهك من قبل من لا تحل له.

الزجر البالغ عن انتهاك حرمات الناس :

ولذلك كان الزجر شديدا والعقاب أليما لمن يحاول استكشاف العورات سواء كان عن قصد أو غيره :

١ – فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رجلا اطلع من بعض حجر النبي صلى الله عليه وسلم فقام إليه النبي صلى الله عليه وسلم بِمشقَص، أو قال بمشاقِص(١)، قال : فكأنى أنظر إليه يخْتُل(٢) الرجل ليطعنه(٣)".

٢ – وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : اطَّلع رجل من جحر من باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع رسول الله مِدرًى(٤) يرجِّلُ به، وفى رواية: يحكُّ به رأسه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو علمت أنك تنظر لطعنت به فى عينك، إنما جُعِل الاستئذانُ من أجل البصر(٥)".

---

(١) جمع مشقص كمبرد وهو نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض. النهاية ٢/٤٩٠ .

(٢) من ختل يختل: إذا خدعه وراوغه .

(٣) أخرجه البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقؤا عينه فلا دية له ١٣/٩، ومسلم في الأدب برقم ٢١٥٧ .

(٤) المدرى: شيء يسرح به شعر الرأس، محدد الطرف من حديد أو غيره، وهو كسن من أسنان المشط، أو أغلظ قليلا إلا أنه أطول .

(٥) متفق عليه تقدم ذكره في هذا المبحث ص٧٩٧.

ومن هذه الأحاديث تعلم مبلغ الجرم الذى يرتكبه ذلك الناظر، لأن العقوبة كانت رادعة وكبيرة، والنبي صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف الرحيم لم يتردد فى إنزالها به لو أنه تمكن من ذلك، ولقد حث أمته على فعل ذلك بهؤلاء الذين يهتكون أستار البيوت وعوراتها :

١ – فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من اطّلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حلّ لهم أن يفقؤا عينه"(١) ،

وفى رواية قال : "لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بعصاةٍ ففقأت عينه لم يكن عليك جناح"(٢) .

٢ – وعن أبى ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من كشف سترا فأدخل بصره فى البيت قبل أن يُؤذن له فرأى عورة أهله، فقد أتى حدّاً لا يحل له أن يأتيه، ولو أنه حين أدخل بصره استقبله رجل ففقأ عينه ما عيَّرت عليه(٣)، وإن مر رجل على باب لا ستر له غير مغلق فنظر فلا خطيئة عليه، إنما الخطيئة على أهل البيت"(٤) .

وهكذا يهدر النبي صلى الله عليه وسلم عين الناظر إلى منازل الآخرين وعوراتهم فى بيوتهم،وذلك لعظيم جرمه، ودناءة أخلاقه،حيث لم يشأ أن يزكّي نفسه ويعزّها بمكارم

---

(١) أخرجه البخاري في الديات، باب من اطلع في بيت قوم ففقؤا عينه فلا دية له ١٣/٩، ومسلم في الآداب، باب تحريم النظر في بيت غيره برقم ٢١٥٦ واللفظ له .

(٢) وهذه رواية البخاري المشار إليها .

(٣) أي: ما نسبت إليه العيب .

(٤) أخرجه الترمذي في الاستئذان، باب ما جاء في الاستئذان قبالة الباب برقم ٢٧٠٧ وقال: حديث غريب لا نعرف مثله إلا من حديث عبد الله بن لهيعة، فأعلّه بابن لهيعة، وأخرجه إمام أحمد في المسند ١٨١/٥ من طريقه، وقال المنذري في الترغيب ٤٣٦/٣: رواته رواة الصحيح إلا ابن لهيعة، وفي التقريب يقول: صدوق خلط بعد احتراق كتبه ... ا.هـ برقم ٣٥٦٣ .

أخلاق الإسلام، الَّتى كان عليها رسول الإسلام سيدنا محمد صلى ا لله عليه عليه وسلم، والتى يكسب بها شرف الدنيا والأخرة، فلما لم يفعل ذلك كانت عينه رخيصة فى سبيل تربية الناس على مكارم الأخلاق من النزاهة والعفة...

ولا بدع فإن الإنسان إنما يعظم بدينه وأخلاقه، فإذا لم يكن ديِّنا ذا خلق كريم كان أهون على ا لله من الجُعل، وما أبدع قول القائل فيمن يذل نفسه بمساوىء الأخلاق فيسرق فتقطع يده : قال :"لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت" .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام يتمثل مكارم الأخلاق فى سلوكه أفعالا وأقوالا، فلا يتنازل عن مكارمها فى سلوكه بنفسه،ولا يريده من أمته، بل كان يربِّيهم على المكارم ويوجبها عليهم،ويشرع لحفظها ما يأمره ا لله تعالىبه مما هو كفيل بصيانة المجتمع المسلم من سفاسف الأخلاق ومساوئها،من حدود وتعازير، ولرُب رهبة تحمل على زكاء الخلق خير من رحمة تؤدي إلى التهاون فيه.

المبحثُ الثَّالث

(إكرام الضيف)

الضيافة مصدر ضاف يضيف ضيافة بمعنى الإمالة،

قال الراغب: "أصل الضيف الميل، يقال: ضفت إلى كذا، وأضفت كذا إلى كذا، وضافت الشمس للغروب، وتضَّيفت، وضاف السهم عن الهدف وتضيَّف، قال: والضيفُ؛ من مال إليك نازلا بك، ثم قال: وأصل الضيف مصدر، ولذلك استوى فيه الواحد والجمع فى عامّة كلامهم، وقد يجمع فيقال: "أضياف وضيوف وضِيفان(١)".

منزلة خُلق إكرام الضيف فى الأخلاق الاجتماعيه:

والضيافة من الأمور التى لايكاد يستغنى عنها المرء فى حياته ضيفا أو مستضيفا، لضرورة الحياة الاجتماعيه التى يعيش فيها الإنسان، فإنه مدني بالطبع لا يكاد يقوم له شأن بمفرده، فهو يسافر ويجتمع بالناس فى بيوتهم أو يجتمعون عنده فى بيته لغرض أو لآخر، ولا بد له فى هذه الأحوال من ضروريات تقوم بها حياتهم من أكل أو شرب أو مسكن أو نحو ذلك .

لذا فقد عني القرآن الكريم بالحديث عنها على سبيل التحدث عن أحوال المضيفين ثناء عليهم وإشادة ببليغ إكرامهم لضيوفهم، أو ناعيا على من أخل بذلك منهم، فى آيات كثيرة من آياته الكريمة .

فلقد تحدث القرآن الكريم على سبيل المدح والثناء عن كرم نبي الله "إبراهيم" عليه السلام مع أضيافه وعن نبي الله لوط عليه السلام فى موقفه مع أضيافه(٢)، وقومه الذين أرادوا بهم السوء، وامتدح موقف الأنصار البالغَ الكرم لأضيافهم، بما أوحى بعظيم منزلة هذا الخلق الرفيع، أما من لم يفعل ذلك الإكرام للأضياف فقد كان ذكره فى القرآن الكريم على سبيل النعي بسوء صنيعهم ورذالة أخلاقهم، كما فى قصة أصحاب

---

(١) المفردات ص ٣٠٠ .

(٢) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٦٢/٩ .

القريه الذين أبوا أن يضيفوا نبي ا لله موسى و عبد ا لله الصالح: الخضر عليهما السلام،كما سيأتى بيانه.

حديث القرآن الكريم عن إكرام نبي ا لله إبراهيم عليه السلام أضيافه:

فكان من حديثه عن نبي ا لله إبراهيم عليه السلام ما جآء فى سورة "هود" حيث يقول سبحانه : ﴿ولَقد جاءَتْ رسُلنا إبراهيمَ بالبُشرى قالوا سلامًا قال سلامٌ فما لَبثَ أن جاءَ بعجلٍ حنيذ * فلما رأَى أيديَهم لا تصلُ إليه نَكِرَهم وأوجسَ منهم خِيفةً قالوا لا تَخَفْ إنّا أُرسِلنا إلى قومِ لوط﴾[٦٩:٧٠] .

فتتحدث الآيتان عن مبلغ كرم إبراهيم عليه السلام، حيث أسرع فى القِرى بحيث لم يلبث أن أحضر لهم عجلا حنيذا، أى مشويا سمينا، وهم نفر ثلاثه: جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام كما ذكر المفسرون، فكم يأكل هؤلاء الثلاثة من هذا العجل السمين كما نصت عليه آية "الذاريات" حيث قل ا لله تعالى : ﴿هل أتاكَ حديثُ ضيفِ إبراهيمَ المكرَمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلامًا قال سلامٌ قومٌ منكرون * فراغَ إلى أهلِه فجاءَ بعجلٍ سمين * فقرَّبه إليهم قال ألا تأكُلون..﴾[٢٤-٢٧].

وفى هذه الآيات بيان آخر لبعض صور الإكرام الذى قام به أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام،فقد أثبت ا لله تعالى إكرامه لهم بقوله : ﴿ المكرَمين ﴾ وهذا ما يقتضيه السياق وهو أحد قولي أهل التأويل فى ذلك(١)، والثاني: أنه إخبار عن وصفهم الثابت كما فى قوله تعالى : ﴿..بل عباد مُكرَمون﴾[سورة الأنبياء:٢٦].

وكان من صور إكرامه لهم قيامه بنفسه وأهله بخدمتهم، وفى ذلك من العناية والحفاوة بالضيف ما فيه، فقد استلَّ نفسه من بينهم لئلا يعوقوه عن تقديم الضيافة لهم كما يحدث من بعض الأضياف، وهو ما دل عليه كلمة ﴿ فَراغَ ﴾ الدالة على الاختفاء "فإنه لا يقال: راغ إلا إذا ذهب على خفية"(٢) وذهب يحضر لهم القِرى بسرعة عجيبة إذ لم

---

(١) انظر تفسير البيضاوي ص ٦٩١، وروح المعني ١١/٢٧/٩ وغيرهما .

(٢) روح المعاني ٩٤/١٢/٤ .

يلبث أن جاء بعجل سمين حنيذ مشوى،بحيث كانت سرعته العجيبة حاملة لاختيار بعض المفسرين(١) أن يقول: إن الطعام كان مهيئا من قبل، غير أن هذا القول يقتضى إخراج النص عن ظاهره الدال على إنجازه فى ذلك الوقت؛ لأنه أزيد فى العناية وأبلغ فى الإكرام، فإن خير البر عاجله، ولذلك أبى هذا القول جمهور المفسرين(٢) فلما أحضره لهم لم يحوجهم إلى القيام له، بل وضعه بين أيديهم ليتناولوه، ثم تلطّف بهم فى دعوتهم إليه بقوله : "ألا تأكلون؟" .

بحيث استدل بذلك كله على آداب الضيافة فإن هذه الآداب جاء ذكرها فى القرآن الكريم على سبيل المدح والثناء والتقدير، فكانت تشريعا لما دلت عليها من أحكام وآداب . قال القرطبى رحمه الله : "فى هذه الآية - يعنى آية هود - من أدب الضيف أن يعجّل قراه فيقدم الموجود الميسر فىالحال، ثم يتبعه بغيره إن كان له جِدةٌ، ولا يتكلف ما يضر به، قال : والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الاسلام ومن خلق النبيين والصالحين وإبراهيم عليه السلام أول من أضاف"(٣) .

حديث القرآن الكريم عن كرم نبي الله لوط عليه السلام :

ونحو هذا الإكرام ما كان من نبي الله لوط عليه السلام لأضيافه الكرام من الملائكة عليهم السلام، حيث بلغ به الحال فى الأكرام أن عرض بناته على أهل السوء فى سبيل إكرام أضيافه الذين أراد قومه الإساءة إليهم، وكان من أمره معهم ما قصه الله تعالى بقوله : ﴿وجاءهُقومُه يُهرَعون إليه ومن قبلُ كانوا يَعملون السيئاتِ قال يا قوم هؤلاءِ بَناتى هُنَّ أطهرُ لكم فاتّقوا اللهَ ولا تُخزونِ فى ضَيفي أليس منكم رجلٌ رشيد..﴾[سورة هود:٧٨] وقوله سبحانه : ﴿وجاءَ أهلُ المدينة يَستبشِرون * قال إنَّ هؤلاءِ ضَيفي فلا تَفضحون * واَتقوا اللهَ ولا تُخزون﴾[سورة الحجر:٦٧-٦٩] فلقد أراد أن يقي أضيافه من

---

(١) هو أبو حيان في البحر المحيط ١٣٩/٨ .

(٢) انظر روح المعاني ٩٤/١٢/٤ .

(٣) جامع أحكام القرآن ٦٤/٩ .

هؤلاء الفسقه بأعز ما يقدر عليه ولا يقدر عليه غيره، وهو بناته أفلاذ أكباده، وفى هذا العرض صورة لأبلغ كرم سُمع وأعظمه، وسواء كان ذلك عرض تزويج بالفعل كما ذهب إليه بعض أهل التفسير، أو هو مبالغة فى التواضع والاستعطاف لهم ليستيرقوا له فيتركوا أضيافه، [1] فإن مبلغ كرمه فى الحالين واضح، أما على الأول فلما فيه من بذل بناته لمن لا يقدر على بذلهن لهم لفجورهم وكفرهم لولا إكرام الضيف.

وأما على الثانى فإن بالغ حرصه على إكرامهم أحوجه -وهو العزيز الجناب با لله تعالى- إلى أن يبذل ما هو فوق وُسعه لهؤلاء السيئين فى سبيل إكرام ضيفه، وفى ذلك من الدلالة على عظم كرمه مالا يحتاج إلى برهان أو مزيد بيان.

حديث القرآن الكريم عن إكرام نبي ا لله يوسف عليه السلام لضيوفه:

وحديث القرآن الكريم عن إكرام يوسف عليه السلام لضيوفه يعطي صورة أخرى عما يجب أن يكون عليه إكرام الضيف.

فإنه عليه السلام كان قد لقي من إخوانه ما لم يعمله إخوة كرام بأخيهم الكريم، الذى خصه ا لله تعالى عليهم بخصائص جعلهم يحسدونه عليها، ويكيدون له كيدا عظيما، فألقَوه فى غيابة الجُبّ ابتغاء إهلاكه ليصفو لهم الجو عند أبيهم من غير منافس، إلا أن ا لله تعالى حفظه من مكرهم وكيدهم لما يرشحه إليه من تجديد شرعه وملك مصر لسياسة خلقه.

لكنه لقي من جراء ذلك متاعب لاتحصى، حيث بيع رقيقا وهو الكريم، بثمن بخس دراهم معدودات وكانوا فيه من الزاهدين، وهو العظيم المنزلة الكبير الشأن حسبا ونسبا وديانة، ثم كيد له فى بيت الملك مكيدة منكرة، تجرّع بسببها سجنا طويلا لبث فيه بضع سنين... إلى غير ذلك مما لقيه من العناء الشديد جراء صنيع إخوانه المنكر به، وهو أمانة فى أيديهم، مع ذلك كله لما لقيهم وقد مكّنه ا لله تعالى فى الأرض وجعل له ملك مصر يتبوأ منه حيث يشاء، وكان بإمكانه أن ينكّل بهم جزاء وفاقا، غير أنه عفى عن ذلك

---

(١) هذه إشارة إلى الخلاف في تأويل الآية عند أهل التأويل، انظر أقوالهم ووجهات نظرهم في ذلك في كتب التفسير المشهورة كالقرطبي ٧٦/٩، وروح المعاني ١٠٦/١٢/٤ ونحوهما .

وصفح، وأكرمهم غاية الإكرام وأعطاهم فوق ميرتهم وقر بعير.." كما قص ا لله تعالى كل ذلك فى سورة يوسف فيرجع إليها من يشاء.

ففى هذه الصور دلالة واضحه على أن إكرام الأضياف من أخلاق النبيين وهو من مرضات رب العالمين، لأن ا لله تعالى إنما ذكر ذلك فى مقام المدح والامتنان بصنيعهم الكريم حيال ضيوفهم، وذلك يقتضى الإقتداء بهم فى هذه الأخلاق الحميده الكريمة فى معاملة الأضياف.

حديث القرآن الكريم عن كرم الصحابة رضى ا لله عنهم:

وقد كان لبعض أصحاب رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم كرم نحو ذلك الكرم النبوى كما دل على ذلك ما رواه أبو هريرة رضى ا لله عنه أن رجلا أتى النبي صلى ا لله عليه وسلم فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: من يطعم أو يضيف هذا ؟ فقال رجل من الأنصار: أنا فانطلق به إلى امرأته فقال: أكرمي ضيف رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبيانى . فقال: هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيأت طعامها وأصبحت سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فقال: ضحك ا لله الليلة أو قال: عجب من فعالكما، فأنزل ا لله تعالى: ﴿وَيُؤثِرونَ على أنفُسِهم ولو كانَ بهم خَصاصةٌ ومن يُوقَ شُحَّ نفسِه فأولئِك هم المفلحون﴾(١)[سورة الحشر:٩].

وهذا ثناء عظيم على هؤلاء الصفوة المختارة من الصحابة الكرام على التحلي بهذا الخلق العظيم وما أجدرهم بذلك، فإن كرمهم للأضياف قد بلغ مبلغا لم يبلغه كرم أشهر الكرماء، فلقد نزل بهم إخوانهم المهاجرون فشاطروهم الأموال، وآخوهم فى النصرة

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب ويؤثرون على أنفسهم ٤٢/٥، وفي تفسير سورة الحشر ١٨٥/٦.

والتأييد، حتى بلغ بهم الكرم أن كان يقول أحدهم لأخيه المهاجري بعد أن يشاطره المال: وعندى امرأتان اختر أيهما شئت أتنازل لك عنها، فيقابل بشعور كريم،وعزة كاملة،وعفة فريدة،إذ يقول له المهاجري: "بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلّني على السوق"(١) .

فهذا بعض ما حدثنا به القرآن الكريم عن كرم الأضياف، من أولئك القوم الكرام من أنبياء وصالحي المؤمنين، وهو حديث ثناء ومدح وامتنان على تلك المواقف النبيلة فى كرم الضيف كما رأيت.

حديث القرآن عمن بخل بحقوق الضيف فلم يكرمه :

وفى مقابل ذلك تحدث عن الذين حملهم البخل إلى أن يفرِّطوا فى حقوق ضيوفهم فلا يُقرُونهم، ولا يقدمون لهم إحسانا ولا معروفا.

وكان فى طليعة هؤلاء اللئام من الناس أصحاب القرية الذين استضافهم نبي الله موسى والخضر عليهما السلام، وقد قال الله تعالى فى قصتها :﴿.. فانطلقا حتَّى إذا أتيا أهلَ قريةٍ استطعما أهلَها فأبَوا أن يُضيِّفوهما فوجدا فيها جداراً يُريد أن يَنقَضَّ فأقامه قال لو شِئتَ لاتَّخذتَ عليه أجرا﴾[سورة الكهف:٧٧] .

فقد كان موسى والخضر عليهما السلام مسافرين،فاجتازا بالقرية وهما بحاجة إلى قِرى، وكان الواجب على أهل القرية أن يبادروا بالقيام بواجبهم نحو أضيافهم كما هو متعارَف بين أصناف البشر فى هذه الحالة، ومع ذلك لم يفعلوا، بل أحوجوهم إلى أن يطلبوا منهم ذلك الحق الذى لهم عليهم، فلم يستجيبوا وأبوا تقديم أي شيء إليهم مما يجب لأمثالهم فى العرف،وإن لم يكن لهم شرع يحتِّم عليهم ذلك، وكان نظر سيدنا موسى عليه السلام فى هذه القضية صائبا من حيث المكافأة والمعاملة بالمثل، حيث اعترض على الخضر لقيامه بإصلاح الجدار وهو من جدار القرية تلك،بغير أن يشترط عليهم،أو يطلب منهم أجرة

(١) انظر صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب كيف آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه ٥/٨٨ .

عمله، فإنهم قوم لئام كما جاء فى الحديث،لايستحقون الإكرام أو الإحسان .

غير أن الخضر كان قد أوتي علما بما فى تحت الجدار من كنز لغلامين يتيمين فى القرية تلك كان قد وضعه أبوهما،فلم يشأ معاملتهم بالمثل، بل أراد أن يحفظ كنز الغلامين عن أن تمتد إليه يد غيرهما، وإن لم يُبذل له أجر على ذلك فقام بواجبه الأخلاقى العظيم، بينماهم لم يقوموا بما يجب عليهم لضيفهم الكريم.

فاقتضى الحال أن يسجّل القرآن الكريم مشاهد هذه القصة العظيمة؛لتكون دليلا على كمال لؤم أهل القرية وبخلهم، فيبقى عارها عليهم إلى يوم الدين ، ودليلا على كرم العبد الصالح ونبل أخلاقه فيكون أسوة فى المبادرة إلى الخير وبذله لمن هو له أ هل ، أو لم يكن أهلا فإن الفاعل أهل للكرم والإكرام.

تمثُّل خلق إكرام الضيف

في رســول ا لله صلى ا لله عليه وســلم

وإذا كان إكرام الضيف من أخلاق النبيين وسننهم التى أُثرت عنهـم، وامتدحهـم ا لله تعالى بها فى غير ما آية كما علمت ٠

فإن سيد الأنبياء وخاتم النبيين الذى جمع ا لله تعالى فيه ما تفرق فـى غـيره مـن مكـارم الأخلاق فطرة، وأمره بالتأسي بكمالاتهم الأخلاقيه شـريعة،حيـث قـال لـه سبحانه فـى خطابه له: ﴿ .. أولئِك الَّذين هدى ا للهُ فبهداهم اقتَدِه ﴾[سورة الأنعام: ٩٠] ٠

فإذا كان مفطورا على الأخـلاق الكريمـة فطـرة إلهيـه،فكـانت مكـارم أخلاقـه إحـدى غرائزه النفسية، ومن أجلها إكرام الضيف وقِراه،كما دل على ذلك شهادة خديجة رضـى ا لله عنها له بذلك عند ابتداء تنزل الوحى حيث قالت لـه:"إنـك لتصـل الرحـم، وتحمـل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق٠٠"(١) .

فإذا كان حاله كذلك جبِلَّة ، فكيف حاله فيـه بعـد أن بعثـه ا لله تعـالى ليتمـم مكـارم الأخلاق؟ وأمره أن يهتدي بالأنبياء قبله فى كل كمال خلقي كريم؟ وقد كان فيهـم مـا قص ا لله تعالى علينا بعضه من صور إكرامهـم أضيافهم كـإبراهيم ولـوط ويوسـف عليهـم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وما لم يقصصه من ذلك أكثر .

إنَّ كل ذلك يقتضى أن يكون رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فى أخلاقه على حـال راق عظيم،لتوافر الدواعى على رقيه فيه حتى يبلغ من كمالات الأخلاق منتهـى الكمـال وذروته، وقد كان كذلك بالفعل،بحيث شهد ا لله تعالى له بعظمة الخلق بقولـه : ﴿وإنَّـك لَعلى خُلقٍ عظيم﴾ وهو ما لم يحصل لأحد قبله من أنبياء ورسـل علـى الإطـلاق صلـوات ا لله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، وقد فصلت الدلائل الجزئيه،هذه الشهادة الإجماليه فـى كل خلق كريم كما علمت مما مضى وما ستعلمه فيما سيأتى فى بقية الأبحاث ومنها مـا نحن بصدد بيانه من خلق إكرام الضيف ٠

---

(١) تقدم ص٦٣ .

والدلائل النقليه على ذلك كثيرة لا يأتى عليها الحصر فى مبحث جزئى، وإنما يحتاج ذلك إلى بحث مستقل تفصيلى.

ولكن يمكن هنا الإتيان بأشهر تلك الدلائل وأوضحها دلالة على المقصود من سلوكه صلى الله عليه وسلم فى إكرام أضيافه بنفسه وفعله، أو أقواله لأصحابه وأمته حثا على ذلك، وترغيبا، وتنويها، وهي أقوال كثيرة، نأتى على ذكر طائفه منها .

إكرامه صلى الله عليه وسلم أضيافه بنفسه :

أما إكرامه صلى الله عليه وسلم أضيافه بنفسه فذلك هو الأصل الذى كان يفعله صلى الله عليه وسلم ويقوم به نحو ضيفه :

١ ـ فلقد كان يثوي فى مسجده الشريف عدد من فقراء المهاجرين الذين لا كافل لهم غيره صلى الله عليه وسلم،فكان عليه الصلاة والسلام لا يدَّخر وُسعا فى إكرامهم وإعالتهم والأنفاق عليهم.

٢ ـ ولقد كان له قصعة يقال لها : "الغرَّاء" يحملها أربعة رجال يطعم بها أصحابه وفى ذات يوم، لما أضحوا وسجدوا الضُحى، أتي بتلك القصعة وقد ثرد فيها، فالتفُّوا عليها، فلمَّا كثروا جثا(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أعرابي: ما هذه الجِلْسه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله جعلنى عبدا كريما، ولم يجعلني جَبَّارا عنيدا" ثم قال : "كُلوا من حواليها ودعوا ذِروتها يبارك فيها"(٢).

٣ ـ وبلغ به الاهتمام والإكرام لهؤلاء أضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأضياف الإسلام أن كان إذا أعوزه بذل ما يكفيهم من الطعام، استعمل ما أيَّده الله تعالى به من معجزات حسِّيه ليطعم أضيافه هؤلاء أو غيرهم كما تدل عليه أدلة كثيرة :

---

(١) أي: جلس على ركبتيه .

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب ما جاء في الأكل من أعلى الصفحة برقم ٣٧٧٣، وابن ماجه في الأطعمة، باب الأكل متكئا برقم ٣٢٦٣ من حدبث عبد الله بن بسر رضي الله عنه . وقال البوصيري في مصباح الزجاجة برقم ١١٢٢: إسناده صحيح .

١ - فقد حدث أنس رضى الله عنه قال : تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعنى بزينب بنت جحش رضى الله عنها - فدخل بأهله قال: فصنعت أمي أمُّ سليم حَيْسًا(١) فجعلته في تَور(٢)، فقالت : يا أنس إذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقُل: بعثت بهذا إليك أمي، وهى تُقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منّا قليل يارسول الله قال: فذهبت بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول : إن هذا لك منا قليل يا رسول الله، فقال: ضعه، ثم قال: "إذهب فادع لي فلانا وفلانا ومن لقيتَ" وسمىَّ رجالا، قال: فدعوت من سمَّى ومن لقيت، قيل له: عدد كم كانوا؟ قال : زهاء ثلاثمائة"(٣).

٢ – وحدث عبدالرحمن بن أبى بكر(٤) رضي الله عنهما فقال : "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "هل مع أحد منكم طعام؟" فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعُجِن ثم جاء رجل مشرك مشعانٌ(٥) طويل بغنم يسوقها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أبيعٌ أم عطية، أو قال: أم هبة؟ فقال: لا، بل بيع، فاشترى منه شاه فصنعت، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسواد البطن(٦) أن يشوى، قال : وايم الله ما من الثلاثين ومائة إلا حَزَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الحيس: تمر ينزع نواه، ويدق مع أقط ويعجنان بالسمن ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثريد. اهـ الكصباح المنير ١/١٧٢ .

(٢) إناء يشرب فيه .

(٣) أخرجه مسلم في النكاح، باب زواج زينب بنت جحش برقم ١٤٢٨ حديث رقم ٩٤ .

(٤) واسم أبي بكر: عبد الله بن عثمان بن قحافة رضي الله عنهم، أسلم عبد الرحمن أيام الهدنة، وكان رجلا صالحا شجاعا راميا، قتل يوم اليمامة سبعة من أكابرهم، وتوفي سنة ٥٣ هـ، انظر الإصابة ٢/٤٠٧، وبهامشها الاستيعاب ٢:٣٩٩ .

(٥) هو المنتفش الشعر الثائر الرأس .

(٦) أى الكبد

حَزَّةً(١) من سواد بطنها، إن كان شاهدا أعطاه، وإن كان غائبا خبأ له، قال: وجعل قصعتين فأكلنا منهما أجمعون وشبعنا،وفضَلَ فى القصعتين فحملته على البعير،أو كما قال"(٢).

٣ ـ وحدَّث أبو هريرة رضي الله عنه بقصة طويلة عن إكرام النبي صلى الله عليه وسلم أضياف الإسلام من أهل الصُّفَّة، وكان مما حكى قول النبي صلى الله عليه وسلم له:"أباهر، قال: قلت: لبيك يا رسول الله ، قال :"إلحق إلى أهل الصفة فادعهم لي" قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا على أحد، إذا أتته ـ أي رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، قال: فساءنى ذلك (٣) فقلت: وما هذا اللَّبن فى أهل الصفة ؟!كنت أحق أن أصيب من هذا اللَّبن شربة أتقوَّى بها، فإذا جاؤوا أمرنى فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن! ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بدٌّ، قال: فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا، فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: يا أبا هر، قلت : لبيك يا رسول الله، قال: خذ فأعطهم، قال: فأخذت القَدَح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يردُّ عليَّ القدح...حتى انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد روي القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليَّ فتبسَّم فقال: أبا هر، قلت : لبيك يا رسول الله قال: بقيتُ أنا وأنت، قلت : صدقتَ يا رسول الله، قال: اُقعد فاشرب، فقعدت فشربت فقال: إشرب، فشربت.. فما زال يقول: إشرب حتى قلت: لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا، قال: أرني، فأعطيته القدح فحمد الله وشرب الفضلة"(٤) .

---

(١) أي: قطع له قطعة .

(٢) أخرجه مسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره برقم ٢٠٥٦ .

(٣) أي: أمْرُه صلى الله عليه وسلم باستدعاء أهل الصفة .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى الله عليه وسلم ١١٩/٨ .

ومن هذه النماذج علمت ما كان عليه النبي صلىا لله عليه وسلم من إكرام لضيوفه، حيث كان يبذل جهده فى إكرامهم مما هو فى يده من قليل أو كثير، فإن كان كافيا فبها وإلا دعى ا لله تعالى أن يبارك فى القليل فيستجيب الله تعالى ويعطيه خرق العادة معجزة حسِّيَّة تشهد بصحة نبوته وصدق دعوته، وكم له من معجزات نحو هذه كان يمنحه ا لله تعالى إيّاها حينما يريد إطعام أصحابه وليس إلى ذلك سبيل إلا بمعجزة، وهذا يدل على مبلغ إكرامه صلى ا لله عليه وسلم لأضيافه، إذ لو لم يكن فيه أريحيَّة الكرم العظيم لاعتذر بالعدم وتعلَّل بالحاجة، وكان مصدقا فى ذلك، غير أنه كان يلجأ إلى خرق العادة ليحقق لأضيافه الكرم البالغ .

ولقد كان من مبلغ إكرامه لهم أن كان يؤثِرهم على نفسه وأهل بيته مع ما هم عليه من الحاجة إلى مثل ذلك الطعام، غير أنه صلى ا لله عليه وسلم لم يكن يؤثرهم به، بل يجعلهم كأضيافه، فينالون من ذلك كواحد منهم، كما علمت من حديث أبى هريرة رضي ا لله عنه.

ومع ذلك فكان صلى ا لله عليه وسلم إذا لم يجد ما يكرم به هؤلاء الأضياف ألبتة، كان يأمر مياسير أصحابه بالقيام بذلك، كما علمت مما تقدم ذكره فى قصة الأنصاري الذى آثر ضيفه على نفسه وأهله وأولاده على ما هو عليه من الخصاصة، وكما سيأتى مزيد بيان لذلك فى مبحث خلق الإحسان على الفقراء بعد هذا إن شاء ا لله تعالى.

إكرامه صلى ا لله عليه وسلم لأضيافه من الوفود :

كذلك كان إكرامه صلى ا لله عليه وسلم للضيوف المستمرين عنده، وتسميتهم ضيوفا مع ذلك توسع باعتبار المجاز، أما الضيوف الطارئون الذين يحلون ويرحلون، وهم الوفود التى كانت تأتيه صلى ا لله عليه وسلم باستمرار،فقد كانوا على حال أبلغ من ذلك فى الإكرام، حيث كان صلى ا لله عليه وسلم يقوم بقرا هم بنفسه إن وجد،وإلا أقراهم أحد أصحابه، ومع ذلك لا ينصرفون عنه إلا بجائزه مادية يؤوبون بها إلى بلادهم، كما دل على ذلك حديث ابن عباس فى وصيته صلى ا لله عليه وسلم عند موته حيث قال: "وأوصى عند موته بثلاث : أخرِجوا المشركين من جزيرة العرب،وأجيزوا الوفد

بنحو ما كنت أجيزهم، قال : ونسيت الثالثة"(١).

وإذا قرأت مباحث قدوم الوفود عليه صلى الله عليه وسلم من كتب السيرة، ستجد أنها تذكر أن كل وفد كان لايؤوب الإبجائزته اللائقة به، وقد ذكروا من أحواله صلى الله عليه وسلم في ضيافة الوفود أحوالا كثيرة؛ فتارة كان يضيفهم بنفسه إن وجد شيئا فى بيته ولو قليلا فيتبارك ببركته،فيكفى الفِآم من الناس، فإن لم يجد شيئا فى بيته أنزلهم عند بعض أصحابه وأحاطهم برعايته وعنايته،

فقد وفد عليه صلى الله عليه وسلم وفد "بَهراء"(٢) من اليمن،وأنزلهم المقداد(٣) رضى الله عنه عنده وجاءهم بجفنة من حَيس(٤) وكان كريما على الطعام، فأكلوا منها حتى نهلوا، ورُدت إليه القصعة وفيها أكل، فجمع المقداد ذلك الأكل وبعث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصاب منها رسول الله صلى الله عليه وسلم أكلا هو ومن معه فى البيت حتى نهلوا، ثم قال لمولاة المقداد التى أتت بها:"إذهبى بما بقى إلى ضيفكم" قالت: فرجعت بما بقي فى القصعة إلى مولاتي، قالت: فأكل منها الضيف ما أقاموا ترددها عليهم وما تغيض، حتى جعل القوم يقولون: يا أبا معبد ! إنك لتُنهلنا من أحب الطعام إلينا، ما كنا نقدر على مثل هذا إلا فى الحين، وقد ذُكر لنا أن الطعام ببلادكم إنما هو العُلقة أو نحوه، ونحن عندك فى الشبع، فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله صلى الله

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب جوائز الوفد ٨٥/٤، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن له شيء يوصي به برقم ١٦٣٧ .

(٢) بفتح الباء وإسكان الهاء قبله، من قضاعة، والنسبة إليها: بهراني على غير قياس .

(٣) ابن الأسود الكندي، أحد السبعة الأوائل الذين أظهروا الإسلام بمكة، وهاجر الهجرتين وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشاهد كلها، وتوفي بالجُرُف سنة ٣٣ هـ، وحمل على الأكتاف إلى المدينة ودفن فيها، انظر تهذيب الأسماء واللغات ١١١/٢، والإصابة ٤٥٤/٣ .

(٤) هو تمر ينزع نواه ويدق مع الأقط ويعجنان بالسمن، ثم يدلك باليد حتى يبقى كالثريد. المصباح المنير ١٧٢/١ .

عليه وسلم أنه أكل منها أكلا وردها، فهذه بركة أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل القوم يقولون: نشهد أنه رسول الله،وازدادوا يقينا، وذلك الذى أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتعلموا الفرائض وأقاموا أياما ، ثم جاؤوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يودِّ عونه وأمر لهم بجوائزهم وانصرفوا إلى أهليهم"(١) .

وقدم عليه وفد بَلِيّ(٢) فأنزلهم رُويفع بن ثابت البلَوي(٣) عنده،وقدم بهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : هؤلاء قومى، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مرحبا بك وبقومك" فأسلموا، وقال لهم رسول الله : "الحمد لله الذى هداكم للإسلام فكل من مات على غير الاسلام فهو فى النار" فقال له أبو الضبيب شيخ الوفد:يا رسول الله إن لي رغبة فى الضِّيافة فهل لى فى ذلك أجر؟ قال: نعم، وكل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقه قال: يا رسول الله ما وقت الضيافة؟ قال: "ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقه، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك" قال: يا رسول الله: أرأيت الضَّالة من الغنم أجدها فى الفلاة من الأرض؟ قال: "هي لك أو لأخيك أو للذئب" قال: فالبعير؟ : قال: "ما لك وله،دعه حتى يجده صاحبه" قال رويفع: ثم قاموا فرجعوا إلى منزلى،فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتى منزلى يحمل تمرا فقال: "استعن بهذا التمر" وكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثا ثم ودَّعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجازهم ورجعوا إلى بلادهم"(٤).

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٣٣١/١، وزاد المعاد ٦٥٥/٣-٦٥٦، وشرح المواهب ٥٦/٤ .

(٢) بفتح الباء وكسر اللام وياء مشددة، والنسبة إليها بلوي، نسبة إلى بلي بن عمر بن الحاف بن قضاعة، انظر الأنساب للسمعاني ٣٩٥/١ .

(٣) ذكره الحافظ في الإصابة ٥٢٢/١، ١١١/٤، وذكر طرفا من هذه القصة في الموضع الثاني من طريق الواقدي .

(٤) انظر طبقات ابن سعد ٣٣٠/١، وشرح المواهب ٥٧/٤، وزاد المعاد ٦٥٧/٣-٦٥٨، وما تضمنته هذه القصة من أحكام هي ثابتة من أحاديث أخرى في الصحيحن وغيرها .

فانظر إلى مبلغ كرمه صلى الله عليه وسلم حيث ما كان يترك الوفود من إكرامه حتى بعد أن يتكفل بذلك أحد أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، فتراه في القصة الأولى استحالة ضيافة وفد "بهراء" عليه صلى الله عليه وسلم، إذ لم يعد يأكلون إلا من الطعام الذى بارك عليه مدة بقائهم.

وكذلك الحال مع وفد "بَلِيّ" مما يدل على كرمه للأضياف، وتأمل كيف كانت إجابته صلى الله عليه وسلم لرئيس وفد بلي حينما سأله عن الضيافة تستفد ارتياحه العظيم لهذا الخلق الكريم الذى سأل عنه الرجل .

من أقواله صلى الله عليه وسلم فى شأن الضيافة :

تلك نماذج صالحة لما كان يقوم به صلى الله عليه وسلم من إكرام الضيوف بنفسه أو أمره، وهى دالة على كمال هذا الخلق عند النبي صلى الله عليه وسلم وعظمته فيه.

وذلك ناشيء عما كان كامنا فى نفسه من عظيم الخلق فى استشعار الواجب للضيف وهو ما كان يعبر عنه صلى الله عليه وسلم بأقواله الشريفة الكثيرة التى دلت على عظيم مكانة هذا الخلق فى الاسلام، ومن ذلك :

١ ـ أن جعل هذا الخلق مرتبطا بالإيمان ارتباطا وثيقا، ارتباط الدال بالمدلول،حيث قال صلى الله عليه وسلم : "من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرِم ضيفه جائزتَه" قالوا : وما جائزتُه يا رسول الله؟ قال : "يومه وليلته، والضِّيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقه عليه"(١).

وفى حديث آخر قال : "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرِم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمُت"(٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه ٣٩/٨، ومسلم في الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف .. برقم ٤٨، وفي اللقطة باب الضيافة ونحوها بالرقم نفسه واللفظ له فيها من حديث أبي شريح العدوي، وأخرجه أبو إسحاق الحربي في جزء إكرام الضيف من اثنتي عشرة طريق .

(٢) متفق عليه، وتقدم تخريجه ص ٢٨ .

فترى أنه صلى ا لله عليه وسلم قد جعل إكرام الضيف دليلا على الإيمان وشعبة من شعبه، فعلى مدَّعى الإيمان أن يبرهن على ذلك بتحقيق هذا الخلق، بأن يكرم ضيفه بما يقدر عليه من أنواع الإكرام بحيث لا يبخل عليه بما يقدر على إيجاده، ولا يتكلف ما لايقدر عليه،كما ستأتى الإشارة إليه.

قال أبو عبد ا لله الحلِيمى : "وإكرام الضيف أن يلقاه صاحب البيت بالطَّلاقة والبِشر، ويُحضر ما يحتاج إليه قبل الوقت الذى يتوقعه فيه، وأحسن وأوفر ما جرت به عادته مع أهله وولده، ويثويه أوسع ما عنده من الأماكن وأنزلها وأشرحها لصدره، وأسنحها فى الشتاء، وأدرجها فى الصيف(١) ويفرش مجلسه ومرقده أحسن وأنعم مما يفرشه لنفسه، ويحتمل عنه من مُؤن من يصحبه من خدَّامه ودوابِّه ما يحمل من مؤنة نفسه، وإذا خرج زوَّده ما يكفيه يومه، وشيَّعه ميلا إن كان عليه خوف، فإن قدر على أن يمده بمن يأمن بمرافقتهم إلى المنار(٢) وفعل، فذلك حسن وا لله أعلم"(٣).

٢ - إيجابه صلى ا لله عليه وسلم حق الضيافة على كل من ينزل عليه إنسان، فقال عليه الصلاة والسلام : "ليلة الضَّيف حقٌّ على كل مسلم، فمن أصبح بفِنائه، فهو عليه دَين، إن شاء اقتضى وإن شاء ترك"(٤)

وقال لعبد ا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنهما : "...وإن لزورك عليك حقا.. فأعط كل ذى حق حقه"(٥).

ففي هذين الحديثين جعل الضيافة حقا لازما على كل من يجتاز به الأضياف وهو قادر على ذلك، وللضيف أن يطالبه بها أو يسامحه عنها أو يجعلها دينا عليه كما هو

---

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب "وأسنحها في الصيف، وأدرجها في الشتاء"

(٢) أي: الحدود .

(٣) المنهاج في شعب الإيمان ٣/٣٦٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في الأطعمة، باب ما جاء في الضيافة من حديث المقدام بن معديكرب برقم ٣٧٥٠، وإسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٥٤٧٠ .

(٥) متفق عليه تقدم تخريجه ص ٦٠٩.

ظاهر الحديث وقال به جمع من أهل العلم(١) ولذلك قضى عليه الصلاة والسلام للضيف أن يستوفيها بنفسه إذا لم يقم المضيف بأداء الحق الذى عليه لضيفه.

فعن عُقبة بن عامر(٢) رضي الله عنه قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك تبعثنا فننزل بقوم لا يقرُوننا فما ترى؟ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه سلم : "إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغى للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حقَّ الضيف الذى ينبغى لهم"(٣).

وهذا يدل على ما مضى تقريره فى المقدمه من منزلة مكارم الأخلاق فى الاسلام، حيث جعل مثل هذا الخلق حقا لازما على كل من يمر عليه ضيف وهو يقدر على قِراه أن يقريه، ولا سبيل له إلى التخلى عن ذلك، فإن تخلى و لم يفعل كان للضيف الحق بأخذ ضيافته مما يجده من ماله، وفى هذا من التربية على كرم الخلق مالا مزيد عليه، لأن الإنسان إذا علم أن ذلك واجبا عليه وأنه إن لم يفعل طواعية، فإن للضيف أخذ ضيافته قسرا، بادر إلى الخلق الكريم طواعية ليثاب ويشكر، وتنمو فى نفسه ملكة كرم الخلق إن لم يكن ذا خلق كريم، وتتعزز إن كان كذلك.

٣ ـ تحديده صلى الله عليه وسلم مدة ثلاثة أيام للضيافة وهي مدة معقولة لا يضار فيها المضيف ولا يبخس الضيف، فقال عليه الصلاة والسلام فى ذلك : "الضِّيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة، ولا يحل لرجل مسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثِمه" قالوا يا رسول الله، وكيف يؤثمه؟ قال : "يقيم عنده ولا شيء يقريه به"(٤).

---

(١) منهم اللَّيث بن سعد، وأحمد بن حنبل، انظر شرح الإمام النووي على مسلم ١٢/٣٠-٣٢ .

(٢) الجهني أسلم يوم قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان قاريا عالما بالفرائض والفقه توفي سنة ٥٨، انظر تهذيب الأسماء ١/٣٣٦، والإصابة ٢/٤٨٩ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب إكرام الضيف ٨/٣٩، ومسلم في اللقطة، باب الضيافة ونحوها برقم ١٧٢٧ .

(٤) أخرجه مسلم في اللقطة، باب الضيافة ونحوها برقم ١٧٢٦ من حديث أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه.

فهذه المدة معقولة يقدر الانسان أن يبذل فيها لضيفه حاجته، ولا يجد في نفسه حرجا من نفقة أو بشاشة وجه، فجعلها الرسول صلى الله عليه وسلم وقتا للضيافه، ولا يكلّف المزيد على ذلك إلا على سبيل الإحسان والتفضل والقربة إلى الله تعالى.

٤ - إرشاده صلى الله عليه سلم إلى عدم التكلف للضيف ما لا طاقه له به أولا يملكه، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا يتكلّفن أحد لضيفه ما لايقدر عليه"(١). وذلك لئلا يتحرج فيه ويكره ضيافته، لأن المرء إذا علم أن الضيف لا يحب المتيسّر ضاق به ذرعا، ولربما أدخله مداخل ضيقة هو في غنى عنها، فأرشده النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن الواجب عليه هو بذل المقدور عليه فقط، لأنه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

فهذه الأحكام والآداب وغيرها مما لم يذكر هنا إذا روعيت، تجعل أمر الضيافة محببا للنفوس فتكون مشجّعة على التدرع بمكارم الأخلاق التى من أعظمها إكرام الضيف كما قال أنس رضى الله عنه حينما دخل عليه قوم يعودونه فى مرض له فقال: "يا جارية هلُمّي لأصحابنا ولو كِسَراً، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مكارم الأخلاق من أعمال الجنّة"(٢) وبذلك تكون هذه المكارم فى متناول كل أحد ليسر التحلّي بها، ولا يبقى لأحد عذر فى تركها إلا من غلب الشح والبخل عليه، لذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله: "لا خير فيمن لا يضيف"(٣).

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٩٤/٧ برقم ٩٥٩٩ من حديث سلمان رضي الله عنه، وضعّفه السيوطي في الجامع الصغير، لكن حسن الشيخ الألباني إسناده في صحيح الجامع الصغير برقم ٧٦٠٨ نظرا لطرقه ومتابعاته، وانظر مجمع الزوائد ١٨٢/٨ فقد رواه من طرق كثيرة موقوفا على سلمان رضي الله عنه، وحكم على أسانيدها بالصحة.

(٢) عزاه الهيثمي في المجمع ١٨٠/٨ إلى الطبراني في الأوسط قال: وإسناده جيد.

(٣) رواه أحمد في المسند ١٥٥/٤ من حديث عقبة بن عامر، قال في مجمع الزوائد ١٧٨/٨: ورجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وحديثه حسن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥٦١/٥ برقم ٢٤٣٤، وفي صحيح الجامع الصغير ١٢٤٧/٢ برقم ٧٤٩٢، قال في السلسلة: وحديث ابن لهيعة من رواية =

وفى هذا الحديث ترغيب فى الضيافه وتنفير من التخلي، عنها يحرص على تطبيقه كل مؤمن حتى تشمله الخيرية، وتنتفى عنه ضدها، ويساعد على ذلك ما تقدم من تيسير أمرها، غير أن المرء ينبغى له أن يبالغ فى الإكرام بقدر الطاقة بحيث لا يبخل بالموجود ولا يتكلف المفقود، فقد ورد عنه عليه الصلاة والسلام قوله : "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه"(١).

= عبدالله بن وهب صحيح؛ لأنه روى عنه قبل أن يسوء حفظه كما حققه بعض الأئمة، قال: فصح الحديث بهذه الرواية .

(١) روي من طريق جماعة من الصحابة منهم جرير وأبي هريرة وابن عباس وجابر رضي الله عنهم، أخرجه ابن ماجه برقم ٣٧١٢، والحاكم في المستدرك ٢٩٢/٤ وصححه، وسكت عنه الذهبي، والبيهقي في السنن ١٦٨/٨، وأبو نعيم في الحلية ٢٠٥/٦، وعزاه الهيثمي أيضا إلى الطبراني في الكبير والصغير، وأعل جميع طرقه الذي أوردها في المجمع ١٨/٨-١٩ . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٢٠٥، وحسنه في صحيح الجامع الصغير برقم ٢٦٩٠،،١،١١١ .

المبـحث الـــرَّابـــع

(الإحسان)

وفيه مطالب :

المطلب الأول : تعريف الإحسان وبيان منزلته فى الأخلاق الاجتماعيه ۰

المطلب الثانى : الإحسان إلى الجيران ۰

المطلب الثالث : الإحسان إلى الأيتام والأرامل ۰

المطلب الرابع : الإحسان إلى الفقراء والمساكين ۰

المطلب الأول

(تـعـريـف الإحسـان)

الإحسان في اللغة : الإتقان، ومنه قوله تعالى : ﴿وصوَّركم فأحسنَ صُوركم...﴾[سورة التغابن:٣](١) .

وفى الشرع يقال على وجهين :

"أحدهما الإنعام على الغير، يقال : أحسن إلى فلان .

الثانى : إحسان فى فعله، وذلك إذا عمل عملا حسنا"(٢) .

والإحسان أعم من الإنعام، وهو فوق العدل، لأن العدل هو أن يُعطى ما عليه ويأخذ ماله، والإحسان أن يُعطى أكثر مما عليه ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد على العدل، إذ تحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع"(٣) .

منزلة خلق الإحسان فى الأخلاق الاجتماعية :

وقد جاءت مادة "الإحسان" ومتعلقاتها فيما يقرب من أربعين موضعا فى القرآن الكريم، وذلك دليل على عظيم منزلة هذا الخلق الذى يعد مجمع الأخلاق، وعنه تنشأ جميع جزءياته فى كل مجال اعتقادى أو تعبدى أو سلوكي، ذاتى أو اجتماعي، ولذلك جعله النبي صلى الله عليه وسلم فوق مرتبة الاسلام والإيمان حيث عرَّفه بقوله : "والإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٤)" .

وهو بهذا المعنى يعني أن يكون الإنسان كامل الحضور مع الله تعالى والمراقبه الجامعة لخشيته، والإخلاص الكامل له فى كل أعماله، بأن يحسن قصده فيجعله خالصا متجردا له وحده، ويقدم على فعل المؤمورات واجتناب المنهيات بعزم وغير تردد، وبذلك يكون

---

(١) المعجم الوسيط ١٧٤/١ .

(٢) المفردات للراغب ص ١١٩ .

(٣) المفردات للراغب ص ١١٩ .

(٤) متفق عليه/ تقدم تخريجه ص ٣٢٥ .

المرء ناسكا لله فى كـل شئونه ويحقق معنى العبودية التى فطره الله تعالى عليها، والعبادة التى خلقه الله من أجلها .

فهذا هو الإحسان الذى عني القرآن الكريم بذكره بمعناه العام .

وهو بهذا المعنى يحتاج إلى تحليل جزئي لكل أبواب الشريعة الشامل لها هذا الخلق من عقائد وعبادات ومعاملات وسلوكيات، وهي الأبواب التى عني هذا الكتاب ببحثها، فيحتاج بيانه إلى سرد كل أبوابـــه على ضوء هذا الخلق العظيم، وهذا ما لا سبيل إليه ، وإنما السبيل أن نأتي من ذلك ببعض أبحاث الأخلاق الاجتماعية التي كان لها حظ من آيات الإحسان الكثيرة بلفظها أو معناها، وهو الإحسان إلى الجيران والأصدقاء، وإلى الأرامل والأيتام،وإلى الفقراء والمساكين. وكان الأجدر أن يتصدر هذه المباحث الإحسان إلى الوالدين والأقربين، غير أن القسمة المنهجية اقتضت تقديم ذلك فى الفصل الذى قبل هذا فى فصل الأخلاق الأسرية، وقد تقدم ما يدل على الشق الثانى ـــ الأقارب والأرحام ـــ دون الأول ـ الوالدين ـ لتعذر التطبيق النبوي فيه ، ولنشرع الآن فى ذكر هذه المباحث مستعينين بالله،متوكلين عليه،مستلهمين السداد والتوفيق منه سبحانه .

المطلب الثاني

(الإحسان إلى الجيران)

تعريف الجار لغة واصطلاحا:

الجار في اللغة يطلق على معان منها المجاورة في المسكن، والشريك في العقار، والذي يجير غيره، أي يؤمّنه مما يخاف، وعلى المستجير أيضا، وهو الذى يطلب الأمان، ويطلق على الحليف، وعلى الناصر، .. وعلى غير ذلك (١) والذى يعنينا من أنواع المجاورة الآن هو المعنى الأول، وهو المجاور في المسكن وقد عرّفه الراغب بقوله: "الجار من يقرب مسكنه منك، قال: وهو من الأسماء المتضايفة(٢)، فإن الجار لايكون جارا لغيره إلا وذلك الغير جار له كالأخ والصديق، قال:"ولما استعظم حق الجار عقلا وشرعا عبر عن كل من يعظم حقه أو يستعظم حق غيره بالجار"(٣) .

والراغب رحمه الله تعالى يشير إلى تعظيم حق الجار الذى ورد فى الشرع المطهر من كتاب وسنة كقوله تعالى:﴿واعبُدوا الله ولا تُشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانا وبذي القُربى واليتامَى والمساكينِ والجار ذِى القُربى والجار الجُنُب والصَّاحب بالجَنب وابنِ السَّبيل وما ملكت أيمانُكم إنَّ الله لا يُحبُّ من كان مختالاً فخورا﴾[سورة النساء:٣٦] .

فإن هذه الآية تحمل وصية الله تعالى لعباده فى الإحسان إلى جيرانهم لما فى ذلك من المصالح العامة و الخاصة، فى الدنيا والدين .

قال القرطبى رحمه الله (٤): أما الجار فقد أمر الله تعالى بحفظه والقيام بحقه والوصاية به

---

(١) انظر المصباح المنير ١٢٤/١، وتاج العروس ١١١/٣ .

(٢) التضايف: هو كون تصور كل واحد من الأمرين موقوفا على تصور الآخر، ا.هـ التعريفات للجرجاني ص٦٠ .

(٣) المفردات ص ١٠٣ .

(٤) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، كان من كبار المفسرين والمشهورين بالصلاح والتعبد، وله مؤلفات كثيرة عظيمة منها تفسيره المشهور المسمى بجامع أحكام القرآن وغيرها توفي سنة ٦٧١، انظر هداية العارفين ١٢٩/٢، والأعلام ٣٢٢/٥، وطبقات المفسرين للداودي ٦٩/٢ .

في كتابه وعلى لسان نبيه صلى ا لله عليه وسلم، قال: "ألا تراه سبحانه أكّد ذكره بعد الوالدين والأقربين ـ أي: واليتامى والمساكين ـ فقال تعالى: ﴿ والجارِ ذي القربى ﴾ أي: القريب، ﴿ والجار الجنب ﴾ أي: الغريب قاله ابن عباس، وكذلك هو فى اللغة ومنه فلان أجنبي ... إلى أن قال: فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلما كان أو كافرا، قال: وهو صحيح، ثم قال: والإحسان قد يكون بمعنى المواساة،وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه"(١) فهذا ندب ربّاني كاف لحث المؤمنين إلى المبادرة إلى امتثاله.

وذلك فضلا عن أن الإحسان إليه هو من مكارم الأخلاق التي بعث ا لله تعالى نبيه محمدا صلى ا لله عليه وسلم ليتممها .

وقد كانت العرب فى الجاهلية تتخلق بذلك وتعدُّه من شيمها العظيمه،حتى أن أحدهم يقول : "وا لله لايؤذَى كلبُ جاري"(٢) ودل على ذلك استعمال المادة أعنى مادة المجاورة فى القرآ ن الكريم، فإنها لم تأت إلا بما يفيد الإحسان والمناصرة والمؤازرة فى رفع الشر وجلب الخير كما علمت من المعانى اللغويه التى أتت بها هذه الكلمه.

ففي معنى الإجارة وهي التأمين من الحقوق يقول ا لله تعالى : ﴿ وإن أحدٌ من المشركين استجارَك فأجِره حتى يسمعَ كلامَ ا للهِ ثم أَبلغه مأْمنه ﴾[سورة التوبة:٦] وفى معنى المناصرة يقول ا لله تعالى على لسان إبليس لعنه ا لله تعالى فى قصة يوم بدر: ﴿ وقال لا غالبَ لكم اليومَ من النَّاسِ وإنِّي جارٌ لكم... ﴾[سورة الأنفال:٤٨] أي: ناصركم فى محاربتكم النبي صلى ا لله عليه وسلم، غير أنه سرعان ما تخلّى عنهم لما علم أنه سيحيق بهم العذاب الأليم،فما لبث أن فرَّ وخذلهم كما قص ا لله عنه بقوله : ﴿ فلما تراءتِ الفِئتان نكصَ على عقبيهِ وقال إنِّي بريءٌ منكم إنِّي أرى مالاتَرون إنِّي أخافُ ا للهَ وا لله شديد **العقاب**﴾[سورة الأنفال:٤٨] .

---

(١) جامع أحكام القرآن ١٨٣/٥-١٨٤ .

(٢) انظر مكارم الأخلاق للطبراني ص ٣٣١ .

أما معنى الحليف الذى من شأنه النصرة والتأييد ودفع السوء وجلب النفع فيفيده قول الله تعالى : ﴿قل من بيده ملكوتُ كلِّ شيء وهو يُجير ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون﴾[سورة المؤمنون:٨٨] وقوله تعالى : ﴿قل أرأيتُم إن أهلكنيَ الله ومن مَعِيَ أو رَحِمنا فمن يُجيرُ الكافرينَ من عذابٍ أليم﴾[سورة الملك:٢٨] والاستفهام هنا معناه النفي أي: لا أحد يجيرهم من عذابه سبحانه وتعالى .

أما المعنى الذى نحن بصدده وهو المجاور فى السكن فقد ورد فى قوله تعالى : ﴿لئِن لم ينتهِ المنافقون والَّذين فى قُلوبهم مرضٌ والمرجِفون فى المدينةِ لنُغرينَّك بهم ثم لا يُجاورونك فيها إلَّا قليلا﴾[سورة الأحزاب:٦٠] والآية تتحدث عمن أخل بحق الجوار مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وأولئك هم المنافقون، وقد أثبت الله تعالى لهم الجوار لنبيه صلى الله عليه وسلم وكان عليهم أن يراعوا حق الجوار إن لم يراعوا حق الإيمان، فيكونون معه فى السراء والضراء، غير انهم جبلوا على النفاق، وأظهروا فى غزوة الأحزاب ما تكِنُّ أفئدتهم من الحقد الدفين والعداوة المبيَّتة للمؤمنين، فأرجفوا فى المدينة بإشاعة الكذب والباطل بين الناس للاغتمام به، وقد تحقق لهم ذلك بحيث أصبح حال المؤمنين ما قصه الله تعالى فى صدر سورة الأحزاب من زيغ الأبصار وبلوغ القلوب الحناجر .

وما كان أجدرهم حينئذ بما حكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ملَعونين أينما ثُقِفوا أُخِذوا وقُتِّلوا تَقتيلا * سُنَّة الله فى الَّذين خَلَوا من قبلُ ولن تجدَ لسُنَّةِ الله تَبديلا﴾[سورة الأحزاب:٦١ ،٦٢] غير أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينفذ فيهم ذلك، لأنهم انتهوا عن الإرجاف كما يقوله بعض أهل التفسير، قال فى التحرير والتنوير (١): "وبهذا الوعيد انكفَّ المنافقون عن أذاة المسلمين وعن الإرجاف، فلم يقع التقتيل فيهم إذ لم يُحفظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قتل منهم أحدا، ولا أنهم خرج منهم أحد" .

وقال القرطبى:"وفى الآية دليل على جواز ترك إنفاذ الوعيد، والدليل على ذلك بقاء

---

(١) ٢٢/١١٠ .

المنافقين معه عليه الصلاة والسلام حتى مات، قال: والمعروف من أهل الفضل إتمام وعدهم وتأخير وعيدهم"(١) غير أن التأريخ قد سجل عليهم أنهم جيران سوء، لابورك بأمثالهم، فإنهم كانوا أشد على المسلمين وأضر عليهم من أعدائهم الخارجيين، لأنهم كانوا جيرانا لهم فكانوا أدرى الناس بعوراتهم وأحوالهم كما هو شأن الجيران، فلذلك كان جزاؤهم شديدا وصارما لو أنه نفذ فيهم، لكونهم لم يراعوا حقوق الجوار التى تقتضيها الأعراف وأكدتها الشريعة، وذلك شأن كل من يفرط فى هذه الحقوق كما قال تعالى:﴿سُنَّةُ الله فى الذين خَلَوا من قبلُ ولن تجدَ لسُنّةِ الله تبديلا﴾.

غير أن ذا الخلق العظيم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حلم عنهم وصبر على أذاهم، و لم يشأ إنفاذ العقوبة الصارمة عليهم خشية أن يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه، وليسوا بأصحاب له ولا كرامة، ولكن من يُفهم عامة الناس ورعاعهم، وهم يرون المنافقين مجاورين فى المدينة، ويدخلون ويخرجون على النبي صلى الله عليه وسلم فلا يظنونهم إلا من صحبه وجنده، ولأنه صلى الله عليه وسلم لما كان هذا العقاب موكولا إلى اختياره لم ينفذه؛ لأنه ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما كما هو منهجه، وكما مضى ذكره. فصلوات ربى وسلامه على سيدنا محمد الرؤوف الرحيم، وصاحب الخلق العظيم.

---

(١) جامع أحكام القرآن ١٤/٢٤٨ .

تمثل خلق الإحسان

للجيران فى النبي صلى ا لله عليه وسلم

ذلك مجمل حديث القرآن الكريم عن الجيران وما لهم وما عليهم .

أما حاله صلى ا لله عليه وسلم مع جيرانه فقد كان على النحو الذى يريده ا لله تعالى من عباده، وتقتضيه الأعراف الفاضله كما تدل على ذلك الأحاديث الواردة عنه صلى ا لله عليه وسلم فى الوصاية بالجيران :

١ ـ فعن عائشة رضي ا لله تعالى عنها أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : "ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورِّثه"(١) أى من كثرة تكرار وصيته بهم، ووصية جبريل عليه السلام للنبي صلى ا لله عليه وسلم إنما هى وصية لأمته التى تحتاج إلى مثل ذلك البحث؛ لأن حث التابع حث للمتبوع من باب أولى،ما لم يكن خاصا بالتابع بدليل يوضح ذلك .

أما ذاته صلى ا لله عليه وسلم فقد كان أوفى الناس معروفا وإحسانا بجيرانه، وكيف لا وهو القائل فيما رواه أبو هريرة رضي ا لله عنه : "من كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت"(٢) .

فإنه صلى ا لله عليه وسلم يندب إلى البرهنة على الإيمان با لله ورسوله بالإحسان إلى الجار وإكرام الضيف وقول الخير أو الصمت، ولا ريب أنه صلى ا لله عليه وسلم قد برهن على ذلك بنفسه أولا كما هى شيمته وأخلاقه، فى المبادرة إلى كل ما هو خير يدعو إليه بقوله، حيث كان يندب إلى ذلك بفعله، ليكون فعله مصدر تأس، كما يكون قوله مؤكدا لفعله وداعيا إلى الامتثال به، وكما ندب فى هذا الحديث إلى البرهنة على

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب الوصاة بالجار ١٢/٨، ومسلم في البر والصلة، باب الوصية بالجار برقم ٢٦٢٤، وأبو داود في الأدب، باب في حق الجوار برقم ٥١٥١ .

(٢) متفق عليه وتقدم ذكره في الضيافة ص٨٢٠.

الإيمان بالإحسان إلى الجيران وغيره ، فقد نـدب فى حديث آخر إلى البرهنة عليه بكف الأذى عنه حيث قال فيما رواه عنه أبو هريرة رضي ا الله عنه :

٣ ـ "من كان يؤمن با لله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه، ومن كان يؤمن با لله واليوم الآخر فليقُل خيرا أو ليسكت"(١).

وذلك لأن مجرد الإحسان لا يكفي إذا ما كدره الأذى؛لأن الإحسان مع الأذى يذهبه سدى كما يستفاد من قوله تعالى : ﴿ولا تُبطلوا صدقاتِكم بالمنِّ والأذى﴾[سورة البقرة:٢٦٤] ولذلك أقسم عليه الصلاة والسلام ثلاثا على نفي الإيمان عمن لا يكف أذيته عن جاره .

٤ ـ فقد روى أبو هريرة رضي ا الله عنه أن رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم قال : "وا لله لا يؤُمن، وا لله لا يؤُمن، وا لله لا يؤُمن، قيل من يا رسول ا الله؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه"(٢) أى دواهيه وشروره، وهو عام فى كل جار مسلما كان أو كافرا.

فالحديث يفيد نفي الإيمان عمن يؤذي جاره، وقد أكَّدهُ صلى ا الله عليه وسلم بأبلغ المؤكدات وهو القسم، ثم لم يكتف صلى ا الله عليه وسلم بقسم واحد بل أقسم ثلاثا على نفي إيمان من ذكر؛ مما يدل على عظم الجُرم ومبلغ الشر الذى يأتى من جراء ذلك، وسواء كان المراد نفي الإيمان كله أو كماله(٣) فإنه يفيد بأن من يؤذى جاره لم يراع وصية ا الله تعالى لعباده بالجيرة؛لأنه لم يأخذ بها مأخذ الجد، وذلك دليل على عدم اكتراثه بما يترتب على ذلك من العقاب، وهو ما لا يصدر إلا من جاحد أو جاهل.

وفى هذا الحديث من الدلالة على عظيم شعوره صلى ا الله عليه وسلم بحق الجار ما

---

(١) هذه إحدى روايات الحديث السابق المتفق عليهوالمتقدم تخريجه ص ٢٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ١٣/٨، ومسلم في الإيمان، باب إثم إيذاء الجار برقم ٤٦ .

(٣) انظر فتح الباري ٣٣/٢٢ .

يكفي للاستدلال على حسن مجاورة النبي صلى الله عليه وسلم لجيرانه؛لأن من أعظم الإحسان إلى الجار أن يأمن جانب جاره على نفسه وماله وأهله، فيعيش في بيته آمنا، وإن غاب عنه كان مطمئنا غير خائف ولا قلق، ويعيش هادىء البال قرير العين، وتأتي كل صور الإحسان بعد هذا الأمر، وهي كلها ثابتة عنه صلى الله عليه وسلم من أقواله الشريفه الموجهة لأصحابه وأمته، حثا على ذلك وترغيبا، وكل ذلك يترجم عن أفعاله وسلوكه صلى الله عليه وسلم مع جيرانه؛لما كان عليه من المبادرة إلى ما يدعو إليه كما علمت غير مرة، ناهيك عما تدل عليه تلك الأقوال من تمثل هذا الخلق في رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن "القول بالفعل يعدل" كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه(١) .

وأقواله صلى الله عليه وسلم في الجيران وحقوقهم وآدابهم من غير ما تقدم كثيرة جدا فمن ذلك :

أ ـ حثه صلى الله عليه وسلم على الإحسان إلى الجيران بالبذل والعطاء، وأحاديثه كثيرة **ومن ذلك:**

١ ـ ما جاء عن أبي ذر رضي الله عنه قال : "إنَّ خليلي ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أوصاني:إذا طبختَ مرقا فأكثر ماءه ثم انظر أقرب أهل بيت من

---

(١) قال ذلك في قصيدة يمتدح فيها الزبير بن العوام رضي الله عنه كان مطلعها الذي فيه هذه القافية وهو كما في ديوانه ص ١٩٨، وفي مجمع الزوائد ١٢٨/٨:

أقام على عهد النبي وهديه حواريُّه والقول بالفعل يعدل .

وحسان هو شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يصغي إلى شعره ويشجعه عليه فيقول له: اهج المشركين وروح القدس معك، ويدعو له فيقول: اللهم أيده بروح القدس كما هو ثابت في الصحاح والسنن، عاش حسان رضي الله عنه مائة وعشرين سنة؛ ستون في الجاهلية وستون في الإسلام، وتوفي سنة ٥٤ هـ، انظر تهذيب الأسماء ١٥٦/١، والاستيعاب بهامش الإصابة ٣٣٥/١، والإصابة ٣٢٦/١ .

جيرانك فأصبهم منها بمعروف"(١) .

٢ ـ ومنه ما جاء عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا نساء المؤمنات لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فِرْسَن شاة(٢)" أي: ظلفها .

ب ـ حثه على التساهل مع الجيران وعدم المشاحة فى الحقوق :

فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يمنع أحدُكم جارَه أن يغرز خشبه فى جداره" ثم قال أبو هريرة رضى الله عنه : مالي أراكم عنها معرضين والله لأرمينَّ بها بين أكتافكم(٣)" .

جـ ـ تحديده للأولى بالبذل والإحسان على غيره :

فقد سألته عائشة رضى الله عنها قائلة : "يا رسول الله إن لي جارين فإلى أيهما أهدي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إلى أقربهما منك بابا"(٤) .

د ـ تعظيم حقوق الجيران كما علمت من الأحاديث السابقة، وكما روى أنس بن مالك رضى الله عنه قال :

١ ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ماآمنَ بى من بات شبعانا وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم"(٥) .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب الوصية بالجار والإحسان إليه برقم ٢٦٢٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها ١٢/٨، وفي الهبة في فاتحته ٢٠١/٣ ، ومسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بقليل برقم ١٠٣٠ .

والفرسن: خف البعير، وقد استعير للشاة فسمي ظلفها فرسنا؛ لأنه للشاة بمنزلة الخف للبعير ا.هـ جامع الأصول لابن الأثير ٦٤١/٦ .

(٣) البخاري في المظالم، باب لايمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره، ومسلم في المساقاة، باب غرز الخشب في جدار الجار برقم ١٦٠٩ .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب، باب حق الجوار في أقرب الأبواب ١٣/٨ .

(٥) عزاه الهيثمي في المجمع ١٧٠/٨ إلى الطبراني والبزار قال:وإسناد البزار حسن،وعزاه إليهما أيضا المنذري =

٢ ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع"(١)

٣ ـ ومن هذا الباب ما رواه المقداد بن الأسود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "ما تقولون فى الزنا"؟ قالوا حرام حرّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره" قال : فقال : "ما تقولون فى السرقة"؟ قالوا حرمها الله ورسوله فهي حرام، قال:"لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره"(٢).

٣ ـ ومنه أيضا ما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله إن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها غير انها تؤذى جيرانها بلسانها قال : هي فى النار قال : يا رسول الله فإن فلانة يُذكر من قِلّة صيامها وصلاتها وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط(٣) ولا تؤذي جيرانها قال: هي فى الجنة"(٤).

= في الترغيب ٣٥٨/٢ وقال: وإسناده حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٩٦٧/٢ برقم ٥٥٠٥.

(١) عزاه المنذري أيضا إلى الطبراني وأبي يعلى قال: ورواته ثقات ا.هـ الترغيب ٣٥٨/٢، وفعل كذلك الهيثمي في المجمع ١٧٠/٨ وقال نحوه.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٨/٦ قال المنذري في الترغيب ٣٥٢/٢: رواته ثقات وعزاه إلى الطبراني في الكبير والأوسط وقال نحوه الهيثمي في المجمع ١٧١/٨.

(٣) الأثوار: جمع ثور وهي قطعة من الأقط، والأقط: بفتح الهمزة وكسر القاف: هو شيء يتخذ من مخيض اللبن الغنمي، قاله المنذري في الترغيب ٣٥٦/٢.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٤٤٠/٢، وعزاه المنذري في الترغيب ٣٥٦/٢ إليه وإلى البزار وابن حبان في صحيحه وقال: صحيح الإسناد،

قال: ورواه أبو بكر بن أبي شيبة بإسناد صحيح إيضا ثم ذكر لفظه عنده بأخصر مما ذكر هنا.

والأحاديث هنا كثيرة، وفيما ذكر كفاية، وهي تعبر عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم مع جيرانه؛ لأنه أول من يبادر إلى ما دعى إليه وحث عليه، وهى تعطي صورة واضحة عما يجب أن يكون عليه المجتمع الإسلامي من صفاء المودة وحسن الإخاء والإيمان، والجور السُّكَّاني ، وإن كان مع غير المسلمين فإن الجار له حق وإن كان كافرا كما دل عليه قوله تعالى:﴿ والصَّاحِبِ بالجَنْبِ ﴾[النساء:٣٦]

وقد ذكروا أن الجيران ثلاثه: جار مسلم ذو قربة فله ثلاثة حقوق : حق الجوار وحق القرابه وحق الإسلام ، وجار مسلم غير قريب فله حقان: حق الجوار وحق الإسلام، وجار غير قريب ولامسلم فله حق الجوار (١) ، وكلهم شملهم وصية الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بالجيران خيرا .

---

(١) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ١٨٤/٣ وأصل هذا القول حديث ضعيف .

المطلب الثالث

(الإحسان إلى الأيتام والأرامل)

اليُتم بالضم لغة : الانفراد يقال : دُرّة يتيمة،تنبيها على أنه انقطعت مادتها التى خرجت منها ، وقيل بيت يتيم تشبيها بالدُّرة اليتيمة (١) .

قال فى القاموس (٢): اليتيم الفرد، وكل شيء يعز نظيره، وقد يَتَم كضرب وعلم يُتما ويُفتح وهو يتيم ويتمان ما لم يبلغ الحلم ، وجمعه: أيتام ويتامى ويَتَمَه ومَيْتمه ...

وفى الاصطلاح : هو انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه، وفى سائر الحيونات من قبل أمه، وسمى بذلك لأنه بقي منفردا لايجد من يدفع عنه وينفق عليه (٣).

أما الأرامل فجمع أرمل وهو: من افتقر وفني زاده (٤) وهو يقع على الذكور والنساء، يقال: رجل أرمل وامرءة أرملة، ولا يقال لهما ذلك إلا مع الحاجة، والغالب أنه لايقال ذلك إلا للنساء(٥) .

وفى الاصطلاح هى: المرأة التى لازوج لها، وسميت بذلك لافتقارها إلى من ينفق عليها، قال الأزهرى(٦): لايقال لها أَرملة إلا إذا كانت فقيرة فإن كانت موسِرة فليست بأرملة (٧).

---

(١) القاموس المحيط ١٩٣/٤، والمفردات ٥٠٠ .

(٢) ١٩٣/٤ .

(٣) المفردات ص ٥٠٠، والتحرير والتنوير ٢١٩/٤ .

(٤) أساس البلاغة للزمخشري ص ١٧٩ .

(٥) تاج العروس ٣٥١/٧ .

(٦) هو محمد بن أحمد الأزهري الهروي أحد الأئمة في اللغة والأدب، رحل في طلب العربية حتى تبحر فيها، وألف مؤلفات نافعة منها كتابه العظيم تهذيب اللغة توفي سنة ٣٧٠ هـ، انظر بغية الوعاة للسيوطي ص٨، الأعلام للزركلي ٣١١/٥ وغيرهما .

(٧) المصباح المنير ٢٥٧/١ .

عناية القرآن الكريم بالإحسان إلى اليتامى والأرامل :

والأيتام والأرامل من الضَّعفة الذين عُني القرآن الكريم بالوصاية فى الإحسان إليهم كثيرا، أما الأيتام فكانت وصيته بهم صراحة فى آيات كثيره، وأما الأرامل فهم فى ضمن ضَعَفة المسلمين ومساكينهم الذين وصَّى الله بهم خيرا فى محكم آياته.

عنايته بالأيتام :

أما عناية القرآن الكريم بالأيتام فهى كبيرة جداءفقد تحدثت آياته عما يكون به صلاح حالهم ومآلهم من حثه سبحانه وتعالى على تنمية أموالهم وأمره بدفعها إليهم عند الرُّشد، ومن تحذيره وزجره عن أكل أموالهم، ومن حثه على الإحسان إليهم، وثنائه سبحانه على من يكرمهم، وذمه من لا يحسن إليهم، ثم فرض الله تعالى لهم ما يغنيهم لو أن الجهاد مع الكفار قائم...، وذلك كله فى أكثر من عشرين آية من محكم آياته الكريمة بما يطول ذكره لو أن المقام يستدعى الإطاله، وحيث إنه لا مجال لذلك فنكتفى بالإشارة الوافية إلى ما ذكر إن شاء الله تعالى.

ومن أبرز مظاهر عنايته سبحانه وتعالى بالأيتام ما قصه علينا بقوله جل شأنه : ﴿وأمَّا الجدارُ فكان لغلامين يَتيمينِ فى المدينةِ وكان تحتَه كنزٌ لهما وكان أبوهما صالحًا فأراد ربُّك أن يبلغا أشُدَّهما ويَستخرجا كنزَهما رحمةً من ربِّك وما فعلتُه عن أمري ذلك تأويلُ ما لم تَسطِع عليه صبرا﴾[سورة الكهف:٨٢] ، فإن الله تعالى قد راعى حق هذين اليتمين بحفظه كنزهما الذى أودعه أبوهما الجدار حتى اهتديا إليه، وقد ذكر المفسرون أن سبب حفظ كنزهما هو صلاح أبيهما، غير أن سبب حصول هذه الكرامة للأب هو يتم غلاميه، (فأراد الله تعالى اللطف باليتيمين جزاء لأبيهما على صلاحه، إذ علم الله أن أباهما كان يهمه أمر عيشهما بعده،وكان قد أودع تحت الجدار الكنز المذكور، فحفظته العناية الإلهية عن أن تصل إليه الأيادى الأخرى حتى وصلا إليه)(١) .

فهذا المثال الحي دليل واضح وجلي على مبلغ عناية الله تعالى بالأيتام ولذلك كان

---

(١) انظر التحرير والتنوير ١٦/١٤ .

كتابه الكريم مفعما بالحديث عنهم فى تلك القضايا التى سردتها وهى :

١ـ العمل بما فيه صلاح أموالهم :

فلقد كلف الله تعالى من بيدهم أمر الأيتام من أوصياء وأولياء ما يكفل به إن شاء الله صلاح أحوال الأيتام فى أموالهم الذى به قوام حياتهم، والذى تسهل على ذوى النفوس المريضه بالجشع والطمع أخذه وأكله، حيث نهاهم عن التفريط فى أموالهم إلا بالتى هى أحسن كما قال سبحانه : ﴿ولا تَقربُوا مالَ اليتيم إلا بالتّى هى أحسنُ حتّى يبلغَ أشُدّه﴾[سورة الأنعام:١٥٢،والإسراء:٣٤] فنهاهم عن القربان منه وهو كناية عن ملابسته ليكون أبلغ فى التحذير من النهى عن ملابسة الأكل، لأن القُرب من الشيء مِظَنّةُ الوقوع فيه(١) إلا أن يكون بالفِعلة التى هى أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثميره(٢) إلى أن يبلغ أشده وهو رشده دينا ودنيا(٣)، وذلك بأن يحصل له قوة البدن بالبلوغ وقوة المعرفة وهو إيناس الرشد، ويعرف ذلك بانتظام تصرف العقل وصدور الأفعال عن ذلك بانتظام(٤).

قال القرطبي (٥) رحمه الله تعالى : "وخُصّ اليتيم بهذا الشرط لغفلة الناس عنه وافتقاد

---

(١) التحرير والتنوير ٨/١٥٣-١٥٩ .

(٢) روح المعاني ٣/٨/٥٥ .

(٣) قال الخطيب الشربيني في تفسيره المسمى بالسراج المنير ١/٢٨٢: الرشد: هو صلاح الدين والمال، أما صلاح الدين فلا يرتكب محرما يسقط العدالة من كبيرة أو إصرار على صغيرة، قال: ويعتبر في رشد الكافر دينه، وأما صلاح المال، فبأن لا يضيعه بإلقائه في بحر أو بصرفه في محرم أو باحتمال الغبن الفاحش في المعاملة ونحوها، قال: وليس صرفه في الخير بتبذير ولا صرفه في الثياب والأطعمة النفيسة وشراء الجوار والاستمتاع بهن؛ لأن المال يتخذ لينتفع به، نعم إن صرفه بذلك بطريق الاقتراض حرم عليه.ا.هـ

(٤) التحرير والتنوير ٤/٢٤٢ .

(٥) في تفسيره:جامع أحكام القرآن ٧/١٣٥ .

الآباء لأبنائهم فكان الاهتبال(١) بفقيد الأب أولى - أي العناية - قال : وليس بلوغ الأشد مما يبيح قرب ماله بغير الأحسن؛لأن الحرمة فى حق البالغ ثابتة، قال : وخص اليتيم بالذكر لأن خصمه الله تعالى والمعنى : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن على الأبد حتى يبلغ أشده.

فانظر إلى هذا التحذير البالغ الذى وجهه الله تعالى لمتولى أمور اليتامى لئلا يفرطوا بأموالهم ولو بأقل أحوال الأخذ، أو بأى حيلة كما قال فى آية أخرى : ﴿ولا تأكُلوها(٢) إسرافًا وبِدارًا أن يَكبَرُوا﴾[سورة النساء:٦]. وذلك لأنهم لا يقدرون على الدفع عن أنفسهم فتولى الله تعالى الدفاع عنهم، وإصلاح أحوالهم، بمثل هذا التشريع العظيم.

٢ - تحذيره سبحانه وتعالى من أُكل أموال اليتامى أو التفريط فيه :

وقد أوضح الله تعالى خطر من يفرط فى هذا النهى ببيانه سبحانه جزاءهم الأليم حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿إن الَّذين يَأكُلون أموالَ اليتامى ظُلماً إنَّما يَأكُلونَ فى بُطونهم ناراً وسَيصلون سعيراً﴾[سورة النساء:١٠] فإن هذا الوعيد تكاد تنخلع منه الأفئدة اليقظه التى تتذكر وتعتبر؛لهول العذاب المترتب على ذلك، والتشنيع الفظيع الذى دل عليه التعبير بالبطون؛إذ اختصاصها بالذكر يدل على اتصافهم بضد مكارم الأخلاق من الهلع والجشع(٣) .

ولذلك لما كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بهذه المثابة من اليقظة والإحساس، فرِقوا من هوله وعظمته وتحرَّجوا عن مخالطة يتاماهم، فاضطُرُّوا إلى أن يعزل أحدهم طعامه عن طعامه وشرابه عن شرابه، بحيث لحق بالأيتام الضرر الَّذى لم يرده الشرع، وما يعد من جنس ما نهاهم عنه فى النتيجة.

---

(١) الاهتبال: اغتنام الفرصة وابتغاؤها وتكسبها، والمعنى هنا الاشتغال بشأن اليتيم انظر الصحاح للجوهري ١٨٤٧/٥ .

(٢) أي: أموال اليتامى .

(٣) انظر محاسن التأويل ١٥/٥، وجامع أحكام القرآن ٥٣/٥ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : "لما أنزل الله تعالى : ﴿ولا تقربوا مالَ اليتيم إلاّ بالتي هي أحسنُ﴾ [الأنعام:١٥٢] وقوله تعالى : ﴿ إنَّ الذين يأكلُون أموالَ اليتامى ظُلماً﴾ [النساء:١٠] الآية قال : فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه،فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ويسألونَك عن اليتامَى قل إصلاحٌ لهم خيرٌ وإن تُخالطوهم فإخوانُكم والله يعلم المفسدَ من المصلح ولو شاء الله لأعنتَكم إنَّ الله عزيزٌ حكيم﴾[سورة البقرة:٢٢٠] قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم"(١) .

قال الفخر الرازي :"اعلم أنه تعالى أكد الوعيد فى أكل مال اليتيم ظلما وقد كثر الوعيد فى هذه الآيات - يعني سورة النساء - مرة بعد أخرى على من يفعل ذلك،كقوله تعالى :﴿ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا﴾[سورة النساء:٢] وقوله: ﴿ولْيخشَ الّذين لو تركوا من خلفهم ذرِّيَّةً ضِعافا خافوا عليهم فليتَّقوا الله وليقُولوا قولًا سديدا﴾[سورة النساء:٩] ثم أكد بعد هذه الآية - يعني:﴿إن الذين يأكُلون أموالَ اليتاما ظُلما ...﴾ - آية مفردة فى وعيد من يأكل أموالهم قال: وذلك كله رحمة من الله تعالى باليتامى وذلك لكمال ضعفهم وعجزهم،فاستحقوا من الله تعالى مزيد العناية والكرامة ، قال: وما أشد دلالة هذا الوعيد على سعة رحمته وكثرة عفوه وفضله؛ لأن اليتامى لما بلغوا فى الضعف إلى الغاية القصوى بلغت عناية الله تعالى

---

(١) أخرجه أبو داود في الوصايا، باب مخالطة اليتيم في الطعام برقم ٢٨٧١ ، والنسائي في الوصايا، باب ماللوصي من مال اليتيم ٢٥٦/٦، وفي إسناده عطاء بن السائب وهو ممن اختلط بآخره، والراوي عنه في سند أبي داود جرير، وعند النسائي أبو كدينة يحيى بن المهلب في رواية، وعمران بن عيينة في رواية أخرى، وهم جميعا ممن رووا عنه بعد الاختلاط كما يستفاد من ترجمة عطاء حيث لم يستثن ممن رووا عن عطاء غير أربعة ليس هؤلاء منهم، فالحديث ضعيف لذلك، غير أن بعضهم قد تابع بعضا، فحصل الأنس بعدم الاختلاط في هذه الرواية، ويستطاع أن يقال عندئذ: إن الحديث حسن لغيره إن شاء الله تعالى والله أعلم .

إلى الغاية القصوى "(١).

٣ ـ نهيه سبحانه عن دفع الأموال إلى الأيتام قبل بلوغهم سن الرُّشد:

وقد كان من عناية الله تعالى القصوى بالأيتام أنه لم يمكِّنهم من أخذ أموالهم في حين يتمهم خشية تفريطهم فيه وإضاعتهم له، وإنما أمر الأولياء والأوصياء أن لا يدفعوا إليهم أموالهم إلا إذا أنسوا من رشدهم فقال تعالى: ﴿وابتلُوا اليَتامَى حتَّى إذا بَلغُوا النِّكاحَ فإن آنستُم منهم رُشدًا فادفعوا إليهم أموالَهم..﴾[سورة النساء:٦] .

ولم يرد المولى جل ذكره من الأولياء مجرد الدفع، بل أراد أن يكون الدفع مبرهنا عليه بالشهادة التي تثبت بها الحقوق وتبرأ بها الذمم، وذلك للدلالة على خطر هذا الأمر وكمال العناية به فقال سبحانه: ﴿فإذا دَفعتُم إليهم أموالَهم فأشهِدُوا عليهم وكفى باللهِ حسيبا﴾[سورة النساء:٦] .

٤ ـ حثه سبحانه ذوي الحقوق في التركات على الإحسان إلى الأيتام الذين لا ميراث لهم معهم:

كما كان من عنايته باليتامى أن حث ذوي الحقوق عند قسمة التركات أن يرزقوا اليتامى وأولي القربى والمساكين مما ينالون ولا يستأثرون به دونهم، لما في ذلك من مكارم الأخلاق في إعطائهم ما تيسر من المال المقسوم، إذْ ترك ذلك يولد في نفوسهم حسرة وأسى لقرابتهم من الميت أو حاجتهم إلى المال ، ودفع شيء إليهم يحصل به الود والتراحم، وهو من حسن العشرة مع الأقارب والأيتام والمساكين، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وإذا حضر القسمةَ أولُوا القُربَى واليَتامى والمساكينُ فارزقوهم منه وقولُوا لهم قولاً معروفا﴾[سورة النساء:٨] .

٥ ـ أمره بالإقساط إلى اليتامى النساء عند إرادة الزواج بهن :

كما كان من عنايته بالأيتام ما وصَّى به أولياء يتامى النساء أن يقسطوا في يتاماهم اللائي في حجورهم إذا رغبوا في نكاحهن لمالهن أو جمالهن، ولكن لا يريدون أن

---

(١) التفسير الكبير ٩/٢٠٠ .

يقسطوا لهن فى المهر، فوصاهم إن هم رغبوا فى ذلك أن يبلغو بهن أعلى سُنَّتهن فى الصداق، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وإن خِفتُم ألاَّ تُقسِطوا فى اليَتامى فانكحوا ما طاب لكم من النِّساء مَثنى وثُلاث ورُباع، فإن خِفتُم ألاَّ تعدِلوا فواحدةً أو ما ملكت أيمانُكم ذلك أَدنى ألاَّ تَعُولوا﴾[سورة النساء:٣] كما دل على ذلك ما قالته أم المؤمنين عائشة رضي ا لله عنها لابن أختها عروة بن الزبير حينما سألها عن هذه الآية فقالت :«يابن أختي هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغوا بهن أعلى سُنَّتهن فى الصَّداق، فأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن»(١) يعنى إذا خاف أن لا يعطيها مهر مثلها فعليه أن يعدل إلى ما سواها من النساء فإنهن كثير و لم يضيق ا لله تعالى عليه.

وهذا مظهر عظيم من مظاهر عناية ا لله تعالى بيتامى النساء،اللاتى لم يكن لهن نصيب من العدل والقسط فى الجاهلية،حيث كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئا، فلما نزلت آية المواريث فى سورة النساء شق ذلك على الناس، وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال والمرأة التى هي كذلك فيرثان كما يرث الرجل(٢)، كما نعى ا لله تعالى عليهم ذلك بقوله : ﴿ويَستَفتُونَك فى النِّساء قلِ ا للهُ يُفتيكم فيهنَّ وما يُتلَى عليكم فى الكِتابِ فى يَتامى النِّساء اللَّاتي لا تُؤتُونهنَّ ما كُتبَ لهنَّ وتَرغبونَ أن تَنكِحوهُنَّ والمُستضعفينَ من الوِلدانِ وأَن تَقوموا لِليتامى بالقِسط وماتَفعلُوا من خيرٍ فإنَّ ا لله كان به عليما﴾[سورة النساء:١٢٧].

٦ ـ حثه على الإحسان إلى الأيتام بكل ما تعنيه كلمة الإحسان من شمول :

كما أن من مظاهر عناية القرآن الكريم بالأيتام حثه المتكرر على الإحسان إليهم فى

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء ٥٣/٦، وفي الوصايا ١١/٤، وأبواب أخر، ومسلم في التفسير برقم ٣٠١٨ .

(٢) روح المعاني ١٦١/٥/٢ .

كل مايعنيه الإحسان من شمول وعموم مما يصلح به أحوالهم الدينيه والدنيوية، وذلك كما فى قوله سبحانه ": ﴿وإذْ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ لا تَعبدونَ إلاَّ ا لله وبالوالدينِ إحسانا وذى القُربى واليَتامى والمساكينِ وقولوا للناس حُسنا وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاة﴾[سورة البقرة:٨٣] وقوله سبحانه : ﴿واعبُدوا ا لله ولا تُشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذي القربى واليتامى...﴾[سورة النساء:٣٦] .

ومن الإحسان إليهم حثه تعالى عباده على الإنفاق عليهم وإطعامهم كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ويسألونَك ماذا يُنفِقون قل ما أَنفقتُم من خيرٍ فللوالدين والأقربينَ واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيل وماتَفعلوا من خيرٍ فإنَّ ا للهَ به عليم﴾[سورة البقرة:٢١٥] وقوله تعالى: ﴿أو إطعامٌ فى يومٍ ذى مَسغبة * يتيمًا ذا مَقربة * أو مسكينا ذا مَتربة﴾[سورة البلد :١٤- ١٦] حيث قرن الإنفاق عليهم فى الآية الأولى بالإنفاق على الوالدين والأقربين الذى هو أفضل البر، وفى الآية الثانية جعله من وسائل اقتحام العقبة الذى فخَّم أمرها وأعلا شأنها، ثم فسرها بفك الرقبة وإطعام اليتيم، مما يدل على أن إطعام اليتيم كإعتاق العبيد من الرق فى الأجر والثواب عند ا لله تعالى .

فهذه العناية الكبرى من المولى جل جلاله بالأيتام تدل على عظيم أمر الأيتام عند ا لله تعالى، لأنهم ضعاف لا يملكون لأنفسهم حولا ولا قوة،فكانت نصرة ا لله تعالى لهم وعنايته بهم جابرة لضعفهم بين أبناء جنسهم، بحيث أصبحوا يأوون إلى ركن شديد، وفى الحديث : "اشتد غضب ا لله على من يظلم من لا يجد ناصرا غير ا لله"(١) .

٧ ـ ثناؤه سبحانه على من يحسن إلى الأيتام :

وقد دل على عظيم أمر الأيتام وكمال العناية بهم أيضا ثناؤه سبحانه وتعالى على من

---

(١) عزاه السيوطي في الجامع الصغير ص ٤١ إلى مسند الفردوس من حديث علي رضي ا لله عنه ورمز له بالضعف، يعني لأن في إسناده الحارث الأعور، وهو الذي كذبه الشعبي في رأيه ورمي بالرفض، قال الحافظ في التقريب رقم ١٠٢٩: وفي حديثه ضعف، وفيه أيضا مسعر الهندي، وقال الذهبي: فيه لا أعرفه ، الميزان ٩٩/٤، وانظر فيض القدير للمناوي ٥١٦/١، والسلسلة الضعيفة للألباني رقم ٩٦١ .

يعتنى بأمرهم ويحسن إليهم،ومن ذلك:شهادة ا لله تعالى لهم بأنهم من أهل البر، حيث قال سبحانه : ﴿...ولكنَّ البرَّ من آمنَ با للهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبيين وآتى المالَ على حُبِّه ذَوي القُربى واليتامَى والمساكينَ...﴾[سورة البقره:١٧٧].

وقد أثابهم ا لله تعالى بما ذكره فى معرض المدح والثناء ﴿إنَّ الأبرارَ يَشربون من كأسٍ كان مِزاجُها كافورا * عيناً يَشربُ بها عبادُ ا للهِ يُفجِّرونها تَفجيرا * يُوفونَ بالنَّذر ويَخافون يوما كان شرُّه مُستطيرا * ويُطعمونَ الطَّعامَ على حُبِّه مسكيناً ويتيماً وأسيرا...﴾[سورة الأنسان:٥-٨].

٨ - ذم القرآن الكريم لمن يسيء إلى الأيتام ولم يكرمهم :

أما من لم يكرمهم ولم يبادر إلى الإحسان إليهم فإنهم قد نالوا ذم القرآن الكريم حيث سجَّل عليهم مواقفهم مع أيتامهم التى هي مواقف خزي وعار عليهم إلى يوم القيامه، ليتجدد لهم الذم على كل الألسن فى مختلف العصور، وذلك كقوله سبحانه : ﴿وأمَّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رِزقَه فيقول ربِّى أهانن * كلاَّ بل لا تُكرِمونَ اليتيم * ولا تحاضُّون على طعامِ المسكين﴾[سورة الفجر:١٦-١٨] حيث بيَّن ا لله تعالى لهم أن الغِنى والفقر ليس دليلا على الإكرام والإهانة، وإنما هما بالطاعة والمعصية،فهم مهانون لكفرهم، ثم ترقى حالهم فى الإهانة من سيء إلى أسوء،حيث أضرب عن مقولتهم الأولى البالغه فى الذم ليخبر عن حالٍ لهم أسوء منه فقال: ﴿بل لا تكرمون اليتيم﴾(١) ومثل هذا الذم لمن لا يكرم اليتيم بل أشد منه، ما جاء فى سورة الماعون حيث قال ا لله تعالى : ﴿أرأيتَ الَّذى يُكذِّبُ بالدين * فذلك الذى يدُعُّ اليتيمَ * ولا يَحُضُّ على طعامِ المسكين﴾[:١-٣] حيث جعل ذلك منهم دلالةً توضح عدم إيمانهم با لله واليوم الآخر، إذ لو كانوا يؤمنون بذلك لتقرَّبوا إلى ا لله تعالى بإكرامهم، رغبةً فى إثابته تعالى بالجنة، وهذا الذم على من يكرم اليتيم لم يرد إلا للكافرين مما يدل على أن المؤمن من شأنه إكرام اليتيم وأن الكافر بالعكس.

---

(١) انظر حاشية الجمل ٥٣٣/٤ على الجلالين .

فحري بالمؤمن أن يحافظ على أخلاق الإيمـان التى ينتهجها إخوانه المؤمنون، وأن لا يتحلى بأخلاق الكافرين فيحل به ما أعد الله لهم من العذاب الأليم فى الآخرة،فضلا عن المجازاة فى الدنيا، فإن من يسيء إلى اليتيم يوشك أن يعاقبه الله تعالى فى الدنيا بيتم أولاده فيلقون مثل عمل أبيهم بغيرهم كما دل على ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿وليَخشَ الَّذين لو تركوا من خَلفِهم ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافوا عليهم فليتَّقوا الله ولْيقولُوا قولًا سديدا﴾[سورة النساء:٩] والآية :« تأمر الأوصياء والأولياء بأن يخشوا الله تعالى ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم(١)"٠

فانظر إلى هذه العناية العظيمه التى حظي بها الأيتام فى كتاب الله تعالى وهي كفيلة بأن يحيى الأيتام فى ظلها حياة سعيدة تجبر كسرهم بفقد آبائهم سواء كانوا ذوي أموال أم فقراء٠

٩ ـ ومع هذا فإن الله تعالى قد أوجب لهم من الغنيمة والفيء ما يعيشون به سعداء مكفيي المؤن، فقد افترض لهم من خمس الخمس مايكفيهم، وجعلهم أحد مصارف الفيء، وأنزل فى ذلك قرآنا يتلى ويطبق عند وجود الجهادوهو قوله تعالى : ﴿واعلَموا أنَّما غَنِمتُم من شيءٍ فأنَّ لله خُمُسَه ولِلرَّسول ولِذى القُربَى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيل﴾[سورة الأنفال:٤١] وقوله : ﴿ما أفاءَ الله على رسولِه من أهل القُرى فلِلَّه ولِلرَّسول ولِذى القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيل...﴾[سورة الحشر:٧] فلو أن الجهاد قائم تحت راية الاسلام لكان هؤلاء الأصناف يعيشون فى بحبوحة العيش الهنيء، الذى يتلاءم مع وصية الله تعالى بهم، ولكنْ حيث إنه قد تخلى عنه المسلمون ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ فإن عليهم إيجاد الحياة السعيدة لهؤلاء الضعفاء، الحياة الكريمة التى بالغ الله فى الحث عليها،كما دلت على ذلك التوجيهات السابقة الحاثه على الإحسان إليهم والإنصاف لهم٠ والله تعالى ولي الهداية والتوفيق وهو الهادى إلى سواء السبيل٠

---

(١) أنوارالتنزيل وأسرار التأويل ص ١٠٤، وجامع أحكام القرآن ٥١/٥ .

تمثل خلق الإحسان

إلى اليتامى والأرامل فى النبي صلى ا الله عليه وسلم

تلك هي العنايه الإلهيه العظيمة بالأيتام وضعاف المسلمين من أرامل وغيرهن، وقد كان لها من عظيم الأثر في فؤاد النبي صلى ا الله عليه وسلم وقلبه ما لم يكن مثله في أحد من البشر .

لا جرم فقد أنزل ا الله تعالى على نبيه المصطفى صلى ا الله عليه وسلم وحيا مباشرا يحثه على مثل ما أراه سبحانه من سائر الأمة حيث قال له سبحانه : ﴿..ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث﴾[سورة الضحى:٦-١١] .

وهذا من كمال العناية الألهيه فى الإرشاد والتوجيه لرسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم، حيث خصه بخطاب فى ذلك، ليكون له مزيد عناية بهؤلاء الضعفاء، على ما كان عليه النبي صلى ا الله عليه وسلم من الرأفة الكاملة والرحمة التامة بهم وبأمثالهم من سائر الخليقه كما علمت ذلك فى موضعه .

ولقد قام المصطفى صلى ا الله عليه وسلم بواجبه نحوهم حق القيام، بفعله وهديه مما نعجز عن جمعه واستقصائه فى مثل هذا المبحث، وإنما نذكر بعضا من ذلك مما هو واضح الدلالة على المقصود من سلوكه ذلك بنفسه، وهديه لذلك بقوله لأمته .

عنايته صلى ا الله عليه وسلم بالأيتام بنفسه :

أما عنايته صلى ا الله عليه وسلم بنفسه، فيتمثل بأنه قد كان يضمهم إليه ويجعلهم كأبنائه ومن يعول من حاشيته :

١ - وذلك كما فعل بأولاد أبى سلمة عبدا الله بن عبدالأسد بن هلال المخزومى رضى ا الله عنه الذى مات سنة ٤هـ عن أولاد صغار، وعن زوجته الكريمة أم سلمة - هند بنت أبى أميه بن المغيرة المخزومية - فيتم الأطفال وتأيمت المرأة، فقام النبي صلى ا الله عليه وسلم بكفالتهم جميعا كما يكفل أبناءه .

فإنه صلى ا الله عليه وسلم لما علم بانقضاء عدة أم سلمة رضى ا الله عنها أرسل إليها

يخطبها ليكفلها ويكفل أولادها،وقال لها لما أرادت أن تعتذر إليه بغيرتها وكثرة صبيانها: "..أما قولك : غَيرَى،فسأدعو الله فتذهب غَيْرُتك، وأما قولك:إنى امرأة مُصبية فستُكفَينَ صبيانك.."(١) فرضيت وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وعال أيتامها .

٢ - وكما فعل أيضا بأولاد جعفر بن أبى طالب رضي الله عنه لما استشهد أبوهم فى غزوة مُؤتَة فكان يعطف عليهم ويقول : "أنا وليُّهم فى الدنيا وفى الآخرة"(٢).

٣ - ولما أفاء الله تعالى عليه كان يلي أمر كل مسلم يموت وله عيال ويقول : "..أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن تُوفِّي من المؤمنين فترك دَينا أو كَلًّا أو ضَياعا(٣) فعليَّ وإليَّ، ومن ترك مالا فلورثته"(٤).

فهكذا كان صلى الله عليه وسلم يُعنى بالأيتام بنفسه الشريفة، ليكون أسوة للأمة فى العناية بهم وجبر كسرهم وسد عوزهم، فإنها مأمورة بالتأسى به صلى الله عليه وسلم وفعله شرع لها، هي مسئولة عنه إن هي فرطت فى اتباعه فيه، لاسيما من يلي أمر الأمة من خلفائه بعده، فإن عليهم أن يفعلوا ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعله من الكفالة والإعالة للأيتام، لأنهم نُوَّابه فى رعاياهم من بعده، وذلك من مقتضيات ولاياتهم وواجبات خلافتهم ، التى ائتمنهم الله تعالى عليها .

من أقواله صلى الله عليه وسلم فى العناية بالأيتام :

ومع ما يقتضى هذا الصنيع من التأسى لعامة المسلمين وخاصتهم فإن النبي صلى الله

---

(١) أخرجه النسائي في النكاح، باب إنكاح الابن أمه ٨١/٦، قال الحافظ في الإصابة ٤٥٩/٤: إسناده صحيح .

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة ٢٩٨/٢ من حديث ابن جريج من طريق محمد بن أبي يعقوب عن الحسن بن سعد وهما ثقتان عن عبدالله بن جعفر وهو صحابي رضي الله عنه .

(٣) الكل والضياع: هما العيال .

(٤) أخرجه البخاري في النفقات، باب من ترك كلا أو ضياعا فإليَّ ٨٦/٧، وفي الكفالة، باب الدين ١٢٨/٣، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته برقم ١٦١٩ .

عليه وسلم قد ندبهم إلى ذلك بأحاديث قولية رغبهم فيها على كفالة الأيتام ورعايتهم والقيام بما يصلح أمور دينهم ودنياهم، وأقواله فى ذلك كثيرة منها:

١ - قوله صلى الله عليه وسلم :"أنا وكافلُ اليتيم فى الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما(١).

٢ - وفى رواية "كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو فى الجنة كهاتين" وأشار مالك - راوي الحديث - بالسبابة والوسطى (٢).

٣ - وجاء فى حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أنا وامرأة سفْعاء(٣) الخدَّين كهاتين يوم القيامة" وأومأ بيده - يزيد بن زريع الراوي عن عوف - الوسطى والسبابة :"امرأة آمَت(٤) زوجها ذات منصب وجمال،حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا"(٥) .

وفى هذا التصوير من الدلالة على عظيم العناية باليتيم مايستوجب المسارعة إلى ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، باب فضل من يعول يتيما ١٠/٨، وأبو داود في الأدب، باب فيمن ضمن يتيما برقم ٥١٥٠، والترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في كفالة اليتيم برقم ١٩١٨ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٢) أخرجها مسلم في الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم برقم ٢٩٨٣، ومالك في الموطأ في الشعر، باب السنة في الشعر ٢/ ٢٣٢، رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، ومالك عن صفوان بن سليم بلاغا .

قال الذهبي في الكبائر ص ٦٧: وكفالة اليتيم هي القيام بأموره والسعي في مصالحه من طعامه وكسوته وتنمية ماله إن كان له مال وإن كان لا مال له أنفق عليه وكساه ابتغاء وجه الله تعالى. ا.هـ .

(٣) السفعاء: بفتح السين المهملة وسكون الفاء بعدهما عين مهملة هي التي تغير لونها إلى الكمودة والسواد من طول الأيمة، يريد بذلك أنها حبست نفسها على أولادها و لم تتزوج فلا تحتاج إلى الزينة والتصنع للزوج، انظر النهاية ٣٧٤/٢، والترغيب والترهيب للمنذري ٣٤٨/٣ .

(٤) أي: صارت أيما، وهي التي لا زوج لها بكرا كانت أو ثيبا، تزوجت أو لم تتزوج بعده، والمراد هنا: من مات زوجها وتركها أيما. انظر النهاية ٨٥/١ .

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب،باب فضل من عال يتيما برقم ٥١٤٩،وأحمد في المسند ٢٩/٦، وفي سنده =

كما قال ابن بطال(١):"حق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبي صلى الله عليه وسلم فى الجنة، قال :"ولا منزلة فى الجنة أفضل من ذلك"(٢).

يعني لأنه عليه الصلاة والسلام يكون فى الفردوس الأعلى، فإذا كان كافل اليتيم يقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنزلة كاقتران الأصبع السبابة بالوسطى، أو كالفرق بينهما في الطول والقصر، فإن ذلك من أعظم الحوافز له على رعاية اليتيم بالحسنى، إذ لو لم يكن إلا مجرد البشارة له بالجنة لكان كافيا فى الحث والترغيب على الكفالة والرعاية لهم، فكيف به إذا بُشِّر بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم ؟!إن ذلك لعظيم ولا يفرط فيه ذولب سليم، أو من يرجو الإكرام فى جنات النعيم(٣).

٤ ـ وقد جاء التأكيد على بشارة كافل اليتيم والمحسن إليه بالجنة فى أحاديث أخرى، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :"من ضم يتيما بين مسلمين فى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة ألبتة، ومن أدرك والديه أو أحدهما ثم لم يبرهما دخل النار

= النهاس بن فهم البصري وهو ضعيف كما في التقريب برقم ٧١٩٧، لكن تشهد له الأحاديث السابقة بمعناه .

(١) وهو علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال من أهل قرطبة، صاحب شرح البخاري توفي سنة ٤٤٩ هـ، انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ١٢٧/٣، وشذرات الذهب ٢٨٣/٣، والأعلام ٢٨٣/٤ .

(٢) فتح الباري ٢٢٠/٢٢ .

(٣) نقل الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٢٠/٢٢ عن شيخه العراقي في شرح الترمذي: المناسبة بين كافل اليتيم وبين النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قال شيخنا في شرح الترمذي: "لعل الحكمة في كون كافل اليتيم يشبه في دخول الجنة أو شبهت منزلته في الجنة بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم أو منزلة النبي لكون النبي شأنه أن يبعث إلى قوم لا يعقلون أمر دينهم، فيكون كافلا لهم ومعلما ومرشدا، وكذلك كافل اليتيم يقوم بكفالة من لا يعقل أمر دينه بل ولا دنياه ويرشده ويعلمه ويحسن أدبه قال: فظهرت مناسبة ذلك" ا.هـ .

فأبعده الله ، وأيما مسلم أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار"(١).

فهذا الحديث كسوابقه يبشر كافل اليتيم بغاية ما يتمناه من ربه سبحانه وهو الجنة التى هى أعز غائب ينتظر،جعلنا الله تعالى من أهلها من غير سابقة عذاب، وإن لم يكن فى الأحاديث دلالة على مأمنه من سابقة العذاب إن كان قد اقترف ما يوجب ذلك،إلا أنه طالما وأن مآله الجنة فإنه قد أمن من الخلود فى النار، وذلك بشارة له على خاتمة السعادة وهي الموت على الإيمان.

ولا ريب أن المؤمن حريص كل الحرص على مقتضى هذه البشارات، وعليه فإنه لن يألو جهدا فى الحرص على كفالة اليتيم والإحسان إليه، لينال الثواب المترتب على ذلك، فانظر إلى هذه العناية النبويه الحانيه، بالأيتام التى عبرت عنها أقواله الشريفة.

إشعار اليتامى بالحنان والعطف:

ولقد كانت عنايته بهم غير مقتصرة على الحث على الكفالة والرعاية،بل كذلك فى إشعارهم بالحنان والمحبة،وإدخال الأنس فى قلوبهم الذى كانوا يألفونه من آبائهم،حتى لا يشعروا بفقد الأب الحانى لوجود من يعوضهم عن حنوه وعطفه وبره.

١ - فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رجلا شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه فقال : "امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين"(٢).

٢ - وعن أبى أمامه رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له فى كل شعرة مرت عليها يده حسنات ومن أحسن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٤٤/٤، ٢٩/٥، من حديث مالك بن الحارث، وعزاه الهيثمي في المجمع ١٦٤/٨ إلى أبي يعلى والطبراني قال: وهو حسن الإسناد، وأخرجه ابن أبي الدنيا في العيال برقم ٦٠٥، وللحديث شواهد كثيرة من حديث مالك القشيري وعدي بن حاتم وابن عباس ذكرها الهيثمي في المجمع ١٦٤/٨-١٦٥، والمنذري في الترغيب ٣٤٧/٣ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٦٣/٢، ٣٨٧، قال الهيثمي في المجمع ١٦٣/٨ ورجاله رجال الصحيح وله شواهد عنده منها الحديث الذي ذكرته بعده .

إلى يتيمة أو يتيم عنده كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين، وفرق بين أصبعيه السبابة والوسطى"(١)٠

ولا شك أن اليتيم وهو الذى لم يزل فى عالم الطفولة الآنسة بالملاعبة واللطافة، سيأنس جدا بمثل هذه المسحة الحانيه، وهذا التلطف الأبوي، وسيجد بذلك من يعوضه عن أبيه فى مثل ذلك الأنس الذى فقده بفقده إياه، وما كان سينال ذلك لولا هذا التوجيه النبوي العظيم الذى يجعل كل المسلمين أبا حنونا على اليتيم٠

تحذيره صلى الله عليه وسلم من التقصير فى حق اليتيم وعدم الإحسان إليه :

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتصر فى عنايته بالأيتام على أسلوب الحث والترغيب، بل لقد استخدم أيضا أسلوب التحذير والتنفير من الإساءة إلى الأيتام أو أكل أموالهم بالباطل ، بحيث لا يقدم على فعل ذلك بعده إلا من غلبت عليه شقوته وكان من الضالين٠

١ – فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "اجتنبوا السَّبع المُوبقات"(٢) قالوا : يا رسول الله وماهُنّ؟ قال : "الشّرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتَّولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات"(٣)٠

ففي هذا الوعيد ما يكفى زجرا لمن تسول له نفسه التفريط فى أموال اليتامى إذ لا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٥٠/٥، وابن أبي الدنيا في العيال برقم ٦٠٩، وذكره الهيثمي في المجمع ١٦٣/٨ معزوا إلى أحمد والطبراني وقال: وفيه علي بن زيد الألهاني وهو ضعيف، لكن له متابع عند الطبراني في المعجم الكبير ٢٨٤/٨ من طريق خالد أبي عمران عن القاسم أبي عبد الرحمن عن أبي أمامة، والشواهد عليه كثيرة. انظر مجمع الزوائد ١٦٣/٨-١٦٦ .

(٢) جمع موبقة: وهي الخصلة المهلكة .

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ...﴾ الآية ١٢/٤، ومسلم في الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها برقم ٨٩ .

طاقة لأحد بعذاب الله تعالى الذى رتبه على فعل ذلك،أكلا أو إحراقا أو تفريطا أو غير ذلك مما يكون فيه هلكة لمال اليتيم وإتلاف له.

٢ - ولذلك لما كان صلى الله عليه وسلم يدرك عظم العقاب المترتب على فعل ذلك وهو الرؤوف الرحيم بأمته،الناصح الأمين لهم، قال لأبى ذر رضي الله عنه : "يا أبا ذر إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي:لا تأمَّرن على اثنين،ولا تلينَّ مال يتيم"(١) وهذا من عظيم رأفته ورحمته بأبى ذر رضى الله عنه خشية أن يمسه عذاب الله تعالى،المعد لأكلة أموال اليتامى الذى لا يفرق بين صحابي جليل كأبى ذر، وغيره إن هو تطاول على ذلك، لأن عظم الجُرم يستوجب شدة العذاب ولا يستدعى الرأفة، وذلك ما يريده صلى الله عليه وسلم على رأفته ورحمته، فقد روى عنه أبو هريرة رضى الله عنه قوله :

٣ - "اللهم إنى أحرِّج حق الضعيفين : اليتيم والأرملة"(٢).

ومعناه(ألحق الحرج وهو الأثم بمن ضيع حقهما، وأحذر من ذلك تحذيرا بليغا وأزجر عنه زجرا أكيدا(٣))وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك،لأنهما لا يقدران على أن يدفعا عن أنفسهما ما قد يحصل لهما من ضرر الأوصياء أو الأولياء، فاستدعت حالتهما أن يبالغ النبي صلى الله عليه وسلم فى العناية بهما فى مثل هذه التوجيهات العظيمة الترغيبية والترهيبية.

---

(١) رواه مسلم في الإمارة، باب كراهية الإمارة بغير ضرورة برقم ١٨٢٦، وأبو داود في الوصايا، باب ما جاء في الدخول في الوصايا برقم ٢٨٦٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب، باب حق اليتيم ١٢١٣/٢ برقم ٣٦٧٨، والنسائي في عشرة النساء من سننه الكبرى برقم ٢٦٧ وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٢٤٣/٢ برقم ١٢٨٢: إسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٣) رياض الصالحين ص ١٦١ .

عنايته صلى ا لله عليه وسلم بالأرامل :

ولم تكن الأرملة أقل حظاً فى العناية النبوية من اليتيم، وكيف يكون ذلك وهو صلى ا لله عليه وسلم قد كان كما وصفه عمه أبو طالب بقوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ربيع اليتامى عصمة للأرامل(١)

لذلك كانت عنايته بالأرامل كعنايته بسائر الضعفه المسلمين، بل أكثر لما يترتب على العناية بهن من عظيم الأجر كما دل على ذلك قوله صلى ا لله عليه وسلم :

١ - "الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل ا لله" قال راوي الحديث : وأحسبه قال : "وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر"(٢).

٢ - وما شك فيه الراوى هنا قد جاء مصرحا به فى رواية أخرى عن أبى هريرة رضي ا لله عنه قال : قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : "الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل ا لله أو القائم الليل الصائم النهار"(٣).

والساعي هو الذى يذهب ويجيء فى تحصيل ما ينفع الأرملة والمسكين(٤) .

فانظر إلى هذا الفضل العظيم الذى أرشد إليه النبي صلى ا لله عليه وسلم الذى لا يمكن تحصيله من المشبه به الثانى(٥) لعظم مشقته، إذ من يقدر على مواصلة الصيام بحيث لا يفطر؟ أم من ذا الذى يقدر على القيام ثم لا يفتر فيه؟! إنه لا طاقة لأحد على نيل هذا الأجر إلا عن طريق ما أرشد إليه النبي صلى ا لله عليه وسلم من السعي على الأرملة

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١٤/٢، ومجمع الزوائد للهيثمي ٢٧٥/٨، حيث عزا هذا البيت لأحمد والبزار قال: ورجاله ثقات .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، باب الساعي على الأرملة ١١/٨ وفي النفقات ٨٠/٨، ومسلم في الزهد باب الأحسان إلى الأرملة برقم ٢٩٨٢ من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في النفقات في أوله ٨٠/٧ .

(٤) فتح الباري ١٨٧/٢٠ .

(٥) وهو: وكالقائم لا يفتر، والصائم لا يفطر .

والمسكين أو بالجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله،وهو قد انقطع فى زماننا هذا تقريبا بفقد الأمة الاسلامية خلافتها، ولا شك بأن المسلم الذى تتاح له مثل هذه الفرصة لا يفرط فى إضاعتها إن كان من أهل السعادة وصحبه التوفيق.

فهذا جانب من عنايته صلى الله عليه وسلم بالأرامل على مر الزمان.

والجانب الآخر ما باشره صلى الله عليه وسلم بنفسه من رعاية للأرامل اللاتي عدمن عائليهن،حيث كان غالب أزواجه صلى الله عليه وسلم منهن،ليكفيهن مؤنة الحياة وتعب البحث عن الرزق،كأم سلمة وحفصة وأم حبيبة، وغيرهما رضى الله عنهن، كما علمت مما تقدم إيضاحه فى حكمة تعداد زوجاته صلى الله عليه وسلم(١)، فهل بعد هذه العناية القولية والفعلية من عناية وإحسان لمثل هؤلاء الضعفة؟فعلى المسلمين أن يتأسوا بنبيهم صلى الله عليه وسلم فى الإحسان إليهم، لينالوا شرف المتابعة وفضيلتها،وثواب ذلك وأجرها العظيم يوفوته فى الدينا والآخرة.

---

(١) ص٦٧٩-٦٩٥

المطلب الرابع

(الإحسان إلى الفقراء والمساكين)

الفقراء جمع فقير، وهو المكسور فَقار ظهره،واشتق منه اسم الفقير الذى له بلغة من العيش ولا تكفى حاجته،تشبيها له به لذلته ومسكنته، فكأنه مكسور الفقار، ومن ذلك قولهم : فقرتهم الفاقرة وهي الداهيه،كأنها كاسرة لفقار الظهر(١).

أما المساكين فجمع مسكين وهو من أسكنه الفقر أي قَلَّل حركته، أطلق على من لا شيء له يكفي عياله(٢) لسكونه إلى الناس، هذا من حيث اللغة .

أما فى الاصطلاح فللعلماء أقوال فى تعريف كل من الفقير والمسكين والفرق بينهما، فقيل:إن الفقير من يكون له ما يكفى عياله، أو هو من يجد القوت، والمسكين: من لا شيء له، أو الفقير: المحتاج، والمسكين: من أذله الفقر(٣)، وقيل هما بمعنى.

وذهب الشافعي(٤) إلى أن الفقير أسوأ حالا من المسكين؛ لأن الفقير أصله فى اللغة المفقور الذى نزعت فقرة من فقار ظهره، ففسر الفقراء بالزَّمنى الذين لا حِرفة لهم، وأهل الحرف الذين لا تقع حرفتهم من حاجتهم موقعا، والمساكين: هم السُّؤَّال ممن له حرفة تقع موقعا ولا تغنيه وعياله(٥).

---

(١) مجمل اللغة لابن فارس ٧٠٣/٣، والصحاح للجوهري ٧٨٢/٢ .

(٢) انظر القاموس المحيط ٢٣٥/٤، والمصباح المنير ٣١٣/١ .

(٣) القاموس بشرحه تاج العروس ٤٧٣/٣ .

(٤) هو إمام المذهب المعروف، واسمه محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع... المطلبي المكي رحمه الله تعالى، المجمع على إمامته وجلالته وثاقته، وهو المجدد لأمر الدين على رأس المائتين، ولد سنة ١٥٠ هـ، وتوفي سنة ٢٠٤ هـ، أفرده بالترجمة كثيرون كالبيهقي وابن أبي حاتم وخلائق من المتقدمين والمتأخرين .

(٥) تاج العروس ٤٧٣/٣وانظر التفسير الكبير للفخر الرازي ١٠٧/١٦ .

وإلى المعنى الأول ذهب أبو حنيفة(١) وموافقوه(٢).

ولكلٍّ دليل ومسلك وتعليل، بحثُ ذلك هنا يفضي إلى الإطالة وهي غير مطلوبة(٣) والمطلوب إنما هو معرفة عناية القرآن الكريم بهؤلاء الضعفة من المسلمين فإن الحاجة والضعف تجمع بينهما فى الجمله.

عناية القرآن الكريم بالحديث عن الفقراء والمساكين :

وقد عني القرآن الكريم بجبر ضعفهم وسَداد حاجتهم، حثا على ذلك، وترغيبا وترهيبا وإيجابا، فى آيات كثيرة من سوره الكريمة المختلفة.

الحث على العناية بهم :

أما الحث على ذلك فآياته كثيرة، وهي الآيات الحاثه على الصَّدقة عموما، والمفسَّر مصرفها بالفقراء والمساكين ونحوهم فى آيات أخرى.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿مَن ذا الذَّى يُقرِضُ اللهَ قَرضاً حسنا فيضاعفَه له أضعافًا كثيرة..﴾[سورة البقرة:٢٤٥] وقوله سبحانه : ﴿إن تُقرِضُوا اللهَ قَرضاً حسنا يُضاعفْه لكم ويغفرْ لكم والله شكور حليم﴾[سورة التغابن:١٧] وقوله سبحانه : ﴿وأقرِضُوا اللهَ قرضا حسنًا وما تُقدّموا لأنفُسِكم من خيرٍ تجدوهُ عندَ اللهِ هو خيراً وأعظَمَ أجرا..﴾[سورة المزمل:٢٠] إلى غير ذلك من الآيات .

فإن الله تعالى قد جعل ما يبذله الأغنياء من المال لإخوانهم الفقراء والمساكين ونحو ذلك من وجوه البر: قرضا يوفيهم إياه عند قدومهم عليه أفضل وأجزل وأكثر مما بذلوه، وسمَّاه قرضا له، لإفادة "أن ذلك لا يضيع عند الله تعالى، كما أن القرض يجب أداؤه ولا

---

(١) إمام المذهب المعروف، واسمه النُّعمان بن ثابت بن زُوطى، رحمه الله تعالى، المجمع على إمامته وجلالته، وهو من صغار التابعين، أفرده بالترجمة كثيرون كالذهبي وابن حجر وخلائق من المتقدمين والمتأخرين، ولد سنة ٨٠ هـ، وتوفي ١٥٠ هـ .

(٢) تاج العروس شرح القاموس ٤٧٣/٣، والنهاية في غريب الحديث ٤٦٢/٣ .

(٣) انظر أدلة الشافعي لتفسير ذلك في تفسير الرازي ١٠٧/١٦-١١٠ .

يجوز الأخلال به، فكذا الثواب الواجب على هذا الأنفاق واصل إلى المكلف لا محالة"(١).

وكم في القرآن من حث على الإنفاق والتصدق والإحسان والبر في وجوه القربات التي من أجلّها بذلها للفقراء والمساكين وأبناء السبيل،كما قال سبحانه:﴿إن تُبدوا الصَّدقاتِ فنِعمَّا هي وإن تُخفوها وتُؤتوها الفُقراءَ فهو خيرٌ لكم ويكفِّرُ عنكم من سيِّئاتِكم وا للهُ بما تعلمون خبير﴾[سورة البقرة:٢٧١] وقوله جل شأنه:﴿للفقراءِ الَّذين أُحصِروا في سبيلِ ا للهِ لا يَستطيعون ضَربًا في الأرضِ يَحسَبهم الجاهلُ أغنياءَ من التَّعفُّف تَعرفهم بسيماهم لا يَسألونَ النَّاسَ إلحافًا وما تُنفِقوا من خيرٍ فإنَّ ا للهَ به عليم﴾[سورة البقرة:٢٧٣] والجار والمجرور في ﴿ للفقراء ﴾ في موضع الخبر لمبتدأ محذوف، كأنه جواب سؤال مقدر تقديره:"لمن هذه الصدقات المحثوث على فعلها؟ فقيل: للفقراء، أي: هي للفقراء فبيَّن مصرف النفقة"(٢) والإسم الموصول بعده صفة كاشفة لهم.

وقد بين في هذه الآيات كغيرها ما يحفزهم إلى الإنفاق المطلوب وذلك بقوله سبحانه:﴿وما تُنفِقوا من خيرٍ فلأنفُسكم وما تُنفقونَ إلا ابتغاءَ وجهِ ا للهِ وما تُنفقوا من خيرٍ يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلَمون﴾[سورة البقرة:٢٧٢] حيث أفادت هذه الآيات أن فائدة إنفاقهم عائدة عليهم بالأجر العظيم، وكرر الدلالة على هذا المعنى ثلاث مرات في هذه الآية "لمزيد الاهتمام بشأنه لتكون كل جملة مستقلة بمعناها قصيرة الألفاظ كثيرة المعاني، فتجرى مجرى الأمثال وتتناقلها الأجيال"(٣) .

---

(١) التفسير الكبير ١٦٧/٦ .

(٢) انظر البحر المحيط ٣٢٨/٢، وجعله صاحب التحرير والتوير ٤٧/٣ متعلقا بتنفقون الأخير قال: وتعلقه به يؤذن بتعلق معناه بنظائره المتقدمة، قال: فما من نفقة ذكرت آنفا إلا وهي للفقراء؛ لأن الجمل قد عضد بعضها بعضا ا.هـ .

(٣) التحرير والتنوير ٧٣/٣ .

قال أبو حيان(١) في تفسيره: "وفي هذا وفيما قبله قطع عذرهم في عدم الإنفاق إذ الذي ينفقونه هو لهم حيث يكونون محتاجين إليه فيوفونه كاملا موفورا فينبغي أن يكون إنفاقهم على أحسن الوجوه وأفضلها"(٢) .

وفي هذا الترغيب وغيره من الحث على الإحسان إلى الفقراء ما يكفي حافزا لهم على ذلك،ونحوه ما نص فيه على المساكين،وتقدم بعض منه في مبحث الأيتام قبل هذا كقوله تعالى: ﴿قل ماأنفقتُم من خير فللوالدين والأقربينَ واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيل وما تفعلوا من خيرٍ فإنَّ ا لله به عليم﴾[سورة البقرة:٢١٥] وقوله:﴿وإذا حضَر القسمةَ أو لُوا القربى واليتامى والمساكينُ فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفا ﴾[سورة النساء:٨] .

والآيات الحاثة على الإحسان والإنفاق على هؤلاء الأصناف ابتغاءَ وجه ا لله تعالى كثيرة معلومة، وبحسب المؤمن بعض ذلك ليرغبه في الإقدام على فعل الإنفاق برغبة وسخاء وطيب نفس ونية صالحة؛لأنه قد علم أنه لن يخسر شيئا، وإنما يربح بذلك في الدنيا والأخرة كما أخبره ربُّه بقوله:﴿وما أنفقتُم من شيءٍ فهو يُخلِفه وهو خيرُ الرَّازقين﴾[سورة سبأ :٣٩] وبقوله :﴿وما تُقدِّمو لأنفسِكم من خيرٍ تجدوه عندَ ا للهِ هو خيراً وأعظمَ أجرا﴾[سورة المزمل:٢٠] .

افتراض ا لله تعالى للفقراء والمساكين ما يصلح حالهم:

ومع كل ذلك الحث والترغيب فإن ا لله تبارك وتعالى لم يكل أمر هؤلاء المحاويج إلى ضمائر الأغنياء مع بالغ حثه وترغيبه .

ولكن افترض لهم مع ذلك ما يكفل لهم ضروريات الحياة التي تكفيهم عن إذلال

---

(١) هو محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الأندلسي الجياني، من كبار علماء التفسير واللغة والحديث... سمع من الكثير، وأخذ عنه الأكثر من المشارقة والمغاربة، وصنف مصنفات كبيرة من أجلها تفسيره البحر المحيط توفي سنة ٧٤٥ هـ، انظر طبقات المفسرين للداودي ٢/٢٨٧، وبغية الوعاة للسيوطي ص ١٢١، والأعلام ٧/١٥٢ .

(٢) البحر المحيط ٢/٣٢٧ .

أنفسهم وتحميهم من التدني إلى مساوىء الأخلاق التى قد تولدها الحاجة كالحسد والبغضاء، لو أن ذلك بذل لهم على النحو الأكمل الذى أوجبه الله تعالى وذلك هو :

١ ـ الزكاة التى جعلها الله تعالى ثانى أركان الاسلام فلا يكمل إسلام امرء إلا بتأديتها إذا كان ممن تجب عليه، بل لا يصح إسلام امرئ بالاعتراف بها ركنا ثانيا للاسلام وقد جعل أهم مصارفها : الفقراء والمساكين، كما يدل عليه تقديمهم فى الذكر على بقية الأصناف الثمانية الأخرى قال الله تعالى : ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها...﴾[سورة التوبة: ٦٠] وقد بينت السنة مقاديرها ومواردها وأنصبتها وشروطها بما هو معلوم فى مظانه من كتب الحديث والفقه..٠

٢ ـ على أن المولى سبحانه قد أثبت حقوقا أخرى يسدون بها عوزهم إضافة إلى ذلك، غير أنها ذوات أسباب ممن يقوم بتأديتها لهم لا تجب إلا عند ملابستها وذلك كحقهم فى الأضحية والهدي، وفى كفارة اليمين، وكفارة الظهار، وكفارة الجماع فى نهار رمضان، والفدية عن الصيام لمن لا يطيقه، وكحق الجوار وحق الزرع عند الحصاد، وغيره مما هو معلوم مما جاءت به نصوص القرآن الكريم أو السنة المطهرة٠

٣ ـ كما أوجب لهم حقا كبيرا فى أموال الغنيمة والفيء حيث جعلهم من مصارفهما وذلك بقوله : ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء، فإن لله خمسه...﴾ إلى قوله ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾[سورة الأنفال:٤١] وقوله: ﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...﴾ إلى قوله ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم...﴾[سورة الحشر:٧-٨] ٠

٤ ـ وقد كان هذان الحقان يفيان بحقوقهم لما كان الجهاد قائما، أما وقد ترك الجهاد منذ عصور فإن الله تعالى الخبير بأحوال عباده، لم يتركهم ليعودوا إلى سالف عهدهم فى الجاهليه من الحاجة والمجاعة والذلة وقد شرفهم بالاسلام، بل جعل لهم حقا فى أموال الأغنياء يجب عليهم بذله لهم حتى يصيبوا منه سداد حاجتهم، وذلك هو ما تدل عليه ظواهر الآيات القرآنيه كقول الله تبارك وتعالى : ﴿فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن

السبيل ذلك خيرٌ للذين يُريدون وجهَ اللهِ وأولئك همُ المفلِحون﴾[سورة الروم:٣٨].

وقوله سبحانه: ﴿وآتِ ذا القُربى حقَّه والمسكينَ وابنَ السبيل ولا تُبـذِّر تَبذيـرًا﴾[سورة الآسراء:٢٦] حيث أثبت لهم حقا لازما كحق الأقربين الذين لا مراء فى ثبوت أحقّيّتهم فى أموال أقربائهم عند حاجتهم إليه، وذلك ما يقتضيه العطف من التشريك فى الحكم ومن ذلك أيضا قوله سبحانه : ﴿وبالوالدين إحسانًا وبذي القُربى واليتامى والمسـاكينِ والجارِ ذىالقربى والجارِ الجُنُبِ والصَّـاحب بـالجَنْبِ وابـنِ السَّبيلِ ومـا ملكـت أيمـانُكم﴾[سورة النساء:٣٦]. حيث أوجب تعالى حق المساكين وابن السبيل مع حق ذي القربـى، وافترض الإحسان إلى الأبوين وذي القربى والمساكين والجار وما ملكـت اليمـين، ونظمهـم جميعا فى آية واحدة مما يدل على اشتراكهم فى حق الإحسان، والإحسان يقتضى بذل ما يسد حاجتهم فى هذه الحياة من طعام وشراب ولباس ومسكن ونحو ذلك.

وقد ذهب إلى اختيار هذا الحق فرضا لازما على الأغنياء من لم يعـدل بـالنصوص عن ظواهرها،وهم أهل الظاهر،وعلى رأسهم إمامهم "أبو محمد بن حزم(١)" حيث دعَّـم هـذا الوجوب بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة وعمل الصحابة والسلف الصالح(٢).

وهـذا القـول الـذى يؤيـده مقتضـى نظـام الشـريعة الاسـلاميه الداعـي إلى التكـافل الاجتماعى بين المسلمين قال العلامة د/ يوسف القرضاوي: "فإن الأدلة عليه أبين من فلق الصبح؛لأن طبيعة النظـام الاسـلامى كمـا رسمتـه آيـات القـرآن مكيـة ومدنيـة،وأحـاديث الرسول صحاحا وحسانا تجعل التكافل الاسلامى فريضة لازمة والتعاون والمواساة واجبا لابد من أدائه" ثم استدل على ذلك بما يطول ذكـره فينظـر فـى كتابـه : "مشـكلة الفقـر

---

(١) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي إمام أهل الظاهر بعد داود الظاهري ، نشأ في بيت الوزارة ووليها هو من بعده لبعض خلفاء بني أميـة بـالأندلس، ثـم عـزف عنهـا رغبـة في العلـم فنـال منـه الكثير، وصنّف مصنفات كثيرة منها المحلى... توفي سنة ٤٥٦ هـ، انظر لسـان الميزان ١٩٨/٤، والأعـلام ٢٥٤/٥ .

(٢) انظر المحلى ٤٥٢/٦ وما بعدها، المسألة رقم ٧٢٥ .

وكيف عالجها الإسلام"(١).

ذلك ما افترضه القرآن الكريم على أغنياء المسلمين لفقرائهم، فإن أدوا ذلك طيبة بها نفوسهم زكّوا أنفسهم وهذبوا أخلاقهم، وأثابهم الله تعالى على ذلك بما تقر به أعينهم، كما وعدهم بذلك في قوله سبحانه : ﴿خُذ من أموالِهم صدقةً تطهّرُهم وتزكّيهم بها...﴾[سورة التوبة:١٠٣] وبقوله : ﴿مثل الذين يُنفقون أموالَهم فى سبيلِ الله كمثلِ حبَّةٍ أنبتت سبعَ سنابلَ فى كُلِّ سُنبلةٍ مائةُ حبَّة والله يضاعفُ لمن يَشاءُ والله واسع عليم﴾[سورة البقرة:٢٦١] .

أما إذا منعوها عنهم وبخلوا عليهم فإن الاسلام يحتّم على ولي الأمر أخذها منهم بقوة السلاح، وهم حينئذ بين حالين : بين رِدَّةٍ عن الأسلام ، أو عدم أداء ثانى أركانه مع الاعتراف به، وفى كلا الحالين يستوجبون القتال إما حدا وإما تعزيرا وتأديبا، كما فعل الصديق رضى الله عنه فى حروب الردة، ومع ذلك فإن الله تعالى قد توعّدهم بأليم عقابه الذى لا طاقة لهم به كما قال جل ذكره : ﴿...والذين يكنزون الذهبَ والفِضَّةَ ولا يُنفقونها فى سبيلِ اللهِ فبشِّرهم بعذابٍ أليم * يوم يُحمَى عليها فى نارِ جهنَّم فتُكوى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم هذا ما كَنزتُم لأنفسِكم فذُوقوا ما كُنتمُ تَكنِزُون﴾[سورة التوبة:٣٤، ٣٥].

ذم القرآن الكريم مانعي إحسانهم الفقراء والمساكين :

وهذا فى حق مانعي الزكاة الواجبة، أما مانعى غير ذلك من وجوه الإحسان فإن القرآن الكريم سجل عليهم ذما مقذعا، لا يقبل ذولب حصيف أو إيمان كثيف أن يلحق به، وذلك كقوله تعالى : ﴿كلَّا بل لا تُكرمونَ اليتيمَ * ولا تَحاضُّون على طعامِ المسكين﴾[سورة الفجر:١٧، ١٨] حيث نعى على المجتمع الجاهلي الذى لا يبالى بحق ضعفائه فى العيش الكريم، بينما أغنياؤهم يعيشون فى أثرتهم وحظهم الرغيد فى الدنيا.

بل جعل الله سبحانه من علامات التكذيب بالدين؛ قهر اليتيم وعدم الحض على طعام

---

(١) انظر ص ١٢٧-١٣٣ .

المسكين كما علمت مما تقدم في مبحثه(١) حيث قال تعالى : ﴿أرأيتَ الَّذي يُكذِّبُ بالدين * فذلك الذي يَدعُّ اليتيم * ولا يحضُّ على طعامِ المسكين﴾[سورة الماعون:١-٣] .

ولا أظن مؤمنا يقرأ سورة "القلم" ويفهم ما قصه الله تعالى من حال أصحاب الجنَّة(٢) الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يستثنون، وانطلقوا وهم يتخافتون، أن لا يدخلنها عليهم مسكين، ضناً منهم(٣) عن أن يعطوهم ما كان قد اعتاده المساكين منها، ثم ما كان عاقبة أمرهم من جنَّتهم تلك، حيث أبادها الله تعالى جزاء لهم وكانت كما أخبر الله بقوله : ﴿فطاف عليها طائفٌ من رِّبك وهم نائمون * فأصبَحت كالصَّريم﴾[سورة القلم:١٩، ٢٠] أي: كالليل الشَّديد الظُّلمة من السواد لاحتراقها بحيث لم يعرفوها بادىء الأمر،ولما عرفوا أن بخلهم هو السبب في إهلاك جنتهم وأنهم ظالمون بذلك واستغفروا الله تعالى وتابوا إليه أبدلهم الله خيرا منها كما قال الله تعالى :﴿قالوا سبحان رِّبنا إنَّا كنا ظالمين * فأقبل بعضُهم على بعض يتلاومون * قالوا ياويلنا إنَّا كنا طاغين * عسى ربُنا أن يبدلنا خيراً منها إنَّا إلى رِّبنا راغبون﴾[سورة القلم:٢٩-٣٢] .

لا أظن مؤمنا له أذُنٌ واعيه يسمع هذه القصة البليغة الأثر في النفوس، ثم لا يتَّعظ بمدلولها على أن في سورة "الحاقة" ما ترجف لهوله القلوب مما توعد الله به من يبخل على فقراء مجتمعه حتى بالدلالة عليهم والحث على إعانتهم وإطعامهم، حيث أخبر سبحانه أن ذلك سببا لإعطائه كتابه بشماله ثم مصيره إلى ما أخبر عنه بقوله:﴿خذوه فغلُّوه * ثم الجحيم صلُّوه * ثم في سلسة ذرعها سبعون ذراعا فاسلُكوه * إنه كان لا يُؤمن بالله العظيم * ولا يحضُّ على طعام المسكين * فلَيس له اليومَ ههنا حَميمٌ * ولا طعامٌ إلا من غسلين * لا يأكلُه إلا الخاطِئون﴾[سورة الحاقة:٣٠-٣٧] وليس هذا خاصا بالكافرين، فإن هذا الوعيد مرتب على سببين:

---

(١) ص٨٣٨

(٢) أي: البستان .

(٣) أي: بخلا .

أحدهما : أقبح العقائد، وهو الكفر با لله تعالى ٠

والثاني: أبشع الرذائل وهو البخل وقسوة القلب، المعبر عنه بعدم الحض على إطعام المسكين، فضلا عن بذل ذلك بنفسه، فحيث وجد من المؤمن ذلك كان قد شاطر الكافر بالوصف والجزاء إن لم يتداركه ا لله تعالى بلطفه، وهذا ما فهمه أبو الدرداء رضى ا لله عنه حيث كان يقول لا مرأته: "ياأم الدرداء إن لله سلسلة لم تزل تغلي مراجل النار منذ خلق ا لله جهنم إلى أن تلقى فى أعناق الناس، وقد نجانا ا لله من نصفها بإيماننا با لله العظيم ، فحضي على طعام المسكين ياأم الدرداء"(١) ٠

ثناؤه تعالى على من يكرم الفقراء والمساكين :

وهذا بخلاف من بادر إلى إكرامهم بما يقدر على ذلك من إطعام ونحوه، فإنه قد رشح نفسه لثناء ا لله تعالى العظيم، فى محكم كتابه الكريم، وإلى جزيل ثوابه فى جنان النعيم كما أفصحت عنه آيات الكتاب الحكيم، حيث قال ا لله جل ذكره: ﴿إنَّ الأبرارَ يَشربون من كأسٍ كان مزاجُها كافورا * عينًا يشربُ بها عبادُ ا للهِ يُفجِّرونها تَفجيرًا﴾ ثم ذكر سبب نيلهم ذلك الإكرام بقوله: ﴿يُوفونَ بالنَّذر ويَخافونَ يوماً كان شرُّه مُستطيرا * ويُطعمونَ الطَّعامَ على حُبِّه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنَّما نُطعمكم لوجهِ ا للهِ لا نُريدُ منكم جزاءً ولا شكورا...﴾[سورة الإنسان:٥-٩] جعلنا ا لله ممن ترشح لهذا الثناء ونال ذلك الجزاء بمنه وكرمه آمين ٠

تنويه ا لله تعالى بالفقراء والمساكين وثناؤه عليهم:

وإنما نال هذا الثناء وحظي بذلك الثواب والجزاء ، لأنه أكرم عباده الذين كان لهم حظ كبير من عنايته سبحانه كما يدل عليه ثناؤه المجيد عليهم، الوارد فى مثل قوله تعالى: ﴿للفقَراء الذين أُحصِروا فى سبيلِ ا للهِ لا يَستطيعونَ ضربًا فى الأرضِ يَحسبُهم الجاهلُ أغنياءَ من التَّعفف تعرفُهم بسيماهم لا يَسألون النَّاس إلحافا﴾[سورة البقرة:٢٧٣] وقوله: ﴿ للفقراءِ المهاجرينَ الَّذين أُخرِجوا من ديارِهم وأموالِهم يَبتغونَ فضلاً من ا لله

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال ص ٣٢٢ .

ورضوانا ويَنصرُون الله وَرسولَه أولئِك هم الصَّادقون﴾[سورة الحشر:٨] والآيتان هاتان وإن كانتا في صدد الحديث عن مهاجري الصحابة رضوان الله عليهم، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر ومعلوم، فإن أبرز صفاتهم التي رشحتهم لتلك العناية هي الفقر الذي يشاركهم فيه غيرهم ممن نالوا عناية القرآن الكريم، وتحنُّن الرب الرحيم، كما دل على ذلك مشاركتهم لهم في سائر العناية الإلهيه التي وردت في القرآن الكريم، من الحقوق الواجبة والمندوبة المطلوبة لهم، ومن الإشادة بهم في غير ما آية ومناسبة.

من أجلّها ما أوحى الله بها إلى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله بعد إرشاده سبحانه إياه بتقريبهم منه : ﴿وإذا جاءَك الَّذين يُؤمِنون بآياتِنا فقل سلامٌ عليكم كتَبَ ربُّكم على نفسِه الرحمَةَ أنَّه من عمل منكم سوءاً بجهالةٍ ثم تاب من بعدِه وأصلحَ فأنَّه غفورٌ رحيم﴾[سورة الأنعام:٥٤] حيث إنه تعالى "وصفهم بالإيمان بالقرآن وإتباع الحجج، ثم أمر نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يبدأهم بالتسليم أو يبلّغ سلام الله تعالى إليهم، وأن يبشرهم بسعة رحمته وفضله بعد النهي عن طردهم من مجلسه، كما كان يريد الكفار، وفي ذلك إشارة إلى أنهم الجامعون بين فضيلتي العلم والعمل، ومن كان كذلك ينبغي أن يقرب ولا يطرد، ويعز ولا يذل، ويبشر من الله بالسلامة في الدنيا والرحمة في الآخرة"(١).

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ص١٧٧ .

تمثل خلق الإحسان

إلى الفقراء والمساكين فى النبي صلى ا لله عليه وسلم

لم يكن الفقراء والمساكين إلا نوعا من أنواع كثيرة شملها إحسان المحسن العظيم سيدنا محمد صلى ا لله عليه وسلم فى كل شئونهم وأطوار حياتهم .

غير أن هذا النوع قد كان له مزيد العناية من خُلق الإحسان النبوي لما يستدعيه حاله فى أوساط المجتمعات، فقد بعث صلى ا لله عليه وسلم وكان هذا النوع البشرى يعد من أراذل المجتمع وأقله اهتماما وعناية، وحفاظا للحقوق ومراعاة للكرامة، لكونه فاقدا لمقومات الحياة الأساسية فى نظرهم البدائى، وهو المال أو الشرف القَبلِى، إذ هم فقراء غرباء صعاليك، ومن كان كذلك كان فاقد الاعتبار الاجتماعى فى وسطهم الجاهلى كما دل على ذلك استنكارهم أن يُصطفَى محمد صلى ا لله عليه وسلم بالرسالة وهو الغلام اليتيم الفقير ﴿وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القَريتين(١) عظيم﴾[سورة الزخرف:٣١] فكانت بعثة هذا النبي الكريم اليتيم الفقير فى نظرهم صادَّةً لهم عن اتباعه لكونه لم يكن أجدر بالرسالة من كبراء قومه الطغاه، غير أن ذلك العناد والكبر لم يكن قادرا على تغيير اصطفاء ا لله لهذا النبي العظيم؛ لأن ا لله تعالى هو أعلم حيث يجعل رسالته، كما قال سبحانه : ﴿وإذا جاءتهم آيةٌ قالوا لَن نؤمِنَ حتَّى نُؤتَى مثلَ ما أُوتيَ رسلُ ا للهِ ا للهُ أعلم حيثُ يجعلُ رسالتهَ سيُصيبُ الَّذين أجرموا صَغارٌ عندَ ا للهِ وعذابٌ شديد بما كانوا يمكرون﴾[سورة الأنعام:١٢٤] .

فلمَّا لم تنفعهم محاولتهم العنادية والتَّكبُّريه فى زحزحة الرسالة عن موضع الاصطفاء الإلهي عدلوا إلى محاولة إزاحة الصفوة المختارة،المصاحبة لصاحب الرسالة العظمى صلى لله عليه وسلم وذلك حال مجالستهم له، لأنهم يرون أنهم أعز مكانا وأعظم شأنا من أن يخالطهم فى مجالسهم أولئك الفقراء الضعفاء، فطلبوا من النبي صلى ا لله عليه وسلم أن

---

(١) يعني:مكة أو الطائف، والرجلان اللذان كانا يريانهما أجدر بالرسالة من محمد صلى ا لله عليه وسلم هما: الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي .

يُقصيهم عنهم عند مجالستهم إياه، ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مُفْعَمًا بالرأفة والرحمة والحرص على إيمان البشرية ولمس من هؤلاء الزعماء الذين إن اهتدوا فسيتبعهم إلى الهداية كثيرون، لمس هذه المبادرة البارقة "ورأى أنه لا تفوّت على أصحابه شيئا، ولاتنقصهم قدرا فمال إلى ذلك طمعا في إسلامهم"(١) .

وكاد يستجيب لهم حتى يسمعوا كلام الله لعله يفتح مسامع قلوبهم إلى الحق والهدى، ولم يكن يعلم أن الله قد ختم على قلوبهم المتكبّرة المتغطرسة فلا يدخلها خير أبدا، حتى نزل إليه الوحي هاديا ومرشدا ومراعيا لحقوق أولئك الطائفة المختارة الفقيرة(٢)، وكان من أمرهم رضي الله عنهم وأمره صلى الله عليه وسلم ما قصه الله تعالى بقوله : ﴿ولا

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٤٣١/٦ .

(٢) روى مسلم رحمه الله تعالى في فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من حديثه أيضا قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال : وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه فأنزل الله : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾ مسلم برقم ٢٤١٣ ، وابن ماجه بنحوه برقم ٤١٢٨.

وروى الإمام أحمد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال : مر الملأ من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ هؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء؟ أُطردهم فلعلك إن طردتهم أن نتبعك فنزلت هذه الآية : ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم...﴾ المسند ٤٢٠/١، واللفظ لابن جرير ٢٠٠/٧.

تطردِ الَّذين يَدعونَ ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ يُريدونَ وَجْهَه ما عليك من حسابِهم من شيءٍ وما من حسابِك عليهم من شيءٍ فتطرَدهم فتكونَ من الظَّالمين * وكذلك فتنَّا بعضهم ببعضٍ ليقولوا أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلمَ بالشَّاكرين * وإذا جاءك الذين يُؤمنونَ بآياتنا فقل سلامٌ عليكم...﴾[سورة الأنعام:٥٢-٥٤] .

وتأمل سر تقديم الإرشاد الإلهي والتأديب الرباني لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على بيان سببه فى الآية الثانية، ثم العودة فى الآية الثالثه إلى الإرشاد الأمثل فى معاملتهم والإحسان إليهم حيث دعاه إلى مبادرتهم بالتحية ، فإذا تأملت ذلك، تدرك مبلغ العناية الربانية بهذه الطائفة من المؤمنين، حيث لم تفتأ تبيِّن للمؤمنين مكانة هذه الصفوة من البشر، وتحض على الإحسان لهم بإيصال الحقوق إليهم حتى مع سيد البشر صلى الله عليه وسلم كما فى هذه الآيات وآيات آخر منها قوله تعالى : ﴿واصبِر نفسَك مع الَّذين يَدعون ربَّهم بالغداةِ والعشيِّ يُريدون وجهَه ولا تعدُ عيناك عنهم تريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا ولا تُطِع من أغفلنا قلبَه عن ذِكرنا واتَّبع هواه وكان أمرُه فُرطا﴾[سورة الكهف:٢٨] .

وهذه الآية تتحدث عما تحدثت عنه الآيات الأولى من إرشاد الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى تعامله مع هذه الصفوة من أصحابه الكرام رضي الله عنهم.

وقد كان عليه الصلاة والسلام كما أراده الله تعالى امتثالا وسلوكا وإبلاغا فكان تطبيقه لهذه التوجيهات الإلهيه الموجهة له ولأمته من بعده يسترعي الإكبار والاقتداء، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا رأى هؤلاء الفقراء بدأهم بالسلام وقال : "الحمد لله الذى جعل فى أُمَّتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام" كما ذكر ذلك القرطبى وغيره(١) .

وكان صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يقعد معهم ويدنو منهم حتى إن ركبته لتلمس ركبة أحدهم(٢).

---

(١) في تفسيره جامع أحكام القرآن ٤٣٥/٦، وانظر الحلية لأبي نعيم ٢٤٤/١ .

(٢) كما جاء في حديث خباب وسلمان رضي الله عنهما عزاه ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص٦١ إلى البيهقي .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كنت فى عِصابة من المهاجرين جالسا معهم، وإن بعضهم يستتر ببعض من العُري،وقارىء لنا يقرأ علينا، فكنا نستمع إلى كتاب الله تعالى فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "الحمد لله الذى جعل من أُمتِى من أمرت أن أصبرِّ معهم نفسى" قال : ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطنا ليعدل بيننا نفسه،ثم قال بيده هكذا فاستدارت الحلقة وبرزت وجوههم، قال فما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا منهم غيرى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أبشروا معاشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وذلك خمسمائة عام"(١).

فتأمل كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن مجرد ممتثل ومطبِّق بل إنه كان يرى ذلك نعمة تستوجب الشكر والثناء حيث كان يحمد الله تعالى على ذلك ويشكره عليها، وفى ذلك دلالة على كمال رغبته فى إكرامهم والرأفة بهم والإحسان إليهم .

وكيف لا وهو صلى الله عليه وسلم قد كان يرغب فى أن ينتظم فى سِلكهم كما دل على ذلك ابتهاله إلى الله تعالى بقوله : "اللهم احييني مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين"(٢) وقوله : "اللهم إنى أسألك فعلَ الخيرات وتركَ المنكرات

---

(١) أخرجه اليهقي في الدلائل ٣٥١/١، وعزا الهيثمي في المجمع ٢٤/٧ شطره الأول إلى الطبراني قال: ورجاله رجال الصحيح، وأخرج الترمذي الجزء الأخير منه وهو قوله: يدخلون ...الخ من حديث أبي هريرة وقال: حسن صحيح، ورواية أخرى له وقال: صحيح، انظر كتاب الزهد/منه ٥٧٨/٤ .

(٢) كما جاء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عند ابن ماجه في الزهد، باب مجالسة الفقراء برقم ٤١٢٦، والحاكم في المستدرك ٣٢٢/٤، وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي، لكن أعله البوصيري في المصباح ٣٢٤/٢ بأبي المبارك الراوي عن عطاء قال: لا يعرف اسمه وهو مجهول، وبالراوي عنه أبي فروة يزيد بن سنان قال عنه: ضعيف، وقد عده ابن الجوزي في الموضوعات، والسيوطي في اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ٣٢٤/٢، لكنه نقل عن الزركشي قوله في تخريج أحاديث الرافعي: أساء ابن الجوزي بذكره له في الموضوعات،يعني نظرا لطرقه وشواهده الكثيرة،ونقل أيضا قول الحافظ ابن حجر =

وحبّ المساكين وأن تغفر لي وترحمنى وإذا أردت فتنة قوم فتوفّنى غير مفتون، أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يُقرّبنى إلى حبك"(١) .

فانظر كيف كان عليه الصلاة والسلام يحب أن يحيا حياتهم القنوعة العفيفة، ويسأل الله تعالى أن يرزقه المزيد من محبتهم، وذلك لأن هذه الطائفة لم يكن لها ما يشغلها عن طاعة الله والمسارعة إلى الخيرات شيء، ولا يطغيها عن اتباع الحق والسير على النهج الذى جاء به، ولذلك كانت أول الناس اتباعا له وتصديقا بما جاء به، كما دل على ذلك حديث أبى سفيان فى قصته مع هرقل ملك الروم والذى جاء فيه قول هرقل لأبي سفيان: "وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه،

= في تخريج أحاديث الرافعي يعني التلخيص الحبير ١٠٩/٣: (هذا الحديث رواه الترمذي من حديث أنس ـ برقم ٢٣٥٢ ـ وإسناده ضعيف أيضا، وله طريق أخرى في المستدرك من حديث عطاء عنه، ورواه البيهقي من حديث عبادة بن الصامت قال: وأسرف ابن الجوزي فذكر هذا الحديث في الموضوعات، وكأنه أقدم عليه لما رآه مباينا للحال التي مات عليها النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان ليس مسكينا .

لكن قال البيهقي: ووجهه عندي أنه لم يسأل حال المسكنة التي يرجع معناها إلى الاحتياج، بل الالتجاء والتواضع ا.هـ، كذا في اللآلي ٣٢٦/٢، وعبارة السنن ١٢/٧ نحوها.

قلت: والحديث بشواهده وطرقه ينتهي بمجموعه إلى درجة الصحة كما في التعليق على ابن ماجه ١٣٨٢/٢ عن العلاء .

وانظر شواهده في مجمع الزوائد ٢٦٥/١-٢٦٦، والدعاء للطبراني ١٤٦٤/٣، ١٤٦٧، ولذلك صححه الألباني في سلسلته الصحيحة رقم ٣٠٨، ٣٥٥/١، وفي الإرواء ٣٥٨/٣ رقم ٨٦١، وقال: ولا شك أن الحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الصحة، ثم نقل إنكار العلماء على ابن الجوزي في حكمه عليه بالوضع .

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة (ص) برقم ٣٢٣٥ وقال عنه: حسن صحيح سألت محمد بن إسماعيل ـ يعني البخاري ـ عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح .

وهم أتباع الرسل"(١)٠

وفى القرآن الكريم ما يؤيد ذلك وهو ما حكاه الله تعالى على لسان قوم نوح عليه السلام بقوله : ﴿فقال الملأُ الذين كفروا من قومِه ما نراك إلَّا بشرًا مثلَنا وما نراك اتَّبعك إلا الَّذين هم أراذِلُنا باديَ الرأي...﴾[سورة هود:٢٧] فقد عاب هؤلاء الطغاة على نبيهم نوح عليه السلام ما عاب به طغاة قريش على نبينا محمد عليه الصلاة والسلام لأن نظرة المتكبرين واحدة ومشربهم واحد كذلك٠

مكانة الفقراء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنويهه بهم :

لذلك كان هؤلاء الضعفاء أهل المكانة العليا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دل على ذلك تنويهه العظيم بفضلهم ومكاناتهم فيما ثبت عنه فى أحاديث كثيرة منها :

١ ـ عن أبى ذر رضي الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أُنظر أرفع رجل فى المسجد" قال : فنظرت فإذا رجل عليه حُلَّة، قلت: هذا، قال: قال لى: "أنظر أوضع رجل فى المسجد" قال : فنظرت فإذا رجل عليه أَخلاقٌ ـ أي: ثياب خلِقه وهى البالية ـ قال: قلت: هذا، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَهذا عند الله أخير يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا"(٢)٠

٢ ـ وعن ابن عباس رضى الله عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"اطَّلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء"(٣)٠

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٥٧/٥ قال الهيثمي في المجمع ٢٦١/١٠: رواه أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب فضل الفقر ١١٩/٨، ومسلم في الذكر والدعاء، باب أكثر أهل الجنة الفقراء برقم ٢٧٣٧ .

٣ ـ وعن حارثة بن وهب(١) رضى ا لله عنه قال : سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول:"ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كلُّ ضعيف مُتضَاعَف لو أقسم على ا لله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار كل عُتُلٍّ جوَّاظ(٢) مستكبِر"(٣).

٤ ـ وعن أبى سعيد الخدرى رضى ا لله عنه قال:احتجَّت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبَّارون والمتكبرون، وقالت الجنة فِيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم، فقضى ا لله بينهما إنَّك الجنة أرحم بك من أشاء، وإنك النار عذابى أعذب بك من أشاء،وكليكما عليَّ ملؤها "(٤) .

٥ ـ وعن أسامة بن زيد رضى ا لله عنهما أن النبي صلى ا لله عليه وسلم قال:"قمت على باب الجنة فإذا عامَّةُ من دخلها المساكين، وأصحاب الجد ـ الحظ و الغنى ـ محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، قال : وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء"(٥).

٦ – وعن مصعب بن سعد(٦) رحمه ا لله قال: رأى سعد رضى ا لله عنه أن له

---

(١) الخزاعي، وأمه أم كلثوم بنت جرول زوج سيدنا عمر رضي ا لله عنه، وأم عبيد ا لله بن عمر، له رواية في الصحيحين وغيرهما .

(٢) العتل: هو الجافي الغليظ الذي لا ينقاد للخير، الجوَّاظ: هو الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته. النهاية ٣١٦/١، وتفسيرغريب الحديث للحافظ ابن حجر ص ١٦٠ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب، باب الكبر ٢٤/٨، ومسلم في صفة الجنة، باب النار يدخلها الجبارون.. برقم ٢٨٥٣ .

(٤) أخرجه مسلم في صفة الجنة، الباب السابق برقم ٢٨٤٧ .

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار ١٤١/٨، ومسلم في الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء برقم ٢٧٣٦ .

(٦) ابن أبي وقاص رضي ا لله عنه، روى عن أبيه وعن جماعة من الصحابة، وهو ثقة من الثالثة توفي سنة ١٠٣ هـ، التقريب رقم ٦٦٨٩ .

فضلا على من دونه فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم :"هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم"(١).

فتأمل هذا التنويه العظيم بهؤلاء الضعفاء فى نظر البشر، تجد أنهم أهل الرِّفعة الرفيعة، والمكانة العاليه عند ا لله ورسوله، فى الدنيا والآخرة.

وفى هذا التنويه مايوجب إعادة النظر السَّطحى القائم على مبدء المادَّة ومتاع الدنيا فى شأن هؤلاء القوم،حتى يتبوؤا المكانة اللائقة بهم كما هي عند ا لله تعالى وعند رسوله صلى ا لله عليه وسلم، وهو الحال الذى كان عليه الصلاة والسلام ينهجه معهم فى حياته، بسلوكه بنفسه كما كان ينهجه بحاله وقوله.

إحسانه صلى ا لله عليه وسلم للفقراء والمساكين بنفسه:

لقد كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم الأب الحانئ والمعلم المربئ والمعيل الكافى لهذه الطائفة من المؤمنين، حيث كان يأوي إليه جم غفير من فقراء المهاجرين يسمَّون بأهل "الصفه"(٢) الذين قال عنهم أبو هريرة رضي ا لله عنه :"وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولامال ولا على أحد فكان صلى ا لله عليه وسلم إذا أتته صدقة بعث بها إليهم و لم يتناول منها شيئا، وإذا أتته هدِيَّةُ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها"(٣).

وكان صلى ا لله عليه وسلم يكفِيهم بنفسه أو يأمر من يستطيع ذلك من أصحابه رضى ا لله عنهم كما قال زعيم أهل الصفة أبو هريرة رضى ا لله عنه :"كنت من أهل الصفة وكنا إذا أمسينا حضرَنا رسولُ ا لله صلى ا لله عليه وسلم فيأمر كل رجل فينصرف برجل أو أكثر،فيبقى من بقي عشرة أو أقل أو أكثر، فيأتى النبي صلى ا لله

(١) متفق عليه تقدم تخريجه في الرحمة ص٦١٩.

(٢) نسبة لصفة المسجد وهي الموضع المظلل، بنيت في المسجد لضعفاء المسلمين. النهاية ٣٧/٣، وفتح الباري ٧٠/٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، باب كيف كان عيش النبي صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه ١٢٠/٨ .

عليه وسلم بعشائه فنتعشى معه، فإذا فرغنا قال : ناموا فى المسجد"(١) ٠

وقال ذات يوم لأصحابه رضوان ا لله عليهم:"من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس أو كما قال: وأن أبا بكر جاء بثلاثة وانطلق النبي صلى ا لله عليه وسلم بعشرة ..."(٢) .

وعن معاوية بن الحكم السلمي(٣) رضى ا لله عنه قال: بتنا مع رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فى الصفة فجعل يوجه الرجل من المهاجرين مع الرجل من الأنصار والرجلين والثلاثة حتى بقيت فى أربعة ورسول ا لله خامسنا فقال لهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم :"انطلقوا بنا" فلما جئنا قال:" ياعائشة عشينا" فجاءت بجشيشة(٤) فأكلنا، ثم قال: "ياعائشة أطعمينا" فجاءت بحَيْسة (٥) فأكلنا، ثم قال:" ياعائشة اسقينا" فجاءت بجريعة من لبن فشربنا ثم قال:" ياعائشة اسقينا" فجاءت بعس من ماء فشربنا ثم قال: "من شاء منكم أن ينطلق إلى المسجد فلينطلق ومن شاء منكم بات هنا.."الحديث(٦) .

فانظر كيف كان صلوات ا لله وسلامه عليه يهتم بهم ويسد حاجتهم بنفسه أو بعنايته حيث يأمر أصحابه إذا لم يكن حاله يسعفه بذلك، فإنه عليه الصلاة والسلام كان يشاركهم اللأواء، إذ كان يأتى على بيته ثلاثة أهلة فى شهرين وما أوقدت فى

---

(١) عزاه الحافظ في الفتح ٦٩/٢٤ إلى ابن سعد، وشرط الحافظ في ذكر الأحاديث في الفتح أن لا تقل عن درجة الحسن كما في مقدمة هدى الساري ص٤ .

(٢) أخرجه البخاري في علامات النبوة ٢٣٦/٤ من حديث محمد بن أبي بكر رضي ا لله عنهما .

(٣) شهد مع النبي صلى ا لله عليه وسلم الخندق، وروى عنه، وسكن المدينة، وهو صاحب القصة في تشميت العاطس وهو في الصلاة، انظر أسد الغابة ٣٨٤/٤، وتهذيب الأسماء ١٠٢/٢ .

(٤) قال في النهاية ٢٧٣/١: هي أن تطحن الحنطة طحنا جليلا، ثم يجعل في القدور ويلقى عليها لحم أو تمر وتطبخ، وقد يقال لها: دتشيشة .

(٥) هو الطعام المتخذ من التمر والأقط والسمن، ا.هـ النهاية ٤٦٧/١ .

(٦) أخرجه أبو نعيم في الحلية٣٣/٢، وذكره معزوا إليه الحافظ في الفتح ٦٩/٢٤ وله شاهد عند أبي داود في الأدب برقم ٥٠٤٠، وابن حبان في صحيحه ٤٣٠/٧ من حديث يعيش بن طخفة عن أبيه .

أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار ، وإنما كان غالب قوتهم التمر والماء، كما تقدم لك في مبحث زهده عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فقد كان إذا وجد شيئا لم يستأثر به دونهم، كما دل على ذلك قصة أبي هريرة رضي الله عنه في إحدى جوعاته إذ قال فيها: "آللهِ الذى لا إله إلا هو إن كنتُ لأعتمد بكبدِي على الأرض من الجوع، وإن كنتُ لأشد الحجر على بطنى من الجوع، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمر ولم يفعل، ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمر فلم يفعل، ثم مر بى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسَّم حين رآني، وعرف ما في نفسي وما فى وجهي ثم قال : أبا هر، قلت لبيك يارسول الله، قال: الحق، ومضى فتَبِعته، فدخل فاستأذن فأذن لي، فدخل فوجد لبنا فى قدح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا أهداه لك فلان، أو فلانة، قال : أباهر، قلت : لبيك يارسول الله، قال: إلحق إلى أهل الصفة فادعهم لى ..."إلى أخر ما تقدم ذكره فى الضيافة(١) .

فأعد النظر إليه، وتدبر ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الخلق العظيم فى الأيثار، حيث لم يؤثر بذلك الموجود نفسه، ولا أبا هريرة وحده، بل أشرك فيه سائر أهل الصفة الفقراء، فلمّا رووا جميعا من ذلك اللَّبن القليل الذى أظهر الله فيه معجزة كبرى لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، لم يشرب حتى شرب ضيفه، أبو هريرة الذى بلغ به الجوع مبلغه، ثم لم يلبث أن شبع بحيث لم يجد له مسلكا .

وكم لهذه القصة من نظائر في تكريم أصحابه الفقراء وغيرهم ممن عمَّتهم الحاجة كما في قصة طعام جابر بن عبد الله رضي الله عنه في غزوة الخندق(٢)، وقصة طعام

---

(١) ص٨١٦ .

(٢) أخرجها البخاري في المغازي، باب غزوة الخندق ١٣٨/٥ وفي الجهاد، باب من تكلم بالفارسية ٩٠/٤ ومسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك برقم ٢٠٣٩ .

أبى طلحة رضى ا الله عنه(١)، وكما فى حديث عبد الرحمن بن أبى بكـر الصديـق رضـى ا الله عنه فى قصة طعام الثلاثين والمائة(٢)، وغير ذلك مما يعلم من مباحث معجزاتـه صلـى ا الله عليه وسلم المدوَّنة فى كتب الحديث والشمائل والسير...

فهذا جانب من إكرامه صلى ا الله عليه وسلم لهؤلاء الضعفاء .

والجانب الآخر تمثل فى حثه صلـى ا الله عليـه وسـلم أمتـه علىالأحسـان إليهـم وسـد خَلّتهم التى لها أبلغ الأثر فى نفوس المؤمنين فى القيـام بحقـوق هـذه الطائفـة المباركـة مـن الأمة الإسلاميه .

حثه صلى ا الله عليه وسلم أمته على الإحسان إلى الفقراء والمساكين :

وحثه صلى ا الله عليه وسلم لأمته على ذلك وارد من أحاديث كثيرة إليك بعضا منها:

١ ـ فعن جرير بن عبدا الله البجلي(٣) رضي ا الله عنه قال: "كنا فـي صـدر النهـار عنـد رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم فجـاءه قـوم عـراةٌ مجتـابي النِّمـار(٤) أو العبـاء، متقلِّـدي السيوف عامتهم من مضر، بل كلُّهم من مضر، فتمعَّر(٥) وجه رسول ا الله صلى ا الله

(١) أخرجها البخاري في الأطعمة، باب من أكل حتى شبع، وباب من أدخل الضيفان عشرة عشرة، وفي الأنبياء، باب علامات النبوة في الإسلام وفي مواضع أخر، ومسلم في الأشربة، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه برقم ٢٠٤٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة ، باب قبول الهدية من المشركين، وفي الأطعمة، باب من أكل حتى شبع، ومسلم في الأشربة، باب إكرام الضيف وفضل إيثاره برقم ٢٠٥٧ .

(٣) الصحابي الجليل قدم على رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم سنة عشر وكان طويلا حسنا، كان عمر رضي ا الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة، دعا له رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم بالثبات على الخيل والهداية، وأمره في سرية لهدم ذي الخلصة، وتوفي رضي ا الله عنه بقرقيسيا سنة ٥١ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٢٢/٦، وتهذيب لأسماء ١٤٧/١، والإصابة مع الاستيعاب ٢٣٢/١ .

(٤) أي: لابسي النمار، والنمار: جمع نمرة، وهي الشملة المخططة، من مآزر الأعراب .

(٥) أي: تغير لونه من الغضب .

عليه وسلم لِما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذَّن وأقام فصلى ثم خطب فقال : ﴿يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكم الذى خلَقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زَوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونِساءً واتَّقوا الله الَّذى تَساءلون بهِ والأرحامَ إنَّ الله كان عليكم رَقيبا﴾[سورة النساء:١] والآية التى فى الحشر : ﴿اتَّقوا الله ولْتنظُر نفسٌ ما قدَّمت لغد﴾[سورة الحشر:١٨] تصدَّق رجلٌ من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال : ولو بشقِّ تمرة قال : فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كَومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تهلَّل كأنه مُذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من سنَّ فى الإسلام سُنَّة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده،من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء"(١).

فانظر إلى عظيم أثر قول النبي صلى الله عليه وسلم فى نفوس أصحابه حيث بادر الصحابة بالجود بما عندهم لإخوانهم الفقراء حتى سدُّوا حاجتهم، وما كان ذلك سيتحقق لولا ذلك الحث البليغ الذى وجهه صلى الله عليه وسلم، وقد كان كل ذلك فى ميزان حسناته صلى الله عليه وسلم لأنه هو الذي دلهم على ذلك الخير، ثم فى ميزان الصحابي الذى بادر إلى ذلك العطاء.

٢ ـ ومثل هذا ما رواه أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : "دخل رجل المسجد فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرحوا ثيابا فطرحوا، فأمر له منها بثوبين، فحث على الصدقة أيضا فجاء فطرح أحد الثوبين فصاح به رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة برقم ١٠١٧، والنسائي في الزكاة ٥/٧٥ .

وسلم وقال : "خذ ثوبك"(١) وتأمل عظيم خلق النبي صلى ا لله عليه وسلم حيث لم يرض من ذلك الفقير المحتاج صاحب الحس المرهف،الذى لم يكد يسد حاجته، حتى تأثر بحض النبي صلى ا لله عليه وسلم على الصدقه فبادر إلى التصدق بشطر ما امتلكه من الثياب،لم يرض منه النبي صلى ا لله عليه وسلم ذلك لأنه يريد أن يغنيه ويسد حاجته فيراه على حال حسنه.

والأحاديث الواردة فى حثه صلى ا لله عليه وسلم أمته على الصدقة للفقراء كثيرة معلومة، وفيما ذكر كفاية،غير أن ذلك كله مع صنف من المساكين وهم الذين كانت عزتهم أعظم من فاقتهم،وعفتهم غالبة لهم على عدم إبداء حاجتهم، ومروءتهم لا تسمح لهم بإراقة ماء وجوههم،وهم الذين قال ا لله عنهم : ﴿...يحسَبُهم الجاهلُ أغنياءَ من التَّعفُّفِ تعرفُهم بسيماهم لا يسألون الناسَ إلحافا...﴾[سورة البقرة:٢٧٣] .

وأما من كان يقدر على إبداء حاجته، وإظهار رفاقته بالسؤال من النبي صلى ا لله عليه وسلم، فقد كان للنبي صلى ا لله عليه وسلم شأن آخر معهم، إذ لم يكن يرد سائلا قط إلا بإعطائه حاجته من عنده إن كان لديه، أو الاقتراض له إن لم يكن لديه شيء، لما جبل عليه من الكرم والإيثار، وامتثالا لتوجيه ا لله تعالى له حيث يقول له:﴿وأما السَّائلَ فلا تَنهر﴾[سورة الضحى:١٠] فكان كما يقول جابر بن عبدا لله رضى ا لله عنه "ما سئل رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عن شيء فقال : لا"(٢) .

وقال ابن عباس رضي ا لله عنهما : "كان النبي صلى ا لله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل، فإذا لقيه جبريل كان أجود

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب الرجل يخرج من ماله برقم ١٦٧٥، والنسائي في الجمعة، باب حث الإمام على الصدقة يوم الجمعة في خطبته ١٠٦/٣، وفي الزكاة، باب إذا تصدق وهو محتاج إليه يرد عليه ٦٣/٥ وإسنادها حسن .

(٢) متفق عليه تقدم ذكره في الكرم، ص٦٣٦.

بالخير من الريح المرسلة(١) كما تقدمت دلائل ذلك بالأمثلة الحية فى مبحث كرمه صلى الله عليه وسلم، فارجع البصر إليها وتأمل بالغ إكرامه صلى الله عليه وسلم لسائليه فى جميع أحواله جِدَةً وعدما، تجد أنه صلى الله عليه وسلم قد بالغ فى إعطاء الفقراء والمساكين وغيرهم، بحيث لن ترى إحسانا فوق إحسانه عليه الصلاة والسلام مهما جوّلت نظرك فى كتب الكرام وأخبارهم.

(١) متفق عليه تقدم ذكره وتخريجه أيضا ص٦٣٥.

الفصل الثالث

الأخـــلاق الاجـــتـــمـــاعية المــاديـــة

وفيه تمهيد وستة مباحث:

- التمهيد: في علاقة المعاملات المادية بالأخلاق .
- المبحث الأول: البيع والشراء .
- المبحث الثاني: القرض والقضاء .
- المبحث الثالث: الرهن .
- المبحث الرابع: الإجارة .
- المبحث الخامس: العارية .
- المبحث السادس: الصلح .

تمهيد فى بيان علاقة المعاملات الماديه بالأخلاق :

إن من أجل وأهم الأمور الاجتماعية التى لا غِنى للمرء عنها، إذ لا يكاد يمر عليه زمن دون مزاولتها : هي المعاملات الاجتماعيه المادية من بيع وشراء، واقتراض وقضاء، ورهن وإجاره، ونحو ذلك مما يجرى التعامل به بين الناس، ولا تخلو حياة أحد منهم عنها؛(لأن الانسان مدنيٌّ بالطبع كما قالوا؛بمعنى أنه لا يمكن له التفرد عن الجماعة بعيشه، بل يفتقر بعضهم إلى بعض فى مصالح الدين والدنيا(١))

وأجل المصالح الدنيويه هي هذه المعاملات الماديه. فكان بالضرورة والطبع مفتقرا إلى مزاولتها بين الحين والآخر لتستقيم حياته فى الدنيا، ويستطيع تأدية الغاية من إيجاده فيها. وبقدر ما هو مضطر إلى تلك المعاملات، يكون مضطرا إلى ما يَقوم بها ويجعلها زكيّة نقيّة تؤتى ثمارها وتحقق السعادة لصاحبها فى الدنيا والآخرة، وذلك بتحلي صاحبها بالأخلاق الإسلاميه عامة والمتعلقة منها بالمعاملات المادية خاصة.

لأن المرء إن لم يكن متحليا بها فإنه سيغلب عليه حرصه على المال، ونهَمه فى جمعه المغروز فى طبعه، ثم يكون آخر أُمره نكالا عليه فى الدنيا والآخرة كما قال الله تعالى: ﴿والَّذين يكنِزون الذَّهبَ والفضَّة ولا يُنفقونها فى سبيلِ الله فبشِّرهم بعذابٍ أليم * يوم يُحمى عليها فى نار جهنم فتُكوى بها جِباهُهم وجُنوبهُم وظُهورهم هذا ما كَنَزتُم لأنفسكم فذُوقوا ما كنتُم تكنزون﴾[سورة التوبة:٣٤-٣٥] فترى كيف انقلب المال الذى كان يُرجى خيره إلى نكال على صاحبه يعذب به أشد أنواع العذاب لمَّا لم يهذب المرء نفسه بالتهذيب الأسلامى، بل أطلق لنفسه هواها فمنع منه الزكاة وحق السائل والمحروم ضنا به وشحا عليه وحرصا على جمعه وعدم النقص من عدده، وكأنه مقصود بالذات عنده، فأصبح وبالا عليه فالمال إذا كان بهذه المثابة، فهو عدوٌّ حقيقيٌّ للمرء يورده المهالك كما جاء فى الحديث : "من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوِّقه يوم القيامه ثم يأخذ بِلهزمتيه - يعنى شدقيه -

---

(١) انظر الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٣٧٤ .

ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تـلا : ﴿ولا يَحسَبَّن الَّذيـن يَبخلـونَ بمـا آتـاهُم ا للهُ مـن فضلِهِ هو خـيرًا لهـم بـل هـو شرٌ لهـم سيُطَوَّقون مـا بخلـوا بـه يـومَ القيامـة...﴾[سورة آل عمران:١٨٠](١) .

فلا سبيل إذا لتجنب مخاطر المال وآثاره الوخيمة فى الدنيا والآخـرة إلا باتبـاع الشـرع المطهر فى أحكامه وآدابه، فإنه بذلك ينال المرء مراده منـه وينعـم بـه فـى دنيـاه وآخرتـه، ولذلك جاء فى الحديث :"نعم المال الصالح للمـرء الصـالح"(٢)؛ وذلـك لأن المـرء الصـالح يأخذهُ من حله ويؤدي حقه، ولا يخرج عن نهج نبيه صلى ا لله عليه وسلم فيه فإن المال فى الحقيقة هو وسيلة للسـعادة الدنيويـة والأخرويـة كمـا جـاء فـى الحديـث : "ذهـب أهـل الدُّثور(٣) بالدَّرجات العُلى والنعيم المقيم.." الحديث(٤) .

ولكن لا يكون كذلك إلا إذا روعي فيه تعاليم الشرع الحنيف فى الأحكام والأخـلاق، فى الكسب والإنفاق والتعامل بين الناس.

وبما أننا فى صدد بيان الأخلاق النبويه علـى ضـوء الكتـاب والسـنه، فإننـا معنيُّـون إذاً ببيان أخلاقه صلى ا لله عليه وسلم فى هذا الجانب الاجتماعى المهم الذى يعد فى الحقيقـة معيار ديانة المرء وزكاء أخلاقه،كما قـال عمـر بـن الخطـاب رضـى ا لله عنـه لمـن أراد أن يزكي رجلا عنده بالعدالة، فقال له عمر : "هو جارك الأدنى تعرف ليله ونهاره ومدخلـه ومخرجه؟ قال : لا، قال فعاملك بالدرهم والدينار الذى يستدل بهما على الـورع؟ قـال : لا، قال فصاحبك فى السفر الذى يُستدلُّ بـه علـى مكـارم الأخـلاق؟ قـال: لا، قـال:

---

(١) متفق عليه وتقدم تخريجه ص٢٨٨

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٩٧/٤ من حديث عمرو بن العاص، وعزاه الهيثمي في المجمـع ١٦٧/٤ إليـه وإلى أبي يعلى، قال: ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه أيضا الألباني في غاية المـرام ص ٢٦٢ رقـم ٤٥٤ .

(٣) جمع دثر: وهو المال الكثير .

(٤) متفق عليه وتقدم تخريجه ص ٢٨٢.

فلست تعرفه، ثم قال للرجل: ائتنى بمن يعرفك"(١) .

فهكذا كان السلف الصالح رضوان الله عليهم ينظرون إلى أن المال معيار التدين، فمن حافظ على آداب الاسلام فيه كان ذلك دليلا على مِلاك دينه المتمثل فى الورع .

وإننا فى زمن لا يكاد أهله يعرفون للمعاملات الماديه أخلاقا ولا آدابا، فتراهم ينشدون الكسب والجمع من حيث كان، ويرون أن الغش ذكاءً،والمخادعة خبرة، إذا حققا لهم كسباً أو رواجا.

مع أن القرآن الكريم مليء بأداب المعاملات الماديه وأخلاقها، وتمثلت فى سلوك النبي صلى الله عليه وسلم بأوضح صوره وأكمل بيان، ولكن واقع المسلمين يؤسف فهو على غير الحال الذى يجب أن يكون من الاهتداء بالقرآن والسنه، لسبب التنافس على الدنيا ولوكان فى ذلك خراب للدِّين، لهذا كان هذا الفصل من أهم فصول الرسالة وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٠/١٢٥، وصححه الألباني في الإرواء برقم ٢٦٣٧، ٨/٢٦٠ .

المـبـحـثُ الأوَّل

(البيع والشراء)

البيع لغة: مقابلة شيء بشيء، يقال: باع الشيء يبيعه بيعا ومَبيعا: أعطاه إيَّاه فهو بائع، وباعه أيضا: اشتراه، فهو من الأضداد،يطلق على كل واحد من المتابعين أنه بائع، ومنه: "ولا يبع أحدُكم على بيع أخيه"(١) أي: لايشتر على شراء أخيه، فإنما وقع النهى على المشترى لا على البائع،ولكن إذا أطلق البائع فالمتبادر إلى الذهن أنه باذل السِّلعة(٢) .

ومنه المبايعة والتبايع التى تجرى مع السلطان والمسمى بالبيعة، وهى عبارة عن المعاقدة والمعاهدة، التى تجرى بينهما المتضمنة لبذل الطاعة له بما رضخ له، فكأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه، وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيلة أمره(٣) .

والبيع فى الشرع يعنى "عقد معاوضة ماليَّة تفيد ملك عين أو منفعة على التأبيد"(٤)

مكانة البيع والشراء فى المعاملات الماديه وعناية القرآن الكريم به :

والبيع والشراء، من المعاملات المادية الاجتماعيه التى يفتقر متعاطوها إلى التهذيب والتأديب، حتى يكون التعامل المادي قائما على الأخلاق الإسلامية الفاضلة الكفيلة بالسعادة الأبديه للمتعاملين، والربح المادى والمعنوى فى الحياة الدنيا، ولهذا كان محل عناية القرآن الكريم من حيث تشريعُ أحكامه والإشارة إلى آدابه، وعناية السنة المطهرة من حيث بيانُ تلك الأحكام، وإضفاء الصِّبغة الخُلقيه عليها ، من صدق ، وأمانة ووفاء، وقناعة، وإيثار ، ورغبة فيما عند الله من الأجر، ورهبة مما لديه من العذاب... إلى غير ذلك مما يزع الضمير إلى حسن التعامل مع الآخرين ، كما سينجلى كل ذلك

---

(١) هذا جزء من حديث سيأتي ذكره وتخريجه ص٩٠٤

(٢) المصباح المنير ٧٧/١، ومختار الصحاح ص ٧١، والقاموس الفقهي لسعدي أبو حبيب ص ٤٤ .

(٣) المفردات للراغب ص ٦٧، وتاج العروس ٢٨٥/٥ .

(٤) الياقوت النفيس في مذهب الإمام ابن إدريس للشاطري ص ٧٤ .

إن شاء الله تعالى فى مباحث المعاملة الأتى بيانها ، ولنبدأ الآن فى ما الحديث بصدده من مبحث البيع والشراء فأقول:

عناية القرأن الكريم ببيان أحكام البيع والشراء وأخلاقه:

شرع الله تعالى البيع لعباده لكثرة الحاجة إليه بين العباد حيث لايستغنى عن تعاطيه أحد مطلقا، ولا تقوم حياته إلا بالبيع والشراء ، لإن الإنسان مدني بالطبع ، أي: لايمكن له التفرد عن الجماعة بعيشه، بل يفتقر بعضهم إلى بعض فى مصالح الدين والدنيا،لذلك فقد أحل الله لعباده البيع كما تظاهرت على ذلك دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة(١) وهو معلوم من الدين بالضرورة، وحرم عليهم ما يضر بمصالحهم المادية الّتى بها قِوام حياتهم، من ربا،وغش،وخداع،وغصب ، وسرقة، وخيانة، واحتكار، ونحو ذلك مما يعلم من مظانه فى كتب الفقه، أو مما ستأتى الإشارة إليه.

ومن نصوص الكتاب العزيز فى ذلك قول الله تعالى: ﴿...وأحلّ اللهُ البيعَ وحرّم الرّبا﴾[سورة البقرة:٢٧٥] وقوله سبحانه:﴿ياأيُّها الذين آمنوا لاتَأكُلوا أموالَكم بينَكم بالباطلِ إلّا أن تكونَ تجارةً عن تَراضٍ منكم...﴾[سورة النساء:٢٩] .

فإن الآية الأولى أباحت كل بيع معهود لدى من خوطبوا بالتنزيل،إلا ماخصه دليل آخر بالتحريم كالربا وغير ذلك مما نهى عنه ومنع العقد عليه كالخمر والميتة وحَبَل الحَبَلَة(٢).. وغير ذلك مما ثبت النهي عنه فى السُّنّة وإجماع الأمة، فالإباحة المذكورة من قبيل العام المخصوص(٣) .

والآيه الثانية، استثنت من عموم النهى عن أكل الأموال بالباطل ـ الذى هو اسم جامع لكل ما لايحل فى الشرع كالربا والغصب والسرقة والخيانة وكل محروم ورد

---

(١) انظر شرح المجموع المهذب للإمام النووي ١٤٨/٩ .

(٢) هو بيع ما في بطون النوق ونحوها، وعلة النهي الغرر الحاصل من تلك الصفقة، انظر المصباح المنير ١٢٩/١

(٣) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٥٦/٣ .

الشرع به ـ(١) استثنت الأكل عن طريق التجارة التى تعنى المعاوضة، وذلك هو البيع والشراء وهو استثناء منقطع، لكون المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، فذلك باطل وهذا حق والمعنى:(لكم أكلها بتجارة عن تراض منكم، والتعبير بالأكل مجاز عن الانتفاع بالشيء انتفاعا تاما(٢)).

وفى كلا الآيتين إشارة إلى تقويم الخُلُق الحميد فى المعاملات الماديه، فإن الآية الأولى لم تنص على حل البيع ومشروعيته، حتى أتت على ذكر الرِّبا(٣)، وآكليه بأسلوب الذم والتهديد بالمصير الأليم، لينكفُّوا عنه، ويأخذوا ما هو الأفضل والأرفق بالمتعاملين وهو البيع بغير وَكس ولا شطط؛ لأن الربا لا يريده إلا جشع النفس هلوع على المال، لا يرعى الحاجة التي يمر بها أخوه، ولا التراحم التى تقتضيها الأخوة الإسلاميه والإنسانيه، فكان من الأنسب أن يقدم التنفير من تعاطى الربا، جريا على الأسلوب العربى المعروف فى تقديم التخلية على التحلية.

فلماترسخ فى أنفس السامعين خطر تعاطى الربا جاء النهى الصريح عن تعاطيه، والوعيد الجازم بسوء مصير مقترفيه، كل ذلك فى قوله تعالى : ﴿الَّذين يأكُلونَ الرِّبا لا يقُومونَ إلاّ كما يقومُ الَّذى يتخبَّطُه الشَّيطانُ من المسّ ذلك بأنَّهم قالوا إنَّما البيعُ مثلُ الربا وأحلَّ اللَّه البيعَ وحرَّم الربا فمن جاءَه موعظةٌ من ربِّه فانتهى فله ما سلَفَ وأمرُه إلى الله ومن عادَ فأولئِك أصحابُ النَّار هم فيها خالدون﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿يا أيُّها الذين آمنوا اتَّقوا الله وذروا ما بَقيَ من الرِّبا إن كنتُم مؤمنينَ * فإن لم تَفعلوا فأذَنوا بحربٍ من الله ورسولِه وإن تبتُم فلكم رءوسُ أموالِكم لا تَظلمون ولا تُظلمون﴾[سورة البقرة:٢٧٥-٢٧٩].

(١) المجموع في شرح المهذب ١٤٥/٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٣/٥ .

(٣) الربا في اللغة: الزيادة، وفي الشرع: عقد على عوض غير معلوم التماثل في معيار الشرع حالة العقد أو مع تأخير في البدلين أو أحدهما، الياقوت النفيس ص ٧٩ .

فتأمل هول التَّهديد الشديد والوعيد الأكيد المترتب على تعاطى الربا، تجد مبلغ العناية الإلهية فى تقويم السلوك وتهذيب الأخلاق، لأن الربا ظلم لا يتعاطاه إلا الذين فقدوا القيم الأخلاقيه النبيله، وتحلَّوا برذائلها قد فعهم الجشع والهلع والأثَره إلى تعاطيه ومزاولته فآذنهم الله سبحانه بمحاربته ومحاربة رسوله، ومعلوم أن من حاربه الله ورسوله لا يفلح أبدا، إذ من ذا الذى يقدر على محاربة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم؟ فلا شك أن من حاربه الله قصمه "وفى ذلك إيماء إلى سوء خاتمة متعاطي الربا إن دام عليه"(١) ولم يتب إلى الله من قريب، وفى هذا الإنذار والوعيد ما يوجب الانكفاف عن تعاطيه (لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد) فيتجرد من مساوىء الأخلاق إلى محاسنها بأخذه رأس ماله غير ظالم ولا مظلوم.

أما الآية الثانية فإنها قد جاءت بمثل ذلك الأسلوب المتقدم فى الآية الأولى؛ حيث إنها لم تنص على إباحة التجارةحتى حرَّمت جميع أصناف الكسب الذى يحصل من طرق غير مشروعة تنشأ عن فقد الأخلاق، وهي التى سمَّاها الله تعالى (بالباطل) حيث قال: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تَأكلُوا أموالَكم بينَكم بالباطل﴾[سورة النساء:٢٩] والباطل لغة: هو الذاهب الزَّائل(٢)، وهو هنا اسم جامع لكل ما لم يبحه الشرع كما تقدم، من أكل الربا والقمار والرشوة والغصب والسرقة والخيانة وما جرى مجرى ذلك مما كان عليه حال العرب فى الجاهلية الذين لم يكن لهم من مكارم الأخلاق ما يزعهم عن تعاطي هذه الأمور التى تعد من معالم مساوىء الأخلاق وعناوينها، لأنها إنما تجرى ممن كان منغمسا فى الرذائل الخلقيه.

فنهى الله عز وجل عن كل ذلك بآية النساء هذه، وبآية البقرة حيث قال سبحانه: ﴿ولا تأكلُوا أموالَكم بينَكم بالباطلِ وتُدلُوا بها إلى الحكَّام لِتأكُلوا فريقاً من أموال الناس بالإثمِ وأنتُم تَعلمون﴾[١٨٨] وفى تكرار النهي عن ذلك دليل على مبلغ

---

(١) محاسن التأويل ٣٧٤/٣ .

(٢) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٣٩/٢ .

العناية الربانية بتقويم خلق الإنسان، وإضافة على ذلك فقد ذكر منْ لم ينته عن هذه المساوىء في معرض الذّم والتنفير، حيث قال سبحانه : ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إنَّ كثيرًا من الأحبارِ والرُّهبان ليأكلون أموالَ الناسِ بالباطلِ ويَصُدُّون عن سبيل ا لله﴾[سورة التوبة:٣٤] فإن في ذكره سبحانه لحال هؤلاء بهذا الأسلوب؛ تحذيرا للمؤمنين أن يتشبَّهوا بهم في هذه الأخلاق المقيتة،التي جعلت أحبار أهل الكتاب ورهبانهم يصدون عن سبيل ا لله وهو دين الاسلام الذى جاء به محمد صلى ا لله عليه وسلم؛لأجل أن يستمر لهم أكل أموال الناس بالباطل من أتباعهم، حيث رأوا أنهم لو بيّنوا لهم صدق رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم الذى يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم لزالت رِياستهم عليهم، وذهب عنهم ما يكسبون من السُّحت عن طريقهم، باتباع أولئك لدين الحق.

والحامل لهم على ذلك هو الجشع والهلَع على المال وجمعه من حيث أتيح لهم جمعه، وإن كان عن طريق أكل أموال الناس بالباطل، ونقض العهد الذى أخذه ا لله عليهم من البيان للنَّاس عن صدق رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وصدق ما جاء به والإيمان به حتى يؤمن به أتباعهم والمذكور في قوله تعالى : ﴿وإذا أخذَ ا للهُ ميثاقَ الَّذين أوتوا الكتاب لَتُبَيِّنُنَّه للنَّاس ولا َتكتمونَه فنبذوه وراءَ ظهورِهم واشتَرَوا به ثمنًا قليلا فبِئسَ ما يَشتَرون﴾[سورة آل عمران:١٨٧] .

ففي بيان حال هؤلاء عظِةٌ وعبرة لأولى الألباب عن الشُّح في الدنيا والجشع في جمعها، إذ أن ذلك أودى بهم إلى الخسران المبين في الدنيا والآخرة، ولم ينالوا من الدنيا إلا ما قدر لهم منها، وفي الأخرة عذاب شديد، ولعنة تتبعهم إلى يوم المآب، كل ذلك بسبب سوء أخلاقهم المتمثِّلة في الجشع على جمع المال من حلّه أو من غير حله، وفي هذا غاية البيان والرشاد إلى سلوك مكارم الأخلاق في مجال التعامل المادى حيث حظرت الآيات الكريمة جميع وسائل الكسب التى تأتي عن طرق غير أخلاقيه، ثم أباحت ما كان من ذلك عن طريق التجارة القائمة على التراضي كما قال سبحانه : ﴿إلاَّ أن تكونَ تجارةً عن تَراضٍ منكم﴾[سورة النساء:٢٩] .

وفي ذكر التّراضى إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه تعامل المتبايعين من سماحة

النفس بما قد يحصل فى الكيل أو الوزن أو المساحة من زيادة أو نقص قليلين، ومن قناعة بالثمن والمثمّن وبذل ذلك كله بطيب نفس منهما، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق المعلومة فى مجال التعامل المادي الاجتماعي، مما توحى به كلمة (تراض) الذى هو أمر قلبي لا يطلع عليه إلا الله تعالى ثم الشخص نفسه، وقيدت الآية التعامل به ليحرص كل منهما على سماحة خلقه بالعقد حتى يصح البيع "ومن هنا أخذ الشافعى رحمه الله اعتبار الايجاب والقبول لفظا، لأن الرضا أمر قلبي فلابد من دليل عليه"(١) ولغيره أن يستدل بالآية على عدم اشتراطه إذا حصل مايدل عليه بالأفعال كالحيازة ونحوها مما يجرى فى بيع المعاطاة، فإن الأفعال تدل عليه فى بعض الأحيان قطعا(٢) .

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل ص ٧١ .

(٢) انظر محاسن التأويل ١١٥/٥ .

تمثل أخلاق

البيع والشراء فى النبي صلى ا لله عليه وسلم

ذلك هو هدي القرآن الكريم فى تشريع البيع،وتلك هي آدابه الإجماليه المستنبطه من آيات التشريع، أما هدي النبي صلى ا لله عليه وسلم فى ذلك فهو الهدي المبيِّن لما أجمل فى القرآن من التشريع والآداب، بالسلوك الفعلى والقولى .

فقد عامل صلى ا لله عليه وسلم بالبيع والشراء منذ حداثة سنه،فكانت متاجرته دالة على عظيم خلقه وكريم معاملته، وذلك حينما تاجر لخديجة بنت خويلد رضى ا لله عنها قبل النبوة، حيث سافر إلى الشام مع غلام لها يُسمَّى "مَيسرة" فربح أضعاف ماربح الناس، فلما رجع من الشام ، أخبرها ميسرة بما رآه من كرامته صلى ا لله عليه وسلم وصدقه وأمانته، وما أخبر به الراهب(١)، وما رآه من تظليل الغمامة له، وغير ذلك حتى رغبت فيه خديجة رضى ا لله عنها، فخطبته إلى نفسها كما تقدم(٢) وأضعفت له الأُجرة(٣)،

وروى أبو داود عن السَّائب بن السائب رضي ا لله عنه قال :أتيت النبي صلى

---

(١) المسمى نسطور، وذلك أن الركب نزل بقرب صومعته فنزل إليهم منها، وكان لا ينزل لأحد،وطاف بهم حتى رأى النبي صلى الله عليه وسلم فعرف فيه علامات النبوة فأكرمه، وأضافهم من أجله، وعرَّفهم أنه نبي هذه الأمة، وأنه خاتم النبيين وقال له: (احذر على نفسك من كيد اليهود والنصارى، وأوصى ميسرة به، فقيل له: كيف عرفت أنه نبي ؟ فقال: إنكم لما أقبلتم لم يبق شجر ولا حجر إلا سجد إلى جهتكم) انظر خبره في سيرة ابن هشام مع الروض الأنف ٢١٢/١، والوفا بأحوال المصطفى ١٤٣/١، ودلائل النبوة للبيهقي ٣٠٧/١-٣١٢، وحدائق الأنوار لابن الديبع ١٢٠/١، والسيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري ١١٢/١ .

(٢) ص ٧٠٠.

(٣) انظر حدائق الأنوار لابن الديبع ١٢٠/١، ١٥٣ .

الله عليه وسلم فجعلوا يثنون علي ويذكروني، فقال صلى الله عليه وسلم :"أنا أعلمكم" يعني به ، فقال السائب: قد صدقت بأبى أنت وأمى كنت شريكى فنعم الشريك كنت لاتدارى ولاتمارى"(١) :"يريد لاتخالف ولاتمانع، فيصف النبي صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق والسهولة فى المعاملة"(٢) .

ومن هنا قال أبو زهرة(٢) :"وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان شريكا للسائب بن أبى السائب واستراح إلى شركته؛ ورأى فيه مايمازج أخلاقه وإن لم يسم إليها، ولكنه على أى حال رأى الشريك الأمين السمح فى معاملته فكان لايمارى، أي: لايجادل فى الشراء، ولايخفى الخبيث من البضائع ويظهر الطيب مما رآه فى تجارته" قال: ولم يذكر فى التاريخ ما كان يتجر فيه ، لأن كتاب السيرة لايعنون فى حياة النبي بحياته الإنسانية، بمقدار عنايتهم فيما يتعلق بالرسالة وإرهاصات النبوة، وخوارق العادة

---

(١) أبو داود في الأدب،باب كراهية المراء برقم ٤٨٢٦،وأحمد في المسند ٤٢٥/٣،وأبو إسحاق الحربي في إكرام الضيف برقم ٤٩، وابن ماجه في التجارات، باب الشركة والمضاربة برقم ٢٢٨٧، وابن الجوزي في الوفاء ١٤٢/١ . وصححه الألباني في صحيح أبي داود برقم

قال المنذري في مختصر سنن أبي داود ١٨٨/٧: والسائب هذا قد ذكر بعضهم أنه قتل كافرا يوم بدر، قتله الزبير بن العوام، وذكر بعضهم أنه أسلم وحسن إسلامه، قال: وهذا هو المعول عليه، وقد ذكره غير واحد من الأئمة في كتب الصحابة، قال: وهذا الحديث قد اختلف في إسناده اختلافا كثيرا، وذكر أبوعمر بن عبد البر النمري: أن هذا الحديث مضطرب جدا، منهم من يجعله للسائب بن أبي السائب، ومهم من يجعله لأبيه، ومنهم من يجعله لقيس بن أبي السائب، ومنهم من يجعله لعبد الله بن عبد الله بن السائب، وهذا اضطراب لا تقوم به حجة، قال: والسائب بن أبي السائب من المؤلفة قلوبهم، وانظر الاستيعاب بهامش الإصابة ١٠٠/٢، وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ٢٥٤/٢ .

(٢) معالم السنن للخطابي مع المختصر للمنذري ١٨٨/٧ .

(٣) هو الشيخ محمد أحمد أبو زهرة من كبار العلماء في العصر الأخير في الفقه والأصول والتاريخ، وله نحو أربعين مؤلفا، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٩٤ هـ، انظر الأعلام ٢٥/٦، ومقدمة كتابه خاتم النبيين .

الصادقة التى أحاطت بحياته فى حَلِّه وتَرحاله..."(١) هكذا كانت معاملته صلى ا لله عليه وسلم المادِّية قبل بعثته،قائمةً على الصدق والأمانة والسُّهولة، أما بعدها فإنه صلى ا لله عليه وسلم لم يعد يزاول التجارة لانشغاله بما كلَّفه ا لله تعالى به من تبليغ الرسالة والدعوة والجهاد التى لاتبقى له وقتا يمكن قضاؤه فى تجارة أو زراعة أو نحوها، غير أن ضرورة الحياة، قد كانت تُحوجه أحيانا إلى تعاطى بعض المعاملات الخاصة من بيع أو شراء أو اقتراض أو رهن أو استعارة أو نحو ذلك مما سيأتى بيانه، وقد كانت تلك الوقائع تدل على عظيم خلقه فى معاملات الناس بأموالهم، وحسن تصرفه فى معاملاته ومساومته، ومن ذلك :

١ ـ ما أخرجه البخارى تعليقا وغيره مسندا من مكاتبة النبي صلى ا لله عليه وسلم للعدَّاء بن خالد(٢) جاء فيها :"هذا ما اشترى محمد رسول ا لله من العدَّاء بن خالد، بيع المسلم المسلم ، لا داءَ ولا خَبيثةَ ولا غائِلة"(٣) .

---

(١) خاتم النبيين ١٧٩/١ .

(٢) ابن هوذة، أسلم بعد الفتح وحنين، وهو من أعراب البصرة، وعاش إلى زمن خروج يزيد بن المهلب، انظر أسد الغابة ٣٨٨/٣، والإصابة ٤٦٦/٢ .

(٣) البخاري في البيوع، باب إذا بيَّن البيعان ولم يكتما ونصحا ٧٦/٣ بصيغة التمريض، قال الحافظ في الفتح: ١٥٨/٩: وقد وصل الحديث الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن الجارود وابن مندة كلهم من طريق عبد المجيد بن أبي زيد عن العداء بن خالد، فاتفقوا على أن البائع النبي صلى ا لله عليه وسلم، والمشتري العداء عكس ما هنا، ثم أجاب عما وقع هنا فقال: فقيل: إن الذي وقع هنا مقلوب، وقيل: هو صواب وهو من الرواية بالمعنى؛ لأن اشترى وباع بمعنى واحد، ولزم من ذلك تقديم اسم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم على اسم العداء، لكن قال في تغليق التعليق ٢٢١/٣: إنه تأويل متكلف .

ونص المكاتبة كما جاءت في رواية الترمذي ٥١١/٢ وغيره هي: (هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة، من محمد رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، اشترى منه عبدا، أو قال: أمة، لا داء ولا غائلة ولا خبثة، بيع المسلم المسلم) وقال عنه الترمذي: حسن غريب .

=

والخبيثة الحرام، والغائلة السرقة، أراد أنه ملك اليمين غير مسروق ·

٢ ـ ومن ذلك مارواه أنس بن مالك رضى ا لله عنه أن رجلا من الأنصار أتى النبي صلى ا لله عليه وسلم يسأله، فقال: "أما في بيتك شيء؟" قال : بلى، حِلس(١) نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال ائتنى بهما قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بيده وقال :"من يشترى هذين؟" قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال "من يزيد على درهم؟" مرتين أو ثلاثا ، قال رجل : أنا أخذهما بدرهمين" فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى، وقال: "اشتر بأحدهما طعاما، فانبذه إلى أهلك، وإشتر بالآخر قدوما فائتنى به" فأتاه به فشد فيه رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عودا بيده ثم قال: "اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما" فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاءه وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم :"هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة : لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفضع، أو لذى دم موجع"(٢) ·

= وأخرجه ابن ماجه في التجارات، باب شراء الرقيق برقم ٢٢٢٥ .

والداء: هو المرض والعاهة ، والخبثة: نوع من أنواع الخبث أراد به الحرام، والغائلة: الخصلة التي تغول المال أي: تهلكه من إباق وغيره، ا.هـ جامع الأصول لابن الأثير ٤٩٦/١ .

(١) الحلس: كساء رقيق يكون تحت برذعة البعير، والقعب: إناء كبير. انظر المصباح المنير ١٥٨/١، ١٦٩/٢.

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب ما تجوز فيه المسألة برقم ١٦٤١، والترمذي في البيوع مختصرا، باب ما جاء في بيع من يزيد برقم ١٢١٨، والنسائي في البيوع مقتصرا على (باع من يزيد)، وابن ماجة في التجارة ٧٤٠/٢ برقم ٢١٩٨، وقال عنه الترمذي: حسن لا يعرف إلا من حديث الأخضر بن عجلان، قلت: وهو صدوق كما في التقريب رقم ٢٩١، وانظر عون المعبود ٥٥/٥ برقم ٢١٩٨، وضعفه الألباني في الإرواء ١٣٠/٥ لحال أحد رواته وهو أبو بكر الحنفي كما أعله به الذهبي والعسقلاني وابن القطان .

فانظر إلى مبلغ حكمته صلى الله عليه وسلم فى إعفاف الرجل من حر ماله، بحيث لايكون لأحد عليه مِنّه فقد استعمل النبي صلى الله عليه وسلم منزلته الجليله وخبرته فى البيع، فباع متاع الرجل بالمزاد العلنى الذى لايجرى به غبن على البائع ولاحيف على المشترى، وإنما بالقدر الذى تستحقه السلعة المعروضة بالفعل، إذا لم يبذل ثمنها الحقيقى من الراغب الأول، فلما استقر الثمن الحقيقى لها باعها منه، ووجه الرجل إلى الكسب الذى يعف نفسه وأهل بيته، فحصل للرجل مراده من الكفاف، وللنبي صلى الله عليه وسلم مراده من الإعفاف، كل ذلك بفضل بيعه الميمون.

٣ - ومثل هذه الصورة ماروا جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رجلا أعتق غلاما له عن دبر(١)، فاحتاج فأخذه النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "من يشتريه منى؟ فاشتراه نُعيم بن عبدالله بكذا وكذا، فدفعه إليه"(٢).

وإنما فعل النبي ذلك لما رأى حاجة الرجل إلى الثمن فإنه كان/ قد أفلس كما فى بعض روايات الخبر، فلم يكن ليقرّه على الإحسان وهو فى أمس الحاجه إلى شيء من المال ليفك رقبته من الدين الواجب عليه أداؤه فى الدنيا وإلا ظل مرتهنا به فى الآخرة حتى يقضي ثمنه، أو يأخذ من حسناته فيعطى لصاحب الحق بقدر حقه كما جاء فى الحديث.

والنبي صلى الله عليه وسلم لا يرضى له بذلك وهو يقدر على تخليصه من الإفلاس وحقوق الناس لما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من العدل والرحمة وإيثار الحق.

٤ - ومن صور تعامله صلى الله عليه وسلم فى البيع لمثل هذه الأغراض من إقامة الحق والعدل ما رواه الواقدى(٣) عن يزيد بن رُومان رحمه الله قال : بينا رسول الله

---

(١) أي: علق عتقه إلى بعد موته .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب بيع المزايدة ٩١/٣ .

(٣) هو محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي توفي سنة ٢٠٧ هـ،وهو ضعيف عند المحدثين بل متروك =

صلى ا لله عليه وسلم جالسا فى المسجد مع رجل من أصحابه، فأقبل رجل من زبيد يقول : يا معشر قريش : كيف تدخل عليكم المادة، أو يجلب إليكم جَلب، أو يحل تاجر بساحتكم وأنتم تظلمون من دخل عليكم فى حرمكم؟ يقف على الحِلَق حِلْقة حِلْقة، حتى انتهى إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فى صَحبه، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : منْ ظلَمك؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال كانت خير إبله، فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها، ثم لم يسمه بها لأجله سائم، فأكسد عليَّ سلعتى وظلمنى،قال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : "وأين أجمالُك؟" قال : هي هذه با"الحَـزْورة"(١) فقام رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وقام معه أصحابه فنظر إلى الأجمال فرأى أجمالا فُرُهْا(٢)، فساوم الزَّبيدِى حتى ألحقه برضاه، فأخذها رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بعير ابتاعه وأعطى ثمنه أرامل بنى عبدالمطلب، وأبو جهل جالس فى ناحية من السوق لا يتكلم،ثم أقبل إليه رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فقال : "أبا عمرو إياك أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الأعرابي فترى ماتكره" فجعل أبو جهل يقول : لا أعود يا محمد،لا أعود يا محمد، فانصرف رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم)(٣) .

فانظر إلى معاملته صلى ا لله عليه وسلم وإنصافه أرباب الأموال مثل هذا الرجل الذى كاد أن يضام فى ماله أو يكسد فيرجع بلا بيع، لولا معاملة العادل الرحيم صلى ا لله عليه وسلم له بشرائه منه، حيث أخذ الأجمال بقيمتها المرضية لدى صاحبها، ثم

= مع سعة علمه، غير أن ما يرويه في المغازي والسير إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي فإنه مقبول، كما أفاد الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٢٩١/٢، وانظر السيرة النبوية الصحيحة للعمري ٦١/١ .

(١) اسم موضع بمكة عند باب الحناطين سابقا المعروف الآن بالمدعى .

(٢) أي: نشيطة حادة قوية كما في النهاية ٤٤١/٣ .

(٣) انظر كتاب محمد رسول ا لله للصادق عرجون ٣٢٦/١ .

أفاء الله عليه ببركة عدله وصدقه فى معاملته أن أربحه الثمن المدفوع من جملين، فكان من شكر الله تعالى على نبيه أن تصدق بثمن الجمل الثالث على قرابته لتكون له صدقة وصلة وبر بالأرامل المعوزات اللاتى طالما كان يحث على الإحسان إليهن كما تقدم بيانه(١) .

٥ - ولقد كان من تعامله صلى الله عليه وسلم إعطاء أصحاب السلع الثمن الذى يرضونه ثم يتفضل عليهم بالمزيد كما جاء من حديث سويد بن قيس(٢) رضى الله عنه قال : جلبت أنا ومخرَفة العبدي بزاً(٣) من هَجَر، قال : فأتينا به مكة، فجاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فساومنا سراويل(٤)، فبعنا منه فوزن ثمنه، وقال للذى يزن : "زن وأرجح"(٥) .

٦ - وعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال : "بعت النبي صلى الله عليه وسلم بعيرا فى سفر فلما أتينا المدينة قال: "ائت المسجد فصل ركعتين" قال : فوزن لى فأرجح، قال : فما زال منها شيء، حتى أصابها أهل الشام يوم الحرَّة"(٦) .

---

(١) في مبحث معاملة الأرامل والمساكين ص٨٥٥

(٢) العبدي أبو مرحب، له ولمخرفة العبدي المذكور ذكر في كتب الصحابة مع إيراد هذا الحديث فقط، انظر الاستيعاب بهامش الإصابة ١١٤/٢، ٥٢٨/٣، وأسد الغابة ٣٨٠/٢، ٣٣٦/٤، والإصابة ١٠٠/٢، ٣٩٠/٣ .

(٣) أي: قماشا وثيابا .

(٤) أي: بايعنا ليشتري منا سراويل، وسراويل أسم أعجمي لنوع من الثياب معروف وهو مفرد، وجمعه سراويلات .

(٥) أخرجه أبو داود في البيع، باب في الرجحان في الوزن بالأجر برقم ٣٣٣٦، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في الرجحان في الوزن برقم ١٣٠٥، وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في البيوع، باب الرجحان في الوزن ٢٨٤/٧ .

(٦) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه منها في الهبة، باب الهبة المقبوضة وغير المقبوضة ٢١١/٣، ومسلم في المساقاة، باب بيع البعير واستثناء ركوبه برقم ١٦٠٠ .

=

ومن هذه الأحاديث استبان لك ما كان عليه النبي صلى ا لله عليه وسلم من كمال الأخلاق فى المعاملات المادية حيث كانت معاملاته فيها قائمة على مبدأ العدل إن عامل لغيره، وعلى الفضل إن عامل لنفسه، وفى معاملاته هذه نبراس هداية للمتعاملين يجب عليهم أن يهتدوا بها فى بيعهم وشرائهم، فقد كان لهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة إن كانوا يرجون الله واليوم الآخر، وذلك فضلا عن هديه صلى الله عليه وسلم بالقول؛ حثا وإرشادا وترغيبا على مكارم الأخلاق فى المعاملة من الصدق والأمانة وعدم الغش والكتمان.

من أقواله صلى ا لله عليه وسلم فى الحث على التحلي بمكارم الأخلاق فى التعامل المادي:

أما أقواله صلى ا لله عليه وسلم الدَّالةُ على ما يجب أن يكون عليه التعامل المادى بين الناس، فكثيرة،فقد كان صلى ا لله عليه وسلم يوجه أصحابه إلى ما يجب أن يكون عليه حالهم فى معاملاتهم من صدق وأمانة ونصيحة..، ويبين لهم عظيم فضل ذلك وجزيل ثوابه،ليرغبهم بذلك على التحلِّي بمكارم الأخلاق فى هذا الباب البالغ الأهمية،المفتقر الى مكارم الأخلاق غاية الافتقار، وأقواله صلى ا لله عليه وسلم فى ذلك كثيرة منها قوله صلى ا لله عليه وسلم :

١ - "البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا، فإن صدقا وبيَّنا بُورك لهما فى بيعهما، وإن كتما

= ويوم الحرَّة: يوم مشهود في الإسلام، وهو اليوم الذي نهب فيها المدينة جيش يزيد بن معاوية القادم من الشام بعد أن ندبهم لقتال أهل المدينة بما فيها من الصحابة والتابعين وذلك في ذي الحجة سنة ٦٣ هـ، ولما فرغ من وقعته المروِّعة النكراء بجيران رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وتابعيهم أمَّر عليها مسلم بن عقبة المزني، الذي سامهم سوء العذاب، والحرة هذه أرض بظاهر المدينة بها حجارة سود كثيرة، وكانت الوقعة بها شرقي المدينة. انظر جامع الأصول لابن الأثير ١/٤٤٤ .

وكذبا محقت بركة بيعهما"(١) .

وفى هذا الحديث ترغيب بالثواب العاجل الذى يريده التجار، وهو البركة والنماء وحصول النفع المرجو من البيع والشراء، وأن ذلك كامن فى التعامل بالصدق والنصح.

وكما دلهم على الثواب العاجل فقد دلهم أيضا على الثواب الآجل المدَّخر لهم عند الله إن هم تحلَّوا بمكارم الأخلاق فى معاملاتهم فصدَقوا وبينوا ولم يخونوا.

٢ ـ فعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "التَّاجر الصَّدوق الأمين مع النَّبيين والصِّديقين والشهداءِ"(٢) .

وفى هذا الحديث من الترغيب على الصدق والأمانة فى البيع والشراء ما لايفرط فيه تاجر عاقل ذودين.

٣ ـ وحثهم أيضا على التحلِّى بمكارم الأخلاق وذلك بالسَّماحة والسُّهولة فى البيع والشراء وعدم التَّشاح والتقاصى فى الحقوق، لما فى ذلك من أخذ الثَّمن والمُثمن عن طِيب نفس وقناعة، فيبارك فيهما لكليهما.

فعن جابر بن عبدالله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب إذا بَيَّن البيعان ٧٦/٣، ومسلم في البيوع، باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين برقم ١٥٣٢ من حديث حكيم بن حزام .

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع، باب ما جاء في التجار برقم ١٠٢٩ وقال عنه: حسن لا نعرفه إلا من حديث الثوري عن أبي حمزة ـ عبد الله بن جابر ـ قال: وهو شيخ بصري. ا.هـ، وأبو حمزة هذا لم يوثقه غير ابن حبان، وهو مقبول كما قال الحافظ في التقريب برقم ٣٢٢٤، ولكن للحديث شاهد عند ابن ماجه برقم ٢١٣٩، والدار قطني في البيوع ٦/٣، والحاكم في المستدرك ٦/٢، من حديث ابن عمر، قال الذهبي في التلخيص: وفيه كلثوم وضعفه أبو حاتم، قلت: ولكن وثقه البخاري كما في تهذيب التهذيب ٤٤٢/٨، وقال ابن معين: ليس به بأس، وقد قال الذهبي نفسه في الميزان ٤١٣/٣ عن هذا الحديث أعني حديث ابن عمر الشاهد لخبر أبي سعيد قال عنه: جيد الإسناد صحيح المعنى، فالحديث إذا لا يقل عن درجة الحسن لغيره إن شاء الله تعالى .

"رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى"(١) .

فهو صلى الله عليه وسلم يدعو لمن أبدى السماحة فى معاملاته من بيع وشراء واقتضاء..، فلم يشاحح ولم يشاكس.. ودعاؤه صلى الله عليه وسلم مستجاب لا شك فيه.

٤ ـ كما ندبهم إلى التَّجاوز عن المعسرين إذا استوجبوا شيئا عليهم،لما فى ذلك من دليل على التراحم بين المجتمع المسلم، وقد بين لهم أثر ذلك فيما رواه حذيفة رضى الله عنه، عنه صلى الله عليه وسلم فيما يحكيه عمن قبله من الأمم قال : "إن رجلا كان فيمن كان قبلكم أتاه المَلَك ليقبض روحه، فقال : هل عملت من خير؟ قال : ما أعلم، قيل له انظر، قال : ما أعلم شيئا غير أنى كنت أبايع الناس فى الدنيا فأُنظِرُ الموسر وأتجاوز عن المعسر فأدخله الله الجنة"(٢) .

وفى رواية : "كان رجل يداين الناس، وكان يقول لفتاه:إذا أتيت معسرا فتجاوز عنه لعلَّ الله أن يتجاوز عنا فلقي الله فتجاوز عنه"(٣) .

إلى غير ذلك من أقواله صلى الله عليه وسلم فى الحث على مكارم الأخلاق فى المعاملات بين الناس بالبيع والشراء ونحوهما.

من أقواله صلى الله عليه وسلم فى التحذير عن التخلى عن مكارم الأخلاق فى التعامل المادي:

وكما كان صلى الله عليه وسلم يرغب فى التحلى بمكارم الأخلاق عند المعاملات المادية،من صدق وأمانة وسماحة وإنظار..، فقد كان أيضا يحذرهم من التفريط بذلك وبكل خلق كريم، وذلك ليحملهم على لزوم مكارم الأخلاق رَغَبا ورهبا وذلك فى

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب السهولة والسماحة في البيع والشراء ٧٥/٣، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في استقراض البعير برقم ١٣٢٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٢٠٥/٤، ومسلم في المساقاة، باب فضل إنظار المعسر برقم ١٥٦٠ .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، باب من أنظر معسرا ٧٥/٣، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

أحاديث كثيرة لا يأتي على مثلها الحصر هنا، ولكن نذكر شيئا منها :

١ ـ فعن ترك أجل أخلاق التعامل المادى وهو الصدق يروى رافع بن خديج(١) رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إن التُّجار يُبعثون يوم القيامة فجَّاراً إلا من اتَّقى اللهَ وبَرَّ وصدق"(٢) .

وفى هذا الحديث من الترهيب عن سوء الأخلاق فى البيع والشراء ونحوهما من كذب ونحوه، فيه ما يذهل أولى الألباب، لأن الفُجَّار كما قال الله تعالى : ﴿لفى جَحيم * يَصلونها يومَ الدِّين * وما هُم عنها بِغائبين﴾[سورة الأنفطار:١٤-١٦] فإذا كان التجار يحشرون من هذا الصنف ولا ينجيهم منه إلا البر والتقوى والصدق فى المعاملة، فإن ذلك يحتم على المؤمن التحلى بهذه المكارم كى لا يحشر مع الفجار .

٢ ـ ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن الحلف في البيع لما فى ذلك من إلحاق ضرر بالمشتري، حيث يحمله ذلك على الثقة بالبائع، وقد يقع فى الغرر، ولما يؤذن برقة دِين البائع أو المشترى حيث يجعل الله تعالى عُرضة لأيمانه من غير إعظام له سبحانه وتنزيه له عن مثل تلك المحقَّرات، فلذلك نهى صلى الله عليه وسلم عن الحلف فى البيع وقال : "إيَّاكم والحلِف فى البيع فإنه يُنفق ثم يُمحق"(٣) ومعناه أحذِّركم من ذلك أيَّما تحذير

(١) الأوسي الأنصاري، استصغره النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فرده، وأجازه يوم أحد، وشهد ما بعدها من المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات سنة ٣٤ هـ، انظر تهذيب الأسماء ٨٧/١، والاستيعاب مع الإصابة ٤٩٥/١ .

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع، باب ما جاء في التجار برقم ١٢١٠، وابن ماجه في التجارات، باب التوقي في التجارة برقم ٢١٤٦، وابن حبان كما في موارد الظمآن برقم ١٠٩٥، والحاكم في المستدرك ٦/٢، وصححه ووافقه الذهبي وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، وله شاهد عند أحمد في المسند ٤٢٨/٣ من حديث عبد الرحمن السلمي .

(٣) أخرجه مسلم في المساقاة، باب النهي عن الحلف والبيع برقم ١٦٠٧، والنسائي في البيوع ٢٤٦/٧، باب المنفق سلعته بالحلف الكاذبة من حديث أبي قتادة رضي الله عنه .

وأردف بذكر ما يثمره الحلف من محق البركة كما قال فى حديث آخر :

"الحلف مُنَفِّقة للسلعة مُمحقة للكسب"(١) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة فى هذا المعنى.

٣ - ومن ذلك تحذيره صلى الله عليه وسلم إياهم من الغش فى البيع والشراء، لما فى ذلك من ضرر يلحق بالمشترى أو البائع، وما يجر إلى غير ذلك من عداوات وإِحَن وبغضاء، وأكل لأموال الناس بالباطل؛لذلك كان نهيه صلى الله عليه وسلم وتحذيره عن هذا الأمر شديدا حيث حكم على فاعل ذلك بعدم كونه من جماعة المؤمنين:

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ فى السُّوق على صُبرة طعام، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا ، فقال :"ما هذا ياصاحب الطعام؟" قال: يارسول الله أصابته السماء، قال :"أفلا جعلتَه فوق الطعام حتى يَراه النَّاسُ؟ من غشَّنا فليس مِنَّا"(٢) .

فانظر كيف كان صلى الله عليه وسلم يستشعر أمر الأخلاق فى هذه المعاملات ، حيث قام يفحص ذلك بنفسه و لم يكتف بما يحدِّث به من الترهيب والوعيد، فلما ظفر بخَلَل خُلُقي جعل صاحبه نكالا فى المجتمع المسلم حيث حكم على من يفعل ذلك بأنه ليس من جماعة المسلمين، لأنه لايحبُّ لهم ما يحب لنفسه، والمسلمون شأنهم ذلك ، فمن خدعهم فهو ليس منهم وكان صلى الله عليه وسلم قد قال: "لا يحِلُّ لامرئٍ مسلم يبيع سِلعة يعلم أنَّ بها أذى إلا أخبر به"(٣)

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب يمحق الله الربى ويربي الصدقات ٧٨/٣، ومسلم في المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع برقم ١٦٠٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "من غشنا فليس منا" برقم ١٦٤، وأبو داود في الإجارة، باب النهي عن الغش برقم ٣٤٥٢، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في كراهية الغش في البيوع برقم ١٣١٥، وابن ماجة في التجارات، باب النهي عن الغش برقم ٢٢٢٤ .

(٣) أخرجه البخاري تعليقا في البيوع، باب إذا بين البيعان و لم يكتما ونصحا ٧٦/٣، وقال الحافظ في =

ولهذا المعنى نهى أصحاب المواشي والأنعام عما قد يجرى منهم من غش وخداع فقال صلى الله عليه وسلم :"لا تُصَرُّوا(١) الإبل والغنم فمن ابتاعها فهو بخير النظرين بعد أن يحلُبها، إن شاء أمسك، وإن شاء رد وصاعًا من تمر"(٢) .

٤ ـ ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن كثير من الأمور المنافية للأخلاق الإسلامية الفاضلة التى قد تجرى عند البيوع ، كتلقِّي الرُّكبان(٣) وبيع حاضر لباد، (٤) وبيع الغرر(٥) ونَجش السّلع،(٦) وبيع المرء على بيع أخيه ، أو السَّوم على سوم أخيه(٧) ونحو ذلك مما لايتورع عنه مَن همُّه المال وجمعه من حِلّه أو غير حِلّه، فقد نهى صلى

= الفتح ١٦٠/٩: وصله أحمد وابن ماجه والحاكم من طريق عبد الرحمن بن شماسة عن عقبة مرفوعا بلفظ : المسلم أخو المسلم ولا يحل لمسلم ...، قال: وإسناده حسن من حديث عقبة بن عامر .

(١) التصرية: هي حبس اللبن في ضرع الشاة أو الناقة أو البقرة لتباع كذلك يغر بها المشتري، تفسير غريب الحديث للحافظ ابن حجر ص ١٤٢ .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب إن شاء رد المصراة وفي حلبتها صاع من تمر ٩٣/٣، ومسلم في البيوع، باب حكم بيع المصراة برقم ١٥٢٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) تلقي الركبان: هو أن يستقبل الحضريُّ البدويَّ ويخبره بكساد ما معه ؛كذبا ليشتري منه سلعته بالوكس، وأقل من ثمن المثل، وذلك تغرير محرَّم، ولكن الشّراء منعقد، النهاية لابن الأثير ٢٦٦/٤ .

(٤) هو أن يأتي البدوي البلدة ومعه قوت يبغي التسارع إلى بيعه رخيصا فيقول له الحضري: أتركه عندي لأغالي في بيعه ، وكانت السلعة مما تعمُّ الحاجة إليها. النهاية ٣٩٩/١ .

(٥) هو ما كان له ظاهر يغر المشتري وباطن مجهول .

(٦) وهو المسمى بالتناجش، وهو أن يمدح السلعة لينفقها ويروِّجها، أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها، وإنما ليقع غيره فيها. النهاية ٢١/٥، وفتح الباري ٢١٤/٩ .

(٧) هو أن يأخذ شيئا ليشتريه فيقول له: رده لأبيعك خيرا منه بثمنه، أو مثله بأرخص منه، أو يقول للمالك استرده لأشتريه منك بأكثر، وكان الثمن قد استقر وركن أحدهما إلى الآخر. فتح الباري ٢١٢/٩، وانظر النهاية ٤٢٥/٣ .

ا لله عليه وسلم عن ذلك نهي تحريم،لما في ذلك من مساوىء أخلاقيه كبيرة ولما يترتب عليها من مفاسد عظيمة فى المجتمعات .

١- فعن أبي هريرة رضى ا لله عنه قال:"نهى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم "أن يبيع حاضر لبادٍ ولاتناجشوا، ولا يبيع الرَّجلُ على بيع أخيه ، ولا يخطُب على خِطبة أخيه،ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأَ ما فى إنائها"(١) .

٢- وعنه أيضا رضى ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال :"لا تلقَّوا الرُّكبان ، ولا يبع بعضُكم على بيع بعض، ولاتناجشُوا، ولايبع حاضر لباد، ولاتَصُرُّوا الغنم، ومن ابتاعها فهو بخير النَّظرين بعد أن يحتلبها،إن رضيها أمسكها،وإن سخطها ردها وصاعا من تمر"(٢) .

وفى لفظ "نهى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم عن التَّلقِّى وأن يبتاع المهاجر للأعرابى، وأن تشترط المرأة طلاق أختها، وأن يَستام الرجل على سوم أخيه، ونهى عن النجش وعن التَّصرية"(٣) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التى تحث على التخلى عن مساوىء الأخلاق، وترغب فى التحلى بمكارمها ، فإن مثل تلك الأمور لاتصدر من ذى خلق قويم ، أو طبع مستقيم يرغب فيما عند ا لله تعالى،ويجتنب عما حرم ا لله تعالى، فنهى النبي صلى ا لله عليه

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب لا يبع على بيع أخيه، ولا يسوم على سوم أخيه حتى يأذن له أو يترك ٩١/٣، ومسلم في البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه .. برقم ١٥١٥ .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، باب النهي للبائع أن لا يحفل الإبل والبقر والغنم...، ٩٢/٣، ومسلم في البيوع، باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه.. برقم ١٥١٥ .

(٣) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الطلاق ٢٥١/٣، ومسلم في الباب السابق وبالرقم نفسه .

وسلم عن ذلك ليحمل المسلم على التجرد عن كل خلق ردىء فى المعاملات الاجتماعيه المادية، التى تحرص النفس البشرية على تعاطيها لما جُبلت عليه من حب المال حبا جما .

فكانت تلك النواهى مقوّمة لذلك الإعوجاج الخُلُقى فى سلوك المسلم، إن هو امتثلها وجعلها نصب عينه عند تعامله . كما يحتم عليه ذلك إسلامه واتباعه لنبيه صلى الله عليه وسلم .



المبحث الثاني

(القـرض والقضـاء)

القرض في اللغة القطع، يقـال:قرضـت الشـيء أقرضـه بالكسـر قرضـا: قطعتـه، ومنـه المقراض وهي آلة القرض .

وأطلق على ما يعطيه الإنسان من ماله ليُقضاه، كأنه شيء قد قُطع من ماله .

ومنه القِراض في التجارة،(١) وهو توكيلُ مالكٍ بجعل ماله بيد آخر ليتجر فيـه والربـح مشترك بينهما(٢) .

ويقال: القرض :المجازاة ، قال في تاج العروس(٣): "وأصل القرض مايعطيـه الرجـل أو يفعله ليجازَى عليه" ومنه قولـه تعـالى: ﴿مـن ذَا الَّـذى يُقـرِضُ الله قَرضـاً حسـنا﴾[سورة البقرة:٢٤٥] و لم يرد فى القرآن الكريم إلا بهـذا المعنى، أو بمعنـى المجـاوزة كمـا فـى قولـه تعالى:﴿وإذا غَربت تقرِضُهم ذاتَ الشـمال﴾[سورة الكهف:١٧] أي تجـاوزهم وتدُعهـم إلى أحد الجانبين (٤) .

أما المعنى الشرعى للقرض وهو "تمليك الشىء برد بدله (٥)" فلم يـرد إلا بمرادفـه وهـو الدَّين الذى وردت فيه أكبر آيات القـرآن الكريـم وهـى آيـة المداينـة فـى البقـرة، الأتـى بيانها، وورد فى آيتى ١١،١٢ من سورة النساء، والمراد به القرض، كما نقل الراغب عن أبى عبيدة قوله :"دِنتُه: أقرضته، ورجل مَدِينٌ، ومديُون،ودِنتُه إستقرضت منه..."(٦) .

---

(١) الصحاح للجوهري ١١٠١/٣، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ٧١/٥-٧٢ .

(٢) الياقوت النفيس ص ١٠٧ .

(٣) ٧٦/٥ .

(٤) المفردات للراغب ص ٤٠٠ .

(٥) الياقوت النفيس ص ٨٤ .

(٦) المفردات ص ١٧٥ .

إلا أن الذى جرى عليه عمل أهل العلم من فقهاء المذاهب المتبوعة وأهل الحديث فى الجوامع والسنن ، أن يبحثوا هذه المعاملة تحت عنوان (كتاب القرض) أو (باب القرض) أو (السَّلَف) دون ذكر الدين، وذلك لما يفيده المدلول اللغوى للقرض، فقد تقدم أن القرض فى اللغة: (ما تعطيه من المال لتقضاه) والقضاء شامل للقضاء الدنيوي بإرجاع المثل ممن استقرض، والأخروي من الله عز وجل بالثواب المعد لذلك.

القرض في القرآن الكريم:

والقرآن الكريم وإن لم يستعمله فى القرض بين الآدميِّين ، فقد استعمله فى أحد معنييه وهو قرض الله جل ذكره، وذلك لغرض حث العباد وترغيبهم على أن يعاملوه فى القرض، وذلك منه سبحانه على سبيل التَّلطُّف والإحسان بهم حيث ندبهم إلى الإنفاق فى سبيله بما يعهدونه من القرض الواجب قضاؤه لتركن أنفسهم إلى القضاء، وترغب فى عظيم الأجر والجزاء، فتبادر إلى بذل المال فى مرضاة الله، وخلع غُل الشُّح المسيطر على النفوس فى حب المال وعدم بذله إلا إذا علمت الربح الوفير.

أو يعاملوا عباده به الذين هم فى حاجة إليه لإصلاح معاشهم وأحوالهم،وذلك فى الحقيقة هو إقراض لله تعالى يثيب عليه فى الآخرة، وإن كان يعود له فى الدنيا مثل ما بذله ، لما فى ذلك من التيسير على عباد الله وتفريج كرباتهم، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :"من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعسر يسَّر الله عليه فى الدنيا والأخرة، ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة، والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه..."(١) .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآنوعلى الذكر برقم ٢٦٩٩، وأبو داود في الأدب، باب في المعونة للمسلم برقم ٤٩٤٦، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في الستر على المسلم برقم ١٤٢٥، وفي البروالصلة، باب ما جاء في الستر على المسلم برقم ١٩٣٠، كلهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ،واللفظ لمسلم .

وأي تيسير له وتفريج لكربته أكثر من أن يقرضه مبلغا من المال ليفكه به من أزمة، أو يعمل له به مصلحة تقوم بها حياته.

فتحصَّل أن القرض وإن جاء فى أسلوب القرآن فى بيان الصدقة النافلة إلا أن دلالته اللغويه لاتمانع من حمله على أصل وضعه اللغوى ، بل إن الراغب وهو الذى عُني فى مفرداته ببيان معانى القرآن اللغويه لم ينص إلا على ذلك المعنى الأصلى للمادة فقال:"القرض: ضرب من القطع ... وسمي ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا، قال تعالى: ﴿من ذا الَّذى يُقرضُ اللهَ قرضا حسنا﴾[سورة البقرة:٢٤٥](١) .

وذلك ما جرى عليه عمل أهل العلم فى مصنفاتهم، حتى البخاري فى جامعه الصحيح جعل أحد كتبه فيه باسم (الاستقراض وأداء الديون...) وذكر فى طيِّ ذلك أحاديث المداينة .

وحيث كان الأمر كذلك فإننا سنستعرض لذكر القرآن الكريم للقرض بلفظه لنفاد من ذلك المعنى الأخلاقى الكريم، الهادف إلى تيسير أحوال المؤمنين فيما بينهم بفضل تكافلهم الاجتماعى، ومن أجلِّه الصدقات لمحتاجيها التى جعلها الله عز وجل قرضا له، يقضى به عباده أضعافا مضاعفة من الأجر والثواب فى دار كرامته الأخروي، ناهيك عن الإخلاف لهم فى الدنيا،كما قال سبحانه: ﴿وما أنفقتُم من شيءٍ فهو يُخلِفُه وهو خيرُ الرَّازقين﴾[سورة سبأ ٣٩] .

ثم بعد ذلك نعرض إلى ذكر أحكامه وآدابه فى آيات المداينه،غير أن المقام يستدعى أن نبدأ ببيان معنى القرض لله تعالى وهو الغنيُّ الحميد فإنه«قبل الرمي يُراش السهم»كما قيل فى المثل المشهور .

معنى إقراض الله سبحانه وتعالى :

لقد تناول أهل العلم بيان المراد من إقراض الله جل شأنه وهو الغنى الحميد،وكثرت أقوالهم فى ذلك،ومن أحسنها قول الإمام القرطبى رحمه الله فى تفسيره إذ قال عقب

---

(١) المفردات ص ٤٠٠ .

آية البقرةفيالمسند ايسنه مانصه:"واستدعاء القرض فى هذه الآية ، إنما هو تأنيس وتقريب للناس بمايفهمونه، وا لله هو الغني الحميد، لكنه تعالى شبّه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه فى الأخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال فى أخذ الجنة بالبيع والشراء(١) .

وقيل المراد بالآية : الحث على الصدقة وإنفاق المال على الفقراء والمحتاجين والتوسعة عليهم، وفى سبيل ا لله بنصرة الدين، وكنى ا لله سبحانه عن الفقير بنفسه العلية المنزهة عن الحاجات ترغيبا فى الصدقة، كما كنى عن المريض والجائع والعطشان بنفسه المقدسة عن النقائص والآلام ففى صحيح الحديث إخبارا عن ا لله تعالى : "يابن آدم مرضتُ فلم تعدنى ، قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟!قال : أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تعده، أما إنك لو عدته لو جدتنى عنده. يابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى، قال: يارب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟!قال: أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يابن آدم استسقيتك فلم تسقنى، قال: يارب وكيف أسقيك وأنت رب العالمين؟!قال: استسقاك عبدى فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى"(٢).

قال القرطبى: "وهذا كله مُخرَّج مَخرج التشريف لمن كنى عنه،ترغيبا لمن خوطب به"اهـ(٣) . وكذا قال النووى فى شرح مسلم.(٤) .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ إن ا لله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتِلون في سبيل ا لله فيقتُلُون ويُقتَلُون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من ا لله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾[سورة التوبة:١١١] .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة، باب فضل عيادة المريض من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه برقم ٢٥٦٩

(٣) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣/٢٤٠ .

(٤) ١٦/١٢٦ .

ونحو هذا ما نقله النووى عن الواحدي(١) فى تفسيره و لم يعقب عليه إذ نقل عن أهل المعانى قولهم:"هذا تلطُّفٌ من الله عز وجل فى الاستدعاء إلى أعمال البر ، لذلك أضاف الإقراض إلى نفسه، كأنه قيل: من ذا الذى يعمل عمل المقرض: بأن يقدم فيأخذ أضعاف ماقدم فى وقت فقره وحاجته"(٢) .

حث القرآن الكريم على إقراض الله تعالى:

إذا تقرر المعنى المراد من إقراض الله تعالى كما فهمه أهل العلم وبينوه، وعلم ذلك، فينبغى أن يعلم أن الله تعالى قد حث عباده على إقراضه سبحانه فى غير ما آية ، بأساليب مختلفه من أمر وحض وترغيب..، فى ست آيات كريمات مختلفات،وذلك لما يحصل به من التكافل الاجتماعى بين المؤمنين،وما يتم به من إصلاح معاشهم ومعادهم، وما يحصل به من التَّواد والتراحم فيما بينهم ، الذى هو من أجلِّ سِمات المؤمنين، ومن أجل أهداف الإسلام الاجتماعيه فى مجتمعات المسلمين، فلذلك توالت آيات القرآن الكريم فى الحديث عنه بأساليب مختلفه من أمر وحض:

١ ـ أما الأمر به فهو ما جاء فى قوله جل ذكره:﴿..وأَقيموا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ وأَقرضوا اللهَ قرضا حسَنا وما تُقدِّموا لأنفسِكم من خيرٍ تَجدوه عندَ اللهِ هو خيراً وأعظمَ أجرا...﴾[سورة المزمل :٢٠] .

ويلاحظ أن الله تعالى لم يكتف بذكر الأمر به فحسب ، حتى قرنه بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة،مما يدل على عظيم أهميته ويوحى بوجوبه، غير أن أهل التفسير لم يختلفوا فيما أعلم على أن المراد به الصدقات غير الواجبه كما تقدمت الإشارة إليه آنفا ، وكما جاء عن الحسن البصرى قوله:"كل مافى القرآن من القرض الحسن فهو

(١) وهو الإمام العلامة أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري، قال عنه الذهبي: إمام علماء التأويل له تفاسير ثلاثة: البسيط والوسيط والوجيز،وأسباب النزول وغيرها، توفي سنة ٤٦٣هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٣٣٩/١٨ .

(٢) تهذيب الأسماء واللغات ٨٧/٣

التطوع"(١)، ولكن طلب الله تعالى له بصيغة الأمر وقرنه بفريضتي الصلاة والزكاة يدل على أن طلب الله له طلب حثيث .

ثم إن الله تعالى لم يطلب مجرد القرض، بل إنما أراد قرضا حسنا، وهو الذى يجمع أمورا ثلاثه:

أحدها: أن يكون حلالا خالصا لا يختلط به الحرام.

ثانيها: أن لايتبعه بمنٍّ ولا أذى.

ثالثها: أن يفعله على نية التقرب إلى الله تعالى(٢) ، وهذه الشروط وإن كانت بناء على أن المراد به الصدقة إلا أن القرض المشروط ردُّ بدله يشترط فيه ذلك أيضا، إذ المسلم يعامل به ابتغاء مرضات الله ونفع إخوانه المؤمنين، ويضاف إلى ذلك أمر ثالث وهو أن لا يجر إليه نفعا، لأن «كل قرض جر نفعا فهو ربا"(٣) .

فإذا اجتمعت هذه الأمور كان القرض حسنا يُرجى ثوابه وبره، وقد قيد الله القرض بالإحسان فى جميع الآيات المتحدثة عنه ، فلو أن المسلمين أقرضوا وأحسنوا، لما بقي فى المسلمين محتاج يتطلع إلى ما فى أيدى الناس.

٢ ـ أما حضُّ الله تعالى عباده عليه وترغيبهم به فهو ما جاء بقوله سبحانه : ﴿مَن ذا الَّذى يُقرِضُ الله قرضا حسنا...﴾[سورة البقرة:٢٤٥، وسورة الحديد:١١] "وهذا الأسلوب مستعمل فى التحضيض والتهييج على الأنصاف بالخير، كأن المستفهم لا يدرى من هو الأهل لهذا الخير والجدير به(٤) .

ولا يخفى ما فى هذا الأسلوب من تلطف الله عز وجل بعباده حيث يستدعيهم إلى أعمال البر بأسلوب المشفق الراغب فى الخير، وزاده إحسانا وتلطفا أن أضافه إلى نفسه

---

(١) تفسير القرطبي ٢٥٢/١٧ .

(٢) انظر التفسير الكبير ١٦٨/٦، وانظر تهذيب الأسماء واللغات ٨٧/٣ .

(٣) انظر تخريج أحاديث المدونة ٩٩٥/٣ .

(٤) التحرير والتنوير ٤٨١/٢ .

كأنه قيل : من ذا الذى يعمل عمل المقرض بأن يقدم فيأخذ أضعاف ما قدم فى وقت فقره وحاجته .

٣ – ثم لم يكد الله عز وجل يفرغ من هذا الحض حتى أتبعه بما يرغب فيه ويحمل المرء على المبادرة إليه من الترغيب بالأجر المضاعف أضعافا كثيرة فقال سبحانه : ﴿فيضاعفه له أضعافًا كثيرةً والله يقبضُ ويبسُط وإليه تُرجعون﴾[سورة البقرة:٢٤٥] .

وقد كرر الله تعالى هذا الوعد للعباد فى غالب آيات الحث عليه والترغيب به كما فى قوله تعالى : ﴿إن المصَّدقين والمصَّدقات وأقرضوا الله قرضًا حسنا يُضاعفُ لهم ولهم أجر كريم﴾[سورة الحديد:١٨] وغيرها من الآيات .

وهذا الأجر المضاعف لم يبين الله تعالى قدره، مكتفيا بما تفيده الكثرة المنصوص عليها من دلالة،على ما لا نهاية له ولا حد، ولا يقدرها إلا الله تعالى فى علمه الخفي، فإن الكثير من الله تعالى لا يحصى(١)) ، بل كذا القليل منه سبحانه .

بخلاف بقية الصدقات والنفقات فى سبيله المحدد بيان أجرها بمثل قوله سبحانه : ﴿مثلُ الذين يُنفِقونَ أموالَهم فى سبيلِ اللهِ كمثلِ حبَّةٍ أنْبتت سبعَ سنابلَ فى كلِّ سُنبلةٍ مائةُ حبَّة...﴾[سورة البقرة:٢٦١] .

ومع هذا الأجر العظيم فإن الله جل شأنه لم يقتصر فى ترغيب عباده على الإقراض على ذلك، بل رغبهم به بما رتب عليه أيضا من خيرات أخر، كالمغفرة وتكفير السيئات كما قال سبحانه : ﴿إن تُقرِضوا الله قَرضا حسنا يُضاعفْه لكم ويغفرْ لكم والله شكور حليم﴾[سورة التغابن:١٧]، وكما قال سبحانه : ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثْنَي عشر نَقيباً وقال اللهُ إنِّى معَكم لإن أقمتُم الصلاةَ وآتيتُم الزَّكاةَ وآمنتُم برُسلي وعزَّرتموهم وأقرضتُم اللهَ قَرضاً حسنا لأُكفِّرَنَّ عنكم سيِّئاتِكم ولأُدخلنَّكم جنَّاتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ فمن كَفر بعد ذلك فقد ضلَّ سواءَ السَّبيل﴾[سورة المائدة:١٢] .

---

(١) تفسير القرطبي ٢٤٠/٣، وتفسير البيضاوي ص ٥٩، وتفسير ابن كثير ٣٩٩/١ .

وإذا حصلت للعبد المغفرة وتكفير السيئات فقد فاز فوزا عظيما؛لأن مضاعفة الجزاء على الإنفاق مع المغفرة وتكفير السيئات،خيرٌ عظيم،وكفى بهذا ترغيبا وتلطفا فى الطلب إذ جعل المنفق كأنه يعطى الله تعالى مالا، وذلك من معنى الإحسان فى معاملة العبد ربه(١) الذى بينه النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل عليه السلام عن الإحسان وغيره، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(٢).

فهذا مما جاء فى كتاب الله تعالى عن القرض بلفظه.

حديث القرآن الكريم عن الدَّين :

أما ما جاء بمعناه وهو الدين، فذلك فى أكبر آية من آيات كتاب الله تعالى وأكثر آياته تفصيلا وتبيننا، وهي الآية المعروفة بآية الدين أو المداينة والذى قال الله تعالى فيها: ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا تَداينتُم بدَينٍ إلى أَجلٍ مسمًّى فاكتُبوه ولْيكتُب بينَكم كاتِبٌ بالعدلِ ولا يأبَ كاتِبٌ أن يكتُبَ كما علَّمه الله فليكتُب ولْيُملل الَّذى عليه الحقُّ ولْيتَّق الله رَبَّه ولا يَبخسْ منه شيئًا فإنْ كان الَّذى عليه الحقُّ سفِيهاً أو ضعيفًا أو لايَستطيعُ أن يُمِلَّ هو فليُملل وليُّه بالعدل واستَشهِدوا شَهيدينِ من رجالِكم فإنْ لم يكونا رجُلين فرجلٌ وامرأتانِ ممن تَرضونَ من الشُّهداءِ أن تَضلَّ إحداهما فَتُذكِّر إحداهما الأُخرى ولايأبَ الشُّهداءُ إذا ما دُعوا ولا تَسأموا أن تَكتبوه صغيراً أو كبيرًا إلى أجلِه ذلكُم أقسطُ عند الله وأقومُ للشَّهادة وأدنَى ألَّا ترتابوا إلَّا أن تكونَ تِجارةً حاضرةً تُديرونها بَينكم فليس عليكُم جناحٌ ألَّا تكتُبوها وأشهِدوا إذا تَبايعتُم ولا يضارَّ كاتبٌ ولا شهيد وإن تَفعلوا فإنَّه فُسوقٌ بكم واتَّقوا اللهَ ويعلِّمُكم اللهُ واللهُ بكل شيءٍ عليم﴾[سورة البقرة :٢٨٢] .

فهذهأطول آية فى القرآن الكريم وأكثر آياته تفصيلا وإيضاحا، لم يجعلها الله تعالى

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٨/٢٩٠ .

(٢) متفق عليه تقدم ذكره ص ٣٢٥ .

لتبيين أمر العبادة التى لم ترد فيه إلا على سبيل الإجمال، ولا لغير ذلك من الأمور الدينية الأخرى إيمانيه أو تعامليه، وإنما جعلها لبيان أحكام المداينة بين العباد، وذلك لما يترتب على المداينة من منافع ومضار إذا لم تراع هذه التعليمات الإلهيّة، ولما فى ذلك من خطر عظيم على دِين العبد، ومصيره الدنيوى والأخروى، لأن الأمر متعلق بحقوق الآدميين المبنية على المشاحّة، والشريعة الإسلامية حريصة على قطع أسباب الخصومات وتنظيم أمور المعاملات بين الأفراد والمجتمعات الإسلامية، بل الإنسانيه، فلما كان الأمر كذلك أطنب الله تعالى فى تفصيل أحكام المداينة فى هذه الآية الطويلة العظيمة التى استنبط منها بعض أهل العلم(١) ثلاثين حكماً، وعقد لها الإمام القرطبى اثنتين وخمسين مسألة فى تفسيره(٢)، وللآية التاليه لها المتممة لأحكامها أربعا وعشرين مسألة(٣)،

ومن أبرز ما جاءت به هذه الآية من الأحكام والآداب ما يلى :

١ ـ الأمر بكتابة الدين أيّاً كان نوعه لتناولها لجميع ذلك بالإجماع(٤)، وإن كان سبب نزولها خاصا بالسَّلَم(٥) كما قال ابن عباس رضى الله عنهما(٦)، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والأمر بالكتابة أمر ندب لدى جمهور العلماء كما قاله ابن عطيّة فى تفسيره(٧) لما فى ذلك من حفظ الأموال وإزالة الرِّيب، قال : "وإذا كان

---

(١) كابن خويزمنداد كما قال القرطبي في التفسير ٣/٣٧٧ .

(٢) من ٣/٣٧٧-٤٠٦ .

(٣) من ٣/٤٠٦-٤٢٠ .

(٤) انظر المحرر الوجيز ٢/٥٠١، وتفسير القرطبي ٣/٣٧٧ .

(٥) وهو بيع شيء موصوف في الذمة بلفظ السلم أوالسلف. الياقوت النفيس ص ٨١ .

(٦) نقل ذلك ابن عطية في تفسيره ٢/٥٠٠ قال: ومعناه أن سلم أهل المدينة كان سبب هذه الآية ثم هي تتناول جميع المداينات إجماعا، ا.هـ .

(٧) المحرر الوجيز ٢/٥٠١ ومنهم مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وخالف في ذلك جماعة منهم ابن جريج والشعبي وعطاء والنخعي، فقالوا: إن الأمر للوجوب بيعا كان أو قرضا لئلا يقع فيه نسيان أو جحود، واختار ذلك الطبري، انظر التحرير والتنوير ٣/١٠٠، وتفسير القرطبي ٣/٣٨٣ .

الغريم تقياً فما يضره الكتاب، وإن كان غير ذلك فالكتاب ثقاف - أى: حافظ - فى دينه، وحاجة صاحب الحق، قال : وقال بعضهم «إن أشهدت فحزم وإن ائتمنت ففى حل وسعة» ويعنى الإشهاد مع الكتابة، لأن الكتابة بغير شهود لا تكون حجة.

قلت: وفى الآية الثانية ما يؤيد هذا القول حيث قال الله تعالى : ﴿فإن أمِنَ بعضُكم بعضًا فليُؤدِّ الذى اؤتُمن أمانته..﴾ [البقرة ٢٨٣] فأباح المداينة مع عدم كتابة أو توثيق برهن، وجعل يد الغريم يد أمانة يجب عليه أداؤها متى طلبت منه.

٢ - أرشد الله تعالى عباده إلى كيفية المداينة وهى أن تكون إلى أجل مسمى، أى وقت محدد لا أن يكون مجهول الأجل، كما يقع من كثير من المتداينين ، "فوصفُه تعالى الأجل بـ"مسمى" دليل على أن الجهالة لا تجوز، فكأن الآية رفضتها، وإذا لم تكن تسمية وحد فليس هناك أجل"(١).

٣ - أمر الله تعالى أن تكون الكتابة بالعدل، أى بالحق بحيث لا يكتب لصاحب الحق أكثر مما قاله ولا أقل، ولا يكون فى قلب الكاتب ولا قلمه مواداة لأحدهما على الاخر.

٤ - نهى الله تعالى الكاتب عن أن يتأبَّى من الكتابة،بل عليه أن يفعل ذلك لما فى ذلك من شكر الله تعالى على ما أنعمه عليه، فعليه أن يحسن كما أحسن الله إليه، بله عما فى ذلك من مساهمته فى حفظ الحقوق التى حرص الاسلام على حفظها لأربابها.

وهل ذلك النهى للتحريم أولا، خلاف بين أهل العلم فى ذلك(٢). وظاهر الآية تفيد الوجوب لا سيما إن لم يكن فى البلد غيره، فإنه يتعين عليه حينئذ، وإلا لأدى إلى ضياع الحقوق التى أمر الله تعالى بها أن تحفظ، ولذلك وجه الله تعالى الأمر إلى الكاتب مرتين ووسط بينهما النهى عن أن يأبى ذلك، وفى ذلك من التأكيد للكاتب على بذل الكتابة ما لايخفى.

٥ - على المملى وهو المدين إذا ماتهيأ الكاتب للكتابة أن يملى عليه ما هو الحق

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٥٠١ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ٣/٣٨٤، والتحرير والتنوير ٣/١٠٢ .

الثابت عليه من غير وكس ولا شطط، لما يترتب على الكتابة تلك والشهادة من حق ومطالبه، ولذلك امره الله بتقواه فى هذا الحال فقال :﴿وليُملِلِ الَّذى عليه الحقُّ وليتق الله ربَّه﴾ قالوا : "وإنما شدد فى تكليف المملى حيث جمع فيه بين الأمر بالإتقاء والنهى عن البخس لما فيه من الدواعى إلى النهى عنه، فإن الإنسان مجبول إلى دفع الضرر عن نفسه ما أمكن"(١) .

٦ ـ ندب الله تعالى المتداينين إلى كتابة الحقير والجليل من غير سآمة لذلك ولا ملل فقال تعالى: ﴿ولا تَسأموا أن تكتُبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجلِه﴾ لما فى ذلك من قطع دابر الخصومة بين المسلمين، وحفظ أموالهم وسلامة ديانتهم ولذلك قال الله تعالى: ﴿ذلكم﴾ أى: كتابة القليل والكثير﴿أقسطُ عند الله﴾ (أى: أعدل ﴿وأقومُ للشَّهادة﴾ أى: أصح وأحفظ ﴿وأدنى ألا ترتابوا﴾ أى: أقرب ألا تشكوا)(٢) فى بعضكم بعضا وتظنوا فيهم الظنون التى قد تكون محرمة .

٧ – ولما كانت الكتابة وحدها لاتكفى فى إثبات الحقوق ندب الله تعالى إلى أن تقترن بشهادة شاهدين ممن تُرضى شهادتهما من الرجال،أو رجل وامرأتان فيشهدان بإقرار المدين وصحة كتابة الكاتب فيثبت بذلك الدين عند المقاضاه، ونهى الله تعالى الشهداء أن يتأبُّوا عن حمل الشهادة أو أدائها فقال تعالى : ﴿ولا يأبَ الشُّهداءُ إذا ما دُعوا﴾ لما فى ذلك من تحقيق غاية الشريعة فى حفظ الحقوق، وواجب الأخوه الإيمانية من التعاون على البر والتقوى.

والمسلم مأمور بذلك حيثما وجد له مندوحة فقد قال تعالى :﴿وتَعاونُوا على البرِّ والتَّقوى..﴾ [المائدة ٢] وليس للشهود عذر فى ترك الشهادة تحملا أو أداء،لأن الله تعالى قد أحاط جنابهم عن أن يمسوا بأذى كان يمكن أن يناله الكاتب أو الشهيد عند الجهر بالحق ممن لم يرض به ، حيث نهى الله تعالى عن الإضرار بهم ، وحكم على من تجرأ على فعل ذلك

---

(١) روح المعاني ٥٧/٣/١ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ٤٠١/٣ .

بالفسوق الذى يعنى الإيذان بالعقاب والمؤاخذه بسبب خروجه عن الطاعة فقال تعالى: ﴿ولا يُضارَّ كاتبٌ ولا شَهيد وإن تفعلوا فإنّه فُسوقٌ بكم﴾.

٨ ـ أحاط الله تعالى كل الأحكام والآداب تلك بالوصية بتقوى الله ومراقبته فى تنفيذ هذه الآداب والأحكام وإشعارهم بأنه عليم بتصرفاتهم إن هم خالفوا ذلك، وسيجازى الممتثل بالإحسان، والمقصر بما يقتضيه عدله أو عفوه فقال تعالى: ﴿واتَّقوا الله وَيُعلِّمكُم اللهُ والله بكل شيءٍ عليم﴾.

ولا غرو فى أن يحاط أمر المداينة بهذه الوصية العظيمة، لما فى ذلك من الخطر العظيم، فإن أمر الدين عظيم لأنه حق الأدمى الذي جبلت نفسه على الشح وحب المال، فقد لا يسامح فيه ولا يفرط فى القليل أو الكثير منه، والله تعالى قد يتسامح فى حقه بما يشاء، أما حقوق الآدميين فلا، ولذلك جعله مقدما حتى على حقوق الوارثين، فلم يبح أن تقسم التركة عليهم حتى يخرج لذوى الوصايا والديون حقوقهم، فما فضل بعد ذلك قسم بينهم كما قسمها الله تعالى كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿من بعدِ وصِيَّة يُوصَى بها أو دَين﴾[سورة النساء:١٢] وكرر ذلك مع كل صنف ممن نص الله تعالى على توريثهم.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم خطر ذلك بما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: "يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين"(١).

"ففى هذا تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفرها وإنما يكفر حقوق الله تعالى"(٢) بل لا تبرأ ذمة المدين إلا بأداء الدين كله على النحو الذى اتفق عليه.

وكل ما مضى مما نصت عليه الآية الكريمة أو الحديث الشريف إنما هو لضمان أداء المدين الدين الذى اقترضه فى أجله المسمى، وفى ذلك من الضمان والحيطة على إرجاع الحق إلى صاحبه ما يكفى حيث يستوفى ذلك منه قهرا إن خالف، عن طريق القضاء

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب من قتل في سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين برقم ١٨٨٦ .

(٢) شرح مسلم ٢٩/٣ .

والسلطة اعتمادا على تلك المكاتبة،ومع ذلك فإن الله جلت قدرته لم يكتف بذلك فى الضمان لعودة المال إلى صاحبه.

بل أضاف إلى ذلك إلهاب القلوب المستدينه بالرهبة والخشية من التفريط فى أمر الأداء، وذلك بالآيات الكريمات المحذرة من أكل أموال الناس بالباطل كقوله تعالى:﴿ولا تأكُلوا أموالكم بينكم بالباطِل﴾[سورة البقرة:١٨٨] وعدم أداء الدين هو أكل لأموال الناس بالباطل المنهي عنه فى غير ما آية.

وبالآيات الحاثه على أداء الأمانه كقوله تعالى: ﴿... فليُؤَدِّ الَّذى أوتمن أمانَته﴾[سورة البقرة:٢٨٢] وقد سمى الله تعالى المداينة أمانة، وقد مر معنا تعظيم الله تعالى للأمانة وما يترتب عليها فى مبحث الأمانة المار ذكره(١).

وبالآيات الناهيه عن الخيانة، والمحذرة منها، والمتقدم ذكر طائفة منها فى الأمانة لأن القرض أمانة فى يد المستقرض، فعدم أدائه أو التفريط فيه ضرب من الخيانة.

وفى كل ذلك وغيره تهييج لقلب المسلم على الأداء بحيث لايفرط فيه بعده فى الغالب إلا من غُلب على أمره بعدم تيسر حاله على أداء الديون، وذلك هو المعسر الذى لم يدخر جهدا على تبرأة ذمته ولكن الحظ لم يساعده، ومن كان كذلك فإنه غير ملوم، لاسيما إن لم يكن له يد فى كسب الإعسار، ومن علم الله تعالى منه ذلك، فإنه لا يكلفه فوق طاقته، بل ألزم الدائن إنظاره إلى حال يساره، إن لم تجُد نفسه بما هو الأفضل عند الله تعالى وهو الإبراء من كل الدين أو بعضه، كما قال تعالى: ﴿وإن كان ذُو عُسرة فنَظِرةٌ إلى مَيسرةٍ وأن تَصدَّقوا خيرٌ لكم إن كنتُم تعلمون﴾[سورة البقرة:٢٨٠].

وهذا معنى أخلاقى عظيم فى هذه المعاملات، حيث ألزم الله تعالى الدائن عند إعسار المدين إنظاره إلى حال يساره و لم يبح له إزعاجه أو مضايقته، فإنه لا حول له فى دفع ما استدانه ولا قوة، فمضايقته بعد ذلك ظلم وسلوك غير لائق فى مجتمع مسلم، مبني على التواد والتراحم والمحبة والأخاء، بل إن الله عز وجل حبَّذ لصاحب الدين التصدق عليه بما

---

(١) ص ٥٦٥.

وجب عليه، وتخليص ذمته، تحقيقا لهذه المعانى السامية بين المسلمين.

فإن لم تطب نفسه بذلك، فلا أقل من إنظاره، وذلك حتم عليه، فإن الآية توجب عليه ذلك فيجب على صاحب المال إنظار المدين عند ثبوت إعساره لدلالة هذه الآية، ودلالة السنة على ذلك أيضا(١) .

وهذا دليل على عظيم مكارم الأخلاق فى المعاملات المادية، حيث أوجب المولى تبارك وتعالى على أصحاب الأموال المدينة، التحلى بهذا الخلق عندما يعسر إخوانهم فلم يستطيعوا الأداء، وهذا الخلق يحمل على تبادل المحبة والتراحم بين أفراد المجتمع المسلم، فيجب أن يراعى ويتحلى به عند حدوث سببه، وا لله الموفق والهاد إلى سواء السبيل.

---

(١) انظر أحكام القرآن للقرطبي ٣٧٢/٣ .

تمثّل أخلاق

القرض والقضاء في النبي صلى ا الله عليه وسلم

لم تكن حياة النبي صلي ا الله عليه وسلم تخلو بين الحين والآخر من اقتراض و قضاء وذلك للحال الذى كان عليه صلى ا الله عليه وسلم من الشّدة وشَظَف العيش الذى اختاره لنفسه ليكون كما قال : "..أجوع يوما وأشبع يوما.."(١) فكان صلى ا الله عليه وسلم على ذلك الحال المختار لديه المرضي عنده، لا يبالى بجوع، ولا يفرح بشبع، وتمر الليالي ذوات العدد ولا يوقد فى بيته نار كما تقدم بيانه(٢) .

ولكن لم يكن يرى ذلك عذرا له فى عدم بذل معروفه لمن يلوذ به من أهل أو ضيف أو سائل، وإن كان ذلك عن طريق الاستدانة لما جُبِل عليه من مكارم الأخلاق . فكان يستدين لذلك فإذا ما وجد ما يؤدي به بادر إلى القضاء.

وقد كان عليه والصلاة والسلام معروفا بذلك حتى قبل البعثه كما دل عليه قول أم المؤمنين خديجة رضى ا الله عنها فى قصة بدء الوحى "...كلا وا الله ما يُخزيك ا الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلّ..."والكَل: بالفتح : الثقل من كل ما يُتكلف كما يقول أهل غريب الحديث(٣) . وأى أمرأ ثقل على النفس العزيزة من حقوق الآدميين، الذى قد يكون منهم غليظ الطبع جافى الخلق لا يراعى كبيرا لِكِبره ولا صغيرا لصغره عند استيفاء حقه وحلول أجله .

فمن تحمل من مثل هؤلاء دينا، فحري به ذلك الوصف المتقدم، بغض النظر عن أي أمر ثقيل سواه، والنبي صلى ا الله عليه وسلم قد كان يتحمل كل ذلك ويبتلى ببعض من وصفتُ، والشواهد على ذلك كثيرة :

١ ـ منها ما تقدم من استقراضه صلى ا الله عليه وسلم من زيد بن سِعنة وما فعله معه

---

(١) حديث حسن تقدم تخريجه في مبحث الشكر ص ١٨٢ .

(٢) في مبحث الزهد ص ٤٩٤-٥١٣ .

(٣) انظر مثلا المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث ٧٠/٣، والنهاية ١٩٨/٤ .

عند الاستيفاء لغرض اختباره لمعرفة دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم التى كان يعلمها من الكتب السابقة(١) .

٢ – ومن ذلك ما جاء عن أبى حُميد الساعدى رضى الله عنه قال : "استسلف النبي صلى الله عليه وسلم من رجل تمرلون(٢)، فلما جاءه يتقاضاه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس عندنا اليوم من شيءٍ، فلو تأخَّرت عنا حتى يأتينا شيء فنقضيك" فقال الرجل : واغدراه، فتذمَّر(٣) عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعه ياعمر فإن لصاحب الحق مقالا، انطلق إلى خولة بنت حكيم الأنصارية فالتمسوا عندها تمرا" فانطلقوا فقالت يا رسول الله : ما عندى إلا تمر ذخيرة، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "خذوا فاقضوا" فلما قضوه أقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "استوفيت؟" قال : نعم قد أوفيت وأطبت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن خيار عباد الله من هذه الأمة المُطَيِّبُون(٤)" .

هكذا كان صلى الله عليه وسلم يستدعيه الحال إلى أن يقترض من مثل هؤلاء الجفَاة فيصبر على جفاءهم اعترافا لهم بالحق الذى يدفعهم إلى فعل ذلك، ثم يذهب فيلتمس لهم العذر فيقول : "إن لصاحب الحق مقالا" ليسلِّي نفسه وأمته عما بدر لهم من فظاظة وغلظة لا تليق بجنابه العظيم - بأبى هو وأمي ونفسى صلى الله عليه وسلم - فليت هؤلاء الدائنين قدَّروا ظروفه وأعظموه وعزروه ووقروه كما يجب .

فقد كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس قضاء إذا وجد لا يحتاج إلى أن يُسأل إذا حل

---

(١) انظر مبحث حلمه صلى الله عليه وسلم ص٥٠٩

(٢) نوع من النخل، وقيل: هو الدقل. النهاية ٢٧٨/٤ .

(٣) أي: غضب وتغير وجهه .

(٤) عزاه الهيثمي في المجمع ١٤٤/٤ إلى الطبراني في الكبير والصغير ٩٨/٢، قال: ورجاله رجال الصحيح، وللحديث شاهد نحوه من حديث عائشة رضي الله عنها عند أحمد والبزار، وإسناد أحمد صحيح كما قال الهيثمي في المجمع ١٤٣/٤ .

الأجل ولا أن يطلب الفضل ناهيك عن رأس المال المدين، وما كانت الشواهد على ذلك بغائبة عن كثير منهم :

١ ـ فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال كان لرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سِن من الإبل فجاءه يتقاضاه فقال : "أعطوه" فطلبوا سِنَّهُ فلم يجدوا إلا سنا فوقها، فقال صلى الله عليه وسلم "أعطوه" فقال الرجل : أوفيتني وفَّاك الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن خيركم أحسنكم قضاء"(١) .

٢ – وفي رواية أن رجلا تقاضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأغلظ له، فهمَّ به أصحابه رضوان الله عليهم فقال صلى الله عليه وسلم : "دعوه فإن لصاحب الحق مقالا، واشتروا له بعيرا فأعطوه إياه" فقالوا : لا نجد إلا أفضل من سنه، قال : "اشتروه فأعطوه إياه، فإنَّ خيركم أحسنكم قضآء"(٢) .

٣ – وروى أبو رافع(٣) رضى الله عنه قال : "استسلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا(٤)، فجاءته إبل الصدقه، قال أبو رافع : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أعطى الرجل بكره، قال : قلت ما أجد إلا جملا خيارا رباعيا(٥)، فقال

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب هل يعطى أكبر من سنه ١٥٣/٣، وأبو داود في المساقاة، باب من استسلف شيئا فقضى خيرا منه برقم ١٦٠١ .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض،باب استقراض الإبل ١٥٣/٣، ومسلم في الباب السابق وبنفس الرقم

(٣) القبطي مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال: اسمه إبراهيم، ويقال: أسلم، وقيل غير ذلك، شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم أحدا وما بعدها وشهد فتح مصر، وتوفي بالمدينة قبل قتل عثمان رضي الله عنه وقيل بعده، انظر الاستيعاب ٦٨/١، والإصابة في الصفحة التي قبلها، وتهذيب الأسماء ٢٣٠/٢ .

(٤) البكر: الفتيُّ من الإبل .

(٥) الرباعي من الإبل: الذي دخل في السنة السابعة، وسمي بذلك؛ لأنه يكون قد طلعت رباعيته . انظر النهاية ١٨٨/٢ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : إعطه إياه، إن خيار الناس أحسنهم قضاء"(١) .

٤ - وروى العِرباض بن سارية(٢) رضي الله عنه قال : بعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا فأتيته أتقاضاه، فقال : "أجَل، لا أُقضيكها إلاَّ نجيبةً" قال : فقضاني فأحسن قضائي، قال : وجاءه أعرابي يتقاضاه سِنَّه(٣) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعطوه سِناً" فأعطوه يومئذ جملا، فقال : هذا خير من سني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "خيركم خيركم قضآء"(٤) .

٥ - وعن عبدالله بن أبي ربيعة(٥) رضي الله عنه، قال : استقرض مني النبي صلى الله عليه وسلم أربعين ألفا، فجاءه مال، فدفعه إليَّ، وقال : "بارك الله في أهلك

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة، باب من استسلف شيئا فقضى خيرا منه برقم ١٦٠٠، ومالك في الموطأ، كتاب البيوع، باب ما يجوز من السلف ٨٤/٢، وأبو داود في البيوع، باب حسن القضاء برقم ٣٣٤٦، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في استقراض البعير برقم ١٣١٨ .

(٢) المكني بأبي نجيح السلمي رضي الله عنه، كان من أهل الصفة، وهو من البكّائين الذين نزلت فيهم الآية المعروفة، وهو من السابقين إلى الإسلام، توفي سنة ٧٥ هـ، انظر أسد الغابة ٣٩٩/٣، وتهذيب الأسماء ٣٣٠/١ .

(٣) أي: ناقة ذات سن معين .

(٤) أخرجه النسائي في البيوع، باب استسلاف الحيوان واستقراضه ٢٩١/٧، وابن ماجه في التجارات، باب السلم في الحيوان برقم ٢٢٨٦، والحاكم في المستدرك ٣٠/٢، وأحمد في المسند ١٢٧/٤، والبيهقي في السنن ٣٥١/٥، وقال الحاكم عنه: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، قال الألباني في الإرواء ٢٢٥/٢: وهو كما قالا .

(٥) ابن المغيرة القرشي المخزومي، أسلم يوم الفتح، وولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الجَنَد من اليمن ومخاليفها، وأضاف إليه عمر رضي الله عنه صنعاء، ومات في آخر خلافة عثمان رضي الله عنه في طريق عودته إلى المدينة، حيث رجع لينصر عثمان رضي الله عنه فسقط من فوق راحلته فمات، انظر أسد الغابة ١٥٥/٣، والإصابة ٣٠٥/٢، والاستيعاب ٢٩٨/٢ .

ومالك، إنما جزاء السلف الحمد والأداء"(١).

فهذه بعض النماذج لاقتراض النبي صلى الله عليه وسلم وحسن قضائه، ومنها تعلم كرامته ومعاملته النابعة من عظمة أخلاقه صلى الله عليه وسلم إذ لم يكن يكتفى بمجرد القضاء حتى يحرص على رد أفضله وأحسنه وحيث كان كذلك فهو لعمروا لله أجدر أن لا يطالب ولا يغلظ له فى القول.

وهو بذلك يشرِّع لأمته الاقتراض والقضاء، فيجب على الأمة التأسى بهديه وتعامله وأخلاقه،فإن لهم به أسوة حسنه كما قال تعالى : ﴿لَقد كان لكم فى رسولِ اللهِ أُسوةٌ حسنة لمن كان يَرجو اللهَ واليومَ الآخِر﴾[سورة الأحزاب:٢١] وذلك واجبهم إن كانوا مؤمنين به محبين له صلى الله عليه وسلم وكفى بهذا السلوك هادياً ودليلا للمؤمن إلى اتباع التى هي أقوم فى الاقتراض والقضاء وسائر المعاملات المادية التى كانت على مثل ذلك من كرم الخلق النبوى.

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على القرض:

وأما هديه صلى الله عليه وسلم من الأقوال المترجِمة عن السلوك والأفعال فى شأن معاملة الاقتراض والقضاء فهي أكثر من أن تُحصى فى هذه العجالة، وذلك من حيث الترغيب على القرض، والحث على القضاء وحسنه،والترهيب من المطل، والترهيب من الدَّين، وغير ذلك .

أما الترغيب على القرض ففى مثل قوله صلى الله عليه وسلم :

١ - "من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كُربة من كرب يوم القيامة.."(٢)وأي كربة يصاب بها المسلم أعظم من أن يكون محتاجالشيء من المال لإقامة

---

(١) أخرجه النسائي في البيوع، باب الاستقراض ٣١٤/٧، وابن ماجة في الرهن، باب ما جاء في حسن القضاء برقم ٢٤٢٤، وأحمد في المسند ٣٦/٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٣٥٥/٥، وحسنه الألباني في الإرواء برقم ١٣٨٨ .

(٢) أخرجه مسلم وغيره، وتقدم تخريجه في أول هذا المبحث ص ٩٠٧.

نظام حياته من متاع العيش، أو إصلاح ما به صلاح معاشه من زراعة أو صناعة أو تجارة التى قد تتعطل عند فقده المال اللازم لإصلاحها، فإذا أسعفه أحد بقرض حسن لا ربا فيه ولا منًّا ولا أذى فرَّج عنه كربة عُظمى من كرب هذه الدينا، ولذلك كان الجزاء من جنس العمل مع عدم الموازنة بين كرب الدنيا وكرب الآخرة إلا من حيث التسمية فقط، ولا ريب بأن لمسلم الحريص على نفع نفسه لن يفرط فى أن يدخر لنفسه هذه الغنيمة العظيمة لذلك اليوم العظيم عندما يسمع هذا الترغيب.

٢ - ومما يرغبه فى ذلك أيضا ما جاء عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أقرض الله مرتين كان له مثل أجر أحدهما لو تصدق به"(١).

٣ - وما جاء عن أبى أمامة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه سلم قال: "دخل رجل الجنة فرأى على بابها مكتوبا الصدقه بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر(٢)".

إلى غير ذلك من الأحاديث، وهذان الحديثان وإن كان فيهما كلام، فإنهما لا يخرجان

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٤٩/٧ الإحسان، وابن ماجه في الصدقات باب القرض برقم ٢٤٣٠، والبيهقي في السنن ٣٥٣/٥، ورجح وقفه، والخرائطي في مكارم الأخلاق ص ٢٢، والحديث ضعفه البوصيري في مصباح الزجاجة ٤٧/٢، وحسنه الألباني في الإرواء ٢٢٦/٥-٢٢٩ نظرا لشواهده.

(٢) عزاه الهيثمي في المجمع ١٢٩/٤ إلى الطبراني في الكبير قال: وفيه عتبة بن حميد وثقه ابن حبان وغيره، وفيه ضعف، وفي التقريب برقم ٤٤٢٩: صدوق له أوهام، وله شاهد عند ابن ماجه في الصدقات، باب القرض برقم ٢٤٣١ من حديث خالد بن يزيد عن أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: (رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوبا الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر فقلت: يا جبريل، ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة، وخالد بن يزيد ابن أبي مالك ضعيف، لذلك قال المنذري في الترغيب ٤١/٢: وعتبة بن حميد، يعني راوي الحديث الأول عن أبي أمامة - أصلح حالا من خالد.

قلت: لكن حديث أنس لم يشتد ضعفه فهو شاهد لحديث أبي أمامة ودليل على أن للحديث أصلا.

عن العمل بهما فيما يدلان عليه من الفضل كما هو مقرر من العمل بالحديث الضعيف في الفضائل بشروطه المعروفه المتوفرة فيهما(١) .

من أقواله صلى الله عليه وسلم في الحث على القضاء وإحسانه والمبادرة به :

وأما حثه صلى الله عليه وسلم على القضاء وإحسانه فقد كان ذلك منه صلى الله عليه وسلم بسلوكه وقوله :

١ ـ أما سلوكه صلى الله عليه وسلم فتمثل بحرصه الشديد على المبادرة بالقضاء كما علمت مما تقدم في حسن قضائه.

٢ ـ وكما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عنه أبو ذر رضى الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما أبصر يعني أُحدا، قال : "ما أُحبُّ أنه يحوَّل لي ذهبا يمكث عندي منه دينار فوق ثلاث إلا دينار أرصده لدين..."(٢) .

وفي رواية من حديث أبي هريرة : "لو كان لي مثل أحد ذهبا، ما يسرُّني أن لا يمر عليَّ ثلاث وعندي منه شيء إلا شيء أرصُده لدين"(٣) .

فتأمل كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم سوَّغ لنفسه أن يدخر المال لقضاء الدين لو أنه وجده،وهو إمام الزاهدين الذي لا يطيق أن يبيت وعنده بضعة دراهم أو دنانير حتى ينفقها(٤) ، ولكن لما كان ذلك لقضاء الدين، لم ير بأسا بإرصاد شيء من المال له لو أنه وجده، وذلك دليل على عظيم إهتمامه بقضاء الدين لما لبقائه في الذمة من خطر عظيم.

٣ ـ ولهذا كان عليه الصلاة والسلام كثيرا ما يدعو في صلاته ويقول: « اللهم إني

---

(١) وهي: أن لا يشتد ضعفه، وأن يندرج تحت أصل معمول به، وأن لا يعتقد عند العمل به ثبوته، انظر فتح المغيث للسخاوي ٣٣٤/١ وما قبله، والقول البديع ص ٢٥٨، وتدريب الراوي ٢٩٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب أداء الديون ١٥٢/٣، وتقدم في مبحث الزهد بنحوه .

(٣) متفق عليه تقدم ذكره وتخريجه في مبحث الكرم ص ٦٤١.

(٤) كما دل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها المتقدم في مبحث الكرم ص٦٤٢، وكذا حديث أم سلمة رضي الله عنها المتقدك هناك أيضا .

أعوذ بك من المأثم والمغرم» فقال له :قائل: ماأكثر ما تستعيذ يارسول ا لله من المغرم ، قال: "إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد فأخلف"(١) .

٤ ـ وقد ترجم عن سلوكه هذا قوله صلى ا لله عليه وسلم:"من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى ا لله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه ا لله"(٢) .

وفى هذا من الحث على القضاء والمبادرة به ما لايخفى على المتأمل، إذ هو دعاء من النبي صلى ا لله عليه وسلم،وهو المستجاب له عند ربه سبحانه بتأدية ا لله عنه،أى تيسير سبل القضاء له إذا كانت نيته صالحة، ولا شك بأن النية إذا قويت على الأداء سعت إلى تحصيله حتى تناله،ويمد ا لله المرء بعونه وتوفيقه بدعاء النبي صلى ا لله عليه وسلم له، أما إذا كانت على الضد من ذلك فإن النبي صلى ا لله عليه وسلم دعا عليه بإتلاف نفسه، أو ماله،جزاء وفاقا له على سوء قصده مع تحمل وزره، وهذه الدعوة النبويه تنعى له مصيره السيء إن عاجلا أو آجلا،ولا ينجيه من ذلك إعساره طالما ونيته سابقة على عدم الوفاء، فإنما الأعمال بالنيات.

إما إن كان غنيا، فإن كان ذا نية سيئة في عدم الوفاء فهو وسابقه سواء .

وإن كان لم ينو ذلك ولكنه لم يبادر إلى قضاء ما وجب عليه عند أجله، فذلك مطل وقد قضى النبي صلى ا لله عليه وسلم بما رواه أبو هريرة رضى ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال:"مطلُ الغنيِّ ظُلم" (٣) ومعلوم أن "الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة" كما جاء فى الحديث (٤)، وذلك جزاء له فى الآخرة، أما فى الدنيا فإنه يوجب علي

---

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب من استعاذ من الدين٣/١٥٤ من حديث عائشة رضي ا لله عنها .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها ٣/١٥٢ من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب مطل الغني ظلم ٣/١٥٥، ومسلم في المساقاة، باب تحريم مطل الغني برقم ١٥٦٤ .

(٤) الذي أخرجه مسلم في البر والصلة، باب تحريم الظلم برقم ٢٥٧٨ من حديث جابر بن عبد ا لله رضي ا لله عنهما أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ...) .

مادل عليه حديث الشَّريد بن سُويد الثقفي (١) رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "ليُّ الواجد يُحِلُّ عِرضه وعقوبته"(٢) وليُّه: هو مطله والواجد: هو القادر المليء، والمعنى أن فعله ذلك يحل عرضه بالإغلاظ عليه، وعقوبته بالحبس حتى يقضي(٣).

وذلك جزاء له على تساهله ومطله لحقوق إخوانه التي لا تساهل فيها ولا هوادة، وهو جزاء عظيم الأثر على قلب المسلم، فإن الله تعالى عظَّم حقوقه وحمى عرضه وماله من أي أذى يصل إليه بما شرعه من أحكام تحفظ له كل ذلك موفورا مصونا، ما لم يفرط هو بحق نفسه بارتكابه مايهدر ذلك الحق كما في الدين، فإن الحماية هذه وذلك التعظيم تضحى لا عبرة بها؛ لأن الدين لما كان خطره أعظم لأنه حق أخيه المسلم،أو حق أخيه الإنسان أيا كان،ما لم يكن كافرا حربيا ولا عهد له، وكان هو السبب فيه فقد حل أن يُجازى بمثل ذلك الجزاء العادل، من إباحة ماله وعرضه له.

زجره صلى الله عليه وسلم عن ترك الدَّين بغير قضاء :

لذلك كان صلى الله عليه وسلم شديد التحذير والزجر من التساهل في أمر الدين وعدم المبادرة إلى قضائه،بحيث كان يمتنع عن الصلاة على من مات مدينا ولم يترك لدينه قضاء:

---

(١) وقيل الحضرمي، وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم فبايعه بيعة الرضوان، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الشريد، وأنشد النبي صلى الله عليه وسلم من شعر أمية بن أبي الصلت مائة بيت، انظر أسد الغابة ٢/٣٩٦، والإصابة ٢/١٤٨ .

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب في الحبس في الدين وغيره برقم ٣٦٢٨، والنسائي في البيوع، باب مطل الغني ٧/٣١٦، ٣١٧، وابن ماجه في الصدقات، باب الحبس في الدين والملازمة برقم ٢٤٢٧، وأحمد في المسند ٤/٢٢٢، ٣٨٨، ٣٨٩، والحاكم ٤/١٠٢، وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البخاري ترجمة في الاستقراض بصيغة التمريض ٣/١٥٥، وحسنه الألباني في الإرواء برقم ١٤٣٤، ٥/٢٥٩، وتعقب الحاكم والذهبي على تصحيحه وقال بحسبه أن يكون حسنا .

(٣) جامع الأصول لابن الأثير ٤/٤٥٥ .

١ - فعن أبى هريره رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُؤتَى بالرجل المتوفَّى عليه الدين فيسأل: هل ترك لدينه قضاء؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال للمسلمين: "صلُّوا على صاحبكم، قال : فلمَّا فتح الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُصلِّي ولا يسأل عن الدين، وكان يقول : أنا أولى المؤمنين من أنفسهم، فمن توفي من المؤمنين فترك دينا أو كَلًّا أو ضياعا فعليَّ وإليَّ، ومن ترك مالا فلورثته"(١) .

فامتناع النبي صلى الله عليه وسلم وهو الرؤوف بأمته عن الصلاة على صاحب الدين الذى لم يترك له قضاء، يدل دلالة واضحة على أن المدين قد اكتسب تَبِعةً كُبرى استوجبت امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عليه والدعاء له،ولعل ذلك لأن الدعاء له من النبي صلى الله عليه وسلم المستجاب دعاؤه لا يصادف محلا، فإن نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه" كما جاء عن أبى هريرة رضي الله عنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم(٢).

٢ - وروى عن أنس رضي الله عنه قال : "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم وأُتي برجل يصلى عليه، فقال : هل على صاحبكم دين؟ قالوا : نعم، قال : فما ينفعكم أن أصلي على رجل روحه مرتهن فى قبره لا تصعد روحه إلى السماء، فلو ضمن لى رجل

---

(١) أخرجه البخاري في الكفالة، باب الدين ١٢٨/٣، ومسلم في الفرائض، باب من ترك مالا فلورثته برقم ١٦١٩ .

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز، باب ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: نفس المؤمن ..الخ من طرقين ١٠٧٨، ١٠٧٩،وقال: هذا حديث حسن، وهو أوصح من الأول يعني الطريق الأولى .
وأخرجه أيضا ابن ماجه في الصدقات، باب التشديد في الدين ٨٠٦/٢، وأحمد في المسند ٤٤٠/٢، ٤٧٥، وابن حبان في صحيحه ٢٦/٥ الإحسان، وقال الألباني في تعليقه على المشكاة ٨٨٠/٢: إسناده صحيح .

دينه قمت فصليت عليه، فإن صلاته تنفعه"(١).

حرصه صلى الله عليه وسلم على مساعدة المدِينين في تسهيل القضاء عليهم :

ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يسره أن لا يصلي على أحد من أمته، فقد كان يود أن يصلى حتى على المنافقين لو أنها تنفعهم، لكمال رحمته ورأفته كما تقدم ذكره، ولكن لا يملك لهم نفعا يقدر عليه، ولذلك كان إذا قدر على نفعهم لم يأل جهدا في بذله، ولا يدخر وسعا يقدر عليه، حيث كان يتوسط إلى الدائنين في تسهيل قضاء مَدينيهم بالوضع عنهم أو تيسير تقاضيهم :

١ - فقد سمع ذات يوم صوت خصوم بالباب عالية أصواتهم، وإذا أحدهما يستوضع الآخر(٢) ويسترفقه في شيء فيقول : والله لا أفعل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما، فقال : "أين المتألِّي على الله لا يفعل المعروف؟ فقال : أنا يا رسول الله فله أيُّ ذلك أحبَّ كما جاء في الحديث المتفق عليه(٣).

٢ - وروى البخاري ومسلم عن عبدالله بن كعب، أن كعب بن مالك(٤) رضي الله

---

(١) عزاه الهيثمي في المجمع ٤٣/٣ إلى الطبراني في الأوسط، قال: وفيه عبد الحميد بن أمية وهو ضعيف، لكن له متابع عند أبي يعلى كما في المجمع ٤٢/٣ بلفظ: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بجنازة رجل وعليه دين، فقال: لا أصلي عليه حتى تضمنوا له دينه، فإن صلاتي عليه تنفعه، فلم يضمنوا دينه ولم يصل عليه، وقال: إنه مرتهن في قبره، وتكلم الهيثمي على أحد رواته وهو عيسى بن صدقة بن عباد اليشكر فقال: وثقه أبو حاتم وضعفه غيره .

(٢) أي: يطلب منه أن يحط له شيئا من دينه .

(٣) أخرجه البخاري في الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح ٢٤٤/٣، ومسلم في المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين برقم ١٥٥٧ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٤) ابن سلِمة بكسر اللام، بن سعد الأنصاري الخزرجي السلمي، شهد العقبة وأحدا وسائر المشاهد إلا بدرا وتبوك، وهو أحد الثلاثة الذين خلفوا وتاب الله عليهم، وكان أحد شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومات سنة ٥٣ هـ، انظر تهذيب الأسماء ٦٩/٢، والاستيعاب لابن عبد البر ٢٨٦/٣، والإصابة ٣٠٢/٣ .

عنه أخبره أنه تقاضى ابن أبي حدرد(١) دينا كان له عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد،فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجف(٢) حجرته فنادى : "يا كعب" قال : قلت : لبيك يا رسول الله، فأشار بيده "أن ضع الشطر من دينك" قال كعب : قد فعلت يا رسول الله قال : "قم فاقضه"(٣).

٣ - وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : أصيب عبدالله وترك عيالا ودينا فطلبت إلى أصحاب الدَّين أن يضعوا بعضا من دينه، فأبوا، قال : فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فاستشفعت به عليهم فأبوا ، فقال : "صنف تمرك كل شيء منه على حدته؛ عذق ابن زيد على حدة، واللين على حدة، والعجوة على حدة(٤)، ثم أحضرهم حتى آتيك" قال : ففعلت ثم جاء صلى الله عليه وسلم فقعد وكال لكل رجل حتى استوفى، وبقي التمر كما هو كأنه لم يمس(٥) .

فهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يُنجد المدينين ليخلِّصهم من رِبقة الدين حتى أنه استعمل معهم خوارق العادة بإبداء هذه المعجزة التي أيده الله تعالى بها في قضاء دين عبد الله بن حرام رضي الله عنه الذي استشهد معه في أحد فأراد أن

---

(١) وهو عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي له ولأبيه صحبة، أول مشاهد الحديبية توفي سنة ٧١ هـ، وله ٨١ سنة، انظر الإصابة ٢/٢٩٥ .

(٢) السجف والسجاف هو الغطاء .

(٣) أخرجه البخاري في الصلح، باب الصلح بالدين والعين ٣/٢٤٦، ومسلم في المساقاة، باب استحباب الوضع من الدين برقم ١٥٥٨ .

(٤) هذه أنواع من أنواع التمر المعروفة في المدينة .

(٥) أخرجه البخاري في الاستقراض، باب الشفاعة في وضع الدين ٣/١٥٦، وقصة قضاء دين جابر أخرجها البخاري في مواضع بألفاظ متقاربة، منها في الاستقراض أيضا، باب إذا قاص أو جازفه في الدين تمرا بتمر وغيره، وفيه أن الدائن كان يهوديا ٣/١٥٤ .

لايحبس عن منزلته فى الجنة بسبب الدين كما أخبر عن ذلك عليه الصلاة والسلام بقوله "والذى نفسي بيده لو أن رجلا قتل فى سبيل الله ، ثم أحيي ، ثم قتل ثم أحيى ، ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه دينه"(١) .

فلما لم تقبل شفاعته بتخفيف الدين حتى يتيسر القضاء لم يَتوانَ عليه الصلاة والسلام عن بذل وسعه فى تخليص صاحبه من ربقة الدين،وفاء له على صحبته وتضحيته،و لم يكن بد من طلب الله تعالى معجزة له فى ذلك، فحصل بها الوفاء العظيم،من ذلك الطعام اليسير، الذى ماكان ليبلغ مبلغا من الوفاء لولا تلك المعجزة الكبرى التى أوفته الدين وتركت التمر كأنه لم يمس .

وفى هذا من الدلالة على مبلغ حرصه صلى الله عليه وسلم على أن يخلص أصحابه من الدين لما يعلمه من هول أثره ما فيه الكفايه،وقد كان من حرصه صلى الله عليه وسلم على ذلك أن يبديه حتى لمن يظن منهم المقدرة على الوفاء كما دل عليه قوله عليه الصلاة والسلام :"مطلُ الغنيِّ ظلم ، فإذا أُتبع أحكم على مليء(٢) فليتبع"(٣) .

حيث أرشد النبي صلى الله عليه وسلم رب الدين إلى قبول الحوالة من المستدين المماطل الظالم نفسه بذلك ، ليدفع عن أخيه الظلم الحاصل بالمطل ، (لأنه قد تكون مطالبة المحال عليه سهلة على المحتال دون المحيل ، ففى قبول الحوالة إعانة على كفه عن الظلم(٤)) .

وكان ذلك منه صلى الله عليه وسلم قبل أن يفيء الله عليه بالفتوح والغنائم فلما أفاء

---

(١) أخرجه النسائي في البيوع، باب التغليظ في الدين ٣١٤/٧، ٣١٥، من حديث محمد بن جحش وإسناده حسن

(٢) المليء بالهمز: الثقة الغني، قال في النهاية ٣٥٢/٤: وقد أولع الناس بترك الهمزة وتشديد الياء، قلت: كما هو في رواية البخاري هذه .

(٣) أخرجه البخاري في الحوالات، باب في الحوالة وهل يرجع في الحوالة ١٢٣/٣، ومسلم في المساقاة، باب تحريم مطل الغني برقم ١٥٦٤ .

(٤) انظر فتح الباري ٣٣/١٠ .

الله عليه بذلك تحمَّل هو صلى الله عليه وسلم دين كل ذى دين يموت من أمته كما دلَّ على ذلك الحديث المتقدم (١) عن أبى هريرة «...فلما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم كان يصلى ولا يسأل عن الدين وكان يقول:"أنا أولى المؤمنين من أنفسهم فمن تُوفِّي من المؤمنين فترك دينا أو كَلاًّ أوضَياعا (٢) فعليَّ وإليَّ، ومن ترك ملا فلو رثته" .

هكذا كان حرصه صلى الله عليه وسلم على قضاء دين المدينين وسعيه فى تخليصهم من رِبقة الدين ، وأي إحسان أو رحمة أو رفق يمكن أن يقوم به أحد غيره صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يقضي عن المدين دينه ويترك ماله لورثته كما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم .

« فهكذا يلزم المتولي لأمر المسلمين أن يفعله بمن مات وعليه دين، فإن لم يفعل فالإثم عليه إن كان حق الميت فى بيت المال يفى بقدرما عليه من الدين وإلاَّ فبقسطه"(٣) .

حثه صلى الله عليه وسلم المقرضين على تيسير قضاء مدينيهم أو إعفائهم:

وإضافة إلى ما كان يبذله صلى الله عليه وسلم من الوساطة أو الوفاء بنفسه فى تيسير القضاء والوفاء، فقد كان صلى الله عليه وسلم يرغب الدَّائنين بالتخفيف عن مدينيهم وذلك ببيان ما ينالونه من الأجر والثواب عند الله تعالى بسبب ذلك ليشجعهم فى التيسير على مدينيهم بالوضع أو الإنظار إلى ميسره :

١ ـ كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : "من سرَّه أن ينجِّيه الله من كرب يوم القيامة فلينفِّس عن معسر أو يضع عنه"(٤) .

٢ ـ وقوله صلى الله عليه وسلم : "كان فيمن كان قبلكم تاجر يداين الناس فإن رأى

---

(١) المتفق عليه وتقدم تخريجه ص٩٢٩.

(٢) الكل: الثقل، والمراد به العيال، أما الضياع فقال الخطابي: هي هنا وصف لورثة الميت بالمصدر، أي: ترك أولادا أو عيالا ذوي ضياع أي: لا شيء لهم. ا.هـ شرح مسلم ١١/٦١ .

(٣) فتح الباري ١٠/٤٣ .

(٤) أخرجه مسلم في المساقاة، باب فضل إنظار المعسر برقم ١٥٦٣ من حديث أبي قتادة رضي الله عنه .

معسرا قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه"(١).

٣ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام : "من أنظر معسرا أو وضع له أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله"(٢) . إلى غير ذلك من الأحاديث(٣) .

ولا ريب بأن صدى هذا الترغيب يؤثر في نفس المؤمن بالله واليوم الآخر فتجعله يقدّم لنفسه هذا الربح العظيم إلى يوم القيامة حيث يكون أحوج ما يكون إليه.

---

(١) متفق عليه وتقدم تخريجه ص٩٠٠.

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع، باب في إنظار المعسر برقم ١٣٠٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال عنه: حسن صحيح .

(٣) التي منها دعاؤه صلى الله عليه وسلم للمتسامح في القرض، كما أخرج البخاري في البيوع ٧٥/٣ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى) .

المبحث الثَّالث

(الرهن)

الرهن في اللغة : الثبوت والاستقرار، يقال هذا شيء راهن أي: ثابت دائم(١)، ورهنته المتاع بالدين حبسته به ومنه قوله تعالى : ﴿كلُّ امرئٍ بما كسب رهين﴾[سورة الطور:٢١] أي: مرهون، ومنه الرِّهان في السباق وهو إخراج كل واحد رهنا ليفوز السابق بالجميع إذا غلب، ولذا قال الراغب (٢): "الرهن مايوضع وثيقة للدَّين، والرِّهان مثله،لكن يختص بما يوضع في الخطار قال : وأصلهما مصدر، يقال : رهنت الرهن وراهنته رهانا فهو رهين ومرهون، ويقال في جمع الرهن : رِهان ورُهَن ورُهُون" .

ويطلق الرهن على العين المرهونة تسمية للمفعول باسم المصدر(٣).

وفي الشرع يعرف بأنه: "جعل عين مالية وثيقة بدين ليستوفى منها عند تعذر الوفاء(٤)"

مكانة الرهن في المعاملات الماديه وعلاقته بالأخلاق الاجتماعيه المادية:

والرهن من المعاملات الماديه الاجتماعيه التي قد يحتاج إليها المرء في حياته لإصلاح ما به قوام معاشه من نفقة أو تجارة أو زراعة أو صناعة أو لقضاء دين أو نحو ذلك من أمور الحياة المادية التي قد لا يستغني عنها المرء في حياته، فيحتاج أو يضطر إلى بذل ما عنده من متاع ونحوه لأخيه الإنسان ليعطيه مالا حالا يسد به خَلَّته وحاجته.

ولاريب بأن إسعافه بذلك يعد من مكارم الأخلاق التي جاء بها الإسلام الحنيف،وإن كان الأصل في سد هذه الحاجة أن تجرى بطريق القرض الحسن والمكاتبة الشرعية التي تقدم الحديث عنها، ولكن نظرا إلى أن هذا المحتاج قد لا يكون معروفا عند صاحب

---

(١) تاج العروس ٢٣١/٨، والمصباح المنير ٢٦٠/١ .

(٢) في المفردات ص ٢٠٤ .

(٣) فتح الباري ٢٢٨/١٠ .

(٤) الياقوت النفيس ص ٨٢ .

المال ولا مؤتمنا لديه، أو يرى أنه لاقدرة له على الوفاء بالدين عند حلول أجله ، أو لايكون شيء من هذه، ولكن لم يوجد عند المدانية من يكتب بينهم وثيقة كما أمر ا لله تعالى ، فكان لابد من أن يطمئنَّ صاحب المال بما يضمن له إرجاع رأس ماله، فشرع ا لله تعالى أن يستوثق من المدين بما عنده من المتاع الذى يمكن أن يستوفي منه ماله عند تعذر وفائه، وذلك إرفاقا به وتشجيعا له على بذل معروفه لأخيه، وإرفاقا بالمحتاج لينال مراده من المال لإصلاح حاله، مع بقاء أصل متاعه فى ملكه الذى قد يكون يضِنُّ به عن البيع لحاجته إليه أو نفاسته عنده..، وكان ذلك التشريع بقوله تعالى بعد تفصيل أحكام المداينة والكتابه:﴿وإن كنتُم على سفرٍ و لم تَجدوا كاتِباً فرهانٌ مَقبوضة ...﴾[سورة البقرة:٢٨٣] .

ويلاحظ أن ا لله تعالى لم ينص إلا على عذر واحد من أعذار ترك القرض واللجوء إلى الرهن،وهو كون المتعاملين فى السفر مع فقدان الكاتب ، وذلك لكون هذا العذر هو غالب الأعذار فى طلب القرض،لاسيما فى ذلك الوقت لكثرة الغزو، ويدخل فى ذلك بالمعنى كل عذر من الأعذار المذكورة آنفا غيرها،فذكر العذر هذا فقط ليس قصرا عليه بل مخرَّج مخرج الغالب الذى لامفهوم له كما هو معلوم(١) غير أن بعض أهل العلم (٢) قد حمل الآية على ظاهرها فذهب إلى أن الرهن إنما يكون فى السفر،وأما الحضر فلا ينبغى منه ذلك، ولا حجة لهم فى ذلك القول إلا الجمود على الظاهر ، فإن السنة المبينة للقرآن قد بينت أن الارتهان يكون فى الحضر كما يكون فى السفر كما سيأتى بيانه،فدل على أن التقيد بالسفر إنما هو مخرج مخرج الغالب فقط وأن ليس كون الآية في السفر مما يحظر فى غيره (٣) .

نعم الأصل أن يكون تفريج المسلم كربة أخيه المسلم بطريق القرض كما أسلفت، غير أن الناس مختلفون فى التوثق لأموالهم وفى الثقة بإخوانهم ، كاختلاف المستدنيين فى العسر واليسر والشعور بمسؤلية الدين ونية القضاء،فكان لابد من أن يوضع لكل صنف

---

(١) انظر المحرر الوجيز ٥٢١/٢، وجامع أحكام القرآن ٤٠٧/٣ .

(٢) منهم الضحاك ومجاهد وداود، انظر المرجعين السابقين .

(٣) انظر جامع أحكام القرآن ٣/ ٤٠٧ .

تشريع يلائمه تمشيا مع نهج الشريعة من حيث الشمول واليسر ، فمن وثق بالرد اكتفى بالمكاتبه، ومن لم يثق بذلك طلب الرهن، ومن كان كامل الوثاقة بأخيه والائتمان به فلا حرج عليه فى أن لايطلب مكاتبة ولارهنا، وهذا هو الصنف الثالث من الناس الذى قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿. . .فإن أمن بعضُكم بعضًا فليُؤَدِّ الَّذى اؤْتُمن أمانتَه وليتَّقِ الله ربَّه. . .﴾[سورة البقرة:٢٨٣] .

وتأمل إعظام الله لحقوق عباده حيث لم يكل حق صاحب المال إلى مايعلمه من أمانة صاحبه لما توجبه الأمانه من الرد من حيث هي ، بل زاد على ذلك أن أمر المؤتَمَنين بأداء الأمانة ليكون الوازع لأدائها إلهيًا،إضافة إلى الوازع الخُلقى، وذلك لما يعلمه سبحانه من أحوال خلقه وعدم ثبوت كثير منهم على الأخلاق الفاضلة عند اختبارهم بالدرهم والدينار،وأضاف إلى ذلك الأمر بالأداء: الأمر بتقوى الله ومراقبته للمبالغة فى تربية المهابة فى قلب المدين، لئلا يفرط فيما اؤتمن عليه ، وليستشعر دائما أن الله سبحانه وتعالى مطلع عليه عالم بأمانة أخيه عنده ، وأنه لاينفعه شيء من التخلص من علم الله تعالى ذلك المرتب عليه الجزاء منه سبحانه له عند الخيانة بإنكار أو نقص أو نحوه كما علم مما تقدم فى مبحث الأمانة، فعليه أن يجعل بينه وبين علم الله تعالى هذا وقاية تحجزه من عذابه ، وذلك بتأدية حق أخيه كاملا غير منقوص، مكافأة له على حسن ظنه به حيث ائتمنه على ماله و لم يطلب منه الوثاقة بدينه من كتاب أو رهن ، فـ ﴿هل جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسان﴾[سورة الرحمن:٦٠] .

تمثل أخلاق التعامل
بالرهن فى النبي صلى ا لله عليه وسلم

قد علمنا أن النبي صلى ا لله عليه وسلم عاش فى هذه الدنيا على كمال الزهد فيها وكمال الرغبة عنها ، وعلى رضاه بالكفاف من متاعها الزائل، بل بأقل من الكفاف كما علمت فى مبحث زهده صلى ا لله عليه وسلم ، ومن كان حاله كذلك لا يكون مدخّرا مالا يمكن أن يقرضه أو يسترهن به، لأن ادخار المال ينافى الزهد فى الدنيا، بل على الزاهد أن يجود بما لديه ويستوى عنده العدم والجِده، وهو الحال الذى كان عليه صلى ا لله عليه وسلم فإنه لم يدخر درهما ولادينارا ، وقد فتح ا لله عليه الدنيا وأتته الأموال الكثيرة من الغنائم والخراج والفيء والهدايا وغير ذلك ، فكان ينفقها كلها ، بحيث يمسي وليس عنده منه شيء ، كما علمت من المباحث المتقدمة : الزهد والكرم...

وحيث كان كذلك فلا يمكن أن يقرض أو يسترهن لنفاد ما عنده بطريق الإنفاق فى وجوه الخير، ولهذا لم أجد مثالا لإقراض النبي صلى ا لله عليه وسلم أو ارتهانه، أما العكس من ذلك وهو اقتراضه أو رهنه فصوره كثيرة؛ لأن الحال الذى كان عليه صلى ا لله عليه وسلم استدعى منه ذلك،وقد تقدمت الأمثلة الكثيرة فى القرض.

وأما الرهن فقد كان تعامله صلى ا لله عليه وسلم به قليلا لعدم احتياجه صلى ا لله عليه وسلم لأن يبذل ذلك لأحد يستقرض منه فيطلب منه الرهن ، إذ أمانته صلى ا لله عليه وسلم ووفاؤه أعظم فى نفوس معامليه من أن يقام عليها رهان ، ووثاقتهم به أعظم من بذل الوثائق والأرهان، فالسعيد من ساعده الحظ بإقراضه صلى ا لله عليه وسلم؛ ليكسب بذلك برا عنده وقضاء حسنا خيرا من ماله الذى بذله .

إلا ما كان من "يهود" المليئة قلوبهم غيظا وحسدا وحقدا عليه صلى ا لله عليه وسلم ، فإنهم كانوا لما هم عليه من خبث الطوية لصاحب الخلق العظيم، يتجاهلون الحقائق العظيمة المتمثلة فيه صلى ا لله عليه وسلم ويتنكرون لها، فكان عليه الصلاة والسلام إذا احتاج إلى معاملة أحدهم لضرورة الحياة لكونهم كانوا أهل الثراء والحرفة، أحوجه عنتهم وعنادهم له أن يبذل لهم الوثاق كما يحبون،تطييبا لقلوبهم كما جرى له عليه

الصلاة والسلام مع أبى الشَّحم اليهودي (١) حيث احتاج إلى بعض شعير مما عنده فاشترى منه إلى أجل ورهنه درعه.

فقد أخرج البخارى ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم "اشترى من يهودي طعاما إلى أجل ورهنه درعه"(٢) .

فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم رهن عُدَّةَ الحرب وهي الدرع ، لتأمين صاحب المال على حقه لمَّا كان ليس فى قلبه من الثقة بالنبي صلى الله عليه وسلم لكفره وعناده ماهي فى قلوب أصحابه .

ولا ريب أن صاحب الخلق العظيم يأبى أن يشوِّش على صاحب المال قلبه، فإنه صلى الله عليه وسلم قد كان يقول: "إن لصاحب الحق مقالا" فلذلك بادر إلى ذلك مايستوثق به ليطمئن قلبه من غير أي تردد ولا أَنفة، وهذا يدل على ما كان عليه صلى الله عليه وسلم من السهولة واللين والتواضع والانقياد إلى شرع الله، لا يمنعه من ذلك جلال النبوة ولا كمال العصمة ولا دناءة طالب الاستيثاق، فإنه صلى الله عليه وسلم لما علم أنه يريد حقا بادر إليه، فأين هذا الخلق من حكام المسلمين اليوم لو طلب منهم مثل ذلك أو أقل منه؟!

قال العلماء: "إن الحكمة فى عدوله صلى الله عليه وسلم عن معاملة مياسير الصحابة إلى معاملة اليهودى إما لبيان الجواز، أو لأنهم لم يكن عندهم إذ ذاك طعام فاضل عن حاجة غيرهم، أو خشي أنهم لا يأخذون منه ثمنا أو عوضا فلم يرد التضييق عليهم، فإنه لا يبعد أن يكون فيهم إذ ذاك من يقدر على ذلك أو أكثر منه، فلعله لم يطلعهم على ذلك وإنما أطلع عليه من لم يكن موسرا به"(٣).

وهذا التعليل الأخير هو المناسب لمقام صاحب الخلق العظيم فإن جواز معاملتهم قد علم

---

(١) كذا سماه الحافظ في الفتح ٣٢٩/١٠ نقلا عن الشافعي والبيهقي .

(٢) البخاري في الرهن، باب رهن السلاح ١٨٧/٣، وأبواب أخر، ومسلم في البيوع، باب الرهن وجوازه في الحضر كالسفر برقم ١٦٠٣، والقصة ثابتة أيضا من حديث أنس وابن عباس وغيرهما .

(٣) فتح الباري ٢٣٠/١٠، وانظر شرح مسلم للنووي ٤٠/١١ .

من أدلة أخرى كثيرة فى الكتاب والسنة ، وكون الصحابة جميعهم ليس عندهم طعام فاضل عن حاجتهم بعيد، كما علم من حال الصحابة فإن المياسير منهم كثيرٌ من الأنصار أو المهاجرين، ولذلك احتوى التعليل الثالث على استبعاد الثانى حيث قال : فإنه لا يبعد..الخ فعلم أنه صلى الله عليه وسلم عامل اليهودي بما يليق بكرم خلقه وحسن تعامله من غير أن يستأنف من بذل الرهن لصاحب الحق عملا بقوله تعالى: ﴿فرهان مقبوضه﴾ [البقرة ٢٨٣] أي: فالذي يستوثق به رهن مقبوضة ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يتمثل القرآن فى واقع حياته وعمله كما قد علمته، ولذلك وجدنا من هديه قوله: "دعه فإن لصاحب الحق مقالا ."(١) .

---

(١) متفق عليه وتقدم تخريجه في القرض ص٩٢١ .

المبحث الرابع

(الإجارة)

الإجارة: العقد على المنافع بعوض، وهو ما يعود من ثواب العمل دنيويا كان أو أخرويا، يقال أجره وآجره إيجارا ومؤاجرة إذا عامله بالإجارة (١) ، ومنه سمي ثواب الطاعات أجراً كما قال تعالى :﴿وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم﴾[سورة محمد: ٣٦] .

وشرعا هى :"عقد على منفعة معلومة مقصورة قابلة للبذل والإباحة بعوض معلوم"(٢) .

مكانة الإجارة فى المعاملات المادية وعلاقتها بالأخلاق الإجتماعيه المادية:

والإجارة من المعاملات المادية الإجتماعيه التى هي من ضروريات الخليقة وتقتضيها مصلحه الخلطة بين الناس، وتفتقر إلى الأخلاق الحميدة من صدق وأمانة ونصح.. وغير ذلك فلا تنجح ولا تفلح إلا بها وهي من المكاسب الشريفة التى تعاطاها النبيون وعباد ا لله الصالحون، من أولئك نبي ا لله موسى عليه السلام حيث آجر نفسه عند نبي ا لله شعيب عليه السلام عشر سنين فى رعي الغنم بمهر امرأته، كما قص ا لله تعالى ذلك بقوله: ﴿قالت إحداهما ياأبت إستأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين * قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرنى ثماني حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء ا لله من الصالحين * قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي وا لله على مانقول وكيل﴾[سورة القصص:٢٦-٢٨].

وقد نوهت هذه الآية بأجل أخلاق الإجارة وأكبر مقوماتها وهى الأمانة والقوة ، أما الأمانة فلأن بها يتم حفظ الأموال وتنميتها، وأما القوة فلحمايتها وإصلاحها والسعي الحثيث فيما استئوجر لها من الرعاية والتنمية ونحوها، ولهذا اختصنا بالذكر دون

---

(١) مختار الصحاح ص ٦، ومفردات القرآن ص ١٠، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص٣٥ .

(٢) الياقوت النفيس ص ١١٢ .

الـــصفات الأخلاقيه المطلوبة فى الإجارة من صدق ووفاء، وإخلاص.. ونحو ذلـك، إذ على ضوء هاتين الصفتين يتم اختبار الأجير غالبا،فمن توفرت فيـه هاتـان الخصلتـان بـادر الناس إلى استئجاره، وتباروا فى تفضيله واختياره، كما هو الحال فى نبي ا الله موسى عليه السلام الذى كان بتلك المثابة، بلْه عن حسن معاملته ولين جانبه مع من اسـتأجره أو مـن يتعامل معه كما أفاده قوله : ﴿ستجدُنى إنْ شاءَ ا اللهُ من الصَّالحين﴾ أي: فـى التعـامل وغيره(١) .

وحيث أدى الأجير ما استؤجر له، استحق الأجرة كاملـة غـير منقوصـة وعاجلـة غـير آجلة، وللعلماء فى أجرة موسى كلام يخرج بنص الآية عن ظاهرها(٢) .

---

(١) انظر التفسير الكبير ٢٤/٢٤٣ .

(٢) إذا الظاهر أن الإجارة المذكورة جعلت مهرا للبنت، وعليه فقد جعلا المهـر منـافع إجـارة الـزوج نـبي ا الله موسى، لأبي المرأة وهو نبي ا الله شعيب عليهما السلام، فيحتمل أن يكـون ذلـك برضاهـا؛ لأنهـا سمعـت وسكتت بناء على عوائد مرعية عندهم بأن ينتفع بتلك المنافع أبوها، ويحتمل أن يكون ولي المرأة بالأصالة هو المستحق للمهر في تلك الشريعة، فإن عوائد الأمم مختلفة في تزويـج ولايـاهم ا.هــ، التحريـر والتنويـر ٢٠/١٠٧، وانظر تفسير القرطبي ١٣/٢٧٣.

ومع مقتضى هذا الظاهر فقد ذهب أهل التفسير إلى البحث عما كانت عليه أجرة موسى على رعي الغنم مع تسليمهم بما يدل عليه ظاهر الآية من أنه المهر، فمن قائل: إنه جعل له كل سخلة توضع خلاف لون أمها، ومن قائل: إنه جعل له كل بلقاء تولد، ومن قائل: بأنه جعل له كل ماتلد تلك المواشي تلك السـنة على ذات لونين، ومن قائل: إنه أجر نفسه بشبع بطنه وعفة فرجه، ويروي ذلك مرفوعـا وفي إسناده ضعـف كما قال الحـافظ في الفتـح ٩/١٠، إلى غـير ذلـك ممـا لم يؤيـده النقـل الصحيـح، انظـر تفسـير القرطبي ٣/٢٧٦، ولذلك قال الشافعي محتجا بهذه الآية على مشروعية الإجارة: (ذكر ا الله سبحانه وتعالى أن نبيا من أنبيائه آجر نفسه حججا مسماة ملك بها بضع امرأة) كذا في الفتح لابن حجر ٩/١٠، وقال الحـافظ بعد أن ساق تلك الأقوال: (وقد أبعد من جوز أن يكون المهر شيئا آخر غير الرعـي...) وهـذا كلـه بنـاء على شرع غيرنا .

ويدل على استحقاق الأجرة قول الله تعالى على لسان موسى وهو يخاطب الخضر عليهما السلام : ﴿..فوجَدا فيها جدارا يُريد أن يَنقضَّ فأقامه قال لو شِئتَ لاتَّخذتَ عليه أجرا﴾[سورة الكهف:٧٧] فقد قال القرطبى:" فى هذه الآية دليل على صحة جواز الإجازة، قال : وهى سنة الأنبياء والأولياء(١)" .

"وقد كانت مشروعة معلومة فى كلِّ ملة(٢)" كما دلت عليه الآيات المتقدمة فى استئجار شعيب لموسى عليهما السلام،وذلك لمقتضى ضرورة الحياة وطيب الكسب منها، ولذلك عرض موسى عليه السلام على الخضر عليه السلام أن يأخذ أجرة عمل إقامة الجدار من أصحاب القرية الذين أبوا أن يضيفوهما، لمَّا رأى عدم استحقاقهم لأن يتنازل الخضر لهم عن أجرة العمل الذى قام به؛للؤمهم فى عدم قراهم الأضياف،لاسيما مع حاجتهم وطلب منهم ذلك.

= أما في شرعنا فقد ذكر القرطبي في المسألة الثالثة من المسألة العاشرة من مسائل هذه الآية ما نصه: (الثالثة: وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو ما قرره شرعنا وجرى في حديث الذي لم يكن عنده شيء من القرآن، رواه الأئمة، وفي بعض طرقه فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما تحفظ من القرآن) فقال: سورة البقرة والتي تليها، قال: (فعلمها عشرين آية وهي امرأتك) قال: واختلف العلماء في هذه المسألة على ثلاثة أقوال، فكرهه مالك ومنعه ابن القاسم وأجازه ابن حبيب، وهو قول الشافعي وأصحابه، قالوا: يجوز أن تكون منفعة الحر صداقا كالخياطة والبناء وتعليم القرآن، وقال أبو حنيفة: لا يصح ... وقال أبو الحسن الكرخي: إن عقد النكاح بلفظ الإجارة جائز لقوله تعالى: ﴿فآتوهن أجورهن﴾ وقال أبو بكر الرازي: لا يصح؛ لأن الإجارة عقد مؤقت، وعقد النكاح مؤبد فهما متنافيان.. إلى أن قال: وعول على هذه الآية جماعة من المتأخرين والمتقدمين في هذه النازلة، ثم نقل عن ابن خويزمنداد قوله: (تضمنت هذه الآية النكاح على الإجارة، والعقد صحيح، ويكره أن تجعل الإجارة مهرا وينبغي أن يكون المهر مالا كما قال عز وجل: ﴿أن تبتغوا بأموالكم محصنين﴾ ا.هـ جامع أحكام القرآن للقرطبي ٢٧٣/١٣-٢٧٤ .

(١) تفسير القرطبي ٣٢/١١ .

(٢) المرجع السابق ٢٧١/١٣ .

ولذلك توالت أوامر الله تعالى فى أكثر من آية بإيتاء الأجور لمستحقيها من النساء ونحوهن كما فى قوله تعالى : ﴿..فإن أَرضَعنَ لكم فآتُوهنَّ أُجورَهن..﴾[سورة الطلاق:٦] حيث أوجب على الأزواج أن يدفعوا لمطلقاتهم أجرة على إرضاعهن أولادهم منهن، لاستحقاقهن لذلك بانقضاء عُلقة النكاح التى كانت تقتضى الرضاعة بغير أجر، فلما انقطعت استوجبت الأجر على عملها ذلك، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وعلى المولود له رزقُهنَّ وكسوتُهنَّ بالمعروف﴾[سورة البقرة:٢٣٣] .

وكذا أمر الله تعالى بأن يدفع للزوجات أجورهن على بذلهن أنفسهن للأزواج واستمتاعهم بهن وهو المسمى بالصداق أو المهر، كما فى قوله تعالى :﴿..فما استمتعتُم به منهُنَّ فآتوهُنَّ أجورَهن فريضة﴾[سورة النساء:٢٤] وقوله سبحانه : ﴿فانكِحوهُنَّ بإذن أهلِهِنَّ وآتوهُنَّ أجورَهن بالمعروف..﴾[سورة النساء:٢٥] .

فقد سمى الله تعالى ما يُعطى للمرأة من الصداق : أجراً؛ لأنه أجر الاستمتاع، قال القرطبى: "وهذا نص على أن المهور تسمى أجرا، وذلك دليل على أنه فى مقابلة البضع لأن ما يقابل المنفعة يسمى أجرا..(١)" ولذلك علق الله تعالى إباحة النكاح على بذل هذه الأجرة كما هو الحال فى الإجارة،إذ لا تصح إلا عند توفر أركانها الأربعة التى هى: الأجرة والصيغة والمنفعة والعاقدان (٢) وذلك كما فى قوله تعالى :﴿ولا جناحَ عليكم أن تنكِحوهنَّ إذا آتيتُموهُنَّ أجورَهن﴾[سورة الممتحنه :١٠] وقوله سبحانه:﴿اليومَ أُحِلَّ لكم الطَّيبات﴾ إلى قوله: ﴿والمحصناتُ من المؤمناتِ والمحصنات من الذين أوتُوا الكتابَ من قبلِكم إذا آتيتمُوهُنَّ أجورَهنَّ مُحصنينَ غير مُسافحينَ ولا مُتَّخذِي أخدان﴾[سورة المائدة :٥] .

ولم يعف الله أحداً من بذل هذه الأجرة حتى نبيه ومصطفاه الذى خصه بخصائص كثيرة من دون الأمة،فإنه لم يبح له الزواج إلا ببذل الأجرة لزوجاته كما قال الله

---

(١) جامع أحكام القرآن ١٢٩/٥ .

(٢) انظر الياقوت النفيس ص ١١٣ .

تعالى : ﴿يأأيُّها النَّبي إنَّا أحللنا لك أزواجَك اللَّاتى آتيتَ أجورَهُنَّ وما ملكـت يمينُـك ممَّا أفاءَ الله عليك . . . ﴾[سورة الأحزاب:٥٠] وقد مضى أيضاح ذلك فى بابه (١).

فهذا كله يدل على أهمية بذل الأجـرة لمستحقيها وأنـه لا يجـوز التفريـط بمستحقات الأجراء منها ؛ ولهذا كان الله تعالى وهو الحكم العدل لا يضيع أجر من أحسن عملا، بل يوفّى العاملين بطاعته أجورهم كاملة غير منقوصة كما وعد الله تعـالى بذلـك عبـاده فـى أكثر من خمسين آية واصفا أجره لهم بأنه عظيم ، وبأنه كبير،وبأنه كريـم، وبأنـه حسـن، وبأنه بغير حساب،وأنه غير ممنون، وقـد أخـبر سـبحانه أنـه لايخلـف الميعـاد،وبأنـه كريـم ومعلوم أنَّ الكريم إذا أعطى أجزل في العطاء وإن لم يقدم إليه بر أو مقـابل، فكيـف بمـن قدم له ذلك ، فلا ريب بأنه سـيكون أجـرا عظيمـا يليـق بجـوده وكرمـه سـبحانه وتعـالى ﴿فنعم أجرُ العـاملين﴾[سورة الزمر:٧٤] وكـل ذلـك ادَّخره لعبـاده ليـوم الجـزاء الأخـروى ﴿ولأجرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتَّقون﴾[سورة يوسف:٥٧] .

وقد أكد لعباده حصولهم ذلك الأجر بنفيه أن يضيع عمـل عـامل منهـم مـن ذكـر أو أنثى فى نحو سبع مرات كما فى قوله سبحانه:﴿إن الله لايُضيعُ أجـرَ المؤمنـين﴾[سورة آل عمران:١٧١] ﴿إن الله لايُضيع أجرَ المحسنين﴾[سورة التوبة:١٢٠] . إلى غير ذلك .

وذلك إضافة إلى ما اشتملت عليه مواعيده تلك من مؤكدات بلاغيه من أدوات التأكيد المعروفه كإنَّ والجملة الاسميه ولام الابتداء ونحو ذلك ، وذلك كله لحث عباده على العمل الصـالح ليجزل لهم الأجر والثواب .

ولا شك بأن المؤمن واثق من إنجاز وعد ربه له،وأنه لاريب فيه لمقتضى إيمانه به وباليوم الآخر،وما فيه من ثواب وعقاب ، ولذلك هو يعبد الله ويرغب إلى الله فـى قبـول عملـه لينال الأجر الموعود به. ولقد كان الأنبياء فى طليعـة المؤمنـين الذيـن يثقـون بذلـك مـن ربهم ويرغبون فى حصول أجر أعمالهم التى يقومون بها فى الدعوة إليه والطاعة له.

---

(١) انظر مبحث الصداق ص٦٩٦.

كما حكى الله تعالى عنهم فى آيات كثيرة قولهم لأقوامهم :﴿وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجريَ إلّا على ربّ العالمين﴾[سورة الشعراء: ١٠٩،١٢٧،١٦٤،١٨٠] ونحو ذلك،وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك على سبيل الإقرار والإيحاء بإنجازه لهم ﴿ولن يُخلِفَ الله وعدَه﴾[سورة الحج:٤٧] ﴿إن الله لا يُخلِفُ الميعاد﴾[سورة آل عمران:٩].



تمثُّل أخلاق التعامل

بالإجارة فى النبي صلى ا لله عليه وسلم

قد علمت أن الإجارة من المعاملات التى دأب على التعامل بها الأنبياء والأولياء؛لما فيها من كسب طيب فى الرزق،وتربية خلقية فى السلوك،حيث يتدرب الأجير برعاية ما استؤجر له إلى رعاية أرقى منه.

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يُستأجرون لرعي الغنم أو نحوها كما علمت من حال موسى عليه السلام ، وكذا نبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم وسائر الأنبياء،فقد صح عنه ﷺ حديث أبي هريرة رضى ا لله عنه قوله :"ما بعث ا لله نبياً إلا رعى الغنم" فقال أصحابه رضى ا لله عنهم وأنت ؟فقال:"نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"(١).

وذلك لحكمة أرادها ا لله تعالى؛فألهمهم ذلك لأجلها، وهى:"أن يحصل لهم التمرُّن برعيها على ما يكلَّفونه من القيام بأمر أمتهم، لأن فى مخالطتها يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفريقها فى المرعى،ونقلها من مسرح إلى مراح، ودفع عدوها من سبع وغيره، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة ، ألفوا من ذلك الصبرعلى الأمة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها فجبروا كسرها ، ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط ١١٥/٣، وابن ماجه في التجارات، باب الصناعات ٧٢٧/٢، ومعنى قوله: على قراريط لأهل مكة: أنه كان يرعاها لهم بأجرة قدرها كل شاة بقيراط، والقيراط جزء من الدرهم أو الدينار كذا فسره (سويد) أحد رواة الخبر عند ابن ماجه، ورده ابراهيم الحربي فقال: قراريط اسم موضع بمكة، ولم يرد القراريط من الفضة، قال الحافظ ابن حجر: لكن رجح الأول؛ لأن أهل مكة لا يعرفون مكانا يقال له: قراريط، قلت: وهذا ما فهمه البخاري حيث عنون لهذا الحديث: باب رعي الغنم على قراريط، وانظر فتح الباري ٥/١٠، وإرشاد الساري للقسطلاني ١٢٧/٤ .

لمشقة ذلك أسهل مما لو كُلِّفوا القيام بذلك من أول وهلة؛لما يحصل لهم من التدريج على ذلك برعى الغنم.

وخصت الغنم لكونها أضعف من غيرها، ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها فى العادة المألوفة، ومع كثرة تفرقها فهى أسرع انقيادا من غيرها" (١).

وفى تحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن بيان حاله بعد أن علم بكونه أكرم الخلق على الله،بيان لما كان عليه من عظيم التواضع لربه سبحانه والتحدث بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقد كان صلى الله عليه وسلم فى تعامله هذا مثالا لما ينبغى أن يكون عليه التعامل فى هذا الباب بلا ريب، لما كان عليه من الصدق والأمانة والإخلاص والوفاء...كما علم مما سبق، ويدل على ذلك قناعته بالأجرة القليلة التى كان يتقاضاها كما يدل عليه جمع القلة المستفاد من اللفظ "قراريط" أي: قراريط معدودة محدودة .

ومن كان كذلك فإن تعامله مع غيره سيكون مثاليا حقا، وهذا ما جعل الناس يأتمنونه على أموالهم و لم ينازعه أحد فى الكفاءة بتلك المسئولية، كل ذلك ولمَّا يوح إليه بعد، فلما بعثه الله رحمة للعاملين لم تزده هذه البعثة إلا ترسيخا للأخلاق الرضية العظيمة التى طبع عليها، والتى كانت بعثته لإتمام معالمها،غير أنه لم يكن ليتعاطى الإجارة فى نفسه وقد كلفه الله بمسئولية الرسالة وهدايه الأمة وأغناه عن ذلك،وفضَّله على كثير من خلق تفضيلا.

استئجاره صلى الله عليه وسلم غيره وحسن معاملته لأجرائه :

ولكن كان يستأجر غيره فقد عامل صلى الله عليه وسلم أناسا باستئجارهم فى مناسبات كثيره فمن ذلك :

---

(١) فتح الباري ٦/١٠، وإرشاد الساري للقسطلاني ١٢٧/٤، وانظر الروض الأنف بسيرة ابن هشام ١٩٢/١، والوفاء بحقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم ١٤٢/١ .

١ ـ استئجاره صلى ا لله عليه وسلم رجلا من المشركين(١) عند خروجه للهجرة يدلهم على الطريق،وكان من صفات هذاالأجير المرشحة لاستئجاره أنه كان (هاديا خِرِّيتًا) أى ماهرا بمعرفة الطريق كما أخرج ذلك البخارى من حديث عائشة رضى ا لله عنها قالت : استأجر النبي صلى ا لله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بنى الدِّيل، ثم من بنى عبد بن عدى هاديا خِرِّيتا ـ الخريت الماهر بالهدايه ـ قد غمس يمين حلف فى آل العاص بن وائل وهو على دين كفار قريش،فأ مِناه فدفعا إليه راحلتيهما،ووعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبيحة ليال ثلاث فارتحلا،وانطلق معهما عامر بن فُهيرة والدليل الدِّيلي، فأخذ بهم أسفل مكة وهو طريق الساحل"(٢).

٢ ـ ومن ذلك استئجاره صلى ا لله عليه وسلم يهود خيبر على العمل فى أرض خيبر التى أخذها منهم لما افتتحها فى العام السابع من هجرته، وذلك لما رأى صلاحية إبقائهم للعمل بها لخبرتهم بذلك العمل،وآجرهم على ذلك شطر ما يخرج من ثمارها.

كما أخرج ذلك البخارى(٣) من حديث عبدا لله بن عمر رضى ا لله عنهما قال : "أعطى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم خيبر اليهودَ على أن يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها ".

فهكذا كان صلى ا لله عليه وسلم يختار أجراءه لمَّا تقتضي المصلحة منه أن يستأجر، يختار المهرة الأمناء،فالدليل الدّيلى كان على الغاية من المهارة والأمانة، بحث استطاع بفضل ا لله ثم بمهارته أن يسلك بالنبي صلىا لله عليه وسلم وصاحبه الطريق البعيدة عن الأنظار،التى لا يخطر ببال مشركي قريش أن يسلكوها، فكان ذلك من عوامل نجاح الهجرة المباركه.

وأما أمانته فقد دل عليها ثقة النبي صلى ا لله عليه وسلم به وأنه لم يخونهم بإفشاء

---

(١) هو عبد ا لله بن أريقط كما في القسطلاني ١٢٨/٤ .

(٢) البخاري في الإجارة، باب استئجار المشركين عند الضرورة أو إذا لم يوجد أهل الإسلام ١١٦/٣ .

(٣) في الإجارة ١٢٣/٣ وفي مواطن أخرى منها في الزراعة ١٣٨/٣ .

ذلك الأمر لقريش التى كانت تبذل جائزة مغرية على ذلك قدرها مائة من الإبل. وقد كان فى محل الوُثاقة به حيث لم يغره ذلك العطاء الجزل ليخفر أمانته مع ماهو عليه من الشرك والعداء له صلى الله عليه وسلم بمقتضى مخالفته له فى الدين، وهذا يدل على عظيم حسن اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لاستئجار هذا الرجل.

وأما استئجاره ليهود خيبر للعمل بما كانت أرضا لهم فلا يخفى مبلغ حكمته صلى الله عليه وسلم في اختيارهم لهذا العمل، لأنهم أدرى الناس بها وبما يصلحها من سقي وبذر وتنمية وحصاد، ولو أنه ترك ذلك فى أيد أخر لربما هلك النخل ولم يستفد منه المسلمون بشيء لعدم خبرة من سيقوم بذلك بهذه الأرض وعادات أهلها الأسبقون فيها فهذا من حيث الاختيار.

أما من حيث بذل الأجرة فقد بذل لهم صلى الله عليه وسلم أجرا كبيرا حيث جعل لهم شطر ما يخرج من ثمارها، وهذا لا ريب فى أنه كثير يليق بكرمه صلى الله عليه وسلم وحسن معاملته لهم، إذ كان بوسعه أن يبذل لهم أقل من ذلك كالثمن أو الربع أو الثلث وسيرضون بذلك لما يرون فيه من المصلحة فى نيل ذلك، غير أنه عليه الصلاة والسلام أبى إلا أن يعطيهم فوق ذلك لما هو عليه من الجود والسخاء، لتقتدى به أمته فى معاملة أجرائهم من حسن البذل لهم، وحسن اختيارهم، وغير ذلك مما يتعلق بحقوقهم وواجباتهم.

٣ - وهكذا كان صلى الله عليه وسلم فى سائر استئجاراته كما جاء فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما : "ان النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى الحجَّام أجره"(١) وذلك مع كراهته صلى الله عليه وسلم لكسب الحجام فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام قوله : "كسبُ الحجام خبيث"(٢) ومع ذلك فقد دفع للحجام أجرة

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة ، باب خراج الحجام ١٢٢/٣ .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة، باب تحريم ثمن الكلب برقم ١٥٦٨، وأبوداود في البيوع، باب كسب الحجام برقم ٣٤٢١، والترمذي في البيوع، باب ما جاء في ثمن الكلب برقم ١٢٧٥، والنسائي في الصيد، باب النهي عن ثمن الكلب ١٩٠/٧، من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه .

عمله، وإن كان ذلك الكسب من حيث هو غير شريف،لكونه يدل على دناءة النفس لما فيه من مزاولة النجاسة، ومع ذلك فقد أعطاه ما استوجبه من الأجر، لأنه كما قال أنس رضى الله عنه "لم يكن يظلم أحدا أجره"(١) يعني: وإن كان يكره له تلك الصنعة فإن عمله يستوجب الأجر من حيث هو أجر،فكان عليه الصلاة والسلام يبذله بل ويكرمه.

٤ - فعن أنس رضى الله عنه قال : "حجم أبو طيبة رضى الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم فأمر له بصاع أو صاعين من طعام، وكلّم مواليه فخُفِّف عن غلته أو ضريبته(٢)". وذلك زيادة له فى الإكرام وبذل الإحسان فى مقابل عمله.

٥ - ولما ارتاب الصحابة رضوان الله عليهم فى أخذ الأجرة على الرُّقية بكتاب الله أزاح ما فى قلوبهم من الريب بمباشرته عليه الصلاة والسلام الأخذ من ذلك الأجر، كما أخرج ذلك البخارى من حديث أبى سعيد الخدري رضى الله عنه وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له :"وما يدريك أنها - أي: الفاتحة - رقية؟ قال : قد أصبتم، اقسموا - أي: الأجرة - واضربوا لى معكم سهما...(٣)".

وفى رواية أخرى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما : "أن نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مروا بماء(٤) فيهم لديغ - أو سليم - فعرض لهم رجل من أهل الماء، فقال: هل منكم من راق؟ فإن فى الماء رجلا لديغا: أو سليما، فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحه الكتاب على شاء(٥)، فبرىء، فجاء بالشاء إلى أصحابه فكرهوا

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة، باب خراج الحجام ١٢٢/٣ .

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة، باب ضريبة العبد وتعاهد ضرائب الإماء ١٢٢/٣ .

(٣) البخاري في الإجارة، باب ما يعطي في الرقية على أحياء العرب بفاتحة الكتاب ١٢١/٣ ومتنه طويل، وفي الطب ١٧٠/٧ .

(٤) أي: بقوم نزلوا علىماء .

(٥) أي: على أجر من الشاء، وقد ذكر في الروايات الأخرى أنه قطيع من الغنم .

ذلك، وقالوا : أخذت على كتاب ا لله أجرا؟حتى قدموا المدينة فقالوا : يا رسول ا لله أخذ على كتاب ا لله أجرا !، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : "إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب ا لله(١).

فأفادهم النبي صلى ا لله عليه وسلم الحكم الشرعى من جواز أخذ الأجره على الرقية بالقرآن وأنه أحق ما بذلت فيه الأجرة، ثم شاركهم فى اقتسامها ليكون ذلك زيادة فى تطييب قلوبهم على حل أخذ هذه الأجرة لأنها دخلت عليهم بطريق العمل المشروع، وقد قال عليه الصلاة والسلام : "أطيب الكسب عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور"(٢) .

فهذا هو هديه صلى ا لله عليه وسلم فى استئجار الأجراء، وحسن معاملته لهم، والمبادرة إلى إعطائهم حقوقهم وإكرامهم فوق ذلك، وهذا السلوك النبوى يجب على الأمة اتباعه بمقتضى الإيمان به صلى ا لله عليه وسلم وأمرِ ا لله عباده بلزوم اتباعه كما قال سبحانه " ﴿قل إن كنتُم تُحِبّون ا للهَ فاتّبعوني يُحبِبْكم ا لله...﴾ [آل عمران ٣١] ومع ذلك فإنه صلى ا لله عليه وسلم لم يترك الأمة على هذا المقتضى، بل حذر من التهاون بحقوقهم وأكلها،وحث على المبادرة والإسراع بأدائها فى غير ما حديث.

تحذيره صلى ا لله عليه وسلم من أكل حقوق الأجراء،وحثه على المبادرة ببذل الأجرة:

١ ـ فعن أبى هريرة رضي ا لله عنه أن النبي صلى ا لله عليه وسلم قال : "قال ا لله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة:رجل أَعطَى بى ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه و لم يؤته أجرته"(٣).

---

(١) أخرجها البخاري في الطب، باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم ١٧٠/٧ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١٤١/٤، والحاكم في المستدرك ١٠/٢، وعزاه الهيثمي في المجمع ٦٤/٤ إلى الطبراني في الأوسط والكبير قال: ورجاله ثقات . وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٦٠٧ .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع، باب إثم من باع حرا ١٠٨/٣، وفي باب من باع أجر الأجير ١١٨/٣ من حديث أبي هريرة رضي ا لله عنه .

وفى رواية : "ومن كنت خصمه خصمته(١)".

وفى هذا الوعيد ما يمنع من ظلم الأجراء ويضمن لهم الوفاء، لدى من يلقى السمع وهو شهيد؛ لأن الله تعالى : إذا خاصم عبدا فإن العبد لا يفلح أبدا؛ لأن الخصومة تقتضى العقوبة وإن لم يكن هناك سبب يوجب إنزالها، فكيف به إذا وجد، وهو هنا ظلم الأجير، حيث استخدمه بغير عوض، وهذا هو عين الظلم، وقد قال جل شأنه : ﴿ولا تحسبَنَّ اللهَ غافلا عمّا يعملُ الظّالمون إنما يُؤخّرهم ليومٍ تشخصُ فيهِ الأبصارُ * مُهطعينَ مُقنعي رؤسِهم لا يرتَدُّ إليهم طرفُهم وأفئدتُهم هواء﴾[سورة ابراهيم:٤٢،٤٣] .

ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يحث المستأجرين على المبادرة إلى إعطاء الأجراء حقوقهم حتى لا يقع منهم تفريط أو تقصير فيكونون عرضة لذلك العذاب الأليم.

٢ - فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه"(٢) .

فهكذا كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم فى معاملات الأجراء على كرم الأخلاق فى سلوكه بنفسه وتوجيهه أمته لذلك بقوله، فليت الأمة تدرك ما كان عليه نبيها وما يريده منها فى هذا الباب الذى طالما تهاون به المسلمون إلا من رحم ربك، الأمر الذى يجعل للأجراء عليهم يدا فى الإساءة ويجرئونهم على مساوىء الأخلاق من السب والكراهية والاستطاله... .

---

(١) عزاه الحافظ في الفتح ٢٨٩/٩ إلى ابن خزيمة وابن حبان، وهو في الإحسان ٢١٨/٩ .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ١٢١/٦، وابن عدي في الكامل من ١٨٢٠/٥ من حديث عطاء بن يسار، وصححه الألباني في الإرواء ٣٢٢/٥ من حديث أبي هريرة وذكر له طرقا وشواهد أخرى .

المبحث الخامس

(العارية)

العارية فى اللغة: اسم لما يُعار، ولعقدها أيضا، مأخوذة من التَّعاور وهو التناوب؛ لأن المعير يجعل للغير نوبة فى الانتفاع بملكه إلى أن يعود إليه، يقال : عاوره الشىء معاورة أعطاه عارية، وعاره الشىء وأعاره منه إعارة أعطاه إياه عارية .

وقيل هى مشتقه من العريَّة وهى العطية، وقيل سميت عارية لتعريتها عن العوض(١) .

وهى فى الشرع : "إباحة الانتفاع بما يحل الانتفاع به مع بقاء عينه" ويقال : "هى تمليك منفعة بلا بدل"(٢).

مكانة العاريه فى المعاملات الماديه الإجتماعية :

والعارية من المعاملات الاجتماعية ذات الصِّبغة الأخلاقيه، حيث إن المعير يقوم بإرفاق أخيه بإعارته المتاع الذى يحتاجه ليستعمله فى حاجته، وذلك من التكافل الاجتماعى بين المسلمين، ويورث الوُدَّ والإخاء وتبادل المحاب فيما بينهم، وهذا من أهداف الأخوة الإيمانيه بين المؤمنين، ولهذا ذم القرآن الكريم من تنكَّر لهذا الخلق الاجتماعي العظيم أيما ذم،وذلك فى قوله جل شأنه : ﴿أرأيتَ الَّذى يُكذِّبُ بالدِّين..﴾ إلى قوله : ﴿فويلٌ للمصلِّين * الذين هم عن صلاتِهم ساهون * الَّذين هم يُراؤونَ ويَمنعونَ الماعونَ﴾[سورة الماعون:١-٧] .

فإن منعهم الماعون يعنى منع عارية ما يحتاج إليه الأنسان من أخيه من متاع البيت ونحوه مما ينتفع به مع بقاء عينه،ولا يمنع فى العادة إعارته كما ذهب إلى ذلك أكثر المفسرين.

---

(١) انظر محيط المحيط للبستاني ص ٦٤٣، وأنيس الفقهاء للشيخ قاسم القونوي ص ٢٥٢، والياقوت النفيس للشاطري ص ١٠٢ .

(٢) الياقوت النفيس ص ١٠٢، والتعريفات للجرجاني ص ١٤٦ .

قال الفخر الرازى رحمه الله تعالى (١) : "القول الثانى (٢) وهو قول أكثر المفسرين : أن الماعون اسم لما لا يمنع فى العادة ويسأله الفقير والغنى، وينسب مانعه إلى سوء الخلق ولؤم الطبيعة كالفأس والقدر والدلو والمقدحة والغربال والقدوم، قال : ويدخل فيه الملح والماء والنار فإنه روي: "ثلاثة لا يحل منعها الماء والنار والملح"(٣) ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز فى تنورك أو يضع متاعه عندك يوما أو نصف يوم...إلى أن قال : ويسمى ما يستعار فى العرف كالفأس والشفرة ماعونا، قال : وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة فإن البخل بها يكون فى نهاية الدناءة والركاكة. والآية وإن تحدثت عن المنافقين الذين كانوا بهذه الصفات كما وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿الَّذين يَبخلون ويأْمرون النَّاس بالبُخل﴾[سورة النساء:٣٧] إلا أن الآية عامة فى دلالتها إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو معلوم.

ولذلك قال القاسمي رحمه الله تعالى : "المعني بهذه الآيات أولا وبالذات: المنافقون فى عهد النبوة ويدخل فيها ثانيا وبالعرض: كل من وجد فيهم تلك الخلال الذميمه اعتبارا بالعموم(٤)" .

ومعلوم أن ذم الله تعالى عبدا من عباده على فعل شيء أو تركه يقتضى بمفهوم المخالفة مدحه له عند تجنبه موضع الذم منه، ففاعل العارية على هذا ممدوح كما يفهم من ذم تاركها.

---

(١) في تفسيره الكبير ١١٥/٣١.

(٢) وكان قد ذكر القول الأول أنه الزكاة لأن الله تعالى ذكره عقيب الصلاة، وذكر القرطبي في تفسيره أحد عشر قولا في معناه، منها ماذكرته من العارية والزكاة.

(٣) الرواية الثابتة في ذلك هي ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله وسلم قال: "ثلاث لا يمنعن الماء والكلأ والنار" أخرجه ابن ماجه في الرهون، باب المسلمون شركاء في ثلاث برقم ٢٤٧٣، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة ٥٥/٢ برقم ٨٧٥: إسناده صحيح ورجاله موثقون .

وما رواه رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أنه سمعه يقول: "الناس شركاء في ثلاث: في الماء والكلأ والنار" أخرجه أبو داود برقم ٣٤٧٧، وأحمد في المسند ٣٦٤/٥، والبيهقي في السنن ١٥٠/٦، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٧/٦ .

(٢) محاسن التأويل ٢٧١/٧ .

فهذا ما علمته جاء في شأن العارية في كتاب الله تعالى، وهو وإن كان حديثا عنها في بعض صورها وأقلها شأنا، فإن بقية صورها وأجلها نفعا، كشأن ما ذكر منها بل أولى، فإن ما ذكر منها، إنما هو للدلالة على أصل التشريع فيدخل فيه الحقير والجليل، بل قياس الأولى يقتضى أن المدح والذم يترتب على العارية الجليلة أكبر منه في الصغيرة الحقيرة، وذلك نظرا لعظم النفع الحاصل منها إن بذلت، وكبر الأثر على النفس بالإساءة إن منعت، وبهذا تعلم أن ذكرها في أقل صورها إنما هو مخرج الغالب، حيث إن أكثر ما كان يجرى من صور العاريات بين المسلمين هو الماعون، أو إن ذكر الماعون من باب ذكر الأدنى للدلالة على الأعلى بالأولى كما في قوله تعالى : ﴿ولا تقل لهما أُفٍّ...﴾[الإسراء:٢٣]

تمثل أخلاق التعامل

بالعارية فى النبي صلى ا لله عليه وسلم

لقد كانت حياة النبي صلى ا لله عليه وسلم على ما قد علمت من الزهادة فى الدنيا والرغبة فى الآخرة، فهو لذلك لابد وأن تقتضى منه الحياة أن يكمّل ما يحتاج إليه من متاع الحياة وحاجّياتها إما عن طريق الأجارةأو الاستعاره، فإذا ما دعت الحاجة إلى ذلك فما كان يتوانى عن التعامل بها على أكمل وجوه التعامل فضلا وأعظمها أخلاقا ونبلا.

١ ـ وذلك كما روى أبو داود وغيره من حديث صفوان بن أمية رضى ا لله عنه أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم استعار منه أدراعا يوم حنين، فقال : أغصب يا محمد؟ قال : "بل عارية مضمونة"(١) .

٢ ـ وفى رواية أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال : "يا صفوان هل عندك من سلاح؟" قال : عارية أم غصبا؟ قال : "لا بل عارية" فأعاره ما بين الثلاثين إلى الأربعين درعا، وغزا رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم حنينا،فلما هزم المشركون جمعت دروع صفوان،ففقد منها أدراعا، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم لصفوان : "إنا قد فقدنا من أدراعك أدراعا فهل نغرم لك؟" قال : لا يا رسول ا لله لأن فى قلبى اليوم ما لم يكن يومئذ"(٢) .

ومن هذا تعلم أن النبي صلى ا لله عليه وسلم قد استعار بعض ما يحتاج إليه من أدراع صفوان لتجهيز بعض أصحابه للقتال فى معركة حنين، ولكن كان ذلك على وجه الكمال الخُلُقي من حيث الرد والضمان، بخلاف ما كان صفوان قد توهمه أو خافه إما لما

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع، باب تضمين العارية برقم ٣٥٦٢، والحاكم ٤٧/٢، وأحمد في المسند ٤٠١/٣، ٣٦٥/٦، وأورد له الحاكم شاهدا من حديث ابن عباس وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وتعقبهما الألباني في الإرواء لكنه صحح الحديث نظرا لشواهده وطرقه، انظر الإرواء ٣٤٤/٥-٣٤٦ .

(٢) أخرجها أبو داود في البيوع، باب تضمين العارية برقم ٣٥٦٣، والحاكم ٤٨/٣ وصححه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الإرواء ٣٤٥/٥ .

يعهده من عادة العظماء فى عدم رد العوارى اللاتى يستعيرونها كتلك، اعتمادا على قوتهم وضعف معيرهم حيث كان القوى منهم يأكل الضعيف ولا يبالى، إذ لا يكفه عن ذلك إلا قويٌّ مثله، فأحوجه علمه بذلك أن يستثبت لحقه بما يَطمئنّ قلبه إليه، أو أنه قال ذلك للتنكيد على النبي صلى الله عليه وسلم مع علمه بمبلغ أمانته وسمو أخلاقه، لما يكنُّه له من العداء حيث لم يكن قد أُسلم بعد، وما أسلم إلا بعد حنين.

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يستأنف من استيثاق الرجل لماله بمثل ذلك السؤال، سواء كان عن حسن نية أو سوء طوية، لما هو عليه صلى الله عليه وسلم من الحلم والعدل والفضل..، ولا ريب فقد قال عليه الصلاة والسلام : "العارية مُؤَدّاة، والزعيم غارم، والدين مقضي(١)" .

وقال : "على اليد ما أخذت حتى تؤدي"(٢) .

ولذلك ضمن له النبي صلى الله عليه وسلم رجوعها بعد الانتهاء من الانتفاع بها، فلما انتهت المعركة بادر النبي صلى الله عليه وسلم إلى رد العارية لصاحبها، واستعد لضمان ما فقد منها، مع أن يده يدُ أمانة لا يلزمها الضمان إذا لم يوجد تفريط فى العارية، كما كان منه صلى الله عليه وسلم فى هذه العارية، وذلك تنفيذا لما وعده به من الضمان، ولكن لمَّا

---

(١) أخرجه أبو داود في الكتاب والباب السابقين رقم ٣٥٦٥، والترمذي في البوع، باب ما جاء أن العارية مؤداة برقم ١٢٦٥ من حديث أبي أمامة وقال الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني في إرواء الغليل ٢/٢٤٥ .

(٢) أخرجه أبو داود فيما سبق برقم ٣٥٦١، والترمذي فيه أيضا برقم ١٢٦٦ من حديث الحسن عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، وابن ماجه برقم ٢٤٠٠، وأحمد في المسند ٥/٨، ١٢، ١٣، والبيهقي في السنن ٦/٩٠، والحاكم في المستدرك ٢/٤٧، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وقال عنه الترمذي: حسن صحيح، وتعقب بأن سماع الحسن عن سمرة بن جندب مختلف فيه وهو من المدلسين و لم يصرح بالتحديث فيه، قلت: لكنه من مدلسي المرتبة الثانية الذي احتمل الأئمة تدليسهم، انظر معرفة أهل التدليس ص ٤٩، ٥٦ .

كانت بشاشة الإيمان قد خامرت قلب صفوان بعدئذ، لم يرض أن يضمِّن النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يفرط فيه فقال له : "لا لأن في قلبي اليوم ما لم يكن يومئذ" يعني لما شرح الله صدره عندئذ للإسلام ومحبة النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد جاء في رواية جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله أدراعا:مائة درع وما يصلحها من عدتها، فقال : أغصبا يا محمد، قال : بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرا"(١).

٣ ـ وجاء أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب العارية أيضا من يعلى بن أمية على ذلك النحو من الضمان فقد روى أبو داود رحمه الله من حديث صفوان بن يعلى عن أبيه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا أتتك رسلي فأعطهم ثلاثين درعا وثلاثين بعيرا" قال فقلت: يا رسول الله أعارية مضمونة أو عاريه مؤداة؟ قال : "بل مؤداة"(٢).

وهذه الروايات تتفق على حصول تعامل النبي صلى الله عليه وسلم بالاستعارة عندما دعت الحاجة إلى ذلك، وإن كان المعير كافرا، وذلك لشدة الحاجة إليها حينئذ، حيث لم يكن بد من أن يجهز ما يقدر على تجهيزه من المسلمين لمواجهة هوازن وثقيف في تلك الغزوة .

٤ ـ وقد أستعار النبي صلى الله عليه وسلم مرة أخرى لمثل ذلك الغرض من الجهاد، فرسا لأبي طلحة رضي الله عنه امتطاه وذهب ليكتشف ما أشيع في المدينة من مهاجمة عدو

---

(١) حديث صحيح تقدم تخريجه ص٩٥٧.

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع، باب تضمين العارية برقم ٣٥٦٦، وأخرجه أحمد ٢٢٢/٤، وابن حبان ١٠٩/٧، من الإحسان، ونقل الشوكاني في نيل الأوطار ٤١/٦ عن ابن حزم قوله: أحسن ما فيها ـ أي: تضمين العارية ـ حديث يعلى بن أمية، قال الشوكاني في النيل ٤/٦: والحديث سكت عنه أبو داود والمنذري والحافظ في التلخيص، وانظر معالم السنن مع المختصر ١٩٨/٥، والتلخيص الحبير ٥٢/٣، لكن صحح الحديث الألباني في الإرواء ٣٤٨/٥ .

لها، وهم غارّون فى ليلهم .

فعن أنس رضى ا الله عنه قال : "كان بالمدينة فزع فاستعار النبي صلى ا الله عليه وسلم فرسا لأبى طلحة يقال له :"مندوب" فركبه، وقال : ما رأيت من فزع وإن وجدناه لبحرا"(١) .

وكل هذه الأحوال كما ترى كانت لأجل مصالح المسلمين ولم تكن لغرض نفسه الشريفة العظيمة، ولعل فى هذا إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه التعامل بالعارية من أنه لايكون إلا فى أضيق الأحوال ، وذلك لأن العين المستعارة ملك للغير ، ولعله يكون فى استعمالها تلف لها ، أو نقص من قيمتها ، ولعل ذلك مما لاتطيب به نفس صاحب الحق، فيبقى تحمل شائبة التبعات فى النفس المؤمنة قائم ، فالأولى فى ذلك التقليل من الاستعارة ما أمكن ، حذرا من الوقوع فى الشبهات ، فإن من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.

كما أن كثيرا من الناس لاتطيب أنفسهم بإعارة ممتلكاتهم لاسيما إن لم يأمنوا على عودتها،وذلك لكثرة الشح من المُلاّك،وقلة الورع من المستعيرين ، ولا ريب بأن المؤمن الشحيح على ماله والحريص على دينه سيجد حرجا من طلب العارية ونفسه لا تجود بها ، بينما النبي صلى ا الله عليه وسلم يندبه إلى بذلها كما فى الصحيح من حديث جابر رضى ا الله عنه أن النبي صلى ا الله عليه وسلم قال: "ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لايؤدى حقها إلا أُقعد لها يوم القيامة بقاع قَرَقَرٍ(٢)، تطؤه ذات الظّلف بظِلفها وتنطحُه ذات القرن بقرنها، ليس فيها يومئذ جَمّاءُ(٣) ولا مكسورة القرن" قال: قلت يارسول ا الله وما حقها؟ قال: "إطراق فحلها ، وإعارة دلوها، ومنيحتها وحلبها على الماء، وحمل عليها فى

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، باب اسم الفرس والحمار ٣٥/٤، ومسلم في الفضائل، باب في شجاعة النبي صلى ا الله عليه وسلم وتقدمه للحرب برقم ٢٣٠٧ .

(٢) القرقر: الأملس .

(٣) الجماء: الشاة التي لا قرن لها .

سبيل ا لله . . . "(١) .

فلا ينبغى للمؤمن أن يحرج أخاه ، أو يشق عليه فى ماله إذا علم منه ذلك،وعليه أن يقلل من الاستعارة ما أمكن ، وأن يكون ممن لا يتحرجون منها .

وإذا استعار بادر إلى الرد فور الاستغناء عن العين المعارة وأن يضمن ما تلف منها بالعوض كما فعل النبي صلى ا لله عليه وسلم .

لا أن يماطل فى الرد أو يجحد العارية فإن ذلك ليس من أخلاق المؤمنين بل هو تنكر للجميل و﴿ هل جزاءُ الإِحسانِ إلاَّ الإحسان﴾[سورة الرحمن:٦٠] .

تنكيل النبي صلى ا لله عليه وسلم بمن لا يرد العارية ويجحدها :

وقد كان فى عهد النبي صلى ا لله عليه وسلم امرأة تستعير المتاع ثم تجحده، فنكَّل بها النبي صلى ا لله عليه وسلم ،كما جاء من حديث عبدا لله بن عمر رضى ا لله عنهما أن امرأة مخزومية كانت تستعير المتاع وتجحده فأمر النبي صلىا لله عليه وسلم بها فقطعت يدها"(٢) .

وفى رواية أن امرأة كانت تستعير الحُليّ فى زمان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فاستعارت من ذلك حليا فجمعته ثم أمسكته، فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم : "لِتَتُب هذه المرأة وتؤدِّى ما عندها مرارا - أى يقول ذلك مرارا - فلم تفعل فأمر بها فقُطِعت"(٣) .

ولمسلم(٤) من حديث عائشة رضى ا لله عنها قالت : كانت امرأة مخزومية تستعير

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، باب إثم مانع الزكاة برقم ٩٨٨، والنسائي، باب مانع زكاة البقر ٣٧/٥ .

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود، باب في القطع والعارية إذا جحدت برقم ٤٣٩٥، والنسائي في السارق، باب ما يكون حرزا وما لا يكون ٧٠/٨، وأحمد ١٥١/٢، قال الألباني: وإسناده صحيح على شرط الشيخين.اهـ الإرواء ٦٦/٨ .

(٣) أخرجها النسائي في الباب السابق ٧١/٨ من حديث نافع، قلت:وأصلها في مسلم كما في الرواية التالية .

(٤) في الحدود، باب قطع السارق وغيره برقم ١٦٨٨ .

المتاع وتجحده، فأمر النبي صلى الله عليه سلم بقطع يدها، فأتى أهلها أسامة رضى الله عنه فكلموه، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تشفع فى حد من حدود الله..؟!" الحديث.

وقد ذهب إلى ظاهر هذه الأحاديث بعض أهل العلم كأحمد وإسحاق، فقالوا بقطع يد جاحد العاريه، وخالف فى ذلك جمهورهم وقالوا : إن القطع كان لأجل السرقة كما هو مصرح به فى الصحيح وأن ذكر جحد العارية إنما هو للتعريف بها(١).

وأيا ما كان السبب فقد كان لجحد العارية دخل فى إقامة الحد إما استقلالا أو تبعا، بدليل ذكره فى كثير من الروايات الصحيحة وذلك زيادة فى التنكيل لها والتشنيع بها والتحذير من فعلها، والله أعلم.

---

(١) وقد بين الإمام النووي الخلاف في هذه المسألة بقوله: «قال العلماء: المراد أنها قطعت بالسرقة، وإنما ذكرت العارية تعريفا لها ووصفا لها، لا أنها سبب القطع، قال: قد ذكر مسلم هذا الحديث في سائر الطرق المصرحة بأنها سرقت وقطعت بسبب السرقة، فتعين حمل هذه الرواية على ذلك جمعا بين الروايات، فإنها قضية واحدة، مع أن جماعة من الأئمة قالوا: إن هذه الرواية شاذة فإنها مخالفة لجماهير الرواة، والشاذ لا يعمل بها، ثم قال: قال العلماء: وإنما لم يذكر السرقة في هذه الرواية؛ لأن المقصود منها عند الراوي ذكر منع الشفاعة في الحدود، لا الإخبار عن السرقة وقال: قال جماهير العلماء وفقهاء الأمصار: لا قطع على من جحد العارية، وتأولوا هذا الحديث بنحو ما ذكرته، وقال أحمد وإسحاق: يجب القطع في ذلك» اهـ شرح مسلم ١١/١٨٧-١٨٨ .

المبحث السادس

(الصلح)

الصلح فى اللغة: اسم بمعنى المصالحه وهى المسالمة بعد المنازعة(١)، قال فى القاموس(٢): "والصلح بالضم: السِّلم... يقال: صالحه مصالحة وصلاحا، واصطلحا واصَّالحا وتصالحا واصتلحا" كل ذلك بمعنى واحد، قال الراغب : "الصلح يختص بإزالة النِّفار بين الناس يقال منه : اصطلحوا وتصالحوا..."(٣).

وفي الشرع: عقد يرفع النزاع(٤) .

مكانة الصلح فى الأخلاق الاجتماعيه :

وهو من أجل الأخلاق الاجتماعيه،إذ به يرفع الخلاف وينهى المنازعة التى تنشأ بين المتعاملين ماديا أو اجتماعيا، ويعود بسببه الوُدُّ والإخاء بين المتنازعين لكونه يرضى طرفي النزاع ويقطع دابر الخصام، كما قال سيدنا عمر رضى الله عنه لأبى موسى رضى الله عنه: "رُدّ الخصوم حتى يصطلحوا،فإنَّ فصل القضاء يورِّث بينهم الضغائن"(٥)، ولذلك كان الصلح من أسمى المطالب الشرعيه لتتحقق به الأخوة التى ينشدها لهم ويصفهم بها كما فى قوله سبحانه : ﴿إنَّما المؤمنون إخوةٌ فأصلحوا بينَ أخَويكم﴾[سورة الحجرات:١٠] وهى الأخوة التي يذهبها الخلاف والتنازع فيما بينهم.

عناية القرآن الكريم بالحديث عن الصلح :

لهذا عني القرآن الكريم به كثيرا، أمرا به، وترغيبا فيه، وتنويها به وبأهله...، فى نحو عشر آيات كريمات :

---

(١) التعريفات للجرجاني ص١٣٤ وأنيس الفقهاء للقونوي ص ٢٤٥ .

(٢) ٢٣٤/١، وانظر شرحه تاج العروس ١٨٣/٢ .

(٣) المفردات ص ١٨٤ .

(٤) التعريفات للجرجاني ص ١٣٤، والياقوت النفيس ص ٨٨ .

(٥) جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٨٤/٥ .

١ ـ أما الأمر بـه ففـى مثـل قولـه سبحانه :﴿يَسـألونَك عـن الأنفـالِ قُـلِ الأنفـالُ لله والرَّسولُ فاتَّقوا الله وأصلحوا ذاتَ بينِكم وأطيعوا الله ورسولَه إن كنتُـم مؤمنـين﴾[سورة الأنفال:١] .

وقوله سبحانه :﴿وإن طائِفتانِ من المؤمنين اقتَتلُوا فأصلِحوا بينهمـا فـإن بَغـت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا الَّتى تبغي حتى تَفيءَ إلى أمرِ اللهِ فإن فاءت فأصلِحوا بينَهما بـالعدلِ وأقسِطوا إنَّ الله يُحبُّ المقسطين * إنَّما المؤمنون إخوةٌ فـأصلحوا بـينَ أَخوَيكـم واتَّقـوا الله لعلَّكم ترحمون﴾[سورة الحجرات:٩،١٠] .

فترى أن الله تعالى أمر عباده بأن يصلحوا ذات بينهم لما بينهم من الإخاء كمـا صـرح به فى آية الحجرات حيث قال : ﴿إنَّما المؤمنون إخوةٌ فإصلِحوا بـين أخويكـم﴾ إذ بيَّنـت هذه الآية عليَّة الأمر بالإصلاح بين المؤمنين بصيغة القصر،المفيدة لحصـر حـالهم فـى حـال الأخوة،مبالغة فى تقرير هذا الحكم بين المسلمين،لما بينهم من انتساب إلى أصل واحد وهو الإيمان الذى هو منشأ البقاء الأبدى فى الجنات فأشارت جملـة : ﴿إنمـا المؤمنـون إخـوة﴾ إلى وجه وجوب الإصلاح بين المؤمنين،ببيان أنَّ الإيمـان قـد عقَـد بـين أهلـه مـن النَّسـب الروحى مالا ينقص عن نسب الأخوَّة الجسديه، وحيث كان الحال كذلك وجـب القيـام به بين أخوة الروح كما يجب بين أخوة الجسد، وقد كان من المتعارف بين النـاس أنـه إذا نشب خلاف بين الإخوين لزم بقية الأخوة أن يتناهضوا لإزاحته بالصلح، فأرشد القـرآن الكريم إلى أن المسلمين شأنهم كذلك إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم،فعلى بقيَّتهم أن ينهضوا إلى السعي بالصلح بينهمـا، وبـثِّ السُّـفراء إلى أن يرفعـوا مـا وَهَـيَ ويصلحـوامـا أصاب ودهى .

ولهذا لما تقرر معنى الأخوة بين المؤمنين كمال التقرير من القصر عدل عـن أن يقـول : فأصلحوا بين الطائفتين إلى قوله : ﴿بين أخويكم﴾ لكونه حينئذ وصف جديـد نشـأ عـن قوله : ﴿إنما المؤمنون إخوة(١)﴾ .

---

(١) انظر تفسير الألوسي ١٥١/٢٦/٩، وتفسير الطاهر بن عاشور ٢٤٣/٢٥-٢٤٥.

ومن هذه الأوامر القرآنيه يعلم أن الإصلاح بين الناس ليس هو من نافلة القول، بل هو تكليف إلهٰي للقادرين عليه، حتى لا تفسد أواصر الأخوة الإيمانية بين المؤمنين،وهو مع ذلك من التعاون على البر والتقوى،ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الَّذَين أمر ا لله تعالى بهما فى غيرما آية، ومعلوم أن هذين من الواجبات الشرعية التكليفية على المؤمنين فى علاقاتهم الاجتماعية .

فكل هذه الأمور تحتم على المسلم القيام بالإصلاح بين المسلمين بل وبين الناس عامة، لتستقر الحياة الاجتماعيه عامرة بالود والإخاء.

٢ ـ الترغيب فى القيام بالإصلاح :

ولقد رتب ا لله تعالى على القيام به فضلا كبيرا وأجرا عظيما،يناله القائم بذلك ابتغاء مرضاة ا لله تعالى كما قال ا لله جل شأنه : ﴿لا خيرَ فى كثيرٍ من نجواهم إلَّا من أَمَرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين النَّاس ومن يَفعل ذلك ابتغاءَ مرضاتِ ا للهِ فسوفَ نُؤتيه أجراً عظيما﴾[سورة النساء:١١٤] .

ووعد القائمين به مغفرته ورحمته كما يفيده قول ا لله جل ذكره : ﴿وإن تُصلِحوا وَتَتَّقوا فإنَّ ا لله كان غفورًا رحيما﴾[سورة النساء:١٢٩] فإن فى هذه الآية إشارة إلى مغفرة ا لله ورحمته للمصلحين كما آذن به ختم الآية بصفتي المغفرة والرحمة لله سبحانه وتعالى.

ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿فمن خافَ من موصٍ جَنَفًا(١) أو إثماً فأصلحَ بينهم فلا إثمَ عليه إنَّ ا لله غفورٌ رحيم﴾[سورة البقرة:١٨٢] فإن فيها من الإشارة إلى مغفرته ورحمته سبحانه للمصلح ما فى سابقتها بدلالة نفي الإثم وتذييلها بصفتي المغفرة والرحمة، وهي إشارة جليَّة،وقد وصف سبحانه بقوله : ﴿لا نُضيعُ أجرَ المصلحين﴾[سورة الأعراف:١٧٠].

٣ ـ التنويه بالصلح والقائمين به :

وتكرار هذا الوعد يدل على علو شأن الإصلاح بين الناس عند ا لله تعالى،ولذلك أجزل للقائم به تلك المثوبة الكريمة والأجر العظيم، وقد دل على ذلك أيضا تنويه ا لله

---

(١) أي: ميلا عن الحق خطأ .

تعالى به بمثل قوله سبحانه :﴿والصُّلحُ خير﴾[سورة النساء:١٢٨] فإن وصفه بالخيرية دليل على علو منزلته عند الله تعالى،وذلك لما له من عظيم الأثر في إصلاح ذات البين بين الناس التى طالما يتشوف الشارع الحكيم إليها فى المجتمعات الإنسانيه .

ولما له من دلالة على كريم أخلاق القائم به أو الراضى به .

ولهذا كان من أبرز أخلاق الرسل عليهم الصلاة والسلام كما قال الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام : ﴿إن أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استَطعتُ وما تَوفيقي إلا بالله عليه توكَّلتُ وإليه أُنيب﴾[سورة هود:٨٨] وقال على لسان موسى وهو يخاطب أخاه هارون عليهما السلام : ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلُفنى فى قَومي وأصْلِح ولا تَتَّبِع سبيلَ المفسدِين﴾[سورة الأعراف:١٤٢] . إلى غير ذلك من الآيات .

والإصلاح فى مثل هاتين الآيتين عام فيشمل الإصلاح فى الدين والدنيا، ومنه الإصلاح بين الناس عند حدوث المقتضى لذلك من نزاع ونحوه مما لا يخلو منه مجتمع من المجتمعات البشرية .

☆ ☆ ☆

تمثل خلق الإصلاح

بين الناس فى النبي صلى ا لله عليه وسلم

لقد مر بنا غير بعيد أن الإصلاح من أبـرز صفـات المرسلين وذلـك لكمـال أخلاقهـم وفطنتهم ومعرفتهم العريقة بأحوال أمتهم .

ونبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم من أولئك الرسل الذين كانوا بهذه المثابة من التوفيـق بين الناس، وإصلاح ذات البين بينهم فى كل أطوار حياته قبل البعثة وبعدها،فى مكة وفـى المدينه..، ودلائل ذلك كثيرة فى كل الأطوار :

أ ـ أما قبل أن يبعثه ا لله تعالى نبيا رسولا، فيدل عليه ذلك الصلح العظيم الـذى قـام بـه بين فئات قريش المختلفة فى شأن رفع الحجر الأسود، الذى كـاد يصـل بـهـم إلى صراع مسلح يفنى عددهم، ويثكل أمهاتهم، ويرمِّل نسـاءهم، ويُيتِّـم أبنـاءهم، لـو لا أن تدراكهم ا لله تعالى بلطفه بالصلح الذى قام به المصلح العظيم سيدنا محمد صلى ا لله عليـه وسلم، وذلك بعد أن هيأ ا لله تعالى له السبيل إلى ذلك باتفاق القبائل المختلفه على تحكيم أول داخل عليهم من باب الصفا، فكان هو النبي صلى ا لله عليـه وسـلم الداخـل الـذى رضي به الجميع وفرحوا به، لما يعلمونه من أمانته وفطنته وعدم محاباته أحدا، فما كان منـه صلى ا لله عليه وسلم إلا أن أصلح بينهم صلحا أرضى جميع الفرقاء علـى السـواء، حيـث بسط رداءه ووضع الحَجَر عليه وأمر زعماء كل قبيلـة أن يـأخذ كل منهم طرفـا منـه، فكـان كلهـم رافعا له بالحقيقه، فلما قرب من موضعـه فـى الركـن أخـذه بيـده الشـريفة إلى موضعـه، وبذلك قطعت جهيزةُ قولَ كلِّ خطيب(١) ، وما كانوا سينالون هذا الحـل السِّـلمى بهـذا الصلح المرضي لولا هذا المصلح الأعظم صلى ا لله عليـه وسـلم، وهكـذا كـان رسـول ا لله صلى ا لله عليه وسلم رجل الإصلاح الذى لا يثبت أمامه عويص الخلاف المزمن، أو أعتـى الناس تصلبا لرأيه وقوله .

---

(١) تقدم ذكر هذه القصة في مبحث أمانته صلى ا لله عليه وسلم ص ٣٢٥، وانظر أيضا فقه السيرة للغزالي ص ٨٣ .

ب ـ وأما بعد البعثة فدلائل ذلك وصوره كثيره ونذكر منها مايلى :

١ ـ لما هاجر إلى المدينة وجد ساكنيها من الأوس والخزرج كأشد ما يكون عليه التنافر والشقاق؛لما كانوا عليه من الحميّة الجاهليه التى كانت تولد بينهم الحروب الطاحنة على أتفه الأسباب، كما دل على ذلك قول من بايعه عند العقبة منهم : "إنَّا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، وعسى أن يجمعهم ا لله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم ا لله عليك فلا رجل أعز منك"(١) .

فلما هاجر النبي صلى ا لله عليه وسلم إليهم ودخلوا جميعا فى الإيمان اصطلحوا وزال ما بينهم من البغضاء والتنافر وأصبحوا بنعمة ا لله إخوانا.

وما كان لشملهم أن يلتئم لولا وجود النبي صلى ا لله عليه وسلم بين أظهرهم،والنور الذي أتى به فى أفئدتهم،كما دل على ذلك قول النبي صلى ا لله عليه وسلم ممتنا عليهم بهذه النعمة لمَّا بدر من صغار الإنصار ما يوحى بنسيانها : "يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضُلَّالاً فهداكم ا لله بى؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم ا لله بى؟وعالةً فأغناكم ا لله بى..؟"(٢).

وقد أشار إلى هذه القرآن الكريم حيث يقول : ﴿وإن يُريدوا أن يخدَعوكَ فإنَّ حسبَك ا للهُ هو الَّذى أيَّدك بنصرِه وبالمؤمنين * وألَّف بين قلوبِهم لو أنفقتَ ما فى الأرضِ جميعًا ما ألَّفتَ بين قلوبِهم ولكنَّ ا للهَ ألَّف بينهم إنَّه عزيز حكيم﴾[سورة الأنفال:٦٢،٦٣] قال القرطبى : "أى جمع بين قلوب الأوس والخزرج وكان تألُّفُ القلوبِ مع العصبيَّة الشديدة فى العرب من آيات النبي صلى ا لله عليه وسلم ومعجزاته؛لأن أحدهم كان يُلطم اللطمة فيقاتل عنها حتى يتسقيدها، وكانوا أشد خلق ا لله حَمِيَّة، فألَّف ا لله بالإيمان بينهم حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين، قال : وقيل أراد التأليف بين المهاجرين

---

(١) سيرة ابن هشام ١٧٦/٢ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف ٢٠٠/٥، ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم برقم ١٠٦١ من حديث عبد ا لله بن زيد بن عاصم .

والأنصار والمعنى متقارب"(١).

٢ - ولقد برز جانب الإصلاح من جنابه العظيم في صلح الحديبية،الذى تجلّت فيه دلائل نبويه ومكارم أخلاقه ، إذ ما كان بوسع أحد أن يقبله إلا هو صلى الله عليه وسلم لما ذكرت من الصفات، وذلك لقساوة شروطه،وجفاء لهجته ، كيف لا والصحابة كلهم إلا أبا بكر الصديق رضى الله عنه كانوا بين مُنكرٍ علَنَاً،أو ساكت تأدُّبا،والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "والذى نفسى بيده لا يسألوني خُطةً يُعظِّمون فيها حرماتِ الله إلا أعطيتهم إياها"(٢) .

وفي رواية قال: "لا تدعونى قريش اليوم إلى خُطَّةٍ يسألوني فيها صلةَ الرحم إلا أعطيتهم إياها"(٣) .

وقد كان من بنود هذا الصلح شروط قاسيه خلاصتها ما يلى:

١ - أن يرجع المسلمون ذلك العام ولا يصلوا إلى مكة.

٢ - يقضون عمرتهم من العام المقبل ويقيمون بمكة ثلاثة أيام فقط.

٣ - لا يدخلوا مكة بسلاح إلا سلاح الراكب: السيوف فى القرب.

٤ - من جاء النبي صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وليّه يرده عليهم ، ومن جاء قريشا من المسلمين لا ترده إليهم.

٥ - من أراد أن يدخل فى عقد النبي صلى الله عليه وسلم وعهده دخل فيه وله مثل شرطه، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش وعهدها دخل فيه وله مثل شرطه.

٦ - أن بينهم عيبة مكفوفة - أي: صدر نقي من الغش والخداع مطوي على الوفاء بالصلح -

---

(١) جامع أحكام القرآن ٤٢/٨ .

(٢) أخرجه البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب ٢٥٢/٣، من حديث عروة بن الزبير والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما .

(٣) هذا لفظ ابن هشام في السيرة في سياق قصته لحديث غزوة الحديبية ٢٥/٤ .

٧ ـ أنه لا إسلال ولا إغلال ـ أى لاسرقة ولا خيانة ـ

٨ ـ أن توضع الحرب بينهم عشر سنين (١).

ولقد قبل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الشروط القاسية فى ظاهر أمرها كما عزم بذلك،لماتثمره من تعظيم الكعبة المعظمة وعدم إراقة الدماء فى الحرم.

وإن ضاق الصحابة رضوان الله عليهم بها ذرعا ، لأنها فى تصورهم وتصور العقول البشرية التى لا يمدها الوحى من السماء: شروط جائرة،لا يقبلها من هو فى عز ومنعة كما كان عليه حال المسلمين يومئذ.

فهم أهل حق وعدوهم أهل باطل.

وهم لايريدون قتالا وإنما يريدون الاعتمار.

والنبي صلى الله عليه وسلم قد وعدهم بدخول مكة والطواف بالبيت كما أراه الله تعالى ذلك، ورؤيا الأنبياء حق، غير أنهم لم يدركوا أن الوعد مطلق غير مقيد بتلك السّنة،حتى بينه صلى الله عليه وسلم لعمر رضى الله عنه الذى مافتىء يجادل النبي صلى الله عليه وسلم فى قبول هذا الصلح،حتى كان يقول :"مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ،مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرا»(٢) .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أفأخبرتُك أنَّا نأتيه هذا العام؟ فإنك آتيه ومطوِّف به"(٣) .

ولقد بلغت الحيرة لدى المسلمين مبلغها في قبول ذلك الشرط البالغ في القسوة والعنت أشُدَّه،

(١) انظر صحيح البخاري في الشروط ٢٥٢/٣-٢٥٨، وفي المغازي، باب غزوة الحديبية ١٥٥/٥-١٦٤، وصحيح مسلم في الجهاد والسير، باب صلح الحديبية ٥٧/٤-٦١، وسيرة ابن هشام ٢٤/٤-٣٨ مع الروض الأنف .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٨/٤ .

(٣) البخاري في الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط ٢٥٦/٣ .

وهو الشرط الذينص على أن يُرَدَّ إليهم من أتى المسلمين من غير إذن مولاه، بينما هم لا يردون من يأتيهم من صفوف المسلمين، غير أن النبي صلى ا لله عليه وسلم فسَّر لهم قبول هذا الشرط بما يثلج صدورهم، وهو أن من أتاهم مرتدا عن دينه فقد أبعدُه الله، ومن أتى المسلمين مسلما فسيجعل ا لله له فرجا ومخرجا .

ولقد زادهم غمًّا وضيقا قضية إرجاع أبي جندل بن سهيل بن عمرو الذي جاء يرسُف في قيوده يريد الالتحاق بصفوف المسلمين، فحال بينه وبين ذلك أبوه إذ كان يفاوض النبي صلى ا لله عليه وسلم في هذه الشروط الجائرة، قائلا للنبي صلى ا لله عليه وسلم:

قدلَجَّت(١) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، فصدَّقه النبي صلى ا لله عليه وسلم، فجعل سهيل يضرب وجه أبي جندل ويأخذ بتلابيبه، وهو يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين: أأرد إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى مابهم .

فقال رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم: "يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن ا لله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا، إنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد ا لله وإنا لا نغدر بهم"(٢) .

ومع كل ذلك فإن النبي صلى ا لله عليه وسلم قبل الصلح بشروطه تلك، رغبة منه في أن ينال خيرية الصلح الذي وعد الله به حيث قال: ﴿ والصلح خير ﴾[سورة النساء:١٢٨] .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يقول: «أنا عبدُ ا لله ورسولُه ولن أخالف أمره ولن يضيّعني(٣)» .

فما هي إلا بُرهة من الزمن يسيرة حتى نال بركته وخيره، حيث عادت تلك الشروط على المشركين بالخيبة والخسران، وغدو يسعون جاهدين في إلغائها .

---

(١) أي: وجبت .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٩/٤، والبخاري في الباب السابق.

(٣) سيرة ابن هشام ٢٨/٤ .

بينما عادت على المسلمين بالخير وثبات الإيمان بدينهم وبنبيهم صلى ا لله عليه وسلم الذي لم تكن تصرفاته تلك إلا عن وحي وتسديد إلهي كما دل عليه قوله: "ولن أخالف أمره" .

قفد قال الزهري (١): "فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال، حيث التقى الناس، فلما كانت الهُدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة،فلم يكلّم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنين مثل ما كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر" .

قال ابن هشام(٢): "والدليل على قول الزهري:أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد ا لله رضي ا لله عنهما، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنيتن في عشرة آلاف"(٣) .

وكانت عاقبة هذا الصلح الفتح العظيم الذي وعد ا لله تعالى به نبيه، وبشر به النبي صلى ا لله عليه وسلم أمته في وقت ما كان سيتحقق فيه لو لا تمهيد ا لله تعالى له بذلك الصلح المحمود عاقبته، وصدق الله إذ يقول: ﴿ لَقد صدق ا للهُ رسولَه الرُّؤيا بالحقِّ لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاءَاللّهُ آمنين محلِّقين رُءوسكم ومُقصِّرين لا تَخافون فعلِم ما لم تَعلموا فجعل من دون ذلك فتحًا قريبا ...﴾[سورة الفتح:٢٧] .

وهكذا تكون ثمار الصلح دائما وأبدا، فإنه ﴿ لا يُخلِفُ اللهُ وعدَه ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون ﴾[سورة الروم:٦] .

---

(١) هو أبوبكر محمد بن مسلم بن عبد ا لله بن شهاب الزهري المدني الحافظ المتفق على جلالته وإتقانه، وعداده في رؤوس الطبقة الرابعة من التابعين، وهو من أوائل من صنف في السيرة توفي سنة ١٢٤ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٣٨٨/٢، وتذكرة الحفاظ للذهبي ١٠٨/١، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص ٤٩ ونحوها .

(٢) هو عبد الملك بن هشام الذهلي صاحب السيرة النبوية التي هذب فيها سيرة ابن إسحاق وتوفي سنة ٢١٨هـ، انظر سير أعلام النبلاء ٤٢٩/١٠ .

(٣) سيرة ابن هشام ٣٠/٤ .

فهذه نماذج كافية لما كان يقوم به النبي صلى الله عليه وسلم من إصلاح بين الآخرين، وما ينهجه في نفسه عند عرض الصلح عليه .

جـ - وقد مرت بك نماذج أخرى في مبحث القرض(١)، حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوسط بين المقرِض - بكسر الدال - والمقرَض بفتحها، عندما يتعسر القضاء، فيصلح بينهما على أن يضع المقرِض شيئا من ماله حتى يتيسر على المقرَض الأداء .

كحديث كعب بن مالك رضي الله عنه أنه كان له على عبد الله بن أبي حَدْرد الأسلمي مال، فلقيه فلزمه حتى ارتفعت أصواتهما، فمر بهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "يا كعب، فأشار بيده كأنه يقول النصف، فأخذ نصف ما عليه وترك نصفا"(٢) .

د - ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجهد نفسه في الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فقد حدث ذات يوم أن أهل قباء اقتتلوا(٣) حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال: "اذهبوا بنا نصلح بينهم"(٤) .

فانظر كيف أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتوان عن الذهاب للإصلاح بين المسلمين، حينما بدر الشقاق بينهم، ليَحسِم الخلاف، ويعيد الوئام قبل أن يستفحل الأمر ويتسع الخرق على الراقع .

وهذا دليل آخر على حرصه صلى الله عليه وسلم على الإصلاح بين المؤمنين ليبقى الود والإخاء بينهم متماسكا .

هـ - ولقد بلغت محبته صلى الله عليه وسلم للإصلاح أن أباح فيه الكذب الذي هو

---

(١) ص ٩٢٠.

(٢) تقدم ذكر هذه الرواية مخرجة بنحوها، وهذه رواية البخاري في الصلح، باب هل يشير الإمام بالصلح ٢٤٤/٣ .

(٣) أي: فعلوا فعلا يودي بهم إلى القتل من مضاربة بالأيدي والعصي ورمي بالحجارة كما بين في الرواية .

(٤) أخرجه البخاري في الصلح، باب قول الإمام لأصحابه اذهبوا بنا نصلح ٢٤٠/٣ من حديث سهل بن سعد.

من أقبح الرذائل الخُلقية، إذا كان سيثمر في إصلاح ذات البين، كما أخبرت بذلك عنه عليه الصلاة والسلام أم كلثوم بنت عقبة(١) رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله عليه وسلم يقول: «ليس الكذّاب الذي يصلح بين الناس فيُنمي خيرا أو يقول خيرا»(٢)، وزاد مسلم في رواية: "ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث يعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها" .

وما ذلك إلا لِعظَم خطر الخلاف بن المسلمين وفساد ذات بينهم كما بينه النبي صل الله عليه وسلم بقوله: « إياكم وسوء ذات البين فإنها الحالقة»(٣) أي: الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أراد أنها خصلة سوء تذهب الدين كما تذهب الموسى الشعر(٤)، ولذلك كان من أمِلِه الكبير ورجائه العظيم في نسله المبارك الحسن السِّبط رضي الله عنه أن يصلح الله به فساد ذات البين الذي أعلمه الله بحدوثه في أمته بعد وفاته، كما أخرج ذلك البخاري رحمه الله من حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: "إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»(٥) .

---

(١) ابن أبي معيط القرشية الأموية، أخت عثمان بن عفان لأمه، وأخت الوليد بن عقبة، أسلمت بمكة قديما، وصلَّت إلى القبلتين، وهاجرت إلى المدينة ماشية، وفيها نزلت: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ...﴾ انظر أسد الغابة ٥/٦١٤، والإصابة ٤/٤٦١ .

(٢) أخرجه البخاري فيما سبق، باب ليس الكذب الذي يصلح بين الناس ٣/٢٤٠، ومسلم في البر والصلة، باب تحريم الكذب وبيان المباح منه برقم ٢٦٠٥ .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة باب رقم ٥٦، برقم ٢٥٠٨ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقال عنه: صحيح غريب من هذا الوجه .

(٤) جامع الأصول لابن الأثير ٦/٦٦٨ .

(٥) أخرجه البخاري في الصلح، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للحسن بن علي: ابني هذا ... ٣/٢٤٣.

و - ولقد بين عليه الصلاة والسلام ما للصلح من أجر عظيم بقوله: "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة"(١) .

ولكن إنما يكون الصلح محمودا ومثاباً فاعله إذا كان في حدود ما أحلَّ الله تعالى كما في جميع الصور والأمثلة المتقدمة.

أما إذا كان الصلح يحرم حلالا أو يحلل حراما فإنَّه لا يكون آخذاً حكم ما سبق بيانه من الأجر والمثوبة، ويكون من مكارم الأخلاق التي ندب إليها الإسلام، بل إنه غير جائز ولا نافذ، لقوله صلى الله عليه وسلم: "الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو حلل حراما، والمسلمون على شروطهم إلا شرطا حرم حلالا أو حلل حراما"(٢) .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب في إصلاح ذات البين برقم ٤٩١٩، والترمذي في صفة القيامة، باب رقم ٥٦، برقم ٢٥٠٩ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال عنه: حديث صحيح .

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية، باب في الصلح برقم ٣٥٩٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والترمذي في الأحكام، باب ما ذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلح بين الناس برقم ١٣٥٢ من حديث كثير بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده وقال: حسن صحيح، وانظر الإرواء ٢٥١/٥ .

الباب الخامس

الأخلاق القرآنية المتعلقة بالنبوة والإمامة
والتطبيقات النبيوية لها

وفيه خمسة فصول:

١ ـ الأخلاق الواجبة للنبوة .

٢ ـ أخلاق البلاغ والدعوة .

٣ ـ الأخلاق العلمية .

٤ ـ أخلاق الإمامة .

٥ ـ أخلاق القيادة .

تمهـــيد:

لقد علمنا ـ فيما سبق ـ أن من دلائل نبوته صلى ا الله عليه وسلم وأعلامها؛ شرف أخلاقه صلى ا الله عليه وسلم وكمال فضائله وشمائله، فقد كان عليه الصلاة والسلام جامعا لمكارم الأخلاق على وجه الكمال، بحيث لم يتخلف عنه خلق كريم، ولا تغير له خلق عظيم منذ حداثته ، وكأن المكارم الخُلقيه كلها قد نظمت فى عقد واحد تحلى بها فى حياته البشرية المتوجة بتاج النبوة الخاتمة، وكلها كانت متناسقة لا تتعارض ولا تتضارب ، ولا يطغى واحد منها على غيره خاصة بعد أن شرفه ا الله بالرسالة العامة إلى أن لقي ا الله تعالى وهو على ذلك الكمال الخلقى.

ولا ريب أن هذا من أدل الدلائل على نبوته صلى ا الله عليه وسلم، لأنه ما من أحد يبرز فيه جانب من جوانب الأخلاق الكريمه، إلا وفقدت منه جوانب أخرى كثيرة، ومابرز فيه من ذلك لا يكمل أبدا، إذ لا بد وأن تحصل له زلة أو تقع منه هفوة، تخل بما برز منه من خلق، فإنه كما قيل لكل جواد كبوة، ولكل قلم نبوة، ولكل عالم هفوة.

أما نبينا سيدنا محمد بن عبدا لله صلوات ا الله وسلامه عليه فقد كان فى ذروة الكمال الخلقى وتمامه،لم يغب عنه خلق كريم ، ولا عيب عليه خلق ذميم ، ولم تؤثر عنه زلة ولا عرفت له كبوة، مع كثرة المتربصين لذلك حتى استحق أن يصفه ا الله تعالى بالخلق العظيم ويؤكد ذلك بمؤكدات بلاغية كثيرة ، لزيادة تقريره(١). فى أنفس السامعين والتالين إلى يوم الدين ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ .. وإنَّك لعلى خُلُق عظيم ﴾[سورة القلم:٤] وكان ذلك في بداية تنزل الوحي، فإن هذه السورة من أوائل السور تنزلا عليه صلى ا الله عليه وسلم،مما يدل على أن عظمة أخلاقه صلى ا الله عليه وسلم قد كانت معلومة من قبل البعثة ، وهو ما دل عليه تاريخ نشأته فى كتب السير ، وقد تجلت لنا مظاهر عظمة خلقه صلى ا الله عليه وسلم فى كل المباحث التى تقدمت ، ويقي مالم يأت بحثها بعد.

ومما لم يتقدم من عظيم أخلاقه ، صلى ا الله عليه وسلم : الأخلاق المتعلقه بجانب النبوة العظيمة والإمامة العظمى التى قرر أهل العلم وجوب توفرها في الأنبياء ، ويجب

---

(١) هي القسم و"إن"، ولام التوكيد، والجملة الاسمية، وتقدم تقرير ذلك في أول الرسالة ص٥٧ .

اعتقادها فيهم ، ويجب تبرئتهم مما يناقضها، وهي: الأمانة، والعصمة، والصدق، والتبليغ، والفطانة، كما قال الناظم :

وواجب في حقهم الامانة   والصدق والتبليغ والفطانة

لأن هذه الأخلاق ، تمس جانب الرسالة المناطة بهم مسًّا مباشرا ، والطعن فيهم بهذه الأخلاق ، يعنى عدم الإيمان بهم ، أو عدم تصديقهم وذلك كفر بهم، وبما أرسلوا به من عند الله تعالى ، فإن الله لم يصطف من البشر رسولا إلا كامل الخَلْق والخُلُق،وعظيم الحسب والنسب معروفا فى أوساط قومه بذلك ، ليكون أدعى لتصديقه ، وأبعد عن أن يعير بنقص .

وسأبحث هذه الأمور من جوانبها الأخلاقيه (١) لأبين ما كانوا عليه من الكمال فيها ولاسيما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إمام الأنبياء وخاتم المرسلين.

---

(١) إلا الأمانة فإنه قد مر بحثها في الباب الثالث مستوفاة ص٥١٥-٥٣٢ فلم أر إعادة الحديث عنها هنا، مكتفيا بهذه الإشارة ليعيد القارىء نظره إليها في موضع بحثها حيث اقتضت المناسبة ذكرها هناك .

الفصل الأول

الأخــــلاق الــــواجـــبـة للنبــوة

وفيه أربعة مباحث:

١ ـ العصمة .

٢ ـ الصدق .

٣ ـ التبليغ .

٤ ـ الفطانة .

المبحث الأول

(العصمة)

العصمة في اللغة:المنع ، قال ابن فارس في معجمه(١) مادة (عصم) : "العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة ، والمعنى في ذلك كله معنى واحد، ومن ذلك العصمة: أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه ، قال: واعتصم العبد بالله اذا امتنع ، واستعصم: التجأ.."

وقال الجوهري في صحاحه (٢) " العصمة : المنع ، يقال: عصمه الطعام أى منعه من الجوع .. قال: والعصمة الحفظ ، يقال عصمته فانعصم ، واعتصمت بالله تعالى إذا امتنعت بلطفه من المعصيه" .

وفى الاصطلاح: "هي ملكة اجتناب المعاصى مع التمكن منها"(٣).

وهذا تعريف لها من حيث هي ، وأما بالنظر لمن تحلى بها وهم الأنبياء والرسل فتعريفها فى مقامهم بما قاله الراغب في المفردات (٤) : "وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولا بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسيه ، ثم بالنصرة وبتثبيت أقدامهم ، ثم بإنزال السكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم، وبالتوفيق".

وقال غيره (٥) : هى "اتصافهم بحفظ الله سبحانه ظواهرهم وبواطنهم ولو فى حال الصغر من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة".

وإذا كانت العصمة تعنى حفظ الله تعالى لأنبيائه عن مواقعة الذنوب الظاهرة والباطنه فذلك يعني أن العناية الإلهية لم تنفك عنهم فى كل أطوار حياتهم قبل النبوة وبعدها ،

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٤/٣٣٢ .

(٢) الصحاح ٥/ ١٩٨٦ .

(٣) التعريفات للجرجاني ص ١٥٠، وأنيس الفقهاء لقاسم القونوي ص ١٧٩ .

(٤) ص٣٣٧.

(٥) هو عبد السلام بن إبراهيم المالكي في شرحه على جوهرة التوحيد ص ١١٤ بحاشية الأمير .

على ماهو المعتمد كما سيأتى تحقيقه ، فهي محيطة بهم تحرسهم من الوقوع في منهي عنه شرعا أو عقلا ، وصدق القائل حين قال :

واذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وهذا ماظهر أثره في الخارج ، فقد كان أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام محفوظي الظواهر والبواطن من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة أو خلاف الأولى (١) ، كما قاله بعضهم ، يعنى من غير أن ينبهوا عليه فيتوبوا منه.

فهم محفوظون ظاهرا من الزنا وشرب الخمر والكذب والسرقة، وغير ذلك من المنهيات المستقبحات فى الخارج،ومحفوظون فى الباطن من الحسد والكبر والرياء وغير ذلك من منهيات الباطن(٢).

فلم تعرف لهم زلة،ولا سجلت لهم هفوة فى مجتمعاتهم المليئة بالشحناء والعداوة والبغضاء لهم، ولو أن أعداءهم علموا من ذلك شيئا لطاروا به فرحا ، ليدفنوا ماذاع لهم من مكارم الأخلاق وصالح القول والعمل،كشأن الغوغائيين الذين قال فيهم الشاعر :

إن يسمعوا زلة طاروا بها فرحا منّى وماعلموا من صالح دفنوا
صم إذا سمعوا خيرا ذكرت به وإن ذكرت بسوء عندهم أذن

فقد كانوا فى غاية التربص لتصيد عثراتهم إن وجدوها ، فلمّا أعياهم البحث والانتظار ويئسوا من العثور على شيء من ذلك ، طفقوا يفترون الكذب ، ويقولون الزور ، فيرمونهم بالسحر تارة ، والكهانة أخرى ، والجنون حينا والافتراء حينا آخر ، وغير ذلك بما طاب لهم التفوه به مما سجله عليهم القرآن وحفظه التأريخ ، ولكن سرعان ما كان يكذبهم الواقع ، والمنصفون الذين تتأبّى الحقيقة إلا أن تسود فيهم،فتبور أقوالهم وترجع عليهم بالخزى والعار، ويبقى جانب الأنبياء مصونا بالعصمة الإلهية والعناية الربانية، ليكونوا أطهارا أتقياء قادة الخلق إلى مكارم الأخلاق وصلاح النيات والأقوال والأفعال.

---

(١) انظر إتحاف المريد بحاشية الأمير ص١١٤، وتحفة المريد على جوهرة التوحيد للباجوري ص ٧٥ .

(٢) المرجعين السابقين .

وماكان لهم بذلك من يد لولا العصمة الربانيه التى أحاطت بهم ، فمنعتهم من الوقوع فيما لا يحمد مما يكون منفرا للناس عن اتباعهم إلى مايدعونهم إليه من الدين والأخلاق الفاضله ، هذا وللعلماء كلام طويل ، وتفصيل مستطيل حول العصمة التى رعى الله تعالى بها رسله سنوجزه فى الآتى :

١ - مواضع العصمة :

والعصمة التى أوجبها الله تعالى لرسله عليهم الصلاة والسلام تتعلق بالاعتقادات والتبليغ ، والأقوال ، والأفعال. فقد عصمهم الله تعالى من الوقوع فى محظور في هذه الأمور حتى أدوا رسالتهم ولحقوا ببارئهم جل وعلا.

أما الأمور الاعتقاديه. فقد أجمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة قبل البعثة وبعدها، كما حكى ذلك الفخر الرازى والقاضى عياض وغيرهما (١).

فقد قال القاضى عياض(٢): فى حُكم عقد قلب النبي صلى الله عليه وسلم من وقت نبوته : "اعلم منحنا الله واياك توفيقه أن ما تعلق منه بطريق التوحيد والعلم بالله وصفاته والإيمان به وبما أوحي اليه ، فعلى غاية(٣) المعرفه ووضوح العلم واليقين ، والانتفاء عن الجهل بشيء من ذلك أو الشك أو الريب فيه ، والعصمةِ (٤) من كل ما يضاد المعرفة بذلك واليقين ، هذا ما وقع إجماع المسلمين عليه ، ولا يصح بالبراهين الواضحة أن يكون فى عقود(٥) الأنبياء سواه".

وقال فى فصل آخر : "وأما عصمتهم من هذا الفن (٦) قبل النبوة فللناس فيه خلاف

---

(١) عصمة الأنبياء ص ٣٩، والشفاء ص ٢٣٠ .

(٢) فى كتابه الشفاء ٢/٢٣٠ .

(٣) أي: فهم على غاية المعرفة .

(٤) بالجر عطف على المعرفة، أي: هم على غاية العصمة من كل ما يضاد المعرفة .

(٥) أي: عقائدهم التي ارتبطت عليها قلوبهم،ا.هـ نسيم الرياض ٤/٣،٣ .

(٦) أي: اعتقاد ما لا يليق بالتوحيد والعلم بالله وصفاته وبما أوحي إليه من أمور الدين، نسيم الرياض ٤/٣٨.

والصواب أنهم معصومون قبل النبوة من الجهل با لله وصفاته ، والتشكيك فى شىء من ذلك، قال: وقد تعاضدت الأخبار والأثار عن الأنبياء ، بتنزيههم فى هذه النقيصه منذ ولدوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة ... و لم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحدا نُبِّئ واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل، قال : وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عمن كانت هذه سبيله، ـ قال القاضى ـ : وأنا أقول:إان قريشا قد رَمت نبينا بكل ما افترته، وعيَّر كفار الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته مما نص ا لله تعالى عليه ، أو نقلته إلينا الرواة، و لم نجد فى شيء من ذلك تعييراً لواحد منهم برفضه آلهته ، وتقريعه بذمه بترك ماكان قد جامعهم عليه ، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين، وبتلونه فى معبوده محتجين ، ولَكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبل أفظع وأقطع فى الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آباءهم من قبل ، ففى إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلا إليه ، إذ لو كان لَنُقِل، وماسكتوا عنه كما لم يسكتوا عن تحويل القبله وقالوا: ﴿ ماولَّاهم عن قبلتِهم الَّتى كانوا عليها ﴾[سورة البقرة:١٤٢] كما حكاه ا لله عنهم) (١).

٢ – أما عصمتهم عما يخل بواجب التبليغ :

"فقد أجمعوا على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة فى هذا الباب لا بالعمد ولا بالسهو، وإلا لم يبق الاعتماد على شيء من الشرائع"(٢).

قال فى الشفاء (٣) : "وأما أقواله صلى ا لله عليه وسلم فقد قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من

---

(١) الشفاء ٢٥٧/٢ .

(٢) عصمة الأنبياء ص ٣٩، وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٨٩/١٠ .

(٣) ٢٨٥/٢-٢٨٧ .

الأخبار من شيء منها بخلاف ما هو به (١)، لا قصدا ولا عمدا، ولا سهوا ولا غلطا"ا.هـ، والكلام ليس خاصا بالنبي صلى ا لله عليه وسلم بل وغيره من الأنبياء كذلك، إذ لا فرق بينهم فى واجب التبليغ".

واستدل القاضى على ذلك بحديث عبدا لله بن عمرو بن العاص رضي ا لله عنه قال : "كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أريد حِفظه ، فنهتنى قريش ، وقالوا : أتكتب كل شيء تسمعه ؟ ورسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بشر يتكلم فى الغضب والرضى ؟! قال : فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فأومأ بأصبعه إلى فيه ، فقال : "اكتب فوالذى نفسى بيده مايخرج منه إلا حق"(٢).

ثم قال « فإذا قامت المعجزة على صدقه وأنه لا يقول إلا حقا ، ولا يبلغ عن ا لله تعالى إلا صدقا، وأن المعجزة قائمة مقام قول ا لله له : صدقتَ فيما تذكر عنّي ، وهو يقول : إنى رسول ا لله إليكم لأُبلغكم ما أرسلت به اليكم،وأبين لكم مانزل عليكم ﴿ وما يَنطق عن الهوىَ إنْ هُو الاَّ وحيٌ يُوحى ﴾[سورة النجم : ٣،٤] ﴿ قد جاءكم الرَّسول بالحق من ربكم ﴾[سورة النساء :١٧٠] ﴿ وما آتاكم الرَّسولُ فخذُوه وما نهاكم عنه فانتَهوا ﴾[سورة الحشر : ٧] قال: فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف مخبره على أي وجه كان، قال : فلو جوَّزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره، ولاختلط الحق بالباطل، فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص ، فتنزيه النبي صلى ا لله عليه وسلم عن ذلك كله واجب برهانا واجماعا..»(٣) اهـ .

---

(١) أي: بخلاف الواقع .

(٢) أخرجه أبو داود في العلم، باب في كتاب العلم برقم ٣٦٤٦ بنحوه، والدارمي ١/١٢٥، وأحمد ٢/١٦٢، ١٩٢، والحاكم ١/١٠٥،١٠٦، وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ١/٧١، ورواة الحديث قد احتج بهم الشيخان غير أحدهم فاحتجّ به مسلم. انظر السلسلة الصحية للألباني رقم ١٥٣٢ .

(٣) وانظر مزيدا من أقوال أهل العلم هنا في آيات عتاب المصطفى ص ٤٢-٤٥ .

ومن هذا الباب ما كان من باب الفتوى فى أحكام الشرع ، فقد أجمعوا على أنه لا يجوز عليهم تعمد الخطأ فيما كان هذا سبيله ، أما سهوا ، فإنه محل خلاف(١) ، ومن جوزه عقلا ، فانه لا يجد له مثالا نقلا.

٣ – عصمتهم فى أقوالهم مما هو ليس من باب البلاغ :

وأما عصمتهم فى أقوالهم مما ليس هو من باب البلاغ ، مما كان فى أمور الدنيا وأحوال أنفسهم الشريفه صلى ا لله وسلم عليهم أجمعين :

فقد حكى القاضى عياض اتفاق السلف وإجماعهم على أنه لا يصدر عنه صلى ا لله عليه وسلم خبر بخلاف إخباره عنه قال :

"وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعادتهم مبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله والثقة بجميع أخباره فى أي باب كانت ، وعن أي شيء وقعت، وأنه لم يكن بهم توقف ولا تردد فى شيء منها ، ولا استثبات عن حاله عند ذلك هل وقع فيه سهو أم لا .." (٢).

واستدل على ذلك بما جرى لسيدنا عمر رضى ا لله عنه مع ابن أبى حَقِيق اليهودى حين أجلاهم من خيبر حيث احتج عليه عمر رضى ا لله عنه بقوله صلى ا لله عليه وسلم : "كيف بك إذا أخرجت من خيبر ؟" فقال اليهودى : كانت هذه هُزَيلة(٣) من أبى القاسم ـ صلى ا لله عليه وسلم ـ فقال له عمر : كذبت يا عدو ا لله ! فأجلاهم عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعروضا من أقتاب وحبال وغير ذلك"(٤). قال القاضى : "وأيضا فإن أخباره وآثاره وسيره وشمائله معتنى بها مستقصى تفاصيلها، ولم يرو فى شيء منها استدراكه صلى ا لله عليه وسلم لغلط فى قول قاله ، أو اعترافه بوهم فى شيء أخبر به.

---

(١) عصمة الأنبياء ص ٣٩ .

(٢) الشفاء ٢/٣١١،٣١٢، وشرحه نسيم الرياض للخفاجي والقاري ٤/١١١ .

(٣) تصغير هزلة، وهي المرة الواحدة من الهزل ضد الجد .

(٤) أخرجه البخاري في الشروط، باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئت أخرجتك ٣/٢٥٢ .

قال : ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصته عليه الصلاة والسلام عما أشار بـه علـى الأنصار فى تلقيح النخل(١) وكان ذلك رأيا لاخبرا" يعنى فـلا يدخلـه الصـدق والكـذب "وأيضا فإن الكذب متى عرف من أحد فى شيء مـن الأخبـار بخـلاف مـا هـو علـى أي وجه كان ، استريب بخبره واتهم فى حديثـه ، ولم يقـع قولـه فـى النفـوس موقعـا" إلى أن قال: "فانقطع عـن يقين بأنه لايجوز على الأنبياء خلف فى القول فـى وجـه مـن الوجـوه لابقصد ولا بغير قصد ، ولا تسامح فى تجويز ذلك عليهم حال السهو فيما ليـس طريقـه البلاغ"(٢) ا.هـ. قلت: وهذا الذى ندين ا لله تعالى به في أخبار النبي صلى ا لله عليه وسلم فقد كانت أقواله صلى ا لله عليه وسلم وأفعاله كلها تشريع ، تقتضى المتابعـة والاقتـداء ، إلا ما ورد الدليل فيها على التخصيص أو النسخ أو التوقيت بالعين أو الزمن ، ولا يكـون لها ذلك الوصف التشريعي إلا بالقول بوجب العصمه للنبي صلى ا لله عليه وسلم فيها ،

٤ – عصمتهم فيما يتعلق بالجوارح:

وأما عصمتهم فيما يتعلق بالجوارح من الأعمال والأقوال. فقـد أجمـع المسـلمون علـى عصمتهم من الفواحش والكبائر والموبقات ومن كل رذيلة فيها شين ونقص .

وأما الصغائر فجوزها جماعة من السلف وغـيرهم مـن الفقهـاء والمحدثـين والمتكلمـين ، ومنعها أخرون من محققى الفقهاء والمتكلمين(٣) .

---

(١) يشير إلى ما أخرجه مسلم في الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله النبي صلى ا لله عليه وسلم شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي برقم ٢٣٦٣ من حديث أنس وعائشـة رضـي ا لله عنهمـا أن النبي صلى ا لله عليه وسلم مر بقوم يلقّحون، فقال: لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخـرج شِيصا – يعـني تمـرا رديئا - فمر بهم فقال: ما لنخلكم ؟ فقالوا: قلت: كذا وكذا، فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم، وفي روايـة قال: إني إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن ا لله بشيء فخذوا به، فإني لسـت أكذب على ا لله).

أخرجها مسلم من رواية طلحة بن عبيد ا لله رضي ا لله عنه برقم ٢٣٦١ .

(٢) الشفاء ٣١٢/٢-٣١٥ .

(٣) الشفاء ٣٢٧/٢،٣٢٨، وتفسير القرطبي ٣٠٨/١ .

قال الفخر الرازى: "والذى نقول به إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فى زمان النبوة عن الكبائر والصغائر بالعمد، أما على سبيل السهو فهو جائز. قال : "ويدل على وجوب العصمة حجج خمس عشرة" ثم ساقها واحدة واحدة ، وهي حجج عقليه دامغة للمجيزين على رسل الله معصيتهم لله تعالى بصغائر الذنوب، ومن تلك الحجج قوله :

"لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم عاجلا والعقاب آجلا ، أشد من حال عصاة الأمة ، قال : وهذا باطل ، فصدور الذنب أيضا باطل ، بيان الملازمة : أن أعظم نعم الله على العباد ، هى نعمة الرسالة والنبوة ، وكل من كانت نعم الله تعالى عليه أكثر كان صدور الذنب عنه أفحش، وصريح العقل يدل عليه ، ثم استدل على ذلك من ثلاثة وجوه :

أحدها : دلالة قوله تعالى : ﴿ يا نساءَ النَّبِيِّ لستُنَّ كأحدٍ من النساء ﴾[سورة الأحزاب: ٣٢] وقوله سبحانه : ﴿ يا نساءَ النَّبِي من يأتِ مِنكُنَّ بفاحشةٍ مبيِّنةٍ يُضاعف لها العذابُ ضِعفين ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٠].

الثانى : أن المحصن يرجم وغيره يجلد.

الثالث : أن العبد يحد نصف حد الحر ، قال : فثبت بما ذكرنا أنه لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم العاجل والعقاب الآجل فوق حال جميع عصاة الأمة، إلا أن هذا باطل بالإجماع، فإن أحدا لا يجوز أن يقول : إن الرسول أحسن حالا عند الله وأقل منزلة من كل أحد ، وهذا يدل على عدم صدور الذنب عنهم"(١).

فالفخر الرازى كالقاضى عياض يقرران ثبوت العصمة للأنبياء حتى فى الصغيرة ، خلافا لمن أجازها من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين (٢) ، غير أن الفخر يستثنى من ذلك ما كان فى حال السهو ، بخلاف عياض فإنه يرى العصمة فى ذلك أيضا.

---

(١) عصمة الأنبياء ص ٤١ .

(٢) انظر جامع أحكام القرآن للقرطبي ٣٠٨/١ .

ولكن يتفق الجميع فى العصمة من الصغائر فيما إذا كانت الصغائر تؤدى إلى الخِسّة وإزالة الحشمة وإسقاط المروءة ، وتوجب الإزراء، فإن هذا مما يعصم عنه الأنبياء إجماعا كما قال القاضى عياض ، وكذا تكرار الصغائر وكثرتها ، حيث يلحقها ذلك بالكبائر الممنوعة إجماعا(١)، وقد تكفل القاضى وعياض والفخر الرازى بدفع الشبه التى وردت على عصمة الأنبياء من خلال نصوص القرآن والسنه ، وهي كثيرة يطول ذكرها ، لأن كل آية أو حديث استدل به المجوزون يقتضى الإجابة عنه ، فتكثر الإيرادات ، والإجابات ويحوج الحال إلى صفحات وصفحات. فينبغى أن تنظر هناك .

***

(١) انظر الشفاء ٢/٣٣٠ .

المبحث الثانى

(الصدق)

لقد تقدم فى الباب الثالث (١) تعريف الصدق لغة وشرعا ، حيث ذكر هناك بوصفه خلقا سلوكيا فرديا ، وتحلّى النبي صلى الله عليه وسلم به من حيث هو سلوك فردي ، وخلق فاضل كريم، وقد استفاض الحديث عنه هناك من هذه الحيثيه فقط.

ولكن كون الصدق خلقا واجبا لنبوته عليه الصلاة والسلام يستحيل تخليها عنه ، ويجب إثباته لها عقلا وشرعا، لم يبحث بعُد، وتقتضى المناسبة أن يبحث فى هذا الباب وهذا أوان ذكره، فأقول :

لقد وصف الله تعالى أنبياءه بالصدق على سبيل التعيين أو الإجمال فى غيرما آية من كتابه العزيز كقوله عن إدريس عليه السلام: ﴿ إنّه كان صدّيقاً نبيًا ﴾[سورة مريم : ٥٦] وقوله عن ابراهيم عليه السلام : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنّه كان صدّيقاً نبيا ﴾ [سورة مريم : ٤١] وقوله عن إسماعيل عليه السلام : ﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيلَ إنّه كان صادقَ الوعدِ وكان رسولًا نبيا ﴾[سورة مريم : ٥٤]،وقوله عن موسى عليه السلام:﴿ حقيقٌ على أن لا أقولَ على اللهِ إلّا الحق..﴾[سورة الأعراف: ١٠٥] وقوله عن يوسف عليه السلام : ﴿ يوسفُ أيّها الصّديق ﴾[سورة يوسف : ٤٦]،وقوله فيه : ﴿ وإنّه لمن الصّادقين ﴾ [سورة يوسف: ٥١] وقوله فى حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وصدقَ اللهُ ورسولُه ﴾[سورة الأحزاب : ٢٢] وقوله فى حقه أيضا : ﴿ فمن أظلمُ ممّن كذَب على اللهِ وكذّب بالصّدق إذ جاءه أليس فى جهنّمَ مثوىً للكافرين * والّذى جاءَبالصّدق وصدّق به أولئك هم المتّقون ﴾[سورة الزمر: ٣٢،٣٣] .

فسمّى ما جاء به من عند الله من أحكام شرعه، وأخبار رسله وخلقه، قرآنا أو سنة، سماه صِدقه،وذلك وصف له بالالتزام ، إذ لا يأتى بالصدق إلا صادق، وذلك مما لا جدال فيه ، حيث كان صدقه معلوما منذ حداثة سنه ، وشهد له بذلك أعداؤه قبل أصدقائه،

---

(١) ص ٣٨٩

فإن الأعداء من الكفرة والمشركين لم يكونوا يشكّون يوما فى صدقه كما قال ا لله تعالى: ﴿ فإنّهم لا يُكذّبونَك ولكنَّ الظالمينَ بآياتِ ا للهِ يَجحدون ﴾[سورة الأنعام ٣٣] وكما كانوا يشهدون له بذلك فى مواقف مختلفه ، تقدم ذكر بعضها، ومثل هذا الدليل الالتزامى قول ا لله تعالى فى حقه صلى ا لله عليه وسلم : ﴿ ولو تقوَّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لَقطعنا منه الوَتين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾[سورة الحاقة: ٤٤-٤٧] ، حيث دلل ا لله تعالى على صدق نبيه بدليل التمانع ، فقد امتنع أخذه سبحانه لنبيه صلى ا لله عليه وسلم بتلك الصفة ، لامتناع تقوله عليه ، وامتناع التقول عليه يعنى الصدق فيما يقول .

فالأية إذا تطمئن النفوس على صدق وأحقية ما جاء به محمد صلى ا لله عليه وسلم غاية الاطمئنان، إذ دلت على أن ا لله تعالى له بالمرصاد إن هو تقوَّل عليه ـ وحاشاه من ذلك ـ والواقع خلافه ، فإن ا لله تعالى مازال يؤيده بالمعجزات الدالة على صدقه ، وهي منَزَّلةٌ مَنزلة أن يقول الحق تبارك وتعالى: صدق عبدى فيمايبلِّغ عنى، إذ لولا صدقه لما أمره بها، كما يعلم من حال الكذابين من مدَّعي النُّبوةَ، وكما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ ويمحُ ا للهُ الباطلَ ويحقُّ الحقَّ بكلماتِه ﴾[سورة الشورى: ٢٤] (١).

ولكن لما كان ا لله تعالى يؤيد نبيه المصطفى صلى ا لله عليه وسلم بالمعجزات الباهرات، وينصره على عدوه المرة تلو الأخرى ، ويظهر دينه يوما بعد يوم ، دل ذلك على كمال صدقه صلى ا لله عليه وسلم فيما يبلغ عن ربه جل شأنه.

وقد أكد ا لله تعالى ذلك بأدلة أخرى كثيرة ، كقوله سبحانه: ﴿ والنجمِ إذا هَوى * ماضلَّ صاحُبكم وما غوى * وماينطقُ عن الهوَى * إن هو إلاَّ وحيٌ يوحى ﴾[سورة النجم : ١-٤]. فهذا قسم من ا لله جلا وعلا ، على أن ما ينطق به النبي صلى ا لله عليه وسلم هو وحي من ا لله تعالى لا مجال لمحمد صلى ا لله عليه وسلم فى أن يأتى به من عنده أو أن يتقوله عنه .

---

(١) انظر النبوة والأنبياء لابن تيمية ص ٢٢٨-٢٣٠ .

ولذلك كانت أقواله صلى ا لله عليه وسلم نصوصا شرعية لإقامة الدين ، وكذا أفعاله وتقريراته، فإن الصدق شامل لها، لأن الصدق كما يكون بالأقوال، يكون كذلك بالأفعال ، والأحوال كما تقدم بيانه (١).

وقد تبين برهان هذا القَسَم بالواقع العلمي حينما طلب مشركو مكة من النبي صلى ا لله عليه وسلم أن يأتيهم بقرآن غير الذى أتاهم به ، لايكون فيه عيب آلهتهم ، أو يبدله من تلقاء نفسه على ذلك الشرط ، ليقبلوا منه بعد ذلك دعوته للإيمان ، وهم بذلك يريدون أن يستلُوا مصداقيَّة الرسول صلى ا لله عليه وسلم ، ليحتجوا بذلك لأنفسهم على الكفر الذى هم عليه ، لعدم صدق صاحب الدعوة فيما يوحى به إليه حينئذ ، ولكن هيهات أن ينالوا شيئا من ذلك أو يجابوا إليه ، لأن صدق النبي صلى ا لله عليه وسلم حقيقة لاتتبدل ولاتقبل الجدال والنقاش . وقد قص ا لله تعالى علينا هذه المبادرة الخادعة الهزيلة بقوله جل ذكره: ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيِّنات قال الذين لايَرجونَ لقاءَنا ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله قل ما يكون لِي أن أبدِّله من تلقاءِ نفسى إن أتَّبعُ إلَّا ما يُوحى إليَّ إنِّى أخافُ إن عصيتُ ربِّى عذابَ يومٍ عظيم * قل لو شاءَ ا للهُ ما تلوتُه عليكم ولا أَدراكم به فقد لَبثتُ فيكم عُمُراً من قبله أفلا تَعقلون * فمن أظلمُ ممن افترى على ا للهِ كَذِباً أو كذَّب بأياتِه إنَّه لايُفلِح المجرمون ﴾[سورة يونس ١٥-١٧] .

فحاجَّهم النبي صلى ا لله عليه وسلم بما يعرفونه فيه من الصدق والأمانة منذ الصغر ، وقد لبث فيهم أربعين سنة وهو لايذكر لهم شيئا مما أتاه بعد ذلك من الهدى والنور ، فلو أنه كان يقدر على أن يأتى بشيء مما أتى به بعد ، لكان ظهر ذلك لهم منه أيام حداثة سِنّه وقوَّة جلَده ، ولكنه إن يتبع إلا ما يوحى إليه من ربه حين يوحى إليه، ثم بين لهم أن فعل مايريدونه منه هو من أقبح وأعظم الجور والجُرْم، ثم لايلبث أن يفتضح أمره للناس فيصير أضحوكة بينهم ، ولُعبة يهزأون به كما قال فى أية أخرى: ﴿ ومن أظلمُ ممَّن افترى على ا للهِ كَذبًا أو قال أُوحِيَ إليَّ ولم يوحَ إليه شيءٌ ومن قال سأُنزلُ مثلما أنزلَ ا لله ﴾[سورة الأنعام:٩٣] .

---

(١) انظر ص ٣٩٥

فقامت عليهم بذلك الحجة على كمال صدقه صلى الله عليه وسلم فيما ينسبه إلى الله تعالى من الوحى والرسالة، وكان عليهم حينئذ أن يذروا الجدال والمكابرة، ويذعنوا للحق الذى جاء به الصادق الأمين ، الذي يعرفون نسبه وصدقه وأمانته، كما قال أبو سفيان وهو رأس الكفر وعموده إذ ذاك لهرقل حينما سأله قائلا: "هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ماقال ؟ فقال له أبو سفيان: لا، ثم قال له هرقل: قد أعرف أنَّه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذبَ على الله تعالى"(١) .

فاعترف بالحق الذى لايقدر على أن يغالبه وهو على شركه وعدائه، وكما قال جعفر ابن أبى طالب للنجاشى رضي الله عنهما: "بعث الله فينا رسولا نعرف صدقه ونسبه وأمانته .."(٢) فهذه شهادات الحق التى لا تجرح .

فما كان عدم التصديق به بعد ذلك إلا محض كبر وعناد وجهالة ، فلذلك ناداهم الله تعالى نداء حاسما ، أن يتوبوا من غيهم ويُفيقوا من غفلتهم وجهالتهم ، ويذروا العناد والمكابرة التى هم عليها بعد أن وضح الحق لذى عينين وضوح الشمس فى رائعة النهار ، وقال لهم: ﴿ يا أيُّها النَّاس قد جاءَكم الرَّسولُ بالحقِّ من ربِّكم فآمِنوا خيراً لكم وإن تكفُروا فإنَّ لِله ما فى السمٰواتِ والأرضِ وكان الله عليماً حكيما ﴾[سورة النساء:١٧٠].

حيث بين الله تعالى بهذا النداء المفعم بالرأفة والرحمة أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى والنور هو الحق الذى بعثه به ، وأن الخير كله لهم أن يؤمنوا ويتابعوه فيما جاء به ودعاهم إليه، وأنهم إن أبوا ذلك فإن وبال إبائهم عائد عليهم بالخزى والنكال، أما هو سبحانه فلا يضره من ذلك شيء، فإن له مافى السموات والأرض مِلكا وخلقا وعبيدا ، وهو مع ذلك غني عنهم ، فلا تنفعه طاعة الطائعين كما لا تضره معصية العاصين.

---

(١) تقدم تخريجه ص٤٠٠.

(٢) تقدم تخريجه ص٩٢٤ وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤١٠ .

هذا وكم فى القرآن الكريم من الدلائل البّينة والشواهد الصادقه على صدق رُسُل ا الله تعالى عامة،وسيدنا محمد رسـول ا الله خاصـة، إضافـة إلى مـا تقـدم ذكـره وبيانـه، كقولـه سبحانه: ﴿ هذا ما وَعَد الرَّحمنُ وصدقَ المرسلون ﴾[سورة يس:٥٢] .

وقوله سبحانه بعد محاورته عيسى عليه السلام فى شأن عبـادة النصـارى لـه: ﴿..قـال ا اللهُ هذا يومُ ينفعُ الصَّادقين صدقُهم لهم جنَّاتٌ تجَرى من تحتِها الأنهارُ خـالدين فيهـا أبـدًا رضي ا اللهُ عنهم ورَضُوا عنه ذلك الفوزُ العظيم ﴾[سورة المائدة:١١٩] فهذه الدلائل الشرعية الناطقة بصدق أنبياء ا الله تعالى ورسله فيما يبلغونه عن ا الله تعالى من شرعه لعباده ، وفيما يحدثونهم به عنه سبحانه وتعالى وعـن جنتـه ونـاره ، ووعـده ووعيـده،وسـننه فـى خلقـه وكونه.

الدليل العقلى علـى صِـدق سيِّدنا محمـدٍ رسـول ا الله ورسـل ا الله عامـة صلـوات ا الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين:

وأما الدليل العقلي على وجوب صدقهم ،ووجوب اعتقاد ذلك فيهـم، فهـو أنهـم لـو كذبوا فى دعواهم الرسالة أو فيما يوحى ا الله به إليهم ، أو أن ينسبوا إليه ما لم يوح بـه، للزم الكذب فى خبره سبحانه وتعـالى ، لأن ا الله تعـالى صـدَّق رسـلَه بمثـل تلـك الأيـات المتلوة المتقدم بعضا منها ، وبالآيات الحسِّية وهي المعجزات الكثيرة التى أيَّدهم بها لتـدل أممهم وتقنعهم على صدقهم ، فإنَّ المعجزات تلك التى كان يظهرها ا الله تعالى على أيـدي رسله مُنَزَّلَةٌ منزلةَ قولِ ا الله تعالى للرسل إليهم: (إن رسولي صادق فى قوله ، بدليـل تـأييدى لـه بالمعجزات التى لا يقدر عليها أحد سواي).

فلو كان الرسل صلوات ا الله وسلامه عليهـم أجمعـين كـاذبين، وحـالهم مـن تـأييد ا الله تعالى ما ذكر ، لكان الكذب منصبا على المعجزات التـى أتـوا بهـا أيضـا (أي علـى مـا يعتبر خبرا عن ا الله تعالى بتصديق رسله) والكذب فـى خـبر ا الله تعـالى محـال ، لأن خـبره تعالى إنما يكون على وفق علمه ، والخبر على وفق العلم لا يكون إلا صدقـا،فخـبره تعـالى لايكون إلا صدقا ، فدل ذلك على استحالة كذب المبلغين عنه من رسله ، وثبت بذلك

صدقهم(١) .

فهذا هو الدليل العقلى المقنع على صدق رسل الله تعالى فيما يبلغونه عن الله تعالى.

الدليل الخارجى على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة والمرسلين عامة:

أما الدليل الخارجى على صدقهم ، فهو شهادة الواقع لهم بذلك، حيث إن ما أخبروا به من مغيبات مما أطلعهم الله تعالى عليها،أو أنزله عليهم ليبلغوه عباده،فما ظهر منها كان على وفق ما أخبروا به ، من إنجاز العذاب على المكذبين لمّا حل أجله فيهم ، ومن إظهارهم على أعدائهم، ومن إقامة دين الله تعالى فى أرضه، ومن غلبة الروم على الفرس، وفتح مكة،ونصرة دين الله تعالى،وإفاضة المال، واستتباب الأمن، وأمر الخلافة بعده صلى الله عليه وسلم، وأمر الفتوح التى وعد بها النبي صلى الله عليه وسلم، وركوب أمته البحر غازين فى سبيله، واستشهاد من استشهد منهم فيه ، وظهور الكذابين بعده، إلى غير ذلك مما ينوء بها الحصر هنا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم،والتى دون فيها حفّاظ الأمة وجهابيذها الأسفار الكبار فيرجع إليها من أراد استقصاء ذلك أو الاطلاع عليها(٢) .

وأما التطبيقات النبوية لها فقد تقدمت فى الباب الثالث (٣) ، فإعادتها هنا تكرار لا داعى له ، فتنظر هناك.

---

(١) انظر شرح أم البراهين للدسوقي ص ١٧٦، وعقيدة المؤمن للجزائري ص٢٧٢، والعقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة الميداني ص ١١٣، والشفاء للقاضي عياض ٢٨٥/٢ - ٢٨٧ وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٦ .

(٢) وذلك كدلائل النبوة للبيهقي ت ٤٥٨ يقع في سبعةمجلدات، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ت ٤٣٠ ويقع في مجلد، ودلائل النبوة لاسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني ت ٥٣٥ ويقع في مجلد، ودلائل النبوة للفريابي ت ٣٠١ ويقع في جزء، وكأعلام النبوة للماوردي ت ٤٥٠، إلى غير ذلك من كتب الحديث من جوامع ومسانيد وسنن/وشمائل التي تتضمن من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم على الشيء الكثير .

(٣) ص٣٩٨

المبحث الثَّالث

(التَّبليغ)

التبليغ مصدر بلَّغ يبلغ: إذا أوصل الأمر منتهاه .

لأن البلوغ ، والبلاغ فى اللغة: الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى ، مكانا كان أو زمانا أو أمرا من الأمور المقدرة ، فلفظ البلاغ والتبليغ يعنى إيصال الأمر المراد تبليغه إلى منتهاه ومنه قوله تعالى: ﴿ هذا بلاغٌ للنَّاس ﴾[سورة ابراهيم ٥٢] وقوله سبحانه: ﴿..بلاغٌ فهل يُهلَك إلا القومُ الفاسقون ﴾[سورة الأحقاف : ٣٥] .

وإبلاغ الوحي فى الشرع: أن يوصل الرسول ما أمره الله تعالى بإيصاله إلى من أرسل إليهم(١) .

مكانة هذا الخلق فى الأخلاق الواجبة للنبوة:

إن مهمة الرسل الأولى التى كلفهم الله تعالى بها إلى الأمم ليخرجوهم من الظلمات إلى النور، هى التبليغ الذى أوجبه الله تعالى عليهم بمقتضى اصطفائهم للرسالة التى حملهم إياها ، فيجب عليهم التبليغ ويستحيل عليهم الكتمان، ويجب على المسلمين اعتقاد ذلك فيهم، تصديقا لشهادة الله تعالى لهم بذلك كما سيأتى بيانه، وللإجماع المتقدم ذكره على عصمتهم من كتمان الرسالة كما تقدم تقريره.

الدليل على وجوب التبليغ عليهم :

قالوا: والدليل على وجوب التبليغ عليهم هو النقل والعقل، أما النقل فهو ماصرحت به الآيات الكثيرة التى تحدثت عن بلاغ المرسلين كقوله تعالى: ﴿ فهل على الرُّسُلِ إلاَّ البلاغُ المبين ﴾[سورة النحل:٣٥] أى ليس عليهم إلا ذلك، وهذا قصر لواجب الرسالة التى حملوها، وكقوله: ﴿ فإن توليتم فاعلموا أنَّما على رسولِنا البلاغُ المبين ﴾[سورة المائدة:٩٢].

وأما العقل ، فهو أنهم لو كتموا شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق لكنا مأمورين بكتمان العلم، لأن الله تعالى أمرنا بالاقتداء بهم ، وكوننا مأمورين بكتمان العلم باطل، فكتمانهم

---

(١) مختار الصحاح ص ٦٣، والمفردات للراغب ص ٦٠ .

شيئا مما أمروا بتبليغه للخلق يكون باطلا، فثبت لهم التبليغ، واستحال عليهم الكتمان لشيء مما أمروا بتبليغه(١)، ويؤيد هذا الدليل العقلي ما أخذه الله تعالى من العهد على العلماء من بيان العلم وعدم كتمانه الدال عليه قوله تعالى: ﴿ إنَّ الذين يكتُمون ما أَنزلنا من البيناتِ والهُدى من بعدِ ما بيّناه للنَّاسِ في الكتاب أولئِك يلعنُهم اللهُ ويلعنُهم اللاعنون ﴾[سورة البقرة:١٥٩] .

وقد قام رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم بواجب ذلك البلاغ أكمل قيام ، حيث بلَّغوا كل صغيرة وكبيرة ليلا ونهارا،لايفترون عن ذلك ولايملُّون، حتى قامت الحجة على أقوامهم فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة .

بذلهم الوسع في البلاغ وتحملهم لتبعاته:

وقد كانوا ينالون من جراء ذلك الشدة الشديدة والإيذاء البليغ ، وذلك لما هم عليه من الرحمة بأممهم والشفقة بهم،لعلمهم بما سيحيق بهم من العذاب إن أعرضوا عن قبول ما بلّغوه عن الله تعالى جل جلاله، فكان كل واحد يبذل جهده،ويتفانى في إقناع قومه بقبول ما أمر بتبليغه إليهم، ويتلطف لهم بالخطاب ليقبلوا ما جاؤوا به من عند الله تعالى، كما حكى الله تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ قال ياقومِ ليس بي ضلالةٌ ولكنّي رسول من ربِّ العالمين * أبلِّغُكم رسالاتِ ربّي وأنصحُ لكم وأعلمُ من اللهِ ما لا تَعلَمون ﴾ [سورة الأعراف:٦١،٦٢] وكما قال هود لقومه أهل عاد: ﴿..ياقومِ ليس بي سفاهةٌ ولكنّي رسولٌ من ربِّ العالمين * أبلّغكم رسالاتِ ربّي وأنا لكم ناصِحٌ أمين﴾[سورة الأعراف:٦٧،٦٨] إلى غير ذلك من الآيات الداله على التلطف بالبلاغ وكمال الرحمة بالمبلَّغين، فكانوا غير مقتصرين على مجرد البلاغ الواجب عليهم فقط،

بل إنهم كانوا يتفانون في النصيحة لأقوامهم بقبوله فيجادلونهم ويحاورونهم بالتي هي أحسن حتى يقبلوا أو ييأسوا من ذلك ، فعندئذ لايسعهم إلا أن يقولوا ﴿وما عَلينا إلا

---

(١) انظر شرح أم البراهين للدسوقي ص ١٨٤ مع الحاشية، وتحفة المريد للباجوري ص ٧٦، ومع رسل الله وكتبه واليوم الآخر لحسن أيوب ص ٥٥،٥٦ .

البلاغ المبين ﴾[سورة يس:١٧] كما قال هود عليه السلام لما يئس من قوم عاد عن قبول رسالة الله: ﴿قال إنَّما العلمُ عندَ الله وأبلِّغكم ما أُرسلتُ به ولكنِّي أراكم قومًا تجهلون﴾ [سورة الأحقاف:٢٣] وقال أيضا: ﴿ فإن تولَّوا فقد أَبلغتُكم ما أرسلتُ به إليكم ويستخلفُ ربي قوما غيرَكم ولا تَضرُّونه شيئًا إنَّ ربي على كل شيءٍ حفيظ ﴾[سورة هود:٥٧] .

وكما قال صالح عليه السلام: ﴿ يا قوم لقد أبلغتُكم رسالةَ ربّي ونصحتُ لكم ولكن لاتُحبّون النّاصحين ﴾[سورة الأعراف:٧٩] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أسفهم على أقوامهم لمّا لم يقبلوا البلاغ والنصح منهم مما يدل على عظيم رأفتهم بأقوامهم وحنانهم عليهم فبلغوا جاهدين ، ولكنهم بعدئذ لم يسعهم إلا التسليم بما قضاه الله عليهم من النكال لما لم يقبلوا شرعه ويتبعوا رسله، وما كان عليهم شيء لو أنهم اكتفوا بإبلاغ رسالات الله تعالى من غير بذل جهد في الجدال والحوار والنصيحة ، فإن ذلك هو ما افترضه الله عليهم لاغير، كما قال سبحانه: ﴿ فهل على الرُّسل إلاَّ البلاغُ المبين ﴾[سورة النحل:٣٥] .

ولكنهم عليهم الصلاة والسلام ذوو رحمة ورأفة لا يبالون بالتضحيه إذا علموا أن فيها نفعا للأمة كُلًّا أو بعضا.

تمثل خلق البلاغ
فى النبي صلى ا لله عليه وسلم

لقد كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم خاتم عقد الرسالات الإلهيه التى تحملت عن ا لله وحيه إلى الخلق ليقوموا بواجبهم نحوه فى الاعتقاد والعبادة وعمارة الأرض، على النحو الذى ارتضاه فى شرعه المطهر : الاسلام الحنيف .

فكان على النبي صلى ا لله عليه وسلم حينئذ ما على المرسلين أجمعين من البلاغ المبين عن ا لله رب العالمين، وكان عليه من ذلك ما هو أكبر حظا وأكثر جهدا ، نظرا لشموليّة رسالته ودوامها،فاقتضى منه ذلك أن يوجَّه إليه خطاب خاص يلزمه بالبلاغ،زائدا عن الخطاب العام المستفاد من مقتضى الرسالة فقال ا لله تعالى: ﴿ ياأيُّها الرَّسولُ بلِّغ ماأُنزلَ إليك من ربِّك وإن لم تَفعل فما بلَّغت رسالتَه وا للهُ يعَصمُك من الناس ﴾[سورة المائدة:٦٧] وذلك ليقوم بواجب البلاغ على أكمل وجه وأتمه،فلا يتوانى ولايقصر ولايفرط وإن كلفه ذلك ماكلفه ، والمعنى: (إن لم تبلغ القرآن أو ما أوحيت به إليك، أو شيئا مما حُمِّلته، تكن فى حكم من لم يبلغ شيئا من رسالته؛ لأن حكم الأنبياء وتكليفاتهم أشد ، وليس حكمهم كحكم سائر الناس الذين يُتجافى عنهم إذا خلطوا عملا صالحا وأخر سيئا)(١) .

ولاريب بأن النبي صلى ا لله عليه وسلم قد كان قائما بذلك الواجب على أكمل وجه من يوم أن كلفه ا لله تعالى بالرسالة ، وأن هذا الخطاب إنما هو من باب قوله تعالى: ﴿ياأيُّها الذين آمَنوا آمِنوا با للهِ ورسولِه ..﴾[سورة النساء: ١٣٦] أى دوموا على الإيمان واثبتوا عليه ، فهو أمر للتأكيد لا للتأسيس؛ لأن الأيمان ثابت لهم بدليل وصفهم به، وكذالك حال النبي صلى ا لله عليه وسلم فى البلاغ ، والدليل على ذلك "أن هذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، لأن سورة المائدة من أواخر السور نزولا ، وقد بلَّغ الرسول

---

(١) المفردات للراغب ص ٦٠ بتصرف يسير .

الرسول صلى ا لله عليه وسلم الشريعة وجميع ما أنزل إليه إلى يوم نزولها"(١) فدل ذلك على أن المراد به طلب الدوام "وأن ا لله تعالى أراد به قطع تخرص من قد يزعمون أن الرسول قد استبقى شيئا لم يبلغه ، أو أنه قد خص بعض الناس بإبلاغ شيء من الوحي لم يبلغه للناس ، كما تزعم الروافض لأنه لوترك شيئا منه لم يبلغه لكان ذلك مما أنزل عليه و لم يقع تبليغه"(٢) ، وذلك مستحيل فى حقه عليه الصلاة والسلام بمقتضى العصمة الكاملة التى منحه ا لله تعالى إياها.

مجالات البلاغ الذى أمره ا لله تعالى به:

والبلاغ الذى أمره ا لله تعالى به عام وشامل لكل ماتحتاج إليه البشرية فى عاجلها وآجلها ودنياها وأخراها، سواء كان ذلك بوحي القرأن أو وحى السنة ، فشمل ذلك إبلاغ الدعوة إلى ا لله ، وإبلاغ القرآن ، وإبلاغ السنة ، إذ كل ذلك مما أنزله ا لله عليه من أمر الدين ، كما أفاد ذلك عموم الاسم الموصول (ما) (كما عمم من أراد تبليغهم حيث حذف المفعول الأول لبلغ ، ليعم الخلق المرسل اليهم والتقدير: بلغ جميع ما أنزل إليك من يحتاج إلى معرفته من أمر الدين الموحى به إليك) (٣) .

وقد قام رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بذلك البلاغ كله على وجه الكمال والتمام من يوم أن أنزل ا لله تعالى الرسالة وكلفه بالبلاغ بصدر سورة المدثر، فإنه من حينئذ قام بإبلاغ الدعوة وإبلاغ القرآن وإبلاغ السنة على حد سواء، لا يألو فى ذلك جهدا ولايدخر وسعا، حتى أتم ا لله له الدين وقمع به المشركين والمبطلين .

أما بلاغ الدعوة فقد قام به منذ أن كلفه ، حيث قام يدعو إلى ا لله على بصيرة ويبلغ مراد ا لله تعالى من خلقه إليهم بحكمة وأناة ليلا ونهارا .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٥/٦، وانظر في هذا كتب التفسير كالبحر المحيط ٥٢٩/٣ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٦٠/٦ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٦٠/٦ بتصرف .

أسلوبه صلى ا لله عليه وسلم فى إبلاغه الناس برسالته إليهم:

وكان الأسلوب الذى اتبعه فى إبلاغه الدعوة إلى ا لله فى بادىء أمره،هو الدعوة سرا لما يعلمه من حال قومه فى الغلظة والجفاء،وخشيته أن يعوقوه عن إبلاغ رسالته التى حملها من أول أمره .

وكان لهذا الأسلوب الأثر الأكبر فى نجاح دعوته وبلاغ رسالته ، حيث لم يطل الأمد حتى التفَّ حوله عدد مبارك ممن آمن به وصدقه ، كان فى طليعتهم أبو بكر الصديق وخديجة بنت خويلد زوجته صلى ا لله عليه وسلم وزيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب ، وبلال بن رباح وعبد ا لله بن مسعود (١) وغيرهم رضى ا لله عنهم أجمعين ، وقد أسلم علي يد أبي بكر رضى ا لله عنه فى بادىء الأمر جماعة من شُبَّان مكة،الذين كان لهم شأن عظيم فى نجاح دعوته وظهور أمره كعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد ا لله(٢) رضي ا لله عنهم، وظلَّت الدعوة والبلاغ سرا بين المؤمنين نحو ثلاث سنوات حيث كان لايُدعى إلا من تُرجى إجابته ويُركن إلى عقله ، فدخل فى هذه الفترة نحو خمسين نفرا بين رجل وامرأة (٣) ، واختار النبي عليه الصلاة والسلام دار الأرقم بن أبي الأرقم لتكون مركز لقائهم،ومنتدى اجتماعهم، يبلَّغون فيها كلام ا لله تعالى، وتُوجَّه إليهم توجيهات رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم .

موقف قريش من الدعوة النبويه فى بادىء أمرها:

و لم تكن قريش فى هذه الفترة تتجرأ على اعتراض سبيلهم أو إيذائهم؛ لأنهم لم يجهروا بدعوتهم ولابتسفيه أحلامهم، فما كانت تظن إلا أن هذا الدين لايعدو ما كانت تعهده فى المتحنِّفين السابقين،من كونهم اختاروا لأنفسهم دينا يتعبدون به ، ولاسبيل لهم فى

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٧٧-٢٨٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٨٨ .

(٣) انظرالسيرة النبوية لابن حبان ص ٦٨، وللذهبي ص ٧٨ .

الناس الآخرين ، فأمِنو بذلك جانبهم فى الجملة(١)، وإن كانوا قد تعرَّضوا لبعض الأفراد بالإيذاء من واقع التصلت العائلى ، أو الولاية للمستضعفين ، فلما تكونت القاعدة الأساسيه للانطلاقة بالبلاغ والدعوة إلى طور آخر، حيث فشا الإسلام بمكة،وأصبح غالب بيوت مكة تساهم فى بناء هذه القاعدة بالنفر أو النفرين أو الأسرة كلها، وأصبحت تضم أفرادا أولى بأس شديد كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي ا لله عنهما،عندئذ لم يكن بد من أن يأخذ النبي صلى ا لله عليه وسلم شكلا آخر من أشكال البلاغ والدعوة وذلك بالإعلان عن ذلك على رؤوس الملأ ودعوة الكافة إلى الإسلام .

الجهر بالدعوة والبلاغ :

فعندها أوحى ا لله تعالى إلى عبده ورسوله سيدنا محمد صلى ا لله عليه وسلم بتشريع الانتقال بالدعوة والبلاغ إلى الجهر والأعلان ، وذلك بقوله سبحانه: ﴿ وأنذر عشيرتَك الأَقربين ﴾[سورة الشعراء : ٢١٤]فما أن نزلت حتى صعد الصفا فجعل ينادى: "يابنى فهر، يابنى عدي .. لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبي صلى ا لله عليه وسلم : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ ؟ قالوا : نعم ما جرَّبنا عليك إلا صدقا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" فقال أبو لهب لعنه ا لله: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟! فنزلت: ﴿ تبَّت يدا أبِى لهبٍ وتب * ما أَغنى عنه مالُه وما كسب..﴾(٢)[سورة المسد:١،٢] فطفق رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم من حينئذ يشق طريق البلاغ العلنى والكفاح المضنئ مع أشد أعداء الرسل عداء، وأكثرهم خبثا وإجراما، كما سمعت من هذا الرد السريع القبيح من أقرب الأقربين إلى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم الذى كان يجدر به أن يؤازره إن لم يكن تدينا، فحمِّية كما فعل أبو طالب ، وحيث

---

(١) انظر فقه السيرة النبوية للغزالي ص ١٠٠ .

(٢) تقدم تخريجه في مبحث الصدق ص ٤٠١ .

لم يفعل ذا ولا ذاك، فكان الأولى به أن يكف أذاه عن ابن أخيه ويتركه وشأنه كما كان يراه بعضهم، ولكن من يضلل الله فلا هادي له.

ولقد كان لهذا البلاغ المبين أصداء واسعة فى أوساط العالم أجمع، إذ برز للناس ما كان مكنوناً، وتحقق ماكان يرجوه الرهبان والأحبار فى أقطار الأرض ، وما كانوا يتربصونه من ظهور النبي المبعوث فى البلد الأمين، من القوم الأميين، حيث كان بأعلى الصفا، وتسامع به الناس، وتذاكر فى دعوته الذين يغشون مكة من غير أهلها ، وبذلك انتشر صيت هذه البعثة المحمدية (١) بهذا البلاغ المبين الذى كان تمهيدا لإبلاغها إلى الناس أجمعين .

غير أنه لم يؤت ثماره المرجوة من إيمان أولئك الأقربين الذين يبلغون نحو الأربعين بين رجل وامرأة ممن اجتمعوا، إلا فى بعض نساء العشيرة الطاهرة كصفية عمته وفاطمة امرأة أبي طالب(٢) رضي الله عنهما، ولكن لم ييأس رسول الله صلى الله عليه وسلم من استجابتهم ، بل واصل إبلاغهم رسالة الله ودعوتهم للإيمان به والاستجابة له، غير وانٍ ولا يائس،ولا مكترث بعدائهم وعنادهم وأذيتهم ، فإنه يعلم أن ذلك من سنن المرسلين ، غير أنهم لم يبعدوا منه فى بادئ الأمر حيث لم يردُّوا عليه ، إلا ما كان من أبي لهب اللعين .

واستمروا على ذلك الصمت إلى أن عاب آلهتهم التى يعبدونها ، وضلَّل آباءهم الذين احتجوا عليه باتباعهم ، وسفه أحلامهم التى لم تميز بين الهدى والضلال ، فلما ذكر ذلك لهم اشتد عليهم الأمر ، وأجمعوا له الخلاف والعداوة والشر ، فحدَب عليه عمه أبو طالب ومنعه، وقام دونه وعرض نفسه للشر دونه،مع بقائه على دينه (٣) لحكمة أرادها الله تعالى

---

(١) انظر خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لأبي زهرة ٤١٢/١ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣٥١/٣، وخاتم النبيين لأبي زهرة ٤١٢/١ .

(٣) انظر السيرة النبوية للذهبي ص ٨٤، وحدائق الأنوار في سيرة النبي المختار لابن الديبع الشيباني ٣٠٤/١، وطبقات ابن سعد ١٩٩/١ .

لا تخفى على المتأمل، وبعدئذ انتقل الرسول صلى ا الله عليه وسلم بالبلاغ إلى طور آخـــر أوسع مدى ، وأكثر عددا وبلدا،كما هو مقتضى رسالته العامة الخاتمه ، وذلك حينمـا أنـزل ا الله عليه: ﴿ فاصدع بما تُؤمر وأَعرض عن المشركين * إنَّا كفيناك المُستهزِئِين * الذين يجعلون مع ا الله إلهًا أخرَ فسوف يَعلمون ﴾[سورة الحجر:٩٤-٩٦] فعندئذ نهض بـأمر ا الله يبلـغ عـن ا الله تعالى(ليلا ونهارا ، سرا وجهارا ، لا يصرفه عن ذلك صارف ، ولا يرده عن ذلك راد ، ولا يصده عن ذلك صاد ، يتبَّع الناس فى أنديتهم ومجامعهم وفى المواسم ومواقف الحـج وغيرهـا، يدعو من لقيه من حر وعبد ، وضعيف وقوي ، وغني وفقير ، جميع الخلق عنده فـى ذلـك على السواء)(٢).

الوسائل التى اتبعها النبي صلى ا الله عليه وسلم فى الدعوة والبلاغ:

متخذا فى ذلك كل وسيلة يمكن أن يبلغ بها رسـالة ا الله تعـالى بعـد أن كـان لا يبلـغ إلا بوسيلة السر والدعوة الفرديه منه صلى ا الله عليه وسـلم،أو ممـن أسـلم مـن الصحابـة الكـرام رضي ا الله عنهم :

١ – فتارة كان يدعوهم للاجتماع ويستنفرهم له ، كما فعل حينمـا أمـره ا الله تعـالى أن يبلغ عشيرته الأقربين.

٢ – وتارة كان يقـوم بنفسـه يصـول ويجـول فـى تجمعـات النـاس ونواديهـم وأسـواقهم ونسكهم،يبلغهم رسالات ربه، ويطلب أن يحمـوه حتى يتسـنى لـه إبـلاغ رسـالة ا الله علـى أكمل وجه كما ستأتى الأمثلة على ذلك عما قريب.

٣ – وتارة كان يقوم بتكليف من أسلم بتبليغ من لم يسلم كما أرسل مصعب بن

---

(١) وهي أن بقاؤه مع أهل مكة محترما للأوثان كان من أسباب امتداد نفوذه عليهم ورعاية حقوقه عندهم ولو أنـه آمن لتنكروا له وناصبوه العداء و لم يرعوا له حقا ولا ذمة كما جرى لغيره من أولي السـيادة والمكانـة. انظر فقه السيرة للغزالي ص ١٠٣ .

(٢) البداية لابن كثير ٣/٤٠ بتّصرف يسـير

عمير (١) رضى ا لله عنه إلى المدينه يبلغهـم الإسلام ويدعوهـم إليـه ، إلى غـير ذلـك مـن الصور الأخرى الآتى بيانها قريبا ، التى كانت النبـي صلى ا لله عليه وسلم يحرص أن يبلغ بها رسالة ربه ، ليهدى الأمة الى الصراط المستقيم.

موقف قريش من النبي صلى ا لله عليه وسلم ودعوته بعد الجهر بالبلاغ والدعوة:

فلما اشتد نشاطه صلى ا لله عليه وسلم فى التبليغ والدعـوة إلى الديـن الحـق،وتـرك عبـادة الأوثان،وتسفيه أحلام عابديها ، عندئذ ناصبته قريش العداء ، وآذوه ومتبعيـه أشـد الإيـذاء، وما تركوا حيلة يظنون أن ستنفعهم فـى أن يثنـوه عـن رسـالته إلا طرقوهـا: ﴿ يُريـدون أَن يُطفئوا نورَ ا للهِ بأفواهِهم ويأبى ا للهُ إلاَّ أن يُتمَّ نورَه ولو كره الكافرون ﴾[سورة التوبة:٣٢].

فقد آذوه أبلغ الأذى فصبر ، واستهزؤا به وسخروا منه واتهموه بأنواع البهتان فما انثنى ولا فتر ، وأغروه بالمال والسيادة فما التفت إلى ذلك ولا نظر ، وحـاولوا أن يضغطـوا عليـه عائليا فما أثَّر فيه ولا انكسر ، واستعملوا سلاح المقاطعة الاقتصاديه ضـده وضـد عشـيرته فخاب صنيعهم واندحر ، ولاحقوه فى النوادي والمجتمعات يثبطـون دعوتـه ويخذِّلـون النـاس عنه فخيبهم ا لله ببيعات الأنصـار الغُـرر ، وحـاولوا قتلـه بعـد يأسـهم مـن نجـاح محاولاتهم السابقة فأقمأهم ا لله ونجا وفاز بالظفر ، وهيهات أن يثنـوه عـن إبـلاغ رسـالته وهـو المؤيـد بغالب القُوى والقدر.

"إذ ما قريش ؟ وما العرب ؟ وما الدنيا كلها ؟ بـازاء رجـل يحمـل رسـالة مـن ا لله تعـالى الذى له ملك السماوات والأرض يريد أن يعيد بها الرشد لعالم فَقد رُشده ، وأن يمحـو بهـا الأوهام فى حياة مرَّغتها الأوهام فى الرُّغام ، وما تُحدى وقفةُ جهـول أو غضبـة مغـرور فـى منع هذه الرسالة الكبيرة من المُضيِّ إلى هدفها البعيد"(٢).

---

(١) ابن هاشم بن عبد مناف، كان من فضلاء الصحابة وسابقيهم إلى الإسلام، ونالـه أذى شـديد مـن أهلـه وأمـه بسبب إسلامه بعد أن كان في دلال ونعيم، وهاجر إلى الحبشة ثم عاد، بعثه النبـي صلـى ا لله عليـه وسـلم إلى المدينة ليعلمهم الإسلام بعد العقبة الأولى، وتوفي شهيدا يوم أحدا، انظر طبقـات ابـن سـعد ١١٦/٣، وأسـد الغابة ٣٦٨/٤ .

(٢) فقه السيرة للشيخ محمد الغزالي ص ١٠٤ .

بدء الهجرة :

غير أنه لما اشتدت الوطأة على أصحابه،وخاف عليهم أن يفتنوا فى دينهم ، أذن لهم بالهجرة إلى الحبشة عند الملك العادل النجاشي، ليأمنوا فيها على أنفسهم ودينهم، أمَّا هو صلى الله عليه وسلم وجماعة كبيرة من أصحابه القويُّ إيمانُهم، أو المحميين بأقوامهم،فمكثوا بمكة يجهرون بالبلاغ إلى الأمة كافة والدعوة إليها للدخول فى دين الله جلَّ شأنه.

وقد كان عليه الصلاة والسلام فى بادئ الأمر محميًّا بعمه أبى طالب،فكان يبلِّغ ويدعو ولا يصل إليه سوء يذكر،لحماية عمه له وحَدْبه عليه ، فما كان أحد يجرأ على أذيته لذلك،كما جاء فى الحديث «ما نالت منِّي قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب»(١).

فلما توفي أبو طالب ركنه القوي الملموس ، وزوجه خديجه وزيرة الصدق وكاشفة حزنه، تمكن الأعداء من مواصلة الأذية له بما لايقدر على حملها غيره ــ بنفسي هو وولدى ومالي وأبي وأمي صلى الله عليه وسلم ــ ولكنه مع ذلك هو بشر يحتاج الى أن يأخذ بالأسباب العادية التى تمكنه من إبلاغ رسالته،وذلك بالحماية البشرية من اضطهاد أعدائه البشر، بعد أن افتقد تلك الحماية الحانيه من شيخ قريش وعميدها الكبير عمه أبى طالب.

وروى ابن سعد من حديث حكيم بن حزام(أن أبا لهب تكفل بحمايته صلى الله عليه وسلم بعد موت أبى طالب وأنه قال له :«إمض لما أردتَ، وماكنتَ صانعا إذ كان أبوطالب حيا فاصنعه ، وقال له:لا واللَّات لا يوصل إليك حتى أموت» وذكر أنه سرعان ما نكث عهده لمَّا وشى له الواشون فى أن يسأله عن مصير أبيه عبد المطلب ، فلما أخبره الصادق الأمين أنه فى النار قال أبو لهب: والله لا برحت لك عدوا أبدا وأنت تزعم أن عبد المطلب فى النار،فاشتد عليه هو وسائر قريش(٢)).

---

(١) أخرجه ابن اسحاق من حديث عروة بن الزبير مرسلا، وسنده صحيح لولا الإرسال، انظرالتعليق على فقه السيرة ص ١٢٩ .

(٢) انظر الرواية مطولة في طبقات ابن سعد ٢١١/١، والوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزي ٢١٠/١-٢١١.

بحثه صلى الله عليه وسلم عمن يحميه ليبلغ رسالة ربه:

فعندئذ شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب،فيبحث عمن يحميه من إيذاء قريش حتى يبلّغ رسالة ربه، فاتّجه نحو الطائف يطلب من هوازن وثقيف أن يحموه وينصروه حتى يبلغ رسالة الله تعالى إلى خلقه،فردُّوا عليه أقبح رد كما تقدم بيانه في مبحث صبره(١) ، فرجع حزينا كسيفا - بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم – إذ لم يحقق مأربه ولم يسلم من الإيذاء ، وخشي بعد ذلك سطوة قريش إن هي علمت بخروجه لدعوة الناس إلى حربها، وقد رفضت ثقيف أن تكتم عنه ، حتى قال له زيد بن حارثة رضى الله عنه عند إرادته دخول مكة وكان رفيقا له في سفرته هذه: كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك ؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بجواب مليء بالثقة بالله ونصره وتأييده قائلا :« يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا ، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

وقد حقق الله تعالى له ظنه فيه فدخل آمنا حيث قيض الله له من يحميه ويدفع عنه أذية المشركين، فقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى المُطعم بن عدي (٢) يعرض عليه أن يجيره حتى يبلغ رسالة ربه،فقبل مطعم بعد أن رفض ذلك من كان طلب منهما النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وهما : الأخنس بن شريق،وسهيل بن عمرو؛لتخلّيهما عن الشهامة العربية، أما مطعم فإنه قال : نعم ، ودعا بنيه وقومه وقال لهم: تلبّسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمدا ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام مطعم بن عدي على راحلته فنادى: يا معشر قريش، إني قد أجرت محمدا فلا يهجه أحد منكم ، فانتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه وصلّى ركعتين وانصرف إلى بيته

(١) ص ٤٣٠

(٢) ابن نوفل بن عبد مناف، كان من سراة قريش وساداتهم، وهو أحد الذين مزقوا الصحيفة الظالمة التي كتبتها قريش على بني هاشم، توفي سنة ٢ هـ، انظر الأعلام ٢٥٢/٧ .

و المطعم بن عدى وولده مطيفون به)(١).

ولقد حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الصنيع حيث تمنى يوم بدر أن يكون موجودا فيكافأه على معروفه هذا بإطلاق سراح أسرى قريش يومئذ لو كلمه فيهم، كما أخرج البخارى من حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لو كان المطعم بن عدي حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النَّتنَى لتركتهم له(٢)" غير أن هذا الجوار لم يكن عاما كما يظهر، بل كان مؤقتا بحمايته وقت دخوله، وخاصا به لا بدعوته، لذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بعدئذ يعرض نفسه على القبائل فى المواسم والأسواق والنوادي، ليؤمنوا به ولينصروه حتى يبلّغ رسالة الله تعالى، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الهدى والرحمة، لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده(٣).

وفى الترمذى من حديث جابر رضى الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه بالموقف فقال: "ألا رجلٌ يحملنى إلى قومه، فإن قريشا قد منعونى أن أبلّغ كلام ربى"(٤).

---

(١) أخرج القصة ابن سعد في الطبقات ٢١٢/١ بسنده إلى جبير ين مطعم بأبسط مما هنا، وذكرها الحافظ ابن كثير في البداية ١٣٧/٣، وابن الديبع في حدائق الأنوار ٣٤٦/١-٣٤٧، ورواه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ١٧٢/٢، والبيهقي في الدلائل ٤١٤/٢، من طريق ابن شهاب الزهري بإسناد رجاله ثقات غير أنه مرسل.

(٢) البخاري في الخمس، باب ما منّ النبي صلى الله عليه وسلم على الأسرى من غير أن يخمس ١١١/٤، وفي المغازي ١١٠/٥.

(٣) سيرة ابن هشام ١٧٤/٢ نقلا عن ابن إسحاق.

(٤) في فضائل القرآن، باب رقم ٢٤، وقال الترمذي عنه: غريب صحيح.

مطاردة قريش النبي صلى ا لله عليه وسلم فى مواقف دعوته:

غير أن قريشا لم تترك له شأنه والناس ، بل استمر عنادها وضلالها فى صد الناس عن تصديقه ، وتخذيلهم عن ذلك ليشاركوهم فى الضلال، فأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل، فقد كان أبو لهب لعنه ا لله يقفو أثر النبي صلى ا لله عليه وسلم فكلما أتى قوما ودعاهم إلى ا لله كذبه وحذرهم منه (١).

ولقَّنهم الوليد بن المغيرة كلاما يقولونه لمن يقدم مكة من أهل المواسم ليحذروه من رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وهو أن يقولوا لهم: إنه ساحر، فأكذبه ا لله تعالى بآيات كتابه الكريم حيث قال جل شأنه: ﴿ كلَّا إنَّه كان لآياتِنا عنيدا * سأُرهقُه صَعـودا * إنَّه فكَّر وقدَّر * فقُتِل كيف قدَّر * ثم قُتِل كيف قدَّر* ثم نَظَر * ثـم عبسَ وبَسر * ثـم أدبرَ واستكبر * فقال إنْ هذا إلَّا سحرٌ يؤثر * إن هذا إلا قولُ البشر * سأُصليه سـقَر..﴾[سورة المدثر:١٦-٢٦] ومعلوم أن الغريب إذا قدم بلدا ثم حذروه أهلها من أمرها ، لا شك أنه سيحذر منه لأنه يرى أن أولئك الذين حذروه هم أدرى الناس به ، فلاشك أنه سيأخذ كلامهم مأخذ الجد، وسينفر مما حذر فيه نفور الإبل، إن لم يكن عن ثقة بما أُخبر فللشك فى أمره.

وهذا ما كان يحدث له عليه الصلاة والسلام وصدق ا لله إذ يقول: ﴿ إنَّ الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل ا لله قد ضلُّوا ضلالاً بعيدا ﴾[سورة النساء:١٦٧] .

غير أنهم مع ذلك الجهد الذى بذلوه فى الصد عن دين ا لله وشرعه القويم ، لن يستطيعوا مغالبة قدر ا لله وإرادته الأزلية فى نصرة هذا الدين وظهوره ولو كره المشركون

---

(١) انظر طبقات ابن سعد ٢١٦/١ ففيه أنه صلى ا لله عليه وسلم كان يوافي المواسم كل عام يتبع الحجاج في منازلهم في المواسم بعكاظ، ومجنة، وذي المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحدا ينصره ولا يجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول: (يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا ا لله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة) وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابىء كاذب، فيردون على رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم أقبح الرد ويؤذونه ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، ويكلمونه ويجادلونه، ويكلمهم ويدعوهم إلى ا لله ويقول: (اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا) ا.هـ .

فــــإنَّــــهم وإن أرادوا أن يطفؤا نور ا لله بأفواههم ، فإن ا لله متم نوره ولو كره الكافرون ، وقد كان ذلك على يد من اختارهم ا لله للقيام بهذه المهمة وأعدهم لها وهم الأنصار رضي ا لله عنهم وأرضاهم.

دعوته صلى ا لله عليه وسلم الأنصار وقبولهم ذلك:

فإن ا لله عز وجل لما أراد إظهار دينه وإعزاز نبيه صلى ا لله عليه وسلم، وإنجاز وعده له، ساق إليه هذا الحي من الأنصار لِمَا أراد ا لله به من الكرامة ،

فخرج رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع فى كل موسم ، فانتهى إلى نفر منهم عند العقبة وهم يحلقون رؤوسهم،فجلس إليهم فدعاهم إلى ا لله،وقرأ عليهم القرآن فاستجابوا لله ورسوله،فأسرعوا وآمنوا وصدّقوا وآووا ونصروا وواسوا وقالوا :« إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم(١)، فعسى أن يجمعهم ا لله بك،فتقدم عليهم فتدعوهم الى أمرك،وتعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم ا لله عليك فلا رجل أعز منك»ثم انصرفوا عن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا(٢) .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم، ودَعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر من رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم.

فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا ، فلقوا النبي صلى ا لله عليــــه

---

(١) يعني لما كان بينهم من الحروب الطاحنة المستمرة التي كان آخرها يوم بعاث، لحكمة أرادها ا لله تعالى، وفي البخاري ٣٨/٥ من حديث عائشة رضي ا لله عنها:(كان يوم بعاث يوما قدمه ا لله لرسوله صلى ا لله عليه وسلم) فقدم رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم وقد افترق ملؤهم، وقتلت سراتهم وجرحوا، فقدمه ا لله لرسوله في دخولهم في الإسلام .

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢١٧/١، وسيرة ابن هشام ١٧٦/٢ .

وسلم بالعقبة فبايعوه وكانت تلك بيعة العقبة الأولى على (ببيعة النساء(١)) وذلك قبل أن تفرض الحرب بل كان جميع ذلك قبل نزول الفرائض ماعدا التوحيد والصلاة (٢).

فبعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الاسلام ويفقههم في الدين، فأسلم على يديه بشر كثير، بحيث لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيه رهط من المسلمين يظهرون الاسلام.

بيعة العقبة الثانية :

فلما كان العام القابل رجع إلى مكة وخرج من خرج من الأنصار المسلمين مع حجاج قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيه،واعزاز الإسلام وأهله،وإذلال الشرك وأهله.

فلما كانت ليلة الموعد اجتمعوا ليبايعوه على الحماية والنصرة حتى يبلغ رسالة ربه ففي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما في قصة البيعة قال:« ..فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين حتى توافينا ، فقلنا:يا رسول الله علام نبايعك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: "تبايعونى على السمع والطاعه فى النشاط والكسل ، والنفقه فى العسر واليسر،وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقولوا فى الله لا تخافون لومة لائم، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم ما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة" قال: فقمنا إليه فبايعناه ، وأخذ بيده أسعد بن زُرارة وهو من أصغرهم فقال:رويدا يا أهل يثرب،فإنا لم نضرب أكباد الأبل إلا ونحن نعلم أنه

---

(١) سميت بذلك لكونها على وفق بيعة النساء التي نزلت بعد الفتح، وهي:أن لايشركوا بالله شيئا، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف، وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئا فأمْرُكم إلى الله إن شاء عذب وإن شاء غفر. انظر سيرة ابن هشام ١٨٥/٣، ووفاء الوفاء للسمهودي ٢٢٤/١ .

(٢) وفاء الوفاء للسمهودي ٢٢٤/١ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنّ إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم، وأن تعضّكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فبيّنوا ذلك فهو عذر لكم عند الله، قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدا ولا نسلبها أبدا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنه"(١).

بدء الهجرة الى المدينة:

فلما تمت البيعة المباركة طفِق رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث المسلمين إلى هذه الديار المؤمنة،ليعبدوا فيها ربهم ويكوّنوا بها دولتهم بعد أن اشتد الأذى عليهم من قريش حينما علمت ببيعة العقبة ، ليجهضوا هذا الحدث العظيم قبل أوانه بحسب رأيهم الضعيف ، و لم يعلموا أن الله قد كتب على نفسه أن ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وأنه سيتم نوره ولو كره الكافرون ، فما هى إلا بُرهة من الزمن حتى غدت دور مسلمي مكة موحِشة خلاء ، قد ارتحل أهلها إلى المدينة حيث إخوانهم فى الدين، تاركين أثقالهم وبيوتهم وأموالهم وأهليهم من أهل الشرك،أو الذين منعوا من الهجرة من المسلمين ممن حبس أو فتن فى دينه.

ثم وليَهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق رضى الله عنه ، بعد أن رد الله كيد الكافرين فى محاولتهم الخبيثه لاستئصال الرسالة المحمديه من أساسها بمكرهم الغادر البائر فى اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك عين النصر له، إذ آذنه الله بالهجرة التى قضّت مضاجعهم، وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، فكانت سببا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٢٢/٣، ٣٢٩، ٣٩٤، والحاكم في المستدرك ٦٢٤/٢، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ١٦٠/٣، وقال: إسناده جيد على شرط مسلم، والحافظ في الفتح ٧٥/١٥، وقال: رواه أحمد بإسناد حسن،وصححه الحاكم وابن حبان .

وذكره الذهبي في السيرة النبوية ص ٢٠٠، وانظر: زاد المعاد ٤٨،٣، والسيرة النبوية الصحيحة للعمري ١٩٨/١-٢٠١ .

أساسيا لإبلاغ رسالة ا لله وإعلاء كلمته التى جهدوا فى إطفائها ، فخيبهم ا لله وأذلهم وقطع دابرهم بما آتى ا لله نبيه وعباده المؤمنين بعد ذلك من النصر المبين والعز والتمكين ، ابتداء من يوم أن أذن ا لله تعالى لهم بالجهاد الدفاعي بقوله سبحانه: ﴿ أُذِنَ لِلَّذين يُقاتَلون بأَنَّهم ظُلِموا وإنَّ ا لله على نصرِهم لقدير ﴾[سورة الحج:٣٩] وذلك بعد أن تحصنوا بعاصمتهم،وأصبحوا ذوى عدد وعُدةً ومنعة،فتمكن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بعد ذلك من البلاغ المبين أيما تمكين، انطلاقا من المدينة العاصمه الحصينه،وبحماية من فيها من أولى الأيد والقوة والعزيمة واليأس،من الأنصار والمهاجرين رضى ا لله عنهم أجمعين، وعندئذ قام عليه الصلاة والسلام بتبليغ رسالات ربه على أكمل وجه وأتمه وأفضله،لا يفتر عن ذلك ليلا ولا نهارا ولا يشغله عن ذلك شاغل ، يبلغ القرآن ويدعو إلى ا لله ، ويجاهد فى سبيله، حتى أتاه اليقين بعد مضي عشر سنين من مُهاجره صلى ا لله عليه وسلم، ولكن بعد أن بلّغ البلاغ المبين.

وسائل التبيلغ التى اتبعها النبي صلى ا لله عليه وسلم فى المدينة:

ولقد كان له صلى ا لله عليه وسلم وسائل كثيرة للبلاغ والدعوة بعد هجرته وقيام دولته الفتيَّة العظيمة، فإضافة إلى ما كان يقوم به صلى ا لله عليه وسلم من البلاغ فى مثل الصور السابقة فى هذه الفترة، أضاف إلى ذلك:بعث البعوث فى تبليغ رسالة ا لله والدعوة إلى دينه القويم، وتكليف الوفود القادمة عليه بذلك،ومكاتبة ملوك الأرض لإبلاغهم رسالة ا لله تعالى ودعوتهم إلى الإيمان به،أو لتقوم عليهم الحجة إن لم يستجيبوا.

بعث البعوث لإيصال البلاغ والدعوة :

فإنه عليه الصلاة والسلام بعد أن أرسى قواعد دولة الإسلام من القرار فى عاصمة انطلاق البلاغ والدعوة ، وبعد تكوين الكُماة الأبطال،لحماية الاسلام وأهله وعاصمته، والبلاغ به والدعوة إليه.

عند ذلك أخذ النبي صلى ا لله عليه وسلم يبعث البعوث لإبلاغ رسالات ا لله والدعوة إليه وجهاد من أبى وعاند، ابتداء من أول سنيّ هجرته المباركة على رأس سبعة أشهر منها، ببعث حمزة بن عبدالمطلب إلى ساحل البحر لاعتراض عير لقريش التي حـــــادت

ا لله ورسوله واستولت على أموال المهاجرين منها(١) ، إلى آخر سني حياته ببعث أسامة ابن زيد إلى (مؤته)(٢) حيث استشهد أبوه زيد وهو فى جهاد الدعوة والبلاغ،وقد كان عليه الصلاة والسلام إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى ا لله ومن معه من المسلمين خيراً،ثم يقول لهم: "اغزوا باسم ا لله فى سبيل ا لله ، وقاتلوا من كفر با لله، اغزوا ولا تغُلُّوا ، ولا تَغدِروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال،فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم :

١ – ادعهم إلى الأسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم .

٢ – ثم ادعهم الى التّحول من دارهم الى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فان أبوا أن يتحولوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين،يجرى عليهم الذى يجرى على المسلمين ، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين .

٣ – فان هم أبوا فسلهم الجزية ، فان أجابوك فاقبل مهنم وكف عنهم ،وان أبوا فاستعن با لله وقاتلهم ...»(٣) .

---

(١) وكان على عير قريش أبو جهل في ثلاثمائة راكب في قافلة لهم آيبة من الشام بتجارة، وكان حمزة رضي ا لله عنه في ثلاثين راجلا من المهاجرين، فلما التقوا تصافُّوا للقتال فحجز بين الفرقين مجدي بن عمرو الجهني، فأطاعوه وانصرفوا، فشكر صلى ا لله عليه وسلم مجديا على ذلك لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوهم، وكانت هذه السرية في شهر رمضان من السنة الأولى من الهجرة، انظر زاد المعاد ١٦٣/٣، ونور اليقين للخضري ص ١٠٠ .

(٢) بالضم ثم واو مهموزة ساكنة وتاء مثنة فوقية، قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، معجم البلدان ٢١٩/٥ .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب تأمير الإمام الأمراء ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها ١٣٩/٥ برقم ١٧٣١، وأبو داود في الجهاد برقم ٢٦١٢، ٢٦١٣، باب دعاء المشركين، والترمذي في البر، باب ما جاء في وصيته صلى ا لله عليه وسلم في القتال برقم ١٧١٦ كلهم من حديث بريدة رضي ا لله عنه .

فترى أن النبي صلى ا الله عليه وسلم قد جعل أول مهام مبعوثيه لإعلاء كلمة ا الله هي الدعوة إلى الإسلام الذى بعثه ا الله تعالى به،لتتفيأ البشرية ظلاله ناعمة فى الدنيا والآخرة، فإن رفضوا ذلك فلهم وما يختارون من دين، لكن على أن يعطوا الجزية لمن يحميهم وهم المسلمون الذين كتب ا الله لهم العزة،وجعل لهم حق الوصاية والحماية على البشرية إن هي لم تؤمن،يعطوها عن يدوهم صاغرون، فإن رفضوا ذلك نابذهم على سواء،واستعان عليهم با الله تعالى القادر القاهر،الآمر بذلك؛ لأنهم بذلك أرادوا مكابرة الحق ودفعه ، ومحاربة الخالق وجنده ﴿ ولَقد سَبقت كلمتُنا لعبادنا المرَسَلين * إنَّهم لَهم المنصُورون * وإنَّ جندنا لهم الغالبون ﴾[سورة الصافات: ١٧١-١٧٣].

حاله صلى ا الله عليه وسلم مع من قد بلغتهم الدعوة من أهل الجزيرة :

ولذلك لما كان غالب ساكني الجزيرة العربية، حاضرها وباديها من عرب ويهود ، قد بلغتهم بعثة رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم ببلاغه لهم فى أسواقهم ونواديهم ونسكهم ، فى عُكاظ(١) ومِجَنَّة(٢) وذِى المجاز(٣) ومِنى ونحوها من مواطن تجمع العرب فى أسواقهم الحولية ، ومواسمهم النسكية،ومع ذلك أصروا على الكفر وعدم الاستجابة الله ورسوله بل حاولوا جاهدين محاربته وإطفاء نور الاسلام الذى أتى به .

لما كانوا كذلك بادرهم رسول ا الله صلى ا الله عليه وسلم بالجهاد غزوا لهم فى ديارهم تارة، ودافعا لهم عن مهاجمته تارة أخرى، كما هو معلوم من غزواته وبعث سراياه ، وكما سيأتى بيانه فى المباحث القادمة إن شاء ا الله تعالى.

إبلاغه صلى ا الله عليه وسلم من لم تبلغهم الدعوة :

أما من لم تبلغهم الدعوة ، و لم يحاولوا محاربته صلى ا الله عليه وسلم وذلك كالبلاد النائيه عن محل البعثه، فإنه صلى ا الله عليه وسلم كان يبعث إليهم البعوث يبلغونهم رسالة ا الله تعالى

---

(١) عكاظ: واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة ثلاث ليال، مراصد الاطلاع ٢/٩٥٣ .

(٢) مجنة قيل: هي بمر الظهران، وهو على مرحلة من مكة، وقيل غير ذلك. انظر المرجع السابق ٣/١٢٣١ .

(٣) ذو المجاز: خلف عرفة على ناحية كبكب، عن يمين الإمام على فرسخ، انظر المرجع السابق ٣/١٢٢٩ .

ليَسلموا بها ويُسلموا ، أو يدفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا آذنهم بالمناجزة، ويبلغهم ذلك إما ببعث رسل يتولون مهمة البلاغ والدعوة ، وإما بكتب صُحبة رسل يختارهم لتلك المهام:

أ ـ أما بعث الرسل فكما بعث إلى اليمن معاذ بن جبل رضى ا الله عنه وقال له : "إنك ستأتى قوما أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إلـٰه الا ا الله وأن محمدا رسول ا الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن ا الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن ا الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإيّاك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينهما وبين ا الله حجاب" .

وفى رواية قال له: "إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه عبادة ا الله عز وجل، فإذا عرفوا ا الله فأخبرهم أن ا الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن ا الله قد فرض عليهم زكاة .."(١) وذكر نحوه .

ونلاحظ أنه صلى ا الله عليه وسلم لم يأمره بالخطوتين التاليتين للدعوة للإيمان با الله؛ وهما طلب الجزية أو الإيذان بالجهاد، ولعل ذلك كان مما أعلم ا الله به نبيه محمداًصلى ا الله عليه وسلم باستجابتهم لدعوة الإيمان من غير تردد ، فلم يحتج إلى أن يأمره بما لم يحتج إليه عند هؤلاء القوم .

ب ـ وأما بعث الكُتب فقد كان صلى ا الله عليه وسلم يبعث بها مع رسله إلى ملوك الأرض وعظمائها منذ أن تيسر له ذلك بإقامة دعائم دولة الاسلام، وقد كان يدعوهم فيها إلى الإسلام، ويرغّبهم فيهابإبقاء ملكهم عليهم إن هم أسلموا، فإن امتنعوا من ذلك خيَّرهم بين الجزية والجهاد كما يتضح من المكاتبات التالية :

١ – فقد كتب إلى هرقل عظيم الروم قائلا له: "بسم ا الله الرحمن الرحيم، من محمد

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع ٢٠٦/٥، ومواضع أخر، ومسلم في الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام برقم ١٩ .

رسول ا لله - صلى ا لله عليه وسلم - إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الاسلام: أسلم تسلم يؤتك ا لله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأرِيسيِّين(١) ، و﴿ يا أهلَ الكتاب تعالَوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينَكم ألاَّ نَعبدَ إلا ا لله ولا نُشركَ به شيئًا ولا يتَّخذ بعضُنا بعضًا أربابا من دونِ ا لله فإن تَولَّوا فقولوا اشهدوا بأنَّا مسلمون ﴾(٢)[سورة آل عمران:٦٤].

٢ - وكتب إلى كسرى يقول له: "بسم ا لله الرحمن الرحيم من محمد رسول ا لله - صلى ا لله عليه وسلم - إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهُدى ، وآمن با لله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا ا لله وحده لاشريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية ا لله، فإني أنا رسول ا لله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، أسلم تَسلم ، فإن أبيتَ فعليك إثم المجوس(٣)...".

٣ - وكتب الى ملك عُمَان كتابا يقول فيه: "بسم ا لله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد ا لله - صلى ا لله عليه وسلم - إلى جيفر وعبد ابني الجُلندى ، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإني رسول ا لله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فإنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن مُلككما زائل عنكما، وخيلي تحلُّ بساحتكما

---

(١) هم الخدم والخول كما قال أبو عبيد، وقيل: هم الأكَّارون، وهم عبدة النار، كما قاله ابن الأعرابي، وذلك لأنه يصدهم عن الدين لطاعتهم إياهم. انظر النهاية ٣٨/١ .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد، باب دعاء النبي صلى ا لله عليه وسلم إلى الإسلام والنبوة .. ٥٧/٤ ؛ ومسلم في الجهاد، باب كتاب النبي صلى ا لله عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام برقم ١٧٧٣ من حديث ابن عباس رضي ا لله عنهما .

(٣) انظر إعلام السائلين من كتب سيد المرسلين لابن طولون الدمشقي ص ٦٠، وشرح المواهب ٣٤٠/٣، وأصله في البخاري من حديث ابن عباس ٥٤/٤ .

وتظهر نبوتى على ملككما (١)...".

إلى غير ذلك من مكاتباته الكثيرة التى كانت على هذا النحو من البلاغ والإنـذار ليهلك من هلك عن بينه،ويحيا من حيى عن بينة ، فقد قال أنس رضى ا لله عنه: "إن النبي صلى ا لله عليه وسلم كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النَّجاشـى وإلى كـل جبَّار عـنيد يدعوهـم الى ا لله عز وجل"(٢).

وهـكذا كان صلى ا لله عليه وسلم يبلغ الدعوة لا يألُو جهدا،ولا يدخر ُوسعا فى إبلاغهـا ليلا ونهارا ، سرا وجهارا وبكل وسيلة يمكـن أن يوصـل بهـا البـلاغ والدعـوة إلى العـالَمين، وكل ذلك ينبئ عن مدى حرصه صلى ا لله عليه وسلم على إبـلاغ رسـالات ا لله لأجـل أن يهدى عباد ا لله إلى صراط ا لله العزيز الحميد.

إبلاغ القرآن :

أما إبلاغه القرآن فقد كان أيضا على ذلـك النحـو مـن الجهـد والمثـابرة والعنايـة؛لأن ا لله تعالى قد أرشده إلى ذلك بوجه خاص حيث قال له: ﴿ وقرآنًا فرقناه لِتَقرأَه على النَّاس علـى مُكث ونزَّلناه تَنزيلا ﴾[سورة الاسراء : ١٠٦] أي: لتبلغه الناس وتتلوه على مَهَل لتكـون ألفاظـه ومعانيه أثبت فى نفوس السامعين(٣) .

فقام بذلك حق القيام ، فكـانت لـه بـه عنايـة خاصـة فـى تعليمـه وإذاعتـه ونشـره، فهـو

---

(١) انظر عيون الأثر لابن سـيد النـاس ٢/٢٦٦-٢٦٧، وشـرح المواهـب ٣/٣٥٢، وزاد المعـاد ٣/٦٩٣، وإعـلام السائلين ص ٩٢، وطبقات ابن سعد ١/٢٦٢، ونصب الراية للزيلعي ٤/٤٢٣ .

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب كتب النبي صلى ا لله عليه وسلم إلى ملـوك الكفـار يدعوهـم إلى ا لله عـز وجـل برقم ١٧٧٤، وانظر كتبه إلى أولئك فيأعلام السائلين الآنف الذكر، وفي طبقات ابن سـعد ١/٢٥٨-٢٩٠، ونصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي ٤/٤١٨-٤٢٥، وزاد المعاد في هدي خير العباد ٣/٦٨٨-٦٩٧

إلى غير ذلك من كتب المغازي والسير والحديث وغيرها .

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/٦٨، والتحرير والتنوير ١٥/٢٣١ .

يقرؤه لهم على مكث لو عدّه العـادُّ لأحصـاه،ترتيـلا كمـا أمـر ا لله، ويسـمعهم إيـاه فـى الخطب والصلاة وفـى الـدروس والعِظـات والدعـوة والإرشـاد، وفـى الفتـوى والقضـاء، ويدارسهم إياه فيسمع منهم ويسمعون منـه ، ومـن لم يكـن حـاضرا لديـه كـأهل البـلاد المختلفه أرسل إليهم بعثات القراء ليعلموهم إياه ويفقهونهم به، كما هو معلوم من رسالته وسيرته وسننه(١) .

كتابة القرآن وكتبته بين يدي رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم:

وقبل ذلك كله كان لا يكاد ينفك عنه الوحى حتـى يقـرأه علـى النـاس ويدعـو كتبـة الوحي فيكتبوه، فيما يسهل لهم من العُسب واللّخاف والرقاع وقِطـع الأَديـم(٢)، وعظـام الأكتاف والأضلاع ونحوها ، ثم يحفظ فى بيته ليكون وثيقة لحفظه وحفظ أصحابه كمـا هو مبين فى مظانه من كتب السيرة والسنة المشرفتين.

فعن زيد بن ثابت(٣) رضى ا لله عنه قال : كنت أكتـب لرسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسلـم وكـان إذا نـزل عليـه الوحـي أخذتـه بُرَحـاء شـديدة ، وعـرِق عرقـا شـديدا مثـل الجُمان(٤) ، ثـم يُسرَّى عنه، فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف أو كسرة فأكتب وهو يملى

(١) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد عبد العظيم الزرقاني ٣٠٧/١ .

(٢) العسب: جمع عسيب: وهو جريد لنخل، واللخاف: جمع لخفة بفتح اللام وسـكون الخـاء، وهـي الحجـارة الرقيقة، والرقع: جمع رقعة، وتكون من جلد أو ورق أو كاغد أو نحوها .

(٣) ابن الضحاك الأنصاري النجاري المدني الفرضي الكاتب، كان يكتب الوحي لرسول ا لله صلـى ا لله عليـه وسلم، وشهد معه الخندق وما بعدها، وكان قد رده يوم بدر ويوم أحد لصغـره، وكـان يكتـب الوحـي والمراسلات للنبي صلى ا لله عليه وسلم ، وكان يكتب لأبي بكر وعمر من بعده، وهو أحد الثلاثة الذيـن جمعوا المصحف بأمر أبي بكر وعمر رضي ا لله عنهما، ومناقبه كثيرة، توفي سنة ٥٤ هـ، بالمدينة، وقيل في تاريخ وفاته غير ذلك، انظـر طبقـات ابـن سـعد ٣٥٨/٢، وأسـد الغابـة ٣٢١/٢، والاسـتيعاب بهـامش الإصابة ٥٥١/١، والإصابة ٥٦١/١ .

(٤) الجمان: هو اللؤلؤ الصغار، وقيل: هو حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ، النهاية ٣٠١/١ .

عليَّ، فما أفرغ حتى تكاد رجلى تنكسر من ثقل القرآن حتى أقول : لا أمشى على رجلى أبدا، فإذا فرغت قال: اقرأ فأقرأه، فإن كان فيه سقط أتمّه ثم أخرجُ به إلى الناس(١)".

وعنه رضى الله عنه قال : كنت جار رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل الوحي أرسل إلي فكتبت الوحي، وكان إذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا..."(٢).

وكان إذا لم يجد زيدا أمر غيره ممن يكتب الوحى فيكتبه ، فقد كان له صلى الله عليه وسلم جمع غفير من كَتَبة الوحى فى مكة والمدينة ، ففي مكة كان يكتب له أبو بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان بن عفان وعلي بن أبى طالب وغيرهم رضي الله عنهم، وانضاف إليهم فى المدينة عدد كبير من الكتبة الذين اصطفاهم النبي صلى الله عليه وسلم لكتابة الوحى أو المهام الأخرى التى يريد كتابتها من مراسلات وإقطاعات ونحوها ، كأُبيِّ ابن كعب وزيد بن ثابت ومعاوية والزبير بن العوام وخالد بن الوليد وعبدالله بن رواحة وعمرو بن العاص وغيرهم رضى الله عنهم . وكان صلى الله عليه وسلم يأمرهم بوضع آية كذا فى سورة كذا بعد آية كذا،كما علَّمه جبريل عليه السلام، وبذلك تظاهرت الكتابة مع الحفظ، لحفظ القرآن الكريم تحقيقا لوعد الله تعالى بحفظه حيث قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلنا الذِّكر وإنَّا له لحافظون ﴾[سورة الحجر : ٩].

وكانوا جميعا على رتبة عالية من الأمانة والثقة والمكانة والاعتماد عند النبي صلى الله عليه وسلم المؤيد بالوحي فى هذه المهمة الخطيرة ، وكانوا جديرين بذلك لأمانتهم

---

(١) عزاه الهيثمي في المجمع ١٥٧/١ إلى الطبراني في الأوسط، قال: ورجاله موثقون إلا أن فيه: وجدت في كتاب خالي،فهو وجادة، وأخرجه ابن أبي داود في المصاحف ص ٧ ولم يذكر وجادة .

(٢) أخرجه الترمذي في الشمائل برقم ٣٢٦، وابن سعد في الطبقات ٣٦٥/١، والبغوي في الأنوار برقم ٢٩١، وعزاه الهيثمي إلى الطبراني قال: وإسناده حسن. ا.هـ مجمع الزوائد ٢٠/٩ .

ووثاقتهم وحذقهم فى الهجاء والكتابة(١) .

ثم كان يقوم الصحابة رضي ا لله عنهم بكتابته لأنفسهم ، واستظهاره فى قلوبهم ، وتبليغه من لم يبلغه منهم،وكانوا رضوان ا لله عليهم فى حال عال من الحرص على جمعه وحفظه، بحيث لم يكن مثل ذلك لأحد غيرهم، فقد كانوا يتناوبون ملازمة النبي صلى ا لله عليه وسلم إذا لم يتمكن أحدهم من ذلك بشغل أوجهاد ، فإذا ظفروا بجديد من القرآن لم يبرحوا حتى يحفظوه ويكتبوه إن تيسر لهم..(٢) .

فهكذا كان عليه الصلاة والسلام يبلغ القرآن الكريم بكل جهده،وطاقته وفى كل أوقاته وأحواله.

تبليغه صلى ا لله عليه وسلم للسنة:

وأما تبليغه صلى ا لله عليه وسلم للسنة فما كان أقل شأنا من إبلاغ الدعوة وإبلاغ القرآن،بل كان مسايرا لهما فى كل أطوار البلاغ والدعوة على حد سواء؛ لأن السنة هى من الوحي الذى أنزل على النبي صلى ا لله عليه وسلم كما قال ا لله تعالى: ﴿ وما يَنطقُ عن الهوى*إن هو إلاَّ وحيٌ يُوحَى ﴾[سورة النجم : ٣،٤] وإن غايرت وحي القرآن فى أمور كثيرة(٣) فإنها تتفق معه فى التشريع ، وتزيد عليه فى إيضاح القرآن الكريم وبيانه،كما

---

(١) انظر توثيق نصوص القرآن لخالد عبد الرحمن العك ص ٤٥-٤٨ .

(٢) انظر تفصيل ذلك في مناهل العرفان لمحمد عبد العظيم الزرقاني ٣١٣/١، والبرهان للزركشي ٢٣٣/١-٢٤١، والإتقان للسيوطي ٥٧/١-٦٤ .

(٣) وهي عشرة على خلاف في بعضها، جمعها الشيخ عبد ا لله بن إبراهيم بن الإمام العلوي في كتابه طلعة الأنوار ص ٢٢-٢٦ بقوله:

فالطَّرفُ الأعلى من الإعجاز ... مما به القرآن ذوامتياز
كذاك حفظه من التبدل ... ومنعه للمحدث المغتسل
ومنعه تلاوة للجنب ... في كل حرف منه عشرا أوجب
وفي صلاتنا له تعيينُ ... تخصيصه باسم القرآن بين =

ناط بها الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ وأنزلنا إليكَ الذِّكرَ لِتُبيِّن للنّاس ما نُزِّل إليهم ولعلَّهم يتفكَّرون ﴾[سورة النحل:٤٤] وكونها تبين كلام الله يقتضى أن تكون من عند الله؛ لأنها تبين مراده من كلامه لخلقه، ولا يكون ذلك إلا بما يوحى به إلى نبيه إذ هو العالم بكلامه ومراده منه على وجهه،فاقتضى ذلك أن تكون وحيا يوحى، كما أفادت الآية الكريمه وأوضحه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "..ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه"(١) ولذلك كانت سنته صلى الله عليه وسلم واجبة الطاعة والامتثال ككلام الله تبارك وتعالى، كما ألزم الله تعالى بقوله: ﴿وما آتاكم الرسولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتَهوا﴾ [سورة الحشر : ٧] بل إنه سبحانه قرن طاعته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم،فلا تقبل طاعةٌ لِله مع معصيةٍ لرسوله صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه: ﴿ وأطيعوا اللهَ والرسولَ لعلَّكم تُرحمون ﴾[سورة آل عمران:١٣٢] وكما قال: ﴿ من يُطِع الرسولَ فقد أطاعَ الله ﴾[سورة النساء:٨٠] وكما قال سبحانه: ﴿ وأطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحذرُوا فإنْ تولَّيتُم فاعلموا أنَّما على رسولِنا البلاغُ المبين ﴾[سورة المائدة:٩٢] .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى توجب طاعته صلى الله عليه وسلم كما توجب طاعة الله تبارك وتعالى، وما ذلك إلا لأن مايأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من عند الله بالوحى الجلي أو الخفي،أو الاجتهاد المؤيد بإقرار الله تعالى له فينزَّل منزلة الوحي، إذ لو لم يقره لنقضه أو تعقبه كما حدث فى قصة أسارى بدر،

فلهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يُعنى بإبلاغ السنة كما يعنى بإبلاغ القرأن، بل

= والنقل بالمعنى على المنصور ورأي الأربعة والجمهور
ومنع بيعه لدىَ ابن حنبل وكرهه لدى ابن شافع جلي
جُمله الآي وتُسمَى سورا ولا كذا الحديث فيما غبرا

(١) جزء من حديث أخرجه أبو دواد في السنة، باب لزوم السنة برقم ٤٦٠٤، وأحمد في المسند ٤/١٣٠-١٣٢، وابن ماجه في المقدمة، باب تعظيم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ١٢، كلهم من حديث المقدام بن عمرو بن معديكرب رضي الله عنه وإسناده حسن .

إن إبلاغه السنةَ كان أوسع دائرة من حيث إنــه لايمضـي عليه حـال مـن الأحـوال إلا وهـو محتاج إلى أن يبين ما يستجد فيه. مـن حُكـم أو موعظـة أو قصـة أو مثـل، إذ القـرآن يعنـى بجوامع الأمور ، وأصول التشـريع ، وقواعـد الأحكـام، ويتـولَّى رسـول ا لله صلـى ا لله عليـه وسلم بيان دقائق الأخبار وتفاصيل الأحوال فـى كـل الأحيـان والأحـوال، بـل غالبـه مجمـل أوكل ا لله بيانه إلى نبيه محمد صلى ا لله عليه وسلم كما علـمت آنفا، وقد كان عليه الصلاة والسلام يبين ذلك على الدوام ، والدليل على هذا محسوس ملموس، إذ هذه سنته صلـى ا لله عليه وسلم التى بلغت مآت الآلاف من الأحاديث ، والمدونـة فـى دووايـن السـنة، لم تـترك صغيرة ولاكبيرة من أمر الدين إلا وتناولتها بالتفصيل والبيان ، حتى بلغ من بيانـه صلـى ا لله عليه وسلم أن أخبر أصحابه بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، كما أخرج البخـارى ومسـلم من حديث حذيفة بن اليمان رضى ا لله عنه قال: "قام فينا رسول ا لله صلى ا لله عليـه وسـلم مقاما فما ترك شيئا يكون من مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدَّث به ، حفظـه مـن حفظـه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابى هؤلاء قال: وإنه ليكون الشيء قد نسـيتُه فـأراه فـأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه"(١).

وعنه رضى ا لله عنه قال :«أخبرنى رسول ا لله بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، فما فيــه شيء إلا وقد سألته، إلا أنى لم أسأله ما يخرج أهل المدينة من المدينة»(٢) .

وعن عمرو بن أخطب الأنصارى (٣) رضي ا لله عنه قال:«صلى رسول ا لله صلى ا لله

---

(١) البخاري في القدر، باب (وكان أمر ا لله قدرا مقدورا) ١٥٤/٨، ومسلم في الفتن، باب إخبـار النبي صلى ا لله عليه وسلم فيما يكون إلى قيام الساعة برقم ٢٨٩١ واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه مسلم في الباب السابق برقم ٢٨٩١ .

(٣) المكنى بأبي زيد الأنصاري الخزرجي، غزا مع النبي صلـى ا لله عليـه وسـلم عـدةً غـزواتٌ ومسـح علـى رأسـه وقال: اللهم جمِّله، فعاش بضعا ومائة سنة و لم تبيض له شعرة، انظر أسـد الغابـة ٢٠٤/٥، والإصابـة ٧٨/٤ ومعها الاستيعاب .

عليه وسلم يوما الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر ، فنزل فصلى ، ثم صعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، ثم نزل فصلى ، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس ، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن إلى يوم القيامة، قال : فأعلمُنا أحفظنا"(١) .

ومن هذه الأحاديث تعلم مدى تبليغه صلى الله عليه وسلم للسنة ، حيث كان ذلك البيان كله في مجلس واحد،فما بالك ببقية المجالس فى سائر الأيام ، نعم قد كان صلى الله عليه وسلم يخص بعض أصحابه ببعض الحديث مما يترتب على إبلاغه العامة فتنة أو مفسدة كأحاديث الفتن الخاصه ، وبيان المنافقين بالتعيين ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يخبر بذلك العامة،وإنما خص به بعض الصحابة كحذيفة بن اليمان رضى الله عنه كما دل عليه حديثه السابق، وكأبي هريرة رضى الله عنه الذى قال :«حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين : فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم"(٢) يعنى مجرى طعامه ، يكنِى بذلك عن قطع رأسه .

وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يخص بعض أصحابه بأحاديث يحمل إشاعتها على الاتكال وعدم العمل، كما خص معاذ بن جبل رضى الله عنه بحديث بيَّن فيه جزاء من لقي الله تعالى لا يشرك به شيئا كما أخرج الشيخان(٣) من حديث أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ وهو رديفه على الرحل: "يا معاذ بن جبل ، قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : يا معاذ ، فقال : لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا، قال: "ما من أحد يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله صِدقاً من قلبه إلا حرَّمه الله على النار" قال يا رسول الله: أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال: "إذاً يتّكلوا"، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما" أي: خروجا من إثم كتمان العلم.

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن، الباب السابق برقم ٢٨١٢ .

(٢) أخرجه البخاري في العلم، باب حفظ العلم ١/٤٠ .

(٣) البخاري في العلم، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا ١/٤٣، ومسلم فى الايمان برقم ٣٢ .

وعنه رضى الله عنه قال: : ذُكر لى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ : "من لَقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ، قال : ألا أبشر الناس ؟ قال: "لا إنِّي أخاف أن يَّتكلوا(١)" أي: يمتنعوا عن العمل اعتمادا على مايتبادر من ظاهر الحديث.

ومع خشيته صلى الله عليه وسلم هذه،إلا أنه لم يترك إبلاغ بعض من لا يخشى عليه الاتكال،أو أمن عليه عدم بث مايترتب على بثه فتنة أو مفسدة كأحاديث الفتن، وذلك لتبرأ ذمته فى البلاغ الذى كُلِّفه، أما أحاديث الفتن المجملة فقد كان يبلغها بلاغا عاما كما تشهد لذلك أحاديث الفتن الكثيره المحفوظة فى دواوين السنة الصحيحة وغيرها.

ومن ذلك ما أخرجه مسلم وأبو داود من حديث أبى بكرة (٢) رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة، القاعد فيها خير من الماشى فيها، والماشى فيها خير من الساعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه" قال: فقال رجل يا رسول الله: أرأيتَ من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟ قال: "يعمد إلى سيفه فيدق على حدِّه بحجر، ثم لينجُ إن استطاع النجاء، اللهم هل بلَّغتُ ؟ اللهم هل بلغت ؟ اللهم هل بلغت ؟" قال : فقال رجل يا رسول الله: أرأيت إن أُكرهت حتى ينطلق بى إلى أحد الصفين أو أحد الفئتين فضربنى رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلنى ؟ قال: "يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار"(٣).

فانظر كيف كان صلى الله عليه وسلم حريصا على البلاغ حتى أنه أشهد الله تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في العلم، الباب السابق ٤٣/١ .

(٢) هو نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي، على قول في نَسبه، نزل إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حصار الطائف متدليا ببكرة، فأسلم وكني بأبي بكرة، وكان من فضلاء الصحابة وصالحيهم، توفي بالبصرة سنة ٥١ هـ، انظر أسد الغابة ٣٨/٥، ١٥١، وتهذيب الأسماء ١٩٨/٢، والإصابة ٥٧٢/٣ .

(٣) مسلم في الفتن، باب نزول الفتن كمواقع القطر برقم ٢٨٨٧، وأبو داود في الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة برقم ٤٢٥٦ .

على ذلك ثلاثا ليبرأ من تبعة تحمّل الرسالة التى كلف بإبلاغها إلى الأمة، وقد أداها على أكمل وجه وبلغها كما أراد ا لله تعالى.

تكليفه صلى ا لله عليه وسلم من بلغه شيء عنه أن يبلغه غيره:

ثم لم يكتف بذلك بل كلَّف كل من يسمع عنه شيئا أن يبلغه إلى من وراءه ليعم بلاغه الأمة فى كل زمان ومكان، ليعملوا بما بلغهم من سنته فى كل ما كلف به بنو الإنسان من أمور الدين والدنيا.

فعن عبدا لله بن عمرو بن العاص رضى ا لله عنهما أن رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم قال: "بلِّغوا عنِّي ولو آية، وحدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"(١).

ورغبهم فى ذلك وشجعهم عليه ، فعن زيد بن ثابت رضى ا لله عنه قال سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول : "نضَّر ا لله امرءا سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغ غيره فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه،ورب حامل فقه ليس بفقيه"(٢).

وعن عبدا لله بن مسعود رضى ا لله عنه قال : سمعت رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم يقول: "نضَّر ا لله امرءا سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع"(٣).

وهكذا أدَّى رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم واجب التبليغ تارة بالعبارة،وتارة بالكتابة،وتارة بالحث على إبلاغ من لم يبلغه، لايألو جهدا ولا يدخر وسعا فى إيصال

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل ٢٠٧/٤، والترمذي في العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل برقم ٢٦٦٩.

(٢) أخرجه الترمذي في العلم، باب ماجاء في الحث على تبليغ السماع برقم ٢٦٥٦، وأبو داود في العلم، باب فضل نشر العلم برقم ٣٦٦٠، وأحمد في المسند ٤٣٧/١، وابن ماجه برقم ٢٤٢، والدارمي ٧٥/١، وهو حديث صحيح، وحسنه الترمذي .

(٣) أخرجه الترمذي في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع برقم ٢٦٥٨ وهو من الأحاديث المتواترة عن ابن مسعود وجبير بن مطعم والنعمان بن بشير وغيرهم، انظر قطف الأزهار المتناثره للسيوطي ص٢٢٨، ولقط اللآلى المتناثره في الأحاديث المتواتره للزبيدي ص١٦١.

رسالة ا لله التى حُمّلها إلى كل من يستطيع إيصالها إليه تنفيذا لواجب البلاغ الذى تحمله بمقتضى رسالته،وتنفيذا لأوامر ا لله تعالى فى ذلك كقوله سبحانه: ﴿ ياأيُّها الرسولُ بلِّغ ما أُنزلَ إليك من رّبك﴾[سورة المائدة:٦٧] فبلّغ البلاغ المبين منذ أن بعثه ا لله تعالى إلى أن أتاه اليقين.

تبليغه صلى ا لله عليه وسلم كل شيء حتى مايتعلق بجنابه العظيم من عتاب ونحوه

ولا أدل على ذلك من تبليغه حتى مايمس جنابه العظيم من العتاب الذى كان يوجهه ا لله تعالى إليه،كما هو مقتضى تأديب ا لله تعالى له صلى ا لله عليه وسلم الدال عليه ماروى عنه صلى ا لله عليه وسلم من حديث ابن مسعود رضي ا لله عنه يرفعه"أدَّبني ربي فأحسن تأديبي"(١) وذلك كما فى قوله جل شأنه: ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّم ما أحلَّ ا لله لك تَبتغى مرضاتَ أزواجك وا للهُ غفورٌ رحيم ﴾[سورة التحريم:١] وقوله سبحانه : ﴿وتُخفِى فى نفسِك ما ا للهُ مبديه وتَخشَى النَّاس وا للهُ أحقُّ أن تخشاه..﴾[سورة الأحزاب:٣٧] وقوله: ﴿ عفا ا للهُ عنك لِم أذنتَ لهم حتَّى يتبيَّن لك الَّذين صدقوا وتعلَم الكاذبين ﴾[سورة التوبة:٤٣] وقوله سبحانه: ﴿ ما كان لِنبيٍّ أن يكونَ له أَسرى حتَّى يُثخن فى الأرض تُريدون عرض الدُّنيا وا للهُ يريد الآخرة وا للهُ عزيزٌ حكيم * لولا كتابٌ من ا لله سبق لمسَّكم فيما أخذتُم عذابٌ عظيم ﴾[سورة الأنفال:٦٨،٦٧] وقوله سبحانه: ﴿ عبسَ وتولَّى ..﴾ إلى قوله: ﴿ وأمَّا من جاءك يَسعى * وهو يَخشى * فأنتَ عنه تلهَّى ﴾[سورة عبس:١-١٠] .

إلى غير ذلك من آيات العتاب التى ما كان ليتفوَّه النبي صلى ا لله عليه وسلم بها لولا كمال أخلاقه فى البلاغ وكمال أمانته فيه ، لأن فى كتمان ذلك فى نظر العقول البشرية ستر على النفس الشريفة واستيفاء لحرمة آرائه، ولكنه الوحي لايستطيع كتمانه إذ

(١) أخرجه ابن السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء ص١، بلفظ إن الله أدبني وأحسن أدبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال: ﴿خذو العفو وأمر بالعرف﴾ الآيه. قال السخاوي في المقاصد الحسنه ص٢٩ : وإسناده منقطع فيه من لم **أعرفه** عن عبدا لله أظنه ابن مسعود رضي ا لله عنه. وذكر له شواهد وقال عنه : إسناده ضعيف جدا، وإن اقتصر شيخنا ـ يعني الحافظ ابن حجر ـ على الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه. قال : ولكن معناه صحيح ونقل عن ابن تيميه نحو ذلك، وذكره السيوطي في الجامع الصغيرص١٣ ورمز لصحته، ونقل في الدرر المنتثره في الأحاديث المشتهرة ص٤٣ تصحيح أبي الفضل بن ناصر له، وانظر فيض القدير للمناوي ٢٢٤/١ .

هو الصادق الأمين الـذى اصطفاه لإبلاغ رسالته و﴿ ا للهُ أعلمُ حيث يجعلُ رسالتهَ ﴾(١) [سورة الأنعام : ١٢٤] ولذلك قال أنس بن مالك رضي ا لله عنه: "لو كـان محمـد صلـى ا لله عليه وسلم كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هـذه الآيـة ﴿ وإذ تقـولُ لِلـذى أنعـمَ ا للهُ عليـه وأنعمتَ عليه أمسِك عليك زَوجك واتَّقِ ا للهَ وتُخفِـى فـى نفسِـك مـاا للهُ مُبديه وتَخشـى النَّاس وا للهُ أحقُّ أن تخشاه ﴾[سورة الأحزاب : ٣٧](٢) وعن عائشة رضي ا لله عنهـا قـالت : « من حدَّثك أن محمدًا كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب وا لله يقـول: ﴿ ياأيُّهـا الرسـولُ بلِّغ ماأنزل إليك ﴾[سورة المائده: ٦٧](٣) .

ولقد صدق أنس وصدقت عائشة رضـي ا لله عنهمـا وبَـرًّا ، فمـا أدق اسـتنباطهما فـى الدلالة على واجب البلاغ الذى قام به النبي صلى ا لله عليـه وسـلم، فإنـه أمـين ا لله علـى وحيه ، لايكتم صغيرة ولاكبيرة مما أراد ا لله تعالى إبلاغه إلى خلقه ، وكيف لا وقد زكَّاه ا لله تعالى فى ذلك حيث قال سبحانه: ﴿ لِيعلَم أنْ قد أَبلغـوا رسـالاتِ ربِّهـم .. ﴾[سورة الجن : ٢٨] وقال عنه سبحانه: ﴿ وما هُو على الغيبِ بظَنين ﴾[سورة التكوير:٢٤] أي: مـاهو على ما يخبر به من الوحي إليه وغيره من الغيوب بمتهم ، وقرىء (بضنين) من الضن: وهو البخل ، أى لايبخل بالتعليم والتبليغ (٤)، بـل يبذلـه لكـل أحـد، كمـا قـال قتـادة: كـان القرآن غيبا، فأنزله ا لله تعالى على محمد فما ضن به على الناس؛ بل نشره وبلَّغه وبذله لكل من أراده ، قال ابن كثير : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح(٥) .

وهذه شهادة من ا لله له وتزكيته بأداء واجب البـلاغ علـى أكمـل وجـه (وكفـى بـا لله شهيدا) ولم يكتف سبحانه وتعالى لحبيبه محمد صلى ا لله عليه وسلم بهذه الشهادة بل لقد

---

(١) انظر النبأ العظيم د/محمد عبد ا لله دراز ص ٢٤،٢٥ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء) ١٥٢/٩، ومسلم في الإيمان، بـاب معنـى قـول ا لله عز وجل: ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ برقم ١٧٧ .

(٣) أخرجـه البخاري في تفسير سورة المائدة، باب ﴿ يا أيها الرسول بلغ .. ﴾ ٦٦/٦ وفي تفسير سورة النجـم ١٧٦/٦، وفي التوحيد، باب قول ا لله تعالى: ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ... ﴾ ١٩٠/٩ .

(٤) تفسير البيضاوي ص ٧٨٧ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ٤٨٠/٤ .

أضاف اليها شهادة أخرى بأسلوب آخر حيث قال جل شأنه: ﴿ اليوم أكملتُ لكم دينكم وأتممتُ عليكم نِعمتى ورضيتُ لكم الأسلام دينا ..﴾[سورة المائدة : ٣] فإن كمال الدين لايكون إلا بالتبليغ لجميع أحكامه وما أوحى الله به فى شأنه إلى أهله عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم.

ومع ماشهد الله له بالبلاغ المبين فإنه عليه الصلاة والسلام أحب أن تشهد له أمته بذلك فاستنطقها بها لتطمئن نفسه، وذلك فى يوم عرفة فى حجة الوداع حيث قال لهم فى خطبته العظيمه ذلك اليوم: "..وأنتم تسألون عنِّى فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأدَّيت ونصحت ، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد،اللهم اشهد،ثلاث مرات"(١).

وفى حديث سَمُرَةَ بن جُنْدب فى قصة الكسوف قال عليه الصلاة والسلام: "إنما أنا بشر رسول ، فأذكِّركم با لله إن كنتم تعلمون أنِّى قصَّرت عن تبليغ شيء من رسالات ربي ؟" يعنى فقولوا ، فقالوا : نشهد أنك بلَّغت رسالات ربك وقضيتَ الذى عليك(٢)" فهكذا كانت سناء أخلاقه صلى الله عليه وسلم العظيمة تحمله على أن يتحسَّس من أصحابه أن يخبروه إن وجدوا منه صلى الله عليه وسلم تقصيرا فى واجب البلاغ ، وذلك لكمال خشيته لله وأمانته فيما اؤتمن عليه، وإلا فإنه يعلم أنه المعصوم عن ذلك فإن كان جانب البشرية منه يجوِّز له التقصير، فإن واجب العصمة تمنعه منه ويدفعه إلى كمال البلاغ .

فصلى الله وسلم على سيدنا محمد رسول الله فما أعظم إحساسه بالمسئوليه،وأجلَّ خشيته لله عز وجل !! فنشهد أنه قد بلَّغ الرسالة،وأدَّى الأمانة،ونصح الأمة ، وجاهد فى الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

---

(١) جزء من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في بيان حجة النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه مسلم في الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم برقم ١٢١٨ .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٨/٣٠٠: صححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم .

المبحث الرَّابع

(الفطانة)

الفِطنة فى اللغة : الحذق ، وضدها الغباوة ، وقيل الفطنة الفهم ، والذكاء سرعته وقيل: الفهم بطريق الفيض وبدون اكتساب(١) .

والمعانى متقاربة ، إذ كلها تفيد خُلقا فاضلا فى الذات الأنسانيه يقدر به المرء على المحاجه والمجادلة وإفحام الخصم ، وذلك بخلق هو الفطانة التى عرَّفوها في الاصطلاح بأنها: "التَّيقظ لألزام الخصوم وإحجاجهم وإبطال دعاويهم الباطله"(٢) .

مكانةّ هذا الخلق فى أخلاق الرسل :

والفطانة بهذا المفهوم من أبرز أخلاق الرسل الذاتية التى منحهم ا لله تعالى إياها، وهي من لوازم الرسالة الإلهيه،والاصطفاء الرباني لها،لأن حمل رسالة عِلمية،ومهمة تربويَّة للناس، وقيادة سياسيةّ عظيمة ، لابد أن يرافقها فى حاملها صفة الاستعداد لحمل هذه الرسالة يعرف بها الرسول ما يلقى إليه من الوحي؛ وبها يستطيع أن يحفظه ولا ينساه، وبها يستطيع بعد ذلك أن يبلغه كما أوحي إليه به، وبها يستطيع أن يعالج أمته بالتربية الحكيمة والقيادة السليمة وفق طبائعهم وأخلاقهم وهذه الصفة هى صفة الفطانة)(٣) .

لذلك فلا يصطفى ا لله تعالى لرسالته إلا من يتمتَّع بصفة الفِطنة التامة، والعقل الراجح؛ لأن من لم يكن فطِنا بأن كان مغفَّلا لا يمكنه إقامة الحجة على صدق دعواه ، ولامجادلة أعدائه الذين يريدون إخفاق دعوته ودحض حجته ، كما لايستطيع أن يقنع الآخرين بالحق الذى جاء به .

وقد قص ا لله تعالى لنا من أحوال فطنة رسله مالاينقضى منه العجب، من سرعة البديهة وإقامة الحجة الصادقة ، ودفع الحجة الباطله وإلزام الخصم وإفحامه بالبراهين النَّيِّرة، والحجج الدامغة وذلك كنوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، ويوسف، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات ا لله وسلامه عليهم أجمعين .

---

(١) القاموس المحيط بشرحه تاج العروس ٣٠١/٩، والصحاح للجوهري ٢١٧٧/٦ .

(٢) تحفة المريد للباجوري ص ٧٦ .

(٣) العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة الميداني ص ١١٢ بتصرف يسير .

نماذج من فطنة رسل ا لله:

إذا ذهبنا نبحث عن نماذج حيةٍ عن فِطن الأنبياء فى القرآن الكريم ، فإننا نجد من ذلك الكثير الطيب مع كل من ذكر فى القرآن الكريم ، وذلك يفضى بنا إلى الإطالة ، ولكن بحسبنا أن نأتي ببعض نماذج لتكون كافية فى الدلالة على باقيها ، وذلك من واقع حياة نبيي ا لله نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام،لتخلص من ذلك إلى تقريرها فى نبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم وأدلتها من حياته فى مراحل حياته ودعوته.

فطنة نوح عليه السلام:

لقد استطاع نوح عليه السلام بفطنته العظيمة أن يُفحم مناوئيه من قومه حتى أقروا له بالعجز عن مجادلته واستعجلوا مايتوعدهم به من العذاب ، وقالوا : ﴿ يانوحُ قد جادلَتنا فأكثرتَ جِدالنا فائتِنا بما تعِدنا إن كنتَ من الصَّادقين ﴾[سورة هود : ٣٢] ذلك لأنه مافتىء يناظرهم ويجادلهم ويحاججهم ، كلَّما أتوه بشبهة فنَّدها ، وكلما جادلوه أسكتَهم ، فلا يملكون جوابا ولا ردا ولاحجَّة ، فلما قال له ﴿ الملأُ الذين كفروا من قومِه مانراكَ إلابشراً مثلَنا ومانراك اتَّبعك إلا الَّذين هم أَراذِلُنا باديَ الرَّأي ومانرى لكم علينا من فضلٍ بل نظُنُّكم كاذبين ﴾[سورة هود : ٢٧] أجابهم نوح عليه السلام بقوله : ﴿ قال ياقومِ أرأَيتُم إن كنتُ على بَيِّنةٍ من ربِّي وآتانِي رحمةً من عندِه فعُمِّيت عليكم أَنُلزِمُكُموها وأنتُم له كارِهون * وياقومِ لا أسأَلُكم عليه مالاً إن أَجريَ إلاَّعلى ا للهِ وما أنا بطارِدِ الَّذين آمَنُوا إنَّهم مُلاقوا ربِّهم ولكنِّي أراكم قومًا تجهلون * وياقومِ من يَنصُرني من ا للهِ إن طردتُّهم أفلا تَذَكَّرون * ولا أقولُلكم عندِي خزائنُ ا للهِ ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ إنِّي ملَك ولا أقولُ لِلَّذين تَزدرِى أعيُنكم لَن يُؤتِيَهم ا للهُ خيراً ا للهُ أعلم بما فِي أنفسِهم إنِّي إذًا لمن الظَّالمين ﴾[سورة هود : ٢٨-٣١] .

فقومه لما جادلوه بما يُنمى عن قصور عقولهم حيث احتجوا عليه بفقده وسائل السؤدد عليهم من المال والجاه ، فرأوا أنه غير أهلٍ لشرف الرِّسالة لِذلك ، وأنَّه من جِنسهم البشرى،وظنُّوا أن شرف الرسالة ينبغى أن يَكون لغير هذا الجنس، مع أنه الجنس الذى كرَّمه ا لله وشرفه على كثير من الأجناس كما قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى أدم ﴾ [سورة الأسراء : ٧٠] .

فلما قصر نظرهم عن إدراك أسباب الكمال حيث نظروا إليه وإلى أتباعه فلم يروا فى أجسامهم ما يميزهم عن الناس ، بل أن أتباعه من ضعفاء قومهم ، ورأوا أن ذلك علامة كذبه وضلال أتباعه، لما كان أمرهم كذلك سلك نوح عليه السلام فى مجادلتهم مسلك الإجمال لإبطال شبههم، ثم مسلك التفصيل لرد أقوالهم .

أمامسلك الاجمال فسلك فيه مسلك القلب ، بأنهم ان لم يروا فيه وفى أتباعه مايحمل على التصديق برسالته ، فكذالك هو لايستطيع أن يحملهم على رؤية المعانى الدالة على صدقه ،وأنه لايستطيع منع الذين آمنوا به من متابعته والاهتداء بالهدي الذى جاء به ، وأنه لم يدع فضلا غير الوحى إليه ، كما حكى ا لله عن أنبيائه ورسله عليهم السلام فى قوله: ﴿ قالت لهم رسلُهم إنْ نحنُ إلابشَــرٌ مثلُكم ولكنَّ ا للهَ يَمنُّ على من يشــاءُ مــن عِبـاده ﴾[سورة ابراهيم : ١١] .

ثم فصل إجابته السابقه ، فأجابهم عما توهموه من أن من لــوازم النبـوة أن يكـون أغنـى منهم أو أن يعلم الأمور الغائبة بقوله : ﴿ ولا أقولُ لكم عندِي خزائنُ ا للهِ ولا أعلـمُ الغيـب ﴾ والمعنى لاأدعى ماليس لى فتنكروا قولي وتستبعدوا ما آتانى ا لله من فضل النبوة.

وعن دعواهم بأنه بشر لايستحق أن يتميز عنهـم بالرسـالة أجـابهم بقولـه : ﴿ ولا أقـولُ إنِّي ملَك ﴾ يعنى بل أنا بشر مثلكم تعرفونـي وأعرفكـم ، ولكـن آتـانى ا لله فضـل الرسـالة إليكم .

وعن دعواهم باسترذال أتباعه لكونهم من ضعفائهم وفقرائهم أبطله بطريقة التغليط،لأنهم جعلوا ضعفهم وفقرهم سببا لانتفاء فضلهم ، فأبطله بـأن ضعفهـم ليـس بحـائل بينهـم وبـين الخير من ا لله تعالى إذ لا ارتباط بين الضعف فى الأمور الدنيويه من فقر وقلـة،وبـين الحرمـان من نوال الكمالات النفسانيه والدِّينيه ، فقال : ﴿ ولاأقولُ لِلَّذِينَ تَزْدرِي أعيُنكم لن يُؤتِيَهـم ا للهُ خيراً ا للهُ أعلم بما فى أنفسهم ..﴾ .

وهكذا فند ادعاآتهم واحدة واحدة بما لم يترك لهم مجالا للمكابرة ، حيث قرر لهم بذلـك الحقـائق الثابتـة فـى شـأنه والتـى لا يجهلونهـا ، وجعلهـم فـى واقـع الأمـر مسـلِّمين بأنـه

لايحملهم على مجادلته إلا محض الكبر ومجرد اللجاج والعناد،فما كان لهم بعد ذلك من طاقة فى الصبر على مجادلته المفحمه ، فعدلوا إلى استعجال العذاب الذى يتوعدهم به لما سئموا من تزييف معارضتهم وأرائهم ، شأنهم بذلك شأن المبطل اذا دمغته الحجه فقالوا : ﴿يانوحُ قد جادلتنا فأكثرتَ جِدالنا فأتِنا بما تعِدُنا إن كنتَ من الصَّادقين ﴾[سورة هود: ٣٢](١).

وكم قصَّ علينا القرآن الكريم من جدله المحكم الرصين الذى كان يواجههم به(٢) واستقصاؤه يفضي إلى الأطالة فبحسبنا هذا المثال .

فطنة ابراهيم عليه السلام :

إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، استطاع بفطنته النَّيِّرة وذكائه المفرط أن يفحم أعداءه ويقيم عليهم الحجة والبرهان الدامِغَيْن على بطلان معبوداتهم وضلال معتقداتهم ، بحيث عجزوا عن مناظرته ومجادلته ، وعدلوا إلى مغالبته بقوة البأس ، شأن من تعياعليهم الحجج فيعدلون إلى القوة،ولكن مالبثوا أن خيَّبهم الله وأذلهم من حيث أرادوا من القوة والبطش،وقد قص الله فى كتابه الكريم من أخبار مجادلته قومه ما يشهد ببالغ فطنته وفرط ذكائه،من ذلك مناظرته لقومه فى شأن معبوداتهم من الكواكب ، حيث استطاع إقامة الحجة الدامغة عليهم فى بطلان ألوهيتهما بما لم يدع شكا للمتصف العاقل ، فقد استدرجهم فى تفنيد اعتقادهم شيئا فشيئا،حتى أتى على متعقدهم الزائف من أساسه، وأقام الحجة الدامغة على اجتثاثه،كما قصه الله تعالى علينا ذلك بقوله:﴿ وكذلك نُرى إبراهيمَ ملكوت السَّمٰواتِ والأرضِ وليكونَ من الموقنين * فلمَّا جنَّ عليه اللَّيلُ رأى كوكَباً قال هذا ربِّي فلما أفَل قال لا أحبُّ الآفلين * فلما رأى القمرَ بازغا قال هذا ربي

---

(١) انظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٥/٤٥ـ٦٠، وتفسير ابن جزي ٢/١٠٣ـ١٠٤ ، وتفسير البيضاوي ص ٢٩٥ .

(٢) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ١/٨٤ـ٩١ حيث جمع كل ما حكاه الله عنه في شأنه في القرآن الكريم .

فلما أفلَ قال لئِن لم يَهدنى ربّى لأكونَنّ من القوم الضّالين * فلما رأى الشمسَ بازغةً قال هذا ربّى هذا أكبر فلما أَفلت قال ياقومِ إنى بَريءٌ مما تُشركون * إِنّى وجَّهتُ وجهي لِلَّذى فطر السمٰوات والأرض حَنيفا وما أنا من المشركين ﴾[سورة الأنعام : ٧٥-٧٩] .

"فقد بين لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة ، لاتصلح للألوهية ، ولاأن تعبد مع الله عز وجل ، لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة ومدبَّرة مسخَّرة ، تطلع تارة وتأفل تارة أخرى فتغيب عن هذا العالم ، والرب سبحانه وتعالى لايغيب عنه شيء ولاتخفى عليه خافيه، بل هو الدائم الباقي بلازوال، لااله إلاهو ولارب سواه.

فبين لهم أولا عدم صلاحية الكواكب ، ثم ترقّى منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى،ثم ترقى إلى الشمس التى هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين أنها مسخرة مسيرة مقدرة مربوبة فلاتصلح أن تكون ربا) (١) ، وأن الرب شأنه أن يكون مدبِّراً مسخِّرا ضارا نافعا ، وأن هذه الكواكب لاتملك شيئا من هذه الأمور ، فهي إذاً لاتستحق أن تعبد،فأعلن براءته منها وإخلاص عبوديته لله تعالى قائلا : ﴿إِنّى وجَّهتُ وجهى لِلَّذى فطر السمٰواتِ والأرضِ حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ وبذلك زعزع إيمانهم فى معتقداتهم الضّالة بهذه الكواكب السَّيارة،التى لاتملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وذلك بفضل الله تعالى،ثم بفضل هذا الأسلوب الجدلى الحكيم القائم على استدراج المخاطب بالتسليم بدعاويه ثم الكر عليها بالبطلان ، بقوة الحجة والبرهان، وما كان له بذلك من قوة لولا الفطنة الكبرى التى رزقه الله تعالى إياها،لتساير تكليفه بالرسالة. ومن صور مجادلاته المفحمة مناظراته المحكمة الدالة على قوّة فطنته وكمال نباهته، تلك المجادلة التى جرت بينه وبين ملك زمانه ، (النمرود) (٢)

---

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ١٦٠/١ .

(٢) نقل الحافظ ابن كثير في قصص الأنبياء ١٧١/١ عن المفسرين وغيرهم من علماء النسب والأخبار أن هذا الملك هو ملك بابل واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح،وقال غيره: إنه كان أحد ملوك الدنيا قال: فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان، =

لأثبات وحدانية الله تعالى، التى كان ينازع فيها هذا الملك الجبار المتمرد ويدّعيها لنفسه، وذلك كما قصها الله تعالى علينا فى كتابه الكريم حيث قال: ﴿ ألم تَر إلى الَّذى حاجَّ إبراهيمَ فى ربِّه أن آتاهُ الله المُلك إذ قال إبراهيمُ ربِّى الذى يُحي ويُميت قال أنا أُحيي وأميتُ قال إبراهيمُ فإنَّ الله يأتي بالشَّمس من المشرِق فأتِ بها من المغرب فبُهِتَ الذى كفر والله لايَهدى القوم الظالمين ﴾[سورة البقرة ٢٥٨] فإن نبي الله إبراهيم عليه السلام لما دعاه إلى التوحيد وعبادة الله تعالى حمله جهله وإنعام الله عليه بالملك وطول العمر على إنكار الخالق جل جلاله المستحق للتوحيد والعباده فطفق يجادله بالباطل ليدحض به الحق، فأراد إبراهيم عليه السلام أن يكذِّب دعواه بدليل محسوس،يدركه كل عاقل وهو أن الرب الحق هو الذى يحيي ويميت، والذى يفعل ذلك هو ربى وأنت لاتملك ذلك ولا تقدر عليه، فذهب الجاهل يجادل بما لايُجهل بطلانه،ويدعى لنفسه هذه الخصوصية، فقال: (أنا أحيي وأميت) وهذه مغالطة مكشوفة إذزعم أنه يعمد إلى من حكم عليه بالموت فيعفو عنه،والى بريء فيقتله، وظن أنه بذلك قد خلق الحياة والموت وأنه استطاع أن يقيم الحجة على نبي الله تعالى ويقنع الحاضرين من أبناء جنسه ومن هم على شاكلته فى الشرك والضلال، ولاشك بأنه سيجد آذانا صاغية تصدق بحجته هذه الواهيه من متبوعيه،فسيصفّقون له تصديقا وابتهاجا، مع أن إجابته تلك هي انقطاع عن المحاجة، وفرار منها فى الواقع، إذما أراده ليس من باب الإحياء والإماتة فى شيء، فان الإحياء والأماتة تعنى خلق الأجسام الحية من الإنسان والحيوان، وفنائها، وهذا معلوم بالضرورة بالنسبة لكل إنسان،لذلك فقد عدل إبراهيم عليه السلام عن الاعتراض بأن هذا ليس من الأحياء المحتج به،ولامن الأماتة المحتج بها، لِما علم من مكابرة خصمه،وانتقل إلى مالا يستطيع الخصم انتحاله،فذكر دليلا آخر يبين وجود الصانع ووجوب وعبادته فقال له: (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب) فإن الذى يحيي ويميت هو الذى

= والكافران: النمرود وبُختنصَّر، قال: ذكروا أن نمروذا هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة، وكان قد طغى وبغى وتجبر وعتا وآثر الحياة الدنيا. ا.هـ .

يفعل هذه الأشياء فعندئذ (بهت الذى كفر) أى غلب ،
وصار مبهوتا منقطعا عن الكلام متحيرا لاستيلاء الحجة عليه ، إذلا قدرة له عند ذلك على المكابرة أو المغالطة (١)،

وهكذا أقام عليه نبي ا لله ابراهيم عليه السلام الحجة الدامغة بفطنته النيرة ، بحيث لم يستطع مواصلة اللِّجاج والعناد، وبذلك عُرف خُبره لأتباعه وأنه أحقر من أن يخلق بعوضة أو يدبر أمرا،وتبيَّن لهم بذلك أن دعواه الألوهيه محض افتراء ، ولكنهم مع ذلك لم يهتدوا، إذ الناس غالبا على أديان ملوكهم وأتباع كل ناعق،فاستمروامعه على الباطل وعاونوه عليه حتى أرادوا بإبراهيم عليه السلام كيدا فجعلهم ا لله هم الأخسرين كما فى قصة إرادة إحراقه وإنجاء ا لله له،وجعل نارهم عليه بردا وسلاما، وكم كان لإبراهيم عليه السلام من مناظرات ومجادلات مع قومه عبدة الأصنام والكواكب قصها علينا القرآن الكريم ، كان يفحمهم فيها ويلزمهم الحجة ويقيم عليهم البرهان،كل ذلك بفضل ماآتاه ا لله من فِطنة نيِّرة،وذهن وقَّاد،وحس مُرهف ، كما قال ا لله تعالى : ﴿وتلك حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ نَرفعُ درجاتٍ من نشاءُ إنَّ ربَّك حكيمٌ عليم﴾[سورة الأنعام :٨٣].

وقد آتى ا لله تعالى تلك الفطنة لكل أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام كما يعلم ذلك جليا مما قصه ا لله علينا من أحوالهم مع أقوامهم فى الحوار والجدال والمناظرة التى كانوا يجرونها معهم ، فيقطعون بذلك لجَجَهم وخصوماتهم ، ويبينون زيف أقوالهم وجدالهم فيهدى ا لله من يشاء ويضل من يشاء ، ولكن بعد ما تقام الحجة الواضحة ويستبين الحق المبين ، وصدق ا لله إذيقول : ﴿.. رُسُلا مبشِّرين ومُنذِرين لئَلاَّ يكون للنَّاس على ا للهِ حُجَّةٌ بعد الرُّسل﴾[سورة النساء : ١٦٥]

(١) انظر التحرير والتنوير ٣٢/٣–٣٣، وروح المعاني ١٦/٣/١–١٩، وقصص الأنبياء لابن كثير ١٧١/١-١٧٣.

فطنة نبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم

أما فطنة نبينا محمد صلى ا لله عليه وسلم فقد كانت في ذروة الذرى من بين فطن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام،فطره ا لله عليها لِما رشحه إليه من حمل رسالته العامه الخاتمة: الملة الحنيفيه المرتضاه لديه سبحانه،وهى شريعة االأسلام ﴿ إنَّ الدِّين عندَ ا لله الاسلام ﴾ [سورة آل عمران : ١٩] ﴿ورضيتُ لكم الأسلام دينا﴾[سورة المائدة : ٣] وقد دل على فطنته عليه الصلاة والسلام أمر ا لله تعالى له أن يجادل معاندي دعوته حيث قال : ﴿..وجادِلهم بالّتي هي أحسن﴾[سورة النحل : ١٢٥] وقال له : ﴿ولاتُجادلوا أهلَ الكِتابِ إلاَّ بالتى هي أحسن﴾[سورة العنكبوت : ٤٦] .

فإن هذا التكليف الربانى يدل على كمال فطنته عليه الصلاة والسلام حيث كلَّفه ا لله تعالى بمجادلة الكفار من مشركين وأهل كتاب،على صدق دعوته الرسالة ، ووجوب إثبات وحدانيّة ا لله تعالى وعبادته ..ومعلوم أن الجدال لايقدر عليه إلامن كان مُفرطا فى الذكاء والفطنة ، وإلافإنَّ الحجة ستقام عليه ويُغلب ، وتدحض حجته ، ولكن لما كان رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فى ذِروة الذكاء والفِطنه أوكل ا لله إليه مجادلتهم ، وثوقا بكامل فطنته لأقامة الحجة الدامغة على أعدائه ، كما حدث بالفعل فى كل مجادلاته ومناظراته التى جرت بينه وبين أعدائه كما سيتبين لك ذلك عند ذكر نماذج منها،ومما يدل على كمال فطنته عليه السلام ، قول ا لله تعالى : ﴿ن والقلمِ وما يَسطرون۞ ماأنتَ بنعمة ربِّك بمجنون﴾[سورة القلم : ١،٢] حيث أقسم المولى جل وعلا قسما مؤكدا(١) على نفي الجنون عنه الذى كان يرميه به بعض المشاغبين من أهل الكفر والعناد ،كما قال سبحانه : ﴿وإن يكادُ الَّذين كفروا لَيُزلِقونَك بأبصارهم لماَّ سمعوا الذِّكر ويقولُون إنه لمجنون﴾[سورة القلم : ٥١] وذلك ردا عليهم وتكذيبا لقولهم،كما قال فى آية اخرى ﴿وماصاحبُكم بمجنون﴾[سورة التكوير : ٢٢] وقال : ﴿فذكِّر فما أنتَ بنعمةِ ربِّك بكاهن ولامجنون﴾[سورة الطور : ٢٩] وفى ذلك النفي إثبات لكمال عقله ،« وأنه من إنعام ا لله عليه بحصافة العقل والشهامة التى يقتضيها التأهيل للنبوة بمنزلة»(٢) عظمى لايرقى إليها .

---

(١) المؤكدات هنا هي القسم ومجيء الجملة بعد النفي بالباء التي تزاد بعد النفي لتأكيده، والجملة الاسمية المنفية

(٢) البحر المحيط لأبي حيان ٣٠٨/٨ .

وقد برهن ا لله تعالى على كمال عقله إضافة إلى قسمه المؤكد بعظمة أخلاقه حيث قال بعد ذلك ﴿وإنَّ لك لأجراً غير ممنون * وإنَّك لعلى خُلُق عظيم﴾[سورة القلم : ٣،٤] إذ أن صاحب الخلق العظيم ، لايكون إلافى منتهى الكمال العقلى والصفاء الذهنى ، لأن العقل أصل فروع الفضائل الخُلقيه وعنصر ينابيعها ونقطة دائرتها ، حيث يتفرع منه "ثقوب الرأى وجودة الفطنة ، والأصابة ، وصدق الظن ، والنظر للعواقب ، ومصالح النفس ، ومجاهدة الشهوة ، وحسن السياسة والتدبير ، واقتناء الفضائل وتجنب الرذائل " وقد كان صلى ا لله عليه وسلم من هذه كلها فى الغاية القصوى التى لم يبلغها بشر سواه (١) .

وقد نقل القاضى فى الشفاء(٢) عن وهب بن منبه (٣) رحمه ا لله تعالى قال :«قرأت فى أحد وسبعين كتابا فوجدت فى جميعها أن النبي صلى ا لله عليه وسلم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا»وفى رواية أخرى قال :«فوجدت فى جميعها أن ا لله تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها فى جنب عقله الا كحبة رمل من بين رمال الدنيا»

وقال القاضى بعد أن قرر أنه لا مرية فى أنه صلى ا لله عليه وسلم أعقل الناس وأذكاهم ، قال :« ومن تأمَّل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة، مع عجيب شمائله،وبديع سيره،فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع،دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدمت ولا مطالعة للكتب فيه،لم يمتر فى رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة »(٤).

---

(١) الشفاء للقاضي عياض ٢١٦/١ .

(٢) ١٦٢/١ .

(٣) ابن كامل اليماني الصنعاني الأبناوي تابعي جليل ثقة، من المشهورين بمعرفة الكتب الماضية، وسمع من عدد من الصحابة كجابر بن عبد ا لله وابن عباس وعبد ا لله بن عمرو بن العاص وغيرهم، قال الإمام النووي اتفقوا على توثيقه توفي سنة ١١٤ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٥٤٣/٥، وتهذيب الأسماء ١٤٩/٢ .

(٤) الشفاء ١٦١/١ .

تمثل خلق الفطنة

فى النبي صلى الله عليه وسلم

أما تمثل هذا الخلق فى النبي عليه الصلاة والسلام ، فيتجلى فى مظاهر كثيرة من سير حياته صلى الله عليه وسلم نذكر منها مايلى :

أ - سرعة إقامة الحجة على المعارضين وقطع شغبهم وجدالهم بالباطل ، فلايستطيعون مجاراته أو مكابرته ، بل لايسعهم إلا الأذعان والتسليم ، أو النكوص على أعقابهم خاسئين خاسرين وصور ذلك كثيرة منها :

١ - ماجاء عن سعيد بن أبى راشد (١) رحمه الله ، قال : رأيت التَّنوخى رسول هرقل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (بحمص) وكان جارا لى شيخا كبيرا ، قد بلغ الفناء أو قرب ، فقلت : ألا تخبرنى عن رسالة هرقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ، قال : بلى ... وذكر الحديث وفيه: "فانطلقت بكتابه (أى كتاب هرقل) حتى جئت «تبوكَ» فإذا هو جالس بين أصحابه على الماء ، فقلت : أين صاحبكم ؟ ، قيل: ها هوذا ، قال : فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه ، فناولته كتابى فوضعه فى حجره ، ... إلى أن قال : ثم إنه ناول الصحيفة رجلا عن يساره ، فقلت : من صاحب كتابكم الذى يقرأ لكم ؟ فقالوا : معاوية. فإذا فى كتاب صاحبى : يدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين ! فأين النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :«سبحانَ الله فأين الليل اذا جاء النهار ؟!..» الحديث (٢) .

---

(١) قال في التهذيب ٢٦/٤: ذكره ابن حبان في الثقات، وفي التقريب برقم ٢٣٠١ مقبول .

(٢) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٣٩/٨ إلى عبد الله بن أحمد وأبي يعلى، قال: ورجال أبي يعلى ثقات، ورجال عبد الله بن أحمد كذلك .

٢ - ومن ذلك ماجاء عن عدى بن حاتم (١) رضى الله عنه فى قصة إسلامه ، وفيه قال :« .. فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان ، أو قال صبي ، قال : فعرفت أنه ليس ملك كسرى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : «ياعدي بن حاتم ماأفرّك ؟ أن تقول : لاإله الا الله ، فهل من إله إلا الله ؟ ماأفرّك أن يقال : الله أكبر ، فهل شيء هو أكبر من الله عز وجل؟» قال : فأسلمت فرأيت وجهه استبشر..» (٢)

٣ - ومن إجاباته القاطعة للحجج ماأجاب به أبا سفيان يوم أحد حينما افتخر أبوسفيان وهو على شركه إذ ذاك ، بأوثانه إثر المعركة التى انجلت عن نصر له ولقومه أهل الشرك والوثنيه ، فقال متبجّحا : ..اعلُ هُبَل (٣) ، فقال صلى الله عليه وسلم:«أجيبوه» فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا :«الله أعلى وأجل» قال أبو سفيان:لنا العُزّى(٤) ولا عُزّى لكم ، فقال صلى الله عليه وسلم :«أجيبوه » فقالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا :«الله مولانا ولا مولى لكم» - فقال أبو سفيان : يوم بيوم والحرب سجال،وتجدون مُثْلة لم آمر بها و لم تسؤنى ، فقال صلى الله عليه وسلم :« أجيبوه » فقالوا:مانقول ؟ قال :«قولوا:لا سواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار» (٥).

ب - ومن مظاهر كمال فطنته صلى الله عليه وسلم سرعة حله للمشاكل المستعصيه التى تحار فى حلها العقول الكبيرة الشهيرة وصور ذلك كثيرة ومنها :

---

(١) الطائي أسلم سنة تسع من الهجرة، وكان جوادا شريفا في قومه معظما عندهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرمه إذا دخل عليه، توفي سنة ٦٨ هـ، انظر طبقات ابن سعد ٢٢/٦، وتهذيب الأسماء ٣٢٧/١ والإصابة ٤٦٨/٢ .

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣٧٨/٤، وعزاه الهيثمي في المجمع ٢١١/٦ إلى الطبراني قال: ورجاله رجال الصحيح غير عماد بن حبيش وهو ثقة .

(٣) اسم للصنم الأكبر الذي كانوا يعبدونه، وكانوا قد وضعوه على الكعبة، تفسير غريب الحديث ص ٢٤٩.

(٤) اسم صنم لهم كان بالطائف، تفسير غريب الحديث ص ١٦٦ .

(٥) أخرجه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد ١٢/٥ .

١ - حله لمشكلة قريش في وضع الحجر الأسود الذى تنافست فيه قبائلها وأرادت كل قبيلة أن تحوز شرف وضعه وتستأثر به على غيرها ، حتى وصل بها الحال إلى شفى الحرب، حيث قرّبت بنو عبد الدار جِفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة ، فسموا لعقة الدم ، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا، وأشار عليهم أبو أمية بن المغيرة وكان يومئذ أسن قريش كلها على أن يجعلوا بينهم فيما يختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد - يعنى باب بنى شيبة - فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا ، هذا محمد فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر فقال صلى الله عليه وسلم : هلمَّ إليَّ ثوبا ، فأُتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ، ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده صلى الله عليه وسلم ثم بنى عليه) (١).

وبذلك رفع ما بينهم من ذلك الخلاف الذى كاد يودى برجالهم ، والذى حارت فيه عقولهم وفيهم المشهورون بالعقل والحُنكة والتَّجربة والسؤدد ، ومع ذلك بارت فى هذه المشكلة العويصة،حتى خلصهم منها ذو الفطنة النبوية سيدنا محمد عليه صلوات الله وسلامه.

٢ - ومثل هذا الحل السريع الحاسم ، حله صلى الله عليه وسلم لمشكلة المهاجرين ﴿الَّذين أُخرجوا من دِيارهم وأموالِهم يَبتغون فَضلاً من اللهِ ورِضوانًا وينصُرون اللهَ ورسولَه..﴾ [سورة الحشر : ٨] فوفدوا إلى المدينة لايملكون شيئا ، فكانوا بذلك فى خطر المجاعة والغُربة ، مما اقتضى إيجاد حل سريع لهذه المشكلة ، وكان رجلها وواحدها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث آخى بين المهاجرين والأنصار على المواساة والحق والتوارث أخوين أخوين ، وكانوا تسعين رجلا من كل طائفة خمسة وأربعون ، وقيل مائة ، واستمروا على ذلك الحال إلى أن أنزل الله تعالى : ﴿وأولُوا الأرحامِ بعضُهم أولى

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس ٥٢/١، وتقدم ذكر هذه القصة في الإصلاح ص٩٦٧

ببعضٍ فى كتاب الله..﴾[سورة الأنفال : ٧٥] فنسخت حكم التوارث بين المهاجرين والأنصار(١) ، وبذلك حل النبي صلى الله عليه وسلم مشكلة من أكبر المشاكل استعصاء فى الحل.

٣ ـ كما حل فى نفس الوقت مشكلة أخرى هى بمثابة المشكلة الأولى أهمية ، وهى مشكلة التعايش فى المدينه بين طوائف مختلفة : الأوس والخزرج الذين كان بينهما من العداء بسبب ما كان يجرى بينهما من الحروب ما لايكاد ينسى ، والمهاجرون ، وجموع يهود التى كانت تسيطر على الحركة الاقتصادية فى المدينه باحتكارها التجارة فيها ، وتشكيلهم خطرا عظيما على الدولة الأسلامية الفتيَّة ، وهم أيضا منقسمون على أنفسهم فبعضهم يوالى الأوس ، والبعض الآخر يوالى الخزرج.

فكان لابد من إيجاد ثقة كاملة ، بين هذه الأطراف المختلفه للتعايش السلمي، والدفاع العام عن عدو مشترك يقدم عليهم من الخارج ، يريد المساس بأحد من هذه الطوائف فكان ذلك بما أجراه النبي صلى الله عليه وسلم من عهد موادعة بين هذه الطوائف يُرضى جميعها،ومما كان فى ذلك العهد مانصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم،إنهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على رَبعتهم (٢) يتعاقلون بينهم (٣) ، وهم يفدُون عاينهم (٤) بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عوف على رَبعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، كل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ... وأن لا

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢٤٢/٢ مع الروض، ووفاء الوفاء للسمهودي ٢٦٧/١، وعيون الأثر لابن سيد الناس ٢١/١ .

(٢) الربعة الحالة التي جاء الإسلام وهو عليها، عيون الأثر ١٩٩/١ .

(٣) أي: يدي بعضهم بعضا .

(٤) أي: أسيرهم .

يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة(١) ظُلم أو إثم أو عدوان ، أو افساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإنه له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ... وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ(٢) إلا نفسه وأهل بيته ... وأن بطانة يهود كأنفسهم ، وأنه لا يخرج منهم أحد إلا باإذن محمد صلى الله عليه وسلم .. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبِرَّ دون الأثم ، ...وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفه وأبرِّه ، وأنه لاتجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب...» (٣).

وبذلك قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على النَّعرات الجاهلية ، والدسائس اليهوديه ، وأوجب للجميع الود والأخاء والتراحم وإقامة العدل ، وما كان لذلك أن يتم لولا هذا العلاج الناجع ، من ذى الفطنة العظيمه والسياسة الحكيمه صلوات الله وسلامه عليه.

٤ ـ ولقد حاول المنافقون ذات مرة أن يفكِّكوا عُرى هذه الصحيفة العادلة والمعاهدة الكريمة، لكن كانت فطنة النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالمرصاد ، فأحبطت تلك

---

(١) أي: طلب دفعا على سبيل الظلم. النهاية ١١٧/٢ .

(٢) أي: لا يهلك يقال: وَتَغَوَتَغاً، وأوتغه غيره إذاأهلكه. انظر النهاية ١٤٩/٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢٤١/٢-٢٤٢، وعيون الأثر ٩٧/١ .

المحاولة الخبيثه وأجهضتها فى حينها ، وذلك أن رجلا من غِلمان المهاجرين كسَع(١) رجلا من غلمان الأنصار إثر اختلاف بينهما على الماء ، فقال الأنصاري: ياللأنصار ، وقال المهاجرى: ياللمهاجرين، فسمع ذلك رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم فقال : ما بال دعوى الجاهليه ؟ قالوا : يا رسول ا لله كَسَع رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال صلى ا لله عليه وسلم : دعوها فإنها مُنتِنَه ، فسمع بذلك عبدا لله بن أبيَّ رأس المنافقين ، فقال : فعلوها؟ أما وا لله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ النبي صلى ا لله عليه وسلم فقام عمر رضى ا لله عنه فقال : يا رسول ا لله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال النبي صلى ا لله عليه وسلم : "دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه" (٢) .

ثم مَتن(٣) رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياما.

وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس(٤) حيث خاض الناس فى حديث عبدا لله بن أبي ، وفى النزعة الجاهلية التى كادت تقضى على وحدة المجتمع المسلم لولاحكمة رسول ا لله صلى ا لله عليه وسلم،وسياسته الماهرة،وفطنته العظيمة،فى اطفاء لهيبها بسيره الميمون ذلك الذى أشغلهم به عن الخوض فى تلك الفتنة العمياء،التى أراد رأس النفاق أن يشعلها ، ليحقق غرضه فى زعزعة المجتمع المسلم وإطفاء نور ا لله ولكن ا لله رد كيده فى نحره بفضل ما آتى نبيَّه من الحكمة والفطنة والحلم ، فصلوات ربى وسلامه عليه،وكم كانت فطنته الكاملة تحل من مشاكل عديده فى أسرع وقت وأقصره ، فيتحقق بذلك له ولأمته ما يصبون إليه من نصر وسعادة وعز وسيادة ، ينوء

---

(١) الكسع: أن تضرب بيدك على شيء أو برجلك. تفسير غريب الحديث ص ٢٠٩ .

(٢) إلى هنا رواية البخاري في الصحيح، كتاب التفسير، تفسير سورة المنافقين ٦/١٩١ من حديث جابر بن عبدا لله.

(٣) أي: سار بهم يومه أجمع .

(٤) عيون الأثر لابن سيد الناس ٩٤/٢، والبداية والنهاية لابن كثير ١٥٧/٤-١٥٨ .

عنها الحصر فى مثل هذا المقام المقتضى للأيجاز والأتيان من كل بحر قطرة كالأنموذج لغيره والدليل على ما سواه.

ومن ذلك براهينه الساطعه القاطعة التى كان يقيمها على مجادليه ومناظريه من مشركين وأهل كتاب التى كانت تقطع دابرهم ، وتزهق باطلهم ، وتجعلهم يوقنون أنهم فى ضلالهم يعمهون ، ويعميهم عن اتباع الحق بعد سماع تلك القوارع البينة؛الكِبرُ والعناد والرسوخ فى الألحاد ، كما سيأتي بيانه فى مبحث دعوته إلى الله تعالى بالتى هى أحسن لكونه بذلك المبحث ألصق ، والله ولي التوفيق .

